السنوسية دين ودولة

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكري
B. A (Hons), M. A, PhD.
أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

دار الفكر العربي

١٩٤٨

الفهرس

صفحة

الوثائق

تصـــدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، أما بعد درج الكتاب من الأفرنج على اعتبار السنوسية إحدى الطرائق الصوفية فحسب ، وانبرى الطليان من سنوات مضت يعملون لتعزيز هـــذا الاعتقاد بكل الوسائل ، يحدوهم إلى ذلك الأمل فى صرف أذهان سواد الناس عن التفكير فى أصول السنوسية الحقة والتسليم بأنه ما دامت السنوسية طريقة من الطرق الصوفية فهى بعيدة كل البعد عن العناية بغير شئون الدين ، بل ولا يحق لها أن تعمل لمطالب الحياة والدنيا ؛ ووجه الخطر فى هذا الاعتقاد إذا رسخ فى الأذهان ظاهر واضح . ذلك بأنه يحرم السنوسية كنتيجة منطقية فى النهاية من التطلع إلى الحكم وتشييد صرح الدولة الإسلامية العتيدة ، تلك الدولة التى جاهد الليبيون سنوات طويلة من أجل إرساء قواعدها فى ليبيـا . ومع ذلك فقـد فات الطليان ومن حذا حذوهم أن الإسلام لا يعرف تفرقة بين شئون الدين والدنيا ، ولا يفصل بين العقيدة والدولة . وما كانت السنوسية فى أدوار تاريخها الحافل « طريقة » تقصر اهتمامها على شئون العبادة من غير نظر فى أحوال الشعوب التى أخذ (الاخوان) السنوسيون على عاتقهم إرشادها حتى تتحرر من قيود الجهالة وتنعم بهدى المعرفة . آية ذلك نجاح السنوسية فى إقامة نوع من الحكومة المصلحة الرشيدة على أسس عملية ظاهرة فى كل مكان أنشأوا فيه زواياهم فى القطر الليبى أو فى أفريقية الغربية خصوصاً ، وذلك منذ تأسيس (الطريقة) فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى والنصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى إلى الوقت الحاضر .

فقد ترك السنوسيون فى هذه الأقطار التى قامت بها دعوتهم أثراً واضحاً جعل الدولة العثمانية صاحبة الأمر فى طرابلس الغرب (ليبيا أو لوبيا) وقتذاك تعتمد الاعتماد كله على جهود السنوسيين فى حكومة البلاد الداخلية ، ثم مكافحة الاستعمار الأجنبى الذى بدأ يتغلغل فى أفريقية الغربية من أواسط القرن الماضى تقريباً ، وتدعمت العلاقات بين دولة الخلافة الإسلامية وبين السنوسية ، وانفرد السنوسيون بالحكم من الناحية العملية فى بلادهم واعترفت تركيا فى مناسبات عدة بتلك (الحكومة) التى جعل السنوسيون مركزها فى الجغبوب تارة وفى الكفرة تارة أخرى . وتوطدت أركان هذه الحكومة وقوى بأسها حتى أنه عندما أغار الطليان على ليبيا فى عام ١٩١١ حملت السنوسية راية الجهاد المقدس ضد العدو الغاصب نيف وثلاثين عاماً . وما يزال كثيرون على قيد الحياة يذكرون صيحة الجهاد التى أطلقها

الليبيون مدوية عند بدء الحرب الإيطالية الطرابلسية (أو الليبية) ، وقد تجاوبت أصداء هذه الصيحة المدوية فى أنحاء العالم العربى وفى مصر خصوصاً ، وأسهم عديدون من المصريين بنصيب وافر فى الجهاد إلى جنب الليبيين سواء أكان ذلك بالاشتراك مع المجاهدين فى مختلف ميادين الحرب كما فعل محمد صالح حرب (باشا) وكثيرون من الضباط والجند المصريين ، أم بجمع الاكتتابات وإرسال التبرعات والقيام بأعباء الخدمة الطبية كما فعل أصحاب الأريحية المصريون (وعلى رأسهم المغفور له الأمير عمر طوسن) وأطباء الهلال الأحمر المصرى ، أم بالاندماج فى صفوف المجاهدين وتبادل الرأى مع زعمائهم وقادتهم وبذل الجهد لجمع كلمة الطرابلسيين وتوجيههم فى جهادهم الوجهات النافعة كما فعل المجاهد العربى القديم عبد الرحمن عزام (باشا) .

وكانت قصة الجهاد فى ليبيا قصة رائعة حقاً ، سواء فى ميدان الحرب والنزال ، أو فى خضم السياسة ومعتركها . ذلك بأن هذه القصة تزخر بأمثلة البطولة الحية الصادقة فى أسمى مظاهرها ، تلك البطولة التى حمل لواءها الشهيد السيد عمر المختار الذى ظل يكافح الطليان أعواماً عدة حتى وقع فى أسرهم فأعدموه جزاء على إيمانه الراسخ ونضاله المرير من أجل تحرير الوطن . وبرزت مواهب الليبيين السياسية عندما حاول زعيمهم فى برقة السيد محمد إدريس أن ينتزع من الطليان انتزاعاً اعترافاً صريحاً بحق إنشاء الحكومة الوطنية فى ليبيا ، وحاول قادة طرابلس إقامة صرح الجمهورية فى قطر رضع أبناؤه لبان الحرية ، وما كانوا يرضون عن هذه الحرية العزيزة عليهم بديلا من الحكم الأجنبى الغاشم ، وسطر السيد بشير السعداوى (بك) أحد أفذاذ الليبيين وأقدر رجالهم بيعة أهل طرابلس بالإمارة للسيد محمد إدريس يعقدون لواءها للسنوسية على القطر الليبى بأجمعه صوناً لوحدة الوطن السياسية والاقتصادية وتعزيزاً لنهضة البلاد الاجتماعية والعمرانية . وكان فى سبيل تحرير ليبيا من قبضة المستعمر الغاصب أن انضم الليبيون بزعامة أميرهم السيد محمد إدريس السنوسى إلى جانب بريطانيا العظمى والأمم الديموقراطية ضد إيطاليا وألمانيا فى الحرب العالمية الأخيرة منذ أغسطس سنة ١٩٤٠ إلى وقت انتهائها .

أما جهاد الليبيين عموماً والسنوسيين خصوصاً فى تلك الحرب ، فقد كان بلا مراء صفحة مجيدة فى تاريخ الشعوب الحية الفتية . وإنى لأذكر كما يذكر القارىء الكريم أيام العلمين العصيبة ، وأعرف كما يعرف كثيرون أن السنوسيين كانوا يحفظون مؤخرة جيوش ويفل وأوكنلك ومونتجمرى إبان زحف روميل المشهور على الحدود المصرية ثم ارتداده منها ، وفى أثناء معركة العلمين الحاسمة . وقد كانت هذه الحملة التاريخية (حملة الصحراء)

كافية لأن تجعلنى أكثر اشتياقاً لمعرفة كل ما يمكن معرفته عن هؤلاء الليبيين الأمجاد الذين لم يترددوا لحظة واحدة فى الوقوف إلى جانب دولة بقيت وحدها تكافح من أجل الحياة ذاتها ضد عدو منتصر دانت أوربا لسيطرته وبات يطمع فى بسط سلطانه على العالم أجمع .

وكان فى أواخر عام ١٩٤٣ بعد أن اندحرت جيوش روميل نهائيا أن هيأت لى ظروف عملى كمفتش للتعليم الثانوى بوزارة المعارف العمومية أن أقابل رجلين فاضلين من أبناء ليبيا المجاهدين هما الأستاذ على أسعد الجربى وكيل إدارة التعليم فى برقة وقتئذ والأستاذ الدكتور على نور الدين العنيزى وكان يملأ فى ذلك الحين منصب مستشار حضرة صاحب السمو السيد محمد ادريس السنوسى ؛ إذ اقتضى خروج الطليان من ليبيا أن يعيد الليبيون النظر فى أحوال بلادهم تمهيداً لوضع أسس النهضة الجديدة ، واتجهت عنايتهم إلى التعليم فأخذوا يدرسون نظمه ووسائل نشره وتعميمه فى أوطانهم ، وحضر الأستاذ على أسعد الجربى إلى مصر حتى يدرس برامج التعليم بهذه البلاد ويزور المدارس المصرية ، ورحبت وزارة المعارف العمومية بالأستاذ وزميله الدكتور على نور الدين العنيزى ترحيباً كبيراً ، وكان من نصيبى أن صحبت الأستاذين عند زيارتهما لطائفة من معاهد التعليم بالقاهرة ، وتناول الحديث شئونا عدة ، كان من أهمها إلى جانب التعليم ، ذكر نضال الليبيين المجيد فى سبيل الخلاص من ظلم الطليان ، والتمتع بالاستقلال والحرية . وقد راعنى ما لمسته فى الأستاذين من روح وطنية عالية وإيمان صادق بالقومية العربية وما ينتظر العالم العربى قاطبة من مستقبل زاهر إن شاء الله بفضل تآزر شعوبه الفتية الناهضة والتى يربط بينها جميعا اتحاد الغايات النبيلة واستمساكها بمثل الإنسانية العالية . ثم تعددت مقابلاتنا بعد ذلك وتوطدت أواصر الصداقة بيننا . وقد زارنى الأستاذان فى آخر ديسمبر ١٩٤٣ ، وحضر هذا الاجتماع صديقى الراحل الكريم الأستاذ عبد الله حسن رحمه الله رحمة واسعة ، ودار الحديث حول نضال الليبيين ، وتاريخ برقة وطرابلس ، وقد حدث فى أثناء هذا الاجتماع أن اطلعت الأستاذين على كتاب كنت أقرأه وقتذاك ، صاحبه الرحالة الدانمركى كنود هلبيو يروى فيه قصة أسفاره فى برقة خصوصا ويصف مشاهداته بها ، ولشد ما كانت دهشتى عندما عرفت أن ذلك الليبى العربى الذى ذكر الرحالة الدانمركى أنه استطاع بفضل جهوده أن يقف على حقيقة الأحوال فى برقة وأن يجتمع بنخبة من أبناء البلاد فى الخفاء ، كان الأستاذ على أسعد الجربى نفسه وهذا على الرغم مما كان يتعرض له الأستاذ من انتقام الطليان الشديد لو أن هؤلاء علموا بنشاطه . وما أن تبين الدكتور العنيزى رغبتى الصادقة فى دراسة تاريخ القطر الشقيق دراسة جدية وافية حتى أقبل يمدنى بكل ما أحتاجه لإتمام هذه الدراسة من كتب قد يصعب الوصول اليها فى ظروف الحرب القائمة وقتذاك . ولما كان أكثر هذه باللغة الإيطالية

التي يجيدها حضرته فقد تفضل بمساعدتي في ترجمتها شهورا طويلة ، ثم لم يقنع الدكتور بذلك بل إنه عمل على إتاحة الفرصة لي حتى أتمكن من استكمال نواحي هذه الدراسة ، وذلك بمقابلة زعماء الليبيين وقادتهم ، وأصحاب الرأي فيهم ممن اشتركوا في الجهاد من أيام الحرب الإيطالية الليبية في عام ١٩١١ ، ولا يزال أكثر حضراتهم ينقلون بالتواتر عن آبائهم أو أجدادهم الكرام ماوقع من حوادث هامة إبان نضال السيد محمد المهدي بن السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ضد الاستعمار الفرنسي في أفريقية الغربية خصوصا ، ثم ما كان يقوم من علاقات بين مؤسس السنوسية والسيد محمد المهدي والسيد احمد الشريف من جانب وبين دار الخلافة والسلطان العثماني والدول الأوربية من جانب آخر . وواجب علي أن أذكر في هذا المقام أنه قد تبين لي عند « فحص » هذه « الروايات » فحصا علميا دقيقا أنها جميعها صحيحة حتى في أدق تفاصيلها ، وكذلك كان شأن مايذكره حضراتهم من حوادث وقعت بعد ذلك في ليبيا وأسهم حضراتهم فيها بنصيب وافر أو نقلوه عن أفراد حضروا هذه الوقائع بأنفسهم . ولذلك فإنه يطيب لي أن أذكر شاكرا ماتفضل علي به من معلومات قيمة حضرات السيد محمد الرضا السنوسي ، والسيد محمد صفي الدين ، والسيد محمد الصديق من البيت السنوسي الكريم ، وحضرات السادة يوسف بك لنقي ، وعمر فائق شنيب بك والشيخ محمد الأخضر العيساوي وابراهيم بك الشلحي .

وفضلا عن ذلك ، فقد استطعت في أثناء مقابلاتي الكثيرة مع حضرة صاحب السمو الأمير السيد محمد ادريس ، وحضرة صاحب السعادة بشير بك السعداوي أن أجمع قدرا من الحقائق والمعلومات أنار لي سبيل البحث والدراسة إنارة تامة سوف يلمس القارىء الكريم آثارها ولا ريب عند قراءة هذا التاريخ .

ولما كان قد اشترك كثيرون من المصريين في حوادث الجهاد من وقت أن غزا الطليان طرابلس الغرب ، فقد حرصت على تدوين مذكرات وافية عن الزعيم العربي والمجاهد «الليبي» المعروف حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا ، ويحتل معاليه في قلوب الليبيين مكانا رفيعا بفضل جهاده المستمر في سبيل نجاح « القضية الليبية » . وإني لأذكر كذلك بكل تقدير وثناء مالقيته من اهتمام بالغ بالحقيقة والتاريخ من جانب مجاهد مصري آخر لازم السيد احمد الشريف من وقت الحملة على حدود مصر الغربية إلى وقت مغادرة سيادته طرابلس وذهابه إلى استانبول ، حضرة صاحب المعالي محمد صالح حرب باشا . وقد تفضل المغفور له الشيخ المحترم عبد الستار بك الباسل رحمه الله فأملى علي قبل وفاته مذكراته عن الحرب الإيطالية الليبية وحملة سيوه خصوصا .

على أنه لاينبغي أن يفوتني أن أذكر كذلك مالقيته من معاونة الأصدقاء والاخوان الأوفياء عند إعداد هذا الكتاب للطبع ، فأذكر بالشكر والثناء جهود الأستاذ عبد المقصود العنانى ، والأستاذ سيد محمد خليل ، والأستاذ احمد فريد على مصطفى ، والأستاذ محمد خليل السيد مترجم تركى بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك ، فلحضراتهم جميعا شكرى وتقديرى .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٤٧ .

المؤلف

الفصل الأول

فاتحـــــة القول

إحياء العالم الاسلامى

بحث كثيرون من الكتاب والمفكرين فى أواخر القرن الماضى على وجه الخصوص فى أسباب الضعف الذى ألم بالعالم الإسلامى . ودعاهم هذا البحث إلى التنقيب فى حوادث التاريخ الإسلامى علهم يظفرون بما يشخصون به أمراض هذا المجتمع الإنسانى الكبير من ناحية ، ورجاء أن يستطيعوا وصف الدواء الناجع لهذه الأمراض من ناحية أخرى . وكان مفكرو الشرق أسبق من غيرهم إلى تعرف مواطن الداء ووصف الدواء تحدوهم الغيرة إلى ذلك ، وعلى الخصوص بعد ما شاهدوه من طغيان الغرب على أقطاره ، ينتزعها من أهليها ويفرض عليها سيادته الأجنبية ، ويوغل فى استنزاف دمائها بدعوى العمل على إصلاحها ونشر الحضارة فى أرجائها . بل أنه لم يلبث أن ظهر بين الغربيين أنفسهم طوائف صارت تهتم بشئون العالم الإسلامى ، فكان يدفع بعض هؤلاء إلى ذلك سأمهم من هذا العدوان المذموم وباتوا يعقدون الأمل على يقظة العالم الإسلامى حتى يرد عن نفسه كيد المعتدين ، بينما ظلت جماعة أخرى لا تسأم من رؤية هذا العدوان ، بل كانت تبغى المزيد منه ، فظلت تكشف عن مواطن الضعف ، وتدل إلى مكامن القوة فى جوانب هذا العالم حتى يسترشد بذلك أصحاب الغزو والاستعمار . وقد اتفقت كلمة الفريقين على أن العالم الإسلامى منذ نشأته حتى نهاية المائة الماضية وبداية القرن الحاضر مر فى أدوار ظاهرة بين نهوض وتعثر حتى جاءت نهضته الأخيرة المباركة بين عامى ١٧٥٠ ، ١٩٠١ .

وهذه النهضة تستند فى اعتبارهم إلى دعامات قام عليها صرح العالم الإسلامى فى الحقيقة من اللحظة الأولى ، أهمها التفاف هذا العالم حول دستور واحد هو القرآن الكريم ، وما فرضته الشريعة السمحة الكريمة على كل مسلم قادر على الحج إلى بيت الله الحرام . ثم تأتى دعامة الخلافة ، وكان لها شأن تاريخى عظيم فى أوائل عهدها ، ثم تقلبت عليها الأيام فترة حتى جاء سلاطين الترك فاتخذوا لقب الخليفة ، واعترف السنيون لهم بها . ومع أن الخلافة فى عهد العثمانيين لم تكن إلا ملكا عضوضا ، وكان بين خلفائهم من اتصف بالظلم والغواية ، أو

اشتهر بالعدل والحكمة ، وكانت خلافتهم تغاير فى شروطها الصحيحة خلافة الراشدين الأولى ، فقد ظل العالم الإسلامى فى دور هــذه النهضة يعترف بخلافة آل عثمان خوفا من انتشار الفتن الداخلية وتعرض العالم الإسلامى للتفكك والإنهيار بسبب ذلك ، ومن جراء مايوجهه إليه الأعداء الطامعون فى ملك هذا العالم من ضربات قاتلة . ولذلك فقد ظلت وحدة العالم الإسلامى تستند إلى الحج والخلافة فى شد أزرها وتقوية دعائمها .

وكان الحج ولا يزال بمثابة (المؤتمر) السنوى العام تعقده وفود الحجاج الآتيين من مشارق الأرض ومغاربها ، يملأ صدورهم الحماس لدينهم ، ويلبس العارفون فى أثنائه وعند أعمال الفكر وتداول الرأى مآخذ ضعف المسلمين ، وينظرون فى وسائل إحياء الملة والذود عن بيضة الإسلام . وفى القرن الماضى كان بيت الله الحرام قبلة كل قاصد علم يبغى التفقه فى الدين والانقطاع للعبادة . وكانت أرض الحرمين الشريفين موطن التفكير الدينى الخالص ومنبت كل دعوة وإرشاد . يدلك على هذا أن كبار رجال الدعوة والإرشاد في القرن التاسع عشر الميلادى زاروا هذه البلاد المقدسة للحج أو لطلب العلم أو للإقامة . وإنا نذكر من هؤلاء على وجه الخصوص ثلاثة . فمن المعروف أن صاحب دعوة الوهابيين (محمد بن عبد الوهاب) أقام بالمدينة المنورة فترة قبل أن ينشر دعوته فى الدرعية . وكذلك فعل حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى ، حيث قصد الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وظل بها نحو سنة وهو يتنقل من بلد إلى بلد حتى وافى مكة المكرمة (١٢٧٣ هـ) . والذى نريد أن نوجه اليه النظر مافعله أيضا العارف بالله الشيخ والسيد محمد بن على السنوسى الكبير . فقد قصد سيدى محمد بن على السنوسى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ولطلب العلم ، وأقام بها مدة وأنشأ بها أولى زواياه . (١٢٥٧ هـ ، ١٨٤١ م) .

وهؤلاء العظماء الثلاثة هم من غير شك أكبر دعاة الإسلام لإحياء الملة ، اتفق تشخيصهم للمرض الذى ألم بجثمان العالم الإسلامى ، واختلفوا فى طرائق معالجة هذا المرض وإحياء هذا الجثمان . وأفلح الوهابى فى الشرق فقامت دولة فتية على أساس تعاليمه ، ونجح السنوسى فى الغرب فكانت دعوته من وسائل إنتشار الإسلام فى أفريقية الغربية ، ثم اقتضى نشر هذه الدعوة الدينية إقامة صرح الامارة الليبية . وأما الأفغانى فقد نهج سبيلا مغايرا لما سلكه الحكيمان الأولان ، فأخذ على عاتقه نشر الدعوة لإحياء الخلافة فى العالم العثمانى وصار يدعو الشيعة لقبولها ، وكان من رأيه أن الخلافة القوية فى مقدورها أن ترد عدوان المعتدين وتحمى أقطار المسلمين فى المشارق والمغارب ، وفاته أن الجامعة الإسلامية ، وإن كانت تعتد بالخلافة العثمانية من حيث أنها سياج يمنع اعتداء المعتدين على أقطارها ، لاترضى شعوبها بالحكومة الاستبدادية

على النمط الحميدى — نسبة إلى السلطان عبد الحميد — الذى خدمه وآزره السيد الأفغانى ، كما لا ترضى بأن تفنى شخصيتها — ولكل من هذه الشعوب مزاجه وطبعه الخاص به — فى شخصية دولة الخلافة العثمانية . ومع هذا فقد نجح الأفغانى فى استنهاض الهمم وتنوير الأذهان وإحياء الشعور الإسلامى فى بلاد الشرق : فى الافغان والهند وفارس والشام ومصر . وعندما احتجزه السلطان العثمانى فى دار الخلافة ، وقصر السيد نشاطه على الدعوة لخلافة آل عثمان فى شخص عبد الحميد الثانى ، حمل مصباح الهداية فى أقطار الشرق القريب تلميذه ومريده السيد الإمام الشيخ محمد عبده .

ومن البداية لايجد الكاتب مناصا من ذكر طرف من مسلك هؤلاء الدعاة الذين أرادوا بالإسلام وأهله خيرا ، والذين تقوم على أكتافهم نهضة الإسلام ويقظته فى الدور الذى نحن بصدده — نحو الخلافة من حيث أنها دين ودولة ، لما فى هذا من فائدة لمعرفة شىء من تاريخ السنوسية ذاتها من بدء نشاطها وظهورها فى وجود الخلافة العثمانيـــة إلى وقت زوال هذه الخلافة . ولنبدأ بالوهابى ، فمن المعروف أن شيخ الوهابية كان مجددا للإسلام فى بلاد نجد وذلك بإرجاع أهله عن الشرك والبدع التى فشت فيهم إلى التوحيد والسنة ، ومن الناحية السياسية حارب الوهابيون الخلافة العثمانية ، فجروا على أنفسهم عداء القوة العثمانية ، زد على هذا أن قسوتهم فى محاربة البدع وما اليها جعل من المتعذر أن تستقيم لهم الأمور سنين طويلة حتى تم لهم الأمر فى عصرنا هذا بحد السيف وغلب السياسة . على خلاف هذا كان موقف السنوسية من الخلافة ومن الإصلاح الدينى . فالسيد محمد بن على السنوسى ما كان يريد غير العبادة وإقتفاء أثر السلف الصالح ودعوة اخوانه ومريديه إلى الدين القويم الصحيح وإرشاد عباد الله لما فيه سعادتهم فى الدارين ، ولا ينشر دعوته بحد السيف ، بل طريقـــه إلى ذلك التعليم والهداية والإرشاد . ثم لم يكن من مقاصده مناوءة الخلافة أو التعرض لها لجملة أسباب ، أولها : أنه يريد هداية العالم الإسلامى أجمع ، فلم تكن دولة الخلافة العثمانية إلا قطرا من أقطار هذا العالم الواسع الذى يبغى إصلاحه ، ولذلك لم تشغل الخلافة ذاتها كنظام ودولة حيزا كبيرا من تفكيره . أضف إلى هذا أن السيد ما كان يرى ضرا فى بقائها وهى وقتئذ رباط العالم الإسلامى ودعامة الجامعة الإسلامية فى نظر المفكرين ، ولو أن مشروع هذه الجامعة فى ذلك الحين كان مبهما ، لايعدو أن يكون مشروع عاطفة وولاء دينى وحسب . زد على ذلك أن السلطنة العثمانية ، وهى التى ضمت اليها من أزمنة طويلة أرض برقة وطرابلس والجزائر وتونس كانت قد تضعضعت قوتها . وفى برقة التى يهم السنوسيين أمرها على وجه الخصوص، ما كان السلطان العثمانى يتعدى السواحل ، بينما بقيت الدواخل فى أيدى شيوخ القبائل ورؤسائها ،

كما أن الأمم الإسلامية كانت ترتجى السلامة فى بقائها فى تلك الآونة ضمن أملاك الدولة العثمانية — دولة الخلافة — خشية الوقوع فى براثن المستعمر الأوربى الذى أغار على الجزائر فى وقته وطفق يبسط سطوته بوسائل التبشير وما إليها حتى تغلغل نفوذه تدريجياً فى الشواطىء ثم فى داخل أفريقية الغربية ، فى صحرائها الكبرى ، حتى تخوم السودان الإسلامى . فإذا ذكرنا أن الدعوة السنوسية فى جوهرها دعوة إرشاد وعبادة ، تقصد إلى معرفة الدين الصحيح ، وتعمل على نشر الفضيلة وتحض على الابتعاد عن الرذيلة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتبنى قوتها الروحية على تنظيم الزوايا للتعليم والتعلم ، ثم اقتضى نجاح دعوتها شد أزر دعاتها فى إمارة كان لا مندوحة من إقامة صرحها حتى تتولى إلى جانب نشر الدعوة المنظمة الدفاع عن كيان الإسلام فى مجاهل القارة الأفريقية . نقول إذا ذكرنا هذا كله ، لتبين لنا أن السنوسية كانت تنضوى تحت لواء الخلافة ما دامت هذه الخلافة قائمة . وقد ظل أساطين الدعوة وأمراء السنوسية آمنين على عهدهم حتى ذهبت الخلافة .

ووجه الأهمية فيما ذكرنا أن السنوسية وهى كما نعرف دعامة من دعائم اليقظة الإسلامية كانت دعوة دينية فى جوهرها . ومع هــــذا فهى تقترب اقتراباً كبيراً من حيث الرغبة فى تعميم الإصلاح وإرشاد العالم الإسلامى ، من طبقة أو جماعة المصلحين المسلمين الذين تزعمهم جمال الدين الأفغانى ثم الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم السيد أحمد خان (١٨١٧ — ١٨٩٨) منشىء كلية (عليكرة) المشهورة ، المدرســـة الإسلامية العظيمة فى الهند . ويتفق هؤلاء المصلحون فى أنهم بنوا دعوتهم إلى إيقاظ العالم الإسلامى على ضرورة نشر التعليم الدينى الصحيح ونبذ التعصب ، والاستفادة من تفكير الغرب بالقدر الذى ينفع فى شحذ ذهن الشرق وينهض بقومه . ولعل حركة الإصلاح الاجتماعى والدينى الكبيرة التى قام بها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هى أقرب الحركات فى معالمها الواسعة وأشدها شبهاً بالدعوة السنوسية . فإن الإصلاح الذى نشده الإمام كان يقوم على ضرورة الرجوع إلى السلف وتطهير الدين الحنيف مما دخل عليه من بدع وأكاذيب ، وتعميم التعليم الدينى والاكثار من الدعوة والارشاد ، وطريقة التبليغ عنده المدارس ودور العلم . وبالمثل عملت السنوسية على نشر الدين الصحيح ورفع لوائه عاليا وتعميم التعليم الدينى . ولا يزال طريق السنوسيين فى ذلك إنشاء الزوايا وهى دور عبادة وتعليم ومراكز حياة واجتماع ومقر سلام ونظام فى أقطار السنوسية بأجمعها .

ومع أن نهضة العالم الاسلامى فى هذه الفترة (١٧٥٠ — ١٩٠١) كانت تقوم على ركنين أساسيين هما الحج والخلافة ، فقد وجد ركن ثالث لهذه النهضة — أو أقل اليقظة

الإسلامية — نجم عن انتعاش الطريقتين القديمتين : القادرية والشاذلية ، ثم قيام الطريقتين الجديدتين : التيجانية والسنوسية . فالقادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى عظم أتباعها فى المغرب وفى أفريقية الغربية وقاموا بنشر رسالة الإسلام من السنغال إلى الغرب من مصب النيجر ، يفتحون (الكتاتيب) أو المكاتب الصغيرة فى زوايا الطريقة وفى جميع القرى ويلقنون بها صغار الزنوج الدين الإسلامى ثم يرسلون النجباء منهم إلى مدارس طرابلس والقيروان وإلى الجامع الأزهر بمصر ، حتى إذا أتموا دراستهم نشروا الدعوة إلى الإسلام بين أقوامهم . وأما الشاذلية ، فكانت من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب ، ومن أهم أشياخها سيدى العربى الدرقاوى . وكان لهذه الطريقة جهاد معروف فى مقاومة الفتح الفرنسى فى المغرب . والتيجانية طريقة جديدة أسسها أحمد بن محمد التيجانى المتوفى فى فاس عام ١٧٨٢ ، وقد كثر أتباعها وعظم شأنهم حتى صاروا من أشد أنصار الإسلام وفى أواسط القرن التالى كانوا سادة السودان الغربى من تمبكتو إلى شواطىء الأطلس مدة نيف وأربعين سنة . والسنوسية هى الطريقة التى أسسها السيد محمد بن على السنوسى بعد أن تبحر فى أصول الدين الحنيف ودرس الطرائق على شيوخها وعظمت همته وسمت أغراضه عندما صار يحزنه ما كان يراه من سوء حالة المسلمين وما هم عليه من تأخر ، فعقد النية على أن يخصص وقته وحياته لهدايتهم وإرشادهم . فأشرق من هذا العزم الصحيح منشأ السنوسية التى اختلفت عن الطرائق السابقة فى أن اتباعها ما كانوا ينشدون العزلة فقط لكى يتفرغوا للعبادة وذكر الله وإحياء الدين والملة بالدعوة والإرشاد ، بل أنهم كانوا يحرصون على العناية بأمر دنياهم أيضا على اعتبار أن الحياة الدنيا الرشيدة ، وفق تعاليم القرآن الكريم وهديه وإرشاد السنة واقتفاء أثر السلف الصالح ، من شأنها التمهيد لحياة باقية سعيدة ، ولذلك فقد عنى السنوسيون لصالح إحياء العالم الاسلامى وعلى الخصوص فى المجاهل الأفريقية الغربية بإنشاء الامارة وتدعيم أركانها إلى جانب نشر الدعوة إلى الدين الصحيح على أساس العمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور .

وفى الفصول التالية سوف نحاول بإذن الله بيان أثر السنوسية كدعوة وإمارة فى إحياء ويقظة العالم الاسلامى فى أفريقية الشمالية والغربية ، وما يرجى من نشر ألوية الحضارة والعمران فى الديار التى نمت وترعرعت فيها : وهى الأقاليم التى تزعم فيها أمراء السنوسية وشيوخهم حركة المقاومة والكفاح العظيم ضد الاستعمار الأجنبى فى برقة — طرابلس .

الفصل الثاني

الدعوة السنوسية

وصاحب هذه الدعوة السنوسية السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى ينحدر من أسرة عريقة . فهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية ، فكنوا بفضل هذا الفتح من انتشار الإسلام وتوطيد أركانه فى الغرب . والمعروف أن أول خلفاء الأدارسة هو أدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل بن السيد الحسن المثنى ابن الإمام السيد الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب . فكأن نسب صاحب الدعوة السنوسية يتصل بأحد الخلفاء الذين تولوا الخلافة الإسلامية الكبرى وهو السيد حسن السبط ، كما أنه من أحفاد الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين وأحد الخلفاء الراشدين وزوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونشأ صاحب الدعوة فى بيت عالم ودين وفضل هو بيت آل سيدى عبد الله بن الخطابى ببلدة مستغانم بالجزائر حيث ولد فى ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢ (٢٢ ديسمبر ١٧٨٧) على ضفتى وادى شلف وميناً من ضواحيها فى محلة يقال لها (الواسطة) . وكان أبناء البيت السنوسى كلهم منتسبين إلى العلم . فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا جميعاً علماء . وكانت السيدة فاطمة من فضليات أهل زمانها ، متبحرة فى العلوم منقطعة للتدريس والوعظ ، يحضر دروسها ومواعيظها الرجال . وكان والده السيد على يجمع إلى العلم والصلاح والتقوى الفروسية والرماية إلى الدرجة القصوى . ولكن السيد على لم يلبث أن توفى وهو فى شرخ الشباب بعد عامين فقط من ازدياد ولده ، فتولت السيدة فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة .

ومن أول الأمر أظهر السيد محمد بن على شغفاً عظيما بتحصيل العلوم . فأخذ يتطلب العلوم من ذويها بالحضرة المستغانمية والحضرة المازونية وغيرهما من بلاد الواسطة ، فقرأ على السيد محمد السنوسى القرآن الكريم واتقنه وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والتصوف . وكان من العلماء الأجلاء الذين درس عليهم السيد محمد بن على فى بلدة مستغانم الشيخ محى الدين ابن شهله ، والشيخ عبد الحليم ، والشيخ محمد بن عبد القادر بن أبى زوينه ، والسيد عبد القادر ابن عمور . وسيدى محمد بن الكندوز (القندوز) . وكان سيدى محمد بن الكندوز قد

نال شهرة كبيرة بسبب اعتداده برأيه وابتعاده عن طلب الزلفى لدى الحكام ، فأثار مسلكه هذا حفيظة حاكم الجزائر فى ذلك الوقت (حسن بك) وكان يبغض (الاخوان) ويجد فى السيد محمد بن الكندوز خطراً من واجبه التخلص منه فقبض عليه وأحضره إلى (مازونه) وأعدمه فى عام ١٨٢٩ . ومما يذكر أن سيدى ابن الكندوز عندما بلغه عزم الحاكم الغدر به ، لم يشأ الخروج والنجاة بنفسه ، بل قال : « سوف ينزل السوء بمازونه من جراء أخطائه (أى أخطاء حسن بك) وسوف ينزل بالأتراك السوء بسبب ابن الكندوز » . وتحققت نبوءة سيدى ابن الكندوز عندما أغار الفرنسيون على الجزائر بعد عام واحد وفقدها الأتراك . وكان لهذا الحادث وقع عظيم فى نفس السيد محمد بن على السنوسى . فظل من ذلك الحين شديد الحيطة والحذر من العثمانيين ولا يستطيع أن يركن إليهم فى شىء . وفى (مازونه) درس السيد على الشيخ أبى طالب المازونى ، وسيدى محمد بن على الشارف المازونى وفى (المعسكره) كان أستاذه الشيخ أبو راس المعسكرى (١٧٥١ — ١٨٢٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن السيد فى حداثته كان يميل إلى الإنزواء والانفراد يمضى وقته فى التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام . وكان وهو فى هذه السن شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلاميه وتوحيد الصفوف فى العالم الإسلامى للنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية . حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالساً فوق كثيب من الرمال تبدو عليه دلائل التفكير العميق ، فلما استوضحوه السبب فى ذلك ، كان جوابه أنه إنما يفكر فى حال العالم الاسلامى الذى لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعى له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه . فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماء الدين الموجودين فى كل مكان ، فان العالم الاسلامى لايزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقى يكون هدفه سوق العالم الاسلامى أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد . والسبب فى هذا أن انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم قد فرقتهم شيعاً وجماعات فأصبحوا لايعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يهملون بأوامر الدين الحنيف ، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة . زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم فى حق الملة الاسلامية ؛ إذ أن الشعوب المجاورة فى السودان والصحراء من أفريقية الغربية — لاتزال تعبد الأوثان ، ومع هذا فانهم بدلا من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم ، مازالوا يفضلون القبوع « فى كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لاهم لهم إلا راحة أجسامهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجبات مراكزهم ، لاضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء

المساكين ، الوثنيين . ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم . أن الاسلام مقلوب على أمره فى كل محل ، « وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدى المسلمين فى كل وقت وبسرعة البرق ، فالاسلام فى حالة التدهور المخيف » ، ثم ختم السيد كلامه بقوله : « هذا ما أفكر فيه ! » فلما سألوه وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافى ما ذكرت ، أجاب « سأجتهد ، سأجتهد » .

وهذا الحادث يدل على ما انطوى عليه روح السيد الكبير من علو الهمة . فهو من عهد تلقنه العلم فى حداثته وصباه ما كان يقل عن كاملى الرجولة والكهول حصافة عقل وبعد نظر وإعمال فكر وتدبر ، لم تفته ملاحظة ما يجرى حوله ، يجمع أخبار الأقطار المجاورة ولا يبغى من ذلك سوى الوقوف على حال المسلمين .

وواضح أنه كان يؤلمه وهو فى هذه السن ما كان عليه المسلمون من ضعف وتخاذل . وحق علينا ونحن لا نزال فى هذا الطور من تكوين السيد أن نذكر أمرين ظاهرين : أولهما ، أنه قد فطن إلى حقيقة حال العالم الإسلامى وعرف جيد المعرفة أن هذا العام مريض ، بل « فى حال التدهور المخيف » عند ما كانت تذهب من أيدى المسلمين — كما قال — المقاطعات والخطط المعمورة بسرعة البرق ! وثانيهما — أنه فطن إلى سبب هذا التدهور المخيف كما فهمه وأدركه، وهذا لم يكن إلا نتيجة خمول العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن إجهاد الجسد والعقل فى نشر كلمة الله العلى العظيم ، ورفع ألوية السنة والشريعة عالية ، وإحياء نور الاسلام وسط دياجير الوثنية . وكان لوصول السيد إلى هذه النتيجة عند بحثه علة تدهور الإسلام نتائج خطيرة فى تفسير أسباب الضعف الذى لحق بالعالم الشرقى الإسلامى عموما أمام عالم الغرب المستبد الغشوم ؛ ثم فى تعيين الأهداف والأغراض التى عمل السيد فى سبيل تحقيقها من حينه ، ثم ضمنها دعوته الرشيدة إلى الإصلاح الدينى واليقظة الإسلامية لنصرة الدين وإنعاش الإسلام فى أرجاء ما كان يريد أن يصبح عالما إسلاميا موحداً ومتحداً قويا . وكان لذلك كله آثار بعيدة فى حياته وتفكيره .

وأما ما نجم مباشرة عن تفكير السيد فى حال هذا العالم الإسلامى فكان شدة انكبابه على تحصيل العلم بنهم وشغف عظيمين ، حتى إنه لم يكتف بما حصله فى بلده ، بل قصد إلى محروسة (فاس) محط رحال العلماء « والوقت إذ ذاك وقت والعلماء علماء » ، ومكث بها سبع سنوات تقريبا (١٨٢٢ — ١٨٢٩) ، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء (فاس) مثل سيدى الشيخ حموده بن الحاج ، وسيدى حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج وسيدى الطيب الكيرانى (ابن كيران) وسيدى محمد بن عامر المعوانى وسيدى أبى بكر الأدريسى والشيخ ادريس بن

زيان العراقى والشيخ محمد بن منصور والشيخ محمد بن عمر الزروالى والشيخ محمد البازغى وسيدى العربى بن أحمد الدرقاوى وغيرهم . ومما تجدر ملاحظته أن السيد الدرقاوى كان من أشياخ الطريقة الشاذلية . فان السيد محمد بن على السنوسى ما كان يدع فرصة تفوت من غير التبحر فى معرفة الطرق إلى جانب التفقه فى علوم الدين وغيرها كما سيأتى فى أدوار تكوينه المقبلة . وهكذا فان السيد لم يلبث طويلا حتى أجازه فى العلوم التى درسها من كان أهلا لذلك ، فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة (فاس) .

وفى أثناء إقامته بفاس ظهر فضل السيد وأقبل عليه تلاميذه ونال شهرة علمية عظيمة . ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته فى أن يرى العدل باسطا جناحيه على أهل السلطنة (مراكش) وعلى شعوب الإسلام طرآ ، هما كل ما يريد فى حياته ، فقد أكثر من الموعظة الحسنة فى أثناء دروسه ، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن بمقر السلطنة فى فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى . ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها . بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان (مولاى سليمان) إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها ، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة على غرار ما يحدث من أزمنة بعيدة حيث كانت تبتدىء الحكومات فى هذه الديار أولا بالمشيخة والإرشاد ثم تنتهى بالحكم والسلطان . وعلى ذلك شددت الحكومة فى مراقبة السيد ، فوجد أن لا فائدة ترجى من بقائه بفاس . وقرر الارتحال عنها فى عام ١٢٤٥هـ (أواخر ١٨٢٩) . ولكنه لم يعد إلى مستغانم بلده ، لأنه إنما كان يريد الاستمرار فى بث دعوته إلى الدين القويم ونشر ألوية الهداية والإرشاد بين الشعوب المجاورة ، أضف إلى هذا أنه كان يريد دراسة جميع الطرائق المعروفة وزيارة زواياها الشهيرة ، ومقابلة (مقدمى) هذه الزوايا وسؤالهم . وقد عنى السيد فى أثناء إقامته بفاس بدراسة الطرائق القادرية ، والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية وغيرها . وعلى ذلك فقد سافر السيد سفرا طويلا ، وصار يتنقل من مكان إلى آخر . وعمد فى أثناء رحلته هذه إلى زيارة الزوايا والاجتماع بالإخوان ومعرفة مختلف الطرائق ، مثل الزيانية ، والمحمدية ، حتى بلغ (عين مهدى) فدرس بها الطريقة التيجانية ، ثم قصد (لاغوات) وفضل رحمه الله الإقامة بها مدة لأهمية موقعها بجنوب الجزائر بجوار (خطة توات) حيث كانت معتبرة من مفاتيح الصحراء وتجتمع بها القوافل الآتية من السودان (الغربى) والذاهبة إليه . فمكث بها بعض الوقت يلقى دروساً فى الفقه والشريعة .

بيد أن السبب الذى جعله يترك (فاس) وهو رغبة السيد فى العمل من أجل إصلاح العالم

الإسلامى ، سرعان ما جعله يرى أيضاً فائدة التنقل من (لاغوات) إلى غيرها من المراكز الصالحة لبث الدعوة ونشر الموعظة ، فارتحل من هذه المدينة إلى (مسعد) ثم إلى (جلفة) ، ومنها إلى (بوسعده) ، فأقام بها بضعة شهور ، حدث فى أثنائها مجىء الحملة الفرنسية إلى الجزائر ثم سقوط مدينة الجزائر فى أيدى الأجانب الفاتحين . فأراد الرجوع أولا إلى وطنه علّه يستطيع أن يدفع عنه الضرر وأن يقاوم المحتلين ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك عند ما جاءه فى (رؤيا) مشهورة أن من الخير والواجب أن يستمر فى سيره صوب «الشرق» .

ومع أن السيد عندما غادر بوسعده (١٨٣٠) لم يكن قد أصبح رئيسا لطريقة معينة من الطرائق التى درسها أو (مقدما) لزاوية من الزوايا التى زارها ، فانه من جانب آخر لم يكن « ذلك الطالب » الذى يبغى التزود من العلم والمعرفة وحسب ، بل صار علماً من الأعلام الموهوبين والمشهور لهم بالكفاءة والمقدرة ، يجمع حوله « الطلاب » ، ويلقى عليهم الدروس ويحرك شعورهم الدينى ويجذب إليه القلوب . وقد ذكر السيد فى (الفهرسه) التى تركها — وهى التى ضمنها أسماء الكتب الكثيرة التى درسها والشيوخ العديدين الذين أخذ عنهم العلم حتى اكتمل له ماصار يؤهله للتدريس والمحاضرة — شيئا من نشاطه فى هذه الفترة الزاخرة من حياته ، فبين كيف أنه استطاع فى أثناء أسفاره هذه أن يوثق أواصر المحبة والصداقة وينشىء الصلات العتيدة التى ساعدته فيما بعد مساعدة كبيرة على نشر تعاليمه وبث دعوته فى هذه الجهات حتى يتسنى له إنشاء ذلك العالم الإسلامى اليقظ والمتحد الذى أراده . وأما السيد فقد غادر (بوسعده) ومر ببلدة تمسين ثم زار قابس وطرابلس الغرب وبنغازى وفى كل من هـذه المدن الثلاث الأخيرة لم يشغل السيد وقته بشىء غير الوعظ والإرشاد للمصلحة الإسلامية العامة .

ومع هذا وبالرغم من علو كعب السيد فى علوم الدين وغيرها ودراسته الواسعة وقيامه بالوعظ والإرشاد بين المسلمين عن جدارة ومقدرة ، فقد كان رحمه الله عظيم الشغف بالجلوس إلى كبار علماء الشرع الشريف والدين الحنيف ممن اشتهر ذكرهم وعرف العالم الإسلامى أمرهم وعلا قدرهم ولذلك فقد رغب السيد فى الأخذ عن هؤلاء العلماء الأفاضل والسفر إلى مراكز التعليم والتفكير الدينى فى أقطار الإسلام الشرقية فى مصر وفى الحجاز من أجل ذلك أضف إلى هذا أن الأحوال فى بلاد الجزائر سرعان ماتبدلت ودخلها الاضطراب من جراء غزو الفرنسيس لها ، فشهد السيد دليلا جديداً أضافه إلى ماسبقه من أدلة ذلك (التدهور المخيف) الذى انغمس فيه العالم الاسلامى . ولايبعد أن يكون السيد قد أدرك مايعترض فى هذه الظروف دعوته إلى إصلاح حال المسلمين وجمع كلمتهم من صعوبات إذا ظل مستقراً بالجزائر أو أقام فى طرابلس ، وأن من المفيد أن يتقوى فى عزمه بزيادة الارتشاف من

مناهل العلوم ، ثم يقصد إلى حيث يستطيع أن يبلغ دعوته الإصلاحية إلى أعظم جمهور من المسلمين فى ديار كان يعلو ذكرها فى ذلك الحين (مصر) ، أو فى أخرى كانت من مسارح حركة الوهابين الدينية الخطيرة وهى أرض الحجاز .

وعلى هذا يمم السيد محمد بن على السنوسى وجهه شطر الديار المصرية ، ووليها وقتذاك وصاحب شأنها محمد على باشا الكبير منشىء الدولة المصرية الحديثة ومؤسس حكومتها المدنية العتيدة . وقد اشتهر من بين علمائها فى الأزهر الشريف جملة من الأئمة منهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ القويسنى وغيرهم ، فحضر السيد السنوسى مع هؤلاء العلماء واجتمع بهم ، ثم كان من بين من أخذ عنهم بمصر أيضا الميلى التونسى والشيخ تعيلب والشيخ الصاوى بيد أن السيد عندما حضر إلى مصر كان يتمتع بشهرة كبيرة كعالم جليل ، و «أستاذ» حضر عليه تلامذة كثيرون . كما أن ما أظهره من شدة تمسكه باستقلاله فى الرأى واعتداده بشخصه وعلمه وكفاءته وعدم مبالاته بالحكام أو اهتمامه باجتذاب رضاهم إليه كما حدث له (فى فاس وغيرها ، لم يلبث ذلك كله أن جعله موضوع خوف ووجل كبير من جانب علماء عصره الذين كانت تربطهم بالسلطات الزمنية روابط وثيقة ، ويخشون من بطش هذه السلطات وقوتها . ولذلك فقد كانت زيارته للقاهرة فى هذه الآونة مليئة بجملة صعوبات منشأها أن السيد لم تطب نفسه للإقامة فى الأزهر فى وقت كانت تسود فيه هذه المؤسسة الدينية القديمة علاقات شبيهة بالرسمية ، تربط علماءه وشيوخه بالسلطات القائمة — حكومة محمد على الكبير — أو بكبار الرجال (العثمانلى) . فلم يجد فيه بغيته من الاهتمام بالعلم والروحانيات بالدرجة التى كان يتوقعها أو يرجوها . ثم لم تلبث أن زادت متاعبه عندما وجد بعد فترة قصيرة أن يبدأ هو بإلقاء الدروس بدلا من الاقتصار على تلقى العلم وحضور الدروس ، على أمل أن يستطيع نشر دعوته وأن يبث تعاليمه . فأثار بعمله هذا معارضة شديدة من جانب شيوخ الأزهر وعلمائه الذين عدوا السيد متطرفا فى آرائه الدينية وتعاليمه . ثم زادت معارضتهم له لدرجة أن انبرى أحدهم (الشيخ الحنيش) مخطئاً السيد وطلب من جمهور المسلمين الابتعاد عنه كمبتدع فى الدين . ويقال إن الشيخ الحنيش هذا حاول زيادة على ذلك أن يدس السم للسيد للتخلص منه .

ومع أن السيد السنوسى لم يلبث أن غادر القاهرة إلى الحجاز بعد هذا الحادث ، فقد أتيحت له الفرصة كما سيأتى لزيارة القاهرة بعد ذلك فى طريق أسفاره بين الحجاز والمغرب ، وكان لهذه الزيارات خصوصاً فى أيام محمد على الكبير أثر ظاهر فى تفكير السيد وشدة تمسكه بعقيدته وهى التى كانت تدعو فى جوهرها إلى إصلاح العالم الإسلامى ونشر ألوية

الدين الحنيف . ولم يكن السيد مرتاحاً إلى نوع الحكم الذى أقامه محمد على باشا فى مصر لجملة أسباب : منها أن حكومة الوالى الكبير ما كانت تنظر إلى العلماء بتلك العين التى تعود من سبقه من الولاة أن ينظروا بها اليهم . زد على ذلك ما كان السيد يشعر به من غضاضة وألم بسبب انصراف الوالى العظيم عن دعوة « نقباء الأمة » لاستشارتهم فى تدبير شئون الحكم، وكذلك لم تبهر نظر السيد تلك الانتصارات التى أحرزها محمد على باشا فى نضاله مع السلطان العثمانى صاحب الخلافة فى العالم الإسلامى ، كما لم تظفر بإعجابه وتقديره تلك الإصلاحات الواسعة التى حاول بها محمد على إنشاء حكومة مدنية قادرة وفى استطاعتها السير إلى جنب الدول الأوربية فى طريق الحضارة والعمران . فكان للسيد فى ذلك كله آراء لم يتحول عنها، ووصل من مشاهداته إلى نتائج زادته إيماناً وثقة بما كان قد أخذه على عاتقه ووطد العزم على تحقيقه منذ زمن بعيد

ولعل أهم ما أحدثته زيارة السيد الأولى للديار المصرية من آثار ماذكره المؤرخ التركى شهبندر زاده أحمد حلمى فى قوله : « وقد أحدثت هذه الزيارة فى نفسه تبدلا عظيما وانتقش فى ذهنه أن الدولة العثمانية العظيمة فى طريق الانحطاط والاضمحلال . . وكانت لهذه الملاحظة جملة نتائج ، بعضها يرتبط إرتباطاً وثيقاً بموقفه من الخلافة عموما من ذلك الحين ، والبعض الآخر يتصل بجهوده المباشرة فى سبيل إحياء العالم الإسلامى ويقظته . وكان أول ماهداه اليه الفكر أن ضعف الدولة العثمانية كان السبب فى عجزها عن دفع شر الغزو الفرنسى عن بلاده (الجزائر) ، كما أن هذا الضعف نفسه قد أفضى إلى انتصار محمد على باشا فى مصر . وكما كان السيد يأخذ على الدولة العثمانية تقصيرها فى دفع الأذى عن أحد الأقطار الإسلامية وإخفاقها فى الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والإمامة العظمى ، كان يجد هذه الدولة بسبب ماجرته على نفسها من ضعف وعجز مسئولة أيضا عن تمكين العناصر التركية ، من الغلبة على شعوبها العربية وإقامة الحكومة الاستبدادية فى بلاد هذه الشعوب . وعلى ذلك فان دولة الخلافة القائمة كانت فى نظره مقصرة فى أمرين : الذود عن بيضة الإسلام وعدم دفع الأذى عن شعوبها العربية ، ثم مايقوله المؤرخ التركى السابق من أن السيد كان يعد استيلاء محمد على باشا على مصر « نتيجة لشدة حرص الأتراك على حكم العالم العربى واضطهاد العرب ثم محوا لشخصيتهم . » والحقيقة أن السيد رحمه الله ما كان يرى فى إصلاحات محمد على باشا فى مصر سوى « الافراط والمبالغة » الذى جعل هذه الإصلاحات المفيدة « من الأمور التى يقصد بها — كما رأى السيد — الإستخفاف بالحقوق الإسلامية والاحتقار للجنسية العربية » والظاهر أن مفكرى الإسلام فى ذلك العصر والعصر الذى يليه ما كانوا يختلفون فى هذا المعنى عند النظر فى الإصلاحات التى تمت على أيدى الوالى الكبير فى مصر . ودليل ذلك ماوجهه

اليها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده نفسه من نقد لاذع ، وتبعه فى هذا تلميذه ومؤرخه السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار الإسلامية المشهورة . فإذا أضفنا إلى «الجناية» التى ارتكبتها دولة الخلافة فى عدم الدفاع عن الجزائر ثم إتاحتها الفرصة بسبب عجزها لإقامة حكومة «مستبدة» فى مصر لاتستند إلى الشورى فى ممارسة شئونها ، أن السيد كان يأخذ « بفكرة لزوم الخلافة الإسلامية بيد شريف قرشى » ، لأدركنا حقيقة موقف السيد من هذه الخلافة . حقيقة ذكر (لوى رين) Louis Rinn أن هدف السنوسية كان « الإمامة » ، أو تشييد صرح الدولة الثيوقراطية (التى يدير شئونها رجال الدين) فى العالم الإسلامى ، ولو أن السنوسية فى رأيه ما كانت تريد الوصول إلى ذلك عن طريق العنف وإشعال الثوارت ، أو بالاتفاق مع الدول المسيحية أو الأخرى الإسلامية التى كانت تبغى إزالتها من الوجود ، حتى يتسنى لها إنشاء هذه « الإمامة » ، لأن كلا الأمرين كان يضعف مركز السنوسية ويمنعها من تحقيق غايتها فى النهاية . ومع هذا فإن الباحث لايجد دليلا ما على أن « الإمامة » كانت هدف السنوسية فى مختلف أدوارها ، سواء فى عهد مؤسس الطريقة نفسه السيد محمد بن على السنوسى الكبير أو فى عهد خلفائه كما سيأتى بيانه ، بل إنه كان من الواضح أن منشأ نقد السيد السنوسى لدولة الخلافة فى عصره ، كان رغبته فى أن تظل الدولة العثمانية ، مادامت قائمة ، وما دامت دولة الخلافة — ذلك السياج الذى ينبغى أن يحيط العالم الإسلامى ويدفع عنه عدوان المعتدين ، كما أن كل ما أحدثه إخفاقها فى تحقيق هذه الرغبة وكونها — دولة الخلافة — لاتستند إلى أساس وشروط صحيحة فى تأليفها وقيامها ، هو أنه صار متباعدا عنها . ولم يكن من سياسة السيد وخطته مناصبة دولة الخلافة القائمة العداء أو الخروج عليها .

والذى يهمنا الآن أن السيد كان يعزو السبب فى اضمحلال دولة الخلافة من جهة ثم قيام حكومات فى العالم الشرقى على غرار حكومة محمد على باشا فى مصر من جهة أخرى إلى حقائق ظاهرة : هى أن المسلمين كانوا فى حاجة ملحة إلى وجود المصلحين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم ، (وثانيا) تشتت كلمة المسلمين وتفرقهم شيعا وأحزابا ، وعدم تضافرهم ، ثم ركونهم إلى الاستبداد فى الرأى وتفضيل أنواع الحكومة المطلقة على غيرها من الحكومات التى تأخذ بمبدأ الشورى وفق التعاليم الإسلامية الصحيحة . و (ثالثاً) خمول علماء المسلمين وتقاعدهم وتقاعد حكوماتهم عن نشر التعليم بين جميع الطبقات وتعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب ، وتعميم الرياضة واستعمال السلاح ثم تحبيب الفروسيـــة إلى قلوب العامة والخاصة ، كما أنه كان من أسباب تدهور الإسلام التسويف وعدم الإقدام على العمل . وظاهر أن السيد السنوسى الكبير ، إنما كان يتفق فى الحقيقة مع ماذهب اليه من بعده حكيم

الشرق وفيلسوفه الأفغاني ثم تلميذه الإمام الشيخ محمد عبده عند وصف العلة التي أضعفت الاسلام وساقته إلى التدهور .

ولذلك فقد كان من المنتظر أن يصل السيد السنوسي من أعمال الفكر والرأى فيما شهد ولحظ إلى نتيجتين هامتين ، لخصهما أيضاً المؤرخ التركى السابق فى قوله : إن أحداهما كانت تأكده من أنه فى حاجة عظيمة إلى تحصيل علوم كثيرة خلاف العلوم العقلية والنقلية التى استفادها أيام مقامه فى بلاد المغرب . فمع أن « السيد السنوسى كان بعيداً عن أوربا وعن التأثر بها ولم يكن عنده علم بما جد فيها من اختراعات ونهضة فى جميع مرافق الحياة . . . فان الأسباب الحقيقية التى وفقت أوربا للتقدم لم تكن مجهولة لديه ، لأن ماله من الدهاء والذكاء النادر المثال خوله الوقوف على أن تفوق أوربا هو وليد العلم وثمرة الأخلاق ، وأن هذه العلوم التى سببت هذا التفوق لم تكن هى العلوم النقلية والشرعية والمنطق واللغة فحسب كما ظن أولا ، بل أهمها العلوم الصناعية والرياضة والفنون الحربية العملية » . وأما النتيجة الثانية فهى تحققه من أن الحواجز والعقبات التى منعت تقدم الإسلام وعطلت اتحاده فى الآمال والأفعال ، إنما كانت اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردى والاستبدادى ، والذى لاشك فيه أن آمال السيد من مدة طويلة كانت تنحصر فى اتحاد جميع شعوب الاسلام وتعاونهم على المصلحة العامة التى تضمن حقوق المسلمين وتمنع عنهم أطماع المعتدين .

* * *

هذا ولما كان غرض السيد الأول لايزال الإكثار من تحصيل العلوم ، فقد قصد بعد خروجه من القاهرة الأقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج ، وحتى يظفر كما يقول أحد أفاضل الكتاب ، الشيخ محمد الأخضر العيساوى ، بمقابلة « ضالته المنشودة ، وهو الشيخ الكامل المربى الذى طالما اشتاقت نفسه إلى لقائه ليتكمل به ، حيث أن (الديار الحجازية) مهبط الوحى وهى لا تخلو من ثمرات الرجال ، كما لا تخلو من الثمرات الأخرى ، كما نوهت به الآية الشريفة » .

ويذكر السيد محمد بن على السنوسى نفسه سبب خروجه من القاهرة ، فيقول إنه حدث ذات يوم عند فراغه من الوضوء فى الجامع الأزهر أن اصطدم بفلاح فقير غير متعمد لضيق الباب الذى هم بالخروج منه ، فقال الرجل « ولماذا تصنع معى هكذا ياسنوسى ، فتعجب السيد من مخاطبة الرجل له باسمه وسأله كيف عرفه وهو الذى لم يره فى حياته قط . فأجاب الفلاح بكلام يفهم منه أنه كان من أولياء الله الصالحين . فلما قال السيد إنه يكون إذن ذلك

القطب ، الذى ينشد لقائه منذ أمد بعيد أجاب الرجل : « كلا . إن الذى تقصده موجود بمكة ، فعليك بالذهاب إليها » . فعلم يتردد السيد فى مغادرة القاهرة بعد ذلك والسفر إلى الحجاز وكان هذا فى أوائل الثلاثينات من القرن الميلادى الماضى .

وكانت زيارة السيد لمكة ذات أثر كبير فى قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها . وساعد على هذا جملة أسباب . منها وجود السيد وإقامته بمكة وهى المدينة المقدسة التى يقصدها ويحج إليها المسلمون من مختلف الأقطار . فأعطى السيد ذلك الفرصة حتى يقف على معلومات عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين على مكة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباين طباعهم وكان السيد ينتهز الفرصة لمباحثة جميع فضلاء ومفكرى الاسلام عند وفودهم إلى هذه الديار ، يتلقى عنهم المعلومات ، ويتعمق معهم فى البحث والتمحيص ، حتى إذا اطمأن إلى صدق نظرهم وعلو تفكيرهم وتشوقهم إلى خدمة الملة ورفع ألوية الاسلام عالية ، تحدث اليهم فيما يسعى اليه ويريده ويتمنى النفس بتحقيقه وهو إصلاح أحوال المسلمين على أساس الاتحاد وجمع الكلمة والتآزر وشد الصفوف . وعندما استكمل السيد درسه وبحثه واطمأن إلى تفقهه وعلو منزلته فى الدين والعبادة أخذ يلقن هؤلاء الأفاضل الذين اجتمع بهم وخبرهم ووثق بطهارة نفوسهم الطريقة المحمدية التى عرفت فيما بعد باسم الطريقه السنوسية المشهورة .

والحق أن السيد أقام بمكة مدة يشتغل بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها واجتهد فى دراسة المذاهب الإسلامية . وكان غرضه من هذه الدراسة الواسعة أن يحذق مخاطبة جميع العالم الإسلامى حتى يتسنى له إقناع هذا العالم باتخاذ مذهب واحد يعينه على الاتجاه نحو هدف واحد هو الاتحاد الإسلامى وسيلة الخلاص والنجاة ووقف ذلك (التدهور المخيف) الذى مابرح يزعج السيد ويقض مضجعه منذ طلبه العلم فى حداثته وصباه فى بلده مستغانم ثم فى فاس .

وعلى ذلك فقد أخذ السيد بأرض الحجاز عن الشيخ سليمان العجيمى حفيد أبى البقاء ومولاى عبد الحفيظ بن محمد ، والشيخ أبى حفص بن عبد الكريم العطار ، ثم الإمام أبى العباس أحمد بن عبدالله بن ادريس الفاسى مؤسس الادريسية ، وحصل على إجازتهم له ، ثم طفق بعد هذا يدرس الطريقة الشاذلية بجميع فروعها عن الإمام أحمد بن ادريس المشار إليه ، ثم الطريقة الناصرية عن الإمام ابن ناصر ، ثم القادرية عن العرائشى ، ثم التيجانية عن أبى العباس التيجانى نفسه . وقد سبق ذكر أثر هذه الطرائق كعامل حاسم من عوامل إحياء قوة العالم الإسلامى ويقظته فى القرن الميلادى الماضى .

وكان من محاسن الصدف حقيقة أن وجد السيد السنوسى بمكة « ضالته المنشودة » العارف

بالله المرى السيد أحمد بن ادريس المتقدم ذكره . وكان سيدى ابن أدريس الفاسى رئيساً للخضيرية منذ ثلاث وثلاثين سنة ، فاجتمع به السيد ولازم دروسه ، وتوثقت العلاقة بين السيد السنوسى والشيخ ، فكان السيد لايقطع أمرا دونه ، وكان الشيخ يشاور السيد فى كل الشئون ، وظل أمرهما على ذلك حتى ارتحل الشيخ إلى (صبيا) اليمن .

وكان سبب ارتحال السيد ابن ادريس مالقيه من عنف السلطات الحكومية ، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لايتفق فى منهجه ودرسه مع ماعتاد عليه هؤلاء العلماء من أزمان طويلة ، حتى صاروا يعدونه مبتدعا ؛ ثم انقلب نقدهم إلى اضطهاد اضطر بسببه السيد ابن أدريس إلى مغادرة مكة فى النهاية إلى (صبيا) العسير .

وأما السيد محمد بن على السنوسى فقد تبع أستاذه إلى (صبيا) ، وأقام معه هناك حتى توفى السيد ابن ادريس فى عام ١٨٣٥ — (وفى قول عام ١٨٣٧) . وعند وفاة السيد ابن ادريس ، انضمت أقلية من أتباعه (الخضيرية) إلى سيدى محمد صالح المغرانى وأسسوا زاوية فى (دار خيزران) بمكة وسموا أنفسهم إدريسيين ، بينما انضمت الأكثرية إلى السيد محمد بن على السنوسى ، الذى رجع إلى مكة ، ثم أنشأ بها زاوية فى (جبل أبى قبيس) فى عام ١٨٣٧ فكانت هذه أولى زواياه . ثم أقام السيد بهذه الزاوية مدة ، يلقى دروسه وينشر تعاليمه ، حتى تضافرت الأسباب التى دعت السيد إلى مغادرة مكة والانتقال إلى برقة فى عام ١٨٤٠ .

فقد استطاع السيد بفضل ما أتاه الله من سعة العلم وطلاقة اللسان ودقة الفكر ثم ماحباه جل شأنه من ميزات أخرى عديدة أهمها شدة التمسك بالمبدأ والعقيدة مع لطف المعشر والهيبة أن يجمع حوله من التلاميذ والأشياع والمريدين أعداداً عديدة ، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة فى دروسه واقتفاء أثر السلف الصالح فى إرشاده وتعليمه ، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم ينقطع وهكذا ، — كما فعلوا مع أستاذه السيد ابن ادريس الفاسى من قبل زد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بالأخطار التى كانت ولاشك تهدد نفوذها من جراء التفاف كثيرين من الأهلين المتذمرين من السلطات العثمانية والعربية (الشريفية) معا بهذه الأقطار ، عندما كان السيد نفسه على عادته المعروفة يبتعد كل البعد عن الهيئات الحكومية ، وتمنعه مبادؤه وتعاليمه ، ثم شممه وأباؤه من أن يسعى للتقرب منها أو نوال الحظوة عندها . وكان مما أخاف السلطات الحكومية ان السيد ظل يتصل بأبناء استاذه السيد ابن ادريس الفاسى فى (صبيا) وهى أرض وهابية ، وكان العداء مستحكما بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين الوهابيين .

ومع هذا فقد كانت هناك أسباب اخرى دعته إلى ترك مكة والعودة إلى الأقطار الليبية (اللوبية) ذلك أنه كان من بين المسلمين الذين اجتمعوا حوله عدد كبير من أهل طرابلس الغرب حضروا إلى السيد حتى ينالوا البركة منه ، وإن كانت أفهامهم تدق عموما عن إدراك حقيقة تعاليمه السامية ، وقد وجد السيد ان يطلب منهم الاكثار من العبادة والتقشف والصوم على أمل ان يؤدى ذلك كله إلى تنقية نفوسهم وصفائها ، حتى إذا عجز ضعاف الارادة عن سلوك هذا السبيل الصارم انصرفوا إلى شأنهم ، واستطاع أهل الزاوية — فى أبى قبيس — ان يتفرغوا للدرس والعبادة . ومع هذا فقد ظل يكثر عدد هؤلاء المتحمسين للطريقة حتى حدث ذات مرة عندما كاد يشرف بعضهم على الهلاك من كثرة الصوم مدة طويلة ، ان ذهب احدهم إلى قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، يشكو ماوصل اليه ويرجو الرشد والهداية ، فشهد السيد السنوسى بعد ذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فى رؤيا ، يطلب إليه ان يحمل هؤلاء الأتباع والمريدون فى بناء بيوت العبادة والزوايا ، فصدع السيد بما امر به وتقرر ان يغادر هؤلاء مكة لإنشاء الزوايا فى البلدان الأخرى ، كما قرر السيد نفسه ان يعود الى برقة لهذا الغرض نفسه . وكان انتقال السيد من الحجاز الى برقة بدء انتشار الدعوة السنوسية فى الأقطار الليبية .

الفصل الثالث

برقة وانتشار الدعوة

كان إنشاء زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة مؤذناً ببداية الدعوة الواسعة من أجل اتباع الطريقة السنوسية ، ثم قيام هذه الطريقة العتيدة وثبوتها فى الأعوام التالية فى أثناء حياة صاحبها ومؤسسها رحمه الله ، كشعلة من نور للإرشاد والهداية ، ودعامة من دعامات الدين الصحيح ، وأساس قوى لبنيان إمارة لم تكن دينية وحسب ، بل جاءت أيضاً دنيوية يصلح بقيامها ووجودها حال المسلمين فى الأقطار التى انتظمت تحت لوائها . ولذلك فإن حياة السيد محمد بن على السنوسى الكبير كانت تتميز فى الفترة التالية بجهود السيد المتصلة من أجل تنظيم الدعوة ونشرها ورفع عماد تلك الإمارة الدينية والدنيوية العظيمة والتى سيطرت على أرواح ونفوس تابعيها ومريديها ومؤيديها حتى صارت من أعظم الأسس التى بنى عليها صرح الدين وقام عليها العمران فى أفريقية الشمالية الغربية على وجه الخصوص حتى يومنا هذا .

وظاهر من تاريخ تأسيس هذه الدعوة وقيامها أن أرض الحجاز المباركة كانت الموطن الذى نبتت فيه وترعرت ، حتى إذا نمت وازدهرت امتدت فروعها إلى الأراضى الليبية وتأصلت بها جذورها . و تاريخ الدعوة السنوسية من وقت إنشاء زاوية أبى قبيس حتى وفاة مؤسسها وصاحبها قصة مجيدة من قصص الجهاد السلمى الرائع فى سبيل نشر ألوية الإسلام الصحيح وهداية الناس إلى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى ، وقد غذى هذه الحركة المباركة ولا شك نشاط مؤسسها وصاحبها العظيم . وفى نظرنا يرتبط تاريخ انتشار الدعوة السنوسية بتاريخ السيد الكبير مؤسس هذه الطريقة ومبتدعها ، فيدخل فى ذلك تتبع ظهور أمر السنوسية فى الحجاز ثم انتقالها إلى الأراضى الليبية ، ثم وقوع اختيار السيد على برقة حتى يكون هذا الأقليم مركز الدعوة وقاعدة تنظيمها . فانه مما لا شك فيه أن بقاء السنوسية كدعوة وإمارة إنما مرجعه جهود السيد السنوسى الكبير ومثابرته وبعد نظره إلى جانب صلاحه وورعه وتقواه .

أقام السيد بالحجاز مدة ، ثم ارتحل عنه إلى المغرب ، ثم عاد إليه بعد ذلك فعاش بأرضه المباركة فترة حتى غادر الحجاز إلى برقة مرة أخرى . وفى برقة استقر به المقام أخيراً فى زاوية الجغبوب الشهيرة حتى وافاه الأجل المحتوم فى عام ١٢٧٦ هجرية و١٨٥٩ ميلادية . فكان السيد

رحمه الله منذ تأسيس زاويته الأولى فى أبى قبيس إلى وفاته دائب الحركة والنشاط منكبا على العبادة عاملا على نشر طريقته ، يؤسس الزوايا ويجمع حوله الأخوان والمريدين والأتباع ، ويضع أنظمة السنوسية التى كفلت لها اتصال الحياة والبقاء ثم متابعة الذيوع والانتشار من بعده .

أما فى الحجاز فقد أسس السيد زاوية بالمدينة المنورة ، ثم جملة زوايا أخرى فى أنحاء هذا القطر : فى الطائف وجدة وينبع وبدر وغيرها . ثم ما لبث أن جاءته الوفود من كل مكان لتأخذ عنه الطريقة ، ولتنتفع بنصحه وإرشاده وتجيب الدعوة إلى الدين القويم . وكان لطول بقائه فى الحجاز فى فترات متنوعة أثر كبير فى سطوع نجمه وذيوع فضله حتى انتفع بعلمه ودينه وأدبه أناس عديدون وتخرج على يديه علماء كثيرون من أهل الحجاز ومن غير أهل البلاد من مشايخ المسلمين الذين قصدوا الحجاز وقتئذ للحج إلى بيت الله الحرام أو للإقامة به طلباً للعلم أو انقطاعاً للعبادة . وكان من أشهر الحجازيين الذين تتلمذوا على السيد وانتفعوا بعلمه وصلاحه وورعه الشيخ سيدى فالح الظواهرى من الحمراء بالحجاز ، وقد لازم هذا الشيخ السيد السنوسى الكبير ثم ارتحل إلى الجغبوب وأقام بها عندما صارت هذه مقر الدعوة السنوسية العتيدة .

والحقيقة أن السنوسية سرعان ما ظهر أمرها فى الحجاز وارتفع ذكرها حتى أصبحت تحتل مكاناً عظيما فى القلوب ، يهابها ويخشى بأسها وسلطانها القاصى والدانى ، وآية هذه الهيبة وما كانت تحتله السنوسية من مقام رفيع فى قلوب الحجازيين ، أن ركبها إلى الحج كل عام كان موضع احترام العرب الذين درجوا فى هاتيك الأيام الخوالى على قطع الطرق ونهب قوافل الحجاج ، فما كان يعتدى على السنوسيين فى حلهم وترحالهم أحد .

ومع هذا فإن السيد السنوسى الكبير ما كان ليرضى بالمكوث بالحجاز وحده وهو صاحب الدعوة الذى يريد ذيوعها بين أكبر طائفة وجماعة من أخوانه المسلمين . ولذلك فقد بات من المنتظر أن يحتل النظر فى وسائل نشر الدعوة السنوسية مكاناً كبيراً من تفكير السيد ، وكان ولا شك من أهم وسائل ذلك ، التنقيب عن المكان الذى يصلح لاتخاذه مقراً للطريقة الجديدة ومركزاً لنشر الدعوة منه . ثم اهتدى السيد بفكره الثاقب ونظره البعيد إلى اختيار برقة مكاناً صالحاً لبث الدعوة والعمل على ذيوعها ووضع أسس تلك الامارة التى لم يكن هناك مناص من قيامها إذا رغبت السنوسية — ولا يشك إنسان فى أنها ترغب — فى أن تهيىء لاتباعها ومريديها ، وهم أهل برقة جميعاً ، الحياة الصالحة فى الدنيا وفى الآخرة معاً .

والأسباب التى دعت السيد إلى هذا الاختيار عديدة ومتنوعة ، يرجع بعضها إلى معرفة السيد لحقيقة أمر البيئة التى تتميز بها هذه البلاد من غيرها والتى جعلت منها كما سنرى أرضا

صالحة لبث دعوة الإصلاح الديني الجديدة . وهذا بينما يتصل البعض الآخر بتاريخ هذه البقعة الليبية منذ أن بسط الأتراك العثمانيون سلطانهم عليها فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى والقرن العاشر الهجرى .

وبرقة ذات تاريخ شيق حافل لا مجال للتوسع فى ذكره الآن ، وإنما يكفى أن نذكر من قصصها أن أول ساكنيها كانوا اليونان الذين أسسوا فى الأزمنة القديمة جملة مدن مشهورة منها بنغازى قصبة هذا الإقليم فى معظم عصور تاريخها . وعندما فتح العرب هذه البلاد فى القرن السابع الميلادى دخلها دين الإسلام واستتب بها الأمن وظهر العدل ونالت أرض برقة من العمران قسطاً كبيرا . وقد ظلت القبائل العربية تتوزع فى أرجائها بعد ذلك حتى القرن الثانى عشر الميلادى . وعندئذ دب فيها الضعف ، وتلاشت قوتها تدريجيا ، إلى أن أغار العثمانيون عليها فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، فاستولوا على مدينة طرابلس الغرب ، ثم على بنغازى عاصمة برقة فى عام ١٥٥١ ميلادية (٩٥٩ هجرية) . وفى ظل هذه السيادة، ضم الاقليمان (برقة وطرابلس) ومنحا استقلالا إداريا فغدت (طرابلس الغرب) من إيالات الدولة العثمانية . مثلها فى ذلك كمثل إيالة تونس وغيرها . وصارت الآستانة تعين الولاة لحكومتها، حتى إذا كان عام ١١٢٣ هجرية (١٧١١ ميلادية) عينت الدولة لطرابلس وملحقاتها — (ومع طرابلس برقة) — أحمد باشا القرمنلى أو (القره مانلى) رب أسرة (القرامانلية) المشهورة والتى ظلت فى حكم البلاد حتى عام ١٢٥١ هجرية ١٨٣٥ ميلادية . وقد احتل مؤسس هذه الاسرة مكانة عالية فى نفوس الأهلين الذين رغبوا فى تنصيبه واليا عليهم لما كان معروفا عنه من العدل والإنصاف ، واعترافا بما كان لمؤسس هذه الأسرة من منزلة سامية ، صدر من الآستانة أمر سلطانى جعل الحكم فى طرابلس فى عقب أحمد باشا القره مانلى يتوارثه الواحد بعد الاخر . وفى عام ١٨٣٥ أى بعد (١٢٧) عاما تقريبا أبطلت الدولة العثمانية حكم هذه الأسرة وعينت واليا على طرابلس الغرب . ثم بعد ثلاثة أعوام فقط فصلت برقة من طرابلس وجعلتها ولاية قائمة بذاتها ؛ ثم ولت عليها حليم باشا ومركز حكومته فى بنغازى « برقة » ، وجعلت على أشقر باشا (عشقر على باشا) واليا على طرابلس فى عام ١٢٥٤ هجرية و ١٨٣٨ ميلادية . وقد بقيت برقة وطرابلس فى أيدى الولاة العثمانيين حتى عام ١٣٢٩ هجرية و ١٩١١ ميلادية ، وهو وقت إغارة الإيطاليين على هذه البلاد ، وقد ظلت بنغازى (برقة) تارة ولاية وأخرى لواء مستقلا طوال هذه المدة .

وتنحصر أهمية هذا العهد العثمانى بالنسبة إلى انتشار الدعوة السنوسية فى البلاد الليبية ، ثم اتخاذ برقة ذاتها مركزا تدار منه هذه الدعوة وأقليما يشهد إنشاء وتأسيس الإمارة السنوسية

فى جملة مسائل ، بعضها سياسى والآخر اجتماعى . فانه مما يجدر ملاحظته أن العثمانيين حين بسطوا سيادتهم على هذه البلاد ، ما كان نفوذهم فى الحقيقة يتعدى السواحل وبعض المدن والموانىء التى كانت قريبة من متناول أجنادهم وأسطولهم ، وكانت مراكز لولاتهم ومقرا لحكومة هؤلاء الولاة. وأما دواخل البلاد — إذا تغلغل المرء جنوبا ضاربا فى فيافى الصحراء الليبيه — فقد ظلت بعيدة عن سلطان الترك ونفوذهم ، يستقيم بها الامر لشيوخ القبائل العربيه المتنقلة فى أرجائها الشاسعة البعيدة وحدهم ولذلك رضيت الدولة العثمانية بأن تترك الحكومة فى ايدى أسرة محلية مشهورة هى اسرة (القرامانلية) ما يزيد على قرن من الزمان ثم ظل الحال على ذلك حتى ظن الأتراك أن فى مقدورهم إدخال هذه البلاد النائية فى حوزتهم قولا وفعلا . فولوا عليها الولاة من قبلهم وأعادوا احتلالها . وحاول هؤلاء الولاة جمع السلطة فى أيديهم ، فنجم عن ذلك اصطدام بين قوى الحكومة وبين قوى الزعماء فى داخل البلاد ، ونفر العرب نفوراً شديداً فى برقة وطرابلس من هـذا النظام الجديد ، وعارضوا الاحتلال . فاحتدم الشر بينهم وبين الأتراك مدة طويلة ، حتى بات الأتراك يتوقون إلى إزالة هذا الشر المستطير ، ووضع حد للخلاف والاصطدام ، وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ فى البلاد . فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذى دعا العثمانيين إلى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة (وطريقة) بل كأمارة (وسياسة) كما سيأتى بعد .

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان من أثر الضعف الذى ألم بالبلاد ، وتفشى الجهل بين القبائل ، ثم ضياع نفوذ الحكومة فى دواخل هذه الأقطار ، أن انصرف الناس عن إقامة شعائر الدين واشتغلوا بأمر دنياهم . وما كان الاهتمام بالدنيا فى عادات هذه القبائل المتنقلة والبعيدة عن نفوذ الحكومة وسلطانها سوى الامعان فى أعمال السلب والنهب وقطع الطرق على القوافل . ولذلك فقد كان أهل هذه الأقطار أشد الناس حاجة إلى الارشاد لمعرفة قواعد دينهم ، والتحلى بآداب الإسلام العالية حتى يصلح حالهم دنيا وآخرة . فاذا تذكرنا أن الانحطاط المستولى على الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت كان لا يجعلها تفكر فى ضبط مقاطعة « مجهولة » كبرقة لا نفوذ لها بتاتاً فى دواخلها . وإذا تذكرنا أن صاحب الدعوة ، وكل إنسان يريد تحويل الناس عما ألفوا وسوقهم إلى إتجاه غير ما عرفوا ، ينبغى عليه أن يختار مكاناً صالحاً لنشر دعوته : أولا ، من حيث توقعه أن يقبل أهل هذا المكان الدعوة وأن لا يبدوا أية معارضة أو مقاومة لتعاليمه وآرائه . وثانياً ، من حيث أن يكون المكان مرتبط الأجزاء وغير متفكك ، ويتوسط الأقطار التى يريد صاحب الدعوة نشر دعوته بها ، ويسهل الاتصال

بينه وبين هذه الأقطار . وإذا تذكرنا أن السيد السنوسى الكبير قد أكثر فى تنقله وأسفاره من زيارة أقليم برقة وشاهد ما كانت عليه القبائل فى هذا الأقليم ، غارقة فى بحار الجهالة ، دأب (أهلها) السلب والنهب وقطع السبيل ، ، لأدركنا قيمة الدوافع التى جعلت السيد رحمه الله يختار برقة مركزاً لدعوته . زد على ذلك أن منطقة الجبل الأخضر ذات خصوبة عظيمة ويصلها بالعالم الخارجى ثغرا بنغازى ودرنه ، كما تمر بالجبل الأخضر جميع القوافل الذاهبة إلى طرابلس الغرب وفزان ومصر وبرنو ووادای ، أو تلك الآتية من كل من هذه البلدان وما يجاورها . ولذلك تستطيع السنوسية أن تجد فى جميع هذه الاتصالات سبلا ممهدة لنشر دعوتها وبسط نفوذها ، وهو نفوذ فى جوهره لا يبغى غير إقامة الدعوة لعمل المعروف والابتعاد عن فعل المنكر ، ونشر تعاليم الدين الصحيح ، ومكافحة ذلك « التدهور المخيف » الذى كان يهدد الإسلام ويخشاه السيد الكبير من زمن بعيد .

وعندما تم رأى السيد وصحت عزيمته على تأسيس الزوايا فى برقة واتخاذها مركزاً لدعوته وكان مطمئناً إلى ظهور واستواء طريقته بأرض الحجاز ، قرر الرحلة إلى الأقطار الليبية . وقد ذكر السيد أحمد الشريف — حفيد السيد — خبر هذه الرحلة فى رسالة كبيرة تجت أجزاء منها من التلف ، كتبها السيد أحمد بخط يده ، راوياً ما سمعه من سيدى محمد بن الشفيع الذى صحب السيد محمد بن على السنوسى الكبير من وقت خروجه من الحجاز ، فقال إن السيد غادر مكة فى آخر ذى الحجة ١٢٥٥ هجرية (٢٩ فبراير ١٨٤٠) « قاصداً المدينة المنورة للوداع » فأقام بالمدينة سبعة أيام ، ثم ارتحل منها إلى (ينبع) فوصلها فى أواسط صفر من العام التالى (ابريل ١٨٤٠) ، وفى (ينبع) قسم السيد الأخوان إلى جماعتين : ركبت الأولى منهما البحر ومعها أسرة السيد على نية السفر إلى مدينة (قابس) على شاطىء البحر الأبيض غربى مدينة طرابلس ، بينما رافقت الجماعة الأخرى السيد نفسه . وكان رحمه الله معتزماً السفر براً إلى مصر ، ومنها إلى المغرب ، على أن يلحق بأسرته هناك . فنزل السيد بعد ذلك (بالحوراء) ، ثم غادرها إلى (الوجه) ، ثم إلى (المويلح) و (المخيلى) ، ومر (بآبار نمود) ثم بلغ (العقبة) فارتحل منها إلى (عجرود) ، وسار من (عجرود) إلى (البركة) — بركة الحج . وكان السيد فى « كل سفره هذا مرافقاً للمحمل المصرى ، إلا أنه غير مخالط بِرحله فيه . فلما وصل المحمل البركة ضرب المدفع فى نصف الليل وأرسل المبشر تأخر الأستاذ (السيد محمد بن على) رضى الله عنه بمن معه . فلما وقف المحمل يتهيأ للدخول ، تقدم (السيد) ومعه جماعة من الأخوان وتأخر الباقون عند الأثاث ، ودخل مصر (رحمه الله) ليلا » . وكان وصول السيد إلى مصر فى منتصف ربيع الأول ١٢٥٦ هجرية (١٧ مايو ١٨٤٠) ، فضرب

(خيمته) بالحصوى ، وهى نهارج البلدة ، بينما نزل رحمه الله عند الشيخ محمد بوراده . حتى إذا كان اليوم الرابع » أرسل إلى الأخوان وأمرهم بالدخول إلى البلد ونزلوا عند الشيخ عمر الزوارى فى بولاق وأقاموا بها ثلاثة أشهر » . ولا يذكر السيد أحمد الشريف فى تاريخه شيئاً عن نشاط السيد فى أثناء إقامته بمصر فى هذه المرة .

وفى أغسطس ١٨٤٠ غادر السيد مصر (بولاق) ويمم وجهه شطر الفيوم ، فبلغها بعد ثلاثة أيام ونزل عند الشيخ زيدان بو منديل ؛ ثم قصد إلى (البهنسا) ومنها إلى (الواح البحرية) ، « ونزل بمحل يقال له (منديشه) وأقام بها أربعة أيام وارتحل منه إلى (الزبود) وأقام بها يومين ، وارتحل منها وسار أربعة أيام ، ودخل بلدة (سيوه) ونزل بمحل يقال له (الطنبسى) وهو خارج البلد » فاقام به ثلاثة أشهر ، مرض فى أثنائها بالحمى فنقله الأخوان وكان منهم سيدى عبد الله التواتى إلى بلدة سيوه ذاتها . ويقول السيد أحمد الشريف أن مدة السيد بسيوه كانت تسعة أشهر . « وفى مكوثه هناك سود مسودة لسيدى محمد بن الشفيع يريد كتابتها لسيدى محمد الغمارى وسيدى محمد الخالدى ومن جملة ما قاله لهم فيها ، نحن متوجهون إلى جهة المغرب عندنا ولد هناك مرادنا نجتمع به » . ثم ارتحل السيد من (سيوه) قاصدا إلى (جالو) ، وكان معه جماعة من المجابرة . فقطع المسافة فى اثنى عشر يوما ، ثم ارتحل من (جالو) إلى (أوجله) . ثم سار إلى برقة الحمراء ، « ونزل عند قبيلة الواطى ، ومنهم رحل إلى برقة البيضاء ونزل عند الشيخ على الأطيوشى ، وصار مع (السيد) فى أرض (سرت) سبعة أيام إلى أن وصلوا إلى (الهيشه) . وبين (سرت) و (الهيشه) ستة أيام ، وتلقاه عيلت (عائلة) المنتصر فحملوه وساروا فى خدمته إلى (مصراته) ومن (مصراته) إلى (طرابلس) » . وكان وصول السيد إلى طرابلس فى أواسط جمادى الثانية ١٢٥٧ (أوائل أغسطس ١٨٤١) . وكان والى طرابلس وقتئذ أشقر على باشا (عشقر على) ، وله محبة عظيمة فى الأستاذ ، فحرض (أسرة ابن المنتصر) على خدمته . وأن يقدموا له كل ما يجب من الخدمة والاحترام والاتصال به وأقام السيد عند عائلة ابن المنتصر بأبنيتهم التى بالمنشية سبعة أيام ، وفى اليوم الثامن توجه قاصداً قابس ، فنزل أولا (بأزواره) ومكث بها مدة ، ثم سار إلى قابس ، وهناك التقى السيد بأهله والإخوان الذين أركبهم البحر من (ينبع) فسبقوه إلى الغرب قبل وصوله إلى طرابلس بمدة طويلة .

بيد أن إقامة السيد بقابس كانت قصيرة ، لأن الفرنسيين وقت وصوله كانوا قد بسطوا سلطانهم على بلاد الجزائر (منذ حملة ١٨٣٠) ، ومنذ أن علموا بوصوله أخذوا يدبرون الخطط من أجل القبض عليه وذلك لأنه أحد أهالى الجزائر ، فقرر السيد عندئذ الخروج من قابس

بكل سرعة ، فغادرها لجأة إلى طرابلس ، هو وابن الحاج المغربى وعبد القادر المكاوى سايس الخيل ، هم الثلاثة لا غير » ، ويقول السيد أحمد الشريف فى (تاريخه) أن «هذه الرجعة (كانت) بانزعاج منه وما كان الأخوان يظنون ذلك ، وكان مراد الكفرة الغدر به هناك » وكان وصول السيد إلى طرابلس فى رمضان ١٢٥٧ (سبتمبر ١٨٤١) .

وبعد قدومه إلى طرابلس بشهرين « أتى الأخوان الذين بقابس بأهل بيته والأثاث الذى معهم ، ومكث (السيد) بعد مجىء الاخوان شهرين ، واجتمع سيدى أحمد بن فرج الله الفيتورى بالأستاذ فى تلك المـدة ، وكان درقاويا ، فأخذ عن السيد الطريقة المحمدية ، وشكى له من ضعف حاله فأمره الأستاذ أن يلحقه بأهله فى الجبل الأخضر » . وقد أركب السيد أهله والأخوان الذين جاءوه من قابس البحر إلى بنغازى ، ، وعند وصولهم إليها ، « حملتهم عائلة الكزة إلى وطن البراعصة ، وحملوهم البراعصه الى محل الزاوية البيضاء وشرعوا فى تأسيسها قبل قدوم الأستاذ رضى الله عنه » . وأما الأستاذ فقد ارتحل من طرابلس قاصداً بنغازى بعد ذلك ، بطريق (سرت) و (العقيلة) ، فبلغها قبل حلول رمضان من العام التالى ثم أقام بها طول شهر رمضان ١٢٥٨ (٦ أكتوبر — أول نوفمبر ١٨٤٢) . « وأتى هناك رجل من العواقير من قبيلة عائلة الكزة بأناس معه ، وحملوه إلى الزاوية البيضاء » . فبلغها فى أواخر شوال من العام نفسه ، ومكان الزاوية قريب من ضريح سيدى رافع الأنصارى . فكانت (البيضاء) هى ثانى الزوايا التى أسسها السيد بعد زاوية (أبى قبيس) ، ولكنها كانت أهم الزوايا إطلاقا لأنها تعتبر ولا شك أم الزوايا ، والمكان الذى انبثق منه نور الطريقة المحمدية ، والدعوة السنوسية العتيدة .

وأما هذه المرحلة من نشاط السيد ، أى منذ أن غادر القاهرة حتى وصل إلى الزاوية البيضاء (أغسطس ١٨٤٠ — نوفمبر ١٨٤٢) ، فقد تميزت من غيرها من مراحل جهاد السيد ونشاطه فى الدعوة للدين الحنيف ونشر الطريقة المحمدية السنوسية بجملة أمور كانت ذات شأن فى استتباب الأمر للدعوة السنوسية فى أرض برقة وطرابلس نهائياً وبزوغ أنوار هذه الطريقة ، يحمل أتباعها والأخوان ألوية الدعوة إلى دين الله الحنيف إلى قلب أفريقية الغربيه ، وعلى وجه الخصوص بين الوثنيين (أو الفيتيشيين) المنتشرين بين تخوم السودان وشواطىء المحيط الأطلسى . فقد عمد السيد فى أثناء رحلته الطويلة من مصر إلى بنغازى إلى إرشاد أهل البلاد التى مر بها إلى قواعد الدين الصحيح ، ونشر ألوية السلام والإخاء بين القبائل المختلفة القاطنة بها ، يدعو أهل القبائل وساكنى البلاد والقرى إلى نبذ التباغض والتنافر ، والإقبال على التعاضد والتآزر والتعاون فيما بينهم ، كما حبب إلى نفوسهم العدل

ونهاهم عن إتيان المنكر ، ونشر بينهم الفضائل الإسلامية ، وأثمرت دعوته هذه إثمار حتى بات يوجد فى كل بلد وقرية وحي من أحياء العرب جماعة من الوجوه والأشراف يفصلون بين الناس فيما يقع بينهم من خصومات بدون أجر أو مكافأة . بل بمحض حبهم — كما قال أحد المؤرخين — لإحقاق الحق الناتج عما غرسه فيهم هـذا المصلح العظيم من الروح السامية والأخلاق العالية . فانصلح حال أهل هذه الجهات ، واطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم بفضل هديه وإرشاده . ونجم عن نجاح دعوة السيد على هذا الوجه إتساع دائرة محبيه ومريديه وتعلق نفوسهم به وازدياد شأنه رفعة بين الأهلين ، فأولوه ثقتهم العظيمة ومحبتهم . وكان فى هذا كله منبت تلك الثقة التى تمتع بهـا السيد السنوسى الكبير ثم خلفاؤه من بعده ، وما صار الأهلون فى الأراضى الليبية يعلقون على السيد وعلى آله وبنيه آمالا كباراً ، يستقيم بتحقيقها أمر دينهم وتصلح حال دنياهم .

وكان هذا الأثر الذى أحدثه وجود السيد بين الأهلين العرب كبيراً وظاهراً ، حتى أدركت السلطات العثمانيه فى البلاد خطورته ، فصارت تفكر فى أجدى الطرق التى تكفل لها الانتفاع بهذا الأثر فى إخماد الفتن والقلاقل التى اشتعلت نارها وعظم ضررها ، على الخصوص فى ولاية طرابلس منذ أخذت الدولة العلية على عاتقها احتلال البلاد وتوطيد سلطانها على نحو ما تقدم ذكره . ولذلك فإنه بمجرد أن قصد السيد مدينة طرابلس فى طريقه إلى قابس ، ثم عند عودته إليها من قابس قبل ارتحاله إلى بنغازى ، أسرع والى طرابلس (أشقر باشا) بملاقاته بحفاوة بالغة وأكرم السيد إكراماً عظيما ، ثم لم يلبث أن أخذ عنه الطريقة وصار من أتباع (الطريقة السنوسية) ؛ فظل السيد موضع إكرام وتبجيل طوال إقامته فى طرابلس متنقلا بين مدن طرابلس ومصراته وسرت (١٢٥٧ هجرية) . فكان هـذا العمل من جانب الوالى التركى اعترافاً ظاهراً بالمركز الرفيع الذى يتمتع به السيد ، ثم اعترافاً بحاجة دولة العثمانيين إلى الاستفادة من نفوذ السيد وعلو قدره لإصلاح ما كان قد فسد من علائق بين الترك والعرب من سبع سنوات مضت تقريباً ، الأمر الذى يدل فى جوهره على حقيقة أخرى : هى أن سلطان العثمانيين ما كان يتعدى المنطقة الساحلية بمدنها الكبيرة ذات العدد القليل ، وأن الدولة كانت فى حاجة واضحة إلى يد قوية تستعين بها فى ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات فى داخل البلاد . وما كان لأحد غير السيد الكبير بمـا ظهر من تعلق العرب به واصغائهم لنصحه وإرشاده ، أن يتمكن من إسداء هذا المعروف لمصلحة السلم والطمأنينة واجتماع الكلمة ونبذ التنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم . ولم يكن السيد إلا داعية عظيما للاتحاد ويقظة العالم الإسلامى . وقد أثمر اعترافه

الدولة العثمانية — عن طريق واليها فى طرابلس — بالإمارة الواقعية للسيد السنوسى الكبير خير ثمرة ؛ فكانت العرب تحترم أوامره وتطيع الأتراك بناء على نصائحه . والسيد كان يرى فى هذه الطاعة فائدة وقوة للمسلمين . ومن جهة أخرى ، ترك العثمانيون من ذلك الحين حكومة دواخل البلاد فى أيدى السادة السنوسية . وهكذا شهد تاريخ السيد الكبير بداية هذه الحركة العظيمة تنتقل من مجرد دعوة إلى الدين الصحيح وإرشاد لاتباع أثر السلف الصالح ، إلى دعامة من دعامات الحكم فى العالم الإسلامى ، وإمارة ، منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية . ولو أن آراء السيد بصدد هذه الخلافة ، وهى آراء سبق ذكرها ، جعلته يبتعد ما أمكن عن ولاة الدولة ورجالها فى بلاده . ومنذ أن أجمع العرب بعد وفاة السيد على اختيار ولده خليفة له صارت السنوسية (إمارة) وراثية فى عقبه ، ثم بقيت هذه الإمارة تعترف بخلافة السلطان العثمانى ، كما اعترفت بها وبوجودها (أى الإمارة) السلطنة العثمانية ذاتها ، كما يتضح من تاريخ السنوسية فى الأدوار التالية .

وأما الأثر الثانى ، فكان بناء البيضاء (أم الزوايا) ثم إنشاء زوايا السنوسية بعد ذلك بالقطر الليبى . فإن أهل السيد وأخوانه بعـــد أن ركبوا البحر ووصلوا إلى بنغازى من طرابلس على نحو ما تقدم ، لم يلبثوا أن وجدوا بها أشراف العواقير وهم عائلة الكزه وعائلة اللواطى ، ثم أشراف البراعصة ، وكان هؤلاء جميعاً فى انتظارهم بالإبل ومعدات السفر ، فأركبوهم إلى المحل الذى أسست به الزاوية وشرعوا فى بنائها ، حتى إذا تم بناؤها رحل إليها السيد فى الظروف التى سبق ذكرها . ولهذه الزاوية (البيضاء) فى تاريخ السنوسية مقام كبير ، لأنها ، كما تقدم ، أول الزوايا التى أنشأها السيد محمد بن على فى برقة ، وزيادة على ذلك فإن بعض معمرى الجبل الأخضر كانوا إلى مدة قريبة لا يزالوا يذكرون أنهم سمعوا السيد يقول فى أثناء بناء هذه الزاوية : « إن الأفرنج سيأتون يوماً إلى هناك ويهدمون قبة الصحابى سيدى رافع رضى الله عنه ويربطون خيولهم فى مسجد الزاوية البيضاء ، ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه عبارات لاتينية » . ويذكر الأمير شكيب أرسلان « أن هؤلاء المعمرين الذين سمعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه كله فى آخر حياتهم ، لأن الطليان جاءوا وهدموا قبة سيدى رافع — وإن كانوا جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيولهم فى مسجد البيضاء ، وأخذوا الحجر الذى عليه اللاتينى من الجدار » والواقع أن السيد رحمه الله كان يتوقع سقوط هذه البلاد بأيدى (النابلطان) أى أهل نابولى الإيطاليين . ولذلك فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن السيد اختار للزاوية البيضاء موقعاً (استراتيجياً) صعب المسالك ، ومن الميسور الدفاع عنه بعدد قليل من الرجال . زد على

ذلك أن السيد قد اتبع نظاماً خاصاً فى إنشاء بقية الزوايا فاختار لها أمكنة على شاطىء البحر بحيث تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات . ثم أنشأ خلفها جميعا زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها ، حتى إذا هو جمت الزوايا الأمامية التى بالشاطىء استطاع الإخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفية . وكانت (مسوس) القاعدة الأولى لهذه الزوايا ، وفى الجنوب زاوية الجغبوب المركز الرئيسى فيما بعد ، كما سيأتى بيانه .

هذا ، « ولما دخل (السيد) الزاوية البيضاء مكث بها — كما يقول السيد أحمد الشريف فى تاريخه — مدة قليلة ، ثم أتاه الخبر بقدوم سيدى أحمد بن فرج الله (الفيتورى) إلى بنغازى ؛ فأرسل اليه أربعة جمال ، وأرسل معها ابن الحاج ليحمله عليها إلى الزاوية البيضاء » وفى أوائل ذى الحجة ١٢٥٨ (يناير ١٨٤٣) ، حضر السيد أحمد بن فرج الله إلى الزاوية ، فلم يمكث بها إلا قليلا حتى خطب السيد إحدى بناته فى أوائل محرم من عام ١٢٥٩ (فبراير ١٨٤٣ ثم « عقد عليها خارج الزاوية فى محل يقال له (دنقره) ودخل بها » .ثم أعقب منها ذرية صالحة ، فولدله السيد الإمام محمدالمهدى فى محل يقال له (ماسه) فى الجبل الأخضر فى ذى القعدة من سنة ١٢٦٠ هجرية (نوفمبر ١٨٤٤) ، وكان السيد فى درنة . ثم ولد له فى أوائل رمضان ١٢٦٢ (أغسطس ١٨٤٦) السيد محمد الشريف بدرنة .

وقد خرج السيد بعد ذلك من برقة قاصداً الحجاز فى عام ١٢٦٢ هجرية (١٨٤٦ ميلادية) فأقام به ثمان سنوات . وفى أثناء إقامته هناك طلب السيد أن يوجهوا اليه ابنه السيد محمد المهدى ، وكان قد « توسط فى السابعة مع زوج خالته والدة السيد محمد على الغمارى ، والسيد زين العابدين ، فارتحل به وصحب معه ابنة المرتضى فركاش التى تأهل بها السيد المذكور بعد سفر الأستاذ (أى السيد محمد بن على السنوسى الكبير) من غير استئذانه ، وأتوا إلى درنة ، وأقاموا بها أياماً ينتظرون مركبا يوصلهم إلى الإسكندرية ، فلم يجدوا إلا مركبا توصل إلى خانيه ، فركبوا بها ونزلوا بخانية ، وأقاموا بها شهرين . . . وقدم إلى خانية الحاج أحمد بن المنتصر من الحجاز وأكرمهم . . . . . ثم أتت مركب مسافرة إلى الاسكندرية فركبوها ونزلوا بالإسكندرية ومكثوا بها يومين ، وسافروا بمركب غير الأولى ونزلوا بمرسى (آخر) ثم ارتحلوا إلى وادى النيل من قرية إلى قرية حتى وصلوا القصير ، فنزلوا فى بحر القلزم قاصدين مكة يظنون أن الأستاذ بها ، فلقيتهم مركب كان فيها من أخبرهم أن الأستاذ بالمدينة . فولوا وجوهم شطر الينبع . . . ثم ارتحل (السيد محمد المهدى) من الينبع إلى المدينة فاجتمع بالوالد ولما دخل فى سن التاسعة ؛ سافر الوالد إلى مكة للحج . . وفى جمادى الثانية من سنة تسع

وستين (مارس ١٨٥٣) ، أرسل له بالقدوم إلى مكة ، فسافر منه المدينة فى رجب يوم عشرين منه » (٢٩ إبريل سنة ١٨٥٣) .

وفى هذه السنة أيضاً (١٨٥٣) . أرسل السيد إلى الإخوان المقيمين بالجبل الأخضر حتى يرسلوا إليه ابنه السيد محمد الشريف مع والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله الفيتورى، « فارتحل (السيد محمد الشريف) من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده سيدى أحمد بن فرج الله ، ومروا على العقبة ثم منها إلى الاسكندرية ، ثم إلى كرداسة ، ثم إلى مصر ، ونزلوا ببيت الشيخ عمر الزوارى وأقاموا به أياما ، ثم إلى السويس . وركبوا البحر قاصدين جدة ، فلما وصلوا إليها نزل بعض من كان معهم ودخل جده ، ثم أتتهم ريح عاصف فلعب بالمركب حتى أيقنوا بالغرق وتقطعت الأشرعة وآخر الأمر سلمهم الله تعالى ، ورمتهم الريح على الينبع ، فنزلوا بها وأقاموا أياما للاستراحة ، ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فزاروا الروضة الشريفة المعظمة شرفها الله ، ولما اجتمعوا بالباشا الذى بها أهدى اليه هدية وهو كيس به مائة مجيدى وساعة ذهب ... وكان بزاوية الأستاذ بالمدينة يومئذ سيدى عبد الله التواتى ، فأكرمهم غاية الإكرام ، وأقاموا عنده ثلاثة أشهر ونصف ، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة فى منتصف ذى القعدة الحرام سنة تسع وستين (١٧ أغسطس ١٨٥٣) صحبة سيدى عبد الله التواتى. وبعد أن فارقوا المدينة بأربعة أيام تخلف سيدى عبد الله التواتى عن القافلة لوجع برأسه وحمى ، فنام هو ورفيقه ليستريح ويلحق القافلة » . فانقض عليه فجأة بعض العربان يريدون نهب الأمتعة والرواحل فقتلوه وجرحوا صاحبه . « وأرسل الوالى عسكراً يحرسون (القافلة) من المدينة المنورة إلى مكة » . واجتمع السيد محمد الشريف بوالده الأستاذ فى مكة المكرمة . ثم شاء المولى سبحانه وتعالى أن ينتقم من المعتدين الناهبين الذين قتلوا السيد عبد الله التواتى ، فحلت بهم الكوارث ، ونخرت أبدانهم الأمراض الخبيثة . فكان من أثر ذلك أن صار جميع الحرامية بعد ذلك إذا سمعوا بأن الركب سنوسى يحضرون إليهم للزيارة ويأتونهم بالذبائح ولا يأذونهم أبداً بل يحترمونهم ويطلبون منهم الدعاء » .

وفى أواخر ١٢٧٠ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) غادر السيد السنوسى الكبير أرض الحجاز قاصداً (العزيات) بالجبل الأخضر ، فخرج من مكة إلى جدة ثم إلى الوجه ومنه إلى السويس ثم إلى كرداسة ومنها إلى حوش ابن عيسى ، ثم إلى العزيات ، فكان وصوله إليها فى غرة ربيع الأول ١٢٧١ هجرية (٢٢ نوفمبر ١٨٥٤) . فلم ينقض عام واحد من وصوله إلى العزيات حتى طلب إلى سيدى عبد الرحيم المحبوب السفر إلى الزوايا لتفقد أحوالها، ثم أمره بالذهاب

إلى الحجاز حتى يحضر إليه ولده السيد المهدى إذا وجد « الأحوال بالحجاز متغيرة » أو يتركه إذا وجدها « هادئة » حتى يتم قراءته . ففعل السيد عبد الرحيم ذلك ، ولما كانت الأحوال هادئة بالحجاز فقد ترك به السيدى المهدى ، وحج إلى بيت الله الحرام وقفل راجعاً إلى (الجغابيب)

وحدث فى أثناء إقامة السيد بالعزيات أن قدم لزيارته (الشيخ محمد بلوا الدرناوى) ، وقد دون الشيخ خبر هذه الزيارة . واستطاع أحد الأخوان حديثاً أن ينقل ما كتبه الشيخ « من ورقة وجدت بزاوية درنة » ضمن أوراق قديمة عند ورثة الشيخ . وقد جاء فى هـــذه « الورقة » ببعض التصرف « أنه لما قدم أستاذنا سيدى محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى رضى الله عنه من الحرمين بغرة ربيع الأول ١٢٧١ (٢٢ نوفمبر ١٨٥٤) ، ونزل بقصر العزيات وشرع فى بنيان زاويتنا ، توجهت قاصداً السلام عليه . وكان اجتماعنا يوم الجمعة الموافق لعشرين يوماً خلت من الشهر المذكور(١١ ديسمبر ١٨٥٤) وجلسنا بين يديه رضى الله عنه ، وتفاوضنا فى رحلته وما وقع له فى الطريق . قال رضى الله عنه ، كان العزم الذى خرجنا له زيارة القدس . ثم فى أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا — (ثم بعد بعد حديث طويل فى شئون مختلفة) — أشار رضى الله عنه بالاستعداد ، فقال رضى الله عنه يجب على كل مؤمن أن يستعد ويأخذ هيئته ، ولم يصرح لى بالوقت . والملحوظ من إشارته رضى الله عنه القرب ، وإن كان قريبهم بعيد أو بعيدهم قريبا . وقال رضى الله عنه فى أثناء كلامه متى يقع الصلح العام تخصب أرضى طرابلس بصابة لاأتت ولا تأتى فيما بعد ؛ وفى ذلك العام تؤخذ طرابلس الغرب وتونس والاسكندرية . . . فقلت له ياسيدى أى القرانات (يعنى الدول) يأخذ الأسكندرية ، فقال الانقليز (الانجليز) ، ثم قال رضى الله عنه إن النابلطان (أهل نابولى) أخذ طرابلس الغرب وسواحلها عام وفاة سيدى أحمد زروق وانزاحت أهل القرى والبادية إلى البساط وبنوا مثل هذا القصر ، ولعله من بنيانهم ، ولما فتحت طرابلس الغرب وسواحلها رجعت الناس إلى أماكنهم ، وأخذت طرابلس الغرب وسواحلها سنة ١٠٦٥ (١٦٥٥ ميلادية) ؛ وفتحت عام مرور سيدى أحمد بن ناصر إلى الحرمين ؛ ومن ذلك قد يعلم أن تؤخذ ثالثا كما ذكر رضى الله عنه . » وقد ذكر السيد أحمد الشريف خبر هذا الحديث بين الشيخ محمد بلوا الدرناوى والسيد محمد بن على الكبير فى تاريخه .

وواضح أن توقع اغارة الطليان على طرابلس الغرب ، و(أخذها مرة ثالثة) كان السبب الذى دعا السيد إلى اختيار ذلك الموضع (الإستراتيجى) الذى شيد عليه الزاوية البيضاء ، ثم اختيار أماكن بقية الزوايا التى تم انشاؤها فى عهده فى الأراضى الليبية بالشكل الذى سبق بيانه.

وفى الحقيقة كان أهم ماشغل به السيد منذ قدومه إلى برقة ، وفى المدة التالية إنشاء الزوايا

فى جميع أنحاء ليبيا فى الجبل الأخضر وفى دفنا وبقية طرابلس الغرب وجنوبى تونس ، وهذا عدا الزوايا التى انشئت فى مصر وبلاد العرب ومرزوق وغات وغدامس وإنساله وتوات ولدى التوارق وفى السودان حتى بلغ عدد هذه الزوايا عند نهاية حياته الاثنتين والعشرين ، منها ثمانية عشر زاوية فى برقة وحدها . والمشهور من هذه الزوايا كثير ، فقد أمر رحمه الله أبا القاسم العيساوى أن يبنى زاوية طرابلس الغرب ، ثم زاوية الجبل الغربى ، وأمر الشيخ عبد الرحيم المحبوب أن يبنى زاوية بنغازى ثم زاوية أم شخنب . وأمر الشيخ مصطفى المحجوب أن يبنى زاوية دريانة وهكذا .

على أنه مما يجدر ذكره أن إنشاء هذه الزوايا المتعددة من جهة ، ثم انتشار تعاليم السيد وذيوع الطريقة السنوسية من جهة أخرى لم يلبث أن أثار عداء السلطات الحكومية (العثمانية) التى بدأت تخشى من سلطان السيد فى الجهات التى أنشئت فيها الزوايا وكثر بها الاخوان والاتباع والمريدون خصوصا فى الاقليم الذى كان يحده فى الشمال شاطىء البحر الأبيض من الأسكندرية إلى قابس ، ثم يمتد صوب الجنوب إلى بلاد الزنوج ، أضف إلى هذا أن علماء الدين الذين ما كانوا يرضون بأى جديد — و « الجديد » فى الطريقة السنوسية لم يكن فى الحقيقة سوى تمسك صاحبها بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، ثم قوله بأن الاجتهاد لم ينقطع وبابه مفتوح — سرعان ما زادت نقمتهم علية ، خصوصا علماء وشيوخ القسطنطينية ومكة ومصر . ومن الأمثلة المشهورة على ذلك ماقصه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى كتابه (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) عند الكلام عن « عداوة علماء العصر للعلوم والفنون » فقال : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والدالسنوسى صاحب الجغبوب) — ومراد الأستاذ الإمام السيد محمد بن على السنوسى والد السيد محمد المهدى رحمهم الله ورضى عنهم — كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى مايخالف رأى مجتهد أو مجتهدين ، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف ، فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ؛ وربما كان يجترى الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه ؛ وإنما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى » . وفى التهميشة ، لناشر الكتاب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، أن الشيخ المالكى ، « هو الشيخ (محمد) عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين (الأفغانى)

والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف » . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن الشيخ محمد عليش أحد الشيوخ المالكية فى القاهرة انبرى فى عام ١٨٤٣ (لتكفير) السيد السنوسى ونفى دعواه بعدم انقطاع الاجتهاد وبأنه فى إمكانه مخالفة أئمة المذاهب المعروفة ما دام مستندا فى اجتهاده الى ما جاء فى الكتاب والسنة . فكان (تكفير) السيد بهذه الصورة أقصى ما بلغه الغلو والتطرف فى المعارضة من جانب المقلدين خصوصا .

وعلى ذلك فقد وجد السيد أن من الحكمة أمام ازدياد عداء السلطات الحكومية والعلماء المتمسكين بالقديم ، أن يتخذ مقراً جديداً لدعوته غير الزاوية البيضاء ، فان إنشاء هذه الزاوية بمحل قريب من الساحل جعلها فى الحقيقة قريبة من سلطان حكومة بنغازى العثمانية التى لم تلبث أن زادت مخاوفها أيضاً عندما وجدت هذه الزاوية بعد فترة قصيرة من إنشائها تكاد تصبح مدينة كبيرة يقصدها الزوار من كل مكان ويلجأ اليها الكثيرون . فأراد السيد أن ينشىء زاوية غيرها تكون بعيدة عن الساحل وعن متناول سلطان الحكومة القائمة ونفوذها فاختار لهذا الغرض واحة الجغبوب . وكان اختيارا موفقا ، ويدل — كما قال أحد المؤرخين « على شدة تفكير وبعد غور فى السياسة » من جانب السيد . ذلك أن جغبوب كانت فى مكان تكثر به القبائل العربية المستقلة والتى قبلت الدعوة السنوسية ودخلت فى عداد الإخوان السنوسيين ، واصبح لذلك من المستطاع أن يعتمد السيد على أهلها فى نشر دعوة الإسلام فى مجاهل الصحراء وفى الجهات المجاورة التى مازال أهلوها حتى ذلك الحين على وثنيتهم القديمة . زد على ذلك أن السيد رحمه الله كان يشعر بدنو استيلاء الأجانب على البلاد كما يظهر ذلك مما سبق ذكره ـ ففضل أن ينتقل الى الجنوب ويقيم زاويته الجديدة فى جوف الصحراء ، فى مكان يصعب الوصول اليه ، فوقع اختياره على الجغبوب وهى (سوفا) القديمة على مسافة ثلاثة أيام من سيوة . وكان يربط الجغبوب بداخل أفريقية الغربية حتى بحيرة (تشاد) طريقان : أحدهما شرقى ، من سوكنة إلى مرزوق ، والآخر غربى ، من غدامس مؤالعاير . وكانت جغبوب فى تلك الآونة « واحة ملحة يأوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث فى أنحائها . فلما اختارها (السيد)مقراله وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية . فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع فى البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدى الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء » .

وعندما قرر السيد الانتقال إلى الجغبوب ، « ارتحل (رحمه الله) من العزيات آخر يوم

من محرم الحرام (١٢٧٣ هجرية) — ٣٠ سبتمبر ١٨٥٦ — قاصدا الجغبوب ، والمسافة التى بينه وبين العزيات — كما يقول السيد أحمد الشريف فى تاريخه — مع الطريق المعتادة الآن بالأبل المثقلة هى ما بين الثمانية إلى العشرة أيام ، إلا أنه رضى الله عنه فى سفره لم تكن طريقه ، لأنها لم تستعاد (أى لم تكن مطروقة) إلا بعده ؛ وإنما أتى على البطنان ، وهى المعتادة فى ذلك الوقت ، إلى سيوه ، والآن مهجورة لطولها لايمر معها إلا قليل ؛ وإنما المعتادة الآن هى طريق الحكيات ، وهو وادى به صهريج لجمع ماء السماء كان مردوما وأصلحه السيد العم رضى الله عنه (أى السيد محمد المهدى) ، كما أنه جعل بيرا بالدفنة التى بينهما طوله نحو الستين قامة ، بينه وبين العريات نحو من يوم ونزل بالجغبوب فى صفر ».

« ولما وصل الأستاذ الجد رضى الله عنه (السيد محمد بن على السنوسى الكبير) بالجغبوب سنة ثلاث وسبعين (أكتوبر ١٨٥٦) ، أمر سيدى عبد الرحيم (المحبوب) بالرجوع إلى الحجاز فى تلك السنة ليأتيه بالسيد المهدى رضى الله عنه إلى الجغبوب ، فخرج سيدى عبد الرحيم إلى الحجاز فحج وخرج بالسيد المهدى من مكة إلى جدة فى آخر ذى الحجة (٢١ أغسطس ١٨٥٧) ونزل فى بيت مصطفى قاضى الحضرى وهو رجل تاجر محب للأستاذ محبة قوية هونت عليه دنياه فى جانبه ، فيذل أموالا لاتحصى فيما يحب الأستاذ رضى الله عنه ، منها بناء زاوية بجدة صرف عليها أموالا عديدة . . . (ثم) ارتحلوا من جدة ليلة هلال المحرم فاتحة سنة أربع وسبعين بعد المائتين وألف (سبتمبر ١٨٥٧) قاصدين السويس فى مركب شراعى ، ولم يتيسر لهم ريح يسيرها فوصلوا طور سيناء على خمسة وعشرين يوما من جدة ، بعد أن مر على الوجه والحوراء وما لها من المراسى ، ثم نزل الأستاذ العم (السيد محمد المهدى) ومن معه وهم سيدى عبد الرحيم وسيدى محمد الغمارى ليسافروا برا إلى السويس ... ووصلوا السويس على ستة أيام من الطور ... (ثم) ركبوا السكة الحديد إلى مصر وأقاموا ببيت سيدى أحمد الحلوى قريبا من شهر ينتظرون الرفقاء والغائبين بالبحر حتى قدم الغائبون ، وسافروا من (عند سيدى أحمد الحلوى) قاصدين سيوه ، فخرجوا إلى كرداسة ... ثم وصلوا سيوه فى اليوم التاسع من المولد النبوى فحضروا المولد بها (وآخر أكتوبر ١٨٥٧) ؛ ثم سافروا قاصدين الجغبوب ، فوصلوا فى اليوم الرابع من سفرهم . . . وفى سنة خمس وسبعين أهله بالخالة ابنة الجد السيد عمران بن بركة » .

« ثم أرسل الأستاذ الجد رضى الله عنه (السيد السنوسى الكبير) إلى الوالد (أى السيد محمد الشريف) والد السيد أحمد الشريف صاحب هذا التاريخ ، بأن يقدم إلى الينبع ، أى ينبع البر ، ثم إلى الحوراء ؛ فخرج فى ركب عظيم من أشراف مكة نحو خمسماية هجين قاصدين

المدينة المنورة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم التوجه إلى الينبع ، ومنه إلى الحوراء . فلما وصل بدر اخذ غدرية صغيرة وصار يحركه فيها فتكلمت فى صدره ، وثبتت رصاصتها فى عظم كتفه ، فأتوا بمن له معرفة فى فن الجراحة وشقوا عليها وأخرجوها ... ومكث ببدر مريضا أربعة أشهر ، وتفرق ذلك الجمع وذهبوا إلى المدينة ، وزاروا ورجعوا لأما كنهم ، وأرسل الأخوان الذين معه أجوبة لوالده الأستاذ الأكبر رضى الله عنه يخبرونه بما قدره الله وقضاه على ابنه من الإصابة بالرصاص ببدر وأنهم يقيمون معه مجتهدون فى معالجته ، وأرسلوا له الرصاصة التى أخرجوها من كتفه والجواب مع سيدى محمد الزيتون وسيدى محمد شمرا وأرسلوا له الجواب بخط الأستاذ الوالد ليكون دليلا على معافاته ... (ثم مكث ثلاثة أشهر بالحوراء وهى على شاطىء البحر بينها وبين ينبع البر ثلاثة أيام ، ثم أتاه الطلب من والده الأستاذ بالقدوم عليه بالجغبوب ، أواخر رمضان (إبريل ١٨٥٩) ... فارتحل الأستاذ السيد محمد الشريف من الحوراء ثانى يوم من شوال (٥ مايو) وركب البحر إلى بليدة صغيرة تسمى الوجه . وأقام بها ثلاثة ايام ثم رجع إلى البحر مكدر ونزل بالقصير ومنه توجه إلى البر إلى أن وصل إلى الريف ، وتوجه منه إلى البحر فصار يمشى من بلد إلى بلد إلى أن وصل الواحات بجم غفير ، ومنها خرج فى البر إلى سيوة مسيرة سبعة أيام . ومنها إلى الجغبوب ثلاثة ايام ، وصل به يوم الجمعة آخر يوم ذى الحجة الحرام خاتم سنة خمس وسبعين بعد المائتين والف . (٣٠ يولية ١٨٥٩) » .

على أنه حين قدوم ولده السيد محمد الشريف ، كان السيد نفسه يعانى آلام المرض الذى بدأ رحمه الله يشعر به من منتصف شعبان ١٢٧٥ (٢٠ مارس ١٨٥٩) ، ثم اشتدت وطأة المرض عليه ، « وبقى المرض معه كذلك إلى انتهاء رمضان ، ثم ارتفع بعد ذلك إلى منتصف شهر محرم فاتح سنة ستة وسبعين بعد المائتين والف ... (ثم) تزايدت عليه الأمراض وصار يغيب أحيانا ويفيق أحيانا إلى أن دعاه مولاه فاجاب دعاه يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس فى اليوم التاسع من شهر صفر الخير سنة ١٢٧٧ » ، ٧ سبتمبر ١٨٥٩ . هـذا « وبعد وفاته الف (السيد عمران بن بركه) خطبة وصعد على المنبر وخطب بها يوم الخميس بعد صلاة الظهر ، ودفن السيد (رحمه الله) يوم الجمعة بعد الظهر فى البقعة الشريفة التى هو بها الآن (بالجغبوب) . وصار جميع الأخوان ومن له قدرة على القراءة يقرأون القرآن العظيم بالمحل الذى توفى فيه وعلى قبره ليلا ونهارا إلى أن تمت أربعين يوما بعد دفنه ، ثم بنيت عليه أولا قبة صغيرة ثم فى سنة اثنين وثمانين (١٨٦٥) جددت ووسعت وجلب من أجلها الأسطاوات الماهرين من مكة المشرفة فكانت من عجائب الدنيا ومدة إقامته رضى الله عنه بالجغبوب قبل وفاته سنتين وتوفى فى أول السنة الثالثة فى الشهر المذكور » .

وكان السيد رحمه الله قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من الجغبوب مركزا لنشر الإسلام بين الزنوج الوثنيين (أو الفيتيشيين) فى واداى وفى الأقاليم المجاورة لها . فقد تغلغلت السنوسية فى عهد السيد فى هذه الجهات وعلى وجه الخصوص فى (واداى) ، التى قبل سلطانها محمد شريف أن يدخل الطريقة السنوسية فى سلطنته وكان السيد رحمه الله قد أنشأ معه صلات وثيقة منذ قابله بمكة المكرمة فى أثناء إقامة السيد بها ، وظل محمد شريف من أكبر أنصار السيد فى مكة مدة ، وقبل وصوله إلى الحكم ، حتى إذا اعتلى عرش واداى فى عام ١٨٣٨ ، وكان قد فطن إلى الفوائد العظيمة التى انتظر أن تجنيها بلاده من انتشار السنوسية بتعاليمها القويمة ، وما أخذه الأخوان على أنفسهم من تهذيب النفوس والارشاد إلى الدين الصحيح طفق يعمل على تاييد الطريقة فى بلاده كما ظل طوال مدة حكمه من أكبر اتباع السيد ومريديه والصادعين بامره والمستمعين لنصحه وارشاده حتى وافته منيته فى عام ١٨٥٨ . ويذكر (رين) Rinn أنه مما ساعد السيد أيضا على أن يجعل من الجغبوب قبل وفاته مركزا لنشر الإسلام بين الوثنيين ، تمكنه من اعداد جماعة من هؤلاء الزنوج أنفسهم للتبشير بالدين الحنيف فى بلادهم . وتفصيل ذلك ان بعض البدو أغاروا على إحدى القوافل التى كانت تحمل عبيدا من أهل واداى ليبيعهم فى أسواق الرقيق ، وكان سطوهم عليها وهى لاتزال فى طريقها إلى مصر على الحدود البرقاوية المصرية ، فاشترى السيد منهم جميع الرقيق ، وأحضرهم إلى الجغبوب . حيث أشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم فى الزاوية ، ثم حررهم وأرسلهم إلى بلادهم (واداى) كى ينشروا الإسلام ويدعوا إلى الطريقة السنوسية بين الزنوج . ومن ذلك الحين صار أهل (واداى) يحضرون بمحض ارادتهم إلى الجغبوب ، يتلقون العلم فى زاويتها كما أقبلوا على الخدمة فى بقية الزوايا السنوسية عن طيب خاطر .

بيد أنه مما يجدر ذكره أن السيد كان يلقى معاونة فى نشر التعاليم السنوسية من جانب كبار الاخوان والشيوخ ومن أهم هؤلاء ، المقدم سيدى عبد الله السنى المتوفى فى سنة ١٨٧٧ ، ثم المقدم سيدى الحاج أحمد التواتى ، ثم المقدم سيدى عبد الله التواتى . فقد تم إنشاء سبعة زوايا على أيدى سيدى عبد الله السنى فى مصراته ومزده وأورفله وحرابه ، وسنوان ، ومتريس ، وتونن . بينما أشرف سيدى الحاج أحمد التواتى على إنشاء الزوايا فى مرزوق ، وزويله ، وقطرونه ، وواو الشعوف ثم فى فزان . وأما سيدى عبد الله التواتى فقد سبق ذكر طرف من نشاطه فى الحجاز حيث قتل بالقرب من المدينة فى عام ١٨٥١ .

وهكذا كانت السنوسية عند وفاة السيد محمد بن على السنوسى الكبير . قد توطدت أركانها نهائياً ، وانتشر نفوذها حتى قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل قيام الدعوة والإرشاد وتشييد دعائم تلك الأمارة التى صارت إلى جانب مالها من سلطان روحى عظيم ، تتمتع بقدر كبير من مظاهر السيادة الزمنية الفعلية فى برقة على وجه الخصوص .

الفصل الرابع

الامارة السنوسية

أما وقد فرغنا من ذكر ذلك الجهد العظيم الذى قام به صاحب الدعوة القويمة ومؤسس صرح الإمارة السنوسية العتيدة ، فقد بات النظر ضروريا فى أصول هذه الدعوة الجديدة ، ثم ما أحدثه ذيوعها فى عهد صاحبها من آثار بين الأقوام الذين اصطفاهم السيد السنوسى الكبير نصراء له وخلفاء يدعون إلى فعل المعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الدين الحنيف على قوائم صحيحة تعتمد على الكتاب والسنة وتطهر الإسلام من البدع التى أدخلها عليه المحدثون وكثيرون من المقلدين بعد عهد السلف الصالح والخلفاء أو الأئمة الراشدين ، — عهد الإمامة العظمى الرشيدة قبل أن يجعلها الأمويون ملكا عضوداً يتوارثونه فى أعقابهم ويتبعهم غيرهم فى ذلك ، حتى استنوا جميعا سنة إمامة الضرورة والتغلب بالقوة . وكذلك فإنه لما كان الإسلام دينا وسياسة ومنوطا به تدبير شئون الدنيا وعالم الآخرة ، فقد ترتب على ظهور السنوسية فى الأصقاع التى انتشرت بها صلاح أحوال أقوامها واستقامة أمورهم ، حتى إذا نضجوا وتغلغلت تعاليم الدين القويم فى نفوسهم وعرفوا الهداية على أيدى السيد محمد بن على السنوسى الكبير وعلى أيدى خلفائه من بعده ، تعذر عليهم الخنوع والخضوع وانقضى زمن تفرقهم القديم . ووجدوا فى السنوسية بوصفها دعوة وطريقة ما يمسكون به زمام أنفسهم ويجمعون حوله كلمتهم حتى يعيشوا فى بلادهم أحراراً قوامين على أنفسهم حافظين لدينهم وملتهم ، لا يقنعون إلا بالحياة الحرة الطليقة . وكان للسنوسية أن تفخر بهذه الزعامة التى اعتمدت منذ قيامها على الدعوة للحق ، يحمل الأخوان والأتباع ألويتها إلى مجاهل أفريقية الوثنية ، فتبنى السنوسية عرشها على الأفئدة والنفوس ، ويدعم بنيانها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فضيلة الإسلام كما أظهرها السيد المؤسس بهدى من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وفى هـــذا البحث محاولة تفصيل ما أجملنا فى بيان الأصول التى قام عليها صرح هذه الأمارة . وأولها الأصل الدينى ، وهو ما تفتق عنه ذهن السيد بعد دراسة مستفيضة للعلوم الدينية ، وما اهتدى إليه من طريقة يبغى بها إحياء الملة وإصلاح أحوال المسلمين . وثانيها

الأصل الاجتماعى الذى توصل منه السيد إلى نشر فضائل الإسلام ، فكانت وسيلته إلى ذلك الزوايا التى أنشأها ، ثم تلك التى أنشأها خلفاؤه من بعده والإخوان فى الأقطار الليبية وفى غيرها من الأقطار القريبة والبعيدة ، وما تبع ذلك من نشر ألوية الإسلام خفاقة بين الوثنيين من شعوب أفريقية الغربية خصوصا والسودان من أجزاء القارة المجهولة . وثالثها الأصل السياسى ، مما يتضمن القواعد التى قامت عليها إمارة السادة السنوسية . ويدخل فى ذلك جهود السيد محمد المهدى خليفة السيد محمد بن على السنوسى الكبير . وقد نشر الله جلت قدرته دينه الحق فى أفريقية الوثنية على يديه ووطد به وبعمله أركان الإمارة الجديدة .

والسيد محمد بن على السنوسى الكبير مالكى ، درس أصول الدين الحنيف وتفقه فيه ، وكسب بفضل جهده وما تحلى به من صفات نبيلة ، ثم قيامه آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر أفئدة القوم حوله ، فبوءوه بسبب علمه وتفقهه فى الشريعة مكانا عاليا . وقد نفعه رحمه الله الاجتهاد ، فأصبح من كبار الأئمة المجتهدين . وللسيد الكبير دروس وأبحاث فى الفقه ، هى أركان دعوته والأساس الذى بنى عليه الطريقة السنوسية المشهورة . من هذه البحوث والدروس ما هو الآن مطبوع . قام على ذلك وحرص عليه حفيد المؤلف وصاحب الإمارة السيد محمد ادريس المهدى السنوسى ، معقد آمال العرب فى الأقطار الليبية وإخوانهم المسلمين فى أقطار المعمورة . ومنها ما يزال مخطوطاً محفوظاً حتى يتم طبعه ، فيكمل الانتفاع به إن شاء الله .

فمن مؤلفات السيد محمد بن على المطبوعة كتاب مشهور سماه صاحبه (كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد وخلاصة المراصد) . وكان الانتهاء منه فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٢٦٤ هجرية (٢٣ أبريل ١٨٤٨) . ثم كتاب آخر سماه (إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن) . وعدا ذلك كتب السيد (المسلسلات العشرة) فى الأحاديث النبوية ، كما يوجد بهامش كتاب (المسائل العشر) كتيب صغير اسمه (السلسبيل المعين فى الطرائق الاربعين) . وأما الكتب الأخرى التى لم تطبع ، فمن أشهرها (المنهل الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق) ثم (الشموس الشارقة فى أسماء مشايخ المغاربة والمشارقة) ، ثم عجالة فى أول من ألف فى فن الحديث تصلح لأن تكون مقدمة للموطأ . وللمؤلف كذلك كتابة فى التاريخ معروفة ، وكتابه (الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية) نقله أحد كبار شيوخ السنوسية فى ديسمبر ١٨٧٦ ، وطبعه حفيد المؤلف فى القاهرة عام ١٩٣١ .

و (الدرر السنية) كتاب يشتمل على موجز أخبار من ملك المغرب منذ فتح المسلمون أفريقية فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فأفرد المؤلف فصولا أفاض الكلام

فيها على دولة الأدارسة وفروعهم فى البلاد المغربية وما جددوه من الدين فيها ، ثم فصل خبر وفاة السيد أدريس الأكبر ، وسبب وفاة ابنه السيد إدريس الأزهر بانى مدينة فاس . وختم كتابه بذكر الخلفاء الأربعة ثم خامسهم سيدنا الحسن السبط بن على رضى الله عنهما . ثم أثبت ذكر خلفاء بنى أمية جميعاً ، حتى إذا فرغ من ذلك اتبعهم بخلفاء بنى العباس .

ولهذا الكتاب (الدرر السنية) قيمة كبيرة فى تاريخ الأمارة السنوسية ، لأنه يتضمن تاريخ السلالة الطاهرة الشريفة التى ينحدر منها الأئمة السنوسيون ، حفدة الأدارسة الكرام أبناء إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة البتول بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم سلالة الرسول الكريم والنبى العظيم وحفدة أشراف قريش ، وأصحاب الإمامة . كما قال السعد — وهو العلامة السعد التفتازانى ، وقد جاء فى شرحه للمقاصد (مقاصد الطالبين فى علم أصول عقائد الدين المطبوع فى الآستانة ١٣٠٥ هجرية صفحة ٢٧١ من الجزء الثانى) ويشترط فيه — أى الإمام والخليفة — أن يكون مكلفا مسلماً عدلا حراً ذكراً مجتهداً شجاعا ذا رأى وكفاية سميعا بصيراً ناطقا قريشيا ، فإن لم يوجد فى قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ولى كنانى ، فإن لم يوجد فرجل من ولد اسماعيل ، فان لم يوجد فرجل من العجم » .

وإننا لنجد فى كتابى السيد (المسائل العشر المسمى بغية المقاصد وخلاصة المراصد) و (إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن) ، إلى جانب ما كتب ودون البرهان الساطع على ما وصل إليه صاحبهما من درجة التمكن الكاملة فى العلوم الدينية ؛ كما أن (البغية) و (الإيقاظ) يتضمنان ما وصل إليه السيد من آراء أصولية نتيجة اجتهاد عظيم ، وهو الذى يجمع فى شخصه ولا شك كل ما يشترطه العلماء فى المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية ، أى من الصفات القائمة به والأمور المحققة لإيقاعه . وغايته التمسك بالقرآن الكريم والسنة الشريفة والعمل بهما . فقد بدأ كتاب (المسائل العشر) بمقدمة لبيان جلالة مقادير السلف ثم اتبع المقدمة بمراصد ، فكان المرصد الأول فى وجوه الهدى لسنن الأئمة الراشدين فى فصول فى المذاهب والفتوى والقضاء ، وذكر النصوص المتعلقة بالتقليد والإجتهاد والفروق بينهما ، وبيان أنواع الاجتهاد والمجتهدين ، ثم الكلام فيما للأصوليين وللمحدثين والفقهاء فى العمل بالحديث وتفرقهم فيه . وفى المرصد الثانى قصر السيد الكلام فى كيفية صلاة أهل الاصطفاء فى صفة صلاته صلى الله عليه وسلم ، ثم فى آكد مباديها المتصلة ، وصفة أقوالها وأفعالها المجملة ، ثم فى كيفية الصــلاة وفروعها وأركانها مفصلة . وفى المرصد الثالث ذكر نصوص الائمة فى المسائل العشر ، أى فى حكم رفع اليدين فى الصلاة ، والقبض والسكتات

الثلاث وما يقال فيها وفى حكم الاستعاذة وهل هى للقراء أو للصلاة ، ثم فى البسملة للفاتحة والسورة ، ثم فى التأمين والتكبير لقيام الثالثة ، وفى السلام والخروج من الصلاة وفى القنوت ورفع اليدين حال الدعاء ، ثم فى تطويل الصلاة وتقصيرها . وقد ختم السيد مؤلف هذا البحث بذكر أحوال القوم الفاخرة فى تمهيد ثم سبعة فصول ، عن النفس الأمارة والنفس اللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة . وفى كل هذه المقاصد والأبواب والفصول التزم السيد المؤلف أحكام القرآن الكريم ثم نصوص السنة الشريفة ، والمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما أجمعت عليه كلمة الأئمة الراشدين والسلف الصالح .

وأما كتاب (إيقاظ الوسنان) فكان مداره وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، وبيان أن دلالة الكتاب والسنة واحدة ، وتضمن أدلة وجوب اتباعهما وتقديمهما على رأى كل مجتهد وفى هذا الكتاب تصدى السيد المؤلف بطبيعة الحال إلى الكلام عن الحديث الشريف فذكر طرق العمل به لدى الأصوليين والمحدثين والفقهاء على غرار ما يتحدث به أيضا فى كتاب المسائل العشر ، كما صار يتحدث باسهاب عن الاجتهاد والتقليد . وقد أفرد السيد المؤلف فى كتاب (إيقاظ الوسنان) فصلا خاصا فى رد زعم الانقطاع ودعوى أنه إجماع ، فذكر قول الشعرانى فى (الميزان) فان قلت هل يصح لأحد الآن الوصول إلى مقام أحد من الأئمة المجتهدين فالجواب نعم ، لأن الله على كل شىء قدير ، ولم يرد دليل على نفيه ، ولا فى نفس الأدلة الضعيفة . . . ، وأما فيما للعلماء فى انحصار التقليد فى الأئمة الاربعة رضى الله عنهم فقد جاء فى (إيقاظ الوسنان) أنه لا واجب إلا ما أوجب الله ورسوله ، ولم يوجب الله ولا رسوله ، ولم يوجب الله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دينه دون غيره ، إلى أن قال . بل لا يصح للعامى مذهب ولو تمذهب به ، ثم أقام الحجة على ذلك بقوله بعد كلام . . فالعامى لا يتصور أن يصبح له مذهب ولو سلم لم يلزمه ولا أحد من الخلق قط أن يتمذهب لرجل من الأمة بأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره كلها ، وهذه بدعة قبيحة حدثت فى الامة لم يقل بها أحد من أئمة الاسلام . . فيا لله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر الاسلام ، وبطلت جملة إلا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين الأئمة والفقهاء . وهل بذلك قال أحد من الأئمة أو دعا إليه أو دلت لفظة واحدة من كلامه عليـــه ، والذى أوجبه الله ورسوله على الصحابة والتابعين هو الذى أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة لا يختلف الواجب ولا يتبدل ، وإن اختلفت كيفيته أو قدره باختلاف القدرة والعجز والزمان والمكان والحال ، فذلك أبدا تابع لما أوجبه الله ورسوله » .

ومما تقدم يتبين أن السيد محمد بن على السنوسى الكبير قد أفنى العمر فى التدقيق فى جميع

المذاهب الاسلامية المقبولة « ما فتر العمل به وقل أو انقطع وما يزال قائما — أى مذاهب الائمة الاربعة — ، ثم استخرج من جميع ما درس أصح الاقوال وأكملها . ولم يقتصر جهده على هذا بل أنه لما كان مجتهدا عدلا عالما شريفا ذا عقل ناضج وفكر ثاقب وإيمان قوى ، فقد مزج هذه المذاهب بما صح وكمل من أقوالها ، ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنة والمذاهب التى لم يعد هناك اتباع لها واستطاع أن يجعل منها مذهبا واحدا » هو مرآة المذاهب الأربعة السنية وزبدتها » ، ومع هذا فقد امتنع السيد من إعلان مذهبه الجديد على حدة بل قصره على الإخوان السنوسيين ، « تحاشيا لإثارة بعض الظنون السيئة » .

وكما درس السيد هذه المذاهب واختار المذهب الذى هداه اليه الاجتهاد والتوفيق بعد بحث وتدقيق وعبادة طويلة ، فقد دفعه يقينه وإيمانه الصادق إلى الإكثار من الإجتماع بالأئمة الأعلام فى الدين والعلم فى كل مكان يأخذ عنهم علومهم وينعم النظر فى طرائق عبادتهم وذكر الله والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى اجتمع له علم كثير بطرائق عدة ، درس أصولها ووقف على تاريخها ومنشئها وما كان عليه اتباعها وهكذا . ثم استطاع بعد ذلك كله أن يكتب فى هذه الطرائق جميعها ؛ فكان هامش (كتاب المسائل العشر) وهو المسمى (السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين) . وجاء فى مقدمة (السلسبيل) قول السيد رحمه الله « وقد حصل لنا ولله الحمد التام بأئمة أعلام وجهابذة من أهل الله تخام ، ووصل الينا من طرائقهم أخذا وإجازة عدة وافرة وجملة متكاثرة (ثم) بدا لى أن أنتخب من تلك الطرائق أربعين سوية وأفردها برسالة مبينة لأسانيدها السنية » . وعلى ذلك فقد تكلم السيد فى كتابه هذا عن الطرائق المحمدية والصديقية والأويسية والقادرية والرفاعية والسهروردية والأحمدية والشاذلية وغيرها . وكان من أثر ذلك كله أن انفرد السيد وأتباعه باتباع طريقة خاصة بهم هى الطريقة السنوسية .

ومما يجدر ذكره أن السنوسية لم تكن شعبة من الطريقة الشاذلية ، بل إن التعريف الصحيح لهذه الطريقة ، هو الجمعية السنوسية ، لأن دقة النظام الذى تشكلت منه هذه الجمعية لم يسبق له مثيل فى سائر الجمعيات سياسية كانت أو دينية خفية أو علنية . ولذلك تميزت السنوسية من غيرها من الطرائق بذلك الأثر الاجتماعى والسياسى الكبير الذى أحدثته والذى جعل منها فى الحقيقة وسيلة دعوة جديدة إلى الدين القويم بما يحض عليه هذا الدين من وجوب التمسك بالقرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ينجم عن هذا كله من ذيوع فضائل الإسلام بين أهل هذه الطريقة أو الجمعية فى البلاد التى تنتشر فيها فيرفرف على هذه البلاد السلام وتسودها الطمأنينة على الأنفس والأموال والأعراض . ثم هى ، أى السنوسية ، وسيلة

لإنشاء الإمارة لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذى وضعته لأتباع الطريقة نوعا من السيادة الدينية والدنيوية معا على خير مايقيمه الإسلام من أسس لذلك ، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة المصلحة . وقد قبل هذه السيطرة الروحية والزمنية عالم من عوالم الإسلام فى الأقطار اللوبية ، يدين بالطاعة الكاملة لشيخ الطريقة بل إمامها وأمامهم ، بفضل مايستحقه هؤلاء الشيوخ والأئمة من مكانة عظيمة وهم القوامون على إخوانهم وأبنائهم فى الدين والملة والذين نشروا كلمة الله الحق والسنة الشريفة فى ربوع الأقطار اللوبية وحملوا أنوار الدين الحنيف إلى مجاهل القارة الوثنية ، وهذا فضلا عما يتمتعون به من نسب عتيد يصلهم ويصل جدودهم الصالحين بالنبى القرشى العظيم (محمد) صلى الله عليه وسلم .

وكان من أسباب ذيوع الطريقة السنوسية أو دعوة الإصلاح الدينى والاجتماعى الجديدة بساطة الطريقة ذاتها ثم إنشاء الزوايا باعتبارها مراكز لبث الدعوة والإرشاد فى الأقطار التى غدت ميادينا لذيوعها . فالطريقة السنوسية تخلو من الحكم المغلقة التى يصعب على الفكر الوصول إلى كنهها ، كإظهار الكرامات والخوارق أو التواجد والشطح ، ؛ كما أن مؤسس الطريقة رحمه الله وخلفاءه والاخوان والاتباع لايعنون بعرض الدنيا الزائل ؛ فليس من دأبهم وديدنهم جمع الأموال وتكديسها . زد على ذلك أنه ليس لهذه الطريقة مواسم ورياضيات أو شىء مغاير للمنطق والفكر الصحيح ؛ إذ هى أولا وقبل كل شىء تقوم على حكمة عملية واجتماعية أساسها الاخوة والتعاون ؛ فهم — أى السنوسيون — يجتمعون فى ليلتى الجمعة والاثنين من كل أسبوع إلى جانب أيام المواسم الإسلامية فيطعمون الفقراء ويواسونهم . وفى هذه المناسبات يجتمعون فى الزوايا تحت رئاسة الشيخ أو المقدم فى كل زاوية فيقرأون مجتمعين بعضا من القرآن الكريم مع مراعاة أحكام التجويد بدون ترنم أو ترديد ، ويعرفونها باسم قراءة الوقف ثم يتلون الصلاة المعروفة بالصلاة العظيمة ترتيب السيد احمد بن أدريس .

وقد توخى مؤسس الدعوة البساطة عند مخاطبته الأهلين ، يطلب إليهم إقامة فرائض الدين الحنيف ، ويأمرهم بما أمر الله به عباده الصالحين فى كتابه الكريم ، وينهاهم عن فعل مانهى الله عنه حتى يصلح حالهم وتستقيم أمورهم فى طاعة الله ورسوله . من ذلك قوله رحمه الله فى كتاب بعث به إلى أهل (واجنقة) . « أسألكم باسم الإسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، (أيها المؤمنون أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ويقول كذلك (من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) . نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدون الصلوات الخمس كل يوم وتصوموا شهر رمضان وتؤتون الزكاة وتؤدون

فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وتجتنبوا مانهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق وشرب الخمر وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمر الله باجتنابه . فإذا فعلتم ما أمر الله به وورعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الإسلام ومنحكم الخير والرزق الدائمين . يا أهل واجنقة إنا نريد أن ننشر السلام بينكم وبين الأعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكم ويبتزون أموالكم وإنا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ويقول سبحانه وتعالى (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم » .

وهذه رسالة جزلة القول واضحة المعانى لا تعقيد فيها ولا إبهام ، تنفذ إلى الأسماع وتأخذ بمجامع القلوب ، وقد ظل شيوخ الطريقة والمقدمون يحذون حذو السيد المؤسس فى رسائلهم التى نشروها علىَ الاخوان والاتباع والمريدين ، ديدنهم فى جميع ما كتبوا البساطة وتقريب المعانى إلى الأذهان والاستناد قبل كل شيء فيما وعظوا به وأمروا باتباعه ونهوا عن اتيانه إلى آى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، مثال ذلك ماجاء فى كتاب لأحد مقدمى السنوسية فى عام ١٨٦٩ ، السيد الحبيب بن عمار شيخ زاوية (النجيلة) فى دفنه ، حيث قال مامعناه ، منقولا بتصرف عن ترجمة بالفرنسية لتعذر الوقوف على الأصل ، — « أوصيكم يا إخوانى بتلاوة الذكر سرا وعلانية ، وعليكم أن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم . . . إذ يجب أن نتوجه دائما إلى المولى عز وجل ، ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة . . واخشوا الله دائما ولا تفعلوا إلا ماأمر به ، وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعظموا كلمته الحق سبحانه وتعالى . وتجنبوا أولئك الذين شغلوا بمتاع الدنيا الزائل ، والذين بكذبهم يخرجون من رحمة الله إن رحمة الله واسعة ، وكريم ونبيل ذلك الذى فتح أبواب هذه الرحمة . وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا آخر . عليكم بتلاوة الذكر فهو يقربكم من الله ، إذ ينال رضاه تعالى ورحمته كل إنسان يعرف الحق جلت قدرته بتلاوة الذكر وترديد أسماء الله الحسنى . ويصل إلى معرفة الحق يقينا كل من يطلب ذلك لأن الله تعالى كريم ورحيم . قال الإمام رزوق (اترك الخلق ومادفعوا إليه ، فمراد الله فى خلقه ماالناس فيه) . والله سبحانه وتعالى لا يظهر أمره قسراً لولى أو لعجمى ، فهو جلت قدرته الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . يا إخوانى ، لاتهملوا مانوصيكم به ومايوصيكم به شيوخنا أيضا إذا استطعتم ذلك . قال تعالى (تعرج الملئكة والروح إليه فى

يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) — سورة المعراج (٧٠) آية (٤) ، أوليست أرض الله واسعة الفضاء فلماذا لاتضربوا فى جوانبها إذن ؟ إن أولئك الذين يمتنعون عن المهاجرة فى سبيل الله ورسوله فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير . وإنما الذين ينالون عفو الله وغفرانه فهم الضعفاء من الرجال والنساء الذين لايقدرون على المهاجرة ولايجدون من يرشدهم إلى الطريق . قال تعالى (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما . وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكفرين كانوا لكم عدوا مبينا) — سورة النساء ، (٤) آيات ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ . وإذا عرف تعالى أن فى قلوبكم خيرا يعوضكم بأحسن مما أخذ منكم ويغفر لكم . قال تعالى (ياأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى أن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) — سورة الأنفال (٨) آية ٧٠ . وهذا حتى ولوكنتم فى أرض كفار ولم تجدوا وسيلة للخروج منها . ولكن إذا بقيتم بها لأنكم تفضلون ذلك فسوف يجمعنا يوم لاينفع فيه مال ولابنون . قال تعالى (ولاتخزنى يوم يبعثون . يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم) — سورة الشعراء (٢٦) آيات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ . وقال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) سورة التوبة (٩) آية ١٠٠ ، وقال تعالى فى سورة التوبة أيضا الآية (١١١) (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) ثم قال تعالى فى سورة التوبة أيضا آية ١١٧ : (لقد تاب الله على النبيين والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) وأخيرا قال تعالى فى سورة آل عمران (٣) الآية (٣١) : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم والله غفور رحيم » صدق الله العظيم .

وواضح أن الذى كان يهتم به كبار شيوخ السنوسية فى كتاباتهم ورسائلهم إنما هو كلمة الله الحق ، فلايكون لأشخاصهم قول عند التذكير بضرورة بذل النفس فى سبيل معرفة أوامر الدين الحنيف ونواهيه ونشر كلمة الحق جلت قدرته والدعوة إلى الطريق القويم .

هذا وأما الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح السنوسية فهى الزوايا ، والزوايا هى المكان الذى يجتمع فيه الأخوان للعبادة ونشر الدعوة والإرشاد بين أهل البلاد المجاورة أو بين القبائل القاطنة بجهتها أو رجال القوافل الذين يمرون بهذه الزوايا فى غدوهم ورواحهم والزوايا معروفة فى الأقطار الاسلامية من أزمنة بعيدة . وكانت جميعها على نمط واحد ، فكان على رأس الزاوية وازع يعرف (بالمقدم) يتمتع بسلطة واسعة على سائر اخوان الزاوية . بيد أن أهل هذه الزاوية فى طورهم الأول كانوا منقطعين للعبادة ومنصرفين عن شئون الدنيا ، يعرف رؤساء كل حلقة من حلقات هؤلاء الأخوان باسم الدراويش ، وكثرت الزوايا وتعددت بعدد الطرائق وتنوعها . ثم كثيرا ما كان يؤدى التنافس والاختلاف بين هذه الزوايا ومقدميها ودراويشها إلى المنازعة ، فينشأ من الخصومة تباغض وتباعد حتى صاروا متفرقين ولا رابط يجمع بينهم أو يؤلف بين قلوبهم ليصبحوا قوة ذات أثر فى شئون الإصلاح الدينى أو الاجتماعى أو السياسى . وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى ظهرت الطرائق الحديثة ، وفى طليعتها بلا مراء الطريقة أو الجمعية السنوسية التى وضع السيد محمد بن على السنوسى الكبير نظامها على أساس دينى واجتماعى ، وكسب السنوسيون بفضل هذا التنظيم الجديد سلطانا واسعا كان له أثر واضح فى قيام الإمارة السنوسية ذاتها .

فإن الزوايا السنوسية لم تكن صوامع أو أديرة للنساك والرهبان والمتعبدين المنقطعين للعبادة ، أو حلقات للدراويش المنصرفين عن شئون الدنيا . بل أن أهم مايجب أن يلفت النظر إليه فى شأن هذه الزوايا السنوسية هو أنها كانت ولا تزال مراكز نشاط اجتماعى ودينى كبير . أذ يعنى الشيوخ والأخوان أصحاب الزوايا والمقيمون بها وحولها بشئون الدين والدنيا معا . ذلك لأن الطريقة السنوسية تحرم قبل كل شىء على اتباعها التسول ، بل وتأمرهم بالكد والسعى من أجل عيشهم على أساس الأخوة والتعاون . فتطلب من الأخوان العمل فى الزرع والتعمير والإنشاء . ومن العادات المعروفة أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة التى تبنى بأرضها الزاوية بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم من أرض الزاوية ، وهكذا حتى سهل عمران الزوايا فى غير مشقة أو نفقة ، « فأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأراضى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، حتى ندر أن يمر الإنسان بزاوية من زواياهم من غير أن يجدلها بستانا أو بساتين فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار وأصناف البقول والخضر ويزيد من قيمتها مصادفة الإنسان لها فى تلك القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات . ثم بلغ من عناية السنوسية بالعمران أنها حتمت على شيوخ الزوايا أن يعرفوا معرفة طيبة أماكن الأسواق التجارية فى جهاتهم ثم حالة هذه الأسواق ، وأمرتهم بالتجارة على أن يخصص قسم

من الأرباح للزوايا ، بينما يخصص القسم الباقى للطريقة أو الجمعية السنوسية عامة . زد على ذلك أن السنوسيين المقيمين بجوار الزوايا يحضرون طعامهم إلى الزاوية يطعمون منه الاخوان الموجودين ثم عابرى السبيل الملتجئين إلى الزوايا ، وهذا علاوة ماتخرجه الزاوية ذاتها من الأطعمة كل يوم . ولذلك فانه سرعان ماصارت الزوايا السنوسية نتيجة لهذا العمران والنشاط الاجتماعى ملاجىء هامة لانظير لها فى الصحراء وبخاصة للمسافرين والتائهين والشاردين وغيرهم . واختار السنوسيون لأغلب زواياهم أجمل البقاع وأخصب الأرضين ، فأنشأوها حيث توجد الآبار ذات المياه الكثيرة . وفى الجبل الأخضر أقاموا هذه الزوايا بجوار العيون والأنهار ، فاشتهرت من بينها زوايا كثيرة ، مثل مارة ومرطوبة وأم ارزم بالقرب من درنة وشحات وغيرها .

واتبع السيد محمد بن على نظاما دقيقا فى إنشاء هذه الزوايا وترتيبها حتى غدت كل واحدة منها بمثابة حكومة ذات سلطان عظيم على جميع الأهلين المقيمين فى جهتها ، فالزاوية هى مركز العلم والتعليم بالناحية أو القبيلة ، وشيوخ الزاوية يعلمون الأهلين شئون دينهم ودنياهم ويفصلون فيما يقوم من منازعات وخصومات ، ويردون المنهوبات إلى أصحابها وينشرون ألوية الأمن والطمأنينة ، ويبذرون بذور الحضارة أينما وجدوا . ويقوم نظام السنوسية فى الزوايا على اختيار (مقدم) لكل زاوية هو شيخها والقيم عليها والذى يتولى أمور القبيلة أو الناحية ويفصل فى الخصومات بين أهلها ؛ ثم يلى المقدم (الوكيل) ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى ؛ فهو وكيل الدخل والخرج وينظر فى زراعة الأراضى وجميع الشئون الاقتصادية . وزيادة على ذلك فلكل زاوية شيخ يقيم الصلاة فى مسجدها ويعلم الأحداث القراءة والكتابة ؛ ومن وظائفه أيضا مباشرة عقود النكاح والصلاة على الجنائز وهكذا ومن أهم ماتعنى به الزوايا تعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم والعقيدة الصحيحة والطريقة ؛ وفى هذه الزوايا يتمتع كل من المقدم والوكيل بسلطة عظيمة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة؛ ويستمد كلاهما هذه السلطة من الرئيس الأعلى ومؤسس الطريقة ثم من خلفائه من بعده . وعلى هذا فالأمر الذى يصدره المقدم أو الوكيل مقرونا باسم السيد السنوسى إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع .

ثم بلغ من بعد نظر السيد رحمه الله أنه لماشرع يرسل وكلاءه إلى أصقاع العالم الإسلامى بعد أن أسس زواياه الأولى فى أفريقية وبلاد العرب ، صار يتبع سياسة حكيمة وخطة رشيدة من أجل توطيد سلطان الجمعية أو الطريقة الجديدة ، فعنى باختيار شيوخ ورؤساء للزوايا الجديدة من أبناء المناطق التى تبنى بها الزاويا بعد أن يقوم السيد نفسه بتربيتهم وتعليمهم . وسلك السيد هذا السبيل أيضا عندما اختار وكلاءه المعينين فى الأقطار البعيدة ؛

تم ربط بين جميع هذه الزوايا المتفرقة والقاصية برباط متين من المخابرات والمخاطبات وفق نظام دقيق تلتق أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية ، وهى زاوية الجغبوب . ولما كانت زوايا السنوسية منتشرة فى تونس والجزائر وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان وبرنو وتوات (لدى التوارق) ثم امتدت إلى الهند وتركيا ، فقد صارت تقارير الخلفاء والوكلاء ترد من هذه البلاد النائية إلى بنغازى أولا ثم تقوم هذه بارسالها إلى زاوية الجغبوب المركزية بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة .

وقد خدمت هذه الزوايا الاسلام خدمة جليلة ، كما أنها ساهمت مساهمة جدية وفعالة فى نشر الفضائل ومحاربة الرذائل . فهى إلى جانب تعريف القبائل بشئون دينهم القويم — وكان لكل فخذ منها زاوية إذا تعددت فروع القبيلة الواحدة — ونشر الرسالة المحمدية السامية ، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص إلى الشعوب الوثنية (الزنوج) فى قلب إفريقية الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى إهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية إلى الاسلام طائعة مختارة ، فقد كان لذيوع الفضائل الاسلامية على أيدى أخوان الزوايا وسهر هؤلاء الاخوان على إقامة أحكام الشريعة الغراء والقضاء على البغى والفساد — وأعظم أثرا من هذا جميعه تعليم القبائل القراءة والكتابة ونشر دعوة الخير على قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم القرآن الكريم — نقول أنه نجم عن ذلك كله أن صلحت حال هذه الشعوب وتهذبت طباعهم وذهبت الحدة من نفوسهم ، وامتنع أكثرهم عن طلب العيش بالإعتداء على الغير ، حتى صدق قول أحد كبار السنوسيين (سيدى أبو سيف بن مقرب المتوفى بزاويه الجوف عام ١٨٩٦ فى قصيدة طويلة يمدح فيها شيخه السيد محمد المهدى خليفة المؤسس وابنه الأكبر ويتحدث عن هداية البدو على أيديهم :

فمنها : فكم من حريم قد أباحو وأجحفوا ... بمــال غنى لا يخافون عاديا
فارشدهم للرشد من حــل بينهم ... فلا زال مهديا ولا زال هاديا
ومنها : وكم بدوى فى الفلاة خلف نوقه ... يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلقاه فى مهد الضــلالة هاويا ... فأصبح نجما فى الهداية عاليــا
وكم من جهول أسود اللون خلقه ... كساه لباس العلم أبيض صافيا

وقد عظم شأن هذه الزوايا فى عهد خليفة المؤسس ، السيد محمد المهدى على نحو ما سيأتى ذكره .

ومن الكلام على الزوايا يسهل الانتقال للكلام عن الأصول السياسية التى إستندت إليها الدعوة السنوسية فقد سبق كيف خرجت الإمارة السنوسية إلى عالم الوجود منذ أن لجأ العثمانيون إلى المؤسس حتى يستخدمون نفوذه فى إصلاح ذات البين بين العرب والترك

فاعترفت الدولة العثمانية عن طريق واليها فى طرابلس بزعامة السيد وامارته . ولم يكن اعتراف الأتراك بهذه الأمارة السنوسية أمراً غريبا فى بابه بل إن ما فعلته الدولة العثمانية كان يتفق مع الخطة التى اتبعتها فى سياستها الشرقية أو العربية العامة عندما وجدت من الخير للمحافظة على كيانها أن تكون على وفاق مع الامارات العربية التى لم يكن فى استطاعة الدولة القضاء عليها أو إخضاعها بالقوة لسلطانها ففضلت إنشاء العلاقات الطيبة مع هذه الامارات حتى تضمن مؤازرتها للدولة عند الحاجة فى وقت الخطر . ولذلك إعترف العثمانيون بامارات آل سعود على نجد وآل رشيد على حائل وآل الصباح على الكويت . وكان العثمانيون لا يرون أية غضاضة أو خطرا على كيانهم من وجود هذه الامارات ما دامت منضوية تحت لواء الخلافة العامة ، فلم يكن اعترافها بامارة السادة السنوسية فى عهد السيد الكبير وفى عهد خلفائه أمراً غريبا أو منافيا لمصلحة الدولة .

ولهذه الحقيقة أهمية ظاهرة : مجملها أن السنوسية بدأت طريقة ثم اشتد أزرها فقويت دعوتها إلى إحياء العالم الاسلامى ثم عظم إرشادها فحملت رسالة القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة إلى الأقطار المختلفة ، ثم ظهر أثر هذه الدعوة وأثر هذا الارشاد — بل قل هذا الدين المصلح الجديد — بين الشعوب التى انضوت تحت لوائها ، نقول إن السنوسية لذلك كله لم تلبث أن احتلت مكان الامارة والصدارة ، ولم يكن ثم مناص من حدوث هذا التطور فى عهد مؤسسها وأميرها الأول السيد محمد بن على السنوسى الكبير .

وزيادة على ذلك فانه مما لاشك فيه أن تأسيس الزوايا ووجود ذلك النظام المتقن الذى جمع بين هذه الزوايا المنتشرة فى بقاع الأرض المختلفة وبين الزاوية الكبرى التى أنشأها السيد فى الجغبوب ، كان من الأركان المكينة التى وطدت أقدام الامارة وضمنت لها السيطرة على إتباعها الكثيرين فى الأقطار التى إنتشرت بها ، وعلى الخصوص فى برقة وطرابلس موطن الدعوة الجديدة . وإن كانت هذه السيطرة روحية فى صميمها . فانه يتبين مما سبق ذكره أن هذه الزوايا كانت فى الحقيقة عبارة عن مراكز حكومية بكل ما يحمله هذا الوصف من معنى ، ويتمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم فى الأقاليم التى توجد بها زواياهم . وليس هناك أدل على مقدار ما بلغه سلطان السنوسية من الطريقة التى توصل بها هؤلاء الشيوخ أو الزعماء إلى تأمين طرق القوافل فى قلب الصحراء الكبرى فى أفريقية . فلم تكن قافلة تأمن على متاجرها وأموالها ورجالها إلا إذا أخذت قبل قيامها وتوغلها فى الصحراء (محررات) من شيوخ الزوايا السنوسية تصبح بمثابة (جوازات مرور) ، حتى تتمكن من اجتياز أرض قبائل التوارق وتبو وغيرها بأمن وسلام ، لأن هذه القبائل كانت تحترم محررات شيوخ السنوسية وتعمل بمقتضاها ومن المعروف أنه لم يسبق أن انضوت هذه القبائل تحت

لواء أي سلطان آخر قبل ذلك . وعلى هذا فقد اصبحت السبل آمنة فيا بين أفريقية الوسطى والشمالية ، بل ، وأصبحت القبائل التي كانت صاحبة الجسارة الكبرى على النهب وقطع الطريق هي القوة المحافظة على الأمن بتلك المفاوز والصحارى » .

وأما أسباب هذا السلطان وهذه القوة فكانت مجتمعة في يد شيخ الزوايا الأعلى وأمامها مؤسس السنوسية ، وكان شخصه العظيم موضع التبجيل والتكريم وكلمته النافذة وقوله الفصل وبمجرد أن اتخذ الجغبوب مقراً ومركزا للسنوسية عظم شأن هذه الزاوية تدريجيا حتى غدت (قصبة) الإمارة السنوسية ، ترد إليها التقارير والرسائل وتصدر منها الأوامر والنواهي إلى مختلف بقاع الأرض ، ويشرف صاحبها ومؤسسها ويبسط سلطانه على عدد عظيم من المسلمين ثم عظمت قوة السيد تدريجا حتى صار في إمكانه في النهاية لو شاء أن يجمع « الأربعين والخمسين ألف مقاتل ، وعند الطلب له القدرة على أن يسوق لأية بقعة شاء جميع قبائل التوارق وعربان توات وجميع السودانيين » .

ومع هذا وإلى جانب ما تقدم ، فقد كان لهذه القوة الفعلية التي تمتعت بها الإمارة الجديدة سبب آخر هو ما أجمله المؤرخ التركي شهبندر زاده في قوله . « إنه من الواجب على كل فرد من الإخوان ما دام قادرا وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعدا للطوارىء متهيئا للحرب منتظرا للأمر منفذا له بكمال طاعته . وهذه حال جميع الأخوان الموجودين بأفريقية . وأما أولئك الذين هم في خارج أفريقية فأنهم غير مكلفين بهذا الاستعداد ولا يطلب منهم إلا المعاونة المادية فاخوان أفريقية مكلفون بتسليح أنفسهم ويجب على الأقل أن يكون لكل منهم راحلة ومن كان فقيرا فسلاحه وراحلته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الأخوان أنفسهم لأنهم ملزمون بالاستعداد على قدر طاقتهم » ولذلك كان مما تعنى به الزوايا في الأقطار الليبية والأفريقية خصوصا تعليم الرماية واستخدام السلاح .

بيد أنه قد يصح للسائل ، والحال كما وصفنا أن يسأل ولماذا إذن وهـذه نظم الطريقة السنوسية وهذا مقدار استعداد الإخوان والأتباع للجهاد في أفريقية . وقد شهد المؤسس عدوان بعض الدول الأوربية على الأصقاع الاسلامية في هذه القارة ، ثم كان يتوقع عدوان البعض الآخر على أهم زواياه الأولى — الزاوية البيضاء — ثم احتلال (النابلطان) لطرابلس الغرب ، ولماذا إذن لم يناضل السيد نضال الحرب ضد أوروبا المعتدية ، ثم لماذا لم يفصل إمارته الجديدة عن جثمان الدولة العثمانية حتى يستقل بأمره وشأنه ويجمع كلمة الشعوب التي دانت لدعوته بالطاعة حول إمارة زمنية عتيدة ؟ ثم لماذا لم يستعن السيد ببعض الأتراك أو غيرهم ممن كان في مقدورهم إدخال الاصلاح المدني الواسع في إنحاء إمارته الليبية خصوصا

على غرار ما فعل أحد معاصريه العظماء والى مصر الكبير محمد على باشا ؟

أن الجواب على هذه المسائل يقتضى بحثا فى أصل آخر من الأصول السياسية التى قامت عليها الإمارة السنوسية وهو علاقة السيد رحمه الله بدولة الخلافة أولا ، ثم بالدول المسيحية عموما. أما فيما يتصل بصلاته مع الدولة العثمانية فقد سبق فى أماكن كثيرة من هذا البحث بيان حقيقة هذه الصلات ، وكان ظاهرا أنه لم يكن من رأى السيد الخروج على سلطان الخلافة ولا الانفصال بإمارته عن جثمان الدولة العثمانية والاستقلال بشأنه وإمارته . وفيما عدا هذا فإنه رحمه الله ما كان يرضى أن يستعين بالأتراك أو بغيرهم لإدخال الأصلاح المدنى على غرار ما فعله صاحب مصر الكبير لجملة أسباب . (أولها) أن السيد لم يكن مرتاحا إلى السياسة والخطة التى اتبعها الأتراك عموما مع الشعوب العربية الاسلامية الخاضعة لهم . فقد لمس السيد فى مشاهداته وما وصل إلى علمه فى أثناء أسفاره المتعددة ، وبفضل إرتباطاته الكثيرة مع بقية الأخوان والاتباع فى أنحاء العالم الاسلامى ومع الأمم العربية ما يفعله العثمانيون من أجل الضغط على العالم العربى وإرغامه على قبول السيطرة العثمانية المستبدة والخضوع لها حتى إن السيد رحمه الله ما كان يرى فى الحكومة التى أنشأها عاهل مصر الكبير إلا نوعا من أنواع هذا الضغط وهذه السيطرة (وثانيها) أنه لما كان هذا غرض الأتراك كما عرفه السيد وكانت هذه أهدافهم ، تعذر عليه بطبيعة الحال استخدامهم فى تنظيم شىء من شئون إمارته العربية الصميمة بل على العكس من ذلك ، فإنه رحمه الله لم يلبث أن آثر الابتعاد عنهم واختار التوغل فى قلب الأقطار الليبية كلما أمكن كما سبق بيانه فى موضعه . أضف إلى هذا أن السيد كان يعتبر الأتراك مقصرين فى الجهاد ضد الفرنسيين الذين شنوا عدوانهم على بلاد الجزائر وكان يعد دولة الخلافة مسئولة عن الضعف الذين أعجز السلطات الحكومية فى هذه البلاد عن مقاومة الغزو والاستعمار الأجنبى . وزيادة على ذلك فان الإمارة السنوسية كانت لا تزال فى دور تكوينها ، وهى فى هذا الطور الأول من حياتها كانت لا تزال دعوة دينية ولا يزال رجو بطريق الدعوه والارشاد الاصلاح الدينى الشامل وإحياء الاسلام ونشر فضائله . أى أن السنوسية كانت فى منشئها دعوة دينية واجتماعية صريحة ، ولذلك لم يجد السيد حاجة إلى وضع نظم مدنية قد تتعارض وقواعد الشرع القويمة ، ولا ضرورة فى الحقيقة لهذه النظم ما دام العمل بالقرآن الكريم والسنة الشريفة قائما ، وما دامت مهمة الامارة السنوسية الجديدة إلى جانب تطهير الدين من البدع حمل رسالة هذا الدين القويم إلى الشعوب المختلفة ونشر ألوية الاسلام خفاقة فى داخل الأقطار الوثنية .

وأما القول بأن السيد لم يدخل فى جهاد ضد الدول الأوربية المعتدية ، فالردود عليه كثيرة ، أهمها ما أثبته المؤرخ التركى فى قوله : « إن السيد كان يعلم علم اليقين أن الجهل إذا

تبارز مع العلم ، والقوة العادية إذا تبارزت مع القوة النظامية ، فالنتيجة اندحار الجهل وعدم النظام ووقوع الغلبة عليهما . كما يعلم أن عدم الحيطة والتعجل باجراء حركة قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التي بناها وأنفق عليها جهوده الجبارة وعلق عليها آماله نسفاً لا تقوم لها بعده قائمة . ولذلك لم يقم السيد بأية إجراءات فعلية ، بل أجل ذلك إلى أن يصل العالم الإسلامى إلى درجة الانتباه التام » .

أضف إلى هذا أن السنوسية بعيدة كل البعد عن وسائل العنف والقوة فى نشر دعوتهـا ، وإنما طريقها إلى ذلك الإرشاد والإقناع . فهى لا تلجأ إلى تحريك الثورة أو إثارة القلاقل والاضطرابات فى البلدان المسيحية أو التى تخضع لحكومة المسيحيين ، حتى تجتذب إليها المسلمين الخاضعين لهذه الحكومات وتمهد لهم الدخول فى عداد (جمعيتها) . بل إن كل ما كانت تبغيه السنوسية من أجل نشر دعوتها فى البلدان المسيحية أو تلك الخاضعة لحكومات مسيحية أن يهجر المسلمون هذه الأقطار إلى (دار السلام) ، حيث تطيب الحياة فى ظل الشريعة الإسلامية الغراء ، وتنفذ إلى قلوبهم تعاليم الدين الصحيح . يدلك على هذا إهتمام شيوخ السنوسية بنشر الدعوة (للهجرة) بين الإخوان والأتباع والمريدين ، ثم الاستشهاد بآى من الذكر الحكيم تأييداً لفضل المهاجرة من (دار الحرب) إلى (دار السلام) على نحو ما جاء فى كتاب سيدى الحبيب بن عمار شيخ زاوية النخيلة الذى تقدم ذكره . ومن المعروف أن (دار الحرب) هى بلاد الكفار ، بينما (دار السلام) هى البلاد التى يقطن بها المسلمون ، ثم الذميون (أو الرعية) المسيحيون واليهود الذين يخضعون لحكومات إسلامية ، ثم المستأمنون ، وهم الأجانب الذين يزورون البلاد فى مهمة أو فى سفر ، وتؤمنهم السلطات المسلمة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وهكذا . ولذلك كان من المنتظر أن يعنى السنوسيون بأمر إخوانهم المسلمين المقيمين (بدار الحرب) حتى يعودوا إلى (دار السلام) حيث تقام شعائر الدين الحنيف ، وينالون الخلاص من اللعنة التى تنزل بهم ما داموا راضين بالاقامة فى (دار الحرب) . ولا يقل عن هؤلاء سوءا حال غيرهم من المسلمين الذين يقيمون فى بلدان يحكم بها سلاطين أو حكام يخضعون لنفوذ أو إرشاد أو حماية دول أوروبية ، أو كان أشخاصها تحت رحمة هذه الدول الأجنبية ، لا فرق فى ذلك بين القسطنطينية والقاهرة وتونس وفاس . ووسيلة الخلاص من هذه اللعنة الهجرة إلى (دار السلام) . وهذا معنى استشهاد سيدى الحبيب بن عمار بكل تلك الآيات الكريمة لتمجيد الهجرة فى سبيل الله ورسوله . وقد تحدث (هنرى دى كاسترى Kasteries) عن أمر هذه الهجرة فقال : « وأكبر الطوائف وأشدها تمسكا بمبدئها هى طائفة السنوسية ، وهى التى يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الاسلام (ويقصد بهذا القول السيد محمد

المهدى بن السيد محمد بن على المؤسس رحمهما الله) وهو رجل رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية فى الجزائر مقاومة صريحة ، فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام . وعلم سيدى السنوسى ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين. كما علم موسى الذى نجاه الله ما أصاب قومه من فرعون وأراد خلاصهم من يد الكفار وأن يقودهم من (دار الحرب) إلى (دار السلام) ، فناداهم أن اخرجوا من دياركم إن أرض الله واسعة الفضاء . وانتقل إلى أرض فسيحة الجوانب خالية من السكان فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ويود الهرب من معاشرة الكافرين . ولكن ليس فى تلك الأرض عسل يجرى ولا ضرع يدر كما كان فى بلاد الكنعانيين ، بل هى صحراء ليبيا الشاسعة التى اختارها السنوسى ليهجر العرب إليها بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والبسفور ذى الرياض الفيحاء والمناظر الخلابة .. ومع ذلك فالنداء يلبى كل يوم من جميع بلاد الاسلام ويقيم الواردون فى تلك الرمال من غير سخط ولاضجر . وقد أخذت الصحراء تتحول بأعمال المهاجرين ففيها اليوم آبار ونخيل » .

وأما آخر الأصول السياسية التى قامت عليها الامارة فأساسه تلك الوصية التى تركها السيد رحمه الله باسناد رئاسة الطريقة السنوسيه إلى الأكبر الأرشد من الأسرة السنوسية ، ثم نظام (البيعة) ذلك النظام الذى يكفل اجتماع كلمة العرب لتأييد صاحب الامارة الجديد . جاء فى تاريخ السيد أحمد الشريف : « وقال الأستاذ الجد رضى الله عنه (يعنى السيد محمد بن على السنوسى الكبير) المهدى له السيف ، والشريف (أى ولده الأصغر السيد محمد الشريف) له الكتاب وألبس الجد رضى الله عنه الأستاذ العم رضى الله عنه (أى السيد محمد المهدى) السيف بيده الشريفة ، وقال له تقدم لتصل بنا فتقدم وصلى به رضى الله عنهما ، وبعد الفراغ من الصلاة أوقفه بازائه ثم انصرف ، وقبل هذا ألبسه جردا بيده الشريفة وناوله سبحة أفرغها فى يده ثم أفرغها فى يد أستاذنا العم رضى الله عنهما . وبعد مصافحة والده الاخوان تشوقت نفسه الكريمة لمصافحته » . فكانت هذه الصلاة وهذه المصافحة بمثابة المبايعة له بالامامة من بعده وأجمع الاخوان وكبار السنوسية وشيوخها على قبول هذه الامامة فى حياة والده ثم بعد وفاته . وعلى ذلك فكأنما جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى ، وحققت فى هذا النظام بعض شروط الامامة . ومن المعروف أن الشورى كانت ركنا من أكانها . والواقع أنه لم يكن هناك مناص من هذه (البيعة) الاسلامية باعتبارها أصلا من الأصول التى قام عليها (بيت) شريف ينتهى فى نسبه القرشى إلى الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه . وهكذا صار وارث الامارة بمقتضى هذا النظام ابن المؤسس الأكبر السيد محمد المهدى السنوسى .

الفصل الخامس

الخليفة الاول

السيد محمد المهدى السنوسى

السيد محمد المهدى هو الابن الأكبر لمؤسس السنوسية السيد محمد بن على السنوسى الكبير . فقد سبق ذكر مولد السيد محمد المهدى بماسه فى الجبل الأخضر فى ذى القعدة من عام ١٢٦٠ هجرية (نوفمبر ١٨٤٤) ، قبل مولد أخيه الأصغر السيد محمد الشريف بسنتين تقريبا . وبالجبل الأخضر تلقى السيد المهدى تربيته الأولى حتى توسط السابعة فانتقل إلى الحجاز وبقى مدة يتعلم على أيدى كبار الاخوان وشيوخ السنوسية بزاوية أبى قبيس بمكة المكرمة حتى أرسله والده إلى زاوية جغبوب الجديدة فى ربيع الأول من عام ١٢٧٤ (أكتوبر ١٨٥٧) وعندما توفى والده العظيم بعد عامين من قدومه إلى الجغبوب كان السيد المهدى يبلغ الستة عشر عاما ، ويقوم على إرشاده وتثقيفه مع أخيه الأصغر السيد محمد الشريف جماعة من خيار الاخوان السنوسيين وشيوخهم أمثال سيدى أحمد الغمارى وسيدى المدنى بن مصطفى بن احمد التلمسانى ، وقد ظل مستشارا أمينا للأخوين مدة طويلة ، ثم سيدى على بن عبد المولى التونسى ، وسيدى عمران بن بركة الطرابلسى ، وسيدى أحمد الريفى الذى اعترف بفضله أيضا السيد أحمد الشريف وابن أخيه السيد محمد الشريف الذى توفى فى ظروف سوف يأتى ذكرها فى حينه .

وأما السيد محمد المهدى فقد أظهر فى هذا الوقت المبكر شغفا بالعلم وانكبابا على تحصيل المعارف ، وكان ذكى الفؤاد عالى الهمة تقيا ورعا ، وقد وصفه السيد أحمد الشريف فى تاريخه فقال : « فهو رضى الله عنه مربوع القامة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أبيض اللون مشربا بالحمرة واسع العينين أكحلهما أهدب الأشفار أشقر الحاجبين أقرنهما بخط رقيق من الشعر الخفيف أقنى الأنف يرى فيه أحيدباب مدور الوجه مدور اللحية كثها واسع الفم أفلج الثنايا واسع الجبهة أصلع الرأس شثن الكفين بعيد ما بين المنكبين خمصان القدمين فى خده الأيمن خال يقتصد فى مشيته . وهو رضى الله عنه يتكلم فيما يبدو له ولا يقول إلا حقا نطقه حكمة أكثر ضحكه تبسم وإذا اشتد به الضحك ضحك حتى ترقرقت عيناه بالدموع ولا يسمع

له صوت ولا قهقهة ، وإذا أراد التكلم يمسح بيده على فخذه الأيمن ولسانه فيه بعض ثقل فى بعض الكلمات . وهو رضى الله عنه كثير الورع والزهد أوقاته كلها معمورة بالعبادة ويقوم بالليل بل لا ينام فى بعض الأحيان سوى ثلاث ساعات ما بين الليل والنهار . وهو رضى الله عنه ذو حلم وعلم وشفقة ورحمة ورأفة على جميع الأمة ولا يحقر أحدا ويقوم لقاصده كبيرا أو صغيرا جليلا أو حقيرا متواضعا خاشعا خاضعا ، بالمؤمنين رؤوف رحيم يمشى على الأرض وعليه السكينة والوقار ولا يقابل أحدا بما يكره ذوى هيبة كأنه أسد ضارى ، كفه أسخى من البحر الزاخر كأنما عناه القائل بقوله :

ما قال لا قط إلا فى تشهـــده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وهو رضى الله عنه أكمل الناس خلقا وخلقا وراثة مصطفوية غير مشوبة بأخلاق رثية ثبت للوارث ما ثبت للموروث . قال البصيرى رحمه الله :

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من نعم

فهو سليمان زمانه ملوكانية ، وحكمة لقمانية ، وحورنة داوذية ، وجمال يوسفى وأخلاقه محمدية ، .

وبفضل هذه الصفات جميعها سرعان ما صار السيد المهدى يحتل مكانة رفيعة فى قلوب الاخوان والأتباع ومريدى الطريقة ومؤيدى الدعوة . وكان مما حبب فيه القلوب أنه سار على نهج والده الكبير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبث العلوم فى طبقات الأمة الليبية متبعا فى ذلك حكمة كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وعلى أيدى السيد المهدى توطدت أركان الإمارة الجديدة ، وامتد نفوذ السنوسية فى الأقطار الليبية وفيما جاورها من بلاد وأقاليم إلى درجة بعيدة . وقد ساعد على ذلك إلى جانب ما تحلى به السيد الكريم من علم وورع وتقوى وشخصية قوية جذابة ، شيئان : (أولهما) طول مدة إمارته التى بلغت حوالى الأربعين عاما ونيف ، منذ توليته فى عام ١٢٧٦ هجرية (١٨٥٩) حتى وفاته فى عام ١٣٢٠ هجرية (١٩٠٢) .

فكانت هذه المدة الطويلة بمثابة عهد استقرار ولم يكن هناك غنى عن هذا الاستقرار والهدوء حتى تقوى أسس الجمعية السنوسية كما أنه كان من أهم أسباب هذا الاستقرار والهدوء فى تنظيمات الجمعية أن المولى سبحانه وتعالى تفضل على السيد المهدى فحباه ببعد النظر وثاقب الفكر والرأى الصحيح ، وقد تنبأ له والده السيد السنوسى الكبير بشأن عظيم ، وصدقت فراسته . وفى تاريخ السيد أحمد الشريف الشيء الكثير من هذا وأما العامل الثانى فى دعم صروح الدعوة والامارة الجديدة فكان عزم السيد المهدى على إتمام البناء العظيم الذى شيده والده ، والعمل بكل جهد

وقوة من أجل نشر الدعوة السنوسية بين أهل البـــلاد القريبة والبعيدة فى أفريقية الغربية خصوصا حتى ذاع صيت السيد ، وتمكن السنوسيون بفضل جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى وأطرافها حتى جهات بحيرة تشاد وماجاورها من إمارات إسلامية قديمة أو قبائل زنجية وثنية أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد . وقد تعرضت أقطار هؤلاء جميعا لمطامع دول أوروبا الاستعمارية .

وكانت وسائل السيد المهدى فى نشر الدعوة السنوسية ودعم أركان الإمارة الجديدة هى إنشاء الزوايا والإكثار منها فى الأقطار الليبية ثم فى أفريقية الغربية ، ممتدة فى الجنوب إلى أقليم بحيرة تشاد، ثم إنشاء الصلات والروابط بين السنوسية وبين الامارات الاسلامية المنتشرة على وجه الخصوص فى واداى وبرقو وكانم وغيرها ، ثم تجنب الارتباط مع الدول الأوربية الغربية فى شأن من الشئون التى كانت تبغى هذه الدول بواسطتها مد نفوذها فى الحقيقة إلى قلب القارة الأفريقية وبسط سلطانها على شعوبها الزنوج خاصة ، فاختط خطة حكيمة ، كانت مبنية على الحيطة والحذر ثم عدم التردد فى مكافحة هذه الدول إذا جد الجد كما فعل مع فرنسا ، ثم أخيراً الحرص على استبقاء العلاقات الودية بينه وبين تركيا ، وهى دولة الخلافة الاسلامية القائمة ، وهذا على الرغم من مخاوف السلطان العثمانى الذى كان يخشى فى بعض الأحايين من أن تقوى السنوسية إلى درجة تستطيع معها أن تهدد مركز الخلافة ذاتها وذلك حتى يتسنى له التفرغ لتأدية رسالته الكبرى بين الشعوب الأفريقية المجاورة .

أما الزوايا التى أنشأها السيد المهدى فكانت كثيرة امتدت من طرابلس وبرقة إلى واحات الوجنقات : الوجنقة الكبرى والوجنقة الصغرى — وتقع وراء دارفور إلى الشمال — وهذا عدا زوايا السودان ثم زاوية كانو فى بلاد النيجر والزوايا التى أسسها السيد فى واحة ون وواحة قرو ثم عين جلك وهذا إلى جانب زاوية التاج المشهورة بواحة الكفرة وهكذا وكان عدد الزوايا التى أنشئت فى حياة والده السيد محمد بن على السنوسى الكبير اثنتين وعشرين زاوية وأما فى حياة السيد المهدى فقد بلغت حتى عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشرة فى برقة وطرابلس وعلى طريق غدامس وفى الفزان وفى واحات جالو وأوجـــلة والجغبوب وعلى طريق مصر وطريق واداى ثم فى واداى ذاتهـا وفى بلاد العرب وفى مصر ومراكش والجريد التونسى ولدى التوارق وفى أنساله وتوات وغير ذلك . ثم لم ينقطع إنشاء الزوايا بعد عام ١٨٨٤ حتى عمرت بهذه الزوايا واحات الصحراء الكبرى ، فآمن بها السيد وحشتها ونضر غبرتها وأيقظ غفلتها ، ذلك أن السيد المهدى كان مثل والده قبله يهتم جد الاهتمام بالزراعة والغرس فغرس بجوار الزوايا البساتين وجلب لها — كما فعل والده أيضا — أصناف الأشجار الغريبة من

أقاصى البلدان فأدخلت فى الكفرة والجغبوب زراعات وأغراس لم يكن لأحد هناك عهد بها
ومن اهتمام السيد المهدى بالتعمير والغرس أنه كان يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون إليه أن يعلمهم الكيمياء ، « أن هذه — أى الكيمياء — تحت سكة الحراث . وإنما هى كد اليمين وعرق الجبين » . وزيادة على ذلك فقد كان يحرص على أن يتعلم الطلبة و الاتباع الحرف والصناعات ، فلا يزدرى بها أحد . وحتى لايظن المشتغلون بها أنهم أدنى طبقة من العلماء ، كان يقول يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم ، ؛ بل إنه رحمه الله كان ينتهز الفرص للنزول معهم إلى الميدان فيعمل بنفسه وينخرط فى سلك الصناع وأصحاب الحرف ، قائلا وهو يعمل معهم : « يظن أهل الأوريقات والسبيحات (أى العابدين والقانتين) أنهم يسبقونا عند الله . لا والله مايسبقونا ! » فكانت الزوايا مراكز حركة ونشاط وعمل منتج مثمر ، إلى جانب كونها مراكز هداية وإرشاد لنشر فضائل الدين الحنيف وتعليم الأهلين كتاب الله وسنة رسوله ، وهـــداية المسلمين إلى ما فيه صلاحهم دنيا وآخرة .

والواقع أن هذه الزوايا جميعها كانت مراكز للتعليم ولنشر الهداية الاسلامية وبذر بذور الاسلام خصوصا بين الأقوام الوثنيين الزنوج فى أواسط أفريقية . ولذلك فقد كانت أولى ثمار هذه الزوايا ذيوع الدين الاسلامى فى قلب القارة المظلمة ؛ بل ونجحت دعوة السنوسيين فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الاوربية المنبثة فى القارة الأفريقية كلها تجد فى الدعوة السنوسية خصما عنيدا ولاقبل لها على التغلب عليه مع ما أوتيت من قوة ومال وتعضيد كبير من جانب الدول الأوروبية المستعمرة . وقد اقتضى إنشاء الزوايا وهى كما سبق بيانه مراكز تعليم الدين الإسلامى ونشر كلمة الله والعمل بالسنة الشريفة واداة لتهذيب النفوس وهداية أهل الاقاليم المجاورة لها — أن يرسل السيد فى هذه الاقطار دعاة ومبشرين بالاسلام دين الله الحق ، اشتهر منهم رجال من الطراز الأول أمثال الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ حموده المقعاوى والسيد طاهر الدغمارى وغيرهم . زد على ذلك أنه لما كان من تنظيمات السنوسية العتيدة إنشاء الصلات التجارية والمـــادية بين الزوايا وبين المراكز التجارية والاسواق المختلفة ونجم عن استتباب الأمن فى هذه الربوع إنتشار الطمأنينة فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافى والصحراوات من غير تردد ، فظهرت بوادر العمران فى الطرق الصحراوية ، وكان من الميسور على دعاة السنوسية أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار فى رحلاتهم وأسفارهم يدعون إلى الطريقة ويقضون على الوثنية — أو الفيتيشية — يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصرفون الاهلين وخصوصا

الزنوج عن اعتناق غير الاسلام دينا ، فيعطلون بجهودهم هذه أعمال الرسالات المسيحية . وعلى ذلك فانه سرعان ما أدى إنشاء الزوايا والاكثار من إرسال الدعاة والمبشرين والهادين السنوسيين إلى إنتشار الإسلام وخاصة فى أواسط أفريقية مثل بلاد النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد ، ثم ذيوع السنوسية عن طريق واداى وبرنو وكانم وادامو او الداهومى وغيرها ، وبسط سيطرة السنوسيين الروحية على هذه الاقاليم ودعم أركان الامارة الجديدة فى قلب أفريقية .

وكما كان السيد السنوسى الكبير يقصد من تأسيس (الجمعية السنوسية) الإنشاء والعمران المادى إلى جانب تهذيب النفوس وهدايتها فإن خليفته الأول ما كان يقنع هو الآخر بمجرد العبادة دون العمل . بل كان رحمه الله يدرك تماما أن العمل بأحكام القرآن العظيم والعمل بالسنة الشريفة يقتضى وجود القوة والسلطان . ولذلك فقد ظلت الزوايا فى عهده مراكز أيضا لتعليم الرماية . فكان يحث الإخوان والمريدين على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد ويعظم فى أعينهم فضيلة الجهاد . وكان السيد يمتلك خمسين بندقية خاصة يعنى بتنظيفها وإعدادها دائما بيده ولا يرضى بأن يؤدى هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصدا وعمدا ، حتى يقتدى به الناس ويهتموا بأمر الجهاد ويحفلوا به .

وقد وصف كل من (دوفرييه) و (لوى رين) حقيقة هذا النشاط فى زاوية الجغبوب التى ظلت مقر الدعوة الرئيسى فترة طويلة منذ انتقال السيد محمد بن على السنوسى الكبير اليها فى عام ١٨٥٦ إلى وقت انتقال ولده وخليفته السيد محمد المهدى إلى زاوية الكفرة فى عام ١٨٩٥ . فقال (رين) إن السنوسيين بهذه الزاوية كانوا دائما على قدم الاستعداد للدفاع عن الواحة ؛ فكان كل رجل منهم مزوداً بالسلاح الكامل ، ولديهم جميعا حوالى أربعمائة (بندقية) ومائتى (سيف) ، هذا عدا الأسلحة الأخرى المعدة لتجهيز قوة من نحو ثلاثة آلاف رجل ، محفوظة فى نحو عشرين حجرة مليئة (بالرصاص) والبارود ؛ وهذا إلى جانب عدد من المدافع يتراوح بين ٤ ، ١٥ مدفعا اشتريت من مصر ثم نقلت إلى الجغبوب عن طريق الاسكندرية وطبرق ، وهى — أى طبرق — التى قال عنها (دوفرييه) إنها أحسن ميناء صالح فى الشمال كانت تهرب منه الأسلحة إلى الداخل . وزيادة على ذلك فإنه كان بالجغبوب عدد من الصناع الذين مهروا فى صناعة الأسلحة وجميع مايلزمها من معدات . ولما كانت الجغبوب قد نظمت على أن تكون بمثابة عاصمة (الإمارة) السنوسية ، ثم بمثابة (جامعة) تدرس بها العلوم الدينية خاصة ، فقد اتخذ السيد المهدى له أعوانا كانوا أشبه بالوزراء الذين كلف كل واحد منهم بأداء عمل معين ؛ ثم عهد إلى أخيه الأصغر السيد محمد الشريف ، وكان عالما كبيرا بالإشراف على

تعليم الدين للطلاب الذين صاروا يقصدون إلى الجغبوب من كل جهة ، وبلغ عددهم حوالى السبعمائة وخمسين نسمة . وكان السود الذين يقومون بالخدمة والزراعة فى الجغبوب يبلغون الألفين ، وهؤلاء على استعداد تام أيضا لحمل السلاح والجهاد إذا قامت الحرب . ويذكر (رين) أن السيد المهدى سئل ذات مرة إذا كان يقصد استخدام الأسلحة الموجودة لديه ضد الفرنسيين أو إنه يبغى استخدامها ضد الأتراك فكان جوابه أنه لا يقصد استخدامها ضد أحد من الفرنسيين أو الأتراك أو غيرهم ، ثم قال : « إن والدى بدأ عملا من المنتظر أن يأتى بنتائج عظيمة ، وقد أخذت على عاتقى إتمامه ، وليس لدى أى غرض آخر » . ويبدو جليا من هذه العبارة أن السيد كان لا يبغى سوى الاستعداد للذود عن دعوته والدفاع عن الزوايا التى هى مراكز هذه الدعوة ، إذا دهمها الخطر . وقد أثبتت الحوادث فى حياة السيد المهدى نفسه أن فرنسا كانت هى أكبر مصدر للأخطار التى هددت الدعوة والإمارة السنوسية فى أفريقية الغربية .

والحقيقة أن تنظيم الزوايا وإحكام الصلات بين الزوايا المختلفة وبين الزاوية المركزية فى الجغبوب ، بلغ شأواً كبيراً من الدقة فى عهد السيد المهدى الذى أتم عمل والده العظيم من هذه الناحية ، فربط بين الجغبوب وبين بقية الزوايا بإنشاء نظام محكم من (المراسلات) بواسطة المهرات والخيول فى طرق تمتد من الجغبوب إلى مصر ودفنه وبرقة وطرابلس وفزان وواداى ، فأنشئت الزوايا وحفرت الآبار على طول هذه الطرق ، كما كفل توطيد أقدام السنوسيين فى هذه الجهات انتشار الأمن واطمئنان القوافل على الغدو والرواح فى فيافى الصحراء دون التعرض لأذى اللصوص ونهب قطاع الطرق . وكما كان الحال فى الجغبوب ظلت بقية الزوايا تعنى بتعليم الرماية ، أضف إلى هذا أن طائفة من هذه الزوايا ، ومن بينها العزيات وأوجله وجالو والتخيله وغيرها كانت تحتفظ بعدد كبير من الجمال يتراوح بين الأربعمائة والخمسمائة على أهبة الاستعداد دائما للانتقال بأهل الزاوية إذا هددتها الدول الأجنبية أو هددها الأتراك أنفسهم بالإغارة عليها .

وهكذا أصبح سلطان السنوسية فى جميع الأقطار الليبية والأفريقية الأخرى التى انتشرت بها الدعوة يستند إلى دعامتين قويتين : إحداهما روحية ، قائمة على الوعظ والإرشاد والعمل بهدى القرآن الكريم وبالسنة الشريفة ، والأخرى مادية ، أساسها تعلم الرماية وإتقان أساليب القتال . وكانت الزوايا مراكز للعبادة والتعليم ونشر رسالة الدين الحنيف من جهة ، وخلايا للعمل والإنتاج عن طريق الزراعة والتجارة ، وميادين للرياضة والتدريب على حمل السلاح وإتقان استخدامه من جهة أخرى ، وهى الأركان العتيدة التى حملت صرح هذا السلطان .

وفى عهد السيد المهدى بلغت الدعوة السنوسية غايتها من الانتشار وتوطدت أركانها بفضل

هذه الزوايا ، كما أدى ذيوع الدعوة بدوره الى الإكثار من إنشاء الزوايا وتعميمها . وتتضح هذه الحقيقة من معرفة شيء عن الزوايا التي أقامها السنوسيون في مختلف الأقطار التي بلغتها دعوتهم في أقل من نصف قرن تقريبا . ومما يجب ذكره أن السنوسية استطاعت في كثير من الجهات أن تجد في الطرائق السابقة المنتشرة بها كالشاذلية والتيجانية والقادرية وهكذا ما كان يمهد لها سبيل الذيوع والتغلغل في كيان الشعوب أو الجماعات الإسلامية التي كثر فيها اتباع هذه الطرق . وأما أكبر الجهات التي سادت فيها الطريقة السنوسية ذاتها فكانت بطبيعة الحال تلك الأقاليم التي نبتت فيها الدعوة من أول الأمر في أفريقية الشمالية ، أي في برقة وطرابلس الغرب .

وقد بلغ عدد الزوايا التي أمكن إحصاؤها في برقة وحدها في عهد السيد المهدي حتى عام ١٨٨٥ ثمان وثلاثين (٣٨) زاوية ؛ وهذا قبل إنشاء الزوايا التي أسسها السيد المهدي (وخلفاؤه) بعد هذا التاريخ في واحة الكفرة وغيرها والتي بلغت في عام ١٩٣٢ حسب ما أثبته (فابريتزيو سيرا) تسعا وأربعين (٤٩) . وكانت أشهرها زوايا البيضاء ، وبنغازي والقصرين والمرج والقصور والعزيات والنجيله وأوجله ومسوس ، واللبه في جالو وغيرها ، ويدين بالطاعة للسنوسية في برقة قبائل الجراره والشوارى والعرفه والطواهر والزويه والبراعصه والحسه والعبيدات والفواخر والشيبات ، والدرسه والمغاربة الزوية والعريضات ، والعواقير وأولاد بوشالوفا والمجابرة وهكذا .

أما في طرابلس فقد بلغ عدد زوايا السنوسية ثمانية عشر زاوية (١٨) : من أهمها التزورات ، التي يرجع تأسيسها إلى عام ١٨٥٥ ، ثم الرجيبان (في ١٨٥٤) ، بومهدى ، العمامزه ، أورفله ، وغيرها . وفي الفزان بلغ عدد الزوايا (٢٢) ممتدة من الجغبوب الى غات ومن غدامس إلى الكفرة ، ومن أهمها سيوان وغدامس (وكان بها وحدها زاويتان) ، والمزده ، وهي ذات أهمية كبيرة لقربها من بلاد الجزائر فأضحت مركزا للتجارة كما غدت ملجأ أمينا للجزائريين الذين يقومون بالثورة ضد الفرنسيين في بلادهم من وقت لآخر ، ثم مرزق وزلة ، وسوكنة ، واو الشعوف وغيرها .

واستطاعت السنوسية بفضل انتشار القادرية في تونس أن تجد أرضاً صالحة لبث دعوتها في هذه البلاد فأنشأت خمس زوايا في منزل خير ، دويرات ، زاوية الحارث ، كريز . زاوية العرب ؛ وقد قدر (دوفرييه) في عام ١٨٨٥ عدد الزوايا التي كانت للقادرية والتي كان من المنتظر انخراطها في سلك السنوسية في تونس بسبع عشرة زاوية . وفي بلاد الجزائر أسس السنوسيون خمس زوايا في مستغانم ومازونه وزاوية سيدى أحمد بن الناصر وزاوية بجهار

تحتانى التى أسسها فى عام ١٨٧٤ السيد محمد بن العربى بن بو حفص (من أولاد سيدى تاج) الذى اشتهر باسم (بو عمامه) . وفى الجهات التى انتشرت فيها الطريقة التيجانية وجدت السنوسية سبيلا إلى الذيوع بواسطة زوايا هذه الطريقة فى مقاطعة (قسطنطين) خصوصا . أما فى مراكش فقد تأسست منذ عام ١٨٧٧ ثلاث زوايا سنوسية فى طنجة وطيطوان وفاس ؛ وساعد على انتشار السنوسية فى هذه البلاد أيضا وجود زوايا بها للطريقة الدرقاوية .

وفى الأقطار الإسلامية الأخرى أنشأ السنوسيون زوايا فى طرق القوافل إلى مصر ؛ فى سيوه ، والزيتون ، والحوش (حوش ابن عيسى) بجهة الاسكندرية ، والنطرون ، ثم فى الفرافره (منذ عام ١٨٦٠) ، وفى التربيات بالقرب من الواحة الداخلة . وهذا عدا زواياهم فى القطر المصرى نفسه فى الاسكندرية والقاهرة والسويس . وفى بلاد العرب كان للسنوسيين اثنى عشر زواية فى مكة وجده وينبع والمدينة المنورة وغيرها . ويذكر بعض الكتاب أن السنوسية لقيت انتشارا أيضا فى العراق وفى ساحل الصومال الأفريقى ، ثم فى القسطنطينية .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن السنوسية فى عهد السيد المهدى لم تلبث أن انتشرت أيضا فى قلب الصحراء الكبرى وفى مجاهل القارة الأفريقية ، بين القبائل التى ظلت على وثنيتها قرونا طويلة قبل أن ينفذ الإسلام اليها على أيدى هؤلاء الرسل الجدد الذين انطلقوا من الزوايا التى انشئت بالقرب من هذه الجهات يحملون اليها الهداية ؛ فوصلت الدعوة السنوسية إلى قبائل (التبو) و (التوارق) فى الأقاليم الممتدة جنوبا إلى بحيرة تشاد ، ثم بين غيرهم من الوثنيين القاطنين بالصحراء من حدود مراكش الجنوبية إلى نهر النيجر ثم إلى نهر السنغال غربا . فقد أنشأ السنوسيون فى هذا الجزء الأخير جملة زوايا فى توات وإنساله — وإلى الجنوب الشرقى من انساله تبدأ بلاد التوارق — ثم بين قبائل جراره وأولاد الحاج وغيرهم. وكان مؤسس زاوية إنساله الحاج أحمد التواتى المشهور ومن كبار السنوسية والذى كان يعتبره الفرنسيون ألد أعدائهم فى هذه الجهات . وقد خلفه فى عام ١٨٦٤ الحاج عبد القادر من أولاد باجوده . أما فى بلاد التبو والتوارق فقد انتشرت السنوسية انتشارا كبيرا واعتنق كثيرون من الوثنيين بفضل جهودهم الدين الإسلامى ، واستطاع أصحاب الدعوة أن يؤسسوا كثيرا من المدارس التى فتحوا أبوابها للذكور والإناث الزنوج على حد سواء لتعليمهم قواعد الدين الصحيح . وأهم القبائل التى أثرت فيها تعاليم السنوسية وقبلت سلطانها فى جهات (تشاد) وما جاورها الأير أو الأزين والتبو السالفة الذكر — وقد اتخذ عامل السنوسية (الشيخ أسود) مقرا له منذ عام ١٨٧١ زاوية (بجورمه) — ثم قبائل بائيلى الوانيانجا والبائيلى النيدى ، وبرقو وأولاد سليمان السعدى وكانمبو على بحيرة تشاد ، ثم قبائل النيرى.

توغى Enneri-Tougué أو (كوار) Kawor وزاويتها فى شمندرو Chimmendro . وقد وصف الرحالة (ناختجال) نفوذ السنوسية الكبير فى هذه البلاد عندما زار زاوية (شمندرو) فى عام ١٨٧٠ بصحبة الحاج محمد أبو عائشة من قبيلة أولاد سليمان ، وهو قائمقام غدامس ثم أورفله فيما بعد ، وكان وقتذاك من رجال المشير على رضا باشا والى طرابلس الغرب (١٨٦٦ ١٨٧٠) ؛ فكان الحاج محمد أبو عائشة لا حول له ولا قوة أمام مقدم الزاوية الذى فرض سلطانه واحترامه على جميع الأهلين فى هذه الجهات .

ومن واحة (كوار) أخذت السنوسية تمد نفوذها إلى بلاد (تو) Tou وتسكنها قبائل التيدا Tédâ وهى أحد فروع (التبو) ولكنهما أكثر نقاوة من أخوانهما . وقد استطاعت السنوسية أن تثبت أقدامها فى بلاد (تو) وأنشأت أهم زواياها فى (بردائى) منذ عام ١٨٧٢ ، وصار ملك هذه البلاد ، (أرامى) آلة مسيرة فى أيدى مقدم الزاوية والأخوان .

وأما إنتشار السنوسية الكبير فى واداى فقد سبق ذكر طرف من أسبابه . وكان تأسيس هذه السلطنة كدولة إسلامية فى عام ١٦١٢ ، ثم ظلت مغلقة دون العالم الخارجى منذ تأسيسها وقد تقدم كيف استطاع السيد محمد بن على السنوسى الكبير أن يمد نفوذ الطريقة إلى واداى فى عهد سلطانها محمد شريف الذى توفى فى عام ١٨٥٨ . ثم ظهر نفـــوذ السنوسية فى واداى واضحا جليا عندما تدخل السيد المهدى معضدا أحد المتنازعين على عرش واداى بعد وفاة سلطانها على (١٨٧٦) ، فتم الأمر بفضل تأييده للسلطان يوسف فكان من أعظم الأمراء إخلاصا وولاء لسيد الجغبوب .

ويقع إلى الشمال الشرقى من واداى ، (دويلة) تدين بالطاعة لها هى (التيدى) وأهلها من قبائل (الباتيلى) أو البيدايات الوثنية ، التى حرص دعاة السنوسية على نشر الإسلام بين أهلها ، فلقيت دعوتهم نجاحا فى عام ١٨٧٢ ، فلم تمض سنوات قليلة بعد ذلك حتى كانت هذه القبائل قد دخلت جميعها فى الإسلام ثم انخرطت فى سلك السنوسية ، وأنشأ السنوسيون عدة زوايا فى بلادهم ، وفى عام ١٨٨٦ كان ملك هذه البلاد يرسل إلى السيد المهدى كل عام من مدة طويلة هدايا كثيرة وعدداً من الشبان للتعلم فى زاوية الجغبوب ؛ ثم لم تلبث أن انتشرت السنوسية إلى جهات (الباتيلى) الشمالية وهم (الوانياتجا) ؛ فتأسست بها زاويتان هما زاوية سيدى عبد الرب وزاوية سيدى السنوسى .

وفيما عدا ذلك ، انتشرت السنوسية فى جهات برنو ثم فى جهات النيجر حول تمبكتو : وفى عام ١٨٧٦ شاهد (جيرار رولفس) فى (زاوية الاستاذ) بواحة الكفرة بعض السنغاليين الذين حضروا لزيارة السيد المهدى ، ثم زاروا الجغبوب قبل العودة إلى بلادهم . وكذلك

انتشرت السنوسية فى بلاد كانم . وكانت كانم من قديم موضعا للنزاع بين سلطان واداى وسلطان برنو حتى حدث فى عام ١٨٤٥ أن حضرت إلى كانم من جهات (سرت) إحدى قبائل فزان العربية وهم أولاد سليمان ، فأقاموا بها وأخضعوا ما حولها من أقوام الكانمبو والتبو والبائيلى ونشروا الاسلام بينهم ، فكان من المنتظر لذلك أن تنتشر السنوسية فى كانم بسهولة . ويذكر (ناختجال) أنه عندما وصل إلى مكان أولاد سليمان فى (بير البركة) فى عام ١٨٧١ شهد «مبشرين» من السنوسيين حاولوا أن يمنعوا رئيس القبيلة (عبد الجليل) من السماح لناختجال وجماعته بالتقدم إلى جهات التبو والبائيلى ، ثم انسحبوا إلى (برقو) .

* * *

هذا وقد نجم عن ذيوع الدعوة إلى الاسلام ونجاحها فى أواسط أفريقية ، ثم توطيد سلطان السنوسيين فى قلب الصحراء الكبرى بفضل التنظيمات الدقيقة التى وضعوها (لجمعيتهم) على أساس إنشاء الزوايا وإحكام الصلات بين هـذه الزوايا المتفرقة البعيدة وبين الزاوية الكبرى مقر السادة السنوسية الرئيسى — سواء أكانت فى الجغبوب (١٨٥٦ — ١٨٩٥) ، أم فى زاوية التاج بواحة الكفرة (١٨٩٥ — ١٨٩٩) ، أم فى واحـة قرو (فى برقو) (١٨٩٩ — ١٩٠٢) أن وجدت الرسالات المسيحية التبشيرية فى السنوسيين خصوما عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة ، إن لم يكونوا قد أفسدوا هـذه الأعمال فى بعض الجهات وأبطلوها . زد على ذلك أن نجاح الدعوة السنوسية ودعم أركان الإمارة الجديدة سرعان ما صار يقض مضاجع دول الاستعمار الغربية وخصوصا منذ أن قويت منافسة هذه الدول فيما بينها من أجل اقتسام القارة الأفريقية ، أى فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر . فإن دولة انجلترة التى احتلت البلاد المصريه فى عام ١٨٨٢ ، ثم أشارت على المصريين بإخلاء السودان ، ثم صارت تتأهب فى التسعينات من القرن الماضى لاسترداده ، وكانت فوق هذا ذات مصالح حيوية فى غربى أفريقيه وجنوبيها ، اضطرت إلى أن تحسب حسابا كبيراً للدعوة السنوسية وأن تسعى لتوقى خطر هذه الدعوة من ناحية السودان المصرى خاصة . وكذلك كان حال فرنسا التى لم تقتصر على احتلال بلاد الجزائر فى عهد مؤسس الطريقة السيد محمد ابن على السنوسى الكبير ، على نحو ما أسلفنا ، بل أدخلت فى نطاق ممتلكاتها تونس ، وصارت تتوغل من جهة الغرب فى قلب أفريقية حتى وصل نفوذها إلى (واداى) ، وهذه كانت كما تقدم من الأقطار التى دانت للسنوسية وصارت من أقوى دعائمهم فى جوف الصحراء الأفريقية الكبرى ، ولذلك فان فرنسا سرعان ما وجدت نفسها فى طريق الاصطدام عاجلا أو آجلا مع الامارة السنوسية . أضف إلى هذا أن دولة إيطاليا الحديثة بعد أن أتمت وحدتها وصارت

تتطلع إلى امتلاك المستعمرات فى أفريقية إلى جانب دول أوروبا «العظيمة» ، ثم بيتت النية منذ أمد بعيد على اغتصاب القطر الطرابلسى من أيدى الدولة العثمانية ، غدت هى الأخرى تبذل كل جهد من أجل اجتلاب مودة السيد المهدى علها تظفر بسكوته حينما تواتيها الظروف لتحقيق مأربها . بل إن الدولة الألمانية الجديدة لم تلبث بعد انتصارها فى الحرب السبعينية أن أخذت تسعى هى الأخرى حتى تستميل السيد المهدى إلى العمل ضد فرنسا فى أفريقية الغربية .

وفى وسط هذا النشاط السياسى وبسبب هذه الأطماع الاستعمارية سرعان ما ظهرت إلى عالم الوجود دعاية طويلة عريضة دبرها المبشرون الذين أفسدت الجمعية السنوسية عليهم عملهم فى أواسط أفريقية ، وكان لأقوال هؤلاء المبشرين أثرها فى كتاب الأفرنج ومؤرخيهم الذين تعرضوا لذكر السنوسية وأعمالها وبيان مدى نشاطها ونفوذها فى أفريقية ، فألصقوا بها اتهامات كثيرة لا تستند إلى شىء من الحق والصدق . ومن أشهر هؤلاء الكتاب (دوفيرييه) الذى تحدث عن السنوسية ومؤسسها الكبير السيد محمد بن على السنوسى ، وكان يرى فى جمعيتهم خطراً عظيما يتهدد «المسيحية» فى القارة الأفريقية ويعطل مصالح الدول الأوروبية التى تريد استعمار شعوب هذه القارة «المظلمة» ، وتحرض الأهلين فى الممتلكات الفرنسية وفى بلاد الجزائر خصوصا على القيام بالثورة ؛ ولو أن كاتبا فرنسيا آخر هو (لوى رين) جزم بأنه لم يجد دليلا ما يثبت اشتراك السنوسيين فى تحريك هذه الثورات ضد الحكم الفرنسى .

ومن أشهر الذين كتبوا ضد السنوسية (مونتيه) مؤرخ الرسالات الإسلامية، فى القرن التاسع عشر و(أرثرسيلفاهوايت) . وهو كاتب إنجليزى زار واحة الجغبوب(١٨٩٨) وأنشأ الفصول الطوال فى ذكر أحوال السنوسيين وعاداتهم وبيان عقائدهم وهكذا . وكان أهم ما ألصق بالسنوسيين من اتهامات أنهم جماعة شديدة التعصب ضد المسيحية ، ويبلغ هذا التعصب ذروته فى الصحراء خاصة حيث يكثر ، كما قالوا اغتيال أولئك الأوروبيين الذين دفعهم حب الكشف والاستطلاع إلى ارتياد مجاهل هذه الأصقاع الفسيحة . وكان أشد الكتاب تطرفا فى إلصاق تهمة الاغتيال بالسنوسيين الكاتب (دوفرييه) فعدهم مسئولين مباشرة أو بطريق غير مباشر عن مقتل (ادوار فوجل) فى واداى فى عام ١٨٥٦ ، ثم (فون بورمان) فى كانم فى عام ١٨٦٣ . و(فون دردكن) ورفقائه على نهر جوبا فى عام ١٨٦٥ والآنسة (تينى) المشهورة فى الفزان بالقرب من مرزوق فى عام ١٨٦٩ ، ثم الضابط الفرنسى (دورنو دوبيريه) على الطريق بين غدامس وغات فى عام ١٨٧٤ ، ثم (الكولونيل فلاترز) والضابطين (ماسون) و(ديانوس) فى عام ١٨٨١ ، وغيرهؤلاء . زد على ذلك أن السنوسيين

كما ادعى هؤلاء الكتاب كانوا يمنعون المسيحيين قاطبة من زيارة جهات برمتها فى طرابلس ، كما قالوا أن السنوسية كانت تطلب إلى فقراء السنوسيين الذين لا يملكون ما يدفعون عنه مالا (أو العشر أو العشور) للخزانة العامة ، القيام بخدمات معينة (للجمعية) وأن يعملوا كجواسيس لها أو قتلة . وزيادة على هذا فهناك طبقة واحدة من السنوسيين يصرح لأفرادها بالاتصال بالمسيحيين إطلاقا ، هى طبقة الوكلاء فى الزوايا . بيد أن أهم ما عنى هؤلاء الكتاب باظهاره وتصويره ذلك الخطر الذى قالوا إنه يهدد النفوذ الأوروبى ويمنع تغلغله فى أواسط أفريقية ، ومنشؤه أن السنوسية هى أكبر وأنشط الوسائل التى يستطيع عن طريقها دعاة (الجامعة الاسلامية) وأنصارها تحقيق أهدافهم ؛ فقالوا أن السنوسية تحرم على أتباعها الاتصال بالثقافة الغربية ، وتغلق بلادها دون الحضارة الأوروبية ، وتعد قبول هذه الحضارة والأخذ عنها بدعة من الواجب عليهم محاربتها . ويدعى هؤلاء الكتاب إلى جانب ما تقدم أن السنوسيين لم يكتفوا بمناضلة الأوروبيين والمسيحيين عامة بل صاروا يعتبرون (الأتراك) أنفسهم غرباء عنهم ، ومن واجب السنوسية محاربة نفوذهم والقضاء على نشاطهم ، وعلى الرغم من إسلامهم حتى أن (دوفرييه) نسب إلى السنوسية زوراً وبهتانا قولهم على لسان سيدى الأخضر بن مخلوف « الترك والنصارى إلى أقاتلهم معا وأضربهم ضربة واحدة » وكذلك من المفتريات التى ظل أعداء السنوسية يرددونها مدة طويلة قولهم أن « الطريقة » كانت تعتبر اغتيال أى مسيحى عملا طيبا يستحق فاعله كل ثناء ومكافأة ؛ كما ادعوا أن السنوسيين كانوا يعتبرون من واجبهم عدم الدخول فى بلد يخضع لسلطان المسيحيين .

بيد أن هذا كله — كما هو واضح جلى — لم يكن سوى أباطيل . أتى بها أعداء السنوسية حتى يقلبوا ضدهم الرأى العام الغربى على وجه الخصوص ، وحتى يجدوا مسوغا لأعمال ارسالياتهم التبشيرية فى وسط القارة الأفريقية ، وهذا فى الوقت الذى اشتدت فيه مطامعهم الاستعمارية فى هذه القارة ، وأخيرا حتى يؤيدوا — كما توهموا — شكاياتهم التى تقدموا بها ضد السنوسيين إلى السلطان العثمانى عبد الحميد فانه لما كان السيد المهدى لايأبه لمحاولة هذه الدول من أجل التقرب اليه وفشلت وسائلهم فى اجتذابه اليهم وأعرض عنهم ، عظمت مخاوفهم من تشكيلاته وحركاته ، وانكبوا يسعون لدى الآستانة ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد كى يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر فى استدعاء السيد المهدى من افريقية للاقامة بأرض الحجاز أو فى دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه . ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة فى النهاية لجملة أسباب سوف يأتى ذكرها فى موضعها .

ومع هذا فانه لايصعب على إنسان دحض مفتريات هؤلاء الكتاب الذين حملوا على

السنوسية وحاولوا تشويه سمعتها لغرض فى أنفسهم ، ذلك أن السنوسية وهى التى تتمسك بكتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم ، وتتخذ شعارها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتتبع أثر السلف الصالح فى أعمالها ، ما كان لها أن تغاير تعاليم ومبادىء الدين الإسلامى الحنيف ، وهو دين الفطرة والتسامح ، ويكفى أن نثبت بعض ما جاء فى رسالة تاريخية للسيد محمد بن على السنوسى الكبير بعث بها إلى أحد خلفائه بزاوية المدينة المنورة فى ١٢ ربيع الأول ١٢٦٤ (١٧ فبراير ١٨٩٨) ، حتى يتبين من قراءتها شىء من المبادىء التى كان يذيعها مؤسس السنوسية والمصلح العظيم ويريد تربية أخوانه عليها والاتباع والمريدين . قال رحمه الله « والمؤكد به عليكم وأفضل صلة واصلة إليكم ما حث به الحق سبحانه وتعالى وعم وأمر به سائر الأمم فقال جل من قائل (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) ، فعليكم بتقوى الله العظيم باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والاكثار من ذكره والصلاة والسلام على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أناء الليل وأطراف النهار ليستنير بذلك القلب ويتنور الباطن والظاهر . وعليكم بمراقبة الحق سبحانه وتعالى فى جميع الأحوال فى الحركات والسكنات ما ظهر منها وما بطن . وابذلوا جهدكم وقفوا على ساق الجد والاجتهاد لنيل أسنى المراد ، وكونوا على المنهاج القويم ، والصراط المستقيم .وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير . قال تعالى (وقولوا للناس حسنا) وقال جل وعلا (ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ، وقال صلى الله عليه وسلم (ارفقوا فان الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ، وان الحمق ما كان فى شىء إلا شانه) . وارفعوا همتكم عن الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم (ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس) . وعليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه ، والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر أعوانا ، فبذلك تنالون الفوز الأبدى والربح السرمدى الذى لا يعتريه خسران ولا يحوى حول حماه حرمان والله يجعلكم أئمة اقتدا ، ونجوم اهتدى ، ويفتح بكم أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا وألسنا بكما ، ويمن عليكم برضاه الأكبر الذى لا سخط بعده . »

وأما السيد المهدى رحمه الله ، فهو القائل « لاتحقرن أحداً لامسلما ولانصرانيا ولايهوديا ولا كافراً ، لعله يكون فى نفسه عند الله أفضل منك ، إذ أنت لاتدرى ماذا تكون خاتمته »

وجمعية تهتدى بهدى القرآن الكريم وتعمل بالسنة الشريفة وتتبع أثر السلف الصالح ، وهذا (قانونها) و (شعارها) ، كانت ولاشك بعيدة كل البعد عن أى تعصب لا يرضى به الدين الإسلامى الحنيف ، وفى طبيعته العفو والمسامحة ، (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض

عن الجاهلين) ولا يمكن أن تقره (الجمعية) التى قال عنها أعداؤها أنفسهم أنها بفضل ما اقترنت به دعوتها من تسامح واسع ، استطاعت أن تجتذب إليها وتضم تحت لوائها مالا يقل عن الأربعة وستين جماعة دينية تباينت آراء أعضائها واختلفت وجهات نظارهم لدرجة كبيرة .

والحقيقة أن السيد المهدى السنوسى كان رجل حكمة وعلم بعيدا عن التعصب ، زد على هذا أنه رحمه الله كان يتمتع بقوة فكر ورجحان عقل وبعد نظر ، وليس أدل على بعده عن التعصب من موقفه من الدول الأجنبية ومن جيرانه الأوروبيين فالسيد المهدى لم يكن فى كل مواقفه معهم معتديا أو بادئا بحرب أوعدوان ، كما أنه لم يشأ أن يصبح آلة فى أيديهم يحركونها كيف أرادوا ، تشهد على ذلك خطته الحكيمة مع هذه الدول ، ثم مع جماعة العرابيين فى مصر ، ومع اتباع محمد أحمد المهدى فى السودان ، كما تدل من جانب آخر قصة صراعه الطويل مع الفرنسيين فى حدود (واداى) وغيرها على أنه ما كان يريد فى الواقع من اشتباكه مع هؤلاء المغيرين سوى الدفاع عن الأقوام الذين انتشرت بينهم زوايا السنوسية، ونما وترعرع الاسلام ، ضد اعتداءات الدول المستعمرة ، على أن بيان مواقف السيد المهدى من ذلك جميعه انما يكشف فى الوقت نفسه عن مدى سلطان السيد وانتشار نفوذه .

ويبدو واضحا جليا أن البروسيين كانوا أول من أرادوا الاستفادة من النفوذ الذى يتمتع به السيد المهدى فى الصحراء فحاولوا فى عام ١٨٧٢ مفاوضته على أمل استمالته إلى تحريك الثورة فى الجهات التى خضعت للفرنسيين فى افريقية الشمالية والغربية ، ولكن محاولتهم ذهبت سدى ، لأن السيد المهدى رفض مقابلة الرسل الذين أوفدوهم إليه فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه . ومع هذا فقد تكررت محاولات البروسيين فى الأعوام التالية للغرض نفسه ، فاستطاع الرحالة (جيرار رولفس) فى عام ١٨٧٦ أن يزور برقة والكفرة ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدى ، ووقف عند (بير سلام) بالقرب منها ؛ وقابله سيدى أحمد بن البيسكرى جملة مرات ، ولكنه لم يستطع مقابلة السيد المهدى نفسه أو الحديث إليه .

وعندما اشتبك العثمانيون فى حربهم المشهورة مع الروسيا ، طلب السلطان من السيد المهدى أن يمده بالجند من طرابلس وبرقة لمعاونته فى الحرب الدائرة (١٨٧٧). ولكن السيد المهدى لم يشأ التدخل فى هذا النزاع ، ولم يغادر جندى واحد أرض طرابلس الغرب للاشتراك فى هذه الحرب .

وظهرت رغبة السيد المهدى فى الابتعاد عن المشاكل الأجنبية عموما ، والتفرغ لدعم أركان السنوسية بالاكثار من إنشاء الزوايا التى ألقى على عاتق أهلها فى الواقع عبء الدعوة

إلى الاسلام فى الصحراء الافريقية ، عندما حاول الايطاليون بدورهم أن يستميلوه ، من غير جدوى ، إلى المحالفة معهم منذ عام ١٨٨١ على أساس تحريك الثورة ضد الفرنسيين فى تونس بعد احتلالهم للبلاد التى كانت موضع أطماع الايطاليين وحالت ظروف متنوعة دون تحقيق مآربهم من مدة طويلة وهكذا عندما أرسل الايطاليون بعثة استكشافية برئاسة الضابط (كامبريو) إلى برقة ، نجحت هذه البعثة فقط فى اثارة خواطر الأهلين ضدها فى الجبل الأخضر ودرنة بدلا من استمالتهم .

وفى أثناء عمليات الانجليز العسكرية فى مصر فى عام ١٨٨٢ توقع كثيرون أن يلقى أحمد عرابى وجماعته تأييداً من جانب السيدالمهدى ، ولذلك فانه سرعان ما بعث (دوفرييه) فى أثناء محاكمة عرابى بعد فشله ، برسالة إلى محاميه المشهور (برودلى) فى أول نوفمبر ١٨٨٢ يقول فيها أن عرابى لم يقدم على الثورة إلا بتأثير من السنوسية ، وانه إذا صح ذلك ، لم يكن إلا أداة فقط يحركها السنوسيون لتنفيذ أغراضهم ، ثم يرجو فى نهاية رسالته ، أن يتفضل (برودلى) بأخباره إذا كان عرابى نفسه من أتباع الطريقة السنوسية .

وغنى عن البيان أن أحمد عرابى لم يكن فى حياته سنوسيا ، كما أن السيد المهدى كان بعيداً كل البعد عن هذه الحركة . ويقول (لوى رين) تعليقا على هذه الحوادث « أن السنوسية لم تحرك ساكنا فى أثناء ثورة عرابى ، وذلك لأن رئيسها (أى السيد السنوسى) كان يعلم بوجود شبه إتفاق سرى بين عرابى وبين الرجال السياسيين فى استانبول ، ولأنه بكل بساطة كان يعرف تماما أن الحرب ليست هى الوسيلة التى يمكن بها إعادة صرح الامامة العالمية على ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين » .

بيد أن أهم الحوادث التى وقعت فى هذه الفترة وأظهرت ما كان يتحلى به السيد المهدى من صفات الزعامة والامارة السامية ، وكشفت عن حقيقة النفوذ الروحى والزمنى الذى ظل يتمتع به السيد طيلة حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، كان قيام محمد أحمد (مهدى آبا) بالثورة فى السودان المصرى . وادعاؤه أنه (المهدى المنتظر) فقد استطاع محمد أحمد أن يجذب إليه كبار تجار الرقيق الذين ساءهم أن تجد الحكومة المصرية فى مكافحة تجارتهم الشائنة ، ثم استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه إنما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام وإقامة صرح حكومة جديدة على أسس من الدين القويم . ثم ظهر أمره شيئا فشيئا ، وأحرز جملة انتصارات على الحكومة فذاع صيته إلى الأقطار المجاورة ، وكان من بين الذين ساورهم القلق من هذه الحركة الخطيرة السيد محمد المهدى السنوسى نفسه . وكان لذلك جملة أسباب . أولها ولا شك كان دينيا ، لأنه على الرغم مما أجمع عليه التواتر ووصل إليه

الباحثون فى هذه الموضوعات ، من توقع مجىء (المهدى المنتظر) فى هذه الفترة من الزمان ، فقد كان من المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدى وكان السنوسيون أعظم الناس ريبة فى ذلك ، فى وقت كان كثيرون من أهل برقة والأقطار التى انتشرت فيها السنوسية عموما يعتقدون اعتقاداً كبيراً بأن السيد المهدى السنوسى نفسه ابن السيد محمد بن على السنوسى الكبير كان هو (المهدى) حقيقة ، ولو أنه من المقطوع به أنه لم يكن هناك أى دليل على أن السيد محمد المهدى كان يعتبر نفسه (المهدى المنتظر) . فكان ظهور حركة محمد أحمد فى السودان مدعاة لتحريك الخواطر فى البلدان التى دانت لسلطان السنوسيين عامة . زد على هذا أن نجاح ثورة محمد أحمد فى البلاد القريبة من الجهات التى انتشرت فيها زوايا السنوسية كان مصدر أخطار عدة وبخاصة أنه كان من أهداف مهدى السودان أن ينشر دعوته فى جميع الأقطار الاسلامية حتى لقد طلب إلى أمراء المسلمين الاعتراف له بالزعامة من أجل تأسيس (الدولة الدينية) — أو الثيوقراطية — التى كان من المتوقع إنشاؤها على غرار خلافة الأئمة الراشدين فى صدر الإسلام . فلم يكن محمد أحمد إذن قانعا بتشييد ملكه فى السودان وحده ، بل أراد أن يبسط سلطانه على ما جاوره من شعوب وأقطار . ومعنى هذا ، فيما يهم السنوسية ، أنه لو أتيح له أن ينجح لانهار صرح تلك الإمارة التى وضع أسسها السيد السنوسى الكبير ، ووطد أركانها السيد المهدى نفسه . أضف إلى ذلك أن جنوح محمد أحمد إلى الثورة وحمل السلاح فى وجه حكومة إسلامية على الخصوص ، وكانت جزءاً فى الحقيقة من أجزاء دولة الخلافة الكبرى ، كان لا يتفق مع جوهر مبادىء وتعاليم السنوسية كما وضعها السيد المؤسس ، وكما فهمها وسار عليها خليفته الأول ، لأن دولة الخلافة ظلت فى اعتبار السيد المهدى ، كما كانت فى اعتبار والده من قبل ، ذلك السياج الذى يحوط العالم الاسلامى ويمنع عنه كيد الكائدين وطمع الطامعين ، وليس من مصلحة الاسلام فى شىء إضعاف دولة الخلافة . ولم تكن الدعوة إلى إيقاظ العالم الإسلامى ، كما وضع أسسها السيد المؤسس ، وكما فهم هذه الأسس واسترشد بها أيضا ولده ، تهدف إلى تحطيم دولة الخلافة أو الانتقاص من شأنها وإنما كان هدفها الأول إحياء الدين وبعث الايمان ونشر العقيدة الصحيحة قبل كل شىء ثم إنشاء الإمارة الاسلامية التى تأخذ على عاتقها الدعوة إلى دين الله الحنيف منضوية تحت لواء الخلافة والإمامة الكبرى .

ومع هذا ، أو بسبب ذلك كله ، عنى السيد المهدى من أول الأمر بضرورة الوقوف على حقيقة هذه الدعوة التى انتشرت فى السودان ، ولذلك فانه لم يلبث أن أوفد من (وادای) رسولا مهمته الاستطلاع ، فوصل هذا الرسول إلى الأبيض عاصمة الكردفان عقب سقوط البلدة مباشرة فى أيدى محمد أحمد (يناير ١٨٨٣) ، بعد حصار استمر أربعة شهور وحدثت بسببه مجاعة مخيفة . وعند احتلال الأبيض ارتكب أتباع محمد أحمد تحت بصره وسمعه فظائع

كثيرة مع المكان ، فكان من نصيب رسول السنوسية أن يشهد اتباع (المهدى المنتظر) يقتلون الأنفس ويسلبون الأموال ويهتكون الأعراض ، فأحدثت هذه الوحشية البالغة أثرا عميقا فى نفسه وهو الذى نشأ فى أحضان السنوسية ذات المبادىء والتعاليم الانسانية والدينية الرفيعة وعندئذ قرر السيد السنوسى ألا تكون له بهذا (المهدى المنتظر) صلة ، ولو أنه وجد فى الوقت نفسه من أصالة الرأى عدم استثارته إلى حد قد يدعو إلى الاشتباك معه فى حرب لا طائل تحتها ومن آثارها ولا شك تعطيل السنوسية عن المضى فى تأدية رسالتها الكبرى . ولكن محمد أحمد لم يشأ أن يترك السنوسية وأمرها .

فإنه لما كان السنوسيون قد أنشأوا زواياهم فى السودان الغربى حتى حدود دارفور ، ثم فى السودان المصرى نفسه وكثر أتباعهم فى هذه الجهات ، وذاع صيت السيد السنوسى وقوى ساعده وتوطدت أركان امارته فقد رأى محمد أحمد من أول الأمر أن يجذب إليه السيد المهدى لجملة أسباب ، لعل أهمها ما كان يرجوه محمد أحمد من نشر نفوذه وامتداد سلطانه إلى الامارات الإسلامية فى أفريقية الغربية إذا دانت له السنوسية بالطاعة ، وهم جماعة منظمة ذات حكومة قوية الدعائم فى هذه الجهات . أضف إلى هذا ما كان يرجوه محمد أحمد أيضا من استخدام السنوسيين فى حربه المنتظرة ، وهم الذين اشتهروا بأنهم كانوا مسلحين تسليحا كاملا ويحسنون الرماية ويعرفون فنون الكر والفر ، وكان محمد أحمد قد بيت النية على غزو الديار المصرية لطرد الانجليز الكفار والأجانب المسيحيين منها ، فصار يمنى النفس بإمكان استمالة السنوسيين إلى مؤازرته فى هذا الجهاد ، وخصوصا وأن هؤلاء كانت لهم فى هذه الآونة جملة زوايا ويكثر أتباعهم فى جهات مصر القريبة من الصحراء الغربية ثم فى الفيوم وفى بعض أقاليم الوجه القبلى .

وعلى ذلك فان محمد أحمد لم يكد يقرر اختيار خلفائه الأربعة على الجيش ولولاية الحكم من بعده — على غرار ما حدث فى صدر الاسلام عند تولية الخلفاء الراشدين الأربعة — حتى عول على أن يكون السيد محمد المهدى السنوسى نفسه خليفته الثالث ، (أى فى مقام خليفة المسلمين عثمان بن عفان) ، فأرسل إليه بعد سقوط الأبيض (طاهر واد إسحاق) يعرض عليه عزم محمد أحمد على أن يضعه فى مقام الخليفه الثالث ، لأن مقام الخليفتين الأول والثانى - كما قال - قد صارا مشغولين بمن فيهما » ، وفى نظير ذلك يقوم السيد السنوسى من جهته بشن الحرب على الانجليز فى مصر . فقابل السنوسى رسول محمد أحمد وقام بواجب الضيافة نحوه ، ولكنه رحمه الله أجاب على دعوة محمد أحمد بقوله : « كتاب محمد أحمد وصلنا ، والرد عليه هو أن مقام عثمان لايناله لا أنا ولا هو » ؛ ورجع الرسول أدراجه . ومع أن خبر هذه (المفاوضة)

— إن شئت أن تسميها كذلك — كان قد ذاع فى طول البلاد وعرضها . وترددت الاشاعات عن قبول السنوسية العمل مع محمد أحمد ، حتى تحدث كثيرون فى ذلك الوقت عن انتقال شيخ السنوسية وزعيمها إلى الصعيد المصرى تلبية لنداء محمد أحمد ، فإن هذه الدعوة ومثيلاتها ما كانت لتلقى فى الحقيقة أى تأييد أو استجابة من قبل السيد السنوسى ، وهو الذى كان يرى فى حركة محمد أحمد — على الأقل — ثورة لا يمكن أن تؤدى إلى إحياء الدين والملة ، ناهيك عن العوامل الأخرى التى سبق بيانها ، والتى جعلت السيد يتخذ كل الحذر من هذه الدعوة السودانية . وعلى ذلك فإن السيد المهدى السنوسى لم يلبث فى يناير ١٨٨٤ أن طلب إلى الشعوب الإسلامية خصوصا فى واداى وبرنو والبلاد المجاورة ، أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدية محمد أحمد الذى لم يكن إلا مخادعا كاذبا ، ! وكان السيد قد أهمل أيضا الرد على رسالة أخرى بعث بها إليه محمد أحمد يطلب منه إما الهجوم على مصر وإما الحضور إليه والانضمام إلى صفوفه . (مايو ١٨٨٣)

ومع هذا وعلى الرغم من الموقف الصريح الذى اتخذه السيد المهدى من حركة محمد أحمد فقد ظل الدراويش فى المدة التالية يتوقون إلى اجتذاب السيد إلى جانبهم ويتنسمون أخباره ويودون لو أنه يستمع إليهم فيقوم من جانبه بغزوة كبيرة على مصر لطرد (الكفار) منها فقد حدث أن وقع فى أيديهم أحد المغامرين الفرنسيين (أوليفيه بين) وكان قد شق طريقه إلى الأبيض بكل صعوبة حتى يعرض على الدراويش باسم دولته فرنسا التأييد والمساعدة ثم خضوع أمته لحكومة المهدية ، فلم يهتم الدراويش بدعواه بقدر اهتمامهم بالوقوف منه على أخبار السيد السنوسى ، وهل قام بحملته ضد الكفار فى مصر أم لا يزال ممتنعا عن مناصبتهم العداء . واستطاع (بين) أن يؤكد لهم قبل موته (فى نوفمبر ١٨٨٤) أن السيد السنوسى لا يريد الاشتباك مع الانجليز فى نضال ما . وعندما توفى محمد أحمد (فى يونيه ١٨٨٥) وتولى بعده الخليفة الأول عبدالله التعايشى جدد الدراويش مساعيهم حتى يجتذبوا إليهم السيد السنوسى ولكن من غير طائل . وكان موقف السيد من التعايشى كموقفه من سلفه بل ان السنوسية سرعان ما صارت مصدر متاعب متعددة للتعايشى ، حتى أنه لما قامت ثورة (الشيخ أبو جميزة) المشهورة فى دارفور فى عام ١٨٨٨ زعم كثيرون أن هذا الشيخ لم يكن سوى السيد السنوسى نفسه ، أو على الأقل مندوب السيد . واستطاع أبو جميزة وأنصاره بفضل استغلالهم هذه المزاعم ، وأدعائهم أنهم كانوا يتمتعون بتعضيد (شيخ جغبوب) أى السيد المهدى السنوسى ، أن يضموا إلى صفوفهم كثيرين من أهل البلاد فى دار فور وبرنو وبرقو وواداى ، وهى جهات انتشرت فيها الطريقة السنوسية انتشاراً كبيراً . ثم أحرز أبو جميزة بعض الانتصارات على

الدراويش وتفاقمت الثورة ، ولم يخلص عبدالله التعايشي من شرها المستطير سوى الموقف الذى آثر أن يتخذه السيد السنوسى من (المهدية) وشئونها جميعها فى هذه الآونة ، وامتناعه قطعا عن التدخل فى مصلحة الثوار فى دار فور . حقيقة كان السيد السنوسى يرى فى رغبة عبدالله التعايشي تحويل الحج إلى قبر محمد أحمد بدلا من الحجيج إلى الكعبة بمكة المكرمة زيغا وخروجا على الدين ، ويؤيد فى هذه المسألة موقف الشيخ أبى جميزة الذى كان يدعو إلى الدين الصحيح ولكنه لم يشأ أن يفعل أكثر من ذلك ، حتى أنه أشار على سلطان برقو الذى كان أصحاب الثورة فى دار فور قد طلبوا إليه مؤازرتها ضد التعايشي ، وطلب السلطان رأى السيد السنوسى فى ذلك ، أن يتجنب الانغماس فى شئون السودان ولا يحرك ساكنا إلا إذا اعتدى الدراويش أنفسهم على ملكه . وقد وضح السيد المهدى خطة « الحياد » الدقيق هذه بقوله . « انه إنما يعنى بالدعوة إلى اصلاح الدين الحنيف سلما لا حربا ؛ بينما تنفر الملة التى يراد احياؤها نفوراً عظيما ، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها ، والجرائم التى يرتكبها فى السودان أمثال هذا المهدى المزيف . ولذلك فانه لا يريد ولا يفكر فى أن يتدخل فى شيء مما يحدث ، بل من واجب محمد أحمد وخليفته هذا أن ينظرا وحدهما فى الوسائل التى تكفل لشخصيهما النجاة أو الهلاك المحقق » فجاء هذا القول إعلانا صريحا عن عزم السيد على التمسك بخطة أو سياسة عدم التدخل فى شئون السودان . وعلى ذلك فانه بمجرد أن عرفت رغبة السيد السنوسى الحقيقية انفض الناس من حول (أبى جميزة) وضعف شأنه تدريجا حتى استطاع عامل الخليفة التعايشي (عثمان آدم) أن يلحق به فى آخر الأمر هزيمة منكرة فى فبراير ١٨٨٩ ، ثم مرض أبو جميزة بالجدرى ومات فى الشهر نفسه .

بيد أنه لما كان عبدالله التعايشي مع متاعبه الكثيرة لا يزال مصمما على غزو مصر ، ولا يزال يطمع فى مؤازرة السيد السنوسى على الرغم من تمسك السيد بموقفه ، فقد أرسل اليه يطلب منه إعلان الجهاد ، ولكن على غير طائل ، للأسباب التى سبق ذكرها ، ولأن السيد المهدى كان لا يريد مناصبة الانجليز العداء فى الوقت الذى اعتقد فيه رحمه الله ، أن خطرا قريبا سوف يهدد طرابلس وبرقة من جانب الطليان ، وأنه سوف يأتى يوم يقوم فيه الانجليز بمحاربة هؤلاء الايطاليين ويخلصون البلاد من طغيانهم . ولذلك لم يكن من خطة السيد ولا من سياسته إثارة عداوة الانجليز ضده أو الاشتباك معهم فى نضال ، أضف إلى هذا أن الحكومة المصرية حكومة إسلامية ولا يصح لهذا السبب إعلان الجهاد ضدها ، وهذا إلى أنها كانت لا تزال تابعة للعثمانيين وتخضع لسياسة الخليفة الاسلامى ، ومعنى قتالها الخروج على سلطان هذا الخليفة الشرعى . لذلك لم يعر السيد دعوة التعايشي أى اهتمام . وكان موقفه فى

هذه الظروف العصيبة بالنسبة لمصر خصوصا يدل على بعد نظر سياسى وحكمة خليقة بهذا الزعيم الاسلامى الكبير وزيادة على ذلك فان السيد فى هذه الآونة كان لايزال مهتما بنشر دعوة الاسلام فى واداى و برنو وكانم وادامو ا و برقو والداهومى وغيرها ، فلم يشأ أن يثنيه شىء عن عزمه هذا فى خدمة الاسلام ونشر الدين الحنيف .

ولما لم يجب السيد لذلك دعوة التعايشى ، قرر خليفة محمد أحمد الانتقام من السنوسية فزحف الدراويش من دارفور فى عام ١٨٩٠ حتى بلغوا حدود واداى . ولكن سلطانها يوسف الذى اعتلى العرش بتأييد من السيد المهدى نفسه وكان عظيم الاخلاص والولاء له لم يلبث أن قام برد الدراويش عن بلاده فأوقف زحفهم ، ثم لم يستطع التعايشى فى الأعوام التالية فعل شىء ما دام يوسف على عرش السلطنة ؛ واستمر الحال على ذلك حتى تولى السلطان إبراهيم عرش واداى فى عام ١٨٩٨ ، فلم يلبث إبراهيم أن أظهر فى علاقاته مع السنوسية ما كان يدل على أنه يريد مقاومة نفوذ السيد المهدى فى بلاده . وعزا المؤرخون ذلك إلى تحريض عبد الله التعايشى له من أم درمان حتى ينقلب ضد السنوسية ويعمل على عرقلة مصالحهم ولكن أيام التعايشى نفسه وقتئذ كانت معدودة ، لأنه سرعان ما انهزم على أيدى المصريين والانجليز الذين هبوا لتخليص السودان من طغيان (المهدية) فأوقعوا بجيوش الخليفة هزيمة نكراء فى واقعة أم درمان المشهورة فى ٢ سبتمبر من العام نفسه ، ثم لم يلبث أن انهزم التعايشى نفسه وقتل فى واقعة (جديد) فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ . وبذلك انقضى نهائيا كل خطر كان يهدد السنوسية من ناحية السودان .

ومع هذا فإنه مما يجب ذكره أن الأخطار الحقيقية التى تعرضت لها السنوسية فى هذه الآونة ثم من عدة سنوات مضت لم يكن مصدرها فى الواقع حركة محمد أحمد وخليفته فى السودان ، وإنما كان منشؤها (أولا) ما طرأ على علاقات السنوسية بدولة الخلافة (تركيا) من تغييرات كادت تؤدى إلى انفصام هذه العلاقات لولا ما أظهره السيد المهدى من حصافة رأى ومهارة سياسية ، ولولا ما كان يرجو تحقيقه السلطان العثمانى عبد الحميد على أيدى السنوسية ذاتها من آمال وأغراض ، و (ثانيا) تقدم النفوذ الفرنسى فى أفريقية الغربية ، ومناصبة دولة فرنسا الكبيرة العداء للسنوسية لدرجة اشتعال نيران الحرب بين الفريقين واشتباكهما فى نضال شديد لم يخفف من وطأته سوى نجاح الفرنسيين فى نوال أغراضهم فى أفريقية الغربية والوسطى ثم إغارة الطليان الغادرة على طرابلس الغرب .

أما العلاقات بين دولة الخلافة الاسلامية والسنوسية فقد سبق ذكر شىء عن حقيقتها عند الكلام عن أهداف صاحب الدعوة ومؤسس الطريقة السيد محمد بن على السنوسى وبما

هو جدير بالذكر أن الوالي العثماني في طرابلس الغرب (علي أشقر باشا) ، كان يكرم السيد المؤسس إكراما عظيما ويعتمد على السنوسية ونفوذها في حكومة دواخل برقة خصوصا ؛ واعترفت الدولة للسيد عن طريق واليها بالزعامة والامارة ، ثم بلغ من صفاء المودة بين الحكومة العثمانية ومؤسس السنوسية أن الدولة منحت السنوسيين (فرمانات) سلطانية بأيديهم أعفتهم بها من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية . ثم هي لم تكتف بهذا بل ذكر المؤرخون أن السيد محمد بن علي السنوسي الكبير لم يلبث أن نال من السلطان العثماني عبد الحميد (١٨٣٩ — ١٨٦١) في عام ١٢٧٢ هجرية (و ١٨٥٥ ميلادية) فرمانا جعله بمثابة الأمير المستقل بإماراته تماما وحدث هذا في أثناء إقامة السيد بزاوية العزيات . ومع هذا وعلى الرغم من ميل الحكومة العثمانية الظاهر لاكتساب ود السيد وصداقته ، فقد ظل رحمه الله متخذا كل حيطة وحذر من دولة الخلافة لأسباب أجملناها فيما سبق ، لعل أهمها أنه كان يعتبرها مسئولة عما لحق ببعض الأقطار الاسلامية من أذى بالغ بسبب سقوطها في أيدي المستعمرين الأجانب أو بسبب تغلغل النفوذ الأجنبي في بعضها الآخر . أضف إلى هذا اشتداد موجة المعارضة ضده وضد تعاليمه ومبادئه ودعوته إلى الاصلاح الديني في الآستانة عاصمة دولة الخلافة ذاتها ، وفي غيرها من أمهات مدن العالم الاسلامي الخاضع لسلطان تركيا في تلك الآونة ، مثل مكة والقاهرة ، إذ من المعروف — على نحو ما سبق بيانه — أن علماء هذه العواصم المتمسكين بالقديم كانوا ينعون على السيد قوله أن الاجتهاد لم ينقطع ، وأنه ليس من مصلحة الدين في شيء أن يظل العلماء مصفدين بأغلال التقليد والدليل على حذر السيد هذا أنه اختار عند عودته الأخيرة من الحجاز الإقامة بزاوية العزيات البعيدة عن الساحل (١٨٥٤) ثم لم يلبث بعد ذلك أن انتقل إلى زاوية الجغبوب في جوف الصحراء في اكتوبر ١٨٥٦ وفي الجغبوب زاد نفوذ السيد وبلغ ذروته حتى أصبح سيد الصحراء المطلق . ولم يصب علاقته بالدولة أي تغيير بسبب ذلك ، بل ظل الولاة العثمانيون في برقة وطرابلس يخطبون وده ويحرصون على صداقته حتى وفاته في عام ١٨٥٩ .

وفي عهد خليفته الأول ، السيد محمد المهدي ، بقي السنوسيون في سلام مع دولة الخلافة ولو أن (دوفرييه) يذكر أن العلاقات في أواخر أيام السلطان عبد المجيد كانت متغيرة بسبب ما أظهره السلطان العثماني من ميل إلى « التقليل من أهمية السيد السنوسي » ، حتى أن السيد في عام ١٨٦١ لم يلبث كما قال (دوفرييه) « أن وضع السلطان تحت الحرمان ! » اى أنه أصدر ضد السلطان العثماني قراراً بحرمانه من الرحمة والمغفرة على نحو ما كان يفعله البابوات مع أباطرة أوروبا في العصور المتوسطة . ومع أنه من الجائز أن يكون السلطان

عبدالمجيد بعد وفاة السيد المؤسس قد بدأ يظهر عدم اهتمامه بالسنوسية لصغرسن السيدالمهدى بشكل جعل السيد مع مستشاريه فى تلك الآونة يعلنون أن السلطان العثمانى قد أصبح (مهجورا) — على عادة السنوسيين كلما أرادوا اظهار غضبهم من إنسان وقطيعته بسبب عمل لايرضى عنه الدين الصحيح وتنفر منه (الطريقة) ، وقد يكون هذا ماوصفه (دوفرييه) بأنه قرار حرمان صادر ضد السلطان العثمانى — فقد تعذر من جهة أخرى العثور على مايثبت قول (دوفرييه) هذا . ومع هذا فلعل أهم ماتجدر ملاحظته من هذا الحادث سواء أثبت وقوعه أم لم يثبت ، أن دولة الخلافة لم يكن يرضيها فى الواقع أن تقوى شوكة السنوسية لدرجة تهدد معها الخلافة ذاتها إذا رغبت فعل ذلك .

والثابت أن نفوذ السنوسية سرعان مابلغ ذروته فى الأعوام القليلة التالية فى الأقطار الليبية والصحراء الغربية حتى جهات تشاد حتى أن مقدمى الزوايا وشيوخها بهذه الأصقاع البعيدة أصبحوا بمثابة الحكام المستقلين الذين لايعرفون غير سلطة السيد المهدى السنوسى نفسه ولا يعيشون بسلطة غيرها . يدل على هذا ما ذكره (دوفرييه) عن حادث وقع له نفسه أثناء زيارته لزاوية (زويلة) فى الفزان ، ويسميها (دوفرييه) «مدينة الفزان المقدسة» ، فى عام ١٨٦١ فمع أنه كان مزوداً بفرمان من السلطان العثمانى عبدالمجيد لتأمينه ولتسهيل أسفاره ، وكان يصحبه جماعة من الشرطة (أو الجندرمة) من قبل حاكم المقاطعة . فإن مقدم الزاوية وشيخها لم يهتم بهذه التوصيات والأوامر وصمم على ضرورة انسحاب (دوفرييه) ورفاقه من الزاوية بكل سرعة ولم يسع الفرنسى ورجال (الجندرمة) سوى الامتثال لأوامر المقدم السنوسى . وقد سبق ذكر ما شهده الرحالة (ناختجال) عند زيارته لزاوية (شمندرو) فى (الكوار) فى عام ١٨٧٠ ، من خضوع الحاج محمد أبو عايشة رسول المشير العثمانى على رضا باشا والى طرابلس الغرب وقتئذ وكان موفدا فى مهمة إلى بلاد (برنو) ؛ إذ كان واضحا أن المقدم السنوسى فى (كوار) يتمتع باحترام ونفوذ عظيمين ، ويعترف رسول الوالى العثمانى بهذه الحقيقة . أضف إلى هذا أنه كان فى أثناء هذه الفترة القصيرة أن استطاع السنوسيون إنشاء زواياهم ونشر نفوذهم فى بلاد (تبو) و (التوارق) على نحو ما تقدم .

وكان من أسباب ازدياد نفوذ السنوسية فى هذه الأصقاع ولا شك بعد الزوايا الجديدة عن مقر السلطات الحكومية فى برقة وطرابلس من جهة ، ثم حرص دار الخلافة على استبقاء علاقات المودة والصفاء مع السنوسيين من جهة أخرى . واستمر الحال على ذلك حتى اعتلى العرش السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) . وكان أول حادث أظهر للسلطان الجديد قوة السنوسية واستقلالها الفعلى امتناع السيد المهدى عن إرسال نجدات من الأقطار البرقاوية الطرابلسية

لمساعدة الدولة فى حربها المشهورة مع الروسيا فى عام ١٨٧٧ . ولذلك كان أول ما عنى به السلطان عبد الحميد الوقوف على حقيقة الدعوة السنوسية والتأكد من نياتها نحو الخليفة العثمانى .

وفى الواقع لم يلبث أن أدى اهتمام الخليفة فى هذه الآونة إلى بداية صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين دولة الخلافة الاسلامية وبين الإمارة السنوسية . بل إن هذه الصفحة الجديدة كانت لا تقل فى خطورتها عن سابقتها ، وذلك لأسباب ، من أهمها أن السلطان العثمانى سرعان ما صار يتخذ الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) قاعدة لسياسته العربية الشرقية كما هو ذائع ومعروف ؛ وصار يبذل فى سبيل تشييد هذه (الجامعة) قصارى جهده ونشاطه . ثم لم يكن من سياسته من أجل تحقيق أهدافه استعداء الامارات الاسلامية الكبيرة ضد حكومته ، بل وجد فى الاعتراف بهذه الامارات خير طريقة عملية تكفل انضواءها جميعا تحت لواء الخلافة وتضمن عدم خروجها على دولتها . وكانت الدولة العثمانية وقتئذ أشد ما تكون حاجة إلى العصبية الاسلامية تشد بها أزرها وتقوى ساعدها أمام مطامع الدول الأجنبية التى مافتئت من مدة طويلة تتحين فرصة موت رجل أوروبا المريض حتى تنقض على ممتلكاته فى أوروبا وفى خارجها . ولما كان ظل دولة الخلافة قد أخذ يتقلص رويدا رويدا فى أفريقية الشمالية ، وبدأت الدول الأوربية المستعمرة تمد نفوذها تدريجيا من شواطىء الاطلنطى إلى قلب الصحراء وتهدد الإمارات الإسلامية وغيرها فى أفريقية الغربية والوسطى ، حتى بات من المنتظر عاجلا أو آجلا أن يزحف هؤلاء المستعمرون على حدود ولاية برقة وطرابلس الجنوبية والغربية ، فقد صار لذلك كله من الواجب على الخليفة العثمانى أن ينظر فى خير الوسائل التى يستطيع بها دفع هذا الخطر . وفى هذه الظروف كان فى بقاء الإمارة السنوسية ذات السطوة والسلطان فى الأقاليم الممتدة من شاطىء البحر الأبيض شمالا إلى بحيرة تشاد جنوبا مايدفع غائلة المعتدين ويصون الأقطار الليبية على الأقل من عدوان الدول المستعمرة ويعود على دولة الخلافة الإسلامية ذاتها بفوائد عديدة ما دامت هذه الإمارة السنوسية منضوية تحت لوائها . وكانت هذه الحقيقة الأخيرة هى التى جعلت السلطان العثمانى يحاول أن يعرف نوايا السنوسيين الصحيحة حتى يطمئن إذا كان هؤلاء بزعامة السيد المهدى مخلصون للدولة ولا يحملون فى قلوبهم سوى الولاء الصادق للخليفة العثمانى .

وكلف السلطان بهذه المسألة رجال حكومته فى بنغازى ؛ فلم يلبث هؤلاء أن أرسلوا التقريرات الوافية إلى دار الخلافة ، وصاروا يؤكدون للسلطان عبد الحميد أن السيد المهدى عضد قوى للدولة فى الحقيقة ، وان فى استطاعة الحكومة العثمانية أن تعتمد على مساعدته

وقت الحاجة لأن السيد كما قالوا إنما يربطه بدولة الخلافة الإسلامية الوفاء والاخلاص الكامل والطاعة التامة . فاطمأن عبد الحميد إلى السنوسية ، وشرع يعمل من ذلك الحين على كسب مودة السيد المهدى ويحرص على استبقاء صداقته ؛ وهذا على الرغم من مساعى بعض رجال الترك فى الآستانة الذين ساءهم صفاء العلاقات بين السلطان العثمانى والسيد العربى ؛ فأكثر السلطان من إرسال الكتب والهدايا إلى السيد وصار من الميسور تجديد (الفرمانات) التى أعفت السنوسيين من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية .

وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى الآستانة عند ما استمر أحد كبار الطرابلسيين الذين كانوا فى الأصل من أتباع (السادة المدينية) — وهى من الطرائق التى انتشرت عن طريقها الدعوة السنوسية ذاتها — يقيم فى قصر يلدز ويشرف على توجيه السياسة الاسلامية الجديدة ويسهر على مصالح السنوسية وهو الشيخ محمد بن جعفر أستاذ السلطان القديم وصاحب الأثر الظاهر فى سياسة الدولة الاسلامية بين عامى ١٨٧٩ ، ١٨٨٣ . وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، ومن أشهرهم (رضا بك) أحد أعضاء المجلس الخاص . وكما ظهر نفوذ السنوسية فى الآستانة لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زواياها فى الأقطار الليبية ، فكان مقدم الزاوية فى بنغازى سيدى عبد الله بن زناد المرينى هو صاحب الكلمة العليا (١٨٨٤) ، وليس للمتصرف (أو الحاكم) التركى بجانبه أى نفوذ أو سلطان . بل إن كبار موظفى الترك وحكامهم صار لايعنيهم فى هذه الآونة سوى إرضاء السنوسيين وكسب مودتهم وصداقتهم حتى إن والى برقة العثمانى (على كمالى باشا) كان يعتبر نفسه « أولا وقبل كل شىء خادما للسيد السنوسى ، ومن أتباعه ، ثم موظفا وحاكما عثمانيا بعد ذلك » . وعند ما نصب بعده الحاج رشيد باشا واليا على برقة (١٨٨٦) ، وكان من الاخوان السنوسيين ، عظم شأن السنوسية . لأن رشيد باشا كان لا يقل عن سابقه بطبيعة الحال ولاءا وإخلاصا للسنوسية وسياستها وهكذا استمر مقدم السنوسية فى بنغازى (سيدى عبد الرحمن المقبوض) يتمتع بكل نفوذ وسلطة وينال من الحكومة العثمانية ، كما فعل سيدى عبد الله بن زناد من قبل ، مرتبا شهريا منتظما . وأما مقدم السنوسية فى طرابلس فكان فى ذلك الحين ، سيدى حمزة بن جعفر شقيق الشيخ محمد بن جعفر مستشار السلطان عبد الحميد السابق . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية فى برقة ـ طرابلس أن الأخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون إلى الحكومة فى الزوايا الأخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى إلا ما يرونه ملائما لمصالحهم . زد على هذا

أن السلطة الحقيقية — من روحيــة وزمنية — على الأهلين كانت بأيدى شيوخ الزوايا ، وخصوصا فى ولاية برقة حيث خضعت للسنوسية جميع القبائل تقريبا ، ما عدا قبيلة المغاربة التى امتدت مظاعنها إلى الغرب من بنغازى حتى (سرت) وكان يشغل الوظائف القضائية والمدنية المهمة سنوسيون . ولما كان نشاط السيد المهدى فى أثناء ذلك كله يمتد خلاف الآستانة وبرقة وطرابلس إلى جهات أخرى عديدة سبقت الاشارة اليها ، فانه لم يأت عام ١٨٨٨ حتى كان السيد المهدى يتمتع بشهرة بعيدة . ولدرجة أن السلطان العثمانى بدأ من جديد يشعر بالقلق من ناحيته وتساوره الشكوك فى نوايا السيد وأغراضه .

وكان من أسباب قلق السلطان وإثارة مخاوفه ما شهده من المساعى التى بذلتها بعض الدول لأغراض سياسية حتى تستميل السيد المهدى إلى جانبها ، — وهى المساعى التى سبق ذكرها ، ثم اتساع نفوذ السنوسية فى أفريقية خصوصا فى (واداى) ، ودعم صلاتها بالإمارات المجاورة وإنشاء الزوايا الكبيرة فى جوف الصحراء لنشر تعــاليم الدين الاسلامى الصحيح وهداية الوثنيين فى هذه الأصقاع النائية والتى كان يحاول المبشرون الأجانب استمالة أهلها إلى اعتناق المسيحية . وفى الواقع لا نكون مغالين إذا اعتبرنا أن منشأ تخاوف السلطان العثمانى من السيد المهدى كان مسعى الدول الأوروبية فى الآستانة وتكرر شكواها من السنوسيين الذين عطلوا بنشاطهم دعوة مبشرى (الرسالات المسيحية) فى أفريقية الغربية ، فصاروا يصفون السنوسيين بأنهم أصحــاب السلطان المطلق فى الصحراوات الأفريقيــة والأقطار البرقاوية الطرابلسية ، كما طفقوا ينشرون الشىء الكثير عن مبلغ استعداداتهم العسكرية فى مقر دعوتهم الرئيسى فى (الجغبوب) وفى غيرها من الزوايا ، وبخاصة زاويتى الغزيات والنجيلة ، وما كان لهم من قوة عظيمة فى ولاية برقة تبلغ الألوف العديدة من مشاة وفرسان . كما أنهم صاروا يعزون إلى السيد المهــدى الرغبة فى إنشاء ملك عضوض تحت سيادته المستقلة يضم أكبر جزء من القارة الأفريقية من حدود مصر شرقا إلى ســاحل الاطلنطى غربا ومن شاطىء البحر الأبيض شمالا إلى بحيرة تشاد جنوبا ، مما كان من شأنه جميعه إثارة الشكوك فى نفس السلطان عبد الحميد من ناحية أغراض السنوسيين البعيدة والقريبة . ثم زاده إمعانا فى مخاوفه وشكوكه تلك الخطة التى اختطها السيد المهدى لنفسه ومدارها إهمال مساعى الدول الأوروبية لديه ، ثم المضى فى تنظيماته وتشكيلاته بدلا من التراخى الذى كانت ترجوه وتطلبه هذه الدول من ناحيته ، حتى كثرت زوايا السنوسيين ونفذت دعوتهم إلى جوف الصحراء الكبرى وأقبل يعتنق الاسلام أقوام كثيرون . فهال أمر هذه التنظيمات والتشكيلات السلطان عبد الحميد . وكان أعظم ما يخشاه قيام «مهدى» أشد خطراً على دولته وخلافته من محمد أحمد مهدى السودان

وعلى ذلك قرر السلطان أن يستوثق مرة أخرى من أمر هذه الإمارة ، وأن يقف على مبلغ الأخبار والأقوال التى بلغته عن السنوسية من الصحة ، فكانت هذه الرغبة سببا فى إرسال الحاج رشيد باشا والى بنغازى (برقة) فى وفد كان من بين أعضائه عاصم بك المؤيد — من آل العظم المعروفين بدمشق الشام وأحد حجاب السلطان ، لزيارة السيد المهدى فى مقره بواحة الجغبوب ، وذلك فى عام ١٨٨٩ (١٣٠٧ هجرية) . ولما كان السيد المهدى لا يضمر فى الواقع إلا كل خير لدولة الخلافة ، وكان رشيد باشا رسول السلطان من الإخوان السنوسيين فقد لقى الوفد كل حفاوة وتكريم . وعند ما قال رشيد باشا « ان السلطان يعتقد بوجود خزائن ملأى بالأسلحة والذخائر والقذائف لدى السنوسيين » ، قام السيد المهدى وفتح خزائن الكتب الموجودة بالزاوية أمام رشيد باشا ، وقال مشيراً إليها « هذه خزائننا ! » . والحقيقة أن السيد استطاع بسهولة أن يدخل الطمأنينة على نفوس أعضاء الوفد ، حتى غادروا الجغبوب وهم يعتقدون أن السيد السنوسى لم يكن إلا هاديا ومرشدا ، وأنه لا ينفك يدعو المولى سبحانه وتعالى أن يجعل النصر والتأييد من نصيب الدولة العثمانيه ، وأن يهب الخليفة التوفيق والنجاح . وكانت هـــذه الأخبار ولا شك مطمئنة للسلطان وارتاح بالُه من ناحية السنوسية .

ولكن الدول الأوروبية سرعان ما جددت شكواها من نشاط السنوسيين ، فتحرج مركز السلطان واضطر إلى مصارحة السيد المهدى بحقيقة الموقف . ويذكر الأمير شكيب أرسلان رحمه الله قصة مساعى الدول هذه وآثارها كما قرأها فى تاريخ السيد أحمد الشريف الذى سبقت الاشارة إليه مرارا ، وكان السيد أحمد الشريف نفسه قد أطلعه على هذا التاريخ فأنشأ يقول « وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لأجل أن يستدعى سيدى المهدى إلى الآستانة ويأمره بالإقامة بها ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ، ليخلو للأوربيين الجو فى تقسيم أواسط أفريقية وخفض الشوكة الاسلامية فى تلك الديار ، فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الأعذار ، بل كان يلاطف السنوسى كثيرا بالهدايا والكتابات . إلى أن اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ، فأرسل رجلا اسمه عصمت بك إلى بنغازى ومنها إلى الجغبوب بمأمورية سرية ، فبلغ المهدى ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السنوسية ، فأجاب السيد المهدى بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره بكلام لا يتضمن نفيا ولا إيجابا ، وإنما تلا له آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدى لم يعتم بعدها أن فارق جغبوب إلى واحة الكفرة وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء » .

هذا وقد ذكر بعض من شهدوا هذه الحوادث أنه أشيع وقتئذ عند قدوم هذا الرسول العثمانى أنه كان موفدا إلى السيد المهدى من قبل (مجلس الأعيان) باستانبول ولو أن هذا المجلس ما كان يستطيع أن يفعل ذلك فى الحقيقة من غير موافقة السلطان عبد الحميد وأمره .

وظاهر من القصة التى رواها الأمير شكيب ، وهى قصة صحيحة فى جوهرها وتفاصيلها أنه كان من أثر زيارة عصمت بك لجغبوب أن السيد المهدى لم يلبث أن قرر بعدها مغادرة الجغبوب إلى الكفرة ، ويؤيدهذه الرواية ما جاء فى ذلك الجزء الذى وقع بأيدينا من تاريخ السيد محمد الشريف . ويبدأ هذا الجزء بذكر « حكايتين عجيبتين عن الأستاذ (أى السيد محمد المهدى) رضى الله عنه عند ما أمر بالخروج من الجغبوب وشق ذلك على أهلها » ويقصد السيد أحمد الشريف (بالأمر) ارادة المولى جل شأنه وهما حكايتان يشير مضمونهما إلى السبب الذى دعا السيد المهدى إلى الخروج من الجغبوب والارتحال إلى الكفرة . ويؤخذ من الحكاية الأولى أن من الخير لكل جماعة أن يبقى زعيمها ورئيسها فى حفظ وصون لأنه « متى كان الرأس موجودا ، فالذى يذهب (غيرها) يأتى الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه » . ويؤخذ من الحكاية الثانية ، أنه من الخير الانتقال إلى محل أكثر أمنا وأبعد منالا فى الجنوب اذا تحولت أنظار الناس إلى الجغبوب . قال السيد المهدى رضى الله عنه «رأيت نفسى فوق جبل متسع ، وهو جبل يراه الذاهب إلى قارة الشهيبات ، مع رجل من الصالحين السائحين بالجهة الجنوبية من أرض الجغابيب . فذهب بى إلى حافة الجبل ، واذا بالناس يمرون من تحته ما بين رائح وغاد ويرفعون بعض الأحيان وجوههم إلى أعلى الجبل ولا يرون شيئا . يظهر ذلك من رؤية أعينهم فقال لى أتراهم ينظرونا ، فقلت له لا . فقال وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرونا فما داموا على هذه الحال فأنتم مستقرون فى محلكم الآن ، فاذا التفتوا اليكم فارحلوا هكذا ، وأشار إلى جهة الجنوب . ثم تنحى عن حافة الجبل وجلس فجلست معه وتحدثنا ساعة فطلع لنا رأس انسان من ناحية وطأطىء رأسه ، ثم آخر من جهة أخرى وطأطىء أيضا . فقال الصالح هيا ! وأشار بيده إلى الارتحال ، وقام مسرعا ... » .

وكانت مساعى الدول الأوروبية فى الآستانة ضد السيد من ناحية ، ثم إرسال الرسل والوفود من قبل السلطان إلى السيد للاستطلاع ولاخباره بشكايات هذه الدول وتحرج مركز السلطان بسببها من ناحية أخرى ، دليلا كافيا على أن الجغبوب قد أصبحت موضع أنظار الجميع ، وأن السلامة صارت تقضى بالانتقال منها والتوغل جنوبا فى الصحراء الى مكان يكون أكثر أمنا من سابقه وبعيداً عن نفوذ الدول وتقلبات السلطان العثمانى نفسه . وهكذا قرر السيد الارتحال من الجغبوب الى الكفرة .

« فى يوم الاثنين الموافق تسعة من شهر شوال » (١٣١٢) — والموافق ١٥ ابريل ١٨٩٥ — « دخلا (أى السيد المهدى وشقيقه السيد محمد الشريف) الروضة الشريفة (حيث ضريح والدهما السيد محمد بن على السنوسى الكبير) للوداع ... وفى صبيحة يوم الخميس الموافق اثنين وعشرين من الشهر المذكور . (و ١٨ ابريل ١٨٩٥) ودعا الأهل والإخوان . . وفى عشية ذلك اليوم المذكور كان ارتحالهما من زاوية الجغبوب متوجهين إلى الكفرة » . فكانت رحلة طويلة استغرقت شهرين تقريباً . كتب أخبارها مفصلة فى تاريخه السيد أحمد الشريف ، وكان قد رافق والده السيد محمد الشريف فى هذه الرحلة ، فوصف الأودية وكثبان الرمال والواحات الصغيرة والحطايا (جمع حطية) المبعثرة على طول هذا الطريق الصحراوى ، والجبال (أو القارة والقارات) ، كما ذكر أنواع النبات التى تنمو فى هذه الجهات ، والحيوان الذى يعيش بها ، هذا عدا ما أثبته من الحوادث التى وقعت لهم فى أثناء سيرهم . فكان من بين الحطايا التى نزلوا بها واستسقوا من مائها ، حطية الزربى وأبى سلامه وأبى علاوة ، وهذه الحطية الأخيرة كان السيد محمد بن على السنوسى الكبير قد مر بها ، ثم مروا بآبار الطرفاوى والسبانية . وحدث فى أثناء نزولهم (بحجر البقر) أن قدم عليهم جماعة « من ناحية العقبة من محل يقال له الأخصاب وبه زاوية الأستاذ رضى الله عنه وأهلها يقال لهم عائلة بوامصيبيع ، وأتوا معهم بكتب من اخوان زاوية الجغبوب » ثم مروا على (قارة) تسمى (بالفرهودى) ثم نزلوا بعد ذلك بحطية خود . ومن الحطايا التى نزلوا بها ، حطية المحطم .

وفى أول مايو ١٨٩٥ ضربوا خيامهم بوادى قطمير ، ويقع شرقى بلدة جالو وبينه وبينها مسيرة نصف يوم ، وأقاموا بهذا الوادى ستة أيام ، وأرسلوا إلى الوكيل الموجود بزاوية جالو حتى يمدهم بما يحتاجون إليه من (العلف) ، فسمع الأهلون بذلك : « فجاءوا بخير كثير من كل ما يحتاج إليه تبرعا منهم وطلباً للثواب من الملك الوهاب . وقدم فى هذا الوادى خلق كثير من المجابرة والأواجلة والزوية أكثر من ألف نفر وقدموا من الأغنام وغيرها شيئا كثيراً ، وقدم قائمقام ذلك البـــلد ومعه نحو عشرين من عسكره والقاضى والكاتب ، فأجزلوا لهم الضيافة وأنعموا عليهم غاية الإنعام رضى الله عنهم . . . (ثم) قدم سيدى محمد ابن الشفيع ، وهو من الذين رافقوا (السيد محمد بن على السنوسى الكبير) فى تغريبته الأولى من الحجاز إلى ناحية الجبل الأخضر » ، ثم ارتحلوا من وادى قطمير ، ونزلوا فى زاويته ، وكان السيد السنوسى الكبير « يحرص على عمارتها كثيراً » ، ولو أنها بعد إنشائها لظروف متنوعة أهمل شأنها : ثم نزلوا بمحل يقال له (الأثيلة) . وفى يوم ٢٥ ذى القعدة ١٣١٢ (٢٠ مايو ١٨٩٥) بلغوا حطية تازربو ، بعد اجتياز مفازة صعبة المسالك . وتازربو هذه

أول وادي الكفرة ، وهي الكفرة البحرية ، وقد بنى السيد المؤسس الكبير زاوية فى محل يقال له الوادى ، وسكانها عرب يقال لهم (أزوية) . وفى هذه الخطية مرض السيد محمد الشريف مرضاً شديدا . ثم نزلوا بخطية (بالزيمة) . ويقول السيد أحمد الشريف « أن السايح الرومى — ولعله يقصد جيرار رولف الذى زار الكفرة فى عام ١٨٧٩ — الذى أتى إلى الكفرة سابقاً قال هذه الخطية فيها ثلاثة معادن ذهب ونحاس حديد ، ثم قصدوا حطية ربيانة . وأخيرا فى يوم الثلاثاء ١٧ ذى الحجة ١٣١٢(١١ يونيه ١٨٩٥) دخلوا زاوية الجوف ، والتى هى المقصود من هذا السفر » .

واحتفل احتفالا عظيما بقدوم السيد أهل الجوف وأهل الخطايا المجاورة وهى بومة وبويمة وبوام وبويم والزرق والتوبات والطليليب والطلاب والهوارى والهويورى ، والعزيلة والأراك ، ويقال لها جميعها حطايا قبابو ، « وأكثر سكانها قبيلة من العرب يقال لهم (أزوية) وهم الأكثر ، وقبيلة من السودان يقال لها تباوية » ، ثم جاءت الوفود ترحب بالسيد من كل مكان ، وكان من بين الذين حضروا للزيارة والترحيب أحد كبار الإخوان ومقدميهم ، سيدى محمد بن عبد الله السنى « فى نفر من جهة فزان » . وأما السيد المهدى فقد مكث بالجوف ثلاثة شهور تقريبا ، وكان أول ما عنى به ، أنه أرسل فى ٢٥ ذى الحجة — ١٩ يونيه — (المرتضى بن أبى خريص) يحمل كتابا إلى يوسف سلطان واداى ، يخبره فيه بوصوله إلى الكفرة ، كما أرسل آخرا يدعى (رقاحة) بكتاب إلى « والى ولاية بنغازى » . وفى ٢ يوليه «وصل سيدى محمد بن عبدالله التواتى من الجغبوب ومعه كتب من أهلها » . وفى ربيع أول عام ١٣١٢ هجرية (وأغسطس ١٨٩٥) شرع السيد فى بناء زاوية جديدة اختار لها موقعا منيعا فوق جبل شامخ بحرى زاوية الجوف وسماها (التاج) . ثم أرسل بعض الإخوان لبناء زاوية أخرى فى (ربيانة) وكان الذى أنشأ زاوية الجوف ، عمر أبو حواء ، أحد تلامذة السيد محمد بن على السنوسى الكبير ، وقد أطلق عليها اسم (زواية الأستاذ) تكريما للسيد المؤسس .

وأما انتقال السيد من الجغبوب إلى الكفرة ، فقد أحدث ، كما قال بعض المؤرخين « تضاربا فى الأفكار حتى خاض الناس فى أسبابه كثيرا ، فقال بعضهم إنه لما استقر قوم الإنجليز بمصر أجفل السيد السنوسى ووضع نصب عينيه الابتعاد فى الصحراء وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكانا وأعز منالا ، وقال آخرون بل إن السيد منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع الطليان . وإن هؤلاء لا بد فى يوم من الأيام أن يغزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيء اتباع الطريقة للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، كما عزا آخرون هذا الانتقال إلى

رغبة السيد فى « أن يجعل مركزه بعيدا ما أمكن عن مطارح أنظار الدول الاستعمارية ليخلو له الجو فى تجهيز قوته وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصى فى الصحراء فى المنطقة الوسطى بين ساحل البحر الأبيض المتوسط والسودان » . زد على هذا أن السيد كان يقصد من وجوده بالكفرة إلى جانب الدعوة إلى الإسلام بين شعوب التبو والتوارق والسودان وغيرهم ، أن أن ينشر العمران فى هذه الواحة (الكفرة) ويبنى الزوايا التى هى دائما وسيلة لازدياد الغرس والفلاحة وترقيـة العقول والمدارك ، وفى رأى بعض الكتاب أن زيارة الحاج رشيد باشا للسيد فى الجغبوب فى عام ١٨٨٩ كانت من الأسباب التى جعلته يدرك أن قربه من مقر الحكومة والولاة العثمانيين مجلبة للأخطار ، وإن من واجبه الابتعاد ما أمكن عن بنغازى وطرابلس ، وخصوصا بعد أن اتجهت إليه أنظار الدول الاستعمارية وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت فى الآستانة مساعيها ضده . أضف إلى هـذا ما قاله آخرون من أن السيد « ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر ، وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة ، فقصد أن يعتزلها إلى الصحراء الكبرى وقد تكون بعض هذه الأسباب أو جميعها صحيحة .

على أن الذى يعنينا أن السيد لم يلبث عند وصوله إلى الكفرة أن أوفد إلى الآستانة أحد الشيوخ الموثوق بكفاءتهم وإخلاصهم ، والذين خدموا السنوسية طويلا ، المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوى ، حتى يؤكد إخلاص وولاء السيد المهدى لخليفة المسلمين ، وصاحب الإمامة الاسلامية العظمى وتأييده للدولة العثمانية ، ثم زوده بكتاب إلى جلالة السلطان يطلب فيه — إلى جانب إظهار الولاء — توكيد الفرمانات التى صدرت للسنوسيين والتى جددها وأكدها السلطان قبل ذلك مرة على أيدى الشيخ عبد الرحيم المغبوب والشيخ أبى القاسم العيساوى ، وحتى يصدر الباب العالى الأوامر والتعليمات اللازمة لرجال الحكومة فى بنغازى وطرابلس ليعملوا بموجبها . فوصـل المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوى الى الآستانة فى سبتمبر ١٨٩٥ ، وكان يصحبه فى هذه الرحلة ابن أخيه الشيخ محمد الأخضر العيساوى ، أحد مؤرخى السنوسية الموفقين ، ونزلا ضيوفا على الدولة ، ولقى الشيخ عبد العزيز كل حفاوة وتكريم ، ونجح فى مهمته نجاحا كبيرا ، فلم يلبث الباب العـالى أن أصدر أوامره « وجرى التأكيدات المهمة إلى متصرفية بنغازى وولاية طرابلس الغرب بموجب ارادات سنية فى كمال الاهتمام والرعاية والاحترام والنظر فى حق الاخوان جميعا مع كافة الزوايا الموجودين على موجب الفرامين (الفرمانات) الموجودة ومزيد الاعتناء فى انفاذ أحكامهم العالية والحذر من المخالفة أو إيقاع أدنى شىء مغاير لأحكامهم ورضاء العالى (أى السلطان) » . وفى ٣ نوفمبر

١٨٩٥ أرسل ابراهيم درويش باشا ، ياور أكرم حضرة السلطان ، خطابا إلى السيد محمد المهدى السنوسى يخبره فيه بالإجراءات التى اتخذها الباب العالى فى هذا الشأن .

غير أن بعثة الشيخ عبد العزيز العيساوى كانت إلى جانب ذلك ذات آثار أخرى هامة فقد انتهز السلطان عبد الحميد فرصة حضور الشيخ بكتاب من السيد المهدى ، وقرر ايفاد صادق بك المؤيد مرة ثانية لزيارة السيد فى الكفرة ، بصحبة المرحوم الشيخ عبد العزيز العيساوى ، وزوده برسالة سلطانية ؛ كما أرسل السلطان إلى السيد مع الشيخ عبدالعزيز نسخة مطبوعة من كتاب صحيح البخارى الشريف هدية « له خاصة » ، وهذا خلاف « عشرة نسخ أخر لتعطى من (طرف السيد) لمن فيه الأهلية » ؛ كما أرسل اليه أيضا « ساعة لتكون فى الأوقات الخمسة مذكرة له بصالح دعواته لجنابه العالى (أى للسلطان) ، وان كانت ليست بشىء غير أن القصد إبراز علائم توجهاته السنية » .

وفى ٢ ربيع الآخر ١٣١٣ (٢٢ سبتمبر ١٨٩٥) بعث (باشكاتب سراى يلدز السلطانية) برسالة طويلة إلى السيد المهدى كان أهم ما جاء فيها — إلى جانب إخبار السيد بوصول رسوله وأحد أتباعه عبد العزيز أفندى يحمل « الأحزاب المباركة التى أهديتموها لسيدنا حضرة أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين وحامى الشرع الأنور المبين أيده الله ونصره الله وأعلا بدوامه كلمة الله فى بلاد الله آمين » ؛ ثم ذكر الهدايا التى تفضل الجناب العالى بارسالها إلى السيد ، وإرسال صادق بك « أحد الياوران الحضرة الملوكانية إلى صوبكم » ؛ — كلام طويل فى إظهار شأن الخلافة الكبرى والإمامة الإسلامية العظمى وواجب تأييدها ، ثم تحذير السيد من مساعى وأطماع الدول الأجنبية ، وعمل الرسالات التبشيرية فى « ديار السودان » ، مما من شأنه جميعه إقامة البرهان على أن السلطان العثمانى فى هذه الآونة كان يبغى أمرين : أولهما ، استمالة السيد قطعا إلى جانب الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة الإسلامية الكبرى ، وتأييد السلطان بوصفه خليفة المسلمين ؛ وثانيهما ، تحذير السيد من أطماع الدول المستعمرة من جانب ثم حثه على مواصلة الدعوة للإسلام والدين الصحيح بين الأقوام الذين يريد المبشرون والرهبان نشر المسيحية بينهم . فجاء فى هذه الرسالة : « ومثلكم من يعلم حق الخلافة الكبرى وشأن الإمامة الإسلامية العظمى . وحيث أن الخلافة المنصورة العثمانية والإمامة المقدسة الإسلامية قد أثبت الله منذ مئات من السنين فى البيت العالى العثمانى وجودها وحقق عهودها ؛ وقد افترض الله نصر هذه الخلافة المؤيدة العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر فى الباطن والظاهر لا سيا فى مثل هـــذه الأوقات ، فإن الأغيار من الكفار بل والملاحدة والمارقين والمفسدين فى جميع الأقطار يتحزبون ويتوالمون فى السر والعلن خصومة للسنة

السنية على هدم منار الخلافة العثمانية الاسلامية (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . وحتى من المسموع أن جماعة من الانكليز والايتاليان وغيرهم قد تدرجوا إلى أطرافكم بطريق السياحة وأنتم تعلمون بالفراسة وقرائن الأحوال ما فى أنفسهم ومما يخالج سرائرهم من المقاصد المضرة للدين وللمسلمين ؛ فأول ما يؤمل منكم وان كان هو المفروض كما هو معلوم لدى حضرتكم ، أن تنوروا أذهان محبيكم ومن يواليكم من الطلبة والتلامذة قربا وبعدا فى جميع الأنحاء التى تسمع بها كلمتكم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الإخلاص للخلافة المقدسة العثمانية والإمامة الكبرى الاسلامية (التى لا سمح الله ولا قدر) لو بلغ الأعداء والملاحدة فيها أربهم لانهزم شرف الدين المبين وتفرقت شيعا جماعات المسلمين ، ولصارت الأمة فرقا فرقا وتمزقت إربا إربا . وهذا والعياذ بالله يكون ذلا لكل موحد على وجه الأرض بالطول والعرض بل هو مما يخرب شأن الشريعة ويجعلها بعد العز وضيعة ، وذلك مما يحزن القلب الأطهر والأقدس النبوى فى الضريح الأنور المصطفوى .

« وهل أنصار الخلافة المقدسة فى كل عصر وزمن إلا مثلكم من العلماء الذين يخشون الله ويحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمل بصدقكم وديانتكم وطيد أن تنفروا من الأعداء وأن تربطوا قلوب الأوداء لمقام الخلافة السعيد ربطا صالحا شرعيا ينتج ودا خالصا دينيا . فان أمل سيدنا ومولانا خليفة المصطفى الأعظم صلى الله عليه وسلم السلطان الأعظم أيده الله وسلم بصداقتكم وكمال فطنتكم فوق هذا . على أن القصد العالى اتحاد المسلمين كما أمر رب العالمين ، وما الغاية من هذا كله إلا المدافعة عن الحقوق الدينية والسلامة والأمن فى الممالك المحروسة الإسلامية العثمانية من التجاوزات الغير المشروعة من أولى الأطماع السيئة الردية وإعلامكم بكل ذلك وطلبا للدعاء من طرفكم خاصة ومن جملة المحبين والتلامذة عامة بنصرة سيدنا الخليفة المعظم وسلامته وحفظه فى ذاته وبلاده » . إلى أن قال : « وأبين لحضرتكم أن من المسموع أن بعض الرهبان لعلمهم بأن السودان أكثرهم على جهل وغباوة ويرغبون بالخرز ومثله من الأمتعة اللماعة ، فهم يأخذون منها الكثير ويذهبون إلى ديار السودان ومعهم ترجمة الإنجيل وغيره من كتبهم بالعربية ، فبعد إهداء الأغبياء أشياء من الخرز وأمثاله يقرأون لهم من كتبهم وكأنهم من وعاظ الإسلام وبالتدريج يضلونهم والعياذ بالله ويدخلونهم فى دينهم . فكذلك الاهتمام بهذا الشأن بواسطة العلماء والصلحاء من تلامذتكم هو من أهم المهمات الدينية فيلزم به بذل الوسع دفعا لهذا الضرر الدينى وقياما بواجب الإخوة الإسلامية » .

هذا وأما صادق بك فقد قام برحلته فى نوفمبر ١٨٩٥ ، ووصل إلى بنغازى ، ثم سافر

منها إلى الكفرة فى ركب حافل من كبار السنوسيين وأعيان بنغازى ؛ وجد فى السير حتى كان يقطع مدة الست عشرة ساعة كل يوم على متون الإبل ، وعند وصوله إلى التاج استقبله السيدى المهدى استقبالا كريما ، واحتفل بقدومه احتفالا عظيما . وأقام صادق بك فى ضيافة السيد أياما ، وأبلغه تحيات السلطان ، وقدم إليه هدايا جلالته ، ونال من السيد جوابا أنه لا يقصد من كل أعماله سوى خدمة الإسلام وبث الدعوة لطاعة السلطان خليفة المسلمين . وسر صادق بك ما شهده من حماس الإخوان ونشاطهم وولاء السادة السنوسية عموما للخلافة واستعدادهم لتأييدها ، فأنشأ قصيدة يمدح بها السيد المهدى ، جاء فيها :

يا ابن السنوسى يامن شمسه سطعت ... بدرا أضاء قلوب البدو والحضر
لو أرسل الله بعد المصطفى رسلا ... لكنت أول مبعوث إلى البشر

وقد أرسل السيد المهدى مع صادق بك خطابا إلى طاهر باشامتصرف بنغازى ، يدحض فيه مفتريات الأجانب ووشاياتهم لدى السلطان ضده ، فقال رحمه الله : « وقد أشرتم إلى ما بلغه (أى السلطان عبد الحميد) عن بعض الأجانب ، وغض الطرف عنه لكونه عاريا عما يوارى عورته من المين ؛ لم يخطر لدينا بخاطر ، ويحسب أن منبته بروج ، وأن أمنيته تذكو وتموج . كلا فإن الناقد بصير وميزان عدله نصره الله فى غاية التحرير ، ولسان حاله حرى بالاستشهاد على رؤوس الأشهاد .

يخالون أن الطود يؤلمه الحصاة ... وأن السبنت بالنبيح يروع ..
فلا يملك العلياء إلا سميدع ... وها أنذاك الاريحى سميدع

ومن ذلك الحين بقيت العلاقات بين السلطان عبد الحميد والسيد المهدى على خير ما تكون صفاء ومودة ، ومنذ أن اطمأن السيد إلى توكيد الفرمانات السلطانية فى مصلحة السنوسيين وزواياهم العديدة فى برقة وطرابلس ، شرع يهتم بما جاء من أجله إلى الكفرة ، فكانت هذه الواحة فى السنوات القليلة التالية (١٨٩٥ — ١٨٩٩) مركز نشاط السنوسية العظيم فى الصحراء الكبرى وأفريقية الغربية .

* * *

وفى الحقيقة كان ينتظر السيد المهدى عند انتقاله إلى الكفرة برنامج واسع ، حاول بعض الكتاب أن يصفوه استنادا إلى ما عرفوه عن نشاط السيد أيام وجوده بالجغبوب ، ذلك النشاط الذى ذكرنا طرفا من حقيقته عند الكلام عن العلاقات التى حاولت بعض الدول انشاءها معه ، وتلك التى قامت بينه وبين السلطان العثمانى من جهة وبين الامارات الاسلامية الواقعة فى قلب الصحراء الكبرى الأفريقية من جهة أخرى ؛ هذا عدا تأسيس الزوايا الكثيرة

والعمل على نشر نور الهداية والعرفان ، والتبشير بالاسلام بين شعوب التبو والتوارق وغيرهم وكان طبيعيا أن يجد هؤلاء الكتاب صلة مباشرة بين انتقال السيد المهدى من الجغبوب إلى الكفرة ، وبين ما وقع بعد ذلك من حوادث ذات شأن فى الجهات الممتدة من واحة الكفرة إلى بحيرة تشاد ؛ وهذا فى الوقت الذى شاهدوا فيه السنوسيين ينشئون زواياهم فى مراكش والجزائر وتونس وفى الصحراء الكبرى لدى التبو والتوارق ، ثم فى مصر والصومال وبلاد العرب (الحجاز) والعراق ، وهذا عدا ما كان لهم من أتباع فى الآستانة والهند ، ناهيك بزواياهم العدة فى برقة وطرابلس .

ومع أن هذا النشاط العظيم كان يقض مضاجع الدول الغربية التى أخذت على عاتقها حماية الرسالات المسيحية التبشيرية التى ذهبت إلى مجاهل القارة الأفريقية تروج لدعوتها بالشكل الذى وصفه كتاب السلطان إلى السيد (فى سبتمبر ١٨٩٥) ، ثم طفقت هذه الدول تبذل كل جهد من أجل الحد من نشاط السيد عن طريق الباب العالى تارة وعن طريق الاتصال المباشر بالسيد نفسه ومحاولة استمالته حتى يقلل من نشاطه تارة أخرى ، ووجدت عندما باءت مساعيها لدى السيد المهدى بالفشل ولم تلمس منه ذلك التراخى الذى كانت تنشده ، أن تهول من أمر الدعوة السنوسية الكبرى ، فأخرجتها عن الحدود التى وضعها السيد المؤسس والتزمها خليفته الأول ، كدعوة للإصلاح الدينى والاجتماعى فى العالم الاسلامى قاطبة ، وصارت تعزو إليها الرغبة فى تأسيس ملك قوى الدعائم ينازع دولة الخلافة القائمة ذاتها السيطرة والسلطان على هذا العالم الإسلامى الواسع ، تبغى ولا شك من وراء هذا الزعم والادعاء إلقاء بذور الفتنة والاضطراب فى العالم الإسلامى ، وإثارة عداء دولة الخلافة ضد السنوسيين حتى تقوض أركان امارتهم ؛ — نقول ومع هذا كله فقد ظل هذا الزعم أو الادعاء يجد صدى فى كتابات فريق من أولئك الذين بحثوا فى زماننا هذا نشاط السنوسية العظيم فى عهد السيد محمد المهدى وخصوصا فى فترة انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة ، ثم من الكفرة إلى (قرو) بعد ذلك . فذكر الكاتب الايطالى (سيرا) أن انتقال السيد إلى الكفرة ، فى قلب الصحراء وبعيدا عن أى اشراف أو تدخل من جانب الحكومة العثمانية والحكومات الغربية على السواء ، قد كشف عن نواياه الصحيحة ، أو بالأحرى عن الأهداف « الزمنية » أو — الدنيوية السياسية — التى صارت (الطريقة) تبغى تحقيقها ، وهى إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الأفريقية من الحدود المصرية شرقا إلى شواطىء الاطلنطى غربا ، فيضم بين جوانبه الأقطار الليبية وبرقة وطرابلس والفزان ، ثم صحراء الجزائر ومنطقة تشاد ويسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى السودان جنوبا ؛ ولا غنى

فى تأسيس هذا الملك العضود عن إحكام السيطرة على كل من برقة ومنطقة (سرت) ، وذلك لأهميتهما كمنافذ على البحر الأبيض المتوسط ، تأتى منها الأسلحة والذخائر والمؤن والمتاجر عموما كما تصدر منها منتوجات « هذه الامبراطورية المستقبلة » الشاسعة .

ومع أن السنوسية كانت مهيئة بفضل تعاليمها ومبادئها وتنظيماتها وتشكيلاتها ثم زواياها العديدة للاضطلاع بأعباء الحكومة وسياسة شئون الناس فى أى مكان يثبت قدمها به ، ومهد لها هذا التهيؤ تشييد صرح تلك الامارة التى فصلت أركانها فى فصل سابق ، فالذى لا شك فيه أن هذه الأهداف الزمنية البحتة التى عزاها (سيرا) وأمثاله للسنوسية على أيام السيد المهدى ، وهو العهد الذى بلغت فيه السنوسية بلا مراء أوج العظمة والكمال ، كانت خيالية أكثر من أى شىء آخر ؛ والأدلة على ذلك عديدة . لعل من أهمها أن السنوسية تعتمد قبل كل شىء على سلطانها الروحى الخالص فى فرض سيطرتها على الشعوب التى دانت للإسلام أو تلك التى اعتنقت دعوة الاصلاح الدينى عن اقناع وعقيدة . ولم يذكر التاريخ مثلا واحدا استند فيه السنوسيون إلى القوة والسلاح من أجل الترويج لدعوتهم . أضف إلى هذا أن الدعوة السنوسية كانت لا تعرف حدودا دولية ، لا فى عهد السيد المؤسس ولا فى عهد خليفته الأول : فلم تظهر حاجة السنوسية لمثل هذه الحدود إلا فى وقت متأخر عند ما حدث ما كان يتوقعه السيد محمد ابن على السنوسى الكبير ، ثم السيد المهدى من بعده وظل كلاهما يتخذ العدة لتلافى خطره مدة طويلة : وهو إغارة الايطاليين (أو النابلطان) على برقة وطرابلس واحتلالهم هذه البلاد التى نبتت فيها السنوسية وترعرعت . حقيقة تعرضت السنوسية قبل ذلك لخطر الغزو على زواياها ومؤسساتها عند ما اتفق المستعمرون على تقسيم القارة المظلمة وزحف الفرنسيون فى عهد السيد المهدى نفسه على الامارات الاسلامية فى أفريقية الغربية والوسطى واشتبكوا مع السنوسيين فى حرب مريرة كما سيأتى ذكره ، ولكن معقل السنوسية ذاته كان بمنأى عن هذه الأخطار جميعها ، وظل الحال على ذلك حتى قامت الحرب الايطالية الليبية (١٩١١) . ومن ذلك الحين صار لا غنى عن رسم حدود هذه الامارة لدفع الاعتداء عنها ، ولضمان بقائها تنشر من عقر دارها أنوار الهداية والعرفان ، وتدعو إلى استقرار السلام بين تلك الشعوب التى قبلت زعامتها الروحية من أزمنة طويلة : رسالة السنوسية الصحيحة .

وعندما انتقل السيد محمد المهدى من الجغبوب إلى الكفرة كان يبغى تحقيق أغراض أكثر وضوحا وبساطة من مشروع إنشاء تلك الامبراطورية المستقلة التى تحدث عنها الكاتب الايطالى (سيرا) . فكان يعنيه فى الحقيقة — كما كان يعنى ذلك أيضا السلطان عبد الحميد نفسه — مقاومة جهود المبشرين فى أفريقية الغربيـــة ؛ ثم نشر الهداية والعرفان ، عن

طريق الدعوة إلى الاسلام بين التبو والتوارق والآير ، وغير هؤلاء من الأقوام الوثنيين أو غيرهم من الذين لم تتوطد بعد دعائم الاسلام بين ظهرانيهم . وكان سبيل السنوسية إلى ذلك دائما إنشاء الزوايا التى لم تكن فقط (منائر) للهدى والعرفان ، بل كانت أيضا (مراكز) حكومية تسهر على الأمن وتعمل على استقرار السلام فى الجهات التى تنشىء بها . أضف الى هذا أن السيد المهدى كان يدرك تماما أن توثيق عرى الصداقة مع سلطنة (واداى) ، ثم إنشاء الصلات الودية مع بقية الامارات الاسلامية فى جهات بحيرة تشاد مثل برقو وكانم وغيرها ، خير وسيلة لانتشار الاسلام الصحيح وذيوع المبادىء والتعاليم السنوسية من جهة ، ثم تجنب الأخطار التى أحدقت بهذه البلاد من جهة أخرى .

وكان يهدد هذه الأقاليم عندما قرر السيد المهدى الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة (فى عام ١٨٩٥) خطران كبيران ؛ نجم أحدهما عن قيام سلطنة رابح المشهورة فى السودان الغربى ؛ بينما كان عزم الفرنسيين على التوغل فى القارة وبسط سلطانهم على الامارات الاسلامية فى أفريقية الغربية مصدر الخطر الثانى .

وعلى ذلك فان السيد المهدى بمجرد وصوله إلى الكفرة عمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداى فأرسل إلى سلطانها يوسف بعد وصوله إلى (الجوف) بأسبوع واحد فقط رسولا هو (المرتضى أبو خريص) يحمل إليه كتابا منه ؛ ثم ازدادت الروابط بين السيد المهدى وسلطان واداى فى المدة التالية ، حتى طلب يوسف فى أواخر ١٨٩٧ أن يوفد السيد إلى (أبشه) أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوبا خاصا للسنوسية فى عاصمة بلاده ؛ فأرسل إليه سيدى محمد بن عبد الله السنى ، الذى ذكرنا أنه حضر فى جماعة من القوان لزيارة السيد والترحيب به عند وصوله إلى الجوف . وكان سيدى محمد السنى من تلامذة السيد محمد بن على السنوسى الكبير ، وأسس فى طرابلس زوايا السنوسية المشهورة فى القصبات ، والجعله ، والحربة ، ومزده ؛ فوطد نفوذ السنوسية فى واداى . وكذلك أدرك السيد المهدى نجاحا عظيما فى (برقو) فأسس السنوسيون زواياهم فى عين كلك وفايا والواجنقة وقرو . وطفق السنوسيون ينشرون نفوذهم فى كانم .

وفى هذه الأثناء كان أكبر ما يخشاه السيد المهدى ازدياد سطوة (رابح) لدرجة تلحق الوهن بالامارات الاسلامية حول بحيرة تشاد ، فلا تستطيع مقاومة خطر أشد وأقسى كان يتهدد سلطنة رابح والسنوسية والامارات الاسلامية جميعا ، هو خطر الفرنسيين الزاحفين على هذه الأقطار يريدون امتلاكها . وكان رابح هذا من عبيد الزبير باشا رحمت ، اشترك فى ثورة سليمان بن الزبير ضد سلطان الحكومة المصرية فى بحر الغزال ، حتى إذا انهزم سليمان

وقتل وأخفقت الثورة (١٨٧٩م) ، جمع رابح فلول الجيش وانسحب إلى (دار منغا) ، وطفق يشن الغارات منها على البلدان المجاورة ، فكان تارة يغزو دارفور ، وأخرى واداى ؛ ثم واصل غزواته فى باطن السودان ، واتخذ البلاد الواقعة فى جهة نهر شارى مركزا له ؛ وأخذ ساعده يقوى تدريجا حتى استطاع أن يخضع الامارات المجاورة ، فاستولى على الباقيرمى فى عام ١٨٩٢ ، والتجأ سلطانها إلى بلاد الشارى الأسفل ومنها إلى واداى (١٨٩٤) ؛ ثم غزا رابح (بورنو) ، وهى مملكة فى السودان إلى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، فهزم سلطانها هاشم ودخل عاصمتها (كوكا) ، وجعل عاليها سافلها ، ثم اعتصم ببلدة اسمها (ديكوا) ومع أن المناوشات استمرت بين رابح وبين عم سلطان بورنو السابق ، ثم أحد الزعماء الدينيين فى هذه البلاد ، فقد ظل رابح مسيطرا على (بورنو) . وبذلك استطاع رابح بعد هذه الحروب الطويلة أن ينشىء لنفسه ملكا مستقلا على ضفاف الشارى (وهو النهر الذى يصب فى بحيرة تشاد) وحق له أن يطمع فى تأسيس سلطنة عظيمة .

بيد أن نجاح (رابح) هذا كان له نتائج خطيرة ؛ لأن الفرنسيين الذين كانوا قد بدأوا يتغلغلون فى أفريقية الغربية عن طريق نهر السنغال ، سرعان ما وطدوا سلطانهم فى جهات السنغال الأعلى على أيدى (فيدهرب) (١٨٦٥) ، كما أنهم أسسوا مستعمرة جديدة فى الكنغو لم يلبث (دى برزا) أن وسع حدودها ووطد أركان الحكومة فى أنحائها (١٨٨٥) ، ثم امتد نفوذ الفرنسيين أيضا على شاطىء النيجر الأعلى ، فتمكنوا من احتلال تمبكتو فى يناير ١٨٩٤ على أيدى (بونيه) . ثم عقدوا فى هذه الأثناء اتفاقا مع الانجليز (١٨٩٠) لاعتبار معظم الصحراء الوسطى والغربية منطقة نفوذ فرنسية ؛ وآخر مع الألمان (١٨٩٤) لاعتبار الأراضى الممتدة حتى بحيرة تشاد من ناحية وخط تقسيم مياه الكنغو من ناحية أخرى مناطق تخضع للنفوذ الفرنسى أيضا . وأمام ذلك كله لم تكن ثم مندوحة عن أن يفزعهم ذلك الملك الكبير الذى كان (رابح الزبير) يبنيه لنفسه فى هذه الجهات ذاتها . ولما كان رابح قد استولى عنوة على الباقيرمى ، وأرغم سلطانها على الفرار والنجاة بنفسه ، فقد سهل على الفرنسيين استمالة هذا السلطان إليهم ، تمهيداً لغزو سلطنة رابح .

وكان طبيعيا أن يلمس السيد المهدى هذه الأخطار جميعها ، ويبذل الجهد لتوقيها ؛ واستطاع بحكمته أن يحفظ نفوذ السنوسية كعامل من عوامل السلام فى هذه الأقطار التى كان يهددها رابح بغزوه بين حين وآخر ، وكان مما ساعد على دعم نفوذ السنوسية فى برقو وواداى وغيرها أن (رابح) نفسه منذ أن اطمأن إلى ملكه الجديد طفق ينشىء الصلات الودية مع الامارات الكبيرة المجاورة ، وصار يهمه ولا ريب أن لا يشتبك مع السنوسية فى منازعات

خطيرة لبعد مركزه عن مقر السنوسية ومكن قوتهم من جهة ، ولأن توسعه كان يجرى نحو الغرب على شواطىء بحيرة تشاد الجنوبية والغربية فى مملكة (بورنو) خصوصا . وعندما أصبح الخطر الفرنسى ماثلا ، لم ير السيد المهدى بدأ من التدخل بين رابح وبين أمراء الدويلات التى اعتدى عليها ، خصوصا سلطنة باقيرمى . فطفق يدعو إلى السلام بين هذه الإمارات فى عام ١٨٩٨ ، على أمل أن يؤلف بين قلوب سلاطينها حتى يصبحوا قوة متحدة تمكنهم من الوقوف فى وجه الخطر الزاحف عليهم جميعا . ولكن العداوة بين رابح وسلطان الباقيرمى (غاورانغ) كانت متأصلة لدرجة ذهبت معها محاولات السيد المهدى سدى . بل إن (غاورانغ) لم يلبث أن تحالف مع الفرنسيين ، كما أن رابح من جهة أخرى كان فى عداء مستحكم مع سلطان (زيندر) الذى رفض أن يدفع له الأتاوة التى كان يدفعها سنويا إلى (بورنو) ، وكان للسنوسيين زاوية فى (زيندر) .

وفى منتصف يونيه ١٨٩٩ وصل الضابط الفرنسى (بريتونيه) إلى (كانو) ، وكان بها زاوية للسنوسيين . وعندئذ تقدم إليه رابح بقوة كبيرة صاعدا نهر شارى ، وظل يتنقل من بلد إلى آخر حتى وصل إلى (كانو) ، فأخلاها (بريتونيه) ، وانسحب مع قوات حليفه (غاورانغ) سلطان باقيرمى إلى مكان يصلح للدفاع . ولكن (رابح) لم يلبث أن أوقع به وبحليفه هزيمة ساحقة فى ١٧ يوليه من العام نفسه ؛ واضطر الفرنسيون إلى إرسال حملة أخرى بقيادة (جنتيل) ، كانت أكثر توفيقا من سابقتها ، فأجلت (رابح) عن (كانو) فى أكتوبر ١٨٩٩ . وفى أواخر العام نفسه بدأت تتضافر قوات الفرنسيين وجيوشهم للالتحام مع رابح فى معركة فاصلة .

وفى أثناء ذلك كله ، كان من الواضح إذا قدر للفرنسيين الانتصار على رابح فى النهاية ، كما توقع كثيرون ، أن تكون خطوتهم التالية ، بمجرد وصولهم إلى شاطىء بحيرة تشاد احتلال كانم ، فينزعون من السنوسيين منطقة كانت بمثابة مخافر أمامية ، ويسبب ضياعها من أيديهم القضاء على نفوذهم فى برقو وانيدى والكوار وغيرها ، ثم يمهد للفرنسيين بعد ذلك الاشتباك مع السنوسيين فى حدود بلادهم . ولذلك قرر السيد المهدى الانتقال من الكفرة إلى محل قريب من مكان هذه العمليات الخطيرة . فغادر التاج إلى زاوية قرو فى (برقو) فى عام ١٨٩٩ (١٣١٧ هجرية) ، وخرج معه ابن أخيه السيد أحمد الشريف ، ثم مستشاره المخلص الأمين السيد أحمد الريفى . وكما حدث عند انتقال السيد من الجغبوب الى الكفرة قبل ذلك بخمسة أعوام تقريبا ، اختلف الكثيرون فى تفسير أسباب هذا الانتقال وتنوعت أقوالهم ، ولو أنه كان من الواضح أن السيد إنما يريد من وجوده بواحة (قرو)

أن يستطيع تنظيم المقاومة واتخاذ الأهبة لمواجهة قوات الفرنسيين الزاحفة صوب بحيرة تشاد ، والتى كانت تهدد (كانم) تهديدا كبيرا . فأرسل سيدى محمد البرانى إلى (كانم) ، فبنى زاوية فى (بير العلالى) ، وطفق يجمع جيوشا من التبو والتوارق وأولاد سليمان والزوية والجبابرة لمواجهة الزحف الفرنسى .

وأما الفرنسيون فكانوا قد استطاعوا إدخال (واداى) ضمن منطقة نفوذهم بفضل التصريح الانجليزى الفرنسى المعروف فى ٢١ مارس ١٨٩٩ . ومرت قبل ذلك فترة ، ضعف فيها نفوذ السنوسية بعد وفاة السلطان يوسف فى العام السابق ، لأن ابراهيم السلطان الجديد كان يريد التحرر من سيطرة السيد المهدى . ومع أن ابراهيم لم يلبث أن قتل (١٩٠٠) ، وتولى بعده السلطان أحمد ، ثم داود مره (ديسمبر ١٩٠١) ، فقد كان ظاهرا أن الفرنسيين بدأوا ينجحون فى التفاهم مع (واداى) وتوطيد أقدامهم فى هذه السلطنة ؛ وساعدهم على ذلك ولا ريب انتصار الجيوش الفرنسية على رابح الزبير وتشتيت ملكه . فقد زحفت إليه معا جنود البعثة الصحراوية ، وبعثة أفريقية الوسطى ، وبعثة شارى ، بقيادة (جولاند) و (مانيه) فى ديسمبر ١٨٩٩ ؛ ثم انضم إليهما فى السنة التالية القائدان (فورو) ، و (لامى) . وفى معركة فاصلة فى (لختة) دارت رحى الحرب فانكسر رابح وقتل فى ٢٢ ابريل ١٩٠٠ ؛ ثم ما لبث الفرنسيون بعد ذلك أن شتتوا شمل القوات التى صمدت لهم بعد موت رابح بقيادة أولاده . وكان من أثر انهزام رابح وقتله أن احتل الفرنسيون بلاد حلفائهم (الباقيرمى) . كما باتوا يهددون (كانم) مباشرة .

وبالفعل تقدم الفرنسيون صوب (كانم) ؛ واستعد السنوسيون لمقابلتهم ، فوضعوا حامية كبيرة فى (بير العلالى) ، وعهد السيد المهدى إلى ابن أخيه السيد أحمد الشريف بادارة الحرب والجهاد ضد الفرنسيين ، واشترك فى القتال قواد من السنوسيين مبرزون على رأسهم سيدى محمد البرانى نفسه ، ثم قائد آخر أحرز فيما بعد صيتا وشهرة عظيمة ، وهو السيد عمر المختار ؛ واستطاع المجاهدون أن يحرزوا بعض الانتصارات ، ولكن معدات الحرب الحديثة كانت لها الغلبة فى النهاية ؛ فانهزم سيدى محمد البرانى فى معركة دامية فى يناير ١٩٠٢ على أيدى الضابط (تيتار) ، وسقطت (بير العلالى) فى أيدى الفرنسيين ، فهدم هؤلاء زاويتها وبنوا على أنقاضها قلعة منيعة ، وتم لهم احتلال كانم . فأحدثت هذه الهزيمة دويا كبيرا ؛ وكان من آثارها الخطيرة أن (واداى) التى ظلت طوال عهد السيد المهدى تقريبا من أشد الامارات الأفريقية الإسلامية ولاء وإخلاصا للسنوسية ، لم تلبث أن اعترفت فى نوفمبر ١٩٠٣ باحتلال

الفرنسيين رسميا للباقيرى وكانم وغير ذلك من الأقطار التى دانت لسلطانهم . ومع ذلك فقد استطاعت السنوسية أن تسترد شيئا من نفوذها القديم فى (واداى) ذاتها ، بل وتمكنت بعد ذلك من تحريض سلطانها (داود مره) على استئناف الجهاد ضد الفرنسيين . ولكن لم يكن مقدرا للسيد محمد المهدى نفسه أن يشهد حوادث هذا الجهاد الأخيرة . فقد وافاه القدر المحتوم فجأة وهو فى (قرو) فى ٢٣ صفر ١٣٢٠ (وأول يونية ١٩٠٢) ، ونقل جثمانه الطاهر إلى الكفرة . وبذلك تكون قد انتهت حياة عظيم ، وأسدل الستار على فصل مجيد من تاريخ السنوسية الحافل بشتى المآثر الطيبة .

الفصل السادس

الجهاد : الحرب الليبية الايطالية

كان اشتباك السيد محمد المهدى مع الفرنسيين الطامعين فى امتلاك السودان الغربى مؤذنا ببداية ذلك الجهاد الذى ظل السنوسيون يعدون أنفسهم لخوض غماره من مدة طويلة ؛ واستطاع السيد المهدى بفضل الخطة الحكيمة التى اتبعها مع الإمارات الإسلامية الأفريقية من جهة ، ومع دولة الخلافة على وجه الخصوص ، ثم مع الدولة التى أقامها محمد أحمد وخلفاؤه فى السودان ، ثم مع بقية الدول الأوروبية من جهة أخرى ، أن يكرس جهود السنوسيين لمقابلة هذا الخطر الداهم .

وقد تقدم كيف أن السيد المهدى حاول أن يجمع كلمة امراء هذه الدويلات الاسلامية التى كان يهددها الغزو الفرنسى مباشرة ؛ ولكن العداوة المستحكمة بين هؤلاء الأمراء تغلبت على كل حكمة وأصالة رأى ، فتم للفرنسيين احتلال باقيرمى ، وقوضوا عرش إمارة (رابح) الكبيرة ، واستولوا على كانم ؛ وعندما انتهت حياة السيد المهدى كانت برقو قد خرجت من أيدى السنوسيين فى الحقيقة بعد هزيمة (بير العلالى) ، وأضحى نفوذ السنوسية فى (انيدى) و (التبستى) أو بلاد (التبو) ، والكوار أو (انيرى توغى) — وهى المناطق التى أطلقت فيها أيدى فرنسا بمقتضى اتفاقاتها مع انجلترة فى عامى ١٨٩٠ ، ١٨٩٩ ، مهددا بالزوال ، ثم تعرضت (واداى) ذاتها وهى السلطنة التى اعتمدت عليها السنوسية قبل أى شىء آخر فى بقاء نفوذها فى هذه الجهات النائية لخطر الانحلال واستيلاء فرنسا عليها .

ومما لا ريب فيه أن وفاة السيد المهدى فى هذه الظروف زادت الموقف حرجا على حرج ولذلك كان ضروريا أن ينهض بعبء هذا النضال الجسيم زعيم فى استطاعته أن يصون على الأقل حدود الامارة السنوسية ذاتها ، وأن يكمل العمل الذى بدأه السيد المهدى ؛ وكذلك كانت سرعة الفصل فى اختيار خليفة للسيد المهدى من جانب السنوسيين ، ثم وقوع هذا الاختيار على ابن أخيه السيد أحمد الشريف من الأمور التى مكنت السنوسية من مواصلة الجهاد مسترشدة فى ذلك بسياسة السيد المهدى نفسه . فانه لما كان السيد محمد ادريس أكبر انجال الأمير الراحل ، صغير السن ولا يكاد يبلغ الثلاثة عشر عاما ، فقد أوصى السيد المهدى

بزعامة السنوسية لابن أخيه السيد أحمد الشريف على أن يكون السيد أحمد فى الوقت نفسه وصيا على السيد محمد ادريس نجل السيد المهدى الأكبر والخليفة الشرعى.

وأما السيد أحمد فكان يبلغ الثلاثين عاما ، وهو حفيد السيد محمد بن على السنوسى الكبير وابن السيد محمد الشريف ، ولد بواحة الجغبوب فى عام ١٢٩٢ هجرية (١٨٧٥) ؛ ووالدته كريمة السيد عمران بن بركة ، كانت من فضليات السيدات ، فنشأ السيد أحمد فى هذا البيت الكريم ، وقربه منه عمه السيد محمد المهدى ، فشب الابن على غرار آبائه وأجداده ، وانكب من حداثته على القراءة والدرس ثم حفظ القرآن الكريم ، فظل يتلوه من الذاكرة طوال حياته من غير تردد أو توقف . وكان السيد أحمد الشريف منذ بدء حياته عظيم الاحترام وشديد الاعتقاد والاقتداء بأثنين : أولهما عمه السيد المهدى الذى كان لا يرى أحدا يجاريه فى علمه وورعه وتقواه وأخلاقه السمحة النبيلة ، حتى أنه أفرد الفصول الطوال فى تاريخه يتحدث فيها عن صفاته ومناقبه رحمهما الله ؛ وثانيهما أستاذه ومرشده السيد أحمد الريفى ، وكان هذا السيد من أركان الطريقة وأكابر السنوسيين ، قرأ فى فاس . وأتقن العلوم ومنها الفلك والاسطرلاب والهندسة والرياضيات ، فأخذ السيد أحمد عنه ذلك كله قال الأمير شكيب أرسلان فى وصف السيد أحمد الشريف : « رأيت فى السيد حبرا جليلا وسيدا غطريفا وأستاذا كبيرا ، من أنبل ما وقع نظرى عليهم مدة حياتى ؛ جلالة قدر ، وسراوة حال ، ورجاحة عقل ، وسجاحة خلق وكرم هزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظة مع الوقار الذى يغض من جوانبه الوداعة والورع الشديد فى غير رثاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد فى الليل أكثر من ثلاث ساعات ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة والتهجد . . . وأكثر أحاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ووقائعهم وسير سلفه السيد محمد بن على بن السنوسى والسيد المهدى وغيرهما من الأولياء والصالحين . وإذا تكلم فى العلوم قال قولا سديدا ، سواء فى علم الظاهر أو علم الباطن » . وقد صحبه عمه معه عند انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة فدون السيد أحمد أخبار هذه الرحلة ، كما دون خبر وفاة والده السيد محمد الشريف فى ٢٧ رمضان ١٣١٣ (مارس ١٨٩٦) فى الجغبوب بعد عودته من الكفرة ، وكان قد خرج إليها مع أخيه السيد محمد المهدى . وظل السيد أحمد الشريف مقربا من عمه ، يرقب الأمور عن كثب ويزداد خبرة ومرانا ، حتى إذا كان الجهاد ضد الفرنسيين فى السودان الغربى وانتقل عمه إلى (قرو) صحبه إليها ، ثم اشترك فى الجهاد ، وكان موكولا إليه الاشراف على نشاط المجاهدين وقيادتهم . وفى أثناء ذلك كله ظل السيد أحمد متمتعا بثقة عمه العظيمة ، حتى إذا شعر السيد المهدى بقرب منيته ، وتوسم فى ابن أخيه القدرة على الاضطلاع بأعباء الإمارة ، والوصاية على الخليفة الشرعى السيد محمد ادريس

عهد إليه بالأمر من بعده . وكان ولا شك اختيارا موفقا ، صادف ارتياحا وقبولا عظيمين من جانب الأخوان جميعهم ؛ فلم تمض ثلاثة أسابيع على وفاة السيد المهدى ، حتى كان الأخوان وكبار السنوسيين قد اجتمعوا بالكفرة فى ١٢ ربيع الأول ١٣٢٠ (١٩ يونية ١٩٠٢) ، وجرى الاحتفال بانتخاب السيد أحمد الشريف على سجادة الإمامة . وكان من الواضح أن هدف الامام الجديد إنما هو قبل كل شيء مواصلة الجهاد ضد الفرنسيين . وفى ذلك الحين أقبل السيد أحمد يدير شئون السودان بكل همة من واحة الكفرة التى ظلت مقر حكومة السنوسيين ومركز نشاطهم فى عهده .

وكان أهم ما عنى به السيد أحمد الشريف عند استلامه أزمة الحكم أمرين : الحرص على أن تظل سلطنة (واداى) صديقة للسنوسيين وموالية لهم ؛ ثم شحذ الهمم وبذل الجهود من أجل إمكان الصمود أمام الفرنسيين ووقف تقدمهم . وكان دون الوصول إلى هذين الغرضين صعوبات جمة . وتفصيل ذلك أن استبقاء سلطنة (واداى) للسنوسية كان عملا شاقا مستعصيا منذ لحقت الهزيمة بالسنوسيين فى (بير العلالى) ، وضيعت كانم من أيديهم نهائيا . ثم كان من أثر انتصارات الفرنسيين المتتابعة من ناحية ، ثم محاولتهم استمالة سلطان واداى (داود مره) والتفاهم معه من ناحية أخرى ، إن وقفت واداى مترددة بين ولائها للسنوسية وبين رغبتها فى العيش بسلام مع الفرنسيين الأقوياء الذين أصبحوا الآن من جيرانها ولا مندوحة من اعترافها بوجودهم . وقد تقدم كيف اعترفت واداى أخيرا باحتلال الفرنسيين للباقيرمى وكانم وغيرها فى نوفمبر ١٩٠٣ . ومع ذلك لم يفقد السيد أحمد الشريف الأمل فى إمكان تحريك هذه السلطنة ضد أصدقائها الجدد . وفى الأعوام التالية أحكم السيد أحمد صلاته بقدر المستطاع بسلطانها (داود مرة) ونجحت مساعيه عند ما نقض (داود مرة) عهده مع الفرنسيين وأغار على مراكزهم فى أقليم الشارى فى عام ١٩٠٤ وأنزل بهم الهزيمة وأسر عددا كبيرا من الرقيق ؛ واستمر القتال بين الفريقين دائرا فى السنوات القليلة التالية فى فترات متقطعة حتى إذا كان عام ١٩٠٨ أعلن (داود مرة) الجهاد ضد الفرنسيين من جديد ، وآزره السنوسيون ولكن النصر كان حليف الفرنسيين فى النهاية فاحتلوا واداى فى يونية من العام التالى (١٩٠٩) ولما كان هؤلاء يريدون احتلال « الدويلات » التى خضعت قديما لنفوذ واداى وصارت الآن تعتز باستقلالها وهى (دارتامة) ، و (دارسولا) و (دارمساليت) ، فقد ظلت العمليات العسكرية قائمة فى السنتين التاليتين ، واستطاع (المساليت) خصوصا فى يناير وفى نوفمبر ١٩١٠ أن يوقعوا بالفرنسيين هزيمتين كبيرتين ، ذهب ضحية فى الأولى منهما (الكولونيل فيجنشوس) وفى الثانية الكولونيل (مول) . وكان سلطان دارفور فى هذه الآونة (على دينار) ينازع

الفرنسيين السيطرة على هذه الجهات . فاحتل (دارتامة) وظل شوكة فى جنب الفرنسيين ، حتى تمكنت حكومة السودان (المصرى الانجليزى) من هزيمته بعد ذلك بجملة سنوات . وأما واداى فقد استتب الأمر فيها للفرنسيين نهائيا فى عام ١٩١٢ .

وكان من الطبيعى فى هذه الظروف أن يحاول السيد أحمد الشريف استمالة سلطان دارفور إلى جانبه فى الجهاد المستعر بينه وبين فرنسا . وكان على دينار من أحفاد السلطان محمد الفضل صاحب الشهرة الكبيرة ، قد أصبح صاحب الحق فى عرش دارفور بعد مقتل ولدى ابراهيم سلطان دارفور (الذى قتله الزبير رحمت فى عام ١٨٧٥ عند فتح هذه البلاد) ؛ ولكن الدراويش سلبوا على دينار كل سلطة . فأظهر خضوعه الكامل للخليفة عبد الله التعايشى ، حتى إذا كانت واقعة أم درمان المشهورة فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ . وكان على دينار وقتئذ فى إقليم الكردفان ، أسرع بالعودة إلى الفاشر ونجح فى تخليصها من قبضة الدراويش ثم أعلن نفسه سلطانا على دارفور . ورضيت حكومة الخرطوم الجديدة أن تتركه وشأنه مادام يدفع لخزانتها إتاوة سنوية ؛ واعترفت به رسميا فى عام ١٩٠٠ . ولكن على دينار كان طاغية شديد المطامع مستبدا فى حكومته ؛ ثم ما لبث أن أظهر ميولا واضحة نحو الاستقلال بسلطته . كما كان شديد العداء لفرنسا أيضاً بسبب رغبتها فى الاستيلاء على «الدويلات الحدودية» الصغيرة بين دارفور وواداى بعد استيلائها على سلطنة واداى . وكانت عداوة (على دينار) هذه الظاهرة لفرنسا هى السبب الذى جعل السيد أحمد الشريف ينتظر منه المؤازرة . ولكن على دينار الذى كان شديد الغيرة على سلطته ويزعجه انتشار نفوذ السنوسية فى بلاده . لانه كان لا يريد ذيوع دعوة قائمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن شأنها إذا استتب الأمر لاتباعها مقاومة طغيان هذا الحاكم المستبد وإصلاح أحوال رعاياه ، لم يلبث أن اختط لنفسه خطة تتلاءم مع مصالحه ، فعارض فى إنشاء أية زوايا للسنوسيين فى بلاده ؛ ولكنه من جهة أخرى لم يقطع صلته بالسيد أحمد الشريف ، بل إن السيد سرعان ما أنشأ زاوية فى طريق القوافل بين الكفرة ودارفور . واستمر الحال على ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فأعلن على دينار الثورة على حكومة السودان فى ظروف سوف يأتى ذكرها .

بيد أن الجهاد الحقيقى كان بين السنوسيين والفرنسيين فى جهات التبستى (تو) وبرقو وانيدى وابيرى — توغى ، فقامت بين الفريقين مناوشات عديدة ، وأظهر السنوسيون فى هذا النضال تحت زعامة السيد أحمد الشريف جلدا وعزيمة قوية ، واستطاعوا أن يكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة فى الأرواح والأموال ؛ واشتهر من رجالهم فى أثناء هذا الكفاح كثيرون ، منهم السيد عبد الله (طوير) الزوى الذى أزعج الفرنسيين وأقض مضاجعهم

وضيق عليهم المسالك ، حتى إعترفوا له بالمقدرة والشجاعة . وكان من عادة السيد الزوى أن يحمل عليهم فى غزوات ليلية متلاحقة حتى لقبه الفرنسيون بالحرامى ، وكان لقب مجد وفخار له وللسنوسيين المجاهدين عموما . ولاقى السيد الزوى حتفه فى إحدى هذه الغزوات الليلية .
ولما كان هذا الجهاد طويلا وصارما فقد استشهد كثيرون منهم السيد أبو عقيلة الزوى. ومع هذا فقد استطاع الفرنسيون بفضل أسلحتهم الحديثة وقواتهم المتدفقة أن يحرزوا انتصارات هامة فاحتلوا كوار فى (انيرى — توغى) فى عام ١٩٠٦ ؛ وفى العام التالى هاجموا (عين كلك) فى برقو . فنشبت بينهم وبين السنوسيين معركة كبيرة ، كان النصر فيها حليفهم ، فقتلوا (سيدى البرانى) منشىء زاوية بئر العلالى وقائد السنوسيين المحنك ، وكانت وفاته خسارة كبيرة . ثم مهد لهم هذا الانتصار احتلال (واداى) نهائيا بعد ذلك بعامين تقريبا على نحو ماتقدم (١٩٠٩) ، وبمجرد أن دانت لهم هذه البلاد أسرع الفرنسيون إلى هدم زوايا السنوسيين وإلغائها ، الأمر الذى أثار اهتمام تركيا التى صار يعنيها وهى دولة الخلافة مؤازرة السنوسيين المنضوين تحت لوائها ، فاستطاع السيد أحمد الشريف أن يدخل مع الأتراك فى مفاوضات فى العام التالى (١٩١٠) أسفرت عن ارسال جند من النظاميين إلى برقو والتيستى وتأسيس قائمقامية فى الكفرة ، عين بها الشيخ كيلانى الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات — وهو والد صالح باشا الأطيوش ، كما دعا السنوسيون الأتراك إلى برقو ، فأرسلوا اليوزباشى رفقى الذى رفع الراية العثمانية إلى جانب الراية السنوسية فى (ون) بالقرب من عين كلك . وكان ينظم المقاومة فى برقو فى الأعوام التالية (١٩١١ — ١٩١٣) المهدى السنى ، وهو ابن السيد محمد السنى الذى أرسله السيد المهدى إلى (إبشة) عاصمة وادى عقب انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة . وهكذا ظلت المناوشات دائرة بين السنوسيين والفرنسيين ، واستطاع (الكولونيل لارجو) فى ديسمبر ١٩١٣ أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبيرة فى (قرو) حيث جرح ولدا السيد المهدى السنى نفسه (عبدالله وعبدالعال) ووقعا فى أسره .

بيد أن هذا الجهاد الطويل كانت قد خفت حدته من مدة لجملة أسباب ؛ منها أن العثمانيين كانوا فى أثناء ذلك كله يعتبرون أنفسهم فى حالة سلم مع فرنسا . فلم يقطعوا علاقاتهم بهذه الدولة المعتدية ، ثم ازداد تمسكهم بأهداب هذا السلام عندما اكفهر الجو السياسى فى أوروبا وأخذت الأمور تتحرج فى شبه جزيرة البلقان ، وصارت تركيا تهتم باستبقاء صلات المودة مع فرنسا وغيرها من الدول الغربية ، فتعذر على المجاهدين بسبب ذلك الحصول على الأسلحة والذخائر والمؤن اللازمة للمضى فى قتال الفرنسيين فى هذه الأصقاع النائية . ومع أن هذه الخطة التى تمسكت بها تركيا كانت من أسباب ضعف مقاومة المجاهدين لحاجتهم الملحة

والمتزايدة للأسلحة والذخائر خصوصا . فقد نشأ من عدم تحكم العلاقات بين فرنسا وتركيا أو انقطاعها على الرغم من قيام الحرب بين السنوسيين ، وهم أهل « ولاية » من ولايات الدولة و بين الفرنسيين الذين اشتبكوا مع أقوام هم من « رعايا » السلطان ولايزالون يعترفون بسيادته الشرعية عليهم ، وضع يبدو لأول وهلة غريبا ، ولكنه سرعان مايظهر على حقيقته عند إمعان النظر ، وذلك إذا تذكرنا أن السنوسيين فى معاقلهم البعيدة سواء فى الكفرة أو فى قرو كانوا أصحاب السلطان المطلق ولاتستطيع الدولة العثمانية أن تحد شيئاً من نشاطهم لو رغبت فى ذلك ، أو تستطيع فرنسا أو غيرها من الدول تنفيذ مآربها بالطرق الدبلوماسية عن طريق الباب العالى إذا حاولت هذا ، وقد تقدم كيف عجزت الدول الأوروبية عند محاولة التأثير على السيد المهدى عن طريق الضغط على السلطان العثمانى . فلم يكن أمام فرنسا إذن سوى الاعتراف بالأمر الواقع ، ومعاملة السنوسية ليس كجمعية ، تشق عصا الطاعة على صاحب السيادة عليها وإنما كأمارة ، ذات كيان مستقل ولامندوحة من الاعتراف بها والتسليم بوجودها فى النهاية .

أضف إلى هذا أن الفرنسيين أنفسهم بعد أن تم لهم إخضاع واداى وبرقو وقرو ، اضطروا من جانبهم إلى الوقوف عند حدود برقة الجنوبية بسبب الارتباطات الدولية التى قيدت حركتهم فى هذه الناحية ، وهذه كانت الاتفاق الانجليزى الفرنسى الذى أبرم فى باريس فى ١٤ يونية ١٨٩٨ لبيان حدود ممتلكاتهما ومناطق نفوذهما على جانبى نهر النيجر ، ثم تصريح لندن فى ٢١ مارس ١٨٩٩ لتوكيد الاتفاق السابق فيما يتصل بمناطق نفوذهما إجمالا فى أفريقية الغربية والوسطى ثم تعيين الحدود بين الممتلكات الفرنسية وبين دارفور ، وأخيراً التوكيدات المتبادلة بين الفرنسيين والايطاليين فى ديسمبر ١٩٠١ بشأن تعيين مناطق نفوذ كل من هاتين الدولتين فى أفريقية الشمالية والغربية ، فاحتفظت إيطاليا لنفسها بمقتضى هذا الاتفاق بمنطقة برقة وطرابلس بينما تعهدت فرنسا من جانبها بالتزام ماجاء فى ارتباطاتها السابقة مع انجلترة فى ٢١ مارس ١٨٩٩ على أن تمتنع إيطاليا فى نظير ذلك عن التدخل فى شئون مراكش وعرقلة نشاط فرنسا وسياستها فى هذه السلطنة ، فلم يعد فى إمكان فرنسا بسبب هذه الاتفاقات الاعتداء على حدود برقة الجنوبية .

وأما السنوسيون فقد أرغموا هم أيضا على ترك النضال ضد فرنسا فى النهاية عندما فاجأ الايطاليون الدولة العثمانية بقطع علاقتهم معها وإعلان الحرب عليها فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر عام ١٩١١ ، ثم أطلق أسطولهم قذائفه على موانى طرابلس وبرقة ، ووقع على السنوسيين عبء الدفاع عن البلاد التى نشأت فيها دعوتهم ، وكانت مقر إمارتهم ، وهو الدفاع

الذى اتخذوا له عدتهم من مدة طويلة ، منذ تنبأ بمجىء (النابلطان) مؤسس السنوسية نفسه فى أواسط القرن الماضى ؛ فتطايرت جوعهم واحتشدت فى ميادين القتال الشمالية خصوصا فى برقة ؛ وبدأ من ثم ذلك النضال الصارم الذى استمر من غير هوادة مدة الثلاثين عاما التالية وتحمل السنوسيون فى أثنائه أعظم تضحية قدمتها أمة فى العصور الحديثة من أجل المحافظة على بقائها . ويعرف التاريخ هذا الاعتداء الايطالى باسم الحرب الطرابلسية (الليبية) الايطالية . ومنذ مجىء الطليان إلى برقة وطرابلس حتى وقت خروجهم منها مهزومين مقهورين خط السنوسيون قصة كفاحهم بدمائهم وأقاموا الدليل بعد الآخر على أن الشعوب التى تعتز بعقائدها وتقاليدها وقوميتها لا يمكن فناؤها مهما تضافرت ضدها القوى المادية والتى تعتمد فى فرض سيطرتها وسلطانها على السيف والمدفع ووسائل إزهاق الأرواح الأخرى التى حذق الغرب صنعها .

* * *

وعندما وقع الاعتداء الايطالى على طرابلس وبرقة حار الناس فى تعليل أسبابه وشغلوا أذهانهم فى التنقيب عن الدوافع التى حدت بالايطاليين إلى امتشاق الحسام فى وجه دولة — تركيا — لم يصدر منها ما يعكر علاقاتها بالمملكة الايطالية . ومع أنه قد مضى الآن ما يزيد على ربع قرن من قيام الحرب الليبية الايطالية ، ونكب العالم فى أثناء هذه المدة مرتين بحرب ضروس مخربة فإن معرفة أسباب العدوان الايطالى فى عام ١٩١١ ، وتناول قصة هذا العدوان من جديد أمر فى الحقيقة لا غنى عنه لأنه يفسر وجها من وجوه السياسة الايطالية فى إفريقية الشمالية لم يعتوره تبدل أو تغيير حتى انتهى المطاف بالطليان إلى محاولة الاعتداء على القطر المصرى فى أثناء الحرب العالمية الثانية ؛ فكان إندحارهم وطردهم من إفريقية الشمالية برمتها النتيجة التى انتهت إليها هذه السياسة ؛ وزيادة على ذلك فقد كان مدار سياسة الايطاليين فى ليبيا القضاء على السنوسية ؛ لأنهم أدركوا تماما تعذر استقرارهم فى هذه الديار مادامت السنوسية تتمتع بنفوذها القديم . ولذلك كانت مكافحة السنوسية ومحاولة إخمادها بكل الطرق من أهم الأهداف المباشرة التى عمل الايطاليون على تحقيقها ، وظلت تشكل سياستهم من وقت احتلالهم لبرقة وطرابلس إلى وقت خروجهم منها . وفى أثناء ذلك كله ظل السنوسيون عماد المقاومة الدامية فى ليبيا ، كما بقيت برقة زمنا طويلا مسرحا لهذا الكفاح غير المتكافىء بين الفريقين فى وقت أخمد فيه الايطاليون كل مقاومة تقريبا فى طرابلس ؛ ثم استطاع السنوسيون على الرغم من الخسائر الفادحة التى تكبدوها أن يساهموا بكل ما بقى لديهم من قوة فى فصول مأساة هذا الكفاح القاسى الأخيرة حتى أسدل الستار نهائيا على أسطورة الامبراطورية الايطالية فى شمال أفريقية .

ويعتقد كثيرون أن إيطاليا منذ أتمت وحدتها بزعامة بيت سافوى الملكى فى السبعينات من القرن الماضى ، بدأت تصوب أنظارها نحو البلدان الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط لأن هـذه كانت قريبة من الدولة الموحدة الجديدة ، والميدان الذى لا مندوحة للملكة الإيطالية من أن تهدف إلى التوسع فيه إذا شاءت الوصول إلى مرتبة الدول العظيمة ، فتجدد عهد سطوة الرومان بالاستيلاء على ممتلكاتهم القديمة فى أفريقية . أضف إلى هذا أن رجال السياسة والاقتصاد فى إيطاليا كانوا يخشون من ازدحام شبه الجزيرة الإيطالية بالسكان الذين يطرد نموهم ، وصاروا منذ أن استطاعت إيطاليا أن تنشىء فى رومة الحكومة الموحدة والمركزية يتطلعون إلى أقطار جديدة ينزح إليها الإيطاليون المستعمرون ، فيخف ضغط هـذا الازدحام فى بلادهم من جهة ، ويتمكنون من استخدام أموالهم ونشاطهم فى استثمار موارد البلدان التى ينزحون إليها من جهـة أخرى . ووجد كثيرون ممن عاصروا العـدوان الايطالى على طرابلس وبرقة وشهدوا حوادثه ، فى هـذه المشكلة المزدوجة — معـالجة ازدحام السكان واستثمار رؤوس الأموال الايطالية — مسوغاً لاقدام إيطاليا على احتلال برقة — طرابلس .

ومع هذا فهناك حقائق ثابتة لا مندوحة من ذكرها لبيان أسباب هـذا العدوان الصحيحة تلخص فى أن الأقطار الأفريقية الشمالية ، بما فى ذلك طرابلس وبرقة وتونس وغيرها كانت محط أنظار الايطاليين منذ بدأ ساستهم ومفكروهم فى أوائل القرن الماضى يجاهدون فى سبيل تحرير بلادهم من نير الأجنبى - (النمسا) - وجمع كلمة الأمة المحررة فى نظام يكفل لها الحياة فى كنف زعامة مستنيرة ، أى قبل أن ينجح قادتهم فى إنشاء إيطاليا الموحدة بمدة طويلة . بل إن الايطاليين فى تلك الآونة كانوا يرجون أن تستطيع (مملكة نابولى) — النابلطان كما سماهم السنوسيون الأوائل — الاضطلاع بمهمة هذا التوسع الخارجى . وزيادة على ذلك فان الايطاليين الذين كانوا ينشدون الوحدة السياسية لبلادهم فى ذلك الحين إلى جانب هـذا التوسع ، لم يكونوا يعدون القطر البرقاوى الطرابلسى وحده فقط ذلك « المجـال الحيوى » الذى تحدثوا عنه فيما بعد وصار لا مفر من امتلاكه . بل كان كل مايعنيهم مجرد التوسع لذاته فحسب سواء جرى هذا فى القارة الأوروبية ذاتها أو فى بعض جزر البحر الأبيض أو فى قطر من أقطار أفريقية الشمالية . ولذلك فان الظروف السياسية وحدها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر هى المسئولة إلى حد كبير عن اتجاه إيطاليا نحو الأقطار الليبية نهائياً . وكان من طبيعة هذه الظروف ذاتها أن يشعر الإيطاليون الذين وجدوا فرصاً متنوعة تفلت من أيديهم بسبب عجزهم عن تحقيق شىء من هـذا التوسع فى وقت تسابقت فيه الدول الغربية العظيمة

إلى امتلاك المستعمرات فى أنحاء المعمورة ، بأنهم لا يزالون فى مصاف الدول الصغيرة . فكان لهذا الشعور نتائج خطيرة ، لأنه ما لبث أن صار يشكل أهداف إيطاليا طوال القرن التاسع عشر ، ويؤثر تأثيراً واضحاً على شئونها الخارجية والداخلية على السواء حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، أى بعد أن تمت وحدتها السياسية بسبعين عاماً ونيف . ولذلك كان تصميمها على أن تزج بنفسها فى المغامرة الليبية يرتبط فى الحقيقة بالظروف السياسية التى أوجدت لدى الطليان شعور النقص من مدة طويلة . ولما كان من المتعذر على الأمم دائماً أن تعزو فعال أبنائها إلى شعورهم بمركب النقص فقد عمد الايطاليون ينقبون عن طائفة من « المسوغات » التى تفسر أمام العالم اعتداءهم على ممتلكات دولة كانت قبيل هذا الاعتداء بأيام قلائل فقط تعتبر دولة صديقة ولم يحدث ما يدل على أنه كان متوقعاً تغير هذه الحالة كما أصبح ضرورياً التذرع بشتى الوسائل لفصم العلاقات مع تركيا وإعلان الحرب عليها .

أما المسوغات ، التى تشبثت بها إيطاليا لتفسير عدوانها ، فأهمها ضرورة الاستيلاء على ممتلكات جديدة يهاجر إليها الايطاليون من مدنهم وقراهم ودساكرهم التى ادعوا أنها صارت مزدحمة بسكانها ، ثم يلى ذلك واجب استثمار برقة وطرابلس وهى بلاد خصبة وذات موارد طبيعية غنية حتى لا يحرم الايطاليون من فرصة استخدام رؤوس أموالهم إلى جانب تدريب شبانهم وأكفاء رجالهم على الأعمال المنتجة . زد على ذلك أن الاستثمار ولاشك سوف يعود — كما قالوا — بالمنفعة على الأقطار الليبية ذاتها إذ يكون من أهداف الطليان فى مستعمراتهم الجديدة إصلاح مرافق البلاد وترقية شعوبها . وهذه بلاشك كانت إدعاءات واهية ، كما أن جميع الحجج التى قدمتها إيطاليا كى تسوغ بها عدوانها على برقة وطرابلس كانت مبنية على مجرد أوهام وأمانى خيالية .

إذ من المعروف مثلا أن الجهاد فى إيطاليا من أجل التحرير والخلاص وتحقيق الوحدة السياسية قد تكلف نفقات طائلة وقع عبئها على كواهل أهل الجنوب خصوصا ؛ حتى ذكر أحد ثقاة الكتاب الطليان أنفسهم أن (مملكة الصقليتين) فى أوخر القرن التاسع عشر وبعد عشرين عاما من إتمام الوحدة وظهور المملكة الايطالية كان لا يزال يدفع أهلها مليونا ومائتى ألف من الجنيهات سنويا فوق ماينبغى عليهم أن يدفعوه وفى مقدورهم ، الأمر الذى ترتب عليه إنخفاض مستوى المعيشة فى الجنوب عموماً ؛ فقلت الأغذية الصالحة والصحية فى نابولى ، وقفرت المزارع من أهلها وأهملت الأرض وعاش السكان فى أكواخ حقيرة أو مساكن موبوءة وانتشرت الأمراض الخطيرة ؛ ونجم ذلك كله عن عجز الحكومة عن مقاومة فيضانات الأنهار أو صيانة الغابات أو إصلاح الطرق أو إنشاء الادارة الصالحة النزيهة ؛ حتى

عمد الأهلون إلى المهاجرة من هذه البلاد فرارا من البؤس والشقاء ، فبلغ عدد الذين غادروا هذا الجحيم حتى عام ١٩٠٦ الثمانية عشر ألفا من سكان يبلغ عددهم حوالى النصف مليون نسمة ، وقد فضل حوالى ٩٨ ٪ منهم الهجرة إلى أمريكا . وأما نسبة الأميين بعد مرور قرن من الزمان على تعميم التعليم الاجبارى فقد بلغت فى الجنوب ٧٥,٤ ٪ فى عام ١٩٠١ بينما كانت النسبة فى الشمال فى بيدمنت ١٧,٧ ٪ مما لا يدع مجالا للشك فى أن الحكومة الملكية الايطالية كانت تواجه واجبا وطنيا خطيرا يقتضيها بذل الجهود العظيمة من أجل إصلاح أحوال الوطن أولا وقبل محاولة إصلاح أحوال الغير ونشر ألوية الحضارة والعمران بين شعوب غريبة عنهم .

وعلاوة على ذلك فقد أجمع المعاصرون على أن الطليان كانوا يعاملون أهل سردينيا وصقلية أسوأ معاملة ، فأهملت المواصلات بهاتين الجزيرتين ؛ وعند اشتداد المطر كانت المياه تحفر جهات برمتها فى أرض سردينيا ، وعاش فقراء الناس فى هاتين الجزيرتين فى شقاء وبؤس وهوان ومذلة ، ثم انتشرت بينهم الأمراض التى ذهب ضحيتها كل عام ألوف من هؤلاء التعساء . وكان لا يهم الطليان السادة من أهل هذه البلاد سوى استغلالهم شر استغلال فكانوا يقرضون الأهلين فى سردينيا المبالغ الضئيلة — لمساعدتهم على تحسين أحوالهم كما يدعون بفوائد باهظة كثيراً ما بلغت ١٨ ٪ ، حتى إذا عجز المدين البائس عن تسديد دينه ، جرده دائنوه الطليان من كل ما يملك . ثم بلغت هذه الممارسة حداً من البلاء والسوء جعل الدائنين الطليان يطلبون دائماً حماية رجال الشرطة كلما ذهبوا لتحصيل فوائد ديونهم أو انتزاع أراضى وممتلكات الأهلين وهكذا . هذه كانت حكومة الطليان وإصلاحاتهم فى البلاد الخاضعة لهم . وما كان أحراهم أن يزيلوا هذه المساوىء فى سردينيا وصقلية ونابولى مثلا ، وأن يعملوا على استثمار موارد بلادهم قبل التفكير فى امتلاك بلدان أجنبية عنهم ، وفرض سلطانهم على شعوب تختلف عنهم فى الثقافة والتقاليد والدين واللغة .

ومع هذا فهل كانت طرابلس - برقة غنية حقيقة بمواردها لدرجة أنه إذا أحسن الطليان أو غيرهم استثمار هذه الموارد جاءتهم بالخير العميم ؟ وهل تأكد الطليان قبل أن يقدموا على مغامرتهم من أن المعلومات التى لديهم عن غنى هذه الولاية العثمانية بثرواتها الطبيعية كانت صحيحة حقاً ؟ أم أن الجشع قد أعمى قلوبهم وطمس على بصائرهم فصاروا لا يميزون بين الوهم والحقيقة . يذكر المعاصرون المحايدون أن الصحف الايطالية ظلت تتغنى بثروة طرابلس برقة الزراعية والمعدنية ، جملة سنوات قبل عدوان الطليان لدرجة أن هؤلاء أصبحوا شديدى الاعتقاد بأن الأقطار الليبية سوف تدر عليهم سيلا من الخيرات لا يفنى . وظهرت عبقرية الطليان فى ابتكار الأغانى والأناشيد التى صاروا يترنمون بها عند وصف طرابلس

الجيلة ، وطاب للأهلين في اجتماعاتهم أن يقصوا الأقاصيص الخلابة عن ثروة طرابلس وخصوبة أرضها ، ووفرة ثروتها المعدنية ؛ ولعبت الصحف الايطالية دوراً كبيرا فى تغذية هذه الأوهام والأحلام ؛ ثم إنتقل المرض من أحزاب (اليمين) أى من أولئك الذين يريدون إحياء الامبراطورية الرومانية القديمة بالاستيلاء على أرض يستطيعون استغلال مواردها واستثمار رؤوس أموالهم فى هذا الاستغلال ، لأنهم كانوا من (المموليين) ينشدون التوسع الخارجي لخدمة مصالحهم المالية والاقتصادية ، إلى أحزاب (اليسار) من الاشتراكيين الذين كانوا يريدون فى الأصل تحرير بلادهم من سيطرة الرأسماليين ، فأصبح الجميع الان يرددون أقصوصة « طرابلس الجيلة » الغنية ، ويؤيدون كل سياسة ترمى إلى الاستحواذ على ليبيا . وهكذا تم للطليان ما ظلوا يمنون به النفس دهرا طويلا ، وقامت الحرب ، وأحرز المعتدون بعض الانتصارات ونزلوا إلى الشواطىء واحتلوا المرافىء ؛ ثم نشطت صحفهم من جديد وأخذت تقيم الحجة بعد الحجة على أن البلدان التى دانت لسلطانهم غنية بثروتها المعدنية وخصوبة أرضها ووفرة غلاتها . وفى هذه المرة أيضا كان الاشتراكيون فى مقدمة أولئك الذين حاولوا إقناع أنفسهم وإقناع مواطنيهم بهذه الأوهام ، فطفق كبارهم يتحدثون فى الصحف عن أهمية الاحتلال الايطالى لطرابلس من الناحية الاقتصادية ، ثم نشرت (جريدة صقلية) فى هذا المعنى مقالا فى يناير ١٩١٢ دبجه يراع النائب الاشتراكى (دى فيليس) . وساق فيه البراهين والأدلة التى تثبت مقدار الثروة العظيمة الكامنة بأرض طرابلس الخصبة الغنية ؛ ثم تحدث عن وفد ، كان قد تألف — من ثلاثة أعضاء من بينهم اشتراكيان — ليجمع الأدلة القاطعة على أن احتلال طرابلس سوف يأتى بالخير الكثير على المستعمرين الطليان .

فقام هذا الوفد بزيارة تلك الشقة الضيقة التى « فتحها » الايطاليون من ابتداء الحرب حتى وقت الزيارة فى يناير ١٩١٢ ، والتى ظل الجيش الفاتح فى الحقيقة عاجزا حتى نهاية الحرب عن مغادرة المراكز التى أنشأها فى هـــذه المنطقة تحت حماية مدفعية أساطيله ، فزار الوفد (سيدى المصرى) ، وأبدى الأعضاء شجاعة فائقة عند ما قرروا التقدم إلى مسافة قليلة من الخنادق التى حفرها جند الطليان للاحتماء بها ، فلاحظوا وسط كثبان الرمال البعيدة « خضرة جيلة » فقرروا الوقوف فى المركبة أو العربة التى كانت تقلهم حتى يتبينوا أمر هذه الخضرة . فشاهدوا ، كما رسم لهم الوهم ، سهولا ممتدة أمامهم . « ويا للمعجزة ! غابات عظيمة من النبات الأخضر العالى ! » فكان هـذا الاستكشاف كافيا لأن يجعل أعضاء الوفد يبحثون فى التو والساعة مسائل الرى ووفرة المياه ، ثم أشركوا معهم دليلهم فى هذا البحث ، فأكد لهم أن المياه كثيرة جدا فى واحة طرابلس ، وأن كل عربى يملك بئرا فى منزله ، وفى الجهات الأخرى

التي يقل فيها المطر يستغنى عنه بالندى الذى يتساقط أثناء الليل . فأخذ أعضاء الوفد كلام الدليل قضية مسلمة ، وأن مهمتهم قد تم أمرها على أحسن ما يكون وخصوصا لدى معرفتهم بأن الأراضى الخصبة بمدينة طرابلس مركبة من طبقة نصف رملية ونصف كلسية ، وهذه الطبقة من شأنها حفظ كمية من الماء بين أجزائها .

ومع هذا فان النبات الأخضر العالى الذى شاهدوه لم يكن سوى خشب برى ينمو فى الصحراء ولا يزيد ارتفاعه عن الثمانية عشر بوصة ولا ينتفع به أحد حتى الجمال ، فانها لن تأكل منه إلا إذا اشتد بها الجوع أو كاد يقتلها . وأقصوصة (الندى) العظيم ما كان يجدر بعاقل أن يصدقها وعلاوة على ذلك فقد اطمأن السنيور دى فيليس إلى أنه مادامت الآبار الارتوازية فى بلاد الجزائر الغربية يعطى كل (٦٨) بئرا منها مقدار (١٣٠٠٠) لتر من الماء فى الدقيقة الواحدة ، فان آبار طرابلس الكثيرة لابد من أن تعطى قدرا من المياه أعظم من ذلك . متناسياً أن هذا الجزء من شمال أفريقية الذى يضم كلا من مراكش والجزائر وتونس يختلف جغرافياً عن الجزء الذى يضم طرابلس الغرب الواقعة على حافة الصحراء ، والتى لا يزيد فيها معدل المطر السنوى عن احدى عشر بوصة (فى برقة وطرابلس) وهذا بينما يتراوح فى مراكش والجزائر وتونس بين ٢٠ ، ٤٠ بوصة . وهكذا أبرق الوفد «لقد زرنا الصحراء وكل الأراضى صالحة للزراعة بدرجة عظيمة !» فاذا قورن هذا الكلام بما أسفرت عنه بحوث لجنة كانت قد تشكلت قبل ذلك بأربعة أعوام (١٩٠٨) للبت فيما إذا كانت برقة تصلح موطنا لليهود ، لتبين لنا مقدار الخطأ الذى وقع فيه هذا الوفد الايطالى .

فقد كتب أحد أعضاء هذه اللجنة البارزين : «ولو أن برقة من غير شك أعظم مقاطعات طرابلس الغرب خصوبة ، نرى لزاما علينا أن نقرر مع الأسف أن هذه البلاد ، بسبب مساحتها الواسعة التى تتألف من أراض لا فائدة منها ، ولعدم كفاية مائها ، ولأن مورد هذه المياه لا يمكن الاعتماد عليه ، — غير صالحة بالمرة لانشاء المستعمرات الزراعية المتسعة» . حقيقة كانت السفن قديما تنقل القمح إلى رومه وبيزنطة من (شحات) ، وكانت الأقطار الليبية تذخر بالحياة والنشاط ، حتى إن (غات) التى تبعد فى الداخل نحو الستمائة ميل داخل مدينة طرابلس كانت فى عهد الامبراطورية الرومانية مركزا تجاريا وعسكريا عظيما ، ولكن الذى نسيه الايطاليون الحديثون — أبناء الرومان القدماء ! — أن جدودهم نجحوا فى إقامة نظام للرى فى طرابلس وبرقة يعتمد على الدقة فى جمع كل قطرة من قطرات المطر المتساقط ، ثم توزيع هذه المياه توزيعا منظما علميا ، فأكثروا من حفر الآبار وانشاء الصهاريج ، وبنوا الترع والقنوات التى تربط بين الواحات والمدن الساحلية . وقد برهنت الحوادث فيما بعد على أن

الايطاليين لم يحققوا أحلامهم فى «طرابلس الجميلة» إلا فى تلك الأراضى الخصبة التى ظل العرب يزرعونها أجيالا عديدة ، والتى لجأ الطليان فى آخر الأمر إلى انتزاعها من أيدى ملاكها ، وجلب (المعمرين) من بلادهم لاستغلالها بعد أن طردوا أصحابها الشرعيين منها .

بيد أن سبب العدوان الايطالى على طرابلس الغرب كانت ترجع أصوله فى الحقيقة إلى ذلك الشعور بالنقص الذى سبقت الإشارة إليه ؛ وهو شعور كان من سوء حظ إيطاليا الحديثة أنها لم تستطع التخلص منه ، خصوصا بعد أن نجحت فى إنشاء وحدتها السياسية بزعامة بيت سافوى الملكى . ومنذ أن ناضل أحرارها ، وزعماؤها فى سبيل النهوض ببلادهم وتخليصها من شرور سيطرة النمسا الأجنبية ، اتجهت أنظار هؤلاء القادة إلى ضرورة التوسع الخارجى ، فذكر (مازينى) عند كلامه عن «بعث» الدولة الفتية الحديثة ، أن أفريقية الشمالية من أملاك إيطاليا ؛ وفى عام ١٨٤٢ كتب (سيزار بالبو) فى مؤلفه المشهور «عن آمال إيطاليا» وهو الكتاب الذى ظل يسترشد بآراء صاحبه جميع السياسيين الذين ساهموا بنصيب فى بناء وحدة إيطاليا — أنه بمجرد أن تحصل إيطاليا على استقلالها يجب عليها أن تفكر فى ضرورة التوسع صوب الشرق والجنوب ؛ وواجب نابولى — (أو النابلطان) — أن تقوم حينئذ بالشطر الأول من هذا التوسع المنتظر سواء كان ذلك فى تونس أو فى طرابلس أو فى جزيرة من الجزر ، أو فى جزء من أجزاء القارة الشرقية . ومن ذلك الحين ظل الايطاليون يعتبرون أفريقية الشمالية منطقة نفوذ إيطالية ، وقد عزز هذا الاعتبار أن نابليون الثالث فى حديث له مع زوج ملكة الانجليز ڤيكتوريا فى عام ١٨٦٥ فى (اسبورن) اقترح «اعطاء طرابلس إلى إيطاليا» ؛ وزيادة على ذلك فقد ذكر (البارون بلانك) وزير خارجية إيطاليا فى خطاب ألقاه فى مجلس النواب الايطالى فى مايو ١٨٩٤ ، أن نابليون الثالث كان قد وافق رسميا على أن يحتل الايطاليون تونس ، وأنه حدث عند انعقاد مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨ أن اقترحت كل من النمسا والروسيا على إيطاليا أن تبسط حمايتها على تونس ؛ ولكن إيطاليا امتنعت عن فعل ذلك رغبة منها وقتئذ فى احترام شعور الفرنسيين ! ، ولذلك خرج الايطاليون صفر اليدين من هذا المؤتمر . وفى الواقع كانت هذه الرغبة ذاتها فى عدم إيلام الفرنسيين السبب الذى ضيع على الايطاليين فرصة مواتية قبل ذلك بسنوات قليلة للاستيلاء على تونس وذلك فى يناير ١٨٨١ عندما تعكرت العلاقات بين الحكومة الايطالية فى فلورنسة — العاصمة وقتئذ بعد تورين ، وقبل أن تصبح رومة أخيرا عاصمة المملكة — وبين باى تونس ، واستعد الأسطول الايطالى لمغادرة (سبيتزيا) يحمل جنودا لإنزالهم فى تونس ؛ فأسرع الوزير الفرنسى فى فلورنسة يشرح للسلطات الايطالية تحرج مركز الفرنسيين فى أفريقية الشمالية بسبب

الاضطرابات القائمة وقتذاك فى بلاد الجزائر ، ولأن الثوار العرب كانوا قد أرسلوا نداء باسم الشعب الجزائرى ، إلى وليم الأول أمبراطور ألمانيا ، وتخشى فرنسا إذا أصرت إيطاليا على إرسال حملتها إلى تونس أن يتسع عليها الخرق فى الجزائر فى وقت كانت لا تزال قواتها مشغولة بالدفاع الأهلى فى داخل فرنسا ذاتها ، فقرر الايطاليون الإقلاع عن هذا الغزو ؛ ولو أنه كان من أسباب هذا العدول أيضا خوف الايطاليين أنفسهم من الأسطول العثمانى الذى هددت تركيا بأنه سوف يكون على قدم الاستعداد لمقابلة الايطاليين عند (لاجوليته) ولذلك كان شعور الايطاليين بالخيبة عظيما عند ما وجدوا الفرنسيين يرسلون جيوشهم إلى تونس ويحتلونها فى عام ١٨٨١ من غير أن تحرك بريطانيا أو ألمانيا ساكنا ، وكانت دهشة الايطاليين كبيرة لأنهم ما كا وا يعرفون أن (تونس) كانت الثمن الذى نالته فرنسا فى نظير موافقتها على استيلاء انجلترة على (قبرص) . فعقدت فرنسا مع باى تونس معاهدة (باردو) فى ١٢ مايو ١٨٨١ ، واستطاعت أن تحتل البلاد من غير معارضة .

فاشتد حنق الطليان على فرنسا . واستقالت الوزارة الايطالية بعد يومين فقط (١٤ مايو) ووقعت حوادث مؤسفة كثيرة . وفى يولية نصحت الصحف الايطالية البلاد بأن تجعل كل اعتمادها فى المستقبل على دول الوسط الاوروبية — ألمانيا والنمسا — حتى تحصل على مؤازرة هاتين الدولتين فى تأييد مصالحها فيما وراء البحار . ولما كان من سياسة بسمارك اجتذاب إيطاليا إلى المحالفة التى عقدها مع النمسا (فى ٧ أكتوبر ١٨٧٩) — وهى المحالفة التى ظلت كما يقول أحد المؤرخين ، محور العلاقات الدولية الأوروبية من ذلك الحين إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) — فقد مهد لاجتماع ناجح فى فينا فى أكتوبر ١٨٨١ بين همبرت الأول ملك إيطاليا وفرنسوا جوزيف أمبراطور النمسا .

وفى ٢٠ مايو من العام التالى عقدت الدول الثلاث إيطاليا والنمسا وألمانيا المحالفة الثلاثية المشهورة . فجاء انضمام ايطاليا إلى النمسا عدوتها القديمة التاريخية فى محالفة مؤذنا ببداية سياسة المحالفات التى صارت إيطاليا تعتمد عليها فى دبلوماسيتها . وبعد تجارب الحوادث السابقة كان انضمام إيطاليا إلى المحالفة الثلاثية بمثابة الاعتراف الصريح بأنها لاتستطيع مادامت منفردة تحقيق مآربها ، كما أن دخولها فى المحالفة إلى جانب مجموعة من الدول لاتربط إيطاليا بها أواصر صداقة قديمة ، ولايزال بين ايطاليا وبين النمسا خصوصا من أسباب النزاع ما يجعل هذه المحالفة غير مستقرة ، كان يدل على أن إيطاليا إنما رضيت بذلك كله حتى تتمكن من استخدام هذه المحالفة فى تعزيز سمعتها السياسية والضغط على فرنسا وهى الدولة التى كانت تقف حجر عثرة فى طريق توسعها فى أفريقية الشمالية .

وليس هناك شك فى أن المحالفة الثلاثية قد عززت مركز إيطاليا ، ولو أنها من جهة أخرى لم تساعد الايطاليين على تحقيق شيء من مآربهم فى أفريقية . ولذلك اتجه الايطاليون صوب انجلترة . وفى عام ١٨٨٥ كانت العلاقات بين هاتين الدولتين قد تحسنت لدرجة مكنت إيطاليا من احتلال مصوع على شاطيء البحر الأحمر الافريقى وفى الأعوام التالية شغلت إيطاليا بتأسيس امبراطوريتها فى ارتريا (١٨٩٠) ، ثم طفق رئيس حكومتها (كريسپي) يعمل من أجل الاستحواذ على الحبشة ، ولكن الأحباش استطاعوا فى النهاية تبديد هذه الأحلام الجميلة عندما أنزلوا بالايطاليين هزيمة قاصمة فى موقعة (عدوة) المشهورة فى أول مارس ١٨٩٦ ، فكان لهذه الهزيمة دوى عظيم سقطت على أثرها وزارة (كريسپي) ، ثم التجأت فلول الايطاليين إلى (الارتريا) التى انكمشت مساحتها كثيراً فى معاهدة سبتمبر ١٩٠٠ . وبعد خمس سنوات من هذه الحوادث كان كل ما حصلت عليه إيطاليا فى هذه الأنحاء الاضطلاع بأعباء الإدارة فى بلاد الصومال التى بسطت عليها حمايتها (١٩٠٥) .

وأمام هذا الفشل الذريع فى الحبشة ، وبمجرد أن انهارت آمال الايطاليين فى انشاء امبراطورية أحلامهم فى أفريقية الشرقية ، اتجهت أنظارهم من جديد إلى أفريقية الشمالية . ولما كانت فرنسا هى منافسة إيطاليا الكبيرة فى هذه الأقطار ، فقد أدرك الطليان أنهم لا يستطيعون تحقيق مآربهم إذا ظلوا فى خلاف معها ، ولم تلبث أن تضافرت عوامل عدة لإحلال الوئام محل النزاع والتقريب بين وجهتى النظر . فان الرأى العام فى ايطاليا كان شديد الميل إلى التقرب والتفاهم مع الدولة الديموقراطية اللاتينية (فرنسا) ، وينفر من المحالفة مع ألمانيا والنمسا ، أضف إلى هذا أن المحالفة الثلاثية — وهى التى صار تجديدها لمدة عشر سنوات أخرى فى ٢٠ فبراير ١٨٨٧ — كان لا يمكن أن تحقق مطالب الايطاليين القومية . فان النمسا كانت لا تزال تحتل « الأراضى غير المحررة » فى تريستا وترنتينو . ولم يقم دليل ما — على الرغم من المحالفة — على أنها كانت تنوى وقتئذ اخلاءها . ولذلك كانت المحالفة الثلاثية من وجهة نظر الايطاليين عديمة الفائدة من هذه الناحية . ولما كان هؤلاء قد أفادوا من الأثر الذى أحدثه انضمامهم إلى جانب الدول الأوروبية العظيمة واستخدموا مؤازرة ألمانيا الدبلوماسية خصوصاً فى تعزيز علاقاتهم مع الدول الأخرى ومع فرنسا فقد استطاعوا تسوية خلافاتهم تدريجيا مع هذه الدولة الأخيرة ؛ ثم لم يكد يمضى عامان على هزيمة (عدوة) حتى كانت ايطاليا قد أوقفت حربها الجمركية مع فرنسا (١٨٩٨) . واعترفت الجمهورية من ناحيتها بادعاءات ايطاليا على طرابلس الغرب فاصبح ظاهرا أن الدولتين اللاتينيتين تعيشان فى وئام كامل .

وعلى ذلك عقد الفريقان فى ديسمبر ١٩٠١ اتفاقاً تناول شئون البحر الأبيض المتوسط أصبحت بمقتضاه برقة وطرابلس منطقة نفوذ إيطالية ، وتعهدت فرنسا بالتزام خط الحدود الذى أوجده تصريح لندن فى ٢١ مارس ١٨٩٩ فاصلا بين منطقتى نفوذهما وممتلكاتهما فى أفريقيـــة الغربية على نحو ما سبق ذكره . وفى نظير ذلك وافقت إيطاليا على إطلاق يد فرنسا فى مراكش ، وكانت إيطاليا فى المدة الأخيرة تظهر شيئاً من النشاط المضر بمصالح الفرنسيين فى المغرب الأقصى . ثم لم يلبث هـذا الاتفاق أن تعزز فى بداية عام ١٩٠٢ عندما أعلن السفير الفرنسى فى خطاب ألقاه فى رومة : « إن قيـام نضال بين الأمتين اللاتينيتين قد أصبح مستحيلا ! » ثم توثقت أواصر الصداقة بين إيطاليا وفرنسا فى الأعـــوام التالية ، واستطاعت إيطاليا فى ذلك الحين أن توجه كل اهتمامها إلى الأقطار الليبية ، وعندما وقف السنيور (تيتونى) Tittoni فى مجلس الشيوخ الإيطالى فى عام ١٩٠٤ معلناً أن الدول قد اعترفت بالوضع الممتاز الذى تتمتع به إيطاليا فى طرابلس ، لم تعترض على قوله دولة من الدول ، وأضاف (تيتونى) أن حكومة الملك فكتور عمانويل ! إنما تمتنع عن تنفيذ حقوقها باحتلال هـذه البلاد عسكرياً رغبة منها فقط فى أن يجىء الوقت الذى تجعل فيه الظروف هذا الاحتلال أمراً لامفر منه فى النهاية ، ذلك أن بسط حماية إيطاليا على طرابلس ضرورة لا غنى عنها من أجل المحافظة على التوازن فى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك فإن كل ما يطلبه (تيتونى) من الباب العالى فى هذه الآونة هو أن يمنح الإيطاليين تسهيلات تشجعهم على المضى فى نشاطهم التجارى والاقتصادى فى هذه الولاية العثمانية .

والواقع أن إيطاليا سرعان ما صارت تنظر إلى برقة وطرابلس كما لو كانت هذه البلاد مقاطعات غـير عثمانية ، وتخضع لنفوذ الإيطاليين حقيقة ، وصار يسوءها أن تصبح لدولة أخرى مصالح كبيرة فى ليبيا . فشكت صحافتها مثلا فى عام ١٩٠٦ من سيطرة الفرنسيين تدريجياً على طرق المواصلات بين طرابلس ودواخل البـلاد وهى ـ أى الطرق ـ التى يتوقف عليها رخاء هذه الأقطار فى المستقبل ، فقالت (الجورنالى ديتاليا) فى ٢٤ سبتمبر من العـام نفسه أنه « سوف ينجم عن ذلك عنـد ما يحين الوقت لتنفيذ العهود التى قطعها الفرنسيون على أنفسهم معنا فى مسألة طرابلس ، ألا نحصل نحن على شىء سوى قطعـة من العظم عارية من اللحم ! » . وكان سبب الشكوى احتلال الفرنسيين لواحة (بيلمة) الواقعة على طريق القوافل بين مدينة طرابلس وبحيرة تشاد ، مع العلم بأن هذه الواحة كانت تقع فى الحقيقة فى دائرة النفوذ الفرنسى حسب اتفاق عام ١٨٩٩ .

وفى عام ١٩٠٨ أخذ الشك يساور إيطاليا من نوايا الألمانيين الذين قوى نفوذهم فى

الآستانة عقب حوادث الانقلاب الدستورى المشهور فى تركيا بسبب ما كان يظهره السفير الألمانى فى الآستانة من ضروب التشجيع لأعضاء (لجنة الاتحاد والترقى) الذين تم على أيديهم هذا الانقلاب ، لأن إيطاليا قبل قيام هذه الثورة كانت فى نزاع مع حكومة السلطان العثمانى بسبب الصعوبات التى ادعت أن رجال الدولة كانوا يلقونها فى طريق رعايا إيطاليا لمنعهم من امتلاك العقارات الثابتة فى أنحاء الدولة ، ثم لم تلبث الحكومة الإيطالية أن قامت بمظاهرة بحرية مكنتها من تسوية مشاكلها بطريقة تكفل لها مصالحها فى النهاية ، ومن ذلك اعتراف تركيا (بمكتب البريد) الذى أنشأته إيطاليا فى بنغازى تحت حماية أساطيلها .

وفى فبراير ١٩١٠ ظهر تمسك إيطاليا بنفوذها فى طرابلس الغرب لدرجة أنها كانت تعتبر هذا القطر « أرضاً إيطالية » حقيقة ، عندما أثير فى البرلمان الايطالى موضوع « اعتداء » فرنسا على الحدود الطرابلسية . بل كان طريفاً حقاً أن يحتج الطليان فيما بعد على الحكومة العثمانية لإرسالها « نقالات عسكرية » إلى طرابلس عند تفاقم الحالة ، فأشار وزير الخارجية الايطالية فى إنذاره النهائى الذى تضمن إعلان الحرب على تركيا إلى « النتائج والأخطار » التى تجمت عن ذلك . وفى أثناء الحرب عند ما « جعلت الظروف احتلال إيطاليا لهذه البلاد عسكرياً أمراً لا مفر منه » رفعت إيطاليا عقيرتها بالاحتجاج مرة أخرى ضد خداع ومراوغة فرنسا وانجلترة ، وهما الدولتان اللتان وافقتا على ادعاءات إيطاليا فى طرابلس الغرب . لأن هاتين الدولتين أعلنتا حكومة رومة فى ديسمبر ١٩١١ بأن الفرنسيين احتلوا واحة (جنات) بينما ضمت الحكومة المصرية خليج ومرفأ السلوم بموافقة السلطان العثمانى ، فقد اعتبرت إيطاليا هذين العملين اعتداء صريحاً على « أملاكها » ، وكتب أحد ساستهم المشهورين السنيور (سيرمانى) : « أن السلوم جزء من برقة التى أعلنت إيطاليا وضعها تحت سيادتها الكاملة ، فكيف يتسنى لانجلترة ومصر أن تقبلا السلوم هدية من السلطان العثمانى ، وما معنى هذا التغيير المستمر الذى يحدث فى الحدود المصرية ضد مصلحة برقة والحرب الإيطالية العثمانية لا تزال دائرة ؟ ؟ » . وأما واحة (جنات) فقد أرسل الفرنسيون لاحتلالها بعض جنودهم فى الجزائر فاستولوا عليها فى ٢٧ نوفمبر ١٩١١ بدعوى أن إخلاء الجند العثمانيين لمراكزهم الجنوبية فى غات وغدامس منذ نشوب الحرب الإيطالية الليبية للانضمام إلى القوات المحاربة فى الشمال سبب اضطراب الأمن فى هذه الجهة ، وتبعد (جنات) نحو المائة كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من غات .

والواقع أن إيطاليا منذ أن اطمأنت إلى إطلاق يدها فى طرابلس الغرب « بموافقة الدول العظيمة » شرعت تعد العدة لتنفيذ مآربها الاستعمارية ، وكانت وسيلتها فى ذلك العمل

من أجل نشر النفوذ الإيطالي وتعزيزه في برقة وطرابلس حتى إذا أتمت استعدادها وصلحت أحوالها الداخلية وقويت جاليتها في الأقطار الليبية وجاءت الظروف التي تجعل الاحتلال أمراً لا مفر منه ، أقدمت إيطاليا على إرسال جيوشها إلى هذه البلاد لاحتلالها .

وتنوعت أساليب الإيطاليين في نشر دعوتهم في برقة — طرابلس وتعددت ، فاستطاعوا تحت ستار الخدمة الإنسانية ونشر العلم أن ينشئوا في مدينة طرابلس وغيرها طائفة من المدارس التي علمت لغتهم ودينهم ونشرت ثقافتهم وعاداتهم ، ثم لم يقصروا التعليم بهذه المدارس على الذكور بل أشركوا فيه الأناث ، وجعلوا التعليم بالمجان حتى لا يتحمل أبناء العرب وبناتهم شيئاً من نفقات تعليمهم ؛ ثم سرعان ما صاروا ينشئون إلى جانب هذه المدارس المستشفيات والملاجيء الصحية للمرضى والعاجزين للقيام على راحتهم وعلاجهم من غير نفقة ثم اتخذوا من الاهتمام بالبحوث العلمية والجغرافية ستاراً لدراسة طبيعة الأقطار الليبية استعداداً للغزو ، فأرسلوا جملة بعثات لهذه الغاية ، كانت آخرها تلك التي ترأسها (الكونت سفورزا) للتنقيب عن معدن الفوسفات ، وانضم إليها ضباط من هيئة أركان الحرب الايطالية ، فاستطاع أعضاؤها أن يضعوا المصورات والخرائط الحربية ، وأن يقوموا بدراسة حالة الأرض دراسة كاملة ، لأن هذه البعثة المشئومة على البلاد ظلت في الحقيقة تقوم بمهمتها المزعومة وتضرب في أنحاء البلاد إلى وقت إعلان الحرب ؛ ولكن أعضاءها لم يتمكنوا من الافلات في النهاية فانكشفت حقيقة أمرهم أمام الجميع .

وكذلك اتخذ الطليان من الرغبة في تعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية بين بلادهم وبين الأقطار الليبية ذريعة لإرسال العدد الكبير من أبنائهم ورجالهم للتجارة وإنشاء المصانع والمعامل التي كانت في الواقع أشبه بالحصون ومخازن الذخيرة منها بأي شيء آخر ، وعندما حصل الايطاليون من الحكومة العثمانية في عام ١٩٠٥ على امتياز بإنشاء فرع لبنك دي روما في طرابلس وبرقة صارت مهمة هذا الفرع في الحقيقة نشر الدعاية الايطالية والتجسس على أحوال البلاد والأهلين في ليبيا . ثم استفادت الحكومة الإيطالية من نظام الامتيازات المعمول به في أنحاء الامبراطورية العثمانية فأنشئوا في إيالة طرابلس الغرب (في بنغازي) مكتباً للبريد يرسلون بواسطته مايريدون من رسائل وتقارير من غير رقابة ؛ وقد سبق أن ذكرنا كيف اضطرت الحكومة العثمانية إلى الاعتراف رسمياً بوجود هذا المكتب .

بيد أن الذي ساعد الايطاليين على ذلك كله هو وجود الحالة السيئة التي سببت الفوضى والارتباك في شئون الدولة العثمانية قبل حدوث الانقلاب الدستوري (في عام ١٩٠٨) فلم تلق الولاية أي عناية أو اهتمام من جانب السلطات الحكومية في الآستانة ؛ وأساء المسئولون

اختيار الحكام ورجال الادارة فى طرابلس الغرب ، ومع أن السنوسيين كانوا هم الذين وقع على كواهلهم وحدهم عبء الحكومة فى داخل البلاد خصوصا ، فقد اشتطت السلطات العثمانية فى السنوات الأخيرة فى معاملتهم وضيقت عليهم ، وذلك لخوف الدولة من الاشتباك مع الفرنسيين فى نضال من جهة ، ولأن السلطان عبد الحميد على الرغم من الخطة التى اتخذها مع السيد المهدى كان لايزال يبطن الشك فى نيات السنوسية ويخشى من استفحال أمرها لدرجة قد تهدد (خلافته) ؛ وزادت هواجسه فى أخريات أيامه خصوصا بعد وفاة السيد المهدى . ومع أنه كان من المنتظر أن تتبدل الأحوال بزوال حكومة عبد الحميد المستبدة ، فإنه سرعان ما خابت ظنون محبي الاصلاح وذوت آمال أولئك الذين توقعوا الخير من حدوث الانقلاب العثمانى ، لأن الاتحاديين الذين قاموا بهذه الثورة سرعان ما أثاروا غضب العناصر التى كانت تتألف منها الامبراطورية عندما أرادوا « تتريك » هذه العناصر ، ولأنهم مالبثوا أن رجعوا إلى الأساليب الماضية — كالرشوة وما إليها — فى حكومتهم حتى قامت فى أنحاء الدولة جملة ثورات امتد لهيبها من بلاد العرب إلى ألبانيا .

أضف إلى هذا أن جمعية الاتحاد والترقى التى استأثرت بالسلطة بعد فوز الثورة (فى يولية ١٩٠٨) كانت تغفل عمداً شئون الولاية ؛ بل صرح زعماء الاتحاديين غير مرة « بأقوال تدل على أنهم لا يريقون دم عسكرى واحد لصيانة ولاية طرابلس الغرب فى إيطاليا أو فرنسا أو غيرها من الدول» . وكانت هذه الجمعية قد عقدت اجتماعا فى سالونيك بحث فيه مندوبوها مسألة طرابلس الغرب ، فقر رأيهم على عدم تحصين أساكلها أو اتخاذ التدابير التى تصون الولاية من أى عدوان مفاجىء ، كما قرروا عدم إثارة هذه المسألة كلية فى مجلس المبعوثان . ثم نشرت جريدة (طنين) لسان جماعتهم مقالا على أثر قرارهم هذا جاء فيه : « أن ولاية طرابلس الغرب هى من الولايات التى لاتفيد الدولة فائدة مالية يعتد بها فيجب على الحكومة العثمانية الاقتصاد فى الإنفاق على هذه الولاية التى لم يندمج أهلها اليوم فى سلك الجندية » ثم وصفت أهل الولاية بالجهل وحذرت منهم الحكومة كل تحذير . وعندما تسلمت أزمة الحكم باستانبول وزارة ابرهيم حقى باشا الضعيفة — ويعتقد كثيرون أنه كان متواطئا مع أعداء الدولة وخصوصا الطليان الذين ربطتهم به روابط عديدة ، منها زواجه من إيطالية وشغفه بلعب الورق مع أصدقائه الايطاليين ، وخضوعه لسلطان الذهب ! — ضاع كل أمل فى أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئا من عناية الدولة واهتمامها بها .

فمع أن حكومة السلطان عبد الحميد كانت تدرك تماما خطورة المطامع الايطالية فى طرابلس الغرب وعملت جادة من مدة على اتخاذ الأهبة لرد أى اعتداء على الولاية ، وأرسل

اليها السلطان قائدا من خيرة قواده ، هو المرحوم رجب باشا الذى ، أطلقت يده فى شئون الولاية الادارية والعسكرية . فمرن أهلها على الأصول الحربية وفرق على شبانها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها ، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر ، حتى أصبح عدد الجيش المرابط فى طرابلس حوالى الخمسة عشر ألفا وهذا عدا الفرق غير النظامية (قول أوغلى) من الأهلين العرب ، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفا ومهمتهم معاونة الجيش النظامى ، فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات ، وشرعوا ينزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين المسلمين قد يقومون فى وجه الحكومة إذا طلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية . وانتهزت وزارة حقى باشا فرصة استفحال أمر الثورة فى اليمن فسحبت معظم جيشها النظامى من طرابلس الغرب لاستخدامه فى اخماد هذه الثورة ؛ على أنها لم تكتف بذلك ، بل أهملت كل الاهمال الفرق الأهلية ، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من الخمسة آلاف مقاتل فقط . ومع أن الطرابلسيين — أهل طرابلس وبرقة — ظلوا يطلبون الانتظام فى سلك الجندية بعد إعلان الدستور العثمانى ، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ماطلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الايطالى بفترة قصيرة ، ولم تبدأ الاجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها ، وزيادة على ذلك فقد نقلت الحكومة العثمانية حوالى الأربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهلون عند الطوارىء ؛ ثم لم تفعل شيئا من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها .

وظل الحال على ذلك حتى قبيل وصول الإنذار الإيطالى بأيام قليلة فقط ، إذ أرسلت الدولة إحدى النقالات العسكرية — درنة — تحمل كمية من البنادق والخرطوش إلى ميناء طرابلس ، وهى النقالة التى احتج الإيطاليون على أرسالها على نحو ماتقدم .

أضف إلى هذا أن الحكومة أهملت شئون البلاد الاقتصادية فتدهورت الحال من سيىء إلى أسوأ حتى أمحلت الأقطار الليبية منذ أربعة أعوام تقريبا ، وارتفعت أثمان حاجيات المعيشة ارتفاعا فاحشا ، فبات الأهلون من جراء الغلاء والجدب فى ضنك وبلاء عظيمين ومع هذا لم تفعل الحكومة العثمانية شيئا لتخفيف حدة هذه الأزمة الخانقة التى تركت الأهلين يتضورون جوعا حتى اضطر كثيرون إلى الهجرة إلى تونس والبلاد الأخرى ، بينما ازدحمت عاصمة الولاية بالشيوخ والأطفال والنساء والمرضى يلحون فى طلب الخبز والقوت . ومات من الجوع عدد كبير منهم والحكومة لاتبدى حراكا لتخفيف ويلات القحط والمرض .

ويحمل المعاصرون مسئولية ذلك وزارة حقى باشا بالاستانة ، فان هذه الوزارة لم تقنع

بارتكاب هذه فقط ، بل عمدت أيضا إلى تجريد البلاد من الموظفين الأكفاء الخبيرين بلغة الأهلين وعاداتهم والملمين بجغرافية الأقطار الليبية وطبيعة أرضها ؛ كما أنها استدعت القواد العثمانيين المحنكين الذين كانوا يشرفون على استحكامات الولاية ونظام الدفاع بها ، وحدث هذا قبيل بداية الاعتداء الإيطالى بفترة قصيرة ، وذلك على الرغم مما كان يحذرها منه سفير تركيا فى إيطاليا حسين كاظم بك الذى أخطر هذه الوزارة منذ يناير ١٩١١ بنوايا الطليان الحقيقية وتدابيرهم الخفية من أجل الإغارة على طرابلس الغرب ؛ فكانت وزارة الخارجية العثمانية تضرب بهذه التحذيرات عرض الحائط وتهمل تقارير سفيرها ولا تفحصها ؛ بل إن حقى باشا لم يلبث أن استقدم إلى الآستانة والى طرابلس وقتئذ إبراهيم باشا بدعوى أنه كان يقسو فى معاملة الإيطاليين حتى استحق سخطهم ثم أمعن حقى باشا فى الاستهتار بمصالح الدولة ، فلم يعين الباب العالى واليا غيره ، مع أن ابراهيم باشا هذا كان دائب النشاط ولا يدع فرصة تمر دون أن يحذر دولته من نوايا إيطاليا ويبين حقيقة مطامعها فى الأقطار الليبية ؛ وهكذا كانت البلاد عند بداية العدوان الايطالى من غير وال أو حاكم يسوس أمرها ويدبر شئونها ، ثم أفلحت ايطاليا فى تضليل رجال الوزارة العثمانية وعلى رأسهم الصدر الأعظم ابراهيم حقى باشا الذى اتهم بالتواطؤ مع أعداء الدولة ، فكانوا جميعا لا يتوقعون أى سوء من جانب إيطاليا ، بل وجدوا فى تصريحات الحكومة الايطالية فى مناسبات عدة مسوغا لهذا الاطمئنان ، خصوصا وأن وزير خارجيتها الماركيز دى سان جيليانو San Guiliano كان قد ردد فى مجلس النواب الايطالى فى ٩ يونية ١٩١١ قول أحد وزراء ايطاليا السابقين « أن سياسة ايطاليا الخارجية كانت تسترشد دائما بقاعدة لا تتغير ، ليس فقط فيما يتعلق بأوربا بل وبأفريقية أيضا ، هذه القاعدة هى أن المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية أمر واجب الاحترام ومقدس » ثم أضاف ، « ولم تتغير الأسباب التى دعت سلفى إلى إصدار هذه التصريحات ! » . ولذلك كانت دهشتهم عظيمة حقا عندما فاجأتهم ايطاليا بإنذارها المشئوم فى ٢٦ سبتمبر ١٩١١ ، أى بعد أربعة أشهر فقط من تصريح وزير خارجيتها بالمحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية !!

ومع أن هذه الخطوة الغادرة من جانب إيطاليا لا تخلى وزارة حقى باشا من مسئولية ضياع طرابلس الغرب ، لأن أطماع الايطاليين فى هذه البلاد كانت معروفة مشهورة ولم يقصر سفراء الدولة ورجالها فى تحذيرها من نياتهم ، فلا بد من التساؤل أيضا عن الأسباب المباشرة التى جعلت إيطاليا تقدم على فعلتها فى هذه الآونة . حقيقة اختار الطليان الظرف المناسب من كل الوجوه لاعتدائهم فى وقت كانت فيه تركيا قد سحبت معظم قواتها النظامية من الولاية

وأهملت وسائل الدفاع عنها ؛ وكان الصدر الأعظم على الأقل من أصدقائها ؛ ولكن الذى سبب مخاوف الإيطاليين ، وجعل إعلان الحرب فى نظرهم « أمرا لا مفر منه فى النهاية » رواج الشائعات بأن « دولة ثالثة » سوف تفيد من توسطها بين الأتراك والفرنسيين من أجل الوصول إلى تسوية مسألة الحـــدود بين تونس وطرابلس بالطرق السلمية . وتفصيل ذلك أن تركيا وافقت على تشكيل لجنة فرنسية تركية لبحث هذه المسألة نتيجة لتوسط الحكومة الألمانية التى طمعت فى أن تنال مكافأة على توسطها واستخدام نشاطها فى مصلحة العثمانيين (مرسى طبرق) أو أى مرفأ آخر فى طرابلس الغرب يصلح لأن يكون محطة لتزويد السفن الألمانية بالفحم والوقود فى البحر الأبيض المتوسط فلمست إيطاليا فى ذلك خطرا يقضى على مصالحها وادعاءاتها فى طرابلس ، وقررت العمل فورا وقبل خروج هذه البلاد من دائرة نفوذها نهائيا ؛ وعندئذ أرسلت إيطاليا إنذارها إلى الباب العالى ، وحددت أربعا وعشرين ساعة فقط لوصول جواب الباب العالى على هذا الإنذار « عن يد السفير العثمانى فى رومية » .

وكان الإنذار الايطالى كما هو منتظر شديد اللهجة ، اتهمت فيه إيطاليا الحكومة العثمانية بأنها « كانت حتى الآن تبدى عداء دائما نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنغازى ، حتى أصبحت الحالة فى طرابلس الغرب « عظيمة الخطورة بسبب التحريض العام ضد الرعايا الطليان » . لكل ذلك . ولما باتت لا تجدى نفعا أية مفاوضات للوصول إلى تسوية ودية أو إعطاء إيطاليا أية إمتيازات من أجل إنهاء هذه الأزمة المختلقة ، « فقد رأت الحكومة الإيطالية نفسها — كما قالت — مرغمة على المحافظة على شرفها ومصالحها ولذلك قررت أن تحتل طرابلس وبنغازى احتلالا عسكريا ، وهى « تنتظر أن الحكومة السلطانية تصدر أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ، وألا تجد صعوبة فى إنفاذ ما تريد إنفاذه ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة » .

ولما كانت وزارة حقى باشا غير مستعدة للحرب ، ولا يزال يرجو أعضاؤها الوصول إلى تسوية سلمية مع إيطاليا على أساس إعطاء هذه الدولة جميع ما تطلبه من امتيازات اقتصادية « لا يحد من مداها سوى ما يتطلبه شرف الإمبراطورية [العثمانية] ومصالحها العليا والمعاهدات السارية » ، فقد أرسل الباب العالى جوابه على هذا الإنذار فى ٢٩ سبتمبر ، وكان جوابا يحمل طابع الذل والمسكنة ، تنصلت فيه الحكومة العثمانية من مسئولية أية أعمال « كانت نتيجة الحكم الماضى ، ونفت أنها تريد تعطيل المصالح الإيطالية ، وطلبت فتح باب المفاوضة لارضاء رغائبها . وغنى عن البيان أن هذا الجواب لم ينل موافقة إيطاليا ، فذهب ممثلها إلى الصدر الأعظم وسلمه فى مساء اليوم نفسه بلاغ إعلان الحرب ؛ وأصدرت الحكومة الإيطالية بلاغا آخر فى رومة فى الوقت نفسه يعلن قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية وفى يوم ٣٠

سبتمبر ١٩١١ نشرت جريدة (التيمس) الانجليزية بيانا من مصدر إيطالى مسئول يسرد الأسباب والوقائع التى تذرعت بها إيطاليا لاعلان الحرب على تركيا ، ومنها إهانة الراية الايطالية ، وتعطيل نشاط الإيطاليين التجارى والعلمى فى ليبيا ، ومساوىء نظام الحكم العثمانى نفسه فى عهد الاتحاديين ، هذا عدا حوادث القتل والاعتداء التى ذهب ضحيتها كثيرون من الطليان وكذلك نشرت التيمس فى اليوم نفسه بيانا من مصدر تركى مسؤول عن أسباب هذه الأزمة ، وفى يوم ٣ أكتوبر ١٩١١ أطلق الأسطول الإيطالى قذائفه على ميناء طرابلس وبذلك بدأت الحرب الليبية — الايطالية .

* * *

أحدث الاعتداء الإيطالى دوياً عظيما تردد صداه فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية والعالم الإسلامى ، وعند ما أعلن الطليان الحرب على تركيا اجتمع فى أول أكتوبر عدد كبير من أعضاء مجلس المبعوثان العثمانى ، وأنابوا عنهـــم وفداً قابل السلطان ، فألقى فيهم خطاباً استنكر فيه اعتداء ايطاليـا الفظيع ، وذكر أنه « عند ما زار ادرنة وسالونيك مفتش على الاستحكامات بهما وأحب أن تكون جميع استحكامات السلطنة على شاكلتها من المنعة، ولكن أمر طرابلس من ذلك قد أهمل بإهمال وعدم يقظة وزارة حقى باشا»وكان السلطان محمد رشاد قد أراد أن يجمع مجلس المبعوثان فعارضته وزارة حقى باشا التى كانت مسيرة بإرادة جمعية الاتحاد والترقى . وعظم استياء السلطان من الوزارة وتألب الرأى العالم التركى ضدها حتى اضطر حقى باشا إلى الاستقالة ، وتألفت وزارة جديدة كان أول ما عنيت به إرسال الكتب إلى حكومات أوربا تطلب توسطها لفض النزاع القائم وحقن دماء البشر ، كما أبرق السلطان فى ٢ أكتوبر إلى ملك انجلترة وإمبراطور المانيا يطلب إليهما التدخل ، كما بعث بذلك أيضا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية وبقية الملوك والقياصرة ولكن من غير جدوى ، إذ اعتذرت كل هذه الحكومات عن التدخل . وعندئذ أفاقت الدولة العثمانية من غفوتها وظهر جليا أنه عليها وحدها فقط تقع مسوئلية رد اعتداء الطليان والدفاع عن أملاكها .

وفى هذه الأثناء كان هياج الخواطر فى العالم الإسلامى قد بلغ ذروته . فأبرق إمام اليمن (جلالة الإمام يحيى حميد الدين) عن « استعداده للقيام بمائة ألف جندى تحت قيادته بين محارب ومتطوع » ، وأبرق أمير مقاطعة نجد (الأمير عبد العزيز بن سعود) يقول « إن مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية .. وأنه وجميع القبائل التى تحت أمره مستعدون للزحف فى ظل الأعلام العثمانية إلى حيث تأمرهم الدولة العلية » ، وجاء كثيرون من أبناء البلاد الإسلامية للتطوع فى الجهاد فى طرابلس الغرب ضد إيطاليا المعتدية . وزاد عدد هؤلاء المتطوعين تدريجيا حتى بلغوا فى بداية العام التالى (١٩١٢) حوالى الستة عشر ألفا .

وتألفت لجان الإعانة لمساعدة المنكوبين وأرسلت البعثات الطبية إلى ميادين القتال فى طرابلس وبرقة . وكان المصريون من أسبق الشعوب التى بذلت المعونة للمجاهدين العرب فى ليبيا ، فتشكلت اللجان لجمع التبرعات ، وكانت أهمها اللجنة العليا التى تأسست بعد وقوع الاعتداء الإيطالى بأيام قليلة (١٤ أكتوبر ١٩١١) برئاسة المغفور له الأمير عمر طوسن ، كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة المرحوم الشيخ على يوسف ، وقررت إنشاء عدة مستشفيات ميدان ، ثم سافرت البعثة الأولى فى ٧ نوفمبر ، وتوالى إرسال البعوث الطبية بعد ذلك .

وكانت أهم الأسباب التى دعت آلاف المسلمين إلى التطوع فى صفوف المجاهدين قوة الرابطة التى دفعت بهذه الشعوب الإسلامية إلى التكاتف والتساند فى وجه العدو المعتدى وعلى الخصوص عندما وقع هذا الاعتداء على قطر من أقطار دولة الخلافة الإسلامية وكان المسلمون متحفزين وقتئذ للانتصار دائماً لدولة الخلافة ويقبلون على الجهاد من أجل المحافظة على كيانها لأنهم توقعوا من سقوطها وانحلالها ضياع الكلمة وضعف القوة ؛ ولم يكن العرب قد استعدوا بعد لإنشاء دولة عربية متينة الدعائم لتكون مركزاً للامامة العظمى ، كما كان يخيفهم ويزعجهم شبح الاستعمار الأجنبي ويشفقون على قطر عربى شقيق من الوقوع فى براثنه . أضف إلى هذا أن الإيطاليين سرعان ما أظهروا فى أثناء المعركة الأولى والتالية أنهم لا يتورعون عن ارتكاب أقسى أنواع الفظائع ضد الأهلين فى أى مكان نزلوا به بغية الظفر باعدائهم والتنكيل بهم لإرغامهم على ترك المقاومة والرضا بالتسليم السريع .

والجرائم التى ارتكبها الطليان فى أثناء هذه الحملة كثيرة ، لعل أشهرها وأسوأها ذكرا ما فعله هؤلاء بأهل (المنشية) شرقى مدينة طرابلس فى ٢٣ أكتوبر ١٩١١ فقد أعمل الايطاليون فى الأهلين السيف وأوقعوا بهم مجزرة كبيرة لم ينج منها طفل أو شيخ أو امرأة وأباح الجنرال (كانيفا) قائد الحملة البلدة ثلاثة أيام لجنوده حتى يبيدوا منها العرب وامتدت فظائع الطليان إلى غيرها ، وتعود الجند إطلاق الرصاص عبثاً ولهواً على الأهلين أينما صادفوهم لا ينجو من أيديهم عربى حتى ضجت الانسانية من أعمالهم ، وقابل العالم فظائعهم بالاستنكار والسخط ، واحتجت الحكومة العثمانية على ذلك كله بمذكرة أرسلتها إلى الدول العظمى فى ٣ نوفمبر ١٩١١ ، واحتجت كذلك الجمعيات والهيئات ومنها الجمعية المصرية على لسان رئيسها الأمير عمر طوسن رحمه الله ، وكان مما زاد الطين بلة أن أيطاليا لم تلبث أن أعلنت فى ٦ نوفمبر ١٩١١ ، أنها تضع طرابلس وبرقة تحت سيادة المملكة الايطالية الكاملة والمطلقة ، ثم أبلغت ذلك رسمياً إلى الدول لإقراره ، ولم يغن شيئاً احتجاج تركيا أو استنكار العالم الإسلامى لهذا العدوان الصارخ .

وأما الأتراك ، فإنه بمجرد وقوع الحرب ، وتبينهم أنه لا مناص من القتال فى النهاية من أجل الدفاع عن القطر الذى أهمله أولو الأمر منهم زمنا طويلا ، فقد شرعوا يرسلون إلى طرابلس الغرب نخبة من ضباطهم الترك والعرب لتنظيم الدفاع ؛ فكان من بين هؤلاء أنور بك الذى تولى القيادة العامة فى برقة ، ومصطفى كمال بك (كمال أتاتورك) كما تطوع عدد من الضباط والشبان العرب الذين أنشئوا فى الآستانة بعد إعلان الدستور العثمانى الجمعيات والنوادى السياسية لإعلاء شأن الأمة العربية فى نطاق الامبراطورية العثمانية .

وكان من بين هؤلاء المتطوعين ، تحسين العسكرى الذى تخرج ضابطا برتبة ملازم ثان فى مارس ١٩١٢ وعين فى الفيلق الأول فى الاستانة ؛ ويقول تحسين بك العسكرى فى مذكراته المنشورة عن هذه الحوادث « ولما شاهدنا الاعتداءات المتوالية على البلدان العربية قائمة على قدم وساق فى الداخل والخارج ، رأت الشبيبة العربية وفى مقدمتها عزيز المصرى أن الفرصة سانحة لها لإرسالها من يمكنه التطوع من الضباط إلى حرب طرابلس الغرب لمساعدة الشيخ أحمد (الشريف) السنوسى رئيس القبائل العربية الأفريقية بمنطقة طرابلس الغرب وحثه على تأسيس دولة عربية هناك تحت لواء سيادته وإعلان استقلالها لتكون أول دولة عربية مستقلة فى إفريقية التى كانت ولا تزال تئن تحت نير المستعمرين ، فتطوع عزيز بك المصرى وسافر متنكرا إلى جهة طرابلس الغرب ، فعين قائدا لمنطقة بنغازى ، وحذا حذوه كثيرون من الضباط الطرابلسيين والسوريين والعراقيين من جمعية العهد ، وهم شهيد الحرية الملازم صبحى الطرابلسى ، والملازم محمود حلمى الذى هو الآن فى الجيش العراقى برتبة المقدم (١٩٤٤) والملازم السيد عيسى الوترى البغدادى رحمه الله والملازم إسماعيل الطرابلسى ، وتطوعت أنا وغيرى من الضباط للالتحاق بقوة بنغازى » .

ومع هذا وقع عبء القتال ضد الطليان على كواهل المجاهدين الأوائل الذين ظلوا حتى نهاية الحرب الليبية يصمدون للطليان فى كل ميدان ومعركة ، وهم السنوسيون الذين تدفقوا من داخل البلاد زرافات ووحدانا لمؤازرة الحاميات العثمانية الضعيفة فى الشواطىء فى برقة ثم فى طرابلس أيضا ، فنجحوا فى إحياء آمال القوات العثمانية النظامية وفى إمكان الدفاع عن البلاد بعد أن كاد التردد يفضى إلى هزيمتها ، فإنه بمجرد أن بلغ استانبول خبر الهجوم الايطالى على طرابلس أصدرت الوزارة أوامرها إلى نشأت بك الذى كان نائبا عن الوالى فى حكومة البلاد بعد أن سحبت وزارة حقى باشا والى طرابلس ، ونشبت الحرب قبل أن ترسل لها غيره بأن يخلى طرابلس ويقاوم فقط خارج المدينة ثم ينسحب جنوبا إلى سهول غريان . وعندما وصلته هذه التعليمات عقد نشأت بك مجلسا من الضباط الموجودين وثلاثة من زعماء العرب

فقرروا جميعا ، ماعدا الضابط التركى نظمى بك إخلاء المدينة فورا والانسحاب . فخرجت الحكومة من طرابلس ومعها الجند بقيادة نشأت بك قاصدين جهات غريان ، وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالى بالتسليم ، وكانت إيطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل إمكان أدنى مقاومة . فلم يغير ذلك سوى قيام الزعماء الطرابلسيين ، يهددون العسكر المنسحب إلى خارج طرابلس بالقتال إن لم يصل الطليان الحرب ، ثم جعلوا يستنفرون الأهلين للجهاد فتدفق المجاهدون العرب من أقاصى الولاية والفزان ، بل ومن الواحات الجنوبية فى السودان الغربى حيث يعظم نفوذ السنوسية .

وقد حدث مثل هذا فى برقة أيضا ، لأن الإيطاليين الذين أطلقوا قنابلهم على درنة وطبروق وبنغازى (إلى جانب طرابلس والخمس) استطاعوا أن يحتلوا هذه المرافىء تحت حماية أساطيلهم . وأكرهوا الحاميات العثمانية الضعيفة على الانسحاب إلى الداخل . فكان تدفق المجاهدين السنوسيين على المعسكرات العثمانية سببا فى صمود هؤلاء فى وجه المعتدين الطليان حتى حضر أنور بك ورفاقه ، وتولوا تنظيم الدفاع عن هذه البلاد بمؤازرة السنوسيين وتعضيدهم وتظهر هذه الحقائق واضحة جلية إذا ذكرنا طرفا من سير الحرب منذ نشوبها إلى وقت عقد الصلح بين تركيا وايطاليا فى أكتوبر من العام التالى (١٩١٢) .

فقد دارت رحى الحرب فى ميدانين : أحدهما فى طرابلس والآخر فى برقة .

ففى طرابلس بدأت المقاومة ضد الطليان ، قبل اعتداءات هؤلاء على ميناء طرابلس بمدة طويلة . وكان مهد هذه الحركة فى الخمس ، عندما أخذ متصرفها العثمانى الدكتور رشيد ينبه الأذهان إلى حقيقة نوايا الطليان ، ويحذر الوطنيين من نشاط (بنك دى رومه) ورغبة هذا البنك فى أن يوقع الأهلين فى شراك الديون ، حتى يتخذ الطليان من ذلك ذريعة لادعاء المحافظة على مصالحهم المالية فى البلاد . وكان أول من شعر بهذا الخطر المحدق بطرابلس أحد أبناء البلاد الغيورين ، بشير بك السعداوى ، وكان وقتئذ رئيسا لكتاب مجلس الإدارة فى الخمس ، ولقى معاونة كبيرة من الشيخ عبد الرحمن الزقلعى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، وعمل الاثنان على تعطيل الجهود التى كان يبذلها بنك دى روما لشراء الأرض وإقراض الأهلين الأموال . وعندما حضرت بعثة (سفرزا) التى سبقت الاشارة اليها ، ووصلت فى تنقيبها عن الفوسفات ، ودراسة الآثار القديمة ، إلى مدينة الخمس ، اشتدت حركة المقاومة فى الخمس ، فدعا متصرفها بشير بك السعداوى والشيخ عبد الرحمن الزقلعى واتفقوا جميعا على عقد مؤتمر يحضره مندوبون عن كل الأقضية ، فى مصراته ومسرت وزليتن ومسلاته وغيرها للاحتجاج على نشاط الطليان عموما ، وعندما انعقد هذا المؤتمر فى الخمس اتخذ الحاضرون عدة قرارات منها منع

كل معاملة مع بنك دي رومه وبيع الأراضي لهذا البنك أو اقتراض الأموال منه . ولما كان لهذا البنك سفينة تحضر للعمل بالسواحل أكثر من مرة كل شهر فقد قرر المؤتمر مقاطعتها كما طلب الأعضاء أن يأتي بريد الاستانة على ظهر سفينة عثمانية بدلا من السفينة الايطالية التي كانت تحضره في العادة . ثم أبرق المجتمعون بهذه القرارات إلى ابراهيم باشا والي طرابلس وإلى الصحف الأوروبية كالطان الفرنسية والتيمز الإنجليزية . ثم طالب بشير بك واخوانه بتجنيد الطرابلسيين بكل سرعة واستبقاء الأسلحة بأيدي الأهالي حتى يكون لدى البلاد قوة كافية تستطيع الدفاع عنها . وكانت وزارة حقي باشا على نحو ماتقدم قد سحبت معظم القوات العسكرية من طرابلس بسبب ثورة اليمن وشرعت في نزع الأسلحة من الأهالي . على أنه كان من أثر هذا النشاط الظاهر من جانب بشير واخوانه الوطنيين في الخمس ، أن صارت ايطاليا تخشى ذيوع حركة المقاومة ضدها ، وبادرت بالاعتداء المسلح على طرابلس قبل أن تستكمل البلاد استعدادها فكان اطلاق القذائف من بوارجها على ميناء طرابلس وغيره في اكتوبر ١٩١١ دون أي انذار سابق .

وكان من أثر اعتداء الطليان على طرابلس . أن زاد زعماء المقاومة في الخمس ، اصرارا على الجهاد فقامت الاستعدادات في كل مكان ، واتخذ بشير السعداوي (ساحل آل حامد) مركزاً له يرسل منه الدعوة إلى القبائل ويحثهم على الجهاد ؛ وذهب نوري بك السعداوي شقيقه ومعه الشيخ عبدالرحمن الزقلعي إلى مسلاته لإيصال الدعوة إلى داخل البلاد ؛ واحتشدت أعداد عظيمة عند الساحل ، وأنذر الطليان بشير بإطلاق القذائف على الخمس إذا امتنعت حكومتها عن التسليم . وفي الموعد المضروب ، أطلقت مدافع الأسطول قنابلها على البلدة ، وحاول الطليان النزول إلى البر ، ولكنهم عادوا أدراجهم ، وظلت المقاومة مدة أربعة أيام كاملة ، ثم استطاع الطليان النزول إلى البر ، ومع ذلك فقد ثابر المجاهدون على القتال مع ضآلة عددهم ؛ وعندئذ كانت قد تألفت جبهة للقتال في سواني بنياوم برئاسة القائد العثماني نشأت بك ، الذي تولى القيادة في ميدان طرابلس .

وكان أول مافعله نشأت بك أن أخلى مدينة طرابلس ، فاحتلها الطليان في ٤ أكتوبر ١٩١١ ، ثم انسحب على نحو ماتقدم قاصدا غريان . وكان انسحاب الأتراك أولا إلى (قرقارش) ، الواقعة غربي مدينة طرابلس ؛ وفي اليوم التالي وصلوا إلى (عين زاره) في الجنوب . ولما كانت مدافعهم من النوع القديم والثقيل ويتعذر على الجنود أخذها معهم فقد تركوها وراءهم ، واستولى عليها الطليان الذين بادروا باتخاذ مراكزهم في خط من الخنادق يمتد من القلعة السلطانية غربا إلى القلعة الحميدية شرقا في جبهة طولها عشرة أميال تقريبا .

وحدث أول اشتباك بين الايطاليين والأتراك أمام (بوملیانه) فى اكتوبر ١٩١١ ، وكانت مناوشة صغيرة . وأما العثمانيون فقد واصلوا انسحابهم جنوبا إلى (العزيزية) . وعندئذ ظهر فى ميدان الجهاد زعيمان من كبار زعماء الطرابلسيين، كان لما أبدياه من الهمة والنشاط فى استنفار العرب للجهاد الفضل فى وقف هذا الانسحاب نهائيا ، والتصميم على القتال . وهذان الزعيمان كانا سليمان الباروني وفرحات بك .

وكان فرحات بك من (الزاوية) ، تعلم فى طرابلس وتونس ، ثم فى باريس حيث قضى خمس سنوات يدرس القانون ، ثم تقلب بعد عودته فى مختلف المناصب حتى صار قائمقاما فى إحدى جهات الفزان (الشاطى) ، وبعد إعلان الدستور العثمانى ، مثل مدينة طرابلس نائبا فى مجلس المبعوثان ، وكان عند نشوب الحرب الايطالية الليبية يقضى إجازته فى (الزاوية) ، فعرض خدماته على القائد التركى ، وطلب من المشايخ مساعدة العثمانيين ، وجمع عدداً عظيما من المتطوعين من أهل الزاوية والعجيلات وزواره وذهب بهم إلى (العزيزية) فكان أول عربى جاء لنجدة العثمانيين ، وشجع وصوله مع المتطوعين نشأت بك على الوقوف فى العزيزية واتخاذها مركزاً للدفاع ، بينما بقيت (غريان) قاعدة القيادة العامة .

على أن أهم الزعماء الذين ظهروا فى هذه الآونة فى طرابلس كان بلا مراء الشيخ سليمان البارونى ، من أهل (فصّاطو) فى منطقة الجبل . ولد فى سنة ١٨٧٠ وتلقى علومه فى تونس والجزائر ومصر . وبينما كان فى مصر التحق بجمعية سرية ثورية تعمل ضد السلطان عبدالحميد فوقفت السلطات على حقيقة أمره ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة مدى الحياة . وبعد قليل صدر العفو عنه ، ولكن الجواسيس ظلوا يراقبونه فقبض عليه ثانية وحكم عليه بالسجن عامين على أن يبقى بعد ذلك سنة أخرى تحت المراقبة فى مدينة طرابلس . ولما كان البارونى قد اكتسب شهرة طيبة بين مواطنيه فقد تألف وفد من شيوخ الطرابلسيين ذهبوا إلى الاستانة خصيصا لرجاء السلطان العثمانى أن يصفح عنه ، فأطلق سراح البارونى . على أن البوليس ظل يراقب حركاته ؛ وعندئذ قرر البارونى الرحلة إلى مصر ، فأقام بها وأنشأ جريدة ثورية أطلق عليها اسم (الأسد) ؛ ولكنه لم يظهر من هذه الجريدة سوى ثلاثة أعداد فقط ، لأن السلطات أمرت بإيقافها (١٩٠٧) . ومع هذا فإن أيام الاستبداد الحميدى كانت معدودة ؛ لأنه لم يمض زمن طويل على ذلك حتى قامت الثورة وأعلن الدستور العثمانى (فى يولية ١٩٠٨) ، فعاد سليمان البارونى إلى وطنه وانتخب نائبا عن الجبل فى مجلس المبعوثان العثمانى . وعندما وقع اعتداء الطليان على طرابلس كان البارونى يقضى عطلته بين أهله وعشيرته فى (فصاطو) وهناك جاءته الأخبار بنزول الايطاليين فى العاصمة واحتلالهم لها وانسحاب الحامية العثمانية

من مدينة طرابلس إلى قرقاوش ومنها إلى (سينات بنى آدم) ثم إلى (العزيزية) — فى طريقها إلى غريان . ومثلما فعل فرحات بك ، اتصل البارونى فى الحال بقائد الحامية نشأت بك ، ثم حضر بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين شيخا من شيوخ الجبل ، فبحث الموقف مع نشأت بك ، ثم وعد بإمداده بالمتطوعين لمواصلة الحرب ، وعاد من فوره إلى الجبل لهذه الغاية ، وحث حوالى الألف على الخروج ، وذهب بهم إلى ميدان القتال فى الواحة حول مدينة طرابلس . فبلغ سينات بنى آدم ، ومنها إلى مقر القيادة التركية فى عين زاره ، ثم زحف مباشرة ومن غير توقف إلى قصر (الهانىء) و (سيدى المصرى) ، وأغار برجاله على هذين المركزين فى صباح يوم ٢٣ أكتوبر ١٩١١ . ومن ذلك الحين لم يترك البارونى أو أحد من رجاله الجيش العثمانى .

وتتلخص أهم حوادث الحرب فى ميدان طرابلس فى أن الأسطول الايطالى ظهر أمام مدينة طرابلس فى ٣٠ سبتمبر ، وضرب حولها الحصار ، وأمهل المدينة ثلاثة أيام للتسليم ثم أطلق قذائفه على قلعتى المدينة : الحميدية والسلطانية ، فلم تستطع الحامية الدفاع أكثر من ساعتين لأن مدافعها (كروب) القديمة كانت قصيرة المرمى لا تصل قذائفها إلى الاسطول فاضطرت إلى الانسحاب ، وعندئذ أنزل الطليان جنودهم واحتلوا مدينة طرابلس . وهلل الطليان وكبروا لهذا الانتصار السهل السريع . وطفقوا يجمعون التبرعات لإقامة تمثال لوزيرهم القديم (كريسبى) صاحب (مشروع فتح طرابلس العظيم) . واستولى الايطاليون عند نزولهم إلى البر على قصر الهانىء وقلعة سيدى المصرى (وهى غير ضريح سيدى المصرى) ، وسوق الجمعة ، وجامع قشلون . ومع هذا فإنه بمجرد أن أخذت جموع المتطوعين العرب تتدفق على المعسكر العثمانى استطاع المجاهدون أن يستردوا هذه المراكز ؛ فانكمشت منطقة احتلال الطليان حول مدينة طرابلس ، حتى إذا كان يوم ٢٣ اكتوبر نشبت معركة كبيرة فى بومليانة كان النصر فيها حليف الايطاليين ، فنصبوا مدافعهم فى (بومليانة) وسيدى المصرى القريبة منها . وفى ٢٠ نوفمبر شرع الطليان يحفرون الخنادق حول مراكزهم الجديدة . وفى أثناء ذلك كانت النجدات تصل تباعا لتعزيز القوات الايطالية فى طرابلس ، فوصلتهم الامدادات من صقلية فى الاسبوع الأول من شهر نوفمبر ، ثم جاءتهم إمدادات أخرى فى ٧ نوفمبر حتى بلغت قوات الجنرال (ترجونى) فى مدينة طرابلس حوالى الثلاثين ألفا على أقل تقدير .

وأما الأتراك فقد كانت مراكزهم الأساسية بعد انسحابهم من مدينة طرابلس فى (قصر العزيزية) — أو العزيزية — ثم فى قصر غريان جنوبها ، وهى التى قرروا اتخاذها قاعدة رئيسية لتنظيم المقاومة كما تقدم .

ثم امتدت مخافرهم الأمامية إلى (عين زاره) حيث أنشئوا أيضامعسكرا للفرسان . وعدا ذلك احتشد المتطوعون العرب على وجه الخصوص فى (سنيات بنى آدم) ثم انشئت إلى الشمال منها مراكز للدفاع فى (قلعة مجوسة) و (فندق التجار) ، بينما كان للمجاهدين والعثمانيين مراكز فى (وادى مجانين) فى قلعة (بن قشير) ، و (فندق العون) . ولما كان معسكرهم فى (عين زاره) أهم المراكز الأمامية . فقد عولت القيادة الإيطالية على انتزاعها من أيديهم .

وعلى ذلك فانه سرعان ما جاءت الأخبار من المراكز الأمامية فى يوم ٢٥ نوفمبر بأن الطليان بدأوا يزحفون صوب عين زاره ، وفى اليوم التالى نشبت معركة كبيرة أسفرت عن ارتداد العدو على الرغم من قواته ومعداته العظيمة . وكان كل ما كسب الايطاليون بعض المواقع البسيطة ، ومن بينها قلعة سيدى المصرى .

وفى الأيام التالية ظلت الطائرات الإيطالية تقوم بالاستطلاع فوق مراكز العثمانيين والعرب ، بينما اعتمد الايطاليون على مدافعهم فى هجومهم ، ونشطت مدفعيتهم فى (بومليانه) و (قلعة سيدى المصرى) ، وضريح (سيدى المصرى) كما أطلق أسطولهم قذائفه من الشاطىء وشرع حوالى ٢٥ الف مقاتل فى الزحف على (عين زاره) . وعندئذ ، وأمام هذه القوة الجارفة ، ولعجزهم عن مقاومة نيران المدفعية الشديدة اضطر الأتراك إلى الانسحاب من عين زاره . وكانت قوتهم لا تزيد على سبعمائة جندى نظامى وألف وخمسمائة من المجاهدين العرب وسبعة مدافع قديمة ، فتقهقروا صوب العزيزية . وبدلا من مطاردة العثمانيين إلى مراكزهم الجديدة ، اكتفى الايطاليون باحتلال عين زاره ، وهكذا ضيعوا من أيديهم الفرصة لكسب الحرب وإنهائها ، لأنه لم يكن من المتوقع أن يتمكن العثمانيون من الصمود فى هذه المراكز التى تقهقروا إليها أمام قوات العدو العظيمة .

وأما الأتراك فقد وصلوا إلى (بن قشير) ، وكانت أهم المعارك التى وقعت بعد ذلك معركة (بيرطبراس) فى ١٩ ديسمبر ١٩١١ ، حمى فيها وطيس القتال ، وانهزم الطليان شر هزيمة على الرغم من كثرة عددهم . وارغموا بعدها على التزام مراكزهم فى عين زاره . وكان بعد (بير طبراس) أن وصل المجاهدون فى (نالوت) إلى (سينات بنى آدم) التى اتخذوها مركزا لقواتهم . وكان بها وقت المعركة حوالى (١٢٠٠) من الجبل و(٦٠٠) من الزاوية وحضر مع مجاهدى (نالوت) سليمان البارونى .

وفى الحقيقة سرعان ما صار يتدفق المجاهدون على المعسكر العثمانى طوال شهر ديسمبر ، وفى شهر يناير ١٩١٢ والشهور التالية انضمت جماعات يتراوح عدد كل منها بين المائة والألف مقاتل من نالوت ، وفساطو ، ويفرن ، وغريان ، وسنوان ، هذا عدا أولاد سليمان

من صحراء سرت بقيادة زعيمهم سيف النصر ، وكان هؤلاء سنوسية ، ثم التوارق ، كما حضر (مجاهدو الفزان) بقيادة أحمد بن حسن ومهدى موسى . ومن المعروف أن السنوسية كانت ذات نفوذ عظيم لدى التوارق ، وفى جهات فزان حيث زاويتها الكبيرة فى (مرزوق) . وكان السبب فى تدفق جموع المتطوعين لقتال الطليان فى ميدان طرابلس من هذه الجهات النائية — الفزان وبلاد التوارق خصوصا ، ثم من صحراء سرت ، ويقطن بها أولاد سليمان — تحريض السنوسيين ونداء زعيمهم السيد احمد الشريف الذى استنفر به العرب قاطبة إلى الجهاد فى برقة وطرابلس . بيد أنه قبل الكلام عن الدور الذى لعبه السنوسيون بزعامة السيد أحمد الشريف فى هذا الجهاد ، خصوصا فى برقة ، يجدر معرفة الأثر الذى أحدثه تدفق المجاهدين على ميدان القتال فى طرابلس نفسها فى سير الحرب ضد الطليان حتى أواسط عام ١٩١٢ ، وقبل عقد صلح (أوشى — لوزان) .

فكان أول ما عنى به الايطاليون بعد سقوط عين زاره فى أيديهم إنشاء التحصينات لحماية قواتهم بالمدينة ، وقد بلغ عدد هذه القوات اثنى عشر ألف مقاتل . ثم إنهم لم يكتفوا بذلك بل هدتهم الحيلة إلى صنع دمى من الخشب على شكل محاربين وضعوها فى الخنادق حول عين زاره لإدخال الرعب والهلع كما توهموا إلى قلوب المجاهدين ! وفى يومى ٥ ، ٦ يناير ١٩١٢ أسقطت الطائرات الايطالية منشورات باللغة العربية تحمل توقيع وكيل الوالى ، الجنرال (سلسازو) ، تطمئن الأهلين إلى أن ايطاليا إنما تريد باحتلال بلادهم وطرد الأتراك منها خدمة مصالحهم ، وتحذرهم من الاستماع إلى وشايات الخونة الغادرين وتناسى الطليان مذبحة (المنشية) المشئومة ! ثم استمرأ الطليان إسقاط المنشورات على العرب بدلا من الخروج من خنادقهم وتجربة الالتحام مع المجاهدين فى معارك فاصلة ، فاسقطوا من الطائرات منشورات أخرى تتضمن أخبار نجاح عمليات أسطولهم فى مياه طرابلس وفى البحر الأحمر . كما كان من بين هذه المنشورات « انذار » بتوقيع قائد الحملة الجنرال (كارلو كانيفا) فى ١٥ يناير ١٩١٢ تحدث فيه القائد باللغة العربية فقال مخاطبا عرب طرابلس الغرب . « ماذا يصدكم عن القدوم إلينا : أما تهمكم الصلوة فى الجوامع والراحة أنتم وعائلاتكم فى بيوتكم ، أما يهمكم رعى مواشيكم وتعاطى تجارتكم آمنين ؟ نحن أناس أصحاب دين ومن أهل الكتاب وأحرار . واعلموا أن دولة ايطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهى طرابلس الغرب . فأقدموا إلينا بلا خوف ، وبكمال الإيمان ونحن نؤكد لكم أنه ليس من يؤذيكم . ومامن يسىء اليكم أو يضركم بأدنى شىء فإن الماضى لايذكر . واعلموا أن كل من يأتى الينا ببارودته مع المهمات نحسن اليه بعشرين فرنكا مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء . أمار وسأؤكم .

المدنيون والسياسيون فإن الحكومة الايطالية تقبلهم وتؤيدهم بالصفة التى كانوا عليها قبلا بل يعين لهم رواتب ومعاشات وناهيكم أن الكلام واحد والله سبحانه وتعالى كريم ،فاطلبوا منه عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو يخلصكم ! » .

وفيما عدا ذلك وقعت عدة مناوشات صغيرة فى شهر يناير بالقرب من عين زاره واستطاع جماعة من (ترهونة) فى إحدى هذه المناوشات أن يأسروا عددا من الطليان أحضروهم إلى العزيزية .

ولما كان الضباط الأتراك يعتقدون أن الاستطلاع الذى تقوم به طائرات العدو ليس الغرض منه سوى الاستعداد للقيام بحركة خطيرة سواء من عين زاره أو من بومليانة ، فقد عززوا مراكزهم فى (بن قشير) ومعسكر المجاهدين فى (سنيات بنى آدم) ، وأرسلوا قوة لملاحظة الطريق من طرابلس إلى (زنزور) التى بقيت فى أيدى العثمانيين فحدث فى صباح ١٨ يناير ١٩١٢ أن شاهدت جماعة صغيرة من عرب العجيلات بالقرب من (قرقارش) قوة إيطالية فالتحم الفريقان ، وأرغم الإيطاليون على الارتداد إلى خنادقهم ، وفى المساء كانت المعركة قد انتهت ، وغنم العرب غنائم كثيرة . واشتركت فى معركة قرقارش هذه امرأة عربية ظلت تحت المجاهدين على القتال حتى أصيبت بجروح . ولكن انتصار العرب فى هذه المعركة مثل انتصارهم فى معركة (بيرطرابلس) قبلها لم يأت بنتيجة ، لأن المجاهدين لم يكونوا يعرفون فى الحقيقة كثيراً عن خطط الحرب النظامية ، ولم يكن يقودهم فى معركة قرقارش ضباط عثمانيون . وأما الطليان فقد استطاعوا بعد ذلك أن يحتلوا قرقارش ويحصنوها ، كما وضعوا قوات كبيرة فى عين زارة وبومليانة وخصوصا بعد أن جاءتهم النجدات من نابولى . وفى الأيام التالية — بقية يناير وطوال فبراير — كان كل ما حدث عبارة عن مناوشات صغيرة أمام عين زارة وبومليانة وفى وادى مجانين . وفى جميع هذه المناوشات كان المجاهدون هم البادئون بالهجوم دائما على أمل إخراج الايطاليين من مواقعهم المحصنة ، بينما قبع الايطاليون فى خنادقهم وراء خطوط دفاعهم المحصنة ، تحميهم نيران مدافعهم الشديدة . ثم تفتق ذهن قائد الحملة الجنرال (كانيفا) مرة أخرى عن إسقاط المنشورات على المجاهدين بواسطة الطائرات . وفى هذه المرة كان منشور كانيفا عبارة عن كراسة صغيرة ذات غلاف أخضر ، معنونة باسم الأهلين فى طرابلس ودرنة وبنغازى وفزان والجبل وهكذا . وفى هذا المنشور تحدث الجنرال عن الارشادات والحكم الثمينة التى ذخر بها كتاب الله العزيز الحكيم ، فقال إنه جاء فى القرآن الكريم أن الجار خير من الغريب ، ولذلك فإنه لما كانت ايطاليا أقرب إلى طرابلس الغرب من تركيا فالواجب على العرب إذن أن يفضلوا حكم الايطاليين على الأتراك . وزيادة على ذلك فقد طلب الكتاب العزيز من كل مؤمن صادق الخضوع للسلطات القائمة ، ولما كان

سبحانه وتعالى قد وضع طرابلس الغرب فى قبضة الطليان فقد أصبح واجب كل مؤمن صادق الخضوع لسلطانهم . أضف إلى هذا أن ايطاليا لاتريد فى الحقيقة سوى رخاء العرب وتأمينهم على أموالهم وأرواحهم لأن حكومة رومة بمثابة الأم الرءوم التى ترغب فقط فى أن تعلم العرب كيف ينشئون أولادهم ويربونهم ، وكيف يصبحون أثرياء بفضل المخترعات الجديدة فى الصناعة التى سوف يأتى الايطاليون بها إلى ليبيا ، إلى غير ذلك من الأقوال والوعود التى لم يحقق الطليان شيئا منها بطبيعة الحال عندما خلص لهم الأمر فى ليبيا . ولم يكتف الطليان بالقاء المنشورات من الجو بل صاروا يرسلون خطابات سرية إلى الشيوخ والزعماء يندّدون فيها بمساوىء الحكم العثمانى ويصورون بخيال رائع ماينتظر هؤلاء الشيوخ من الخير على أيدى الايطاليين إذا هم سلموا لهم وخضعت قبائلهم وعشائرهم لسلطانهم .

بيد أن هذه الوعود والأقوال ذهبت هباء . وكان جواب المجاهدين على هذه النداءات والمنشورات الاحتقار ، فقال فرحات بك مثلا : « من العبث إضاعة الوقت فى الرد على هؤلاء الطليان الذين يظنون من المهارة اقتباس آى الذكر الحكيم من أجل اقناعنا بترك قضيتنا ! إن هذه المحاولة من جانبهم تثير فى نفوسنا الاحتقار لهم والازدراء بهم ! » وأما سليمان البارونى فقد اتخذ رده على منشورات (كانيفا) ورسائل الطليان السرية إلى الزعماء والشيوخ شكلا أوقع وأبلغ أثرا . ذلك أنه فاجأ مع المجاهدين مخافر الطليان فى قرقارش ليلا ونشر الهلع والرعب فى قلوب حاميانهم . وفى ١٠ مارس ١٩١٢ هجم المجاهدون على (فندق غربى) و (فندق شرقى) ، وأرغموا الطليان على التقهقر والانسحاب إلى المراكز التى أنشئوها جنوب عين زاره ؛ ثم أحرق المجاهدون (فندق شرقى) . وقد أطلق العرب على هذه المعركة اسم (واقعة عين زاره) . وفى ٨ يونية هاجم الجنرال (كاميرانا) (سيدى عبدالجليل) بينما كانت المدفعية فى قرقارش وطرابلس ، وكذلك قنابل الأسطول تحمى هجومه فأغار المجاهدون العرب على قلعة قرقارش من قاعدتهم فى سنيات بنى آدم ؛ وأسرع الطليان بارسال قوة من بومليانة منها جماعة من عسكر الارتريا الذين استقدموهم لنجدتهم ، فوجد المجاهدون أنفسهم بين نارين واضطروا إلى الانسحاب ، واحتل الطليان سيدى عبدالجليل ، وانطلقت جرائدهم تطنطن بهذا الانتصار الباهر فى المعركة التى أطلقوا عليها اسم (واقعة زنزور) .

ومع هذا فقد تعذر على الطليان فى الشهور التالية مغادرة خطوط تحصيناتهم التى أنشئوها للدفاع ممتدة من (تاغورة) فى الشرق الى (عين زاره) فى جنوبها ثم الى بوملیانه ، ومن هذه غربا الى قرقارش ، ثم سيدى عبد الجليل . وكانت أهم مراكزهم فى داخل هذه المنطقة الضيقة فى سيدى المصرى ، وقطر الهانى ، وسوق الجمعة (يونية ١٩١٢) فكان كل ما استطاع ..

الطليان الاستيلاء عليه بعد ذلك (سيدى سعيد) و (سيدى على) على الشاطىء بالقرب من حدود طرابلس الغربية ، الأول فى ٢٨ يونية والثانى فى ١٥ يولية ١٩١٢ وكانا عديمى الأهمية .

ويعزى فشل الايطاليين فى كسب هذه الحرب التى استعدوا لها استعدادا عظيما وبدأوها فى ظروف ملائمة لهم ، وجلبوا لها الامدادات والنجدات حتى بلغت قوتهم (١٢٠,٠٠٠) جندى نظامى بعداتهم واسلحتهم الحديثة كاملة ، إلى جملة أسباب أهمها أن الطليان كانوا يفضلون دائما عدم الحركة والاحتماء فى خنادقهم وخلف خطوطهم المحصنة وتأجيل الزحف خوفا من المجاهدين العرب خصوصا الذين بالغوا مبالغة عظيمة فى تقدير أعدادهم على الرغم من الاستطلاع الكثير الذى كانت تقوم به طائراتهم فوق مراكز المجاهدين ؛ بل إن الخوف من هؤلاء المجاهدين البواسل كثيرا ما كان يجعل قوة بأسرها تولى الأدبار تاركة وراءها سلاحها ومؤنها وذخائرها لاتلوى على شىء إذا صادفت فى أثناء حركاتها الاستطلاعية كوكبة من العرب المجاهدين فأضاع الطليان بخوفهم هذا فرصا عديدة لو أنهم انتهزوها لاستطاعوا أن يسيطروا على طرابلس الغرب فى مدة وجيزة — كما كان يرى ذلك فريق من المراسلين الأجانب الذين صحبوا القوات العثمانية فى هذه الآونة . ويرى كاتب من هؤلاء أن (بنك دى رومه) كان قد قام قبيل الغزو بدعاية واسعة ناجحة فى طرابلس لدرجة أن بعض العرب فى بداية القتال بادروا برفع الأعلام البيضاء على دورهم ومحالهم علامة على التسليم فى مدينة طرابلس وفى غيرها من المدن ؛ ولكن الطليان ضيعوا الفرصة بسبب إبطائهم كما كان لجهود فرحات بك وسليمان البارونى الأثر الحاسم فى جمع القلوب المترددة حول راية الجهاد فى النهاية .

أضف إلى هذا أن الطليان الذين ظهر أنهم تركوا القتال جانبا وآثروا انتظار ما تحدثه منشوراتهم ونداءاتهم من آثار قد تكسبهم الحرب من غير حاجة إلى الاشتباك فى معارك فاصلة ، كان من سوء حظهم أنهم أكثروا من بذل الوعود السخية التى لم يكن فى نيتهم المحافظة على شىء منها ؛ وقد سبق ذكر بعض هذه الوعود . ومع هذا فإنه ليصعب على الانسان أن يغفل أمر ذلك المنشور (التاريخى) الذى شاء قائد الحملة (كارلو كانيفا) أن يحذو فيه حذو نابليون عند ما جاء بجيوشه يغزو مصر فى آخر القرن الثامن عشر فقد أرسل (كانيفا) منشورا باللغة العربية إلى أهلها فى طرابلس على أثر احتلال جيشه لمدينتهم ، بدأه « بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين » ؛ ثم قال ، بعد أن بين للأهلين مهمته كقائد « للعساكر الايطاليين الموكل إليها نحو الحكومة التركية فى :

طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها ، ، « إن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا (فكتور عمانويل الثالث) حماه الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس والقيروان والفزان والبلاد الأخرى التابعة لها التى توجد الآن تحت سيادة الاتراك ، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم سواء كان الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم . وعليه فانتم ياسكان طرابلس والقيروان (؟) والفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملا بقوله تعالى « وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » وطعق (كانيفا) يعد باحترام الشرائع الدينية والمدنية واحترام الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر ، كما ضمن لهم حرية العبادة وعدم إرغام أحد على الانخراط فى سلك الجندية ، وتوعد بانزال العقوبة الصارمة بكل أمرىء « لايحترم الشرائع أولايعتبر الأشخاص ويمس النساء أو يخترق حرمة الملك أو يقاوم أو يثور على إرادة العناية الإلهية التى أرسلت ايطاليا الى هذه البلاد » ثم اختتم المنشور بقوله : « فياسكان طرابلس والقيران والمقاطعات التابعة لها ، اذكروا أن الله قد قال فى كتابه العزيز « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين » ، وقد جاء أيضا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وجاء أيضا « لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » أى الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل والعمران ؛ وجاء أيضا ، « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » أى لا تفسدوا فى الأرض إن توليتم أمور الناس ولا تقاتلوا بعضكم بعضا ، ان الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمى أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم . وجاء أيضا « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » ، وجاء أيضا « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . فارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل ايطاليا هذه البلاد لأنه لا يجرى فى ملكه إلا مايريد فهو مالك الملك وهو على كل شىء قدير ، فمن أراد أن يظهر فى الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المتفرد بتصرفاته فى ملكه الذى لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين . وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الارادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية ، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء . فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم اسلامية تحت حماية ايطاليا وملكها المعظم ويخفق فوقها العلم المثلث الألوان « أبيض . وأحمر . وأخضر » اشارة الى المحبة والايمان والعشم فى وجه الله » .

وفى هذا المنشور كما هو ظاهر حاول كارلو كانيفا إقناع الليبيين بأن الحملة الايطاليـة على بلادهم كانت أمراً مقدراً من الأزل بإرادة المولى سبحانه وتعالى ومشيئته ، وأن مقاومة الحملة معناه مخالفة هذه الإرادة الإلهية . ثم حاول إلى جانب هذا إقناعهم بأن الحكم الإيطالى سوف يبسط الأمن والسلام ويحفظ الأرواح والأعراض والأموال ويحترم الدين والعقيدة ولذلك كان أقل ما يجب أن يفعله الغزاة بعد أن ربطوا أنفسهم بهذه المواثيق أن يحققوا شيئا من المبادىء التى انطوت عليها ولكنهم بدلا من ذلك أظهروا من ضروب الاستهتار بأرواح الأهلين وعقائدهم وشعائرهم وتقاليدهم ، ثم ارتكبوا من الفظائع التى تقشعر من هولها الأبدان ما لطخ بالعار اسم ايطاليا وشرفها وجعل العرب يخفون إلى ميدان القتال أفواجا من أقاصى البلاد بمجرد أن وصلتهم أخبارها . وأما أقسى هذه الجرائم وأفظعها فكانت تلك التى ارتكبها الإيطاليون فى ناحية المنشية بعد أسبوع من نزولهم إلى مدينة طرابلس .

ويتلخص هـذا الحادث المروع فى أن الطليان عند ما نزلوا إلى البر بعد انسحاب القوة العثمانية عسكرت جنودهم فى أطراف المدينة (فى ٥ أكتوبر) بينما تركوا ناحية (المنشية) خلفهم فانتهز المجاهدون هذه الفرصة وهاجموا (المنشية) بقيادة بعض الضباط العثمانيين فى ليل ١٢ اكتوبر ١٩١١ ، فصمدت حاميتها الطليانية إلى الصباح ، وعندئذ انسحب المجاهدون ، ولما وصلت النجدات عثر الطليان على قتيل فى بساتين الناحية ، فصبوا غضبهم على الأهلين الأبرياء وألصقوا بهم تهمة اغتيال جنودهم من غير أن يكلفوا أنفسهم مشقة تحقيق هذا الحادث . وبناء على ذلك استباح الجنرال (كانيفا) ناحية المنشية لجنوده ثلاثة أيام قتلوا فى أثنائها من الاهلين عدداً يتراوح بين الأربعة آلاف والسبعة آلاف نسمة ، وهتكوا أعراض النساء ، وألقوا فى غياهب السجون وفى اشكنات العسكرية وفى (مدرسة الصنائع) مئات من الرجال والنساء ، ونفوا من العرب إلى جانب ذلك كله حوالى التسعمائة . وهكذا أضاف الطليان بفعلتهم الشنيعة هذه إلى جانب الدفاع عن أرض الوطن ضد العدو المعتدى سبباً آخر حرك العرب وأثار حميتهم ، هو الانتقام للضحايا الأبرياء وغسل الإهانات التى لحقت بشرفهم . ثم عظمت كراهية العرب للطليان لدرجة لم تعد تثمر معها بعد ذلك فى خلال السنوات الطويلة التالية أية محاولات لإزالة هذه الكراهية أو تخفيف حدتها .

وليت فظائع الطليان انتهت عند مذبحة المنشية هذه ؛ ولكن هؤلاء الغزاة الذين أعلنوا وضع طرابلس وبرقة تحت السيادة الايطاليـة التامة (٦ نوفمبر ١٩١١) سرعان ما صاروا يعتبرون المجاهدين لهذا السبب بمجرد «عصاة» و «ثواراً» خارجين على الحكومة الشرعية ، فى مقاومتهم ، ويستحقون لذلك الإعدام شنقا أو رمياً بالرصاص إذا ما وقعوا فى أيديهم .

فطفقوا من ثم يشنقون الرجال زرافات ووحدانا من غير تحقيق أو محاكمة فى طرابلس ودرنة وغيرهما من المدن ، ويفتكون بكل عربى « يبلغ عمره الرابعة عشر فما فوق » بتهمة المحاربة فى مؤخرة الطليان ، سواء اشترك فى أعمال المقاومة أم لم يشترك . وكانت دعوى الطليان فى ذلك استناداً إلى ما تقدم — أن مجرد استيلائهم على مدينة طرابلس والمدن الأخرى الساحلية من شأنه وحده فقط أن يجعل جميع العرب الموجودين فى هذه الأماكن « رعايا طليان » ، ولذلك إذا حمل أحد هؤلاء العرب سلاحا للدفاع عن نفسه أو وطنه ضد الغزاة المعتدين أصبح «ثائراً» أو «عاصيا» وحق عليه الاعدام عند القبض عليه من غير محاكمة .

وغنى عن البيان أن دعاوى الايطاليين هذه كانت فاسدة ، لأن الاحتلال ليس معناه الامتلاك ، ولأنه لا يمكن لدولة أن تمتلك أرضا من ممتلكات دولة أخرى إلا إذا أعطتها هذا الحق المعاهدات المبرمة . وبغير ذلك يظل الأهلون خاضعين فقط للقوانين السارية فى بلادهم قبل أن يحتلها العدو ، ولا يمكن اعتبارهم عصاة أو ثائرين . وقد ظهر هذا المبدأ واضحا فى مؤتمر بروكسل الذى عقدته الدول الأوربية فى عام ١٨٧٤ لتنظيم « قواعد الحرب العسكرية» . ولما كانت الحرب بين الطليان وبين العثمانيين والعرب لا تزال دائرة ، ولم يسلم الأهلون للغزاة طوعا أو كرها ، ولم يعقد الصلح بين الفريقين المتقاتلين ، ولم يبرم الطليان أية معاهدة تعطيهم حق امتلاك طرابلس وبرقة ، ولم يحدث فى أيام العمليات العسكرية الأولى أن أصبح احتلالهم للمناطق التى نزلوا بها كاملا وتاما بدليل ذلك الهجوم نفسه الذى قام به المجاهدون فى ليل ١٢ اكتوبر ، فلا يمكن لذلك كله أن يعتبر العرب عصاة أو ثائرين ، كما لا يقوم وجه ما لاعتبار هجوم ١٢ اكتوبر خرقا لقواعد الحرب أو أنظمتها العسكرية ، زد على ذلك أنه إذا صح أعتبار هذا الهجوم مخالفا لقوانين الحرب وتقاليدها فقد صرح الكونت (لنزا) مندوب ايطاليا فى مؤتمر بروكسل (١٨٧٤)، « بأنه يجب الاعتراف رسميا بأن (الغرامة) فقط هى العقوبة التى يجب أن توقع فقط على أولئك الذين ينتهكون حرمة قوانين الحرب وتقاليدها » ثم قال « ولا يخلى إقدام أحد الطرفين على انتهاك هذه القوانين والتقاليد الطرف الآخر من واجب العمل بها واحترامها » .

أضف إلى هذا أن اعلان ٦ نوفمبر الذى ضم الطليان بمقتضاه برقة وطرابلس إلى أملاكهم كان لا يستند إلى أى أساس قانونى . فقد ضمنت الدول ومن بينها ايطاليا (سردينيا) كيان الامبراطورية العثمانية فى معاهدة باريس فى ٣٠ مارس ١٨٥٦ ، ثم تكرر إعطاء هذا الضمان فى معاهدة لندن التى أبرمتها الدول فى ١٣ مارس ١٨٧١ لتنظيم الملاحة فى البحر الأسود والمرور من المضايق ، ووقع الايطاليون عليها أيضاً . فكان معنى هذا إذن أنه صار حتما على

ايطاليا أن تحصل على موافقة بقية الدول الموقعة على هذه المعاهدات وموافقة الدولة العثمانية ذاتها قبل أن تقدم على إحداث أى تغيير ينتقص من قيمة هذا الضمان . ثم كان عمل الدول قانونياً ولا شك عند ما أبرمت فى ١٣ يولية ١٨٧٨ معاهدة برلين المشهورة لتسوية المشاكل التى أثارتها فى البلقان الحرب الروسية التركية . فعدلت حدود الامبراطورية العثمانية بمقتضى معاهدة اشتركت فى توقيعها الدول التى تعهدت بالمحافظة على كيان هذه الامبراطورية من أيام معاهدة باريس (١٨٥٦) ، كما حملت أيضاً توقيع الباب العالى نفسه .

ولذلك فانه لما كان اعلان ضم برقة وطرابلس الذى أذاعته ايطاليا فى ٦ نوفمبر ١٩١١ من طرف واحد فقط وحدث فى أثناء قيام الحرب وقبل انتهائها ، وكان من جانب إحدى الدول (ايطاليا) التى وقعت على معاهدة باريس (١٨٥٦) وعلى المعاهدات التالية التى ضمنت المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية ، وآخرها معاهدة برلين التى أكدت هذا الضمان مرة أخرى فيما يتصل بالممتلكات التى بقيت لتركيا بعد عقد الصلح ؛ كما أن ايطاليا أقدمت على هذا الاعلان،منفردة ومن غير اشتراك الدول الأخرى الموقعة على المعاهدات وبدون موافقة تركيا ، فقد بادر الباب العالى، لكل ذلك،بالاحتجاج على اعلان الضم بمجرد أن علم بصدوره وتبليغه إلى الدول ، وعد الأتراك هذا الإعلان الذى لم يبلغه الايطاليون اليهم — اعتداء على حرمة المعاهدات وخصوصا تلك التى أبرمت فى باريس وبرلين واشتركت ايطاليا فى توقيعها إلى جانب الدول الكبيرة لضمان المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية . وكان الأتراك محقين عند ما اعتبروا فى احتجاجهم هذا الاعلان «باطلا وملغيا من الوجهة القانونية ولا وجود له فى الحقيقة» .

والذى لاشك فيه أنه ما كان يكفى بتاتا أن يصدر قائد الحملة (كانيفا) منشوراته التى سبق ذكرها استنادا الى اعلان الضم هذا حتى يصبح الليبيون من رعايا ايطاليا ؛ كما أن تسليم بعض الأفراد القلائل فى مدينة طرابلس الذين أثرت فيهم دعايات (بنك دى رومه) ثم استهوت افئدتهم الليرا الطليانية ، لايغير شيئا من حقيقة الموقف عندما كانت العمليات العسكرية لاتزال جارية ، ويشترك أهل البلاد مع العثمانيين فى الدفاع عن أوطانهم ، ولا يمكن أن يجد الايطاليون فى قوانين الحرب وتقاليدها ما يجيز لهم أن يعتبروا هؤلاء المجاهدين عصاة أو ثوارا أو خونة تصيبهم الشنق والإعدام بالرصاص وهتك أعراض نسائهم والفتك بأطفالهم وشيوخهم بدعوى أنهم يغدرون بمؤخرة جيش الغزاة الفاتحين .

ثم انه كان من أسباب زيادة كراهية العرب للمعتدين الطليان أن هؤلاء الغزاة الفاتحين ، بمجرد أن تبين لهم اصرار الأهلين على المقاومة — وكان الهلع والجبن من أسباب انهزام

الطليان تقريبا فى كل موقعة يشتبكون فيها وجها لوجه مع المجاهدين البواسل. سرعان ماصاروا يستقدمون النجـــدات من (إرتريا) المستعمرة الايطالية فى أفريقية الشرقية ، فاشترك (العساكر) الأحباش فى مواقع (بير التركى) و (عين زاره) وغيرها ، ثم لم يكتف الطليان بذلك بل صاروا يستخدمون أيضا نوعا من الرصاص المتفجر الذى يحطم أجسام المصابين تحطيما لا ينفع فيه معالجة ولايرجى منه شفاء ، متهكين فى فعالهم هذه حرمة قوانين الحرب وتقاليدها . كما وافق عليها مندوبو الدول المتمدينة فى مؤتمراتهم .

وهكذا لم يحقق الطليان شيئا من الوعود التى تضمنتها منشوراتهم المتعددة وبذلها بسخاء قائد حملتهم خصوصا فى منشوره الذى أمن فيه العرب على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ووعدهم بقيام الحكومة العادلة الرشيدة بينهم تعيد الى بلادهم الرخاء والرفاهية . فقد أزهق الطليان أرواح الأبرياء وهتكوا أعراض النساء ثم سلبوا أموال الأهلين وكل ماوقعت عليه أيديهم ، ثم كان من السخرية حقا أن يعد الطليان بإعادة الرخاء والرفاهية الى البلاد وهم الذين أصدروا بمجرد نزولهم الى البر واحتلال مدينة طرابلس (ورق النقد) ، وصاروا يرغمون الأهلين على التعامل به بدلا من العملة البرنزية أو الفضية أو الذهبية التى لايعرف هؤلاء سواها وسيلة للتعامل منذ أزمان بعيدة ؛ فتساءل الليبيون : « أهؤلاء حقا هم الذين جاءوا ليجعلونا أغنياء ؟ إنهم ولا ريب أشد فقرا من الأتراك ، لأنه اذا كان الأتراك يجلبون الى هذه البلاد مالا قليلا ؛ فإن هذا المال على قلته كان نقودا صحيحة من الفضة والذهب . أما الطليان فانهم يعطوننا بدلا من ذلك قصاصات من الورق القذر ! » .

ولعل أعظم أخطاء الايطاليين خطورة كان مسعاهم من أول الأمر فى أن يكسبوا هذه (الحملة) صبغة دينية عريقة . فقد بارك قساوستهم أساطيل الحملة عند خروجها ، ودقت النواقيس وأقيمت الصلوات ووزع رجال الكنيسة الصلبان المهداة من البابا إلى هؤلاء الصليبيين الجدد ، وأفرط الطليان عند كل مناسبة فى الاحتفال بالنصر فى كنائسهم مهما كانت هذه الانتصارات المزعومة قليلة القيمة ، ومهما كان مشكوكا فى نتائج المعارك التى وجد الطليان شجاعة كافية لخوض غمارها ؛ ثم لم يقنع الطليان بالاحتفال بالنصر فى بلادهم ، بل جعلهم سوء التدبير وعدم الفطنة يقيمون هذه الاحتفالات الدينية فى مدينة طرابلس ذاتها ، يقدمون الشكر لله العزيز الذى مكنهم من انتزاع (الهلال) وإعلاء (الصليب) مكانه فأثارت هذه الحماقة ثائرة المجاهدين وأشعلت فى نفوسهم الكراهية للمعتدين الآثمين . وأدرك جماعة من الكتاب ومراسلى الصحف الأوربيين الذين شهدوا الحرب الايطالية ـ الليبية خطورة هذا الخطأ ، فقال أحدهم ــ ابوت ــ إن عمل الطليان هذا كان على وجه

التحقيق العامل الحاسم فى إثارة شعور كل مسلم يحفظ شيئا ولو قليلا من الاحترام لنفسه حتى اشتدت مقاومة العرب ضد الطليان ، واستطاع الأتراك الذين ما كانت تربطهم بالأهلين — فى نظر هذا الكاتب — سوى أواصر الاشتراك فى الدين والعقيدة ، أن يؤلفوا جبهة قوية للمقاومة ويستنفروا العرب للجهاد ضد الغزاة المعتدين .

والحقيقة أن الأتراك لم يكونوا فى حاجة لأن يتخذوا من حماقة الطليان هذه وسيلة لتحريك العرب وحثهم على المقاومة والدفاع عن أوطانهم . فقد تقدم كيف صارت جموع المجاهدين تتدفق على المعسكر العثمانى بمجرد أن ذاع فى البلاد خبر اعتداء الطليان على طرابلس وبرقة ؛ ثم ان العرب لم يكونوا هم أيضا فى حاجة إلى هذه الأخطاء يرتكبها الطليان حتى يقوى تصميمهم على المقاومة ، وهم الذين استرشدوا دائماً بآراء زعمائهم ونصائحهم كما تدل استجابة جموع غفيرة منهم لنداء فرحات بك وسليمان البارونى . ومع هذا فقد ظل العرب فى هذه المرحلة الأولى ينتظرون بفروغ صبر وصول (أولاد سليمان) إلى المعسكر العثمانى وإلى ميادين الجهاد ويتوقون إلى حضور (مجاهدى الفزان) وصناديد (التوارق) ، لما كانوا يتمتعون به من شهرة عظيمة بوصفهم محاربين بواسل وأبطالا مغاوير . وقد حضر أولاد سليمان وحضر مجاهدو الفزان ، وحضر التوارق ، حتى زخرت بهم معسكرات المجاهدين وخصوصا فى (سنيات بنى آدم) . وقد جاء هؤلاء جميعا من جهات انتشرت فيها السنوسية .

وكان مجىء هؤلاء المجاهدين من أتباع السنوسية وأنصارها مطمئنا لأهل طرابلس إلى درجة عظيمة ، لأن هؤلاء المجاهدين اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وحذق التوارق ومجاهدو الفزان خصوصا فنون الكر والفر واكتسبوا خبرة كبيرة من اشتباكهم الطويل فى القتال ضد الفرنسيين فى الصحراء والسودان الغربى ، أضف إلى هذا أن مجيئهم لنجدة إخوانهم العرب فى طرابلس كان يدل على أن السنوسيين بزعامة أميرهم السيد احمد الشريف ، قد انحازوا بكامل قوتهم إلى جانب الأتراك والطرابلسيين فى الدفاع عن طرابلس . وكان القلق ولا شك يساور بعض زعماء الطرابلسيين لأنهم كانوا يعرفون أن عبء القتال الأعظم ، كما سنرى ، كان وقتئذ يقع على كواهل السنوسيين فى برقة ؛ ولأنهم كانوا يتوجسون خيفة من عدم صفاء العلاقات بين الاستانة والكفرة بعد الانقلاب الدستورى خصوصا فى تركيا . ولكن السيد احمد الشريف كان منذ ١٩١٠ قد استطاع الوصول إلى اتفاق مع الأتراك الذين أرسلوا بعض الجند النظاميين إلى برقو والتبستى وواحة (ون) ، وأسسوا قائمقامية فى واحة الكفرة على نحو ماسبق ذكره ومع هذا فقد ظل محتملا وجود بعض الخلاف بين السيد احمد الشريف وبين العثمانيين الذين ساءهم أن يروا نفوذهم وسلطانهم يضيع نهائيا فى الأقاليم التى خضعت للسنوسية ؛ ثم حرصوا

على ما يبدو فى أثناء هذه الحرب الليبية — الايطالية على أن تظل قيادة الجهاد فى برقة وبالأحرى فى طرابلس فى أيديهم . فاضطر السيد احمد الشريف لذلك إلى البقاء بالكفرة وبخاصة عندما كان لا يزال النضال دائرا فى الجنوب بينه وبين الفرنسيين . ومع ذلك فإن اعتداء الطليان على طرابلس وبرقة سرعان ماأزال كل أثر للخلاف بين الكفرة والقسطنطينية ومن الكفرة خرجت الدعوة إلى المجاهدين البواسل ليس فقط فى برقة بل وفى صحراء طرابلس حتى يردوا كيد المعتدين على أوطانهم .

حقيقة خف المجاهدون إلى ميادين القتال فى برقة وطرابلس بمجرد وقوع العدوان الايطالى ، ولكن صدور الدعوة الى الجهات من زعيم السنوسية كان بمثابة الشرارة التى أوقدت النار فى طول البلاد وعرضها ، نخف العرب من أقاصى طرابلس والفزان ثم من السودان الغربى لمؤازرة اخوانهم المجاهدين فى الجبل ، والغرب ، وهى الجهات التى ظل زعماؤها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور السنوسية الانضواء تحت لوائها ؛ وواضح أن موقف الزعماء الطرابلسيين هذا كان من الأسباب التى جعلتهم عندما جد الجد وغزا الغزاة بلادهم يتوقون لمعرفة القرار الذى يبغى السنوسيون اتخاذه فى هذه الظروف القاسية .

وكانت السنوسية عند حسن الظن بها ، فتدفق أتباعها وأنصارها كالسيل الجارف على ميدان القتال فى طرابلس ؛ وفى منتصف يناير ١٩١٢ قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب ، فاصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين ، أهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدى ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه الى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة . وقد نقش « نداء » السيد السنوسى الكبير هذا على راية من الحرير حملها المجاهدون فى طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة فى الجنوب خصوصا فكان من أثر هذا « النداء » أن تدفقت جموع المجاهدين والمتطوعين على المعسكرات العثمانية فى العزيزية وغريان وعلى مراكز العرب فى (سنيات بنى آدم) ؛ فكان معسكر العرب فى (السنيات) بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات وزنزور ومصراته وسرمان وأولاد يوسف ، وأورفلة وغريان والجبل والعزيزية وأولاد سليمان ثم مجاهدى الفزان والتوارق . ثم لم يكتف السيد أحمد الشريف بذلك بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات العثمانيين والمجاهدين العرب فى العزيزية . وفى ٢٥ مارس ١٩١٢ دخلت نجدات السيد أحمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف . وتحمل معها نبأ تحرك نجدات أخرى لاتزال تجد السير فى طريقها الى المعسكر العثمانى . وكان يوم وصول نجدات السيد هذه يوما مشهودا فى تاريخ الجهاد فى طرابلس .

وقد اعترف السلطان العثمانى نفسه بهذه الجهود التى قام بها السيد أحمد الشريف من أجل تخليص الأقطار الليبية وتحريرها . فأهداه فى هذا الشهر نفسه (مارس ١٩١٢) سيفا ونيشانا مرصعا بالجواهر مكافأة للسيد وتقديرا لجهوده .

بيد أن زعامة السيد أحمد الشريف وجهود السنوسيين كانت بلا مراء أكثر وضوحا وأعمق أثرا فى سير الجهاد ضد الايطاليين فى برقة : ميدان القتال الآخر فى هذه الحرب الليبية - الايطالية .

* * *

فقد ضرب الطليان بمدافعهم من البحر الموانى البرقاوية فى الوقت الذى اعتدوا فيه على ميناء طرابلس الغرب ، والخمس واستطاعوا فى يوم ٢٤ اكتوبر ١٩١١ أن يحتلوا طبرق - أى قبل نزولهم فى طرابلس بأسبوع تقريبا ؛ ثم نزلوا فى درنة يوم ١٧ اكتوبر ؛ ونزلوا فى بنغازى بعد ذلك بيومين . ومن أول الأمر قاومهم العرب مقاومة شديدة ، فالتحموا معهم فى الليلة الثانية من نزولهم إلى بنغازى وهزموهم فى محلة يقال لها الصابرى ؛ وكان العثمانيون قد اشتبكوا مع الطليان يوم نزولهم نفسه فى معركة حامية تعرف باسم (وقعة جوليانه) . ولكن الجند العثمانيين لم يستطيعوا الصمود أمام الطليان الذين استمرت سفنهم الحربية تضرب بنغازى بمدافعها من البحر ، فانسحب قائدهم شاكر بك الى (سيل الهوارى) على مسافة أربعة كيلومترات من المدينة ؛ ثم انسحب مع جنده بعد ذلك إلى (الأبيار) على مسافة ثلاثين كيلومترا . غير أن الموقف سرعان ما تبدل عندما انتشر فى طول البلاد وعرضها خبر اعتداءات الطليان على برقة وطرابلس ، واستنفر الزعماء السنوسيون فى بنغازى وغيرها شيوخ الزوايا للجهاد ، فكان السيد عمران السكورى شيخ زاوية المرج أول من خرج بجيش لنجدة الأتراك فاستنفر قبيلة العرفا - وكان شيخا على زاويتها — وقبائل أخرى ؛ فكان وصول هذه النجدة مثبتا لأقدام العثمانيين الذين استطاعوا مع السنوسيين مقابلة الطليان ثم إرغامهم على التقهقر إلى بنغازى . وفى بنغازى اطمأن الطليان إلى حماية أسطولهم ؛ وأما العثمانيون والعرب فقد اتخذوا (الرجمة) مقرا لهم . وكان كذلك فى مقدمة الذين خفوا لنجدة العثمانيين والالتحام مع العدو فى برقة : السيد عمر المختار ؛ فقد كان رحمه الله يزور شيوخ السنوسية وزعيمهم السيد احمد بالكفرة ، وفى أثناء رجوعه من هذه الزيارة إلى زاويته (القصور) بلغه نبأ نزول الطليان فى بنغازى واحتلالهم لها ، وكان وقتئذ بواحة (جالو) ، فلم يلبث بمجرد وصوله الى (القصور) أن أمر قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور بالاستعداد للحرب ، ثم تبع السيد عمر بقية شيوخ الزوايا ، واستمر السنوسيون بقيادته بعد ذلك يضيقون الخناق على

العدو وخصوصا عند (بنينة) حتى جاء أنور الى معسكر القيادة العامة فى درنة وعزيز بك المصرى إلى بنغازى .

وقد اهتم أنور بك منذ وصوله إلى برقة بالطواف بالقبائل وزيارة الزوايا السنوسية ودعوة الجميع للجهاد ، وذلك حتى يكتمل لديه جيش قوى يستطيع أن يدفع به غائلة الطليان ولما كان السيد أحمد الشريف يقيم وقتئذ بالكفرة فقد أرسل اليه القائد العثمانى كتابا « ينبئه فيه بخيانة الطليان ويرجوه أن يرسل منشورا الى أتباعه ليحاربوا أعداء دينهم وبلادهم » وفى ٢٨ نوفمبر ١٩١١ رجع أنور بك الى معسكر درنه بعد أن جمع فى طوافه حوالى الخمسة الآف مقاتل من العرب مشاة وفرسانا . كما أحضر معه الجند العثمانيين الذين كانوا متفرقين بالصحراء للمحافظة على الأمن ، وعددهم (٦٠) جنديا .

وأما السيد أحمد الشريف فقد أعد منشورا كبيرا أرسله إلى مشايخ الزوايا ورؤساء القبائل لكى يحضوا العرب على الجهاد ، وقد طلب السيد أحمد من كل عربى يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلى الخامسة والستين الذهاب إلى ميدان القتال مزوداً بمئونته وسلاحه ، وأن يخضعوا جميعا لأوامر أنوربك ، بصفته نائب السلطان وقائدا عاما ، ثم بعث فى الوقت نفسه (١٧ ديسمبر ١٩١١) إلى أنوربك رسالة خاصة جاء فيها ردا على خطابه : « وقد كتبنا للإخوان وحرضناهم على المساعدة وعدم المخالفة فى إعلاء كلمة الله » .

وكان منشور السيد أحمد الشريف أكبر حافز للعرب على المضى فى الجهاد ، كما كان لوجود كبار السادة السنوسية . السيد محمد إدريس ، والسيد محمد الرضا ، والسيد محمد عابد فى المعسكر العثمانى فى هذه الآونة أكبر الأثر فى التفاف العرب المجاهدين حول القائدالعثمانى . وعلى ذلك فقد استطاع أنورمناوشة العدو بنجاح طول شهر ديسمبر ١٩١١ ، وفى أواخر هذا الشهر استقدم (مدفعين) من بنغازى ، وفى ٢٧ و ٣١ التحم المجاهدون مع الطليان فى معركة كبيرة اشتركت فيها قبائل (الحسا) و (الدرسه) وعائلة منصور وقبيلة النواعر إلى جانب الجند النظامى واستولوا على غنائم كثيرة . وقتل من الأعداء ما يزيد على الألف بينهم كثيرون من الضباط .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « أما بعد وصول أنور فإن الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيرا خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة الضبط) وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزموهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلا موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهدا . وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١ » .

ومن تاريخ هذه المعركة فى الحقيقة ازداد وفود العرب على معسكر درنة حتى قدرهم أحد المعاصرين الذين اشتركوا فى هذه الوقائع بتسعة عشر ألف مقاتل هذا عدا الأتراك المشاة ورجال المدفعية وكانوا حوالى الخمسمائة فحضر إلى ساحة القتال بمعسكر درنة شيوخ زوايا السنوسية فى درنة والبيضا وقفنطه وشحات وترت وبشارة والمرازيف ومارة ومرتوبة وأم أرزم وأم حضين والخيلى والعزيات وأم بركة والحمامة والعجالى . ولما كان يتبع هذه الزوايا كثير من القبائل فقد وجدت بميدان القتال عدة قبائل من أشهرها . البراعصة وحسا والعواكله ومنصور وغيث والنواعر ودسه ومنافه .

وعندما تدفق السنوسيون على ميدان القتال اشتبك المجاهدون مع الطليان فى مناوشات كثيرة ، ثم التحموا معهم فى منطقة بنغازى فى معركة عند (الكويفية) فى ٢٨ نوفمبر ١٩١١ وهاجموا بنغازى وتحمل الطليان عناء كبيرا فى الدفاع عنها (فى ٢٥ ديسمبر ١٩١١) . وبعد حضور عزيز على بك المصرى قائدا لمنطقة بنغازى جرت وقائع كثيرة ، فهجم العرب على استحكام (مشويليك) وقضوا على الحامية الطليانية به (١٥ يناير ١٩١٢) .

وفى اليوم التالى هاجموا استحكام (الفويهات) . وفى ١٨ يناير اشتبك المجاهدون مع العدو فى واقعة (الزويتينة) واشترك الأسطول الطليانى فى المعركة .

وفى ٢٢ فبراير هجم العرب (السنوسيون دائما) على استحكام الطليان عند (اللثامة) . وعندما حاول الطليان بعد أربعة أيام احتلال (غريونس) على شاطىء البحر وزحفوا إليها من جهة استحكامهم فى (شويليك) صدهم العرب عنها وألحقوا بهم الهزيمة . وفى ١٢ مارس التحم الفريقان فى معركة (سوانى عبد الرانى) المشهورة عند الطليان باسم معركة النخلتين .

ويقول الأمير شكيب أرسلان . « وفى ١٢ مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة فثار فى وجوههم الطليان واشتد الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى مجاهد من العرب . وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب إمداد هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التى كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظلام وعند ذلك نجا فلهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار ، ويقال إنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين .

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة ، وكانت هذه الوقعة قد شقت كثيرا على العرب وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدتهم . وبينما العرب فى مأتم على قتلاهم وردت برقية من أنور القائد العام فى درنة

إلى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عن برقية من رومة تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم» .

وحدثت بعد ذلك جملة مناوشات ووقائع صغيرة بين الفريقين فى الفويهات أيضا (٤ ابريل) وعند استحكام السلمانى ، وواقعة البركة ، وفى ١٩ يونية حدث اشتباك بين دورية العرب فى الكويفية (وكانت ٥٥ مجاهدا فقط) وبين الطليان فى (سوانى عثمان) وكان هؤلاء مجهزين بالمدفعية الجبلية والصحراوية ، ومع ذلك فقد صمد العرب أمامهم حتى وصلتهم النجدات وعندئذ انهزم الطليان وغنم العرب أسلابا كثيرة .

وأما فى منطقة (درنة) فقد اشتبك الطليان مع العرب المخيم شرقى درنة فى معركة فى ١٧ يناير ١٩١٢ ؛ وفى ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا ، وهو ملآن بالمدافع الهائلة الكبيرة . وكان هجوما بجرأة نادرة المثال فى تواريخ الحروب ، إلا أن البراعصة لم يقدروا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً » .

وفى ١١ و ١٢ فبراير شن المجاهدون بقيادة أنور بك غارات ليلية على استحكامى الطليان فى (لمبارديا) و (كلابريا) ، وفى ٣ مارس وقعت معركة أخرى هامة فى (سيدى عبد الله) ثم استمرت المناوشات والمعارك الصغيرة إلى نهاية مارس . وفى أثناء ذلك كله كان الأسطول الطليانى يشترك فى هذه المناوشات والمعارك فى البحر ، هذا إلى جانب ما كان يقوم به من أعمال أخرى ، أهمها إنزال القوات والنجدات الايطالية إلى البر من وقت إلى آخر ثم حراسة القوافل فى البحر .

ويصف توزيع القوات العثمانية والعربية المجاهدة فى ميادين القتال فى هذه الآونة السيد تحسين العسكرى بك وكان سيادته من أوائل العراقيين المتطوعين فى هذه الحرب فوصل عن طريق مصر ومريوط والسلوم وطبرق (بئر الغزالة) إلى معسكر المجاهدين بالقرب من درنة فى يونية ١٩١٢ فقال عن « الوضع الحربى فى ٢٢ حزيران (يونية) سنة ١٩١٢ م — كانت جميع معسكرات الجيش العثمانى تبعد عن السواحل مسافات تتراوح من ١٥ كيلومترا إلى ٢٠ كيلو متر نحو الجنوب ، وذلك لتكون مصونة من قنابل مدافع الصحراء الطويلة المدى ومدافع الأسطول الإيطالى ، وأما الخطوط الأمامية فلم تبعد عن معسكرات العدو أكثر من ٥ كيلومترا . وينقسم ميدان بنغازى إلى ثلاث مناطق وكان قائدها العام المقدم ضابط الركن أنور بك (الذى عين وكيل القائد العام فى سنة ١٩١٤ فى الحرب العظمى) ، وهى : — (المنطقة الأولى) بنغازى

بقيادة المقدم ضابط الركن عزيز على بك المصرى ، (المنطقة الثانية) درنة . بقيادة المقدم ضابط الركن مصطفى كمال بك (رئيس جمهورية تركيا الغازى مصطفى كمال باشا) ، (المنطقة الثالثة) طبرق . بقيادة الفقيد ناظم بك ضابط الركن ، وكان الرئيس الأول وسليمان عسكرى بك رئيسا لضباط الركن فى بنغازى » .

* * *

بيد أن الحرب الليبية — الايطالية فى هذه الآونة كانت قد وصلت «من الوجهة الرسمية» إلى نهايتها بين تركيا وإيطاليا ، عندما قبل العثمانيون تحت ضغط الدول الأوربية ، وبسبب الهزائم التى أصابتهم فى ميادين أخرى ، الدخول فى مفاوضة من أجل عقد الصلح مع إيطاليا وبدأت هذه المفاوضات فعلا فى لوزان فى ١٢ يولية ١٩١٢ .

والواقع أنه منذ حشد السنوسيون جموعهم وصمدوا للجيوش الإيطالية بعد نزولها إلى الشواطىء ، ثم تقاطر المتطوعون على طرابلس وبرقة من كل حدب وصوب لشد أزر المجاهدين ، وصممت الدولة العثمانية على المقاومة فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين أمثال أنور ومصطفى كمال ، وكابد الايطاليون خسائر فادحة فى معارك شهر أكتوبر ١٩١١ على وجه الخصوص ، وجدت إيطاليا لذلك كله أن خير وسيلة لإرغام الأتراك على قبول الصلح هى غزو السواحل العثمانية ومحاصرتها ، ولم يمنعها من ذلك سوى معارضة الدول الأوربية . ومع هذا فقد وافقت هذه الدول على أن تطلق يد إيطاليا فى مهاجمة ساحل البحر الأحمر العثمانى — بدلا من مهاجمة شواطىء الدولة فى أوربا ، فضرب الأسطول الايطالى فى البحر الأحمر المراكز والموانى العثمانية فى الصليف والقنفذة والشيخ سعيد والحديدة وغيرها فى عمليات استمرت من يناير إلى يولية ١٩١٢ ، وعلاوة على ما تقدم فقد شجع الايطاليون الثوار فى العسير على الدولة .

وفى هذه الظروف توسطت الدول منذ مارس ١٩١٢ (انجلترة والروسيا والمانيا والنمسا وفرنسا) من أجل عقد الصلح بين الفريقين المتحاربين ، تركيا وايطاليا . ولكن هذا التوسط لم يثمر ثمرته المرجوة لأن إيطاليا أرادت أن تنتزع من تركيا الاعتراف بضم طرابلس الغرب إلى ممتلكاتها . بينما صعب على تركيا النزول عن هذه الولاية لجملة أسباب من أهمها ولاشك خوفها سخط الرأى العام فى داخل البلاد العثمانية وعدم إقراره لأى صلح ينعقد على مثل هذه الشروط الظالمة ؛ هذا إلى ظهور حركة واسعة فى معسكرات المجاهدين أنفسهم فى برقة

وطرابلس على أساس المطالبة بجلاء ايطاليا وإخراجها كلية من البلاد ، بمجرد أن ترامى إليهم خبر مساعى الصلح ، وكان المتزعم لهذه المعارضة القوية ، كما هو منتظر ، بطل الجهاد الأول وزعيم المجاهدين السيد أحمد الشريف .

ويحفظ التاريخ للزعيم والمجاهد الكبير خطابا مشهورا بعث به إلى أنور بك فى درنة يذكر فيه ما بلغه من أن الدولة تعتزم بالاتفاق مع الدول إعطاء طرابلس إلى الايطاليين ، فيعارض فى ذلك ، ويقول رحمه الله : « نحن والصلح على طرفى نقيض . ولا نقبل صلحا بوجه من الوجوه » ، إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو . » وزيادة على ذلك فقد حذره السيد مما سوف يحدثه ولاشك قبول الصلح فى نفوس المسلمين فى جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية . وحمل هذا الكتاب ، كما يقول أحد المؤرخين — أربعون شيخا من كبار السنوسية المجاهدين إلى القائد العثمانى ، وتحدث الوفد فى هذا المعنى أيضا مع أنور وأبلغوه رأى السيد ، فوعدهم أنور خيرا .

ولم يكن المجاهدون فى برقة هم وحدهم الذين قرروا المضى فى القتال ورفضوا الصلح مع إيطاليا على أساس غير الجلاء عن بلادهم . فقد صرح بمثل ذلك أيضا زملاؤهم فى طرابلس الغرب ، فأرسل سليمان البارونى برقية إلى مجلس النواب العثمانى يعارض فيها باسمه وباسم إخوانه المجاهدين عقد أى صلح مع ايطاليا لا يكفل جلاءها عن البلاد التى أغارت عليها .

ومع ذلك لم يكن مقدرا أن تلقى هذه الرغبات جميعها ترحيبا من جانب الحكومة العثمانية لأن تركيا باتت تهتم فى هذه الآونة بإنهاء الحرب الطرابلسية قبل كل شىء . وذلك لأنها رأت الحرب تمتد إلى الشواطئ التركية وممتلكات الدولة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تتوقع اندلاع نيران الحرب فى شبه جزيرة البلقان عند أول بادرة ، وتريد أن تتفرغ لمواجهة الأخطار الجديدة .

وأما سبب هجوم الايطاليين على ممتلكات تركيا فى البحر الأبيض فهو أن إيطاليا كانت قد اتفقت سرا مع الدول العظمى على أن تطلق هذه يدها فى مهاجمة السواحل العثمانية والإغارة على جزرها وممتلكاتها فى البحر الأبيض إذا أخفقت وساطة الدول مع تركيا ، فلما تعذر على الباب العالى قبول التسوية التى عرضتها عليه الدول ، اعتدت الأساطيل الايطالية على السفن والمراكز العثمانية فى البحر الأبيض ، وحاول الاسطول الايطالى فى شهر ابريل ١٩١٢ أن يقتحم مضيق الدردنيل ولكن نيران العثمانيين لم تلبث أن ردت الطليان على أعقابهم ، وعندئذ انصرف هؤلاء إلى الهجوم على جزر (الدودكانيز) فاحتلوا رودس وبقية الجزر القريبة منها (فى مايو) ، وساءت حال الدولة وزادها سوءا وجود الانقسامات الداخلية

والمنازعات بين الائتلافيين من خصوم الوزارة والاتحاديين أنصارها ، وعندئذ رأى الأتراك من الخير أن يتكاتف كبار الساسة والزعماء لمعالجة هذه الصعوبات ، فتألفت (الوزارة الكبيرة) لأنها تضم كبار القوم فى ٢٣ يولية ١٩١٢ ، وسقطت وزارة حقى باشا القديمة ؛ وحدث هذا فى الوقت الذى كانت لاتزال فيه مفاوضات الصلح جارية بين تركيا وإيطاليا ، وهى المفاوضات التى بدأت — كما تقدم — فى لوزان يوم ١٢ يولية ١٩١٢ .

وكان لسقوط وزارة حقى باشا ، التى بدأت فى عهدها مفاوضات الصلح مع الطليان ، والتى ذاع اتهامها بالتواطؤ مع العدو ، بعض الأثر فى تهدئة خواطر المجاهدين نوعا ما فى برقة وطرابلس لأن أعظم ما كانوا يخشونه أن يقبل الأتراك الصلح مع إيطاليا وأن يتخلوا عن طرابلس وبرقة . ولكن سرعان ماتجددت مخاوف السنوسيين وإخوانهم المجاهدين العرب عندما وجدوا الوزارة الجديدة تستأنف المفاوضات بشكل جدى . فقد أسرعت الحكومة العثمانية بمجرد تأليف هذه الوزارة فى إرسال تعليماتها إلى مندوبيها فى مؤتمر الصلح حتى يواصلوا مفاوضاتهم وأكثر السنوسيون من الاحتجاج على هذا العمل ، وكان فى هذه الآونة أن رأى أحد المجاهدين العرب الذين وفدوا إلى برقة للاشتراك فى النضال ضد العدو المعتدى ، أن خير خدمة يسديها لمصلحة الأقطار الليبية ، هى الذهاب بسرعة إلى الاستانة ولمذاكرة رجال الوزارة الجديدة . وهى وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمى باشا فى أمر طرابلس وثنى عزمهم عن التساهل مع الطليان ، كما كان شائعا . وكان هذا المجاهد الكبير ، الأمير شكيب أرسلان ، من أشد خصوم ايطاليا وأعدائها فى تلك الآونة (يولية — أغسطس ١٩١٢) .

بيد أن رغبة المجاهدين فى الأقطار الليبية ، كما صرح بها أميرهم وزعيمهم السيد أحمد الشريف ، لم تؤثر شيئا فى تعطيل أو وقف مفاوضات الصلح ، وعلى ذلك فقد ظل المندوبون العثمانيون يقلبون وجوه الرأى مع المندوبين الطليان طوال شهر أغسطس ، ثم فى خلال الأسبوعين الأولين من شهر سبتمبر ، يرجون الظفر بصلح مشرف ، حتى إذا تلبد الأفق السياسى فى بلاد البلقان وتحرجت الأمور فى هذا الجانب من ممتلكات الدولة العثمانية ، ووجدت تركيا أن لا مناص لها من خوض غمار حرب جديدة فى النهاية ، بادرت الوزارة بانتداب أحد أعضائها للسفر إلى المؤتمر مزودا بسلطات واسعة ، فوقع الفريقان على معاهدة الصلح فى أوشى (لوزان) فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ . وبمقتضاها تعهدت الدولتان بإيقاف الحرب ، وتعهد العثمانيون باستقدام ضباطهم وجيوشهم وموظفيهم المدنيين فى طرابلس .

ولمعاهدة أوشى ثلاثة ملاحق : أولها منشور من السلطان العثمانى إلى سكان طرابلس

الغرب وبرقة بمنحهم فيه « بما له من حقوق السيادة استقلالا داخليا مطلقا وتاما » ، ويعين ممثلا له فى بلادهم بمنحه لقب (نائب السلطان) لحماية المصالح العثمانية ، ثم يحتفظ بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نائبين عنه من العلماء وأبناء البلاد حتى يقضوا بين الأهلين طبقا لأصول الشريعة الغراء . وأما الملحق الثانى فكان عبارة عن منشور صدر من جانب ملك إيطاليا إلى سكان طرابلس الغرب وبرقة جاء فى مقدمته «عملا بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعا تاما مطلقا للسيادة الملوكية الإيطالية ، ورغبة فى التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين » . أصدرت الحكومة الايطالية مرسوما أهم ما جاء فيه إلى جانب منح العفو العام للطرابلسيين والبرقاويين ، وعد إيطاليا بالمحافظة على الشعائر الدينية الإسلامية بما فى ذلك « ذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة » . وأما الملحق الثالث والأخير فكان يتصل بأمر العفو عن سكان جزر بحر إيجه الذين اشتركوا فى الأعمال العدائية ضد العثمانيين فى أثناء الحرب.

وقعت الحكومة العثمانية على هذه المعاهدة من غير أن تستشير الزعماء العرب ، وأغفلت رغبات المجاهدين السنوسيين الذين قامت على أكتافهم هذه الحرب بقيادة السيد أحمد الشريف فلم يكن لهم رأى فى هذه المقررات التى تناولت مصيرهم ، هذا على الرغم من أن هؤلاء مع بقية إخوانهم المجاهدين العرب ، كانوا يقومون بعبء الحرب الأكبر . وأرغموا إيطاليا ذات الجيوش المجهزة بالأسلحة الحديثة والعتاد ، والتى حمى أسطولها ظهور جندها فى البحر — على البقاء بالسواحل ، وعدم الجرأة على التوغل فى الداخل ، وكان كل اعتماد الدولة عليهم وبخاصة عند ماجاءت أوامر وزارة الحرب العثمانية إلى السلطات الحكومة المحلية بالانسحاب والتقهقر إلى المراكز الداخلية ، ليس فقط فى مناوشة العدو ، بل وفى حماية العدد القليل من الجند العثمانى الذى سمحت وزارة حق باشا ببقائه فى طرابلس الغرب ، وطلبت الدولة إلى رجالها فى برقة فى ظروف الحرب فى هذه الأيام العصيبة الأولى أن يشركوا معهم فى الرأى زعماء وشيوخ السنوسية ، وأسرع هؤلاء لنجدة العثمانيين والذود عن وطنهم .

ومع هذا وعلى الرغم من ذلك كله فإن الدولة لم تكن قانعة على ما يبدو بأنها سلمت بمقتضى (المعاهدة) الأقطار الليبية إلى العدو ، بل أرادت الإمعان فى استثارة شعور العرب والمجاهدين ، عند ما أرسلت إلى طرابلس (نائباً للسلطان) فى شخص (شمس الدين باشا) لم يلبث أن أظهر بمجرد وصوله ميلا واضحا نحو إيطاليا . فصار يدعو العرب إلى وضع السلاح والتسليم والكف عن المقاومة . وفرح به الطليان وطربوا لقدومه ، وأخذوا يجمعون له الناس فى طرابلس وبنغازى حتى يتلو على أسماعهم (الفرمان السلطانى) ، ثم لم يكتف

شمس الدين بذلك ، بل شرع يخطب الأهلين ويحضهم على ترك السلاح ويطلب إليهم أن يقبلوا العيش تحت الحكم الإيطالى . وزيادة على ذلك فقد بادرت الحكومة العثمانية — عملا بنصوص المعاهدة أيضاً — بإرسال التعليمات إلى قواد الجيش فى برقة وطرابلس حتى يكفوا عن القتال ويعودوا إلى تركيا .

ومع هـذا ، فقد كان موقف العثمانيين وقتئـذ فى غاية من الحرج . فهم من ناحية كانوا مضطرين إلى التفرغ لمواجهة الحرب الجـديدة فى البلقان ، بينما كان تخليهم من ناحية أخرى عن طرابلس الغرب أمراً يسقط من هيبتهم فى نظر شعوب العرب وبلدان الخلافة الإسلامية أضف إلى هـذا أنه لم يكن من الهين على الحكومة العثمانية أن تقبل انسلاخ الأقطار الليبية عن جثمان الدولة ، بدليل أن المفاوضين العثمانيين امتنعوا عن الاعتراف صراحة فى المعاهدة بانفصال هذه البلاد ودخولها ضمن الممتلكات الإيطالية ،فمنحوا البلاد«استقلالا داخليا مطلقا وتاما » ، واحتفظوا بنائب للسلطان فى ليبيا . ولذلك ظلت تركيا فى الفترة القصيرة التالية من تاريخ توقيع معاهدة (أوشى) فى أكتوبر ١٩١٢ إلى وقت قيام الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ ، تتردد بين أمرين : بذل المسـاعدة للسنوسيين وحضهم على مواصلة الكفاح والقتال ضـد إيطاليا ، أو العمل على احترام نصوص المعاهدة ومنع المساعدة عن السنوسيين خوفا من استثارة الطليان ضد تركيا فى الحرب البلقانية . وقد استمرت تركيا مترددة بين هذين الأمرين حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ، قررت مؤازرة السنوسيين وذلك مما جعل من الأقطار الليبيـة ميداناً للحرب تشنها على الدول المتحالفة الغربيـة وخصوصا عند ما انضمت إيطاليا (فى مايو ١٩١٥) إلى جانب هذه الدول المتحالفة . وفى ضوء هذه السياسة العثمانية يمكن تفسير ما وقع من حوادث بعد إبرام الصلح مع إيطاليا فى عام ١٩١٢ .

فمع أن الدولة لم تلبث أن استدعت قوادها وضباطهـا كما تقدم ، فقد قرر أنور عند ما اعتزم مغادرة البلاد أن يسلم القيادة العامة إلى عزيز على المصرى قائد منطقة بنغازى ، وأن يزور السيد أحمد الشريف الذى انتقل عندئذ من الكفرة إلى الجغبوب . فأما تسليمهم القيادة العامة لقائد آخر من الذين اشتركوا فى النضال ، فكان معناه أن (ممثل) الدولة فى الأقطار الليبية ما كان يرى فى عقد الصلح سببا يدعو فى الحقيقة إلى وقف القتال فى ليبيا ؛ بل إن هناك من يقول إن أنور باشا عندما استقدم إليه عزيز بك المصرى . (وكان عزيز المصرى وقت نشوب الحرب الليبية — الإيطالية فى أرض اليمن) ، إنما كان يريد ، إذا اضطرت الحكومة العثمانية إلى قبول الصلح مع إيطاليا فى آخر الأمر ، أن يبقى عزيز المصرى فى الميدان لإدارة الأعمال العسكرية ، ويدعو وجوده فى الوقت نفسه ، وهو مصرى الجنسية إلى إقبال مصر

على مساعدة العرب الذين يتولى قيادتهم . ومع أن مصر أقبلت بالفعل على مساعدة الطرابلسيين فى جهادهم مدفوعة بعاطفة العروبة القوية ورغبة الانتصار للمظلوم على الظالم المعتدى ، فقد تبدل موقف حكومتها بعد عقد الصلح ، بينما ظل عزيز المصرى يدير دفة الحرب فى منطقته ويشجع أهل طرابلس المجاهدين بزعامة سليمان البارونى على المقاومة حتى اضطر هو الآخر — أى عزيز المصرى — إلى الانسحاب من الأقطار الليبية فى ظروف سوف يأتى ذكرها .

وعلى كل حال فإنه لما كانت رغبة الدولة واضحة عند عقد معاهدة (أوشى) فى عدم التخلى عن ليبيا ، وكانت لا تزال مترددة فى خطتها وتريد أن تستمر المقاومة ضد إيطاليا بزعامة السنوسية العتيدة فقد رأى أنور باشا من واجبه زيارة أمير السنوسية لتبليغه ما صح عليه عزم الخليفة والسلطان العثمانى . فقرر الذهاب إلى الجغبوب ، وعلى ذلك استقل أنور باشا سيارته فى يوم ١٩ نوفبر ١٩١٢ ، وكانت هذه أول سيارة دخلت الصحراء ، فبلغ الجغبوب فى اليوم التالى وقوبل بحفاوة عظيمة وكان السيد أحمد الشريف مع الإخوان وأهل جغبوب ينتظرونه للترحيب به خارج الزاوية . وأقام أنور فى ضيافة السيد ثلاثة أيام عاد بعدها إلى معسكر درنة ثم غادرها بسيارته إلى السلوم ومنها إلا الإسكندرية ؛ ثم إلى رومة متنكراً ومنها إلى الآستانة كى ينظم جيوش الدولة استعداداً لحرب البلقان . وفى أثناء إقامته بالجغبوب أبلغ أنور السيد أوامر الخليفة وأدلى إليه برغائبه ، فكانت هذه « إسناد أمر الأمة الليبية إلى سيادته وإخباره بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها » .

ولهذا التبليغ ولا شك أهمية عظيمة ، فهو إلى جانب أنه يفصح عن مقصد تركيا من « منح البلاد استقلالا داخليا مطلقا وتاماً » ويدل على أن تركيا ما كانت تريد فى هذا الوقت أن تسلم الأقطار الليبية إلى إيطاليا على الرغم من توقيع المعاهدة ، فهو — أى التبلغ — قد دعم نهائياً أركان الإمارة السنوسية المستقلة . ومن هذا التاريخ يتغير حتما موقف هذه الإمارة من دولة الخلافة تغيراً جوهرياً .

فإنه منذ اعترفت تركيا (بإمارة) السنوسيين فى عهد المؤسس الكبير السيد محمد ابن على السنوسى ؛ ثم أيدت هـــذا الاعتراف فى ظروف شتى بعد ذلك فى أيام السيد المهدى ، ظلت تركيا تبسط على البلاد سيادتها ، وظل السنوسيون منضوين تحت لوائها ولواء الخلافة يشدون أزر الدولة ويحفظون لها السيادة على الأقطار الليبية ؛ ثم لم يغير السيد أحمد الشريف شيئا من هذا كله منذ تسلم زمام الأمور بعد وفاة عمه السيد المهدى . أما الآن

فقد أعطى صاحب الحق الشرعي والقانوني وهو الخليفة الاستقلال إلى السادة السنوسية وأسند إليهم النظر فى شئون الأمة الطرابلسية ، فأضحى من هذا التاريخ « استقلال » الإمارة السنوسية حقيقة كاملة لا من ناحية الأمر الواقع فحسب ، بل ومن الناحية الشرعية والقانونية كذلك ؛ ولم يكن فى هذا الوضع الجديد وجود نائب السلطان أو ذكر الخليفة الإسلامى فى الصلوات العامة إلا مظهراً من مظاهر التقاليد الإسلامية واحتراما لرابطة الخلافة العظمى ؛ ثم بمثابة الضمان أو السياج الواق من أطماع الإيطاليين الذين قرروا بسط « سيادتهم » على البلاد ، على الرغم من أن هذه « السيادة » بعد حروبهم العدوانية كانت لا تستند إلى أى أساس شرعى أو قانونى . وزيادة على ذلك فقد أصبح للسنوسيين بمقتضى « التبليغ » حق الحكم ، كما انتقلت إليهم أيضا حقوق السيادة فى طرابلس إلى جانب برقة . وقد عبر أحد الكتاب المؤرخين عن هذه الحقيقة بقوله : « إن السيد أحمد الشريف كان يعتبر نفسه مسئولا أمام الله والناس عن القطر الليبى كله ، لأن أنور باشا أبلغه رسميا بأن الخليفة الأعظم سلم لسيادته مقاليد الأمور للقطر الطرابلسى كله ، وفوض له الأمر حسب ما يرى ويريد . أما قبل ذلك فكان سيادته مساعداً للحكومة العثمانية بكل ما أوتى من نفوذ وجاه لأنها هى دولة الخلافة وصاحبة الشأن » .

أضف إلى هذا أنه لما كان السيد أحمد الشريف فى هذه المقابلة مع أنور قد وافق على تسليم القيادة العامة فى برقة إلى عزيز المصرى بك ؛ فقد ذهب القائد الجديد إلى الجغبوب حتى يشكر السيد على تعيينه ؛ وصحبه فى هذه الرحلة السيد عمر المختار .

وعلى ذلك لم يتوقف الجهاد ضد الإيطاليين فى ليبيا على الرغم من توقيع تركيا معاهدة (أوشى) بل ظل يشرف عليه السيد أحمد الشريف ، ويقود عملياته العسكرية عزيز المصرى . وعبثا حاول الطليان أن يثنوا القائد العام الجديد عن مواصلة الكفاح عند ما أبلغوه نبأ عقد الصلح ودعوه إلى التسليم ؛ فقد أبى عزيز بك أن يسلم إليهم وقرر الجهاد إلى النهاية ؛ وأظهر فى هذا الكفاح السيد عمر المختار بسالة نادرة ومقدرة كبيرة .

وكان القتال فى هذه الآونة يدور فى ميدانين : طرابلس الغرب وبرقة . أما فى طرابلس فقد تطورت الحال بعد استسلام تركيا وقبولها الصلح فى (أوشى) ؛ وكان هـذا التطور لمصلحة استئناف الجهاد بكل همة عندما عقد زعماء المجاهدين والوطنيين جملة اجتماعات فى لواء الجبل الغربى ولواء فزان وورفله ، وقرروا الاستفادة من منشور السلطان الملحق بالمعاهدة ، والذى يقرر فيه السلطان « بما له من حقوق السيادة على سكان طرابلس الغرب وبرقة » منحهم « استقلالا داخليا مطلقا وتاما » . فاجتمعت كلمتهم على قبول هـذا الفرمان

والرضاء به ، وكلفوا الشيخ سليمان البارونى « بإعلان استقلالهم وتبليغه إلى من يلزم التبليغ إليه وتشكيل حكومة تقوم بما يلزم اتخاذه من حفظ الراحة وتعميم الأمن ومحافظة شرف الدين والوطن على قواعد الشرع الشريف والنظامات العمرانية مع القيام بكل ما يجب اتخاذه من وسائل المدافعة كالمال والرجال والسلاح » . وتولى سليمان البارونى رئاسة الحكومة الجديدة ، وقام بتبليغ ما حدث إلى الدول وإلى شمس الدين باشا نائب السلطان فى طرابلس وأرسل وفد إلى أوروبا مهمته السعى لدى الدول حتى ينال اعترافها بالحكومة الجديدة ، ثم تنظيم الدعاية فى الخارج لهذه الحكومة . وفى أواخر العام نفسه (١٩١٢) شرع البارونى ينظم الحكومة والإدارة فى البلاد ، ولكن الحكومة الطرابلسية الجديدة لم تلبث أن صادفت جملة صعوبات : منها أن نائب السلطان كان قد انقلب كما تقدم داعية للطليان يحض الناس على ترك السلاح وقبول العيش تحت حكومتهم ؛ فأرسل إلى البارونى رداً على « تبليغه » أشعره فيه بأنه لا يزال نائب السلطان فى طرابلس وبنغازى ويردد ما ذكر عند ما خطب فى أهل طرابلس وبنغازى من « آيات وجوامع كلم » كان شمس الدين باشا يظن كما قال « أن فيها صلاح من فى هذه البلاد من المسلمين خاصة ، ومن سائر الأقطار منهم عامة » . وكانت رسالة شمس الدين باشا المثبطة هذه فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٢ ؛ وكذلك حاول الإيطاليون أن يقنعوا المجاهدين فى طرابلس الغرب حتى يلقوا السلاح ويكفوا عن القتال ؛ وبذلوا جهوداً كبيرة لإغراء البارونى على الاتفاق معهم والتسليم بالأمر الواقع . وكانوا قد بدءوا هذه المحاولة قبل توقيع صلح (أوشى — لوزان) بمدة طويلة ، منذ أرسل الجنرال (سالساتو مارو) إلى البارونى فى ١٦ يناير ١٩١٢ رسالة طويلة حتى يتقرب من الأتراك الذين قال الجنرال الإيطالى عنهم « إنهم أفقروا بلاد (البارونى) وأوقعوها فى البؤس والجهل » وكى يحبب إليه مقاصد الطليان ، ويحمله فى الوقت نفسه « أمام البارى عز وجل وأمام الناس » هو ورؤساء وأعيان العرب الذين فضلوا تعضيد الأتراك « مسئولية إهراق الدماء السائلة كل يوم » كما وعده إذا أقبل على مساعدة إيطاليا بأن « تنسى هذه ما أسلفه (البارونى) فى حقها إلى هذا اليوم وتمنحه تمام العفو ، وتكافئه على خدماته بصورة تفوق تصوره » . ولكن هذه المساعى ذهبت سدى ، فقد أجاب البارونى على هذه الرسالة فى ١٩ فبراير ١٩١٢ بكلمات قليلة ولكنها كانت كافية لإظهار عزمه على مواصلة الكفاح ضد إيطاليا .

وقد سبق وصف العمليات العسكرية فى ميدان طرابلس إلى الوقت الذى احتل فيه الإيطاليون مراكز سيدى عبد الجليل وسيطروا على مدينة زنزور فى يونية ١٩١٢ ؛ فقد تجمع العرب والأتراك بعد ذلك لتخليص هـــذه المراكز والتحموا مع الطليان فى معركة

(زنزور الثانية) فى ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ ولكن النصر لم يكن حليفهم . ثم استطاع الطليان بعد معاهدة (أوشي — لوزان) وإعلان فرمان السلطان الذى يقرر الصلح مع إيطاليا أن يحتلوا منطقة الجفرة إلى الجبل ، بما فى ذلك غريان ومسلاته ومصراته وبنى الوليد فى مدة ثلاثة شهور تقريباً ؛ ولم يحدث اصطدام كبير مع العرب إلا فى (قصبات) فى ١٤ ديسمبر ١٩١٢ وفى بنى الوليد فى ٦ فبراير من العام التالى ؛ كما اشتبكوا مع الحامية العثمانية فى (سرت) فى آخر ديسمبر ١٩١٢ .

بيد أن البارونى كان لايزال يجمع حوله جيشاً كبيراً من العرب فى منطقة الجبل الغربية ، ولم يفت فى عضده استيلاء الطليان على غريان ، فاضطر هؤلاء إلى سوق الجيوش ضده واشتبكوا مع قواته في معركة (أصابة) فى ٢٣ مارس ١٩١٣ ، واحتلوا منطقة الجبل حتى (نالوت) والحدود التونسية ، ثم زحفوا بقواتهم على واحة (غدامس) فاحتلوها فى إبريل وعلى (مزده) فاحتلوها فى يولية . ثم جهز الطليان بعد ذلك حملة كبيرة لاحتلال (الفزان) فغادر جيشهم (سرت) إلى (سوكنة) واحتلوها ، وهب أهل (فزان) للدفاع عن بلادهم ، وخرجت منهم قوة كبيرة بقيادة (محمد بن عبد الله) لمقابلة الطليان فالتحموا معهم فى ثلاث معارك شديدة فى (سرير الشيب) ، (شيده) ، (محروقة) بين ١٠ و ١٤ ديسمبر ١٩١٣ وقتل القائد العربى فى ساحة القتال .

وأمام هذه الصعوبات لم يلبث سليمان البارونى أن وجد مواصلة القتال تقتضى بذل جهود عظيمة وتتطلب موارد كثيرة ؛ هذا بينما كانت قوات العدو متفوقة فى كل مكان تقريباً فرأى من الأفضل إذا استطاع أن تنال طرابلس استقلالا إداريا وداخليا تحت سيادة إيطاليا ولكن الإيطاليين الذين ما كانوا يبغون سوى إخضاع هذه البلاد تماما لسيطرتهم أخذوا يسوفون ويماطلون ، بينما حشدوا قواتهم للقيام بالعمليات العسكرية التى أسفرت عن تراجع البارونى والمجاهدين معه إلى (يفرن) ونفاد المؤن التى معهم : ولما كان الطليان فى أثناء ذلك قد قبلوا مبدئيا إرسال وفد إلى تونس للمفاوضة مع البارونى ، كما أخبروه بأنهم يقبلون الاعتراف باستقلال طرابلس الغرب داخليا ، فقد وجد المجاهدون فى قبول إيطاليا فرصة مواتية لإنهاء القتال والخلاص من العسر الذى هم فيه بسبب نضوب ذخائرهم وانقطاع ورود الأسلحة إليهم وعجزهم عن رد العدو ؛ ولذلك قرروا الدخول فى المفاوضة والالتجاء إلى حدود تونس . وكان مما أحيي آمال الطرابلسيين أن الكونت سفرزا — وقد تقدم ذكره — لم يلبث أن أرسل الدعوة إلى البارونى وهو فى طريقه إلى الحدود حتى يقابله فى تونس ذاتها للمفاوضة . بيد أن الأمل فى الحصول على الاستقلال الداخلى لم يلبث أن ضاع عندما طلب الإيطاليون تغيير الأساس الذى وافقوا عليه فى أول الأمر لعقد الصلح أى الاعتراف

باستقلال طرابلس الداخلى ؛ ذلك أن الانتصارات التى أحرزوها أخيرا من شأنها أن تغير ذلك . وعندئذ وافق الفريقان على قواعد جديدة تتضمن العفو عن المجاهدين ثم بعض المنافع الأخرى لهم . وأصدرت الحكومة الإيطالية هذا العفو . واضطر البارونى أمام الرغبة التى أبدتها السلطات الفرنسية بتونس إلى أن ينصح اللاجئين الطرابلسيين بالعودة إلى بلادهم ؛ فرضى فريق منهم بالعودة إلى أوطانهم . وفضل فريق آخر الارتحال بأسلحتهم إلى (فزان) و(غات) لمواصلة الجهاد ضد العدو . وأما البارونى فقد ارتحل الى الآستانة عن طريق مرسيليا ، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩١٣ .

وفى برقة ميدان الجهاد الثانى استمر القتال من غير هوادة ، فامتدت الجبهة الى آثار (قصر رأس اللبن) ، وفى ١٤ سبتمبر ١٩١٢ اشتبك الفريقان فى معركة سيدى عبد الله الثانية ؛ وبعد ذلك بأيام هاجم العرب ـ وهم السنوسيون دائما فى هذا الميدان خصوصاً ـ والأتراك بقيادة أنور بك مراكز الطليان الجديدة ، فصدهم الطليان فى معركة (قصر رأس اللبن) فى ١٧ سبتمبر ؛ وانهزم أنور بك بعد ذلك فى معركة سيدى عبد الله الثالثة فى ٨ أكتوبر ثم فى معركة (براق سادا) فى ١٠ أكتوبر ١٩١٢ ؛ واستمرت المناوشات بعد ذلك فى الجنوب الشرق من بنغازى وبالقرب من طرق . وعندما تم الصلح فى أوشى ـ لوزان ، صرح أنور بجلاء ـ كما يقول مؤرخو الطليان ـ أنه لايقبل الصلح ، ولذلك لم ينسحب بقواته من برقة ، بل حرص عندما اضطر الى مغادرة البلاد على حسب أوامر الحكومة العثمانية ، استعدادا لخوض غمار الحرب البلقانية على أن يترك بالبلاد مقاومة منظمة ضد الإيطاليين . وآزره السنوسيون بطبيعة الحال مؤازرة عظيمة ؛ واشتدت العمليات العسكرية فى ميدان برقة ، بفضل الانسجام الذى زادت أسبابه توطدا بين الجند العثمانى النظامى وبين المجاهدين العرب ، واستأنف عزيز المصرى العمليات العسكرية بكل جد وهمة . وفى هذه الظروف قررت الحكومة الإيطالية احتلال الجبل الأخضر ، والتحم الطليان مع المجاهدين فى معارك متعددة فى المنطقه الغربية والوسطى ؛ فاحتل الطليان (طولميثة) فى ١٢ إبريل ١٩١٣ ، ثم (بنينة) بعد معركة حامية فى اليوم التالى ، ثم (المرج) فى ١٩ إبريل ؛ ووقعت فى ٢٢ إبريل معركة (الرحمة) ؛ واحتل العدو (بومريم) بعد ذلك بثلاثة أيام ، و (الأبيار) فى اليوم التالى ، ثم (توكره) فى يوم ٢٩ إبريل ـ وفى ١٦ مايو حصلت فى الجبل الأخضر (واقعة يوم الجمعة) المشهورة بالقرب من درنه ، وهى الواقعة التى اشترك فيها السيد أحمد الشريف مع قبائل العبيدات والبراعصة والدرسة وساهم فيها الضباط العثمانيون ، وانهزم الطليان وارتدوا إلى درنه وكان من جراء هذا النصر أن أصبح للسيد أحمد الشريف شهرة واسعة واعتقد الليبيون أن قوة

إليه هى وحدها التى أعطت هذا النصر . وفى شهر مايو أيضا اشتبك الفريقان فى معركتى (القيقب) و (مرسى مسوسة أو أبو لونيا) واحتل الطليان (القيقب) فى ٢٦ مايو ، ثم (زاوية الفيدية) بعد قتال شديد فى ٥ يونية ، ثم (البويرات) فى الشهر نفسه . ووقعت واقعة كبيرة فى (صفصف) فى أول يولية، واحتل العدو (سلوق) و (قمينس) فى أغسطس ووقعت معارك فى (تكنس) ، (تلجازه) فى سبتمبر ؛ وفى ٣٧ سبتمبر احتل الطليان (الزاوية البيضاء) . وفى اكتوبر ١٩١٣ اشتبكوا مع المجاهدين فى واقعة (عين بوشمال) . وفى المنطقة الشرقية لم يصب الطليان التوفيق فى مبدأ الأمر عندما اشتبكوا مع المجاهدين فى معركة (سيدى جرباعه) فى ٢٦ مايو ، ولكنهم مالبثوا أن احتلوا (التانجى) فى يونية وخربوها ، ثم احتلوا (مرتوبة) فى الشهر نفسه . وفى ١٨ يولية دارت معركة فى (مدور) التى احتلها الطليان .

بيد أن الصعوبات الشديدة سرعان ما أحاطت بالمجاهدين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن وغير ذلك ، ثم بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذى استخدمته إيطاليا مع الدولة العثمانية حتى تأمر هذه الأخيرة باستدعاء بقية القوات التى ظلت تحارب فى برقة بالرغم من عقد الصلح وتكف عن مساعدة المجاهدين إطلاقا ، أضف إلى هذا ما فعلته إيطاليا حتى تصرف الحكومة المصرية عن إمداد المجاهدين فى برقة بما يحتاجون إليه من أسلحة وذخيرة ومؤن.

وكان المصريون من أسبق الشعوب التى أقبلت على نجدة المجاهدين ومساعدتهم فى طرابلس وبرقة فقدشكلت مصر اللجان لجمع التبرعات وخصوصا اللجنة العليا التى تألفت فى ١٤ اكتوبر ١٩١١ برئاسة سمو الأمير عمر طوسن ، ثم جمعية الهلال الأحمر التى تشكلت برئاسة الشيخ علي يوسف وقررت إنشاء عدة مستشفيات ميدان ، فكان من أثر ذلك أن سافرت البعثة الأولى فى ٧ نوفبر فى العام نفسه ؛ ثم توالت البعوث الطبية بعد ذلك . وفى يناير ١٩١٢ أقيمت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية لجمع التبرعات للهلال الأحمر — ومع ذلك فقد وقفت الحكومة المصرية ذاتها من أول الأمر موقف الحياد من النزاع القائم ، فمين الانجليز بدلا من المأمورين المصريين فى الحدود الغربيـة ومنع أهل برقة وطرابلس من دخول الأراضى المصرية ، وفرضت على الحدود مراقبة صارمة حتى تعطلت التجارة بين طرابلس ومصر ، وأرغمت على العودة كل قافلة جاءت بالمتاجر من هذه الأقطار الليبية، ورفض (اللورد كتشنر) المعتمد البريطانى فى مصر إرسال « بعض أورط » من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، كما رفض الموافقـة على تطوع جماعة من الضباط المصريين فى الجيش التركى ، وصرف بعض جنو... ان عن رغبتهم فى الالتحاق بصفوف المجاهدين فى ليبيا ، وذلك كله حتى يتخلص

الورد من « مسئولية حياد مصر » . فكان لهذه الإجراءات أثر ظاهر فى إضعاف قوة المقاومة ضد الطليان فى ليبيا .

أضف الى هذا أن سمو الخديو السابق (المغفور له عباس حلمى الثانى) الذى سهل عليه فى أول الأمر إرسال الإعانات والبعثات الى المجاهدين ، ومن هذه الأخيرة ما كان يحمل مدافع مفككة وسلاحا وذخيرة ومؤونة بعد أن أرسل رشدى باشا (رئيس نظاره) إلى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته ، لم يلبث أن غير موقفه . وحدث هذا التحول تقريبا فى الوقت الذى ذاع فيه أن الدولة العثمانية تبغى التساهل فى أمر طرابلس الغرب حتى تعقد الصلح مع إيطاليا . ويوضح الأمير شكيب أرسلان مدى ما طرأ على موقف الخديو من تغيير فى رسالة بعث بها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوى ، من جنيف فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ ، يشرح فيها ما وقع له عند ما قابل سمو الخديو فى أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر فى طريقه إلى الآستانة للبحث — كما سبقت الإشارة إليه — فى مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة ، فكتب الأمير :

« وعند ما جئت من طرابلس إلى مصر فى شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر الى الآستانة مسرعا . كان السبب فى ذلك أنى علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطالية فخفت أن تهمل طرابلس تماما فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة عن يد الأمير عمر طوسن وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس .

ولما وصلت إلى السلوم قال لى رجال الحكومة المصرية هناك إن سمو الخديوى أرسل يسأل عنى وأمر بأن الباخرة التى تأتى إلى مرسى السلوم تأخذنى أنا وجماعتى إلى الإسكندرية . وانتظرتنى الباخرة فتأخرت عن الورود فرجعت بدونى . فبقيت سائراً حتى وصلت إلى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوى وكان يقال له رأس التركيب . فقالوا لى هناك أيضاً إن الخديوى جاء بنفسه وسأل عنك وقد أمر أنك عند وصولك تعرض له . ففرحت أنا بهذه الأخبار ظانا أن الخديوى متشوق إلى أخبار الجهاد يريد أن يعرفها منى فيلح فى وصولى . فلما وصلت إلى الإسكندرية وجدت صديقى أحمد بك العريس البيروتى أحد أعوان الخديوى فى انتظارى ، فقال لى : إن أفندينا أرسلنى لاستقبالك ولأذهب بك إلى سراى رأس التين لتنزل ضيفاً عنده . فذهبت ودخلت عليه وأنا بثياب السفر بحسب إرادته ؛ وكنت أظن أن أول سؤاله يكون عن المجاهدين وحالة الجهاد ، وكان مرادى أن أقول له إن كل شىء جيد لولا قلة علف البواريد لعله يساعد بطريقة فنزيح هذه العلة . فما راعنى إلا كون الخديوى سأل عن كل شىء ما عدا الجهاد . فبرد وجهى وخرجت منقبض الصدر وكاشفت أحمد العريس بما وجدته فى نفسى ، فقال لى إذا سألك أفندينا عن الحرب فلا تقل له إنه يلزم

جبخانة وأنها قليلة . قلت له لماذا . قال : يجوز إن أفنديناً يقول ذلك لأحد بدون قصد فمن واحد إلى آخر يصل الخبر إلى الطليان . والحقيقة التى علمتها فيما بعد أن الخديوى كان اتفق مع إيطالية على أن يبيعها سكة حديد مريوط بثمن عظيم وبمقابلة ذلك يساعدها على إخماد الحرب . ولكن أحمد العريس لم يكن يقدر أن يبوح بالسر وهو مسلم مخلص فنهنى حتى لا أقول للخديوى إن المجاهدين فى احتياج إلى الجبخانة . ثم كنا على الإفطار لأن الوقت كان رمضان ، وكان على المائدة الخاصة بسمو الخديوى بجانبه حسين باشا رشدى ثم قاضى مصر وكان تركيا ، وهذا العاجز والشيخ على يوسف . وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون كثيرون . وبدأنا بالحديث على الأكل ؛ فقال الشيخ على يوسف : إن الدول قررت عدم إقراض مال لتركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا . فقلت له : إن تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظاً لشرفها . فقال ومن أين تأتى بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن إيطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه - فقال الشيخ على ، إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا كالمليون جنيه بالنسبة إلى إيطاليا فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب . فقلت له : إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامى يقدر على مساعدة طرابلس - فقال : أما نحن أهالى مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين إذ يكونون حينئذ رعية ثائرة على إيطاليا » .

« هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديوى . بل الخديوى كان ساكتاً وقد علت وجهه الحمرة . وفيما بعد فهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديوى لأنه كان مطلعاً على الدسيسة . فأنا لم أكن أعلم شيئاً من هذه الدسيسة . ولم أكن لأبالى بها على فرض أنى علمت بها . فلما سمعت جدال الشيخ على هذا غضبت ، وقلت له بحدة : لا تساعدون أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم . فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوى وصار قاضى مصر يبتسم . وقمنا عن السفرة إلى الصلاة ، فأخذنى الخديوى بيدى لأنه شعر بكونى تأثرت جداً ، وما زال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتنحى قليلا إلى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعنى . وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى ، وأنا لا أعى من التأثر . فلما بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن الإمام حاضراً مجلسنا ولا سمع شيئاً مما دار بينى وبين الشيخ على ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا) ... » .

ويذكر هذا الخطاب مسألة اتفاق سمو الخديو السابق مع إيطاليا على أن يبيعها سكة حديد مريوط بثمن عظيم فى نظير مساعدتها على إخماد الحرب ، وهى مسألة تحدث عنها المرحوم الحاج أحمد شفيق باشا فى الجزء الثانى من كتابه (مذكراتى فى نصف قرن) ؛ فذكر

أنه أشيع بعد عقد الصلح بين الأتراك والطليان بثلاثة شهور ، أى فى أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان أن الخديو باع سكة حديد مريوط إلى بنك درسدن الألمانى . ولكنه لم يلبث أن اتضح بعد ذلك أن عقد البيع قد أمضى فى الحقيقة مع بنك إيطالى . ورخص له الخديو بأن يمد هذا الخط إلى نهاية حدود طرابلس فى السلوم . فأثار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز ، وتدخل اللورد كتشنر فى الأمر ، وهدد (عباسا) وأحرج مركزه ، فاضطر الخديو إلى العدول عن بيعها لإيطاليا ، وألغى عقد البيع مع البنك الإيطالى وباع السكة إلى الحكومة المصرية .

وزيادة على ذلك فقد وسط الإيطاليون (الخديو) أيضاً حتى يقنع السنوسيين بضرورة الإخلاد إلى السكينة ويجزل لهم الوعود الطيبة إذا هم قبلوا الأمر الواقع وكفوا عن مواصلة الجهاد ، فقبل سموه الوساطة وأرسل إلى السنوسيين وزعيمهم السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وفداً يتألف من السادة المأمون والسنوسى ومصطفى أنجال السيد عبد المتعال الإدريسى ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال المال فى مصر ، يحملون كتابا خاصا من الخديو إلى السيد أحمد الشريف . ولكن السيد رحمه الله كان مصراً على ضرورة جلاء إيطاليا عن البلاد كلية قبل التفاهم فى شىء ؛ فرجع الوفد إلى القاهرة وأخفقت هذه الوساطة : ويذكر الحاج أحمد شفيق باشا إلى جانب ما تقدم شيئا عن مهمة عبد الحميد شديد بك للسيد إدريس السنوسى (وهو سمو الأمير السيد محمد إدريس المهدى السنوسى ، معقد آمال الأمة الليبية فى وقتنا هذا) ليغريه بالاتفاق مع إيطاليا حسما للحرب « على أن يسعى الخديو فى الحصول له على امتياز من إيطاليا وتنصيبه رئيسا على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ أحمد السنوسى الكبير ، وفى نظير ذلك يتحصل سموه على وعد بمبيع سكة حديد مريوط لأحد بنوك إيطاليا بثمن يرضيه . ولكن المساعى التى كان عباس يبذل الجهد فيها للوصول إلى ذلك قد فشلت لأن كتشنر ضربها ضربة قاضية » .

وغنى عن البيان أن أية محاولة من هذا القبيل كان لابد من إخفاقها فى النهاية . وجاء فى المذكرات نفسها « ولما توالت انتصارات الإيطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد فطلب من كتشنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعدما سمح بإرسالها أولا . وانتهى الأمر بأن يقال إن البعوث الأخيرة ضلت الطريق . وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى » إلى مصر .

بيد أن متاعب السنوسيين والمجاهدين فى أثناء هذا النضال الشاق لم يكن مقدراً لها أن

تنتهى عند ذلك ، فإنه سرعان ماتعكرت العلاقات فى معسكر المجاهدين بين القائد العام (عزيز بك المصرى) وبين العرب ، ونجم عن ذلك حوادث يؤسف لوقوعها . فقد صادف أن جاء وقت الحصاد فى عام ١٩١٣ فى أثناء اشتداد المقاومة ضد إيطاليا ، فاضطر أغلب المجاهدين العرب إلى ترك الجيش والذهاب للحصاد فعلم الإيطاليون بذلك ، وانتهزوا الفرصة للهجوم على الجيش على غرة ، ولم يكن وقتئذ (عزيز المصرى) موجودا ، فانسحب الجيش بمعداته الحربية إلى معسكر دونه ، واشتبك عزيز المصرى مع الإيطاليين فى معارك دامية وانتصر المجاهدون على العدو فى جملة وقائع ، وألحقوا به خسائر فادحة خصوصا عند قدوم السيد أحمد الشريف من الجغبوب ، وأخذ المجاهدون أسرى كثيرين بعثوا بهم إلى (زاوية العزيات) لبعدها عن ميدان القتال . وأراد عزيز المصرى أن يطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى فعارض السنوسيون وكان هذا مبدأ سوء التفاهم بينهم وبين عزيز بك المصرى ، وازداد سوء التفاهم هذا عندما وصلت إلى عزيز المصرى بعد ذلك برقية من الحكومة العثمانية تأمره بالانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقة إلى السلوم . حيث يجدون فى انتظارهم باخرة عثمانية لنقلهم إلى تركيا . فشرع عزيز المصرى يتجهز للانسحاب بما كان لديه من قوة وسلاح وذخيرة ، نحو الحدود المصرية . وكان غرضه من الانسحاب بجنده النظامى وأسلحته أن يكون مستعدا لمقابلة الطوارىء فى أثناء انسحابه إلى السلوم .

ولكن هذا التصرف من جانب القائد العام لم ينل رضاء المجاهدين الذين عولوا على مواصلة القتال ضد جند إيطاليا ؛ فساءهم أن يخرج عزيز المصرى بجنده النظامى ، وأن يحرم المجاهدون الأسلحة والذخائر التى كانوا بحاجة شديدة إليها بسبب انقطاع الموارد عنهم . فطلبوا إلى القائد المنسحب أن يسلمهم الأسلحة والذخيرة ولكنه رفض لأسباب منها — كما قيل — أن تسليم الأسلحة التى مع عسكره إلى العرب لا تتفق مع الأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا بألا يسلم العسكر العثمانى أسلحته لأعداء إيطاليا ؛ زد على ذلك أنه كان فيما يفعل يذعن للأوامر التى وصلته من حكومة الآستانة . بيد أن ذلك كله لم يكن ليقنع المجاهدين الذين عندما يئسوا من تسلم الأسلحة سلما أرسل السيد أحمد الشريف لأخذها عنوة السيد عمر المختار . ولكن قبل وصول السيد عمر كان المجاهدون من قبله قد أطلقوا الرصاص على الجند المنسحبين ، وكان هؤلاء قد خيموا فى (دفنة) غربى السلوم فصمدوا لهم ومن ثم نشبت معركة حامية فسقط من العرب أكثر من الستين قتيلا ؛ وتقاطرت جموعهم من كل جهة بغية الانتقام من (عزيز المصرى) وعسكره فى (دفنة) و (البطنان) وكاد يحدث التحام كبير ؛ لولا أن (عزيز المصرى) استطاع

الوصول إلى السلوم . وفى ١٦ يولية ١٩١٣ بلغ الإسكندرية ومنها ذهب إلى الآستانة .

وهكذا أحاطت الصعوبات بالمجاهدين فى طرابلس وبرقة من كل جانب . فإنه إلى جانب قطع الموارد عنهم من جهة تونس ومصر ، فقد انسحبت القوة التركية العاملة فى برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها ؛ وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو . وفى هذه الظروف الشديدة صمد السنوسيون فى وجه الطليان ، ثم أسندت قيادة المجاهدين إلى السيد عمر المختار ولم يتردد هذا المغوار فى قبولها فشكل جيشا وطنيا جعل من خطته التزام الدفاع والتربص بالعدو حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة وغنموا منهم أسلابا كثيرة أمدتهم فى الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب النقل مما كانوا فى حاجة ملحة إليه جميعه . وظل الحال على هذا المنوال حتى نشبت الحرب (العظمى) العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ .

الفصل السابع

السنوسية والحرب العالمية الأولى

بعد معركة (مدور) فى يوليو ١٩١٣ عاد معظم العثمانيين إلى وطنهم ، ولذلك بقى السنوسيون وحدهم يديرون دفة الحرب فى الشهور التالية . فوزعوا جنودهم النظاميين على مراكز متعددة فى المناطق المختلفة حتى يجمعوا حولهم القبائل العربية فى جهود متصلة ضد الإيطاليين الذين كانوا قد فصلوا برقة عن طرابلس وأنشئوا لكل من الاقليمين حكومة منفصلة منذ سبتمبر ١٩١٣ . وعينوا لبرقة الجنرال (بريكولا) ، أول ولاتها . ثم فى ١٦ أكتوبر ١٩١٣ الجنرال جيوفانى أميليوا) ، الذى أشرف على العمليات العسكرية فى برقة من ذلك الحين حتى بداية الحرب العالمية الأولى ، ولما كان السنوسيون قد اتخذوا خطة مفاجأة المعسكرات الإيطالية وإشعال الثورة فى الجهات التى يمثلها الطليان ، فقد اضطر الجنرال (أميليو) إلى تقسيم قواته إلى جماعات على استعداد لمقابلة هجوم المجاهدين والإغارة على مراكز العرب فى الجهات التى دخلت فى حوزة الطليان . وعلى ذلك اشتبك الإيطاليون مع المجاهدين فى جملة معارك بدأت من فبراير ١٩١٤ باحتلال زاوية (العرقوب) و (سلطنة) واستمرت خلال الشهور التالية ، فوقعت فى شهر فبراير نفسه معارك (سيدى مهيوس) و (زاوية أم سخنب) و (شليظيمة) ، وفى شهر مارس ضرب الطليان زاوية مسوس ، والتحموا مع المجاهدين فى معركة الزويتية الليلية فى ١١ — ١٢ مارس سنة ١٩١٤ ، ثم فى (بوجسال) وضربوا أجدابية ، كما احتلوا (مراده) بعد التحام مع المجاهدين وفى هذا الوقت أيضا احتلوا (الحزوب) واشتبكوا مع العرب فى معركة (بوجسال) الثانية . وفى شهر إبريل حدثت معارك (بوجسال) الثالثة و (قصر قصيس) وزاوية تاباين (التى خربوها) وأم الجوابى أو لصقه . وفى مايو وقعت معارك (بير الجلته) ومناوشات عند (الكويسيه) ، وفى يونية التحم الفريقان فى (الرحيبات) وقصر حليجيمة ، وقصور الجماهير ، وبيضا ، والأنجال . وفى يولية وقعت معارك زاوية القطوفية وسادنو وسيدى داود ولصقه ، ثم خولان فى آخر يولية ١٩١٤ ، وكان ذلك قبل بدء الحرب العالمية الأولى بأيام قليلة .

وقد استطاع الطليان فى أثناء هذه الشهور الثلاثين تقريبا ، منذ بداية عدوانهم على الأقطار الليبية فى عام ١٩١١ ، احتلال جملة مراكز فى كل من برقة وطرابلس فاضطر السنوسيون إلى الانسحاب فى الجهات الشمالية الغربية من الشاطىء والتوغل فى الصحراء . وكان الهدف الذى يرمى إليه السنوسيون فى الفترة التالية مباشرة هو إخراج العدو من الفزان والاحتفاظ بها للمجاهدين وتوطيد أقدامهم بها .

وعلى ذلك فإنه لما بدأت الحرب الكونية الأولى ، كان النزاع بين الطليان والسنوسيين يدور فى الحقيقة حول (الفزان) فقد أدرك السيد أحمد الشريف أهمية بقائها فى أيدى المجاهدين حتى يطمئن إخوانهم فى الجهات الأمامية والساحلية ويواصلوا الاشتباك مع العدو فى كل فرصة وكل وقت ، لأنهم أصبحوا فى مأمن من العدوان على عكس مايحدث ، لو أن الفزان خرجت من أيدى المجاهدين كلية فيتعرض هؤلاء فى منطقة سرت ، ،والجبلة (القبلة) والجبل لهجوم العدو عليهم من الخلف . ولذلك فإن معنى ضياع الفزان فى هذه الظروف العصيبة إنما هو ضياع ليبيا كلها فى الحقيقة . ومن ثم فقد عمل السيد أحمد الشريف على تنظيم المقاومة فى الفزان ضد الإيطاليين فأرسل أحد السادة السنوسية ، السيد محمد على الأشهب إلى (مرزوق) لذلك الغرض وكان هؤلاء الإيطاليون منذ انتصارهم على جيوش (محمد بن عبدالله) فى سرير الشيب والشيدة ومحروقة بين ١٠ ، ١٤ ديسمبر ١٩١٣ قد قضوا على مقاومة المجاهدين ، فأصبح احتـــلال الفزان بأجمعها ، بما فى ذلك واحة غات يتطلب استعدادات سياسية وعسكرية كبيرة من جانب الطليان ، وتجهيز حامياتهم بالمؤن والمهمات .

ولما كان السنوسيون قد حملوا القبائل المقاتلة فى منطقة (الجبلة) على الانتقال إلى منطقة (سرت) الوسطى ، وهددوا بذلك خطوط مواصلات الطليان بين (سرت) والفزان ، فقد اضطر الطليان إلى الالتحام مع المجاهدين فى معركة شديدة استطاعوا بعدها احتلال (النوفيلية) فى ٢٣ مارس سنة ١٩١٤ . ومع ذلك فقد هاجم المجاهدون (مرسى العويجه) وهى ميناء النوفيلية فى ٢٤ إبريل ، ثم أوقعوا هزيمة منكرة بقوة إيطالية عند (السلطان) وأرغموها على الارتداد ، وكبدوها خسائر فادحة (٧ يولية سنة ١٩١٤) . وكان قائد العمليات الإيطالية فى هذه المنطقة (الكولونيل ميانى) وعندما أرسل السيد أحمد الشريف السيد محمد على الأشهب إلى (مرزوق) قام الأهلون بالثورة على الطليان ، وهاجم المجاهدون قوات (ميانى) وطوقوها من كل جانب فخشى (ميانى) أخطار العزلة ، وانسحب إلى الساحل . وقد بدأ المجاهدون أعمالهم بالاستيلاء على قافلة تموين إيطالية بالقرب من (بير فتية) فى ٢٦ أغسطس ١٩١٤ ثم كرروا هجومهم على القوافل والنجدات الإيطالية الواقعة على طول طريق (سرت -

سوكنة ـ سبهة) . وفي أواخر نوفمبر زادت صعوبات الإيطاليين عندما اشتد نشاط المجاهدين في منطقة (الشاطي) . هذا وقد حضر لقيادة المجاهدين في الفزان مهدي السني الذي اشتهر بتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين في (برقو) في عامي ١٩١١ و ١٩١٣ واستطاع أن يتزعم الحركة في (فرده) ويقضي على حامية من الجند الطليان في (أدري) الواقعة بين منطقتي الشاطيء وسبهه .

وأما السيد محمد علي الأشهب فقد جمع عدداً عظيماً من المجاهدين في (واو) كما استطاع السيد محمد عابد (أخو السيد أحمد الشريف) أن ينشيء معسكراً للمجاهدين في (زله) وبذلك فقد تمكن المجاهدون من الإحاطة بمركز الطليان في (سبهة) وقضوا على حاميتهم في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، ونجم عن ذلك أن فقد الطليان مركزهم الآخر في (أوباري) وأرغم الباقون منهم في واحة غات على الانسحاب إلى المنطقة الفرنسية ، والاتصال بالساحل عن طريق تونس . وفي ١٠ ديسمبر ١٩١٤ اضطرت بقية القوات الإيطالية في الفزان بقيادة (مياني) إلى التقهقر من (براك) والانسحاب صوب (سوكنه) . وبعد أسبوعين التحم المجاهدون بالطليان في معركة دامية عند (بونجيم) انهزمت فيها الحامية الطليانية وأرغمت على الانسحاب إلى (مصراته) فوصلت إليها في ٢٥ ديسمبر ، كما وصل الكولونيل مياني نفسه إلى مصراته في ١١ فبراير سنة ١٩١٥ بعد أن صمد فترة في سوكنه ، ثم غادر مصراته بعد ذلك إلى إيطاليا وكان كل ما أدركه الإيطاليون من نجاح إنما هو انتصار فصيلة صغيرة من قواتهم غادرت سرت واشتبكت مع المجاهدين في يوم ١١ فبراير نفسه في (قصر بوهادي) وكان يقاتل في صفوف السنوسيين في هذه المعركة رمضان شتيوي أو السويحلي الذي وثق به الطليان من قبل .

ولم تلبث أن ظهرت آثار انسحاب الطليان من (الفزان) في منطقة (القبلة) ـ الجبلة والجبل ثم في (الجفرة) فاستمر تقهقرهم وانسحبوا بعد ذلك من (جريات) إلى (مزده) وفي (غدامس) و (سنوان) إلى (نالوت) فأعلنوا حالة الطوارىء في طرابلس كلها .

بيد أن حكومة الطليان المركزية في طرابلس لم تلبث أن أمرت بإعادة احتلال (غدامس) فنشبت معركة حامية في (مرزم) في أواخر يناير سنة ١٩١٥ ، واحتل الطليان غدامس مرة أخرى في منتصف فبراير . ولكن سرعان ما هاجم العرب مراكز الطليان في (ودان) و (بير قطوفية) في منطقة الجفرة ، فاضطر هؤلاء إلى الانسحاب إلى (سوكنة) ثم انسحبوا بعد ذلك بأمر الحكومة من المنطقة بأجمعها في ٢٧ يناير ١٩١٥ إلى (بني وليد) وقد هاجم المجاهدون (بونجيم) ، في أوائل فبراير فخسروا كل قوافلهم ، وأخيرا بلغوا (ورفله) في منتصف الشهر نفسه . وفي هذه الآونة قوي نشاط المجاهدين كذلك في منطقة مصراته ،

وكانوا قد شنوا هجوما عنيفاً على (تاورغة) فى ٢٥ يناير . وإزاء هذه الانتصارات المتتابعة من جانب المجاهدين أعدت حكومة الطليان حملتين عسكريتين فى طرابلس إحداهما للعمل فى منطقة (القبلة) والأخرى فى منطقة (سرت) .

أما الحملة الأولى فقد غادرت (مزده) ، واشتبكت مع المجـــاهدين فى معركة (خرمت الخدامية) فى ٦ أبريل سنة ١٩١٥ ، وفى الليلة التالية فاجأ العرب الإيطاليين فى وادى مرسيت وأرغموا الحملة على التقهقر بدون انتظام فى (مزده) بعد أربعة أيام فقط من خروجها . وكان ميانى فى هذه الأثناء قد رجع من إيطاليا وأخذ فى القيام بحملته « التأديبية » ضـــد السنوسيين وبقية المجاهدين فى منطقة سرت ، وهى الحملة الثانية . وكان من رأيه أيضاً أن يتسلم قيادة الحملة (رمضان شتيوى) فنصحه كثيرون بالعدول عن رأيه ولكن بدون جدوى فخرجت الحملة من مصراته فى يوم ١٥ إبريل ١٩١٥ وكان عدد الطليان أربعة آلاف يتقدمهم ويسير على جانبى قوتهم رجال رمضان السويحلى وعددهم ثلاثة آلاف وخمسمائة وفى ٢٨ إبريل هاجمت الحملة (دور) أو معسكر المجاهدين فى (قصر بوهادى) ، ولكن بمجرد أن بدأ القتال انقلب رمضـان شتيوى ورجاله ضد الطليان ، وأطلقوا عليهم النيران ، فانهزمت الحملة ولم تستطع فلولها النجاة إلا بشق الأنفس ، وكان (ميانى) من بين الناجين ، وهكذا نجحت خطط السنوسيين فى طرابلس بفضل هـذه الكارثة التى حلت بالإيطاليين فى (قصر بوهادى) . فقد خسرت الحملة كل سلاحها وذخيرتها ومدافعها ، وقافلة التموين بأجمعها) ثم (خزينة) القيادة .

وكان من أثر انتصار السنوسيين فى (قصر بوهادى) أن بدأت تشق عصا الطاعة وتثور ضد الإيطاليين تلك القبائل التى كانت قد اضطرت إلى التزام الهدوء والسكينة فى طرابلس ، وكان من أهمها قبائل (القبلة) ، كما بدأت روح التذمر تسرى بين البربر فى الجبل وعندئذ لم تجد حكومة الطليان فى طرابلس مناصا من أن تصـــدر أوامرها بالانسحاب من غدامس وتالوت إلى السـاحل ، وهكذا لم يبق لدى الطليان فى طرابلس الغربية سوى (زواره) و(زنزور) ، أما فى طرابلس الوسطى فقد انسحب الطليان من (مزده) (وغريان) ، وفى طرابلس الشرقية صارت الكلمة للمجاهدين فى المنطقة كلها بعد كارثة (قصر بوهادى) وكافأ السنوسيون رمضـان شتيوى على حسن بلائه فسلموه القيادة العليا فى هذه الناحية . وأما الأسلحة والذخيرة والعتاد التى غنمها المجاهدون فى قصر بوهادى فقد استخدمت كلها فى إعداد الجيوش الجديدة لمناوأة الإيطاليين ، وساء حال الإيطاليين فى طرابلس لدرجة أن الأهلين فى الأراضى المحتلة سرعان ما أخذوا يثورون ضدهم إما لأنهم - كما يقول مؤرخو الطليـان

لم يكونوا أصدقاء مخلصين (لهم) بالمرة ، وإما لأنهم كانوا مستائين من اعوجاج سياسة (الطليان) المحلية وعدم استقرارها ، إما لأنهم كانوا يخشون من الأخطار التي يتعرضون لها بسبب زحف (المجاهدين) والسنوسيين المنتصرين ، . وكان رمضان شتيوى يقود معظم قوات المجاهدين التي اتجهت صوب مصراته .

وهكذا نجحت خطط السنوسيين فى هذه الآونة فى الفزان وفى طرابلس ولو أن النصر لم يكن حليفهم فى برقة ذاتها وذلك لانسحاب الأتراك من ميدان القتال وإغلاق الطرق التى كانت تأتى منها كل المؤن والذخائر والأسلحة إلى المجاهدين فى برقة من جهتى الشرق والغرب : أى من جهتى مصر وتونس .

بيد أن اشتعال الحرب الكونية الأولى لم يلبث أن أدخل تغييراً كبيراً على الموقف فى برقة وأحيى آمال السنوسيين فى القدرة على مواصلة الكفاح بنجاح ضد ايطاليا . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الأتراك الذين وجدوا من قبل أن من مصلحتهم الانسحاب من ميادين برقة وطرابلس ثم التمسك بموقف الحياد والامتناع عن مساعدة المجاهدين بعد أن كان من سياستهم فى مبدأ الأمر إتاحة الفرصة للسنوسيين حتى يستمروا فى القتال ضد ايطاليا ، لم يلبثوا أن أقبلوا مرة ثانية على استئناف جهودهم بعد نشوب الحرب العالمية فى أغسطس ١٩١٤ فى الميادين الطرابلسية البرقاوية ضد الدول المتحالفة الغربية .

ومما لا شك فيه أن تركيا أسرعت بالدخول إلى جانب ألمانيا لأنها كانت عظيمة الثقة فى انتصار الألمان على الحلفاء (انجلترة وفرنسا والروسيا) ، هذا بينما انحازت ايطاليا إلى جانب هذه الدول المتحالفة فى مارس ١٩١٥ لتحقيق مطامعها فى البحر الأبيض المتوسط وفى أفريقية الشمالية . وهكذا وجد الأتراك أنفسهم فى نزاع جديد مع ايطاليا ، وعندئذ قرروا استئناف النضال فى الأقطار الليبية .

ولم يدفع الأتراك إلى مؤازرة السنوسيين فى هذه المرة سوى رغبتهم فى اتخاذ برقة ميدانا يرسلون منه جيشا كانوا اعتزموا إعداده لغزو الأراضى المصرية وتحديد حدودها الغربية . لأن الألمان قرروا بالاشتراك مع العثمانيين إرسال حملة من الشام للإغارة على قناة السويس وغزو مصر من الجهة الشرقية ، ورأوا لضمان نجاحها أنه لابد أن يشغل الانجليز فى الوقت نفسه بأمر الدفاع عن مصر من جهة حدودها الغربية حتى تتوزع قواتهم ويسهل على الألمان والعثمانيين تنفيذ مآربهم وجاء فى رواية بشير بك سعداوى أنه غادر طرابلس إلى استانبول فى آخر عام ١٩١٣ وكان لايزال مقيما بها عندما أخذت تركيا تتهيأ لخوض غمار الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا . فحدث أن ألف الأتراك لجنة سموها لجنة التشكيلات المخصوصة

وضعوها تحت رئاسة سليمان عسكرى بك . وكانت تتألف من محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني المصرى والشيخ صالح التونسى والشيخ عبدالعزيز جاويش وعلى باشى حامبا (من تونس) وكثير غيرهم وعندما دخلت تركيا الحرب أراد العثمانيون إرسال نورى أخى أنور باشا إلى طرابلس واختاروا بشير بك سعداوى لمرافقته وكان بشير يعتقد أن مهمة نورى ومهمته هى الحرب ضد ايطاليا . غير أنه حدث فى أحد الاجتماعات التى عقدت بمنزل أنور باشا بحضور طلعت باشا وخليل باشا عم أنور أن سلم أنور بشيرا كتابا معنونا باسم السيد أحمد الشريف كان قد فرغ من إعداده ، ومضمونه أن دول الحلفاء الثلاث فرنسا وانجلترا وروسيا قد أعلنوا الحرب على تركيا ولذلك قررت تركيا الحرب ضد هذه الدول فى كل مكان ويطلب من السيد أحمد الشريف أن يعلن الحرب على الانجليز ويزحف على مصر وأخبر أنور السيد احمد الشريف فى كتابه هذا أن يوفد إليه شقيقه نورى مزودا بالمال ويعد السيد أحمد فى الوقت نفسه بإرسال السلاح إليه . وعنـــدما قرأ بشير بك هذا الخطاب تملكته الدهشة اذ كيف يستطيع السيد احمد محاربة الانجليز بدون أسلحة . صحيح أن ارسال المال أمر سهل هين يمكن تدبيره ولكن كيف السبيل إلى إرسال الأسلحة ، وعلى ذلك فقد ذكر بشير لأنور أن من المتعذر على الليبيين أن يقاتلوا الطليان والانجليز فى آن واحد ، وسأله عن الطريقة التى يمكن بها إرسال السلاح إلى السيد . ويقول بشير بك السعداوى أنه لما تبين له أن غرض الأتراك لم يكن سوى اثارة القلاقل والاضطرابات على الحدود والدخول فى مناوشات مع الانجليز الغرض منها شغلهم فحسب لا تخليص البلاد من قبضة الطليان وأن الذهاب مع نورى إلى طرابلس قد يترتب عليه «توريط» السيد احمد الشريف فى غير ما يحقق مصلحة الوطن امتنع عن موافقة نورى فوقع الاختيار على جعفر العسكرى للذهاب مع نورى إلى طرابلس .

وعلى ذلك ذهب نورى يحمل كتاب أخيه أنور الى السيد الشريف وخرج معه جعفر العسكرى وهو أحد الضباط العرب العراقيين الذين كانوا فى خدمة الجيش العثمانى ، وكان جعفر يحمل كذلك كتبا أخرى من أنور باشا إلى عدد من كبار المصريين الذين عرفهم أنور فى أثناء إقامته ببرقة يدعوهم جميعاً للقتال ، وينقل إلى أصدقائه ومعارفه من المصريين خبر إعداد الحملتين المزمع إرسالها إلى حدود مصر الشرقية والغربية معاً . فحضر جعفر العسكرى إلى مصر فى طريقه إلى برقة واستطاع أن يتجول فى القطر المصرى متخفيا وأبلغ رسالته ثم غادر مصر إلى برقة خفية وعند وصوله إلى السلوم استقبله نورى بك الذى أرسله شقيقه أنور باشا ليتولى القيادة العامة .

وقد قامت غواصة ألمانية بنقل نورى بك وصحبه من ميناء (بولا) عند خليج (كوارنيرو)

Quarner، فى طرف بحر الأدرياتيك الشمالى وكانت (بولا) هى القاعدة التى اتخذها الألمانيون لغواصاتهم فى بحر الأدرياتيك والبحر الأبيض فأنزلت نورى وجماعته فى الطرف الغربى من خليج السلوم عند ميناء (بردى سليمان) فى قسم الخليج التابع لحكومة برقة ، لأن خليج السلوم كانت تمتلكه مناصفة فيما بينهما كل من الحكومة المصرية ، ولها الطرف الشرقى ، ثم حكومة برقة ولها الطرف الغربى . وأحضر نورى معه قدرا من الأسلحة والذخيرة وجانبا من المال وعددا من الضباط العثمانيين ثم صحبه أحد دهاة الألمان وضباطهم الملمين بأحوال بلاد المغرب وهو الكونت (مانسمان) ليمثل القيادة العليا الألمانية فى إفريقية الشمالية إلى جانب اشتراكه فى العمل مع القائد العثمانى . وكانت مهمة نورى عند نزوله فى (بردى سليمان) الاجتماع بالسيد أحمد الشريف على الفور .

وأما السيد أحمد فقد اهتم من جانبه بمقابلة القائد العثمانى ، وتمت المقابلة فى مكان بالقرب من السلوم يسمى (المسيعيد) وسلمه نورى رسالة شقيقه أنور باشا وكانت تحمل أنباء إعلان الجهاد وتعيين السلطان محمود رشاد لسيادته نائبا عنه (عن الخليفة) ، فى إفريقية الشمالية ، والإنعام عليه برتبة الوزارة الأولى ، وهى رتبة رفيعة الشأن ، ومنحه حق إعطاء الرتب والنياشين . وبالفعل أحضر (نورى) معه قدراً من النياشين والأوسمة لتوزيعها على الرؤساء وكبار القوم والسادة السنوسية . فأكد هذا التعيين ذلك المركز الممتاز الذى كانت تشغله الإمارة السنوسية منذ نوفمبر ١٩١٢ ولا تربطها بدولة الخلافة الإسلامية غير التقاليد التى أبقى عليها ذكر اسم السلطان فى الخطبة — وهو خليفة المسلمين — ووجود نائب له فى الأقطار الليبية . ومن ذلك الحين عندما احتدم الكفاح طيلة السنوات التالية ، صارت أوامر السيد ومحرراته فيما يتعلق بشمال إفريقية تصدر إلى جميع النظارات بدار الخلافة مرعية معتبرة فى جميع الأوامر الملكية والعسكرية وأرسلت إليه الإرادة السلطانية ليمليها حسبما يظهر له . ، فتأيد بذلك مركز الإمارة غير أنه كان من الواضح منذ مقابلة السيد للقائد العثمانى وصاحبيه الكونت مانسمان الألمانى وجعفر بك العسكرى ، أن الأتراك (والألمان) إنما يريدون أمرا واحداً فقط هو أن يشترك السيد معهم فى الهجوم على حدود مصر الغربية وتجهيز حملة كبيرة لهذه الغاية ، فقد بذل (نورى) و (مانسمان) جهودا عظيمة حتى أقنعا السيد بوجاهة هذا العمل وضرورته ولما كان جعفر العسكرى عراقيا ومقربا من السيد أحمد حتى أنه كان عظيم الثقة به لصبغته العربية فقد أتيحت الفرصة لجعفر كى يساهم بقسط كبير فى هذا الغرض ولكن دون جدوى ومما كان له كبير الأثر فى إحجام السيد أن القائد العثمانى أراد منه أن يهادن السنوسيون الطليان فى هذه الآونة حتى يستطيعوا التفرغ لتدبير أمر هذه الحملة الجديدة . ولما كان من المزمع

إرسال هذه الحملة ضد الحدود المصرية فقد وجد السنوسيون أنهم سوف يشتبكون فى حرب ضد الإنجليز ، ولم يكن من رأى السيد أحمد ولا من رأى كبار السادة السنوسية ولا من رأى بقية المجاهدين مهادنة ايطاليا ذلك العدو القديم ومنازلة دولة هى انجلترة لم تقم بينها وبين السنوسيين حتى هذا الوقت سوى أحسن العلاقات وأصفاها . وكان السيد محمد إدريس المهدى ، ابن عم السيد أحمد من أشد المعارضين لمشروع الحملة ضد الحدود المصرية .

وحقا لم يكن ذلك بالأمر الهين على نفوس السنوسيين كما أنه لم يكن يتفق ومصالحهم فى هذه الظروف الدقيقة قيام الانجليز ضد المجاهدين فى الأقطار الليبية . ومع أن الانجليز فى أثناء الحرب الليبية — الإيطالية تمسكوا بموقف الحياد بين العرب وأعدائهم الإيطاليين فإنهم من الوجهة العملية قد تركوا العرب يبيعون الأسلاب التى غنموها من الطليان المنهزمين فى ميناء السلوم وهم إلى جانب ذلك قد حرصوا على أن تظل العلاقات بينهم وبين السيد محمد الشريف مشوبة بروح الود والصداقة ، كما حرص السيد أحمد من جانبه على استيفاء صلات المودة بينه وبينهم فكان السير جون ماكسويل القائد العام للجيوش البريطانية بمصر « يصانع السيد كثيرا ويراسله دائماً ويتحفه ببعض الكتب ويتزلف إليه بكل الوسائل اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ويؤمنه من جهة السنوسية ويستخدمه فى قضاء أغراضه ، وكان يستصنع فى مصر ألبسة لتوابير الجيش السنوسى » وكان رجال الحامية المصرية بالطرف الشرقى من خليج السلوم — ولا يزيدون عن الخمسين جنديا إلى جانب عدد من رجال السواحل — يقيمون فى (العقر) وعلى شواطىء البحر تحت قيادة الكولونيل (سسل سنو) بك الانجليزى الذى كان محافظ الصحراء الغربية ، وضابط المخابرات الانجليزية . وتدعمت الصلات الودية بينه وبين السنوسيين وحرص السيد أحمد على هذه المكانة الطيبة . وعلاوة على ذلك فقد كان السيد وزعماء السنوسيين يخشون لو هاجموا الحدود المصرية أن يقع الفشل فى صفوف المجاهدين وأن يغلبوا على أمرهم بسبب ما كانوا يعلمونه من استعدادات الانجليز العظيمة ولذلك كان من رأى السيد أحمد الشريف مهادنة الانجليز ومطاردة الطليان على عكس ما كان يشير به نورى ورفاقه .

أضف إلى هذا أن الانجليز لم يغفلوا فى هذه الآونة عن السعى جديا لحمل السيد أحمد الشريف على التزام موقف الحياد والامتناع عن تأييد التدابير العثمانية الألمانية . فإن السير هنرى ماكمهون عند وصوله إلى مصر نائبا عن بريطانيا العظمى وإمبراطور الهند بعد إعلان الحماية الانجليزية على مصر ، بادر بالكتابة من القاهرة فى ١٥ يناير ١٩١٥ إلى « قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجى والجلال ، أمام المصلحين وقدوة المرشدين الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم السيد أحمد الشريف السنوسى أعزه الله » ، ولما كانت علاقة هذا

القطر (مصر) على الدوام ودية مع سيادتكم ، رأيت أن أبلغكم وصولى ، وأؤكد لكم أن العلاقات الودية التى كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر فى هذا العهد الجديد ، كما كانت عليه من قبل من الود والسلام » .

وزيادة على ذلك فقد وسطها الانجليز سلطان مصر الأول المغفور له السلطان حسين كامل من أجل إقناع السيد أحمد بتجنب القتال والاشتباك معهم ، فأرسل السلطان وفداً مؤلفاً من السيد محمد الشريف الإدريسى ونجله الأكبر السيد محمد مرغنى لمقابلة السيد أحمد الشريف فى (المسيعيد) وغادر الوفد القاهرة فى سبتمبر ١٩١٥ ، يحمل معه ثلاثة كتب : أحدها من السلطان والثانى من السير هنرى ماكماهون نائب ملك الانجليز ، والثالث من السير جون ماكسويل القائد العام . ووعد الانجليز السيد أنه إذا احتفظ بالحياد ولم يشترك فى الحرب القائمة ، ساعدوه على استقلال بلاده واجتهدوا حتى يوفقوا بينه وبين الحكومة الإيطالية . فبلغ الوفد هذه الرسالة ، واستطاع السيد محمد مرغنى الاجتماع بالقائد العثمانى نورى ، وفى أثناء الحديث معه وقف منه على حقيقة نوايا العثمانيين الذين ما يبغون من تدبير الهجوم على مصر سوى إرغام الانجليز على حشد أكبر قوة لديهم وتعطيلها من الاشتراك فى الميادين الهامة الأخرى ولو أدى هذا العمل إلى إلحاق الأذى والضرر بمصلحة المجاهدين أنفسهم فى برقة ، وعندئذ لم يتوان السيد محمد مرغنى فى تبليغ ما وقف عليه إلى السيد أحمد الشريف ، فكان كل هذا مما جعل السيد متردداً لا يرغب فى الهجوم على الحدود المصرية .

وقد كان لهذا الوفد مقابلات أخرى مع زعماء المجاهدين وعلى الخصوص مع السيد محمد إدريس الذى لم يكن من رأيه قطعاً جلب عداء الإنجليز ضد العرب وتكدير صفو العلاقات معهم وامتنع عن الموافقة بتاتا على تدبير الهجوم على الحدود المصرية غير أن الوفد فى أثناء إقامته بين المجاهدين لم يلبث أن شهد الأمور تخرج من يد السيد أحمد الشريف عندما نجح العثمانيون فى تدبير الاعتداء على السلوم بصورة أرغمت سيسل سنو على الانسحاب منها إلى مرسى مطروح وكان هذا الحادث آخر حلقة من حلقات سلسلة تلك المحاولات التى ظل العثمانيون يقومون بها منذ قدوم نورى وجعفر العسكرى من أجل تعكير صفو العلاقات بين السيد أحمد الشريف وبين الانجليز ، وإرغام السيد على قطع صلاته مع الانجليز والاشتباك فى الحرب معهم . وقد حدث قبل واقعة السلوم هذه أن أرسل هؤلاء الضابط وصفى وكان من الضباط العرب لاحتلال حطية قربة التى تبعد حوالى خمسة عشر كيلومترا غربى واحة سيوة وتدخل ضمن الحدود المصرية ، وكان القومندان المصرى فى ذلك الوقت لمنطقة مرسى مطروح وسيوة اليوزباشى محمد صالح حرب . فأبرق إليه سنو بك حتى يذهب إلى سيوة لمقابلة هذه القوة

والمفاوضة معها باسم الحكومة المصرية حتى تنسحب من الحدود المصرية ، فاستقل اليوزباشى المصرى أول سيارة استخدمت فى الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة وحاول محمد صالح حرب إقناع الضابط وصفى بالانسحاب من الأراضى المصرية ولكن هذا كان مصمما على عدم الانسحاب إلا إذا أتته أوامر قاطعة بذلك من السيد أحمد الشريف ومن نورى ، وأظهر استعداده للمقاومة وقال إنه إنما حضر إلى قربة لتحصيل المكوس والعوائد من القوافل بين قربة والجغبوب ومراقبتها . وعندما بعث محمد صالح حرب يستفسر من سنو بك عما يجب فعله ويطلب إليه أن يتصل بالسيد أحمد الشريف لإصدار الأوامر اللازمة إلى الضابط العربى حتى ينسحب بسلام ، أبرق إليه سنو بك بالعودة سريعا إلى مرسى مطروح لفض مشكل آخر من تدابير الأتراك كذلك .

فقد حدث فى أثناء ذهاب الضابط وصفى إلى قربة أن أغرى العثمانيون نورى وجعفر العسكرى والسيد محمد هـــلال السنوسى بالنزول فى زاوية سيدى برانى لتحريض السنوسيين على الثورة ضد الانجليز دون علم السيد أحمد الشريف وجاء السيد هلال فعلا إلى سيدى برانى فطلب سيسل سنو والجنرال مكسويل من قومندان مرسى مطروح أن يبذل قصارى جهده لإقناع السيد هلال بالانسحاب من سيدى برانى وكان الانجليز قد حاولوا ذلك قبلا مع السيد هلال ولكنهم أخفقوا ، فكتبوا الآن إلى صالح حرب يرجونه « بما هو معروف عنه من صدق إسلام وتقدير مسؤليات واجباته ومايتحلى به من صفات الحزم والكياسة معاً » أن يتوسط لدى السيد هلال حتى لا يأتى عملا مناقضاً لسياسة أخيه الأكبر ، فما يستطيع الانجليز أن يقفوا إزاءه مكتوفى الأيدى ، بل قد يجدون أنفسهم منساقين إلى القيام بعمل مقابل يورث السيد هلال الندم طول حياته » فذهب صالح حرب إلى سيدى برانى فى ١٩١٥ وقابل مأمورها ، وأبلغه المأمور المصرى أن السيد هلال وجماعته قد ظلوا ثلاث ليال متواصلة يهاجمون القسم ويطلقون النار على الضباط المصريين والعساكر السودانيين الذين به فذهب صالح حرب بمفرده لمقابلة السيد هلال ودخل عليه فى « حجرة مضيفة الزاوية » فوجده جالسا ومن حوله بعض مشايخ السنوسية فى العقبة وعمد ومشايخ آخرون كانوا فى خدمة الحكومة المصرية ثم استغنت هذه عن خدماتهم لسوء إدارتهم ولأسباب أخرى ، وكان السيد هلال يحرض هؤلاء جميعا على « إعلان الجهاد » ضد الانجليز فانتظر صالح حرب حتى انفرط عقد المجلس ثم تكلم كلاما طويلا مع السيد هلال الذى كان يعتقد على ما يبدو أن نورى وجعفر العسكرى إنما يريدان من وراء هذه الحركة إخراج الانجليز من مصر فأظهر له صالح حرب خطأ اعتقاده وأنه إذا كان ذلك صحيحا فلا جدوى من عمل مثل هــذا دون إشراك

السيد أحمد الشريف وموافقته على هذه الحركة ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء العربان الملتفين حوله لا يمكن الاعتماد عليهم فى شىء ، وأقام صالح حرب البرهان على صدق ما يقول عند ما طلب حضور المشايخ والعمد مرة ثانية وأمرهم بالعودة من حيث أتوا والانفضاض وإلا أوقع بهم أشد العقوبات الصارمة ، فامتطوا جميعا صهوات خيولهم وذهبوا وبقى السيد هلال وحده دون أى نصير ، وعندئذ وافق السيد هلال على الذهاب مع صالح حرب إلى قسم سيدى برانى ومنه إلى السلوم حيث كان ينتظرهما سنو بك وأرسل السيد هلال إلى أخيه السيد أحمد الشريف فى مساعد (المسيعيد) ، وانتهى تدبير العثمانيين بالفشل .

غير أنه حدث عقب هذه الواقعة أن طلب محمد صالح حرب من سيسل سنو أن يأذن له بمقابلة السيد أحمد الشريف فى مساعد ففعل واستطاع محمد صالح حرب مقابلة السيد أحمد الشريف وكان لهذه المقابلة آثار هامة لعدة أسباب . فإن معرفة ما دار من أحاديث فى أثنائها بين الضابط المصرى والسيد أحمد الشريف يساعد على معرفة موقف السيد أحمد من مسألة الحرب ضد الانجليز فى وقت كانت تنقص قواته وقوات العثمانيين عموما المؤن والذخائر والأسلحة ، ولا يجد السيد أحمد بسبب ذلك أن من الحكمة وأصالة الرأى معاداة الانجليز والاشتباك معهم فى حرب لا جدوى منها وخسارتها محققة ، فقد أراد السيد أحمد الشريف أن يعرف حقيقة موقف الانجليز فى مصر وسياستهم ونواياهم نحوه وتحدث فى هذا الشأن مع محمد صالح حرب بصراحة تامة نظراً للمساعدات التى كان يبذلها لهم محمد صالح حرب وهو نائب لقومندان مرسى مطروح الانجليزى رويال بك والإغضاء عن تهريب المؤن والأسلحة إلى المجاهدين فى أثناء الحرب الإيطالية الطرابلسية ، أو قل إذا شئت مساعدة المهربين فى عامى ١٩١١ ، ١٩١٢ وعلى ذلك فإنه عند ما استفسر منه محمد صالح حرب عن « حقيقة موقفه » هو ، قال السيد أحمد الشريف : إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه فى حرب مع الانجليز قبل أن يستعد لها الاستعداد الكافى ، وأنه لا يمالىء الانجليز « محبة فيهم أو تقربا منهم » ولكن مصر هى « الباب الوحيد المفتوح الذى تأتيه منه الأرزاق والأقوات التى يستطيع بفضلها متابعة القتال ضد الطليان فإذا قفل هذا الباب تحرج موقفه ، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية والتى يكون فيها الغناء عن ذلك الباب المفتوح . ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة ويلحون فى هذا الطلب . مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يحين الوقت الملائم لذلك يعود بالشر والوبال على الجميع » . ثم اختتم السيد حديثه بقوله : « وإنى أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا وأنا ليس فى نيتى أن أحارب الانجليز » .

وبعد انتهاء هذه المقابلة طلب نورى باشا مقابلة محمد صالح حرب فى « صينوانه » وشكا نورى لصالح حرب تردد السيد أحمد الشريف وامتناعه عن محاربة الانجليز ، مع أن الاتراك — نورى وجعفر العسكرى وصحبهما — عند ما حضروا من استانبول بناء على دعوة السيد أحمد الشريف كانت الفكرة على حد قول نورى « أن يقوم السيد أحمد بحركة ضد الانجليز تجذب شطراً من قواتهم إلى الغرب بحيث يسهل على جمال باشا القائد العثمانى المرابط فى الشام أن يقتحم بجيوشه قناة السويس ويخلص مصر من الانجليز . ولكن السيد أحمد بدلا من ذلك يكتفى ببذل الوعود ولا يريد أن يحرك ساكنا » واعترف نورى باشا بأنه صار مرغما بسبب سكون السيد أحمد على تدبير الخطط لفصم العلاقات القائمة بين السيد أحمد الشريف وبين الانجليز . على أنه مما يجدر ذكره أنه كان فى أثناء هذة المقابلة مع القائد العثمانى أن تبين للضابط المصرى عجز القيادة عن إعداد الخطط العسكرية اللازمة لضمان نجاح أية حركات قد يقوم بها العثمانيون والسنوسيون ضد الحدود المصرية فلا القائد العثمانى يعرف إذا كان فى استطاعته الاعتماد على تموين قواته من جهات العقبة وهى المنطقة الممتدة من السلوم إلى ما قبل محطة فوكة بينما أهل هذه الجهات وهم عربان أولاد على يعتمدون فى تموينهم على المؤن التى تأتيهم من داخل القطر المصرى ، ولا هو يعرف كذلك إذا كان لدى أولاد على أسلحة كافية وذخائر ويصح الاعتماد على مؤازرتهم للجيوش الزاحفة على القطر من جهتهم مع العلم بأنهم ممنوعون قانونا من حمل الأسلحة وليس لديهم سلاح ولا ذخائر .

ومع أنه كان من الواضح أن لا أمل قط فى نجاح أية عمليات عسكرية من جانب الأتراك على الحدود المصرية فقد ظل هؤلاء يضغطون على السيد أحمد الشريف لإنهاء علاقاته مع الإنجليز ويحوكون خيوط المؤامرات لإيقاع النفور والشقاق بين السيد وبين هؤلاء ويضعون السيد « أمام الأمر الواقع » إذا نجحت تدابيرهم ومؤامراتهم على إعلان النضال ضد الإنجليز وكان من تدابير نورى وجعفر العسكرى بعد فشل حادثة السيد هلال ، ذلك الحادث الذى انتهى بانسحاب (سيسل سنو) من السلوم . أما تفاصيل هذا الحادث فهى كما يؤخذ من روايتى محمد صالح حرب (باشا) والشيخ عبد الرحمن الزقلمى الذى كان بمعسكر السيد أحمد الشريف وقتئذ أن نورى حضر لزيارة السيد أحمد الشريف ذات ليلة وقال له « إن الضابط الإنجليزى رويال بك مساعد مفتش الحدود الغربية يأتى ليلا متزيا بزى « الإخوان » السنوسيين ويجوس خلال المعسكرات فى السلوم يجمع أخبارها ، ولذلك يجب على المجاهدين أن يقضوا عليه حتى يقيموا الحجة على الإنجليز ويثبتوا عدم إخلاصهم للسيد فوافق السيد أحمد الشريف واختار نورى ضابطين هما أحمد الفلالى وبلقاسم الزنتانى للقيام بحراسة المعسكر ليلا والقبض

على الإنجليزى رويال وطلب نورى من السيد أمرا بذلك . »

فأمر السيد أحمد كاتبه عبد اللطيف أن يكتب لهم ما يريدون ، فأملى نورى على الكاتب العبارة الآتية على لسان السيد أحمد بعد الديباجة « هناك خدمة وطنية يملها عليكم نورى باشا فنفذوا ما يأمركم به » فأخذ نورى صورتين من هذا الخطاب عليهما ختم السيد أحمد الشريف . واستغل ما جاء بهذه الكتب وأصدر أمرا إلى الفلالى بالهجوم على السلوم وأمرا آخر الى بلقاسم الزنتانى بالهجوم على البنبه . وبحث نورى وصحبه فى الوقت نفسه عن بعض الجواسيس الذين ينقلون أخبار المعسكر السنوسى إلى الإنجليز حتى عثروا على اثنين منهم رشوهما بمبلغ من الجنيهات التركية الذهب نظير أن يبلغا سنو بك أن السيد أحمد الشريف قد اتفق نهائيا مع الأتراك على مهاجمة الإنجليز بعد يومين وأنهم قد استقدموا إلى مساعد الكتائب الموجودة فى بير واعر .

وعندما تم إحكام المؤامرة على هذا النحو هاجم نورى وجعفر والضابطان العربيان نقطة السلوم المصرية فى أثناء الليل وكان بها الملازم أول محمود لبيب وقوة من الهجانة فحملوهم جميعا إلى المعسكر السنوسى فى مساعد . وعلاوة على ذلك أمر نورى وجعفر المدفعية التركية بأن تقوم بمناورات حول ثكنة العساكر المصريين فوق السلوم على هيئة جيش يقصد الهجوم . فأيقن سنو بك أن الأخبار التى بلغته صحيحة . ولما كان الوفد الإدريسى ما يزال حتى هذا الوقت مقيما فى مساعد للمخابرة والمفاوضة مع السيد أحمد الشريف فقد زال كل شك لدى الانجليز وأيقنوا تماما أن السيد أحمد الشريف يبغى الغدر بهم فأمر سيسل سنو القوة الموجودة بالسلوم بالانسحاب فورا لحملتهم جميعا الطوافة عبد المنعم من السلوم إلى مرسى مطروح وكان معهم سيسل والضابط رويال بك . واستقبلهم محمد صالح حرب وأكد له سنو أنهم لو تأخروا قليلا فى السلوم لاغتالهم الأتراك والسنوسيون جميعا . أما السيد أحمد الشريف فإنه لم يعلم شيئا عما جرى حتى صباح يوم الحادث فاضطرب رحمه الله اضطرابا شديدا وصار يردد « أنا مخالف لنورى » وبعث برسله على الفور إلى السلوم وعلى رأسهم السيد محمد الشريف الإدريسى وأعضاء الوفد الآخرين لمقابلة سيسل سنو وإبلاغه الحقيقة . غير أن هؤلاء وصلوا بعد خروج الطوافة من الميناء وعبثا صاروا يلوحون لها ويصرخون كى تعود الى مرسأها . فتألم السيد أحمد الشريف من تصرف الأتراك ومحاولاتهم المتكررة لقطع العلاقات بينه وبين الانجليز فى وقت لم يكن يراه السيد أحمد مناسبا لقطعها ، وعندما اشتد الحرج عمد الى استشارة جماعة من الإخوان السنوسيين فيما يجب عليه صنعه . ولما كان هؤلاء ضالعين مع الأتراك فقد أشاروا عليه بالانضمام إلى العثمانيين فى هذه الحركة لئلا يذاع عن السيد أنه على وفاق مع الانجليز وأن هؤلاء قد أعطوه مالا ، فاضطر السيد أحمد الشريف إلى العمل « بنصيحتهم » منعا

لهذه الشبهة . وعلاوة على ذلك فقد كان الجيش منحازا إلى جانب نورى . وقر الرأى عندئذ على السير إلى مرسى مطروح » .

ومع ذلك فقد كان يبدو أن انحياز السيد أحمد الشريف إلى جانب الأتراك ومحاربته الإنجليز أمر لا مفر منه فى النهاية ، ولا سيما بعد أن وصل إلى علم السيد بعد انسحاب (سيسل سنو) أن الانجليز يحشدون قوة عسكرية كبيرة فى مرسى مطروح لقتال السنوسيين وصدهم فسرعان ما أرسل السيد جعفر العسكرى إلى المراكز الأمامية لتهدئة الحالة . غير أن جعفر بك انتهز هذه الفرصة لكى يتحرش بالقوة الموجودة فى (المرسى) . زد على ذلك أن نورى وجماعته كانوا من ناحية أخرى يطلقون النـــار على السفن التجارية التى أتت محملة بالمؤن والسلع إلى السلوم ، هذا بينما كانت جماعات من المحافظة المسلحين تجىء إلى الأراضى المصرية على الدوام . كما قال الجنرال ماكسويل فى إحدى رسائله إلى السيد أحمد « إما بعلم من السيد أو بغير علم منه » فتسىء معاملة العرب الذين كانوا تحت إدارة محافظ الصحراء الغربية وتأخذ منهم الضرائب عنوة . وفضلا عن ذلك فإنه بينما كان المجاهدون بقيادة جعفر العسكرى ونورى (باشا) يرحبون بالغواصات الألمانية التى كانت تنزل الأسلحة والجند بالقرب من بردى سليمان ، كانوا يطلقون النار على الغواصات الانجليزية « بغير سبب » ثم حدث عندما أغرقت غواصة ألمانية باخرتين انجليزيتين قرب السلوم ، أن قبض المجاهدون على بعض بحارة الباخرتين الذين تمكنوا من بلوغ الساحل وأرسلوهم إلى الاعتقال فى (زاوية الغريات) البعيدة ، وكذلك مما أثار شكوك السيد فى نوايا الانجليز أن بعض رجاله ادعوا العثور بين أوراق (سنوبك) عقب انسحابه من السلوم على نص معاهدة كانت مبرمة بين الطليان والانجليز ، مع أن الجنرال ماكسويل لم يلبث أن نفى فى إحدى رسائله إلى السيد أمر هذه المعاهدة كلية لسببين : « الأول لأنه لم يعمل معاهدة مثل هذه قط ، والثانى لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه » .

غير أن السيد على الرغم من هذا كله كان لا يزال يريد المحافظة على العلاقات الودية مع الانجليز ، متمسكا بموقف المساعدة معهم ، وذلك بتبادل المكاتبات مع الجنرال ماكسويل لإظهار صداقته له ولإزالة أى أسباب قد تدعو إلى الشك وإثارة سوء التفاهم بينهما ، كما حدث فى مسألة المعاهدة المزعومة مثلا . وكذلك كان الانجليز من جانبهم يبذلون — كما تقدم — جهداً جباراً من أجل إرضاء السيد ومنعه من الاندفاع فى التعاون مع جعفر ونورى فى الإغارة على الحدود المصرية ، وعرضوا عليه وعوداً سخية إذا هو تمسك بخطة المسالمة . ولكن حبطت هذه المساعى جميعها من الجانبين معا لأن الانجليز كانوا يريدون من السيد أن يقيم

البرهان الساطع على مايكنه لهم من ود وصداقة ورغبة فى المسالمة وذلك كما جاء فى كتاب السير جون ما كسويل إلى السيد فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، بأن يرسل السيد أحمد « حالا إلى مرسى مطروح الرجال الانجليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا . وأن تعيدوا العلاقات الودية معشا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك فى أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاء عظيما » . إلا أنه لم يكن فى استطاعة السيد أن يجيب رغبة الانجليز فى إخراج نورى ومانسمان ورجالهما « وطردهم من برقة » ، وبخاصة بعد أن تحرش أتباعه ورجاله بالانجليز مراراً ـ سواء أحدث هذا التحرش على غير علم من السيد أو بعلمه . وقد هدد الجنرال ما كسويل فى كتابه هذا أنه إذا أصر السيد على اتخاذ « خطة عدائية » فإنه عندئذ « لا يجلب عليه إيطاليا فقط بل وفرنسا وانجلترة ومصر ويتحمل مسئولية جميع النفوس التى تضيع فى هذا السبيل ويعرض بلاده للجوع ، إذ تسد عليهم طرق الزاد والمئونة براً وبحراً وتحصر الشطوط البحرية » ولكن هذه التهديدات أو النصائح كما شاء السير جون ما كسويل أن يسميها ، بقيت من غير أثر ولم يطرد السيد من برقة نورى ومانسمان . وأما السبب الثانى فى إخفاق مساعى المسالمة من الجانبين فهو أن نورى كان يكثر من الضغط على السيد لإرغامه على الاشتراك فى الهجوم على مصر .

ولم تكن العلاقات بين السيد أحمد الشريف ونورى بك على درجة كبيرة من الصفاء فى أثناء وجودهما بالسلوم ؛ بل كثر الخلاف بينهما لأن نورى كان يمعن فى التحرش بالانجليز ويطلق رجاله النيران على السفن الآتية إلى السلوم ، وهى سفن محملة بالأرزاق والمتاجر التى يحتاج إليها السنوسيون حاجة شديدة مما أغضب السيد . زد على ذلك أن نورى أخذ يجفو فى معاملته مع السيد لأنه كان لا يرضى عن موقف المسالمة الذى أراد السيد أن يقفه من النزاع على الحدود الغربية بين الأتراك والانجليز ، فأرسل نورى الكتب إلى أخيه (أنور باشا) « يقول إن السيد لا يريد معاداة الانجليز بل إنه ممالىء لهم سرا ، وغير ذلك من الأقاويل ، حتى صار رجال وزارة الحرب العثمانية « يلمزون السيد ويعزون إليه أمورا » كانت ولاشك غير صحيحة « مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة » إلى غير ذلك . ثم جاءت الكتب الكثيرة من أنور باشا إلى السيد تحضه على إجابة رغبات نورى ، وتطلب منه عدم التباطؤ فى الهجوم على مصر ، ثم أرسل نورى إلى جانب هذا سعاة إلى مصر يذيعون عن السيد أنه لا يريد الهجوم على هذه البلاد حرصا منه على مودة الانجليز وصداقتهم مع أن العثمانيين ـــ كما قال ـــ كانوا يسعون جهدهم لطرد الانجليز من مصر وأوفدوا نورى لتدبير الحملة على الحدود الغربية لهذه الغاية .

ثم زادت متاعب السيد عندما صارت تأتى إليه الرسل من مصر ذاتها ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له ما يخالج المصريين نحوهم من الظنون بسبب تخلفه عن الزحف » . وعندئذ قرر السيد أحمد الشريف بسبب ما تقدم جميعه وبعد حادث السلوم خصوصا أن يشترك مع العثمانيين و (الألمان) فى الزحف على حدود مصر الغربية . وعندما وصل السيد إلى هذا القرار استدعى نورى بك وخاطبه قائلا « هو ذا أنا حاضر للسير فلا تقدر أن تقول إن العائق كان منى ، وإنما إذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أنا المسئول . »

وعندئذ أرسل السيد قوة لاحتلال سيوة بقيادة اللواء وصفى باشا الخازمى الطرابلسى فتم له ذلك . وأما السيد نفسه فقد سار بالجيش ـ وعدده أربعة آلاف مقاتل ـ ومعه نورى قائدا أول وجعفر العسكرى قائدا ثانيا ، وغرضهم الهجوم على السلوم ، فأخلى الانجليز منطقة السلوم ثم (بقبق) وتقهقروا داخل الحدود ، وأنذروا فى الوقت نفسه القائد العثمانى (نورى) بأنه إذا تجاوز بجيشه نقطة سيدى برانى إلى الشرق صمدوا له وقامت الحرب .

ولكن نورى لم يأبه بهذا الإنذار بل ظل فى تقدمه حتى تجاوز العرب سيدى برانى ، وبلغوا فى زحفهم زاوية أم الرخم غربى مرسى مطروح ، وعندئذ جهز الإنجليز لقتالهم جيشا بلغ الثلاثين ألفا من مشاة وفرسان إلى جانب عدد كبير من المدافع فقامت بين الفريقين معارك ساهم فيها محمد صالح حرب قومندان مرسى مطروح بنصيب وافر .

ويقول محمد صالح حرب باشا إنه حدث عقب وصول سيسل سنوورويال مع القوة المنسحبة من السلوم إلى مرسى مطروح أن سنو بك ما لبث حتى حضر لمقابلته بالمكتب وأعطاه سلطات الحاكم العسكرى فى المرسى وطلب اليه إخلاء العزبة من جميع الغرباء والقاطنين بها كالطليان واليونانيين ومن إليهم ثم الاستيلاء على المتاجر الموجودة بها لحساب الجيش بعد تقدير أثمانها وذلك كله تمهيدا لاتخاذ مرسى مطروح مركزا للعمليات العسكرية المنتظرة .

وفى اليوم التالى بدأت تصل النقالات إلى المرسى تحمل الجنود الهنود والسيارات المدرعة وكان فى وسط هذه الظروف أن شرع صالح حرب يفكر جديا فى الانضمام إلى المجاهدين العرب يدفعه إلى ذلك شعوره العميق بالعزة القومية والكرامة الوطنية فى وقت كان الانجليز قد أعلنوا فيه الحماية على مصر منذ بدء الحرب العالمية (الأولى) ، ويدفعه الواجب الوطنى إلى اعلان الجهاد ضدهم وبالرغم من أنه كان يتنازع القومندان المصرى عامل اليأس فى نجاح حركات العثمانيين والسنوسيين لما شهده من تفرق كلمتهم عند زيارة معسكرهم فى مساعد وعدم وجود أية مؤن أو ذخائر أو أسلحة لديهم ، إلا أن دافع العاطفة الوطنية كان أشد وأقوى وفضلا عن ذلك فقد إعتمد صالح حرب على تحريك عربان أولاد على المنتشرين على الحدود

الغربية الشمالية واستمالتهم إلى الثورة ضد الانجليز أضف إلى هذا أن سنوبك لم يظهر أى هتمام بمصير القوة المصرية السودانية فى سيدى برانى وفى بقبق بعد الانسحاب من السلوم فقد أرسل سنو إلى سيدى برانى سيارات مدرعة بقيادة تويدى أحد الضباط الانجليز قبل الانسحاب ثم علم منه صالح حرب أنه سوف يعود بهذه السيارات إلى مرسى مطروح تاركا المصريين والسودانيين الموجودين فى سيدى برانى وشأنهم بدعوى « أن هؤلاء الجند مسلمين والأتراك والعرب مسلمين فى وسعهم جميعا أن يفعلوا ما يشاءون ضد بعضهم بعضا » هذا مع العلم بأن العثمانيين كانوا يطلقون النار على هذه القوة المرابطة فى سيدى برانى على نحو ما تقدم ذكره وعندما أصر صالح حرب على ضرورة انتظار تويدى فى سيدى برانى حتى يتم انسحاب جميع المصريين وينجوا من هجوم العدو عليهم وقتلهم اكتفى سنوبك بأن يعد بإرسال تويدى مرة أخرى إلى سيدى برانى بعد عودته بالسيارات المدرعة منها وكان من الواضح أن يتعذر تحقيق هذا الوعد بعد الانسحاب من السلوم إلى مرسى مطروح فكان من أثر هذه العوامل جميعا أن قرر صالح حرب فى ليلة ٢٥ — ٢٦ نوفمبر ١٩١٥ الانضمام إلى المجاهدين وإعلان الثورة ضد الانجليز .

وكانت القوات المصرية الخاضعة للقومندان المصرى فى ذلك الوقت موزعة بين مرسى مطروح والسلوم وسيدي برانى وقربة (عند واحة سيوة) وكانت قوته فى المرسى تتراوح بين خمس وأربعين وخمسين جنديا عدا أربعة من الضباط و (باشكاتب القسم) فخرج بهم جميعا وسط السيارات المدرعة وكانوا جميعا ماعدا أحد الضباط فقط يجهلون نواياه ، ولم يشك الإنجليز فى أنه كان يعتزم القيام بعملية كشف (أو دورية) بوصفه قومندان المرسى فأفسحوا له الطريق واتجه صوب السلوم ثم أخذ يمر فى طريقه بعمد ومشايخ مرسى مطروح ويضمهم إليه وعند الفجر وصل الجميع إلى دوار (أو دور) عائلة العاصى من قبيلة (القنيشات) وهناك جمع صالح حرب الرؤساء والضباط والمشايخ والعمد وخاطبهم قائلا « نقف الآن بين معسكرين أحدهما معسكر الإنجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا ، وقد أقنعنى ضميرى وواجبى الدينى بعدم البقاء مع الأنجليز وقد خرجت فى سبيل الجهاد ضدهم فمن كان منكم يحرص على حياته أو تلزمه أية مسئوليات عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح فإننى لا أحول بينه وبين العوده إنما على شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة » فلم يرغب أحد منهم فى العوده بل أبدوا جميعهم تصميمهم على البقاء إلى جانب رئيسهم « يعيشون معا ويموتون معا » وعاهدوا الرئيس على الجهاد ومن ذلك بدأت الثورة بصورة علنية واستجاب له عربان قبائل أولاد على وأمر صالح حرب

بإنشاء أول دور للمجاهدين في وادى ماجد على مسافة عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى من مرسى مطروح ، وانتشرت الثورة فى أنحاء العقبة والعقيبة — ويطلق اسم العقيبة على المنطقة الممتدة من الحجاج غربى محطة فوكة إلى مريوط ، وكان انتشار الثورة فى هذه الجهات مفاجأة للانجليز لأنه ما كان يخطر ببالهم أن يثور أولاد على والضباط المصريون عليهم . ثم استأنف محمد صالح حرب سيره صوب الغرب حتى إذا اقترب من سيدى براني صادف جماعات من المحافظة وهم جنود السنوسيين النظاميون فأطلق هؤلاء النار على صالح حرب والقوة التى معه ظنا منهم أنهم أعداء يقصدون قتالهم ، وقد استطاع المجاهد المصرى بعد التفاهم معهم أن يصرف ما وقع من حوادث بعد انسحاب سيسل سنو من السلوم .

فقد خرجت بعض الكتائب السنوسية من السلوم بقيادة الضباط الأتراك وتحت رئاسة (جعفر) باشا العسكرى وزحفت هذه القوات على سيدى براني واحتلوها ولكن جعفر العسكرى ما كان يدرى ما يجب عليه أن يفعله بعد الوصول إلى سيدى براني بينما كانت الفوضى تمد رواقها على معسكره ولا أثر للنظام بين جنوده . وفضلا عن ذلك فإن السيد أحمد الشريف لم يوافق على هذه الحركة ولم يباركها . وعند ما وصلت القوات المصرية إلى سيدى براني قابلها جعفر العسكرى بترحاب عظيم ورجا صالح حرب أن يذهب إلى السلوم عساه ينجح فى التوفيق بين معسكر السنوسيين (السيد أحمد الشريف) ومعسكر الأتراك (نورى باشا) . فقد ظل الخصام قائماً بين المعسكرين وبذا استحال على جعفر العسكرى كما قال — أن يتقدم إلى الأمام خطوة واحدة .

وعلى ذلك فقد خرج صالح حرب قاصدا السلوم فنزل أولا فى بقبق ووجد بها (طابورين) أو كتيبتين « نموذجية » بقيادة أمين بك وغالب بك من الضباط الأتراك ، وليس معهما « قوت يوم » ثم تابع صالح حرب سفره إلى السلوم فقوبل بحماس عظيم واحتفل المعسكران السنوسى والعثمانى باستقباله احتفالا كبيراً ووجد المجاهد المصرى فى السلوم الوفد الإدريسى السيد محمد الشريف بن عبد المتعال الإدريسى وأعضاء أسرته فى ضيق وحرج شديدين وأخبره السيد أحمد الشريف بتفاصيل خدعة الأتراك التى أفضت إلى انسحاب سيسل سنو من السلوم. ووجد صالح حرب أن اليأس قد بلغ من العثمانيين حدا بسبب موقف السيد أحمد الشريف منهم جعلهم يحتفظون بقنابل يدوية صغيرة فى جيوبهم استعدادا لنسف المعسكر إذا انقلب السيد عليهم وباءت مشروعاتهم بالفشل . فبذل صالح حرب قصارى جهده لإقناع السيد أحمد بالعدول عن موقفه على أساس أن السيد إذا ظل مصرا على خطته السلبية حيال تلك الحركات

التي يراد بها خلاص مصر من قبضة الانجليز ومساعدة دولة الخلافة فى حربها ضد العدو ، فان هذا الموقف السلبي لن يفسر لصالحه إطلاقا بل سوف يتخذه أعداؤه وسيلة لإلحاق الأذى بسمعته فى العالم الإسلامى قاطبة ويظهرونه بمظهر الضالع مع الانجليز والطليان والمالىء لهم ضد بلاده . وعلاوة على ذلك فقد أفلت زمام الأمور من يده وصار واجبه الآن يقتضيه إما التقدم وإما الانسحاب إلى الأدوار الخلفية وترك الميدان حراً للعثمانيين يعملون ما بدا لهم على شريطة أن يكون ذلك بمحض إرادته . واستطاع صالح حرب كذلك أن يقنع نورى باشا وصحبه بضرورة الاعتذار للسيد عن حادث السلوم واسترضائه فطيب نورى خاطر السيد وانتهى الخلاف الظاهر بينهما . ولما علم صالح حرب باشا أن العثمانيين يبيتون النية على الفتك بأعضاء الوفد الإدريسى عند انسحابهم من السلوم إلى مصر بعد إخفاق المفاوضات بدعوى أن هؤلاء خونة وتقع عليهم مسئولية تأخير الحركات العسكرية استطاع أن يقنع نورى باشا باستدعاء الكمين الذى كان يترقبهم فى طريق عودتهم من السلوم ، وغادر الوفد السلوم بأمان. ثم تركت قوات المجاهدين السلوم قاصـــدة العقبة ومنها إلى سيدى برانى ومن ثم بدأت العمليات العسكرية

وكان أول المعارك الجدية التى حدثت فى وادى ماجد بين المعسكر الذى أقامه صالح حرب فى تلك الجهة وبين الانجليز هذه المعركة الشديدة التى فشل فى أثنائها سيسل سنو ثم تلا ذلك معركة أخرى فى أم الرخم بين طلائع الأتراك والسنوسيين الزاحفة وبين الانجليز . وعند اكتمال حشد هذه القوات وقعت معركة وادى ماجد الثانية فى ديسمبر ١٩١٥ وقد اشترك فى هذه الموقعة والمواقع التالية إلى جانب صالح حرب (باشا) جماعة من الضباط المصريين نذكر منهم اليوزباشى سيد أحمد أفندى أبو شادى والملازم الأول عبد الحميد حمدى والملازم الأول أمين ذهنى والملازم الأول محمود لبيب والملازم الأول أحمد سالم والملازم الثانى ابراهيم عوض والملازم الثانى محمود عبد الواحد عدا صولين وضابط بحرى هو الملازم الأول أبو زيد مقلد وباشكاتب القسم عثمان أفندى الدرعى . وبعد معركة وادى ماجد الثانية تقدم صالح حرب مع الهجانة والمجاهدين السنوسيين إلى جهة الزرقاء إلى الجنوب الشرقى من مرسى مطروح بينما انسحب جعفر العسكرى بالجيش من وادى ماجد ثم طلب إلى صالح حرب أن ينسحب هو الآخر من الزرقاء إلى الشرق وأن يجتمع ببقية القوات فى بئر الصريحات . ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت القوة إلى بئر تونس على أمل العثور بها على ماء ، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك ، أشار السيد أحمد الشريف باستسقاء الماء فتفتحت أبواب السماء وانهمر المطر مدرارا حتى رويت القوة بأجمعها . وكان لانهمار المطر فى ذلك الوقت فائدة أخرى هامة وهى

أن الانجليز الذين كانوا قد صح عزمهم على مفاجأة المجاهدين بعد انسحابهم من وادى ماجد وجمعوا لهذه الغاية حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل حبط مسعاهم لأسر القوة المحتشدة فى بئر تونس بسبب تعذر السير بسياراتهم المدرعة . وعلى ذلك فما كاد الجو يصفو من المطر الذى ظل ينهمر مدة يومين حتى شاهد المجاهدون سيارات الانجليز ومعسكرهم على بعد يسير منهم . وسرعان ما نشبت معركة بئر تونس وكانت حامية الوطيس غير أن المجاهدين كانت تنقصهم المؤن والذخائر فاضطروا إلى التقهقر ، وعندئذ عقد السيد أحمد الشريف مجلسا حربيا دعى إليه الضباط الأتراك وعلى رأسهم نورى باشا وجعفر العسكرى ، وحضره صالح حرب نائبا عن الضباط المصريين ، وثلاثة من كبار مشايخ السنوسية برئاسة السيد أحمد نفسه لبحث الموقف ، وكان السيد أحمد فى غضب ظاهر وأنحى باللائمة على الأتراك الذين تسرعوا فى بدء هذه العمليات العسكرية على الرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها ، الأمر الذى سبب تردد السيد أحمد واعتراضه السابق عليها . وقد اختتم السيد أحمد حديثه بعد أن شرح الحالة وما حدث من تقهقر إلى الوراء بدلا من التقدم إلى الأمام والزحف صوب مصر بقوله مخاطبا نورى وجعفر العسكرى وزملاءهما ، فما رأيكم وقد أوصلتمونا إلى هذا الحال وظهر أنى كنت على هدى وكنتم على ضلال ؟ ، فاقترح نورى وجعفر العسكرى اللجوء إلى فكرة حرب العصابات وطلب السيد أحمد إلى صالح حرب أن يدلى برأيه فعارض المجاهد المصرى هذه الفكرة معارضة شديدة كما نقد الخطة الاستراتيجية التى سار عليها الأتراك حتى ذلك الوقت نقداً مراً على أساس أن التقدم من ساحل البحر فى أرض مكشوفة يسهل على الانجليز معرفة مواقع قوات المجاهدين وتسليط النار عليها من مدافع سفنهم ، وفضلا عن ذلك فإن الأرض صلدة متماسكة تصلح لسير السيارات المدرعة عليها واستخدام قوات الفرسان الكبيرة كما تصلح لنقل المشاة على العربات من مكان آخر ، هذا علاوة على أن القرب من الساحل يمكن الانجليز من إنزال أية نجدات أو إمدادات يشاءونها من سفنهم إلى البر بسهولة بصورة يستطيعون معها أن يقطعوا خط الرجعة على المجاهدين . وذلك كله فى وقت لم يكن فيه لدى المجاهدين من وسائل النقل سوى جمل واحد لكل ثمانية أنفار وتنقصهم الأرزاق والمؤن ولا سبيل لحمايته مواصلاتهم . وعلاوة على ما تقدم فإن الإقدام على حرب العصابات فى منطقة العقبة والعقيبة كما يريد نورى وجعفر العسكرى خرق فى الرأى ما فى ذلك شك إذ البلاد فى هذه الجهات منبسطة كالكف لا يوجد بها غابات ولا جبال ولا قرى تستطيع العصابات أن تلجأ اليها وتعتصم بها ، ومن الهين على الانجليز أن يكشفوا مواقعها . وكان من رأى صالح حرب للخلاص من هذا المأزق أن ينتقل المجاهدون إلى الجنوب ويحتلوا الواحات وهى المكان الذى يصلح لتنظيم حرب العصابات ولكن نورى وجعفر أصرا على عدم الابتعاد عن الإسكندرية

والبحيرة ، والمضى فى خطتهما القديمة . وعند ذلك رأى السيد أحمد الشريف إرضاء للأتراك من ناحية ولأنه تبين الصواب فيما ذكره صالح حرب من ناحية أخرى أن تنقسم القوة فريقين فريق يذهب إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات وكان يتألف من حوالى خمسمائة وثلاثة آلاف جندى والفريق الآخر وعدده ستة آلاف جندى تقريباً يبقى فى الشمال وعهد بقيادة الجناح الجنوبى إلى محمد صالح حرب بينما تولى جعفر العسكرى قيادة الجناح الشمالى ، وبقى نورى باشا قائداً عاما على الجناحين على أن يظل مع جعفر باشا العسكرى فى الشمال وينتقل السيد أحمد الشريف إلى الجنوب فلم يسع نورى وجعفر سوى الإذعان . ثم منح السيد أحمد بما له من الحق كنائب الخليفة الأعظم رتبة اللواء الفخرية لصالح حرب باشا . ثم انسحبت قوة نورى وجعفر من بئر تونس قاصدة بئر الكلاب بينما تحركت قوة صالح حرب والسيد أحمد الشريف قاصدة سيوة .

وحدث عند بئر الكلاب أن فاجأ الانجليز قوات نورى وجعفر العسكرى ودارت بين الفريقين معركة شديدة عرفت باسم معركة العقاقير شرقى سيدى برانى فى فبراير سنة ١٩١٦ ، وكان الانجليز بعد أن تقهقر المجاهدون من بئر تونس قد صح عزمهم على الاشتباك معهم فى معركة فاصلة فكان لهم ما أرادوا وجرح جعفر العسكرى فى هذه المعركة وأفلت نورى من أيديهم بأعجوبة بعد أن أبلى هو وضباطه والجيش بلاء حسنا . وقد حضر هذه الموقعة مجاهد مصرى شاب هو الأستاذ عبد الرحمن عزام وكان قد وصل بعد اجتيازه الحدود المصرية إلى معسكر المجاهدين عقب واقعة بئر تونس وبقى مع فريق نورى وجعفر العسكرى لحضر موقعة العقاقير.وكان من أثر هذه المعركة الفاصلة أن تشتت شمل القوات الشمالية تماما واستطاع الانجليز مطاردة فلول الجيش.وتعقبتهم السيارات المدرعة متوغلة فى برقة إلى ما وراء بئر واعر واضطرت بقايا قوات نورى باشا إلى الالتجاء أخيرا إلى العقيلة فعسكروا بها أما الانجليز فدخلوا السلوم فى ٢٤ مارس ١٩١٦ واستولوا على معسكر السنوسيين والمجاهدين بها .

غير أن الانجليز على الرغم من انتصاراتهم ظلوا يعللون النفس بإمكان الوصول إلى تسوية سلمية مع السيد أحمد الشريف رغبة منهم فى تضييق دائرة الحرب وتوفير الجهود حتى يتسنى لهم مقابلة أعدائهم فى ميادين أخرى كانت أشـــد خطرا وأعظم أهمية . وعلى ذلك فقد استمرت المكاتبات بينهم وبين السيد أحمد الشريف بقدر ما سمحت الظروف وقتئذ فأعاد السير جون ماكسويل قائد الجيش البريطانى العام فى هذه الجبهة القول على السيد أحمد فى ٨ مارس ١٩١٦ أى بعد معركة العقاقير بأيام قليلة يعرض عليه الشروط التى رأى أنها ممكنة لبدء المفاوضة على أساسها من أجل إنهاء الحرب وعقد الصلح معه ، وكان السير جون

ماكسويل قد أبلغ السيد أحمد الشريف هذه الشروط ذاتها منذ ٤ يناير ١٩١٦ ، وأما هذه الشروط فكانت تنحصر فى أن يسلم المجاهدون جميع الأسرى من البريطانيين أو الهنود أو الأوروبيين الذين وقعوا فى قبضتهم ثم إبعاد جميع الأتراك والألمان الذين كانوا فى معسكر السيد أحمد الشريف أو تسليمهم إلى الانجليز كأسرى حرب إذا تعذر على السيد أحمد إبعادهم كما كان على السيد أحمد أن يخرج رجاله المسلحين من الأراضى المصرية وأن يتعهد فى الوقت نفسه بمنع دخول هؤلاء اليها وإلا عوملوا معاملة الأعداء ، حيثما وجدوا ، وأخيرا طلب من السيد أحمد وأعوانه أن يجلوا جلاء تاما عن سيوة والسلوم والجهات الواقعة إلى الشرق منها وأن يقيموا السلام فى جغبوب . ولكن هذه العروض لم تلق اهتماما من السيد أحمد .

ذلك بأن السيد بعد موقعة بئر تونس كان فى طريقه إلى سيوة لمواصلة النضال فى الجنوب . وعلاوة على ذلك فقد كان رحمه الله يعقد آمالا عظيمة على نجاح حركة على دينار وثورة دارفور ، وكان على دينار قد شق عصا الطاعة على حكومة السودان فى ذلك الوقت واشتبك مع قوات الحكومة فى مناوشات ومعارك عدة . أضف إلى هذا أن السيد كان يؤمل خيراً من قيام العمليات العسكرية على الحدود المصرية فى الصعيد بيد أن ثورة على دينار سرعان ماقضى عليها فى مايو ١٩١٦ . ثم لقى على دينار نفسه حتفه فى نوفمبر من تلك السنة وذلك فى أثناء العمليات العسكرية التى استمرت على الحدود الغربية طيلة عام ١٩١٦ وأوائل العام التالى أيضا .

وقد استطاعت قوة محمد صالح حرب الوصول بسلام إلى سيوه وكانت تتألف من حوالى خمسمائة وثلاثة آلاف جندى كما تقدم ذكره وبعض الضباط الأتراك وهم نديم وعبد القادر من المشاة وفوزى مع مدافع الماكينة وضياء مع الطوبجية ثم الضباط المصريون ابراهيم عوض ومحمود عبد الواحد ومحمود لبيب وأمين ذهنى والصول عبد الله والباشكاتب عثمان الدرعى والدكتور السيد دسوقى . ثم نزلت القوة من سيوه إلى الواحات البحرية والفرافرة والداخلة وانضم إليها جميع من كانوا بهذه الواحات من الموظفين المصريين ومن بين هؤلاء الدكتور محمد عبد الله ومن ضباط البوليس عبد القادر طراف من البحرية ثم مأمور هذه الواحة ومأمور الداخلة . واستمرت حرب العصابات ضد الانجليز طول عام ١٩١٦ وأوائل العام التالى . وأنشأ الانجليز فى الواحات الخارجة معسكرا يرسلون منه الطائرات على العصابات بينما ظلت هذه العصابات تشن الغارة عليهم فى الواحات الخارجة من حين لآخر . وترك صالح حرب قوة قليلة فى واحة سيوه لملاحظة الأمن والسهر على حماية هذه الواحة كما ترك قوة أخرى لهذا الغرض فى كل من واحة البحرية والفرافرة ، وأنشأ معسكرا فى قرية فنيدة من قرى الواحات الداخلة وأقامت القوة الرئيسية فى الداخلة ثم بدأ صالح حرب مفاوضاته مع

مشايخ العرب من الصعيد فى المنيا وأسيوط والفيوم . ولكن لم تلبث أن جاءت ردودهم غير مشجعة على إرسال العصابات إلى بلدان الصعيد وكان أشد ما يخشاه رئيس هذه القوات (صالح حرب) أن تترك العصابات فى الصعيد على غير رغبة هؤلاء المشايخ فلا تجد المأوى والأرزاق وتضطر إلى النهب والسلب ويقع الاصطدام بينها وبين الأهلين . ولكنه استطاع أن يمنع نزولها على الرغم مما كان يقاسيه أفرادها من شظف العيش حتى أنهم باتوا لا يجدون ما يرتدون أو ينتعلون . وصاروا يعيشون على التمر وحده عدة شهور واستمرت أعمال العصابات مقصورة على مهاجمة معسكر الانجليز فى الخارجة والاشتباك مع دورياتهم بينما ظل هؤلاء يلقون قنابلهم من الطائرات على العصابات ومراكز المجاهدين . وأفلح صالح حرب فى الغرض الذى سعى إليه من هذه الحركة وهى احتجاز قوات انجليزية كبيرة على الحدود الغربية وفى القطر المصرى كان الانجليز فى أشد الحاجة الى استخدامها فى حملة الدردنيل المشهورة .

واضطر الانجليز آخر الأمر إلى وضع خطة عسكرية كبيرة الغرض منها القضاء على حرب العصابات قضاء مبرما ، وقوام هـذه الخطة أن يجتمع حشد كبير من الانجليز فى الواحات الخارجة ، يشن هجوما عنفا على المجاهدين فى الواحات الداخلة . بينما تجتمع قوات انجليزية أخرى عند عزو الرماك الواقعة إلى الغرب من الفيوم مهمتها الهجوم على الواحات البحرية ثم تجتمع قوة ثالثة من السـيارات المدرعة فى الحفره قرب منخفض القطارة حتى تقطع خط الرجعة على المجاهدين . ولما كان معنى ذلك إذا نجحت خطط الانجليز الإحاطة التامة بعصابات المجاهدين ومركزهم العام فى الواحات الداخلة ، فقد بات من الضرورى الانسحاب من الداخلة الى الغرب جنوب سيوة والجغبوب . ولا سيما قد وصلت الأخبار إلى الداخلة منبئة بفشل حركات الشرق وإخفاق جيش جمال باشا فى اقتحام قنال السويس ، هذا فضلا عن أن الانجليز استطاعوا أن يكـشفوا مركز المجاهدين بواسطة طائراتهم وجلبوا الإمدادات العظيمة للإحاطة بقوتهم وتحطيمها ، ولذا فلم يعد من الحكمة بقاء العصابات فى الداخلة فاستقر الرأى على الانسحاب بعد أن شغلوا الانجليز مدة طويلة . وفى هذه الأثناء وصل السيد احمد الشريف من الجغبوب وسيوه فى أواخر ١٩١٦ فقامت الاستعدادات على قدم وساق لإتمام الانسحاب من الداخلة بكل سرعة . وكان الانسحاب مهمة عسيرة شاقة لأنه كان من الضرورى قبل كل شىء أن يتم الانسحاب دون علم العدو حتى لا يقوم بهجوم على الجيش المنسحب ، ثم كانت هناك مشكلة النقل العويصة ذلك أنه لم يبق لدى جيش صالح حرب سوى عشرين ومائة جمل فقط من حوالى الثمانمائة جمل عنده حولهم إلى الواحات . هذا فضلا عن أن ثمانين فى المائة من الجنود كانوا مرضى بحمى الملاريا وكان أيضا ينقص الجيش الأوعية اللازمة لنقل الماء . ولكن سرعان ما تغلب قائد الجيش على هذه الصعوبات جميعا فتحركت الحملة بسلام من

الواحات الداخلة إلى الواحات البحرية بعد أن أدخل المجاهدون فى روع الانجليز أنهم يريدون تركيز قواتهم فى الواحات البحرية لمهاجمتهم فى الفيوم (عزو الرماك) من هذه الواحات وجهز صالح حرب مفرزة صغيرة بعث بها لتقوم بحركة (كشف تعرضية) شرقى عزو الرماك حتى يتوهم الانجليز أنها مقدمة لهجوم عام على مراكزهم . فاحتلت المفرزة عزو الرماك وأطلقت النيران على القوات الانجليزية واعتقد الانجليز أن المجاهدين على وشك القيام بهجوم عام ضدهم فأخذوا يجمعون قواتهم وانتهز صالح حرب هذه الفرصة فأمر بانسحاب الحملة من الواحات البحرية ثم انسحبت المفرزة من عزو الرماك وتابع الجميع سيرهم صوب الغرب . ولما تبين للانجليز أمر هذه الخدعة جاءت سياراتهم المدرعة تتعقب جيش الحملة ولكن المجاهدين كانوا قد استطاعوا الاعتصام بالغرود (وهى الجبال الرملية) فتعذر على السيارات أن تسير فى أثرهم ووصلت الحملة فى أمان إلى سيوه . وكان أول ما عنى به رئيس الحملة عند وصوله إلى سيوه إرسال التمر إلى الجغبوب لتموين الجيش عند وصوله إليها . ولما لم يكن لدى الحملة عدد كاف من الجمال لنقل التمر إلى الجغبوب فقد اضطر الجيش إلى الانتظار فى سيوه مدة شهر تقريبا .

ومع ذلك فقد استطاع صالح حرب أن يرسل أكثر المجاهدين إلى جغبوب حتى أنه لم يبق لديه سوى كتيبة (الحافظية) وهم حملة القرآن الكريم وحرس السيد أحمد الشريف الخاص وكتيبة أخرى من الخاسة وثالثة من العبيدات ومدفعين من طراز (ماتتل) القديم ومدفعى ماكينة بقيادة الضابط فوزى وطوبجية مدفعين بقيادة ضياء وبلوك واحد من الزنوج السنوسيين واستقرت هذه القوة الصغيرة فى قربة وكانت تتألف من حوالى المائتين أو الثلاثمائة مقاتل .

وكان فى أثناء اهتمام المجاهدين بإرسال التمر وقواتهم المحاربة إلى جغبوب أن استطاع الإنجليز من ناحيتهم إتمام استعداداتهم العسكرية فى مرسى مطروح ، فقاموا بهجوم مفاجىء على مراكز المجاهدين فى قربة ونشبت معركة حامية بين الفريقين وكان صالح حرب يتولى قيادة المجاهدين وقد أبدى مهارة فائقة فى تعطيل حركات العدو ومناوراته العسكرية ، ولما كان مع الانجليز ثلاثمائة سيارة منها ست وعشرون سيارة مدرعة فقد رأى قائد المجاهدين أن من الحكمة أن ينسحب أمام تفوق الانجليز فى الرجال والأسلحة وأشار على السيد أحمد الشريف بالانسحاب من حطية أم عشا ، ثم تمكن صالح من الانسحاب هو الآخر بمدافعه وذخيرته وقوته بسلام إلى أم عشا ثم تابع الجميع سيرهم حتى وصلوا إلى (المناصب) حيث وجدوا العدو الذى أخذ يتعقبهم يسد عليهم الطريق بسياراته فى السهل . غير أن عجز السيارات عن الصعود على الغرود وهى التلال الرملية المنحدرة حتى اتخذ المجاهدون أماكنهم ما لبث أن فوت على العدو غايته ، ووصل المجاهدون إلى قرية (حطية) الشهيات ومنها إلى الجغبوب فدخلوها بسلام فى أوائل عام ١٩١٧ .

ويقول محمد صالح حرب (باشا) : « وقد أقمنا فى الجغبوب أسبوعا واحدا ثم جاءنا
طاب من السيد محمد إدريس السنوسى وهو بعكرمة مضمونه أنه جاءه إنذار من الانجليز
ولون فيه إنه إذا لم يبرح السيد أحمد الشريف ومحمد صالح حرب جغبوب فى خلال أيام
دودة فإنهم سيضطرون إلى تدمير جغبوب وتحطيم مقام السيد محمد بن على السنوسى المشيد
ا ، وأنهم — أى الانجليز — احتراما منهم لقداسة هذه البقعة رأوا أن يوسطوا السيد محمد
دريس حتى يمنع هذه الكارثة الخطيرة التى ستترتب على وجود السيد أحمد الشريف ومحمد
صالح حرب بالجغبوب وذلك بأن يعمل على ترحيل قوات المجاهدين منها » وأحدثت هذه
رسالة فى نفس السيد أحمد الشريف قلقا شديداً لأنه خشى أن ينفذ الانجليز عزمهم فيدمرون
مقبة ، وعلاوة على ذلك فإن السيد أحمد لم يشأ أن يعطل بوجوده فى الجغبوب اتفاقات
الصلح بين السيد محمد إدريس وبين الانجليز والطليان فقرر مغادرة الجغبوب إلى واحات جالو
وأوجله على الرغم من طول المسافة ومشقات السير وانعدام وسـائل النقل الكافية لحمل
المجاهدين ويبلغون حوالى الأربعة آلاف وحمل الماء اللازم لسقايتهم فى أثناء هذه الرحلة
المرهقة . ولم يشأ السيد أحمد أن يسمع لرأى صالح حرب وكان قد غدا (فريقا) وقائدا عاما
لجيشه بعد معارك سيوه ، وفضل الانسحاب من جغبوب وعدم تعريض مقام جده لخطر
التدمير على الاشتباك مع الانجليز فى معركة أخيرة فاصلة . وعند وصول المجاهدين إلى
حطية الفريدغه جاءتهم رسالة أخرى من السيد محمد إدريس يحثهم فيها على ضرورة الإسراع
بالانسحاب فرجع كثيرون من المجاهدين إلى مظاعنهم فى دفنه والجبل الأخضر واستأنف
الباقون السير حتى وصلوا الى (الخط) ثم الى واحة أوجله ثم الى زلة فمكثوا بزلة مدة شهر
تقريبا كانوا فى أثنائها موضع عناية أهلها الذين أكرموا المجاهدين اكراما كبيرا ثم ارتحلوا
منها الى واحة مراده ثم الى الجفره فقابلهم الشيخ سيف النصر من أولاد (أبو سيف) حاكم
هذه المنطقة . وكان أولاد أبى سيف هؤلاء من العرب الشجعان حاربت قبائلهم الطليـان
ودفعتهم عن هذه البلاد وكان من الواضح أنه لم يكن هناك أى انسجام بينهم وبين الأتراك
فضلا عما كان بينهم وبين رمضان السويحلى صاحب مصراته من عداء مستحكم بسبب حادث
السيد صفى الدين خاصة ، وعلى ذلك فإن وجود المجاهدين مع السيد أحمد الشريف ومحمد
صالح حرب فى هذه المنطقة ما لبث أن أقلق السويحلى وانتقلت عدوى هذا القلق إلى نورى
باشا الذى بعث من مصراته يطلب إلى صالح حرب أن يبذل ما وسعه من جهد وحيلة لإقناع
السيد أحمد الشريف بأن ينزل بقوته إلى ساحل البحر فى جهة سرت أو سلطان لمحاربة الطليان
لإزالة ما يسببه وجوده فى جنوب الوادى من قلق عظيم لدى أهل مصراته . ولما كان السيد

أحمد الشريف قد عقد النية على التوجه الى الفزان ثم إلى السودان الغربى إذا لزم الحال فقد لقى صالح حرب صعوبات عدة فى إقناع السيد أحمد ولكن تغلب عليها ، فنزل الجميع إلى الشمال ووصلوا إلى سلطان وعسكروا فى جهة العقيلة وعمد صالح حرب قبل القيام من الجفرة إلى إلى إرسال كتاب مع الطبيب المصرى سيد دسوقى إلى نورى باشا أوضح له فيه عزمهم على النزول إلى الشمال وشرح له سوء حال المجاهدين وحاجتهم الملحة إلى السلاح والذخيرة والملابس والمال حتى يتمكنوا من قتال الطليان ، أما المجاهدون فقد عسكروا فى العقيلة حتى بدأوا ينظمون سراياهم لمناوشة الطليان ، ثم أرسل صالح حرب أحد الضباط المصريين وهو عبد القادر طراف ومعه جماعة قليلة من الضباط العرب حتى يأتوا بالقافلة التى أزمع نورى باشا إرسالها من مصراته محملة بالمؤن والأسلحة لنجدة المجاهدين إثر وصول الدكتور سيد دسوقى برسالة صالح حرب إليه . وفعلا قامت القافلة المرتقبة وكان على رأسها سيد دسوقى وعبد القادر طراف مع بعض الجند الهجانة المصريين والمجاهدين العرب ولكن لم تكد هذه القافلة تبتعد عن مصراته بمرحلة واحدة فقط حتى فاجأهم كمين أعده رمضان شتيوى فأوقعوا بهم مقتلة عظيمة غدرا وخيانة وهم رقود فاغتالوهم عن آخرهم . ويقول صالح حرب باشا : وهنا كاد يفلت من يدى زمام القوات الموجودة معى لأن المجاهدين أصروا على مهاجمة مصراته اقتصاصا من هؤلاء على فعلتهم الشنيعة ولو أدى هذا العمل إلى هلاك المجاهدين جميعا . وقد استطاع السيد أحمد الشريف بفضل ما كان يتمتع به دائما من نفوذ عظيم على المجاهدين ويعاونه صالح حرب بعد جهود شاقة مضنية أن يصلا إلى تهدئة النفوس الثائرة ، ولو أن هذا لم يحل دون تسلل بعض المجاهدين فى صورة عصابات مسلحة للانتقام من مصراته ، وقاسى المجاهدون فى سلطان والعقيلة عنتا وإرهاقا عظيمين بسبب عدم وصول القافلة فقضوا حوالى سبعة عشر يوما يقتاتون بالعشب فحسب حتى انكشفت هذه الغمة أخيرا عندما أرسل السيد محمد إدريس وبعض الرؤساء المخلصين فى بنى غازى الأرزاق والأقوات إليهم . وذهب صالح حرب من العقيلة إلى مصراته للوصول إلى رأى فى مسألة إمداد معسكرات المجاهدين بالمؤن والأسلحة اللازمة فقابل هناك الأمير عثمان فؤاد وعبد الرحمن عزام ورمضان شتيوى ثم عاد أدراجه إلى العقيلة . وبقى السيد أحمد الشريف فى العقيلة حتى أغسطس ١٩١٨ ، وعندئذ وصلت السيد أحمد دعوة من استانبول لحضور حفلة تتويج السلطان الجديد محمد وحيد الدين (السادس) وتقليده السيف . فغادر السيد أحمد الشريف ومعه محمد صالح حرب طرابلس على نفس الغواصة الألمانية التى أحضرت هذه الدعوة . غير أنه قبل مغادرة السيد أحمد الشريف الأقطار الليبية بمدة طويلة كانت زعامة المجاهدين فى ليبيا قد انتقلت إلى السيد إدريس السنوسى .

الفصل الثامن

الزعامة الجديدة

السيد محمد إدريس المهدى السنوسى

السيد محمد إدريس المهدى هو ابن خليفة السنوسيين الأول السيد المهدى وحفيد مؤسس السنوسية السيد محمد بن على السنوسى الكبير ولد أعزه الله بزاوية الجغبوب فى العشرين من شهر رجب فى عام ١٣٠٧ (الموافق ١٢ مارس ١٨٩٠) ، نشـــأ فى رعاية أبويه حتى إذا توفيت والدته الكريمة والسيد مايزال فى دور الطفولة احتضنته جدته لوالدته وعنى والده بتنشئته تنشئة صالحة طيبة فبدأ يحفظ القرآن الكريم وهو فى سن السابعة على والده السيد محمد المهدى وكان هذا فى الكفرة لأن السيد محمد المهدى كان قد نقل مكان إقامته فى الجغبوب إلى هذه الواحة البعيدة بعد مولد ابنه بأربع سنوات تقريبا (١٨٩٤) .

وظل السيد محمد إدريس يحفظ على أبيه آى الذكر الحكيم مدة أوفده والده بعدها لتلقى العلم على أيدى شيخ عرف بالصلاح والتقوى مع أخيه السيد محمد الرضا وابناء عمه أبناء السيد محمد الشريف ثم حدث أن توفى السيد محمد المهدى (فى أول يونية ١٩٠٢) فكفله ابن عمه السيد أحمد الشريف ولما كان السيد أحمد الشريف كبير الأسرة فى ذلك الحين بعد وفاة عمه فقد تولى زعامة السنوسيين وصيا على السيد محمد ادريس أكبر أبناء السيد محمد المهدى وخليفته الشرعى واستطاع السيد ادريس التفرغ لطلب العلم فحضر على عدد من أفاضل العلماء اشتهر من بينهم السيد العربى الفاسى والسيد أحمد أبى سيف والسيد العربى الغمارى والسيد حسين السنوسى (وكان شيخا لزاوية الجغبوب فى المدة الأخيرة) ولما كان السيد احمد الشريف ابن عم السيد ادريس عالما جليلا فقد حضر السيد ادريس عليه دروسا متنوعة كما حضر على السيد احمد الريفى أستاذ ومرشد السيد احمد الشريف نفسه فحصل السيد ادريس بفضل ذلك كله شيئا كثيرا وأتقن القراءات وعلوم الحديث كما أتقن البخارى ومسلم ومسند أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أبى حنيفة والإمام أحمد وكتاب الأم للشافعى وغير ذلك من كتب الفقه والحديث والتفسير واللغة ، وفضلا عن ذلك فقد درس السيد علوم التاريخ وتقويم البلدان ووفق أعزه الله فى دراسته لحصل على إجازات عدة

وانتهى دور التحصيل والسيد يبلغ العشرين ربيعا تقريبا ، وكان ذلك فى عام ١٣٢٧ هجرية (١٩٠٩ ميلادية) .

ولما كان السيد أحمد الشريف لا يزال يتولى زعامة السنوسية ويقود الجهاد فى السودان الغربى ضد الفرنسيين لم يشأ السيد إدريس أن يطلب إلى ابن عمه أن يتخلى عن الزعامة لصاحبها الشرعى وفاء منه للسيد أحمد الشريف الذى كفله بعد وفاة أبيه والذى كان يحمل فى نفسه إجلالا وتعظيما لعمه السيد المهدى والد السيد إدريس ويتخذه قدوة صالحة يقتدى بها كما أن السيد إدريس من جانبه كان يكن له الحب والاحترام ويبجله لكبر سنه ويحرص على شعوره حرصا جميلا ، فرضى لذلك كله بأن يظل السيد أحمد الشريف فى زعامته . وتجلى حرص السيد إدريس على جمع كلمة المسلمين ولم الشمل وعدم التفرقة عند ما تأزمت الأمور وقت أن بدأ الطليان اعتداءهم الممقوت على القطر الليبى ورأى فريق كثير من الإخوان — وهم الأعضاء العاملون فى الطائفة — أن ينحوا السيد أحمد الشريف عن الزعامة وعرضوا على السيد محمد إدريس أن يتولى منصب الزعامة حقا موروثاً (١٩١١) ، فقد رفض السيد إدريس عروضهم وجمع بذلك كلمة المجاهدين . وأبلى المجاهدون فى الحرب بلاءً عظيما على الرغم من أن الطليان — كما سبق ذكر ذلك — استطاعوا احتلال المدن الساحلية ، حتى إذا سقطت بنغازى فى أيديهم فى أكتوبر ١٩١١ استقر رأى الإخوان السنوسيين بعد التشاور فيما ينبغى اتخاذه من إجراءات تكفل تنظيم المقاومة الجدية فى داخل البلاد على أن يذهب السيد أحمد الشريف إلى الجغبوب بينما يبقى السيد محمد إدريس بواحة الكفرة يقوم على تصريف شئونها العامة مكان ابن عمه السيد أحمد الشريف . وكان السيد أحمد لا يزال بالجغبوب عند ماقبل العثمانيون صلح أوشى مع الطليان وتقرر عقب ذلك استئناف الجهاد ضد الإيطاليين ، وعندئذ طلب السيد أحمد إلى ابن عمه السيد إدريس الحضور إلى الجغبوب على أن يستخلف فى الكفرة بدلا منه السيد محمد عابد من إخوة السيد أحمد ، فكان ذلك .

وفى أوائل عام ١٣٣٢ هجرية (وأواخر ١٩١٣ ميلادية) رغب السيد إدريس فى أداء فريضة الحج ، واعتزم السفر عن طريق مصر ، فقوبل فى كل مكان حل به بترحاب عظيم ، وكرمته الحكومة الخديوية المصرية تكريما بالغا ، فأرسل المرحوم عباس باشا حلمى الثانى (آخر الخديويين) قطاراً خاصاً ينقل السيد من الضبعة إلى سراى رأس التين . ونزل السيد فى ضيافة الحكومة المصرية بسراى رأس التين تسعة أيام استأنف بعدها السفر إلى بور سعيد فى ١٤ يونية ١٩١٤ فى قطار خاص ثم استقل باخرة إلى حيفا ، وكان انتقال السيد إلى حيفا فى هذه الباخرة على نفقة الحكومة المصرية مبالغة فى إعزازه وتكريمه ،

وخصص لنقل السيد إلى الحجاز بأمر أنور باشا الصالون الخاص الذى استخدم فى نقل الخديو السابق فى حجه ، وبمجرد أن وصل إلى المدينة المنورة أقيم لاستقباله حفل رسمى ثم تابع السيد سفره إلى مكة المكرمة وقوبل خارجها بالمكان الذى به مقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما بكل إعزاز وتبجيل ، ثم تكررت مظاهر الحفاوة عند وصول السيد إلى الطائف . وقد أقام السيد بالطائف مدة شهر رمضان ثم أدى فريضة الحج ورجع بعد ذلك إلى المدينة المنورة فأدى الزيارة ومكث بها مدة شهرين . ولما كانت نار الحرب العالمية الأولى قد اندلع لهيبها والسيد ما يزال بالطائف (شهر أغسطس ١٩١٤) . فقد قرر السيد العودة إلى أرض الوطن ، فغادر الحجاز إلى فلسطين على أمل أن يتمكن من العودة إلى بلاده بطريق البحر ماراً بالديار المصرية ، فوجد سفينة من سفن الشركة الإيطالية على أهبة السفر إلى بورسعيد فتزيى السيد بزى حاج مغربى واستقل هذه السفينة مع جماعة كبيرة من صحبه إلى بورسعيد . وعند وصوله إلى بور سعيد وجد الخديو قد أقصى عن العرش وأعلنت مصر سلطنة يتبوأ عرشها المغفور له السلطان حسين كامل تحت الحماية الإنجليزية ، وينوب عن ملك الانجليز فى مصر السير هنرى مكماهون ويتولى منصب القائد العالم السير چون ماكسويل ، فاستأذن السيد الحكومة المصرية فى النزول ونقله قطار خاص إلى القاهرة حيث جرى استقباله بها رسميا ومكث فى ضيافة السلطان حسين كامل بضعة أيام غادر بعدها القاهرة ، ثم ركب البحر إلى بلاده فبلغ السلوم فى وقت كان فيه السيد أحمد الشريف قد انتقل إلى هذه الجهات بجيشه فنزل السيد عنده ومكث معه حوالى تسعة شهور يشهد عن كثب مجريات الأمور (فبراير — نوفمبر ١٩١٥) .

وكان فى أثناء وجود السيد بالسلوم أن حضر (نورى) و (مانسمان) إلى بردى سليمان وتمت مقابلتهما الأولى مع السيد أحمد الشريف فى المسيعيد (أو مساعد) وذلك لتدبير أمر الهجوم على مصر فى ظروف سبق بيانها ، كما حدث فى هذه الآونة كذلك أن حضر السيد محمد الشريف الإدريسى ونجله الأكبر السيد محمد مرغنى إلى المسيعيد لمقابلة السيد أحمد الشريف والتوسط فى إقناعه بتجنب مقاتلة الانجليز . وقد سبقت الإشارة إلى آراء السيد محمد إدريس القاطعة فى عدم استعداء الانجليز ضد السنوسيين وهم فى جهادهم المرير مع الطليان وتجنب الهجوم على مصر حتى لا تقفل الطرق التى تأتى منها المؤن والمساعدات إلى المجاهدين . ومن الثابت أن السيد محمد إدريس كان لا ينفك يكرر النصح للسيد أحمد حتى لا ينساق إلى فى أعمال عدائية مع الأتراك ضد الانجليز لما يسببه ذلك من أضرار جسيمة تلحق بالأقطار الليبية لا محالة ، كما أن السيد لم يكتم عن الوفد الإدريسى رأيه وكان رأيا معروفا مشهوراً .

ولكن السيد أحمد الشريف لم يأخذ بنصيحة ابن عمه بل قرر فى الظروف التى تقدم بيانها الزحف على حدود مصر الغربية ، فكانت تلك الوقائع التى أفضت فى النهاية إلى انسحاب السيد أحمد الشريف إلى واحة الجغبوب والتحصن بها .

وأمام انسياق السيد أحمد الشريف إلى التورط فى الحرب مع نورى ومانسمان وأعوانهما ضد الانجليز وإغفال نصيحة ابن عمه السيد إدريس لم يعد هناك مسوغ لبقاء السيد بالمسيعيد فانتقل إلى الجبل الأخضر . ومن رأى بعض الكتاب أن انتقال السيد إدريس من المسيعيد كان يحمل معنى الاحتجاج على إشراك المجاهدين فى النضال الجديد وإغفال نصيحته . بيد أن السبب الأهم لانتقال السيد وقتذاك أن السيد أحمد الشريف عند ما قرر الاشتراك مع نورى ومانسمان فى الهجوم على الحدود المصرية الغربية رأى أن يرتب شئون الإدارة فى برقة حتى يتفرغ هو للجهاد فقسم رحمه الله القطر البرقاوى الى مناطق ، وجعل السيد إدريس على منطقة برقة ومركزه فى اجدابية على أن يكون تحت إشرافه فى دفنا السيد محمد هلال وهو من إخوة السيد أحمد ، بينما تسلم السيد محمد الرضا أخو السيد محمد إدريس الإدارة فى الجبل الاخضر . وأرسل السيد أحمد لتزعم الثورة فى طرابلس السيد محمد صفى الدين من إخوة السيد أحمد الشريف ، كما أرسل السيد محمد عابد من إخوته كذلك إلى الفزان والقبلة (الجبلة) فى طرابلس أيضا ، ثم انتقل السيد أحمد الشريف نفسه بعد ذلك الى الجغبوب ومنها إلى الواحات البحرية والفرافرة والداخلة لتنفيذ خطة الهجوم على الحدود المصرية على نحو ما سبق تفصيله . وعلى ذلك انتقل السيد محمد إدريس إلى برقة — وهى من أهم المناطق — للقيام بأعباء الحكومة بها فى هذه الظروف العصيبة دون مراعاة أى اعتبار آخر .

وفى الوقت الذى كان فيه السيد أحمد الشريف يشن الغارة على الحدود المصرية كان السيد إدريس يدير دفة الحكم فى برقة بكل حزم ومهارة فأظهر مواهبه كرجل الإدارة المحنك والحاكم الحازم وكانت برقة تشكو فى هذه الفترة المضطربة اختلال الأمن وتعرض الأهلين لشرور المفسدين فضرب السيد إدريس على أيدى هؤلاء المفسدين واستصدر من علماء البلاد « فتوى » لإعدام بعض السودانيين الذين وجدهم يعيثون فى الأرض فساداً ينهبون الأموال ويفتكون بالأرواح بغيا وعدوانا ، « فكانت هذه المسألة ضربة لازب قضت على كل من تحدثه نفسه بالعبث بالأمن والنظام من المفسدين والأشرار الآثمين » .

وعند ما انهزم السيد أحمد الشريف على أيدى الانجليز عند الحدود المصرية رأى السيد أحمد أن يكتفى بالزعامة الدينية ونزل عن كل سلطاته الإدارية والعسكرية ، فأصبح السيد إدريس يمارس هذه السلطات كاملة فى دفنا وبرقة وسرت الشرقية يساعده كل من السيد

محمد هلال والسيد محمد الرضا بينما صارت للسيد محمد صفي الدين هذه الاختصاصات في منطقة سرت الغربية وطرابلس وصار للسيد محمد عابد مثلها في الفزان والجبلة ، وأعطي مثلها كذلك على الخطابي في واحات الوسطة (أوجله وجالو وكفرة) ".

وكانت مهمة السيد محمد إدريس في برقة مهمة شاقة عسيرة ، وبخاصة بعد ذلك الفشل الذي أصاب المجاهدين تحت زعامة السيد أحمد الشريف على أيدي الإنجليز . فإن برقة كانت تعاني الأمرين في الحقيقة من جراء انتشار المجاعة بها وقتذاك (١٩١٥) بسبب احتباس الأمطار وفضلا عن ذلك فإن أرجال الجراد مالبثت أن غزت البلاد في العام التالي فأتت على الزرع وانتشر وباء الطاعون (خصوصا في عام ١٩١٧) ، وظل المطر محتبسا طوال هذه المدة تقريبا فكان أعظم بلاء شهدته برقة في تلك الآونة هو بلاء المجاعة التي تسلل شبحها المخيف يهدد البلاد بالفناء العاجل عندما صار يموت الألوف من الأهلين جوعا ، فامتلأت شوارع اجدابية بأشلاء الموتى واضطر الأحياء إلى أكل لحوم هؤلاء الموتى . بل ذهب الجوع بعقل امرأة فأكلت لحم ابنة لها ، وطلب الأحياء الهزالى مايسدون به الرمق من أي سبيل، واضطر كثيرون منهم إلى تسليم مامعهم من أسلحة إلى الأعداء الطليان لقاء حفنة من الأرز يتبلغون بها . وكان من آثار الحملة التي قادها السيد أحمد الشريف على الحدود المصرية أن أغلقت السوق المصرية في وجه المجاهدين وأهل البلاد عموما وهي السوق التي كانت تأتيهم منها الأرزاق ، ويبيع العرب فيها ما كان لديهم من سلع ومتاجر يستبدلون بها مايحتاجونه من أقوات وذخيرة ، فأغلقت الآن من دونهم كما سدت السلوم في وجوههم وساءت أحوالهم من جراء ذلك كثيرا . وأمام هذا الخطر الماثل والفناء العاجل الذي نجم بدرجة كبيرة عن تلك الحرب التي أثارها الأتراك مع الانجليز واشترك فيها السيد أحمد الشريف ، لم يجد السيد محمد إدريس مناصا من أن يوضح وجوه المسألة للسيد أحمد الشريف ويحذره عواقب التمادي في هذه الخطة التي وضعت أهل البلاد أمام أمرين لاثالث لهما : إما الجدب والقحط وإحاطة العدو بالمجاهدين شرقا (الإنجليز) وغربا (الطليان) وإما عقد السلام ولو بصفة مؤقتة بين المجاهدين وبين أعدائهم الانجليز والطليان ، لفتح السكة ، وكان لامفر من هذا الأمر الأخير كعلاج سريع حاسم .

والواقع أن السيد إدريس منذ أن تسلم مهام الأمور في برقة واستقامت له أحوالها وشهد هذه الأخطار المجتمعة تهدد كيان البلاد ذاته كان يتدبر الموقف ويقلب وجوه الرأي فيما يجب اتخاذه من وسائل لدفع هذه الغمة ، ووجد أن الوقت قد أزف لبروزه إلى الميدان سيدا شرعيا للسنوسية من الناحيتين السياسية والدينية على السواء يؤيده في ذلك الإخوان

أعضاء الطريقة السنوسية العاملين . وكان من رأيه أن سياسة التفاهم مع العدو والوصول على الأقل إلى اتفاق مؤقت كحل وسط يقرب بقدر الإمكان بين وجهات النظر هو أسلم الحلول فى هذه الظروف القاسية لفتح الطرق والأسواق المصرية خصوصا حتى يمكن القضاء على المجاعة .

ومع هذا فقدكانت هناك عدة عوامل جعلت من الحكمة ومن أصالة الرأى السياسى الوصول إلى هذا (الحل الوسط والمؤقت) مع الأعداء ، وأهم هذه العوامل بعد حفظ كيان البلاد من غائلة المجاعة ما كان يعرفه السيد إدريس عن رغبات الأهلين الحقيقية ، لأن رجال القبائل الذين سلموا أسلحتهم إلى الطليان فى نظير الحصول على ما يقتاتون به كانوا يريدون ضرورة إنهاء القتال مع الانجليز حتى يتم فتح الطرق إلى الأسواق المصرية خصوصا فيتمكنوا بفضل ذلك من الصمود فى النضال مع الطليان . فقد عقد وجوه وأعيان وشيوخ البلاد فى برقة والجبل الأخضر وكذلك رؤساء المجاهدين والقوات المسلحة اجتماعات عدة فى طول البلاد وعرضها وأعدوا « مضابط » كثيرة يبسطون فيها شكواهم من الحالة السيئة والخطيرة التى وصلوا إليها بسبب المجاعة والحرب ويطلبون إلى السيد أن يتدبر الأمر بحكمته حتى يجد لهم وللبلاد مخرجا من هذه الأزمة السياسية والاقتصادية التى استحكمت حلقاتها وهددتهم بالفناء العاجل . على أن أهم ما كان يسترعى النظر فى هذه « المضابط » أن أصحابها ألحوا على السيد فى ضرورة عقد الصلح مع الانجليز حتى يتمكنوا من التفرغ لمنازلة الايطاليين أعدائهم ، كما طلبوا إلى السيد « أن يوقف نورى باشا عن حركته المضرة بالبلاد وأهلها » ، وأخيرا فوضوا للسيد نفســــه الرأى فيما يجب اتخاذه من إجراءات تكفل تحقيق المصلحة العامة .

ولا جدال فى أن موقف العثمانيين أنفسهم منذ أن قرروا استئناف القتال فى القطر الليبى عند نشوب الحرب العالمية الأولى كان لا يدعو إلى الارتياح والاطمئنان الى أغراضهم ، بل يضعف الثقة فى نواياهم . ذلك أن العثمانيين الذين دبروا ذلك الهجوم الفاشل الذى أشركوا فيه السيد أحمد الشريف على الحدود المصرية وكانوا من عوامل اشتداد بلاء المجاعة فى البلاد ساءهم أن يروا السيد محمد إدريس يدير شئون برقة والجبل الأخضر بنجاح فرفضوا بادىء ذى بدء الاعتراف بزعامته الدينية على السنوسية — وهى حقه الشرعى — وكانت لهم من هذا الموقف غايات ، ثم سعوا الآن يبذرون بذور الشقاق والتفرقة بين المجاهدين ويناوئون الزعامة السنوسية ذاتهـا بدرجة أثارت تذمر وشكوى السيد أحمد الشريف

نفسه ، وصاروا يعملون لانتزاع الفزان من قبضة السنوسيين ، وكان معنى ضياع الفزان ضياع ليبيا بأجمعها .

فقد كان من أثر إلحاح نورى على السيد أحمد الشريف فى الظروف التى سبق بيانها بصدد الهجوم على الحدود المصرية ثم إخفاق هذا الهجوم أن فقد نورى باشا عطف السنوسية وكان من أسباب نفور السنوسيين منه أنه أكثر من بذل الوعود السخية عن جلب الإمدادات والنجدات الكثيرة وعلى جناح السرعة . ومع ذلك فإن شيئا من هذه الوعود لم يتحقق ولم يتلق السيد أحمد الشريف فى آخر مراحل نضاله مع الإنجليز فى الواحات وسيوة معونة أو نجدات ما من العثمانيين حتى أنه اضطر إلى الانسحاب إلى جغبوب فى بداية عام ١٩١٧ وشعر نورى باشا بحرج موقفه ونفور جمهرة السنوسيين منه ، فطفق الآن يدبر الخطط للنيل من السنوسية ذاتها وإضعافها بتصويب ضربة قاتلة إلى أهم مراكز قوتهم الباقية بتحريك الثورة ضد السنوسية فى الفزان ؛ وكان يقوم على شئون الفزان أخو السيد أحمد الشريف ، السيد محمد عابد . فاختار نورى لهذه المهمة ثلاثة من رجاله هم إحسان ثاقب بك وأصله من طرابلس والملازم أول سنوسى شوكت وهو برقاوى الأصل والملازم ثان محمد الأرناءوطى من المغامرين الأذكياء فقام ثلاثتهم من إجدابية ، المكان الذى استقر به نورى عقب انسحابه من منطقة الحدود المصرية عن طريق مراوة وزله ؛ واتجه الملازمان صوب (واو) مكان السيد محمد عابد ومعهما هدايا له ورسالة بتوقيع « فريق » من كبار رجال السلطان العثمانى محمد رشاد وكان الغرض من زيارتهما للسيد محمد عابد وتقديم احترامهما له إخفاء أمر المغامرة التى كان يقوم بها وقتذاك إحسان ثاقب بك .

فقد توجه إحسان ثاقب إلى مرزوق واستولى عليها باسم تركيا فى أثناء ذهاب الملازمين إلى الفزان ومقابلتهما السيد عابد وعندئذ انكشف أمر هذا التدبير وفطن السيد محمد عابد إلى غرض العثمانيين فسير ضد مرزوق حملتين كان نصيب الأولى منهما الوقوع فى الأسر بينما هزم العثمانيون الحملة الثانية فى العدم واستتب الأمر فى مرزوق لثاقب بك فشرع يؤلف قوة كبيرة من ألف وخمسمائة مقاتل لمواصلة النزال ضد السيد محمد عابد الذى جمع من جانبه جيشا كبيراً مجهزاً بثلاثة مدافع ووضعه تحت قيادة محمد على الأشهب .

وفى النضال التالى استطاع السنوسيون أن يرغموا الأتراك على الانسحاب من زويلة إلى (تراجن) . ومع أن الأتراك استولوا فى هذه الأثناء على قافلة كبيرة آتية من جهة (الإير) محملة بالغنائم وتقصد السيد محمد عابد ، ومكنهم هذا العمل من مقاومة الأشهب مدة فإنه سرعان ما اشتد الضغط عليهم ونفدت لديهم الذخيرة ، وأرغموا فى النهاية على الانسحاب

إلى مرزوق ثم إلى إخلاء مرزوق ذاتها فى ١٠ يولية ١٩١٧ والذهاب إلى (سبهه) . وفى (سبهه) وصلت الأتراك إمدادات كثيرة من جهة مصراتة أى من المكان الذى اتخذه نورى باشا مقرا له بعد انسحابه من إجدابية فى ظروف سوف يأتى ذكرها . وعلى ذلك فقد استطاع الأتراك أن يصدوا هجوما قام به من (الأبيض) السيد محمد على الأشهب فى ٢٠ أغسطس ١٩١٧ . ودار قتال عنيف بين الفريقين فى هذه المعركة وانتهز الأتراك فرصة توقف السنوسيين عن القتال وانقضوا عليهم فجأة فى جنح الظلام وقضوا على أكثر قوتهم وطاردوا الأشهب حتى أوقعوه فى الأسر ثم قتلوه بعد أن عذبوه تعذيبا قاسيا فى مرزوق وعندئذ اضطر السيد محمد عابد إلى إخلاء الفزان والتقهقر إلى واحة الكفرة يتحصن بها فى سبتمبر ١٩١٧ .

كشفت هذه الحوادث الدامية عن نيات الأتراك الصحيحة وأزالت البقية الباقية من كل ثقة كان لا يزال يضعها فيهم السيد أحمد الشريف وأولئك السنوسيون الذين ما كانوا يتوقعون قط أن يغدر بهم العثمانيون على هذه الصورة ؛ وفضلا عن ذلك فقد زادت هذه الحوادث السيد إدريس عزما فوق عزمه على ضرورة المفاوضة مع الانجليز من غير أى إمهال لا ليضع حداً للمجاعة المهلكة فحسب وإنما لتدارك الموقف فى الفزان كذلك .

غير أن هذه لم تكن كل الصعوبات التى صادفها السنوسيون وقتذاك بسبب تدابير نورى باشا والعثمانيين فى برقة (على الحدود المصرية) — وفى الفزان — (على النحو الذى تقدم وصفه) . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه العثمانيون يرسلون للسيد أحمد الشريف كتب السلطان وأنور باشا ثم فرمان تعيينه نائبا عن السلطان فى جميع القطر الليبى بما فى ذلك طرابلس ، وممثلا له فى إفريقية ، وهذا فضلا عن فرمان آخر بتوليته منصب الوزارة ، ثم هدايا السلطان مثل كسوة التشريف وخاتم من الماس وليرات عثمانية من الذهب إلى غير ذلك ؛ وفى الوقت الذى كان فيه نورى باشا يكرر وعوده للسيد أحمد بتأييد تعيين السيد نائباً عن السلطان فى القطر الليبى وإرسال النجدات والإمدادات خصوصا فى الفترة التى سبقت سقوط السلوم فى أيدى الانجليز (مارس ١٩١٦) ، نقول إنه فى أثناء ذلك كله كان نورى باشا يجفو فى معاملة السيد أحمد ويسعى لحرمانه من السلطة عمليا ، ثم لا يكتفى بتدبير المؤامرة لانتزاع الفزان من أيدى السنوسيين ، بل يعمل لتأييد سليمان البارونى فى طرابلس وإقصاء نفوذ السنوسية من هذا القطر إقصاء تاما حتى أن السيد محمد إدريس نفسه لم يجد بدأ من تذكير ابن عمه بهذه الأمور التى أفقدته وأفقدت السنوسيين عموما الثقة فى وعود الأتراك أو الاطمئنان إلى أغراضهم فى رسالة أثبت ترجمتها المؤرخ الإيطالى (سيرا) وكان قد بعث بها السيد

إدريس إلى ابن عمه فى ٢٦ ربيع أول ١٣٣٥ (٢ يناير ١٩١٧) وتساءل فيها السيد إدريس عن ثمرة وعود الأتراك المتكررة عندما أرسل هؤلاء «البارونى ممثلا لجلالة السلطان فى طرابلس وأعطوه أسلحة وذخيرة وزودوه بمنشورات كثيرة بمقدار ما يملأ الدنيا منها ، بينما أنتم — مخاطبا السيد أحمد الشريف — تجاهدون من أجلهم ، وهم لا يكتفون بعدم الاهتمام بكم بل يغدرونكم بإرسال خائن إلى بلادكم ويبذلون له كل مساعدة فى الوقت الذى يتحدث فيه فقط وقبل كل شىء عن طرابلس ولا يذكر السنوسية بكلمة واحدة ، وفضلا عن ذلك فإن السيد أحمد — على حد ما جاء فى هذه الرسالة — كان يقول دائما ، إن أنور (أخبره) بأن السلطان أصدر فرمانا بتعيينه نائبا عن الخليفة فى إفريقية . ولكن ما قيمة هذا الكلام إذا كانت الأقوال تختلف عن الأفعال ؟ فإلى متى يجب علينا نحن وأتباعنا أن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه الوعود الباطلة الكثيرة التى سوف تنتهى من غير شك بنتيجة واحدة هى القضاء علينا وعلى أوطاننا . ويا لها من كوارث عظيمة تلك التى نزلت بأهل هذا الوطن ! ، لقد أكثر الأتراك من الوعد بإرسال النجدة إبان حملة الحدود المصرية ، من الوقت الذى سبق مسألة السلوم وسقوطها إلى أيامنا هذه ، ويكفى ما سببه ضياع السلوم من آثار سيئة فى نفوس المجاهدين والمسلمين قاطبة ؛ ويكفى ما سببته هـــذه الحملة الفاشلة من بلاء نزل بالوطن وأهله » .

والواقع أن هذه الرسالة التاريخية — وكانت رداً على كتاب من السيد أحمد الشريف إلى السيد إدريس فى ٢٥ صفر ١٣٣٥ (٢١ ديسمبر ١٩١٦) بعد فشل حملته وانسحابه إلى سيوه — تظهر بجلاء مقدار الاختلاف الواقع بين الزعيمين المجاهدين فى تقدير الأمور من وجهة نظر السياسة وتدبر عواقب الأمور ، ومقدار ما بلغه السيد محمد إدريس نفسه من مكانة رفيعة كزعيم للمجاهدين ورئيس دينى يحتل مركزه الشرعى ثم يفرض احترام شخصه وآرائه فرضا على السيد أحمد الشريف وعلى بقية المجاهدين بفضل ما أثبت من حنكة ودراية وهو يسوس شئون الحكم فى اجدابية ، ثم ما أظهر من بعد نظر سياسى وهو يلقى هذه التوجيهات على ابن عمه ويسوق أمامه الموعظة بعد الموعظة .

قال أعزه الله مخاطباً السيد أحمد فى هذه الرسالة نفسها — « هل لا تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة الذى عينه الأتراك ثم وجد تحقيقا لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم ثم أرغم على الوقوف خصما لهم فأعلن استقلال البلاد ووافقت الدول المتحالفة على ذلك ونودى به ملكا على العرب ، وهو الآن يبذل قصارى جهده فى إدارة شئون بلاده فيؤسس المجالس وينشىء الإدارات والمصالح ، ولو أنه قبل أن يدخل الحرب إلى جانب الأتراك

لكان الخلفاء. الآن يحتلون مملكته كما احتلوا البصرة (العراق) ومناطق أخرى . فالملك حسين كون جيشا كبيراً الآن ويريد احتلال الشام وأرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر ووصله كل مايحتاج إليه للقيام بحركة واسعة وأذاع فى العالم الإسلامى أنه لايريد بالإسلام شراً وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقى ، ويذكر فى خطبه اسم الخليفة العثمانى وهو الخليفة المقيد والذى فقد كل سلطة بفضل القيود التى فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والذود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضا فأقاموه ملكا عليهم . ثم حدثنى بالله ياسيدى كيف يستطيع الأتراك غزو مصر ودخولها وهم الذين أخفقوا فى محاولة استرجاع الحجاز ، وهل لا تنظر يا سيدى إلى السيد إدريس فى بلاد اليمن ؟ فهو يحتفظ دائما باستقلاله ويتمسك بحياده وهذا على الرغم عما يفعله الانجليز الذين يحاولون إقناعه بمحاربة الأتراك ، ومما يفعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الانجليز ولكنه لا يريد أن يورط نفسه فى شىء من هذا كله . وكان فى إمكانكم أن تفعلوا مثل هذا قبل حادث السلوم ، وكان فى أيديكم الانجليز والترك معا ولكن ما فائدة الحسرة على الماضى والندم على ما فات . إن الذى أريد أن أسترعى نظركم إليه هو العالم الإسلامى ، لأن الإسلام يريد ياسيدى أن يعرف ومن حقه ان يدرك ويفهم فهما صحيحا ما تفعلون وما تريدون ويجب علينا قبل كل شىء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لا تذهب ضحية لغيرنا » .

وقد تبودلت هذه الرسائل بين السيدين فى وقت كان فيه السيد محمد قد بدأ مفاوضات لكل هذه الأسباب التى ذكرت مع الإنجليز ثم مع الطليان على أمل الوصول إلى ذلك الاتفاق المؤقت والحل الوسط الذى يكفل فتح الطريق مع مصر وإزالة شبح المجاعة من البلاد وجمع كلمة القبائل والمجاهدين خصوصا فى بلاد برقة . ثم يتمكن الزعماء السنوسيون بفضله من تصفية الموقف فى الفزان ثم فى طرابلس . على أنه مما يجدر ذكره كذلك أن السيد محمد إدريس بعد أن أجمع وجوه البلاد وأعيانها وشيوخها على الرأى الذى أثبتوه فى « المضابط » الكثيرة التى قدموها السيد لم يشأ الدخول فى المفاوضة مع الإنجليز قبل أن يوضح الحالة على حقيقتها للسيد أحمد الشريف الذى بعث بدوره وكان وقتئذ فى الواحات الداخلة يقول من فوره مخاطبا السيد إدريس « أنقذ البلاد مما وقعت فيه ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب ، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث أن لهم حقا فى ذلك » .

قرر إذن السيد محمد إدريس المفاوضة مع الانجليز ؛ وكان مما يسر على السيد مهمته أن الوفد الذى حضر إلى المسيعيد من السيد محمد الشريف الإدريسى والسيد محمد مرغنى للمفاوضة

مع السيد أحمد الشريف ثم رجع إلى مصر بعد انسحاب (سيسل سنو) من السلوم إلى مرسى مطروح كان قد اقترح على ولاة الأمور فى مصر أن يتصلوا بالسيد محمد إدريس لما شهده فى السيد من صفات الحزم وأصالة الرأى وعرفه عن معارضته الأعمال العسكرية التى يديرها نورى وجعفر العسكرى . فأذن هؤلاء للوفد بأن يكتب إلى السيد إدريس بغية الوصول إلى اتفاق معه ، وشرع الانجليز من ذلك الحين يخاطبون السيد فى الصلح على أساس إخراج نورى باشا وصحبه من الأتراك من برقة ثم إسداء النصح لابن عمه السيد أحمد الشريف حتى يخرج من الجغبوب التى تحصن بها بعد انسحابه من سيوه . وقد هدد الانجليز على نحو ما تقدم بالهجوم على الجغبوب ذاتها — وبها ضريح السيد محمد بن على السنوسى الكبير — والاستيلاء عليها عنوة إذا أصر السيد أحمد الشريف على البقاء بها (مارس — إبريل ١٩١٦) وهذه شروط كان من الميسور المناقشة فى سبيل الاتفاق على أساسها ، ولذلك أبلغ السيد إدريس القنصل الانجليزى فى بنغازى رغبته فى أن يحضر السيد محمد الشريف الإدريسى حتى يكون وسيطا فى المفاوضة كما أرسل فى الوقت ذاته وفداً مؤلفا من السيد عمر المختار والسادة إبراهيم المصراتى وخالد الحوى ومرتضى الغريانى لمقابلة نورى باشا فى معسكره . وكان نورى لا يزال فى هذه الآونة مقيما بالبطنان على مقربة من خليج بنبه فى مكان يسمى العقيلة الشرقية ، وذلك حتى يطلبوا إليه صراحة القدوم إلى إجدابية مقر السيد إدريس والابتعاد عن الحدود المصرية . ولما كان نورى باشا لا يزال يرجو التأثير فى العرب والمجاهدين فى عهد الزعامة الجديدة حتى يستبقيهم إلى جانبه فى النضال ضد الانجليز ، ولما كان قد انعدم فى الواقع أمام انتصارات الانجليز المتتابعة فى هذه الجهة أى أمل فى إمكان استئناف الهجوم على الحدود المصرية ، وفشلت كذلك حملة الأتراك الموجهة ضد حدود مصر الشرقية فقد وجد نورى من حسن السياسة أن يجيب هذه الرغبة . وعلاوة على ذلك فقد وجد نورى فى ذهابه إلى السيد فرصة مواتية تمكنه من التحدث إليه وإقناعه بضرورة مواصلة القتال من جهة وتمهد له السبيل كى يعمل على إبطال مساعى الصلح من جهة أخرى ، وحتى يكون أكثر اتصالا بداخل البلاد من جهة ثالثة فيستطيع العمل على هدم سلطان السنوسية فى الفزان مركز قوتهم على نحو ما حاول فعلا كما رأينا . أضف إلى ذلك أن وجوده بإجدابية يجعله قريبا من ميدان الجهاد الآخر بطرابلس موئله الأخير قبل أن يغادر نهائياً القطر الليبى بأجمعه على نحو ما سيأتى ذكره .

وعلى ذلك فقد لبى نورى دعوة السيد محمد إدريس وغادر البطنان إلى إجدابية واصطحب

معه محمد أبو جبريل، ثم المجاهد المصري الشاب عبد الرحمن عزام أو العزام كما صار يعرف فى هذه الأقطار بعد قليل عند ما طبقت شهرته الآفاق. ومن ذلك الحين أصبحت إجدابية مركز نشاط عظيم لا بوصفها مقر حكومة السيد إدريس منذ انتقل اليها من السلوم من أواخر العام السابق (١٩١٠) فحسب بل وباعتبارها المكان الذى أقام به زعماء العثمانيين يبذلون قصارى جهدهم حتى يثنوا السيد إدريس عن عزمه ولكن من غير نتيجة. وفى اجدابيـة جرى الاتفاق على بدء المفاوضات التمهيدية.

فقد أبلغ الانجليز السيد محمد إدريس أنهم لا يدخلون فى مفاوضات بشأن الصلح مع المجاهدين العرب ما دام العرب يرفضون المفاوضات مع ايطاليا لعقد السلام معها، فكان أول ما فعله السيد أنه أخذ يطلب رأى وجوه البلاد وأعيانها وشيوخها فى هذا الموقف الجديد، ولكن هؤلاء جميعا وافقوا على المفاوضة مع الطليان ورضوا بها خوفا من زيادة استحكام الضائقة الاقتصادية التى اشتدت وطأتها بسبب إغلاق الطرق بين الجبل الأخضر ومصر وهى الضائقة التى سبق بيان طرف من أهوالها. وعند ما أخبر السيد أحمد الشريف بالأمر وافق رحمه الله على المفاوضة مع إيطاليا إلى جانب انجلترا نزولا على رغبة الأهلين، ولو أنه اشترط فى الوقت نفسه أن يظل بعيداً عن الصلح فلا يشمله، ذلك أنه فضل الانتقال إلى مكان آخر على الصلح مع الطليان لأنه على ما يبدو كان لا يزال يثق بوعود العثمانيين الزائفة، الأمر الذى انتهى بخروج سيادته من القطر الليبى كله فى ظروف سوف يأتى ذكرها. وأما نورى فقد ظل منذ مجيئه الى اجدابية يلح على السيد إدريس فى ضرورة مواصلة القتال ضد الانجليز وكان نورى الذى عرف قليلا من العربية البسيطة يبذل منفرداً هذا الجهد فى إقناع السيد ولكن السيد إدريس رفض الاستماع إليه وتمسك بضرورة إجابة رغبات أهل البلاد وزعمائهم وهذه كانت رغبات صريحة لا تحتمل شكا أو تأويلا؛ وفضلا عن ذلك فإن المبادرة ببدء المفاوضات كان كذلك ضرورة لا تحتمل هى الأخرى تسويفاً أو تأجيلا.

وعلى ذلك فقد استعد السيد لمقابلة معتمد انجليزى للمفاوضة وطلب من وكيل الوالى الايطالى فى بنغازى أن يرسل إليه معتمداً إيطالياً من قبله لهذه الغاية، فاختارت الحكومة الانجليزية وفدا للمفاوضة مؤلفا من الكولونيل (تالبوت) والضابط (هسلم) ثم أحمد بك حسنين لمعاونة تالبوت، وكان حسنين بك (رفعة المرحوم أحمد حسنين باشا فيما بعد) يعمل فى هذه الآونة سكرتيرا عربيا للجنرال ماكسويل ثم لخلفاء ماكسويل فى القيادة. وكذلك حضر مع الوفد الانجليزى كل من السيد محمد الشريف الإدريسى والسيد محمد مرغنى وغادر الوفد الانجليزى القاهرة وسافر بحرا إلى بنغازى للاجتماع بوفد المفاوضة الإيطالى.

وأما الوفد الإيطالى فكان يتألف من الكولونيل (فيلا) والسنيور (بياشنتينى) . وفى شهرى مايو ويونية ١٩١٦ بدأت المفاوضات مع السيد محمد إدريس فى (الزويتينة) على شاطىء خليج سرت ولا يفصلها عن اجدابية غير مسافة قصيرة . وبدأت المفاوضة أولا فى موضوع تبادل الطليان الذين أسرهم المجاهدون فى أثناء الحرب مع بعض الأهلين الذين أودعتهم السلطات الإيطالية السجون لأسباب سياسية . ثم قدم الطليان بعد ذلك شروطهم التى ارتأوا أنها ضرورية لإمكان الاتفاق مع السنوسية ، وهذه كانت شروطاً كثيرة فحواها أن يعترف السيد إدريس بالسيادة الإيطالية على كل برقة من منطقة بنغازى إلى منطقة الكفرة وأن يسلم العرب والمجاهدون أسلحتهم فلا يبقى لديهم سوى ما يكفى للمحافظة على أنفسهم ؛ ثم إنهاء حالة الحرب القائمة وحل جميع أدوار (أى جيوش ومعسكرات) المجاهدين . وفى نظير ذلك ترضى إيطاليا برجوع مشايخ الزوايا إلى مراكزهم وتعترف بالطريقة السنوسية ، وتعطى الكفرة استقلالا إداريا وتعفى الأسرة السنوسية من كل الرسوم الجمركية ، كما أنها تتعهد بإعطاء ضمانات تكفل قيام المحاكم الشرعية الإسلامية بأعمالها ومباشرة وظائفها ؛ هذا إلى جانب ما تبذله من مساعدات لتحسين الأحوال الصحية فى البلاد وإنشاء المدارس وما إلى ذلك .

وكانت هذه الشروط شروطاً قاسية ، وظهر أنه لا مناص من انقضاء وقت غير قصير قبل الوصول إلى تسوية عادلة . وكانت مسألة الاعتراف بالسيادة الإيطالية على برقة من أخطر المسائل التى تقدم الطليان بها ولا يمكن البت فيها بسهولة ؛ ولذلك فقد تأجل بحثها حتى إذا ما فرغ المتفاوضون من فحص المسائل الأخرى بصورة قد تقرب بين وجهتى نظر الفريقين أمكن عندئذ بحث مسألة السيادة الشائكة ؛ ولكن الطليان سرعان ما أظهروا تصلباً لا مسوغ له عند النظر فى بقية المسائل حتى انتهى الأمر بأن يصدر والى برقة وقتذاك الجنرال جيوفانى أميليو — وكان يشغل هذا المنصب منذ أكتوبر ١٩١٢ — أمرا بقطع المفاوضات فتم له ما أراد وأخفقت مفاوضات الزويتينة . وأما الوفد الانجليزى فإن مهمته فى أثناء هذه المفاوضات كانت تخرج عن مجرد بذل الجهود من أجل التوفيق بين وجهات النظر على اعتبار أنه لم يكن هناك أى خلاف فى الحقيقة بين مصر والانجليز من جانب وبين السنوسيين من جانب آخر . وعلى ذلك كان كل ما يدور البحث فيه مع الانجليز بصفة مبدئية هو ما يجب اتخاذه من وسائل تكفل تأمين سلامة الحدود بين مصر وبرقة ، ومنع حدوث أى احتكاك فى المستقبل بين البلدين فى منطقة الحدود . وكان ظاهرا من أول وهلة أن الاتفاق على هذه المسائل بين السنوسيين والانجليز سهل ميسور . ولكن رئيس الوفد الانجليزى (تالبوت)

كان متمسكا بعدم التوقيع على أى اتفاق مع السنوسيين قبل أن ينتهى السيد إدريس من الاتفاق مع الطليان ويتم التوقيع من الطرفين على هذا الاتفاق نهائياً .

وكان يقابل المشروع الإيطالى مشروع آخر تقدم به السيد ويقوم على ضرورة اعتراف الطليان باستقلال السنوسيين والاعتراف بالسيد إدريس أميرا على برقة وتخطيط الحدود بين الأراضى التى ظلت فى حوزة السنوسيين وبين تلك التى أصر الطليان على التمسك بها واحتلالها خصوصا فى الساحل ، وهى الأراضى التى استولى عليها الطليان عنوة فى بداية الحرب وكانوا يحتلونها فعلا . وفضلا عن ذلك فقد كان من أهم ما تمسك به السنوسيون أن تفتح الطرق وتعود البلاد إلى حالة السلام السابقة ؛ وكان فتح الطريق ضرورياً حتى تأتى الأرزاق والأقوات إلى برقة ويزول بفضل ذلك خطر المجاعة . وأسفرت مفاوضات الزويتينة عن تخطيط الحدود بين أراضى الفريقين واحتفظ كل فريق بخريطة للرجوع إليها عند الحاجة

وعلى ذلك فإنه لما كان متعذرا إبرام أى اتفاق فى الزويتينة فقد غادر الوفد الإيطالى البلاد إلى رومه حتى يعرض على الحكومة الإيطالية نتيجة ما وصل إليه مع السنوسيين ، ثم أرجئت المفاوضة إلى مكان ووقت آخرين . وحدث فى هذه الآونة أن الدول الثلاث المتحالفة إيطاليا وانجلترة وفرنسا ما لبثت حتى اتفقت فيما بينها فى آخر يولية ١٩١٦ على أن تسلك جميعها طريقا واحدا مع السنوسية فلا يختلفون فى خططهم معها ؛ وفى آخر هذا العام وأوائل العام التالى جاءت الأخبار من رومة بأن الحكومة الإيطالية ترغب حقيقة فى الاتفاق على أساس أكثر تساهلا من السابق ويكفل إجابة مطالب السنوسيين لدرجة كبيرة . وعلى ذلك فإنه سرعان ما تألف وفد إيطالى جديد لهذه الغاية كان أعضاؤه الكولونيل دى فيتا والقومنداتورى لويجى بنتور وحضر المفاوضة الجديدة كذلك السيد محمد الشريف الإدريسى وولده السيد محمد مرغنى . وفى هذه المرة ألف الانجليز وفدهم من الكولونيل (تالبوت) الذى ظل لعدم معرفته اللغة الإيطالية يعتمد على أحمد حسنين بك كل الاعتماد ، ثم حضر معه الملازم (رود) ابن السفير الانجليزى وقتذاك فى رومه وكان هو الآخر لا يعرف العربية .

واختار السيد محمد إدريس مكانا للمفاوضة (عكرمة) بجهة طبرق ، وانتقل إليها وحضر الوفدان الانجليزى والإيطالى إلى طبرق . وفى شهر يناير ١٩١٧ بدأت المفاوضات الجديدة فى (عكرمة) .

واعترضت المفاوضات عقبات جمة كان سببها أن المفاوضين الطليان لم يكونوا مزودين بتفويض كامل لإبرام الاتفاق فاضطروا دائماً إلى مراجعة السلطات العليا فى كل المسائل البسيطة والنقط التفصيلية ؛ كما أن غرض السيد إدريس الأول كان الاتفاق قبل كل شىء على

دل الأسرى وفتح الطرق حتى يمكن الحصول على الأرزاق والأقوات الضرورية لتخليص
لاد من شرور المجاعة ؛ وعلاوة على ذلك فإن المفاوضين الطليان كانوا يريدون الحصول
لى ضمانات وافية فى كل ما يتعلق بمصالح السنوسية الأدبية والسياسية بالنسبة للسيادة الإيطالية
طلقة والشاملة فى كل منطقة برقة ؛ وعلى ذلك فإن كل ما أمكن الاتفاق عليه حتى شهر مارس
١٩١٦ كان فى مسألة تبادل الأسرى وفتح الطرق على نحو ما أراد السيد إدريس نفسه. وكان
لك إلى حد بعيد نتيجة للمهارة التى أظهرها السيد فى أثناء هذه المفاوضة. على أن المفاوضات
تلبث أن سارت بعد ذلك سيراً حثيثا بسبب حرص السيد على تعطيل تدبيرات العثمانيين فى
لفزان وغيرها ، ثم بسبب ما ظهر له من رغبة الأتراك فى بذر بذور التفرقة بينه وبين السيد
أحمد الشريف ، ولرغبته فى المحافظة على توحيد الكلمة ؛ فضلا عن أنه أراد أن يكسب بإبرام
الاتفاق مع الطليان إزالة ذلك الحصار الخانق الذى ضربه الانجليز على البلاد من جهة الشرق
والطليان على حدودها الشمالية والغربية.

وعلى ذلك فقد وصل الفريقان إلى اتفاق عكرمة أو طبرق — ذلك الحل المؤقت الذى
كان أول اتفاق من نوعه عقده السنوسيون والمجاهدون العرب مع الطليان فى ١٦ إبريل
١٩١٧ تحت عنوان « شروط تمهيدية لتهدئة خواطر أهل البلاد » ؛ وكان إبرام هذا الاتفاق
التمهيدى أو المؤقت فى عكرمة أى فى مقر السيد إدريس نفسه ؛ وكان يتألف من ثلاث عشرة
مادة تضمنت إعلان رغبة الفريقين فى إنهاء القتال والكف عن المحاربة فى قطر برقة وفتح
الطرق بين الساحل وداخل البلاد للتجارة بكل حرية ، فى بنغازى ودرنه وطبرق فقط ومؤقتا
« نظراً لوجود الفتن » فى بقية البلاد حتى إذا انطفأت هذه الفتن « تطلق التجارة فى جميع النقط »
ثم التزم الإيطاليون بأن يقفوا عند « نقطهم » التى كانوا يحتلونها وقت إبرام الاتفاق فعلا ،
فلا يجدون نقطا عسكرية زيادة على ما هو كائن » ؛ وعلى أن يفعل السنوسيون مثل ذلك من
جانبهم أيضا . وفضلا عن ذلك فقد تعهدت إيطاليا « بإبقاء المحاكم الشرعية فى الأماكن التى
يقتضى وجودها بها ، وبأن يقضى بها قضاة علماء موثوقا بهم ولهم صلاحية فى الدعاوى المتعلقة
بالنكاح والطلاق والفرائض وكل الأحكام الدينية الإسلامية » ؛ وكذلك تعهدت إيطاليا بأن
توجد فى برقة مدارس للعلوم والصناعات « ويكون فيها تعليم القرآن وبها علماء دينيون حتى
يتيسر إرسال أبناء العرب الممكن إرسالهم للتعليم فى داخلية البلاد إلى هذه المدارس » . ومما
هو جدير بالذكر أن إيطاليا أعلنت فى هذه المعاهدة أنها « تحب الدين الإسلامى وتحترمه
وتسعى فى نشره وتعليمه » ؛ وكذلك نصت المعاهدة على إعادة الزوايا وأراضيها والأملاك
« المملوكة لها » ، وكانت لاتزال وقت الاتفاق بأيدى الإيطاليين أو يحتلها جنودهم ، ثم نظمت

نصوص الاتفاق الطريقة التي يجب أن تجرى بها العلاقات بين السلطات الإيطالية والسيد إدريس وأما جميع المسائل الخاصة بواحات الكفرة فقد أخرجت من الاتفاق وتأجلت إلى أجل غير مسمى ، وصار الاكتفاء بذكر هذه الفقرة « ومتى لزم (السنوسيين) إصلاح يأخذونه من الحكومة الإيطالية » .

وظاهر من نصوص اتفاق عكرمة أن السيد محمد إدريس كان يقصد من عقده مع الإيطاليين تحقيق أهداف معينة أولها إنهاء حالة الحرب التي أضرت بالبلاد وأهلها . ثم فتح الطرق للتجارة بين داخل البلاد وثغورها التي كانت بأيدي الايطاليين من وقت ابتداء الحرب ، الأمر الذي مكن إيطاليا من محاصرة الشواطيء الشمالية ومنـــع الأرزاق عن العرب ، ثم احترام الشعائر الإسلامية والمحافظة على الدين الإسلامي وأنظمة الشرع الحنيف والثقافة العربية ،

وأخيرا رفع الأضرار التي لحقت بالجماعة السنوسية بأجمعها وتخليص زوايا السنوسيين والأراضي والأملاك التي ينفق ريعها على هذه الزوايا وطلاب العلم والقائمين بالشعائر والعبادة والعمل بهذه الزوايا من أيدي الإيطاليين ثم إبعاد هؤلاء قبل كل شيء عن الكفرة مقر السنوسية المتبد بعد واحة الجغبوب . ولا شك في أن السيد قد حقق مصالح المجاهدين العرب إلى أقصى غاية . فقد أزال هذا الاتفاق كابوسا جثم على صدور الأهلين في برقة ردحا من الزمن وفتح أمامهم آفاقا جديدة من الأمل ؛ ومن الثابت أن السيد سواء أكان يريد الصلح نهائيا مع الطليان حقيقة أم يريد كسب الوقت لاستئناف الجهاد ضد العدو ، فإنه كان يبغى قبل كل شيء أن يبسط لواء الأمن والسلام في برقة حتى تهدأ الأحوال في هـذا القطر أولا ويتنفس الأهلون الصعداء عند زوال الكرب الذي نزل بهم بسبب امتناع الأقوات والأرزاق عنهم ؛ وفضلا عن ذلك فإن السيد كان يطلب الوقت دائما حتى يتفرغ لمواجهة ما كان يريده أعداء السنوسية في طرابلس والفزان ، أضف إلى هـذا أن السيد في هذا كله إنما كان يحقق رغبات الأهلين التي أعلنوا عنها في تلك المضابط ، التي سبق ذكرها . زد على ذلك أن إبرام هذا الاتفاق مع الطليان كان كسبا سياسيا عظيما وانتصاراً دبلوماسيا كبيرا فإن الطليان الذين أعلنوا منذ ٦ نوفبر ١٩١١ — وكان إعلانا باطلا ولا ريب — أنهم يضعون طرابلس وبرقة تحت سيادة المملكة الإيطالية الكاملة والمطلقة ، ثم أبلغوا هذا الإعلان رسميا إلى الدول لإقراره ، ثم فصلوا بين حكومتي برقة وطرابلس بمرسوم ملكي في ٩ سبتمبر ١٩١٢ وظلوا طوال المدة التالية في حروب مستمرة مع السنوسيين في برقة ، سرعان ما وجدوا ابتداء من عام ١٩١٥ أنه قد بات واجبا عليهم في الحقيقة أن يسعوا من أجل الاتفاق مع السنوسيين ولو أدى هذا الاتفاق إلى الاعتراف عمليا وضمنيا من جانبهم بما كان يتمتع به السنوسية من

سلطان واسع في البلاد . والواقع أنه مع عدم اشتمال اتفاق عكرمة على نصوص صريحة تعترف بهذا السلطان فقد كان مجرد دخول الإيطاليين في مفاوضة مع السنوسيين اعترافا من جانبهم ولا شك بسلطة السنوسية وبأن الزعامة التي جمعت كلمة العرب في برقة هي زعامة شرعية . وهذا ما حرص السيد إدريس ولا ريب على تحقيقه ، وهذا ماأدركه أهل البلاد — باعتراف الطليان أنفسهم — عند ماوجدوا الطليان المتغطرسين يدخلون في مفاوضات سياسية ويعقدون هذا الاتفاق في وقت كانت لا تصل إلى أيدي المجاهدين أسلحة أو ذخائر وفي وقت احتبست الأرزاق والأقوات عنهم وكان لا مندوحة عن انهزامهم في النهاية بسبب انتشار المجاعة والطاعون إذا استمروا في جهادهم العنيف ضد ايطاليا . فكان من آثار هذا الاتفاق في عكرمة أن تأيد مركز السنوسية رسميا في زعامة هذه البلاد السياسية لخير العرب والمجاهدين كأداة أو منظمة حكومية تحفظ الوطن القومي وتجمع المجاهدين العرب في صعيد واحد وتحت لواء إسلامي واحد واستطاع السيد إدريس عند ما عقد اتفاق عكرمة التمهيدي ثم ما تبعه من اتفاقات أخرى كذلك — استطاع أن يكفل السلام في برقة في وقت كان العالم لا يزال يكتوي بنار الحرب العالمية الأولى . ولاجدال في أنه كان لا يمكن تحقيق هذه الغايات جميعها من غير الوصول إلى « اتفاق » مع الطليان كان من نتائجه المباشرة كذلك إبرام اتفاق آخر مع الانجليز لفتح طريق السلوم الموصلة إلى الأسواق المصرية ، هدف زعماء وشيوخ البلاد الأول كما سبق بيانه .

فقد أمضى في عكرمة الكولونيل تالبوت عن الانجليز اتفاقا كان يحوي تلك النصوص التي سبق التفاهم عليها في الحقيقة في مفاوضات الزويتينة بين السيد إدريس وبينهم . وكان الغرض من هذا الاتفاق المحافظة على علاقات المودة والصفاء بين الانجليز والسنوسيين في زمن الحرب العالمية (الأولى) على أساس فتح الطرق بين مصر و برقة واتخاذ السلوم مركزا للتبادل التجاري بين الفريقين وهذا من جانب السنوسيين ، ثم على أساس أن يمنع السنوسيون من إنشاء زوايا لهم في الأراضي المصرية والاكتفاء بأن يكون « للطريقة السنوسية » الحق في قبول التبرعات بشروط معينة ، وأخيرا على أساس الاعتراف بواحة جغبوب أرضا مصرية مع بقاء الإدارة المحلية في أيدي السيد محمد إدريس بطريق الوكالة . وكل هذا من جانب الانجليز وعلى ذلك فقد نص الاتفاق الأخير (أولا) على تسليم جميع الأفراد الذين يصلون إلى جهات لا يحتلها الطليان في برقة وسرت سواء أكان وصولهم بسبب غرق سفنهم أو لأي سبب آخر متى كان هؤلاء تابعين لبريطانيا أو لدولة من حلفائها أو كانوا من أية جنسية أخرى ، (ثانيا) تسليم جميع الضباط الترك والآخرين « المنسوبين لدولة معادية » إلى البريطانيين كأسرى حرب ،

وكذلك الأشخاص ، الذين ينسبون لدولة معادية لبريطانيا ويكونون تابعين لتلك الدولة إذا وقع هؤلاء الأشخاص فى قبضة (السيد إدريس) ولسيادته الخيار إذا شاء فى أن يبعدهم عن قارة إفريقية . على أنه مما يجب ذكره أن السيد لم يسلم أحدا من هذا الطراز كأسرى حرب لدولة بريطانيا ، (ثالثا) إبعاد المفسدين والعابثين بالأمن ومحدثى القلاقل بين السنوسيين والحكومة البريطانية فى الجغبوب وبرقة وعدم السماح لأحد من السنوسيين المسلحين بالإقامة فى سيوه أو الجغبوب أو الدخول فى جهة أخرى فى الأراضى المصرية محافظة على الأمن والنظام فى الحدود ، (رابعا) فتح طريق التجارة بين مصر وبرقة على أن تكون السلوم سوق هذه التجارة بشروط كان الغرض منها فى الحقيقة مراقبة عدم تسرب شىء من هذه التجارة إلى أعداء بريطانيا وحلفائها . ولما كان السيد لا يريد أن يغفل أمر أعوان السيد أحمد الشريف فقد نص الاتفاق على أن الأشخاص المعتقلين فى مصر والمشتبه فيهم بانحيازهم ومساعدتهم للسيد أحمد يطلق سراحهم حتى يتبين للحكومة أن إطلاق سراحهم لا يعود بالضرر عليهم ولا على الحكومة ، وأخيرا عهد فى هذا الاتفاق إلى السيد محمد إدريس بإدارة شئون الجغبوب الداخلية ، ولو أن الجغبوب ستبقى كما كانت داخلة فى الحدود المصرية » .

وظاهر من نصوص هذا الاتفاق أن غاية الطرفين المتعاقدين كانت تجنب كل ما من شأنه أن يسىء إلى العلاقات القائمة بينهما ثم العمل على تأمين الحدود بين مصر وبرقة على قواعد تتفق مع القوانين وأصول المعاملات الدولية ، وفضلا عن ذلك فإن السيد كان يعنى قبل كل شىء بفتح ثغر السلوم وهو طريق التجارة والأرزاق الآتية من جهة مصر خصوصا إلى برقة . وهكذا يكون السيد بفضل هذين الاتفاقين مع الطليان والانجليز فى عكرمة قد نجح فى فتح ثغور الشاطىء ؛ درنه وطبرق وبنغازى ثم السلوم ومهد بذلك لزوال المجاعة التى هددت بفناء شطر عظيم من الأهلين فى برقة والجبل الأخضر . وقد كان من أثر تدخله المباشر فى مسألة المعتقلين بمصر أن أخذت السلطات الحكومية بالقاهرة تفك اعتقال هؤلاء رويداً رويداً .

وكان من أهم الدوافع التى حملت السيد إدريس على قبول الاتفاق مع الإيطاليين تحرج الأمور بالفزان على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، ثم تحرج الأمور فى طرابلس على نحو ما سيأتى بيانه فى الفصل التالى . وكان منشأ الصعوبات التى صادفها السنوسيون فى كلا الجهتين ولا شك تدابير الأتراك الذين ساءهم أن يروا السيد عاقداً العزم على الصلح مع العدو إنقاذاً للبلاد من ويلات المجاعة والطاعون وإعطاء الأهلين فسحة من الوقت للاستجمام بعد تعب الجهاد المتصل منذ عام ١٩١١ . أما فيما يتعلق بالفزان فقد انتهت الحال فيه إلى اضطرار السيد محمد عابد إلى مغادرة واو والنجاة بنفسه إلى الكفرة فى سبتمبر ١٩١٧ ووقوع الفزان فى قبضة الأتراك مما صار

يدعو الى اتخاذ إجراءات حاسمة سريعة من جانب السيد إدريس والسيد أحمد الشريف نفسه لتدارك الموقف فى هذا الإقليم الذى هو دعامة السنوسيين فى الجنوب . وسوف نرى فى الفصل التالى كذلك كيف عالج السيدان الموقف فى هـذه الجهات . وأما فيما يتعلق بتدابير الأتراك والمؤيدين لهم فإن هؤلاء إلى جانب التأثير فى السيد أحمد الشريف حتى يشترك معهم فى الهجوم على الحدود المصرية كانوا من جهـة أخرى يريدون أن يشتبك المجاهدون (والسنوسيون) فى قتال مع الفرنسيين على حدود البلاد الغربية من أواخر عام ١٩١٥ . فقد حضر إلى مصراته فى ١٢ أغسطس من هـذا العام — أى فى الوقت الذى كان قد بدأ يظهر سافرا تردد أحد زعماء الطرابلسيين من أهل مصراته وهو رمضان السويحلى أو الشتيوى وانقلابه على السنوسيين — حضر حسن الشريف أحد الضباط الطرابلسيين الذين تلقوا علومهم فى تركيا وكانوا فى الجيش العثمانى ، لمقابلة السيد صفى الدين وطلب إليه باسم نورى باشا أن يقوم مشتركا مع السويحلى بالهجوم على الحدود الفرنسية (بين طرابلس الغرب وتونس) بدلا من مواجهة الطليان الخمس وفى مدينة طرابلس على حسب الخطة الموضوعة ، فرفض السيد صفى الدين أن ينساق إلى حرب مع دولة ثالثة هى فرنسا إلى جانب انجلترة وايطاليا ، وعندئذ دب الخلاف بين السيد صفى الدين وبين السويحلى الذى أيد رغبات العثمانيين ، فغادر السيد صفى الدين مصراته إلى ورفلة ثم الى البوبرات — مركز ترهونة — وهناك اجتمع زعماء البلاد وشيوخها فأطلعهم السيد صفى الدين على أسباب الخلاف بينه وبين رمضان السويحلى والأسباب التى جعلته يرفض الهجوم على الحدود الفرنسية التونسية نزولا على رغبة العثمانيين لأن المجاهدين — على حد قول السيد صفى الدين — ما كانوا يستطيعون فى الحقيقة الصمود أمام قوات ثلاث فى وقت واحد ، بل إن من واجبهم أن يتفرغوا قبل كل شىء لمنازلة ايطاليا ، وقد أقر المجتمعون السيد صفى الدين على رأيه ومع ذلك فقد حدث أن قام أحد الضباط العثمانيين بالهجوم على الحدود الطرابلسية التونسية فى (ابن قردان) فى سبتمبر ١٩١٥ وأرسلت الحكومة الفرنسية مندوبا إلى صفى الدين يستفسر عما إذا كان الهجوم قد وقع بناء على إذن من السيد صفى الدين نفسه ، فبادر السيد بإرسال كتاب إلى الضابط العثمانى يأمره بالكف عن القتال وينذره باستخدام القوة ضده واسترجاعه عنوة إذا هو أصر على المضى فى هجومه ، فاضطر الضابط العثمانى حينئذ إلى التقهقر والعودة بعد أن أخذ أربعين أسيرا من الفرنسيين بعث بهم إلى واحة الكفرة عن طريق الفزان . وقد أطلق سمو السيد إدريس سراح هؤلاء الأسرى بعد ذلك وأرجعهم إلى بلادهم فى عام ١٩١٩ .

وهكذا فشل تدبير العثمانيين وكأنما عز عليهم أن يلحق بهم الفشل فكشفوا القناع

عن نياتهم واتهز كل من حسين الشريف وضابط عثمانى آخر يدعى سليمان ذهنى فرصة قيام السيد صفى الدين من ترهونة إلى ورفلة فى طريقه إلى السلوم حتى يلحق بالسيد أحمد الشريف فاعترضه الضابطان بقوة فى الطريق بين ترهونة وورفلة ودار القتال مع السيد صفى الدين، ولكن السيد تغلب على قوتهما واستطاع الدخول إلى قصرورفلة؛ ثم حضر رمضان السويحلى برجاله إلى خارج القصر واشترك مع العثمانيين فى تضييق الحصار على السيد صفى الدين مدة أربعين يوما. ولما تمكن السيد صفى الدين من تحطيم هذا الحصار والخروج من ورفلة تعقبه المتحالفون الثلاثة واشتبكوا معه فى معارك فى وادى دينار وقرارة القطف، ولم يخلص السيد صفى الدين من هذا المأزق سوى وصول النجدة إليه من عمر بك سيف النصر بقوات من قبائل العمامرة وأولاد سليمان، وعندئذ اضطر السويحلى وصحبه إلى التوقف؛ ونزل السيد صفى الدين فى معطن الوشكة — بين سرت ومصراته — وانضمت إليه جماعة كبيرة من الزعماء والأعيان فى مصراته وزليطن من عائلات عبد الملك ولاغا والمهرك وعمر شقلوف وعبد الله بك بنقداره، ثم توجه الجميع إلى سرت، ومنع السيد صفى الدين المجاهدين من الارتداد لاقتفاء أثر الضباط العثمانيين ورمضان السويحلى حقنا للدماء (فبراير ١٩١٦). فإذا تذكرنا أن هذه الحوادث جميعها وقعت فى الوقت الذى كان يقوم فيه السيد أحمد الشريف — بتأثير من الأتراك قبل أى أمر آخر — بالهجوم على الحدود المصرية اتضح لنا مقدار الأخطار الجسيمة التى كان الزعماء السنوسيون قادة البلاد وأصحاب الإمارة فيها من أيام السيد محمد المهدى قطعا ودون حاجة إلى برهان، يستهدفون لها فى طرابلس وفى الجهات الأخرى خصوصا فى الفزان التى كان للعثمانيين ضلع كبير فى تحريك المقاومة فى أنحائها ضد السنوسية.

وقد حدث فى أثناء إقامة السيد صفى الدين فى سرت أن حضر فى أوائل مارس ١٩١٦ الضابط الألمانى مانسمان يطلب منه تصريحا حتى يلتحق بالضباط العثمانيين الذين كانوا يريدون شن الغارة على الحدود الفرنسية فى تونس، ولكن السيد صفى الدين ما لبث حتى احتجزه عنده عند ما تبين أن مانسمان لم يكن يحمل أمرا بذلك من السيد محمد إدريس أو السيد أحمد الشريف، ثم أرجعه تحت حراسة السنوسيين إلى إجدابية مقر السيد إدريس. ولما كان السيد إدريس قد طلب إلى السيد صفى الدين الحضور إلى إجدابية فقد ارتحل السيد صفى الدين فى أثر مانسمان إليها فى الشهر نفسه، وهناك وجد السيد صفى الدين السيد محمد إدريس ونورى باشا والمجاهد المصرى الشاب عبد الرحمن عزام. على أن السيد صفى الدين ما لبث حتى استأذن فى السفر إلى الكفرة، فقضى بها بضعة شهور ولم يعد منها إلا فى شهر فبراير ١٩١٧، ووجد عند عودته السيد محمد إدريس مشغولا بالمفاوضة مع الانجليز والطليان

فى عكرمة وبعيداً عن اجدابية التى اتخذ منها العثمانيون فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد مركزاً ينشرون منه دعايتهم ضد الصلح والاتفاق ويدبرون منه المكائد ضد السنوسية .

فقد سبقت الإشارة إلى أن نورى باشا لم يكن راضيا عن دخول السيد إدريس فى أية مفاوضات مع الانجليز والطليان وحاول مراراً وهو بأجدابية أن يقنع السيد بوجهة نظره ، ولكن كل هذه المحاولات لم تفد شيئا فى صرف السيد عن عزمه ، وظل نورى يتدبر الأمر فانتهز فرصة خروج السيد صفى الدين من اجدابية إلى الكفرة وبعث إليه بكتاب والسيد ما يزال فى (جالو) فى طريقه إلى الكفرة يطلب إليه العودة إلى العقيلة حتى يشترك مع العثمانيين فى القيام بهجوم على الانجليز فى هذه المنطقة ، وأظهر له نورى باشا فى كتابه استعداد الحكومة العثمانية لأن ترسل إليه غواصات تحمل المؤن والذخائر والمال اللازم لتدبير هذا الهجوم . ولكن السيد صفى الدين رفض هذه العروض التى وجد فى قبولها ضررا يلحق بالبلاد واستأنف السير إلى الكفرة .

ومما يجدر ذكره أن كتاب نورى باشا وصل إلى السيد صفى الدين فى شهر يولية ١٩١٦ أى فى الوقت الذى كانت ما تزال تجرى فيه المفاوضات فى الزويتينة بين السيد إدريس وبين الانجليز والطليان . وكان المقصود من القيام بهذا الهجوم المفاجىء ضد الانجليز فى العقيلة تعطيل هذه المفاوضات وإخفاقها ؛ ومع ذلك وعلى الرغم من كل هذه المحاولات فقد ظل السيد إدريس متمسكا بموقفه واستمرت المفاوضات سائرة فى طريقها ، الأمر الذى سبب الحيرة للقائد العثمانى نورى وجعله — إلى جانب مشروع الاستيلاء على واحة الفزان — يفكر فى تهييج الخواطر ضد السنوسية وإثارة القلاقل بين العرب والمجاهدين السنوسيين أنفسهم . وعلى ذلك فإن السيد صفى الدين عقب عودته من الكفرة فى فبراير ١٩١٧ — أى بعد شهر من بدء مفاوضات عكرمة — سرعان ما أدرك حقيقة هذه الحركة الخفية ووجد أن الأتراك استطاعوا فعلا أن يستميلوا إليهم دعاة فى الأدوار أو المعسكرات السنوسية لتأليب المجاهدين على السيد إدريس نفسه ، فعلوا ذلك فى دور حجرة مركز قبائل العواقير وفى تاكنس مركز العرفة والعبيد وفى مراده مركز البراعصة والحاسة ؛ وكان فى هذه الأثناء أن انتقل من اجدابية إلى مصراته كل من نورى باشا وعبد الرحمن عزام بك ؛ وكان (العزام) من أقرب المقربين إلى نورى وموضع ثقته ويرى فى هذا الحين عن إيمان وعقيدة ثابتة أنه من الخير أن يستمر الجهاد ضد الانجليز والطليان وأن الجهاد وحده هو السبيل المثمر المؤدى إلى خلاص البلاد وتحريرها .

وأما السيد صفى الدين فإنه بمجرد أن وقف على حقيقة الحال فى اجدابية ، بادر مسرعا

بالذهاب إلى مكان مفاوضة السيد إدريس فى عكرمة أى عند الطرف الآخر من برقة وعلى مسافة شاسعة من مقر حكومته ؛ وكان غرض السيد صفى الدين من الذهاب إلى عكرمة أن يوضح للسيد إدريس حقيقة الأمور فوجد السيد إدريس نازلا عند بين الأشراف بالقرب من المخيلى . وكان مما جعل السيد إدريس بعيدا عن الأخبار وهو بمكان المفاوضة أن (كردونا صحياً) كان قد أنشىء فى تلك الآونة لمكافحة وباء الطاعون المنتشر فى البلاد وقتذاك ، وعلى ذلك فإنه بمجرد أن وقف على حقيقة الحال من السيد صفى الدين قرر الذهاب بنفسه إلى اجدابية لتدارك الموقف قبل أن يستفحل الشر ، فغادر بير الأشراف إلى تاكنس حيث كان السيد عمر المختار يقيم مع قوة من المجاهدين ، فسار المختار مع السيد إدريس إلى المكان الذى كان معسكرا به قائد السنوسيين الآخر قجه عبد الله السودانى فأخذه السيد بجيشه وسار الجميع قاصدين اجدابيـة ، واخترقوا النطاق الصحى ثم عسكروا خارج المدينة وضربوا حول معسكر الأتراك بالمدينة نطاق الحصار ثم خير السيد إدريس المحاصرين بين أمرين : إما التسليم وإما الذهاب واللحاق بنورى باشا فى مصراته واعتقل السيد جماعة من العثمانيين وأنصارهم فأرسل فريقا منهم إلى الجغبوب وفريقا آخر إلى الكفرة ، وهكذا استطاع أن يخمد حركة كانت لحسن الحظ لاتزال فى مهدها ، وبمجرد أن تم له ذلك عاد السيد إدريس إلى عكرمة لإنجاز الاتفاق مع الانجليز وحلفائهم الطليان .

ولا جدال فى أن مصلحة البلاد فى هذه الظروف الدقيقة كانت تقتضى إنشاء الحكومة الوطنية المنظمة يهيمن على شئونها السيد إدريس الذى استطاع بفضل حكمته وبعد نظره أن يقر السلام فى القطر البرقاوى ، وكان إبرام اتفاق عكرمة (أو طبرق) خير وسيلة كما أثبتت الحوادث بعد ذلك لتحقيق السلم وصون مصالح العرب المجاهدين فى هذا القطر وإتاحة الفرصة لتنظيم القبائل تنظيما من شأنه أن يجمع الكلمة ويقضى على بذور الفتنة والاضطراب وكان الوصول إلى هـذا الاتفاق مع الطليان باعتراف الإيطاليين أنفسهم من أكبر العوامل التى ساعدت على استقرار الأمور فى برقة ، وساعدت كذلك على تأييد نفوذ السيد محمد إدريس حتى بدأ الأهلون من ذلك الحين يلقبون السيد « بالمنقذ » . وفضلا عن ذلك كان تأييد نفوذ السيد من غير شك فى مصلحة هذه البلاد لعدة أسباب لا تلبث أن تتضح إذا عرفنا أن غاية الطليان أنفسهم من إبرام اتفاق عكرمة كانت تمكينهم من أن يتصلوا مباشرة بالأهلين وأن يمدوا نفوذهم فى داخل البلاد عن طريق هذا الاتصال المباشر ؛ وهـذا ما كان السيد إدريس يدركه حق الإدراك ويعمل من جانبه على تعطيله ومقاومته ، ثم تكللت مساعيه بالنجاح فاستطاع أن يضعف نفوذ الإيطاليين ويقضى عليه إلى درجة بعيدة .

ذلك أن جهود السيد مالبثت حتى تركزت فى الفترة التالية فى أمرين هامين : أولا إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة التى تحفظ صوالح البلاد وتتولى زعامة العرب وتتخذ موقف الدفاع عن مصالحهم دائما والمطالبة بكامل حقوقهم ، وثانيا مقاومة نفوذ الطليان ومنع اتصالهم بالعرب بكل الوسائل فى داخل البلاد . أما فيما يتعلق بالأمر الأول فقد كان للسيد مواقف معروفة عند حدوث أى اختلاف بين العرب الخاضعين لسلطانه وبين إخوانهم الذين ظلوا مقيمين فى منطقة النفوذ الإيطالى فقد تحددت منطقة نفوذ السيد ومنطقة نفوذ الطليان على السواء فى اتفاق عكرمة بالصورة التى سبق ذكرها . فكان يفصل بين المنطقتين خط سماه العرب (خط النار) بسبب ما كان يقع حول هذا الخط من مناوشات منشؤها التنازع بين العرب فى المنطقتين على الجهات الداخلة فى حدود السيد والخارجة عن هذه الحدود عندما شرع العساكر السنوسية يجمعون (العشر) وأموال الزكاة من القبائل . وكان الطليان يشجعون هذه المناوشات من جانبهم واستعداد القبائل الخاضعة لسلطانهم ضد السيد لأن سياسة الطليان فى تلك الآونة كانت تدور حول الحد من نفوذ السيد وإضعاف سيطرته . ولاجدال فى أن الطليان عندما عقدوا اتفاق عكرمة لم يكونوا خالصى النية أو يريدون حقيقة إنشاء حكومة وطنية ؛ بل إنهم كانوا يبغون باعتراف كتابهم أنفسهم أن يتخذوا من عقد هذا الاتفاق المؤقت وسيلة تمكنهم من الاتصال المباشر بالأهلين بعد أن تزول أسباب النزاع الظاهرة بينهم وبين السنوسية فى برقة وذلك فى وقت كان من دأب زعماء العرب والمجاهدين أن يمنعوا هذا الاتصال بكل الطرق . وكان كل أمل الطليان بعد انتهاء الحرب العالمية (الأولى) وبعد أن يكونوا قد مهدوا بفضل هذا الاتصال المباشر بالقبائل السبيل لاستمالة العرب إليهم أن يستطيعوا عقد اتفاق آخر يكون أكثر ملاءمة لمصالحهم ويكفل لهم الاحتفاظ بنفوذهم فى البلاد . وأدرك السيد إدريس غايات الطليان وأغراضهم واعتمد على مهارته السياسية وحنكته فى تعطيل هذه الأغراض والعمل جديا من أجل إنشاء الحكومة الوطنية الموطدة تلك الحكومة التى سوف يصبح فى فى استطاعتها عندما تضع الحرب العالمية أوزارها أن تجابه الطليان بالأمر الواقع وترغمهم على الاعتراف بحكومة العرب الإسلامية الوطنية فى برقة .

ولم يستطع الطليان أن يحققوا أغراضهم فى هذه الآونة لعدة أسباب من أهمها فيما يتصل بالقطر البرقاوى ذاته يقظة السيد والتفاف العرب حوله ثم تدهور الحالة السياسية فى ايطاليا بعد انتهاء الحرب العالمية (الأولى) . ذلك أن ايطاليا خرجت من تلك الحرب منهوكة القوى ولا يجسر أحد من رجال حكومتها على إرسال إمدادات عسكرية إلى ليبيا للقيام بعمليات حربية جديدة ، أضف إلى هذا أنه سرعان ماظهرت بايطاليا الأحزاب السياسية الكثيرة التى

ما فتئت تنادى بالمبادىء الحرة منذ ظهورها وتبنى دعايتها على ضرورة استمتاع الشعوب قاطبة بالحرية ، فكان من المنتظر في هذه الظروف أن يعمد الطليان إلى التفاهم مع المجاهدين فى برقة والعمل بالطرق الدبلوماسية من أجل استبدال اتفاق عكرمة المؤقت باتفاق آخر قد يتوصلون بفضله إلى تنفيذ مآربهم وفضلا عن ذلك فإن الطليان كانوا يلاقون فى القطر المجاور طرابلس متاعب كثيرة على نحو ما سيأتى ذكره بسبب استمرار مقاومة المجاهدين وإنشاء الجمهورية الطرابلسية (فى نوفمبر ١٩١٨) ووجدت إيطاليا عندما عجزت عن إرسال الإمدادات إلى طرابلس أن تسلك طرقا أخرى لدعم سلطانها فكان من أثر ذلك إبرام اتفاق سوانى بن بادم مع حكومة الجمهورية الطرابلسية فى ٢١ إبريل ١٩١٩ ، وهو الاتفاق الذى قبلت بمقتضاه الجمهورية (القانون الأساسى) للقطر الطرابلسىّ . وقد صدر هذا القانون فعلا ونشر رسميا فى أول يونية من العام نفسه ، وكان الغرض من هذا القانون على نحو ما سيأتى بيانه إنهاء حالة النزاع القائمة فى طرابلس بين العرب والطليان على قاعدة الاعتراف بسيادة ملك إيطاليا فكتور عمانويل الثالث على طرابلس مع إنشاء مجلس نواب محلى ومجلس حكومى يشترك فيه وطنيون .

وعلى ذلك فقد اتجهت نوايا الطليان فى برقة إلى تسوية علاقتهم مع حكومة السيد الوطنية على أسس النظام الذى وضعوه للقطر الطرابلسى وكان أهم ما يعنيهم من ذلك إدخال القانون الأساسى إلى القطر البرقاوى لسببين أولهما تقرير السيادة الإيطالية بمقتضى اتفاق دائم بدلا من اتفاق عكرمة المؤقت على القطر البرقاوى ثم استخدام المزايا التى يتضمنها القانون الأساسى فى كل ما كان متصلا بحقوق الوطنيين وواجباتهم — وهى حقوق وواجبات نص عليها القانون الأساسى فى الفصل الخامس منه وكلها تكفل الحرية الشخصية والدين والعادات والملكية وما إلى ذلك — نقول استخدام هذه المزايا لتأييد غريزة الحياة الاستقلالية لدى القبائل العربية ثم العمل على تعزيز هذه الحياة الاستقلالية ونموها بصورة تمكن الطليان فى النهاية من انتزاع هذه القبائل العربية من أحضان السنوسية معتمدين فى بلوغ هذه الغاية على ذلك البرلمان أو المجلس النيابى المحلى الذى نص على إنشائه القانون الأساسى إذ أنهم كانوا يتوقعون أن يصبح هذا البرلمان وسيلة مؤاتية لتدبير ظهور مقاومة جدية ضد نفوذ السلطات الوطنية الحاكمة فى برقة . وعلى ذلك فقد اهتم الطليان بأن ينالوا من السيد إعترافا بهذا القانون الأساسى وشرعوا فى مفاوضته من أجل عقد اتفاق آخر بدلا من اتفاق عكرمة المؤقت .

وكان السيد ولا شك واقفاً على حقيقة نوايا الإيطاليين ويدرك تماماً خطورة الأمر الذى يضمرونه ؛ ومع ذلك فقد كان السيد من ناحيته ظاهر الرغبة كذلك فى أن يستبدل

باتفاق عكرمة المؤقت اتفاقاً آخر يحمل صبغة الاستقرار والاستدامة من جهة ، كما انه لم يحفل من إدخال القانون الأساسي إلى القطر البرقاوي أو كان يخشى عواقبه من جهة أخرى . والسبب فى ذلك أنه كان من مصلحة تلك الحكومة الوطنية الناشئة التى أوجدها السيد فى برقة أن تستقر الأمور فى نصابها نهائياً حتى يستطيع أن يستكمل للبلاد تلك المنافع التى أمكن سيادته أن ينتزعها من الاتفاق السابق وفضلا عن ذلك فقد دلت التجربة الماضية على أن تسوية الموقف مع الطليان خطوة ممهدة فى الواقع للاعتراف بحق المجاهدين العرب فى إنشاء الحكومة الوطنية برئاسة زعمائهم ؛ أضف إلى هذا أن هذه التسوية ساعدت — على غير ما كان ينتظره الطليان — على تعزيز الزعامة العربية الوطنية فى شخص السيد والتفاف قلوب العرب حوله حتى سموه « المنقذ » كما ذكرنا ووجدوا فى الصوت الذى رفعه السيد دائماً من أجل الدفاع عن حقوقهم صدى مدويا وترديدا لما كان يجول بخواطرهم ويدور على ألسنتهم ، وعلاوة على ذلك فإن القانون الأساسى كان إلى جانب الحقوق التى سبقت الإشارة إليها يكفل للعرب إنشاء المدارس ومعاهد التعليم واحترام لغتهم وشعائرهم ، ولذلك بات منتظراً إذا أدمجت هذه الحقوق التى ذكرها القانون الأساسى المعطى لطرابلس فى اتفاق دائم بين الطليان والسيد أن يتمكن السيد من المضى فى خطته بصورة تضمن تحقيق أغراضه لمصلحة البلاد التى يهيمن على شئونها وكان السيد من غير شك يعتمد على نفس المهارة التى مكنته من الاستفادة من اتفاق عكرمة فى إمكان الاستفادة كذلك من أى اتفاق جديد قد يكون من أهم مزاياه إضفاء صفة الاستقرار والدوام على « الوضع » الذى تمتعت به برقة ، ولعل قيام الحكومة الوطنية « الفعلية » فى برقة منذ عام ١٩١٧ كان أكبر ضمان لاستطاعة البرقاويين أن يفيدوا من أى اتفاقات جديدة تشتمل على الأقل على مبدأ الحكومة الذاتية .

وعلى ذلك تلاقت رغبات الطليان من جانب ورغبات السيد من جانب آخر وإن كانت أغراض كل فريق تختلف فى جوهرها عن أغراض الفريق الآخر ، فبدأت المفاوضات ، وتولى الوساطة فى هذه المفاوضات أحد رجالات العرب المحنكين عمر باشا منصور الكيخيا . وكان عمر منصور الكيخيا نائبا فى مجلس المبعوثان العثمانى ، منحه السلطان عبد الحميد رتبة الباشوية ، وعين قائمقاما فى جالو ثم استمر مبعوثا فى الآستانة بعد الاحتلال الإيطالى وجاء إلى مصر عقب إعلان الحرب الطرابلسية حتى يطلب من الانجليز التدخل فى مسألة احتلال الإيطاليين القطر الليبي ، فأرسل اللورد كتشنر وقتذاك إلى السيد أحمد الشريف يخبره بمساعى منصور باشا الكيخيا ويترك له الخيار فى الموافقة على تدخل الانجليز إذا أراد الصلح أو إبطال هذا المسعى إذا كان لا يزال مصرا على القتال . ولما كان السيد أحمد الشريف مصمما

على الاستمرار فى القتال ضد الطليان إلى النهاية فقد أخفقت مساعى عمر باشا وعند ماأعلنت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)،فضل عمر باشا البقاء فى القطر المصرى حتى إذا انساق السيد أحمد الشريف إلى الهجوم على الحدود المصرية خير الانجليز عمر باشا بين الذهاب إلى وطنه أو إلى أى بلد آخر فاختار الذهاب إلى رومة ثم بقى فيها إلى وقت بدء المفاوضات بين السيد محمد إدريس وبين الطليان فعاد إلى برقة وتولى الوساطة بين الفريقين . وأما هذه المفاوضات فقد أسفرت عن عقد اتفاق الرجمة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ ووقع هذا الاتفاق عن الحكومة الإيطالية الوالى دي مارتينو . وكان اتفاق الرجمة يتألف من مقدمة وعشرين مادة إلى جانب ملحقين .

ويقوم اتفاق الرجمة على مبادىء واضحة معينة: أولها الاعتراف بإمارة السيد محمد إدريس مع تقسيم القطر البرقاوى إلى قسمين ظاهرين ، قسم السواحل والأماكن الواقعة على الحدود وهذه ظلت الراية الإيطالية تخفق عليها، وقسم داخل البلاد بأكلها بما فى ذلك واحات أوجله وجالو والكفرة والجغبوب « المستقلة داخليا » وهذه — على نحو ماذكرته مقدمة الاتفاق- فوضت الحكومة الإيطالية إدارتها الى الأمير وصار يرفرف عليها علم السنوسية . ولكنه مما يجدر ذكره أن « إمارة » السيد إدريس — ومركزها اجدابية — كانت تمتد فعلا إلى السواحل وأماكن الحدود لأن اتفاق الرجمة نص فى مادته الثانية على أن « للأمير الحق فى الإقامة والتجوال فى جميع أنحاء القطر البرقاوى بالاتفاق مع الحكومة وتكون الحكومة (الإيطالية) مسرورة كلما قدم لها ملاحظات على جريان الأمور لأجل مصلحة البلاد وسعادة أهلها » ، أى أن هذه المادة أعطت الأمير الحق فى الإقامة والتطواف فى المناطق الخاضعة لإدارة الطليان ، كما أنها أعطته « حق التدخل » فى شئون هذه الإدارة تدخلا فعليا كلما بدا له ذلك فى كل أمر يتعلق بمصالح العرب ، وفضلا عن ذلك فإن اتفاق الرجمة فى مادته الثالثة التى استبقت السواحل وأماكن الحدود فى قبضة الإدارة الإيطالية نص على أن الغرض من استبقائها إنما كان « حفظا لسلامة أراضيها إزاء الدول » .

ومعنى هذا أن إخراج هذه المناطق من دائرة نفوذ الأمير المباشرة لم يكن إلا لأغراض دفاعية أو عسكرية وحسب ، وكان هذا بمثابة المسوغ الذى ارتأته الحكومة الإيطالية لبقاء هذه المناطق منفصلة عن إدارة الأمير مباشرة ، وفضلا عن ذلك فإن هذا المسوغ كان يحمل فى طياته معنى الاعتراف بحقوق الإمارة حتى على هــــذه الجهات التى أخرجت من نفوذها المباشر . وقد ترتب على الاعتراف بمبدأ (الإمارة) أن بات ضروريا تعيين شكل الحكومة الوطنية الجديدة من جهة ثم تعيين تلك الحقوق التى كان يقتضى أن يستمتع بها الأمير فى هذا الوضع الجديد . وعلى ذلك فقد نصت المادة الأولى على أن الإمارة وراثية فى « أولاد الأمير

وأنساله الأكبر فالأكبر وفى الوقت الحاضر ينتخب الأمير بمعرفة أحد أفراد عائلته خلفاً له فى رتبته وما يتعلق به ، ثم كفلت مقدمة الاتفاق حقوق هذه الإمارة فجاء فى الفقرة (ح) أنه يجب على الحكومة (الإيطالية) أن تستمع إلى رأى الأمير وذلك فى أوامرها إذا أصدرت أوامر تتعلق بالواحات أيضا كالأنظمة القانونية مثلا ، كما جاء فى الفقرة (د) أن يكون للأمير السنوسى الحق فى التشريفات والأشعرة والنعوت ، التى فصلت على حدة فى ملحق حرف (ا) من الاتفاق ، وتعهدت الحكومة بمقتضى المادة الخامسة أن تضع تحت تصرف الأمير « باخرة لائقة بمقامه » ، وفضلا عن ذلك فقد بات من حق الأمير بمقتضى المادة العاشرة « إذا اقتضت الحالة أو المصلحة العامة أن يشير على الحكومة بتخفيف جزاء أحد المحكومين أو يسعى فى استحصال العفو له بالطرق القانونية » ، كما تعهدت الحكومة (فى المادة السابعة عشرة) بأن تعين « فيلقا مخصوصا للأمير — حتى يسهروا على حراسة سموه — ويقوموا بالخدمات الشريفة وبالمحافظة على الأمن فى الواحات والجهات التى تفوض الحكومة إلى الأمير حفظ راحتها وأمنها وذلك بشرط ألا يكون — هذا الفيلق — دون الألف ويسوغ زيادة عددهم باتفاق مع الحكومة » ، وفى ملحق الاتفاق الثانى (حرف ب) تحددت مخصصات الأمير وأعضاء الأسرة السنوسية .

وأما المبدأ الثانى الذى قام عليه اتفاق الرجمة فهو أن تقرر أمهات القواعد التى تضمنها القانون الأساسى الصادر للقطر الطرابلسى فى صلب الاتفاق مع السيد أولا فيما يتعلق بشكل الحكم الداخلى وثانيا فى جميع ما يكفل الضمانات الجوهرية لإمكان إنشاء حكومة وطنية مستقرة يصبح فى استطاعتها أن تعمل على إسعاد أهل البلاد والسير بهم فى طريق الإصلاح والتقدم . وعلى ذلك فقد وضعت الحكومة الإيطالية (قانونا أساسيا) لبرقة صدر فى أول مايو ١٩١٩ ويختلف فى نصوصه عن القانون الأساسى المعطى لطرابلس اللهم إلا بالاستعاضة عن كلمة طرابلس بكلمة برقة عند كل مناسبة . وبمقتضى هذا القانون الأساسى صارت حكومة برقة تتألف « أولا — من وال يقيمه (ملك إيطاليا ويجمع بين كل من الولاية المدنية والعسكرية على نحو ما حددته الأحكام الخاصة بذلك . ثانيا — من مجلس نواب محلى يتألف من نواب قبائل القطر وحضره ، يلحق بهم عدد معلوم من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقتضى وظائفهم ومنهم من يعينهم الوالى وثالثا — من دوائر رئاسية (مصالح) مدنية وعسكرية ينصب رؤساؤها بأمر ملوكى ، وهذا الترتيب على حسب ماجاء فى الفصل الثالث عشر حددته الأحكام الخاصة بذلك ، ثانيا — من مجلس نواب محلى يتألف من نواب قبائل القطر وحضره . يلحق بهم عدد معلوم من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقتضى وظائفهم

ومنهم من يعينهم الوالى ، وثالثاً — من دوائر رئاسية (مصالح) مدنية وعسكرية ينصب رؤساؤها بأمر ملوكى ، وهذا الترتيب على حسب ماجاء فى الفصل الثالث عشر من القانونين الأساسيين لبرقة وطرابلس . وقد فصلت المواد — أو الفصول — التالية (١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ويقابل هذه نفس المواد من القانون الأساسى لطرابلس) شروط الانتخاب للمجلس النيابى وعدد أعضائه ومدته ؛ وهذه كانت أربع سنوات . وأما فيما يتعلق باختصاصات المجلس النيابى إلى جانب الموافقة على « الترتيبات اللازمة لإجراء الأصول المندرجة » فى القانون الأساسى نفسه ، فقد نص الفصل العشرون من القانونين على أن للمجلس أيضاً « القرار : (١) فى جعل الضرائب الحكومية الموضوعة مباشرة مع ما يخصها من كيفية التنفيذ والتوزيع على من جعلت عليه تلك الضرائب ؛ (ب) فى القواعد المرشدة للخدمات المدنية العامة الجارية بالمبالغ المخصصة لها فى القسم الاعتيادى لميزانية قطر برقة بشرط ألا تزيد المبالغ المطلوبة على القدر المعين فى الميزانية ، وقد التزم الطليان مرة أخرى فى المادة أو الفصل التاسع من القانونين الأساسيين بأن « لا تجعل فى قطر برقة ضرائب حكومية مضروبة مباشرة إلا إذا عمت جميع سكانه أو كل من له مصالح فيه ووافق عليها مجلس النواب المحلى ، وللمجلس أن يقرر كيفية تنفيذها وتوزيعها على من جعلت عليه تلك الضرائب ولا تصرف الواردات الناشئة مما ذكر إلا فى مصالح برقة لا غير » .

وفضلا عن ذلك تضمن القانونان الأساسيان (لبرقة وطرابلس) جميع المبادىء التى تكفل حرية العبادة والدين والملكية الشخصية وحرية الطبع والاجتماع فى حدود القانون وحق التعلم وتأسيس المدارس واحترام لغة البلاد « وحق مباشرة الحرف العالية فى إيطاليا بشرط حصول (البرقاويين) على الشهادات اللازمة » ثم أعفى الوطنيون من الخدمة العسكرية الإجبارية « وإنما يجوز تشكيل قوة عسكرية محلية بتجنيد اختيارى (يجرى تنظيمه) بمقتضى تنظيمات خصوصية » ؛ وقد تضمنت ذلك كل المواد أو الفصول : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ١٢ ويقابلها نفس المواد فى القانون الأساسى الصادر لطرابلس ؛ وعلاوة على ذلك فقد نص الفصل الحادى والثلاثون — ويقابله الفصل الثلاثون فى القانون الصادر لطرابلس — على أن « الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية وحقوق العائلة والمواريث والمناسك الدينية ترفع إلى المحاكم الشرعية فيما يخص الوطنيين المسلمين ، وإلى محاكم الأحبار فيما يخص الوطنيين الإسرائيليين » وكذلك تضمن القانون الأساسى لبرقة بضعة فصول متعلقة بتنظيم الحكومة المحلية من حيث تقسيم سكان برقة « باعتبار تركيبهم منذ القديم إلى قبائل وبطون وهى العائلات وأقسام لكل بطن أى عائلة شيخ ، كما أن لكل قبيلة شيخا هو شيخ المشايخ » على أن يكون

لدى كل شيخ من شيوخ المشايخ ، وإذا ناسب الحال ، لدى شيوخ البطون أى العائلات الكبرى ، مجلس انتخابى مؤلف من أفراد جماعته يدعى مجلس الشيوخ له من الوظائف ما ستقرره الترتيبات » ، ثم جعل عمل شيخ المشايخ بمعاونة مجلس الشيوخ مراقبة « الأمن فى الأرض النازلة فيها القبيلة ، وهذا عدا الاختصاصات الأخرى الإدارية والحقوق أو ما أقره العرف عند الجماعة . وزيادة على ذلك فقد أعطى شيوخ البطون أى العائلات « تحت مراقبة شيخ المشايخ ومسئوليته رأساً » نفس هذه الحقوق والاختصاصات « فى نطاق جماعته » — المواد : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ — ومما يجدر ذكره أن القانون الأساسى المعطى لطرابلس كان خلوا من هذه التنظيمات ، وكان غرض الايطاليين من هذه الترتيبات فى برقة — على نحو ماسبقت الإشارة إليه — تعزيز « الغريزة الاستقلالية » لدى القبائل العربية والوصول من ذلك إلى إضعاف نفوذ السنوسية فى داخل البلاد خصوصا ، وهو الأمر الذى عول سمو الأمير على الاحتياط له فى مبدأ الأمر ، واستطاع إبطاله بفضل خبرته وحكمته السياسية والتفاف المجاهدين حوله . وفيما عدا هذا فقد اشتمل القانون الأساسى لبرقة — كما اشتمل نظيره فى طرابلس — على التنظيمات اللازمة لممارسة شئون الإدارة والقضاء فى النواحى والمراكز والمتصرفيات وتأسيس البلديات ومجالسها فى المراكز أو المدن الرئيسية (مواد — ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ؛ ويقابلها فى القانون الأساسى لطرابلس المواد : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ؛ وأما بقية مواد أو فصول القانون الأساسى فكانت خاصة بالكيفية التى يمكن بها اكتساب حق المواطن الإيطالى أى بيان الأحكام التى يعتبر بمقتضاها أهل البلاد فى برقة (وفى طرابلس) مواطنين إيطاليين (شيتادينى إيتاليانى) ؛ ثم بعض الأحكام المتعلقة بالتقسيم الإدارى والحكومة المركزية والأخرى المحلية والقواعد العامة (مواد — ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٢٩ ، ٣٤ — ٤٢ ، ويقابل هذه فى القانون الأساسى لطرابلس المواد : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٣٠ — ٤٠) وأما عدد جميع مواد القانون الأساسى فكانت ٤٢ يقابلها ٤٠ فقط فى قانون طرابلس الأساسى .

هذه القواعد والمبادىء أدمجت فى صلب اتفاق الرجمة فالتزم الطليان باحترام حقوق الملكية (المادة الرابعة) وأعلنت الحكومة الإيطالية « على رؤوس الأشهاد أنها لاتنوى أصلا أن تتملك أراضى الأهالى سواء كانت مملوكة لأفراد أو لجماعات فضلا عن أراضى الزوايا لكى تعطيها ملكا لآخرين » (المادة٧) . بيد أنه لما كان الأمير يحرص على مصلحة أهل البلاد ولا يكفيه مجرد النص على احترام الملكية فقد التزمت الحكومة الإيطالية بمقتضى ماجاء فى المادة الرابعة ذاتها بأن « تعتبر ماسيبديه لها الأمير من رأيه وفكره عند منحها لكل شركة

رخصة امتياز لأجل إجراء أعمال إصلاحية أو تجارية فى قطر بنغازى كله ، ولكى تبين الناس أجمعين أن الحكومة لاتريد إبهاد مصالح لأحد خلافا لأبناء البلاد من الآن فصاعدا على أرباب كل مشروع كبير يزيد رأس ماله عن ٥٠٠ ألف فرنك أن يقيموا اكتتابا عاما لايقل عن ربع رأس المال يكون مخصصا لأبناء الوطن ومن جملتهم العائلة السنوسية الكريمة دون غيرهم ويتركوه مفتوحا لمدة ستة أشهر كاملة ليشتركوا معهم فى المشروع » ؛ وفى المادة التاسعة التزم الطليان بعدم فرض أية ضرائب من غير أن يكون المجلس المحلى قد بحث فى ذلك « وقرر إمكانه أو عدمه ، فإذا حدثت أحوال تراءى فيها من المصلحة استشارة بعض ذوى المكانة غير الحائزين لصفة النيابة فيمكن الحكومة أن تستقدمهم وتستشيرهم فى ذلك الموضوع » ؛ كما أعفى « العرب من أهالى قطر برقة كافة من الخدمة العسكرية إلا من تطوع بحريته ورضاء نفسه كما ورد فى القانون الأساسى » (المادة ١٢) ، ونصت المادة ١٣ على أن « تؤسس بكل سرعة ممكنة مدارس ابتدائية وإعدادية حسب مايقتضيه الموقع تدرس فيها جميع الفنون الدينية والعصرية ، فتدرس بها المبادىء الدينية واللغة والعلوم الإسلامية والآداب العربية وتاريخ العرب للمسلمين فى جميع صفوف المدارس الابتدائية والوسطى باللغة العربية . وأما سائر العلوم فتدرس باللغة الإيطالية (حسب المادة ١١ من القانون الأساسى) . « وهكذا يعترف الطرفان — تكملة المادة ١٣ من اتفاق الرجمة — بلزوم تأسيس مدرستين اعدادية وعالية فى بنغازى وإعدادية فى درنة وواحدة رشدية فى كل من طبرق واجدابية والمرج وعند اللزوم واحدة رشدية فى كل من مراوة والزاوية البيضاء ، وأما المكاتب الابتدائية فتؤسس جميعها فى المراكز الداخلية والشواطىء ويكون جلب الأولاد لها تكليفا إجباريا على الأهالى المسلمين . وأما مايختص بالنظام المدرسى فسيقرره مجلس النواب والمعارف الخصوصية التى يمكن أن تشكل لهذا الغرض » . واعترفت المادة الرابعة عشرة باللغة العربية لغة رسمية إلى جانب الإيطالية فى برقة « وفقا للقانون الأساسى ، وأيضا فى المحاكم تكون المرافعات بالإيطالية والعربية إذا أمكن » .

وأما فيما يتصل باختصاصات مشائخ القبائل ومجالس الشيوخ التى نص عليها القانون الأساسى لبرقة فقد نصت المادة السادسة من اتفاق الرجمة عند الكلام عن نزع الأسلحة وفض الأدوار أو المعسكرات على أن يكون مجلس الشيوخ ملزما بما فرض عليه فى المادة التاسعة من القانون الأساسى وأن « يكون رؤساء القبائل ومشائخ المشائخ هم الذين يديرون شئون قبائلهم على حسب نص القانون الأساسى ، ووفقا لهذا القانون يكونون هم المسئولين إزاء الحكومة عن حفظ النظام والأمن فى الأراضى القاطنة فيها قبائلهم والتى هى بمنزلتها » ، ثم

نصت المادة الثامنة على أن ترتب الحكومة لمشايخ قبائل الواحات ولمشايخ القبائل الأخرى معاشات دائمة « باعتبار دفاتر الأسماء التى يقدمها الأمير للحكومة » .

ولما كان إطلاق التجارة ضروريا حتى تأتى المتاجر والأرزاق إلى برقة والجبل الأخضر فلا يعرض القطر البرقاوى لأخطار المجاعة على نحو ماحدث سابقا ، وكانت البلاد لاتزال تعانى من آثاره ، فقد نصت الفقرة الثانية من المادة التاسعة عشرة على أنه « تطبيقا للبادىء الحرة ، تكون التجارة حرة فى كل البلاد حتى إلى أقصى الداخلية والعكس بالعكس،وتعهدت الحكومة الإيطالية بمساعدة « المبادلات التجارية بأحسن وجه حتى بإجراء مايستفيد منه تجار القوافل من الأعمال النافعة والإنشاءات الصالحة ، أما الأمير فهو من جهة يتعهد باستعمال نفوذه العظيم فى الإرشاد والإقناع كى لايحول أحد بأى وجه كان دون مد الطريق والسكك الحديدية وخطوط البريد والأوتومبيلات والسيارات والتلغرافات والتليفونات . ودون الأشغال اللازمة كرسم الأراضى ومساحتها ، ودون العمليات التى تقتضيها القوانين العقارية فإن مثل هذه الأشغال كلها لابد منها لتعمير البلاد وترقيتها وترويج تجارتها » .

وكان اتفاق الرجمة لا يخلو من أمور التزم بها الأمير ، من ذلك ما جاء فى الفقرة الأولى من المادة التاسعة عشرة نفسها حيث تعهد سموه بأن « يبذل قصارى جهده فى معاونة الحكومة لأجل حسن تطبيق القانون الأساسى (وذلك بأن) يسهل لدى الأهالى تنفيذ هذا القانون وفروعه المشترط عرضها على مجلس النواب المحلى لكى يصادق عليها ، فيتمكن أبناء البلاد من تدبير شئون أنفسهم بما يستحقون من الأعمال الحرة » .

وقد تقدم كيف أن الأمير كان لا يقل رغبة عن الإيطاليين فى تطبيق هذا القانون الأساسى فى البلاد للأسباب التى ذكرت ، ومن أهمها تقرير (الوضع) الذى نالته برقة على قاعدة إنشاء الحكومة الذاتية فى ظل الإمارة السنوسية . وكذلك نصت المادة الثامنة عشرة على « أن يمنع الأمير بصورة قطعية عن تحصيل ما يقال له الجرك وعن جباية الويركو والأعشار وغير ذلك ولا تعارض الحكومة فى قبوله لشخصه أو لزواياه الزكاة الدينية المقدمة له طوعا وبدون إكراه حسبما يعطيه الشرع الشريف » .

ولعل أخطر الالتزامات وأكثرها صعوبة كانت تلك التى نصت عليها المادة السادسة الخاصة باختصاصات « رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ » والتزامات مجلس الشيوخ القبلى فقد جاء فى هذه المادة أنه « سيترك لأهالى القطر البنغازى من الأهالى الحاضر والبادية ما عندهم الآن من السلاح ليحافظوا على الأمن ويدافعوا عن أنفسهم مع بقاء مجلس الشيوخ

ملزما بما فرض عليه (بمقتضى مواد القانون الأساسى لقطر بنغازى) وهكذا يكون رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ هم الذين يديرون شئون قبائلهم حسب نص القانون الأساسى ووفقا لهـذا القانون يكونون هم المسئولين إزاء الحكومة عن حفظ النظام والأمن فى الأراضى القاطنة فيها قبائلهم والتى هى بمنزلتها ، ولذلك — وهنا الغرض الهام من هذه المادة — سيلغى الأمير بصورة دائمة الأدوار وقرقولاته وكل التشكيلات السياسية والإدارية والعسكرية أيا كانت من الجهات التى تعهد إدارتها إليه ويكون إجراء ما ذكر فى الفقرة السابقة فى مدة لا تزيد عن ثمانية أشهر من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق » .

هذه كانت مواد اتفاق الرجمة ، وفى المادة الأخيرة وهى (المادة العشرون) من هذا الاتفاق جاء النص على « أن المتعاقدين يتعهدان بأن يعيدا النظر على ما لم ينص عليه فى هـذا من المسائل الواردة فى التسوية السابقة التى قبلها السيد إدريس مبدئيا وعلى كل مسألة تنشأ بعد هذا الاتفاق ، فتحل المسائل المذكورة بصفة ودادية وموافقة للمبادىء المقررة هنا ، مثلا كيفيات تحصيل رسوم الجمرك وغيرها المفوضة إرادتها المختارة إلى الأمير » .

وبمقتضى إصدار القانون الأساسى لقطر برقة (أول مايو ١٩١٩) وإبرام اتفاق الرجمة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ وضعت إذن الأسس التى قام عليها نظام الحكومة الوطنية فى ظل الإمارة السنوسية فى شطر كبير من القطر البرقاوى وإن كانت الإمارة الوطنية الجديدة على نحو ما سبق توضيحه — قد امتد ظلها حتى شمل بطريق غير مباشر تلك الأصقاع التى ظلت فى حوزة الطليان وتحت إدارتهم فى السواحل وكان مقر الإمارة السنوسية فى اجدابية . وأما الخط الفاصل بين هذه الحكومة السنوسية وبين المناطق التى ظلت تحت إدارة الطليان مباشرة بعد اتفاق الرجمة ، فكان يمتد من جنوبى (خميس) وسلوك والرجمة إلى شمالى دوز الأبيار — الذى يدخل ضمن المنطقة السنوسية — ثم يجرى فى أقليم الجبل الأخضر شمالى سيدى مهيوس وسيدى جبريل ، فيمر بغوط ساس ويمتد إلى شمالى القصور ثم ينحرف إلى جهة مراوة فيمر إلى شمالها وجنوبى سيدى رافع ، ثم ينحرف صوب الصفصاف ويمر شمالى بشارة ثم يجرى بين خولان والقبة وينحرف صوب الشمال إلى مرتوبة ومنها إلى التميمى ويمر بعين الغزالة وشمالى زاوية المرصص إلى طبرق . وهكذا يدخل فى حدود المنطقة السنوسية مرادة والجغبوب والكفرة واجدابية (العاصمة) وبرقة البيضاء وبرقة الحمراء .

وقد أخذ السيد إدريس ينظم حكومته الوطنية . وفى الواقع كان اهتمام الأمير بتشكيل هذه الحكومة العربية الوطنية ظاهراً من أيام مفاوضاته الأولى فى عكرمة ، كما ذكرنا سابقا

وكانت أولى الخطوات التى اتخذت فى هـذا السبيل القضاء على مكايد الأتراك « وتطهير » اجدابية من العناصر التى كان يعتمدعليها هؤلاء فى تعطيل جهود السيد . وقد كلف السيد عند رجوعه من اجدابية حتى يستأنف المفاوضة فى عكرمة ، السيد صفى الدين بأن يتوجه إلى دور (أو معسكر) الأبيار مركز العواقير الجديد بعد أن تحول مركزهم من وادى حجرة ، وذلك حتى يتسلم من الطليان العتاد والأسلحة والذخائر اللازمة لاتخاذ الحيطة ضد مغامرات رمضان شتيوى (سويحلى) الذى كان يريد فى هذه الآونة (سبتمبر وأكتوبر ١٩١٧) الإغارة على برقة وغزوها . وكان السيد قد طلب هذه الأسلحة والذخائر من الطليان استعداداً للدفاع عن حدود البلاد . فوصل السيد صفى الدين إلى الحزوية بين تاكنس والأبيار وهناك وجد نتيجة لمكايد الأتراك السابقة ضد السيد إدريس أن الحرب كانت قائمة فعلا بين قبائل عرفة والعبيد وبين الدرسة والعبيد وعرفة ، يغير الجميع على بعضهم بعضا بغية النهب والسلب ، كما وجد عصابة من قطاع الطريق بين دور الأبيار وبين تاكنس أقامت حكومة أسمتها (حكومة الصلب) فأشار السيد صفى الدين على السيد إدريس بضرورة تسوية الدور بين الدرسة والعبيد وعقد السلام بين القبيلتين ، كما أشار بضرورة القضاء على (حكومة الصلب) . فقرر السيد إدريس أن ينيب (المرحوم) الشارف الغريانى عن السيد صفى الدين فى تسلم الأسلحة والذخائر من الطليان لإنشاء المراكز فى الحدود وتأمين هذه الحدود بينما يتفرغ السيد صفى الدين لفض النزاع المستحكم بين القبائل المختلفة ، وبالفعل صدع صفى الدين بأمر السيد إدريس وكان موفقا فى مسعاه فاستطاع أن يصل إلى اتفاق مع (حكومة الصلب) على أساس أن يسلم أفراد هذه العصابة أنفسهم فى نظير الصفح عن أعمالهم السالفة ، فسلم بعض أفرادها أنفسهم للحكومة الإيطالية وسلم آخرون للسيد إدريس وانتهى أمرهم (فى يناير ١٩١٨) .

وفى إبريل كان قد تكلل بالنجاح مسعى السيد صفى الدين فى التوفيق بين القبائل المتخاصمة ثم ذهب بالقوة أو الجيش الذى كان يصحبه من الجبل الأخضر إلى أجدابية فى إبريل ١٩١٨ لتسليم هذه القوة إلى وكيل السيد إدريس بالحدود الشارف الغريانى . وكان وجود هذه القوة ضروريا لأن رمضان السويحلى كان فى هذه الأثناء وقبل تنظيم الحدود الغربية وتأمينها قد أغار على برقة البيضاء والتحم مع السنوسيين فى معركة دامية كان ممن استشهدوا فيها أحد المجاهدين البارزين من قبيلة المغاربة (الشريف الحوبة) . وفى أكتوبر ١٩١٨ عين السيد محمد إدريس السيد صفى الدين نائبا عن المنطقة الشرقية من الجبل الأخضر فى دور عكرمة وخولان ومراوه وهى منطقة قبائل الدراعصة والحاسة والعبيدات . وبمجرد أن تم اتفاق الرجمة بين السيد إدريس والطليان فى أكتوبر ١٩٢٠ قسم السيد منطقة الجبل ثلاث نيابات وعين السيد صفى

الدين نائبا عنه فى منطقتى مراوة وخولان وكانت المهمة التالية التى عهد بها إلى صفى الدين هى الإشراف على إجراء الانتخابات اللازمة لمجلس النواب المحلى بين أدوار العرب داخل وخارج الحد الفاصل . ولما كان (للادارة المختارة) وهى حكومة السيد بمقتضى اتفاق الرجمة ومركزها اجدابية نائب واحد فى البرلمان ، فقد تعين السيد صفى الدين نائبا عن هذه الإدارة المختارة وعند الانتهاء من إجراءات الانتخابات ، بدأت الدورة البرلمانية الأولى وحضر حفلة الافتتاح ممثل ملك إيطاليا الدوق أودينى وتولى الرئاسة أكبر النواب سنا (المرحوم) السيد عثمان بك العنيزى ، ثم انتخب السيد صفى الدين بالإجماع بعد ذلك رئيسا للمجلس . وهكذا بدأت الحكومة الوطنية حياتها فى برقة .

بيـد أنه كان أمام هذه الحكومة صعوبات عدة منشؤها ما نص عليه اتفاق الرجمة (المادة السادسة) من ضرورة « إلغاء الأدوار بصورة دائمة وجميع القرقولات وكل التشكيلات السياسية والإدارية والعسكرية أية كانت من الجهات التى تعهد إدارتها » إلى سمو الأمير . فقد تعذر إقناع الأهلين بتسليم الأسلحة وحل الأدوار وهم الذين كانوا على الرغم من إنشاء الحكومة الوطنية لا يزالون يشكون فى نوايا الحكومة الإيطالية ولا يطمئنون إلى تسليم أسلحتهم أو معسكراتهم وكان السبب فى هذه الشكوك مادرج عليه الطليان أنفسهم الذين اعتقدوا فى قرارة نفوسهم أن اتفاق الرجمة وماسبقه من اتفاقات لم يكن ذلك جميعه إلا ذريعة تمكنهم من الاتصال برجال القبائل العرب ورؤسائهم ومشايخهم فيتخذون من هذا الاتصال المباشر وسيلة لتحطيم نفوذ السنوسية وتقويض دعائم الإمارة التى أرغموا على الاعتراف بها فى الظروف التى مر ذكرها . فقد عمد الطليان إلى اتباع طريق المخادعة مع السيد إدريس يظهرون له الاحترام والتبجيل فى كل مناسبة وغرضهم من ذلك أولا أن يلقوا فى روع الأهلين أن الأمير منضم إليهم انضماما كليا ، ويتعاون معهم فى تنفيذ مآربهم ، وثانيا أن يزيدوا فى إحراج السيد إدريس فلا يجد من السهل على نفسه مراجعتهم فى أمر من الأمور التى تتنافى مع مصلحة أهل البلاد والوطن ، بينما كان الطليان ، باعتراف كتابهم ومؤرخيهم ، يتخذون من هذا التبجيل الحكومى الظاهر أداة لتنفير العرب والقبائل من الأمير ولتحطيم سلطان السيد ونفوذ السنوسيين عموما فى البلاد . ويظهر ذلك من التبجيل الذى أحاطوا به السيد عندما اعتزم تأدية فريضة الحج فى عام ١٩١٩ ، فقد سافر السيد وقتذاك من الزويتينة إلى السلوم يريد الذهاب إلى الحجاز بطريق مصر ، فانتهز الطليان تعذر سفر السيد بطريق القطر المصرى بسبب ما فعله الانجليز الذين رفضوا عبور السيد الحدود ، وأحضروا له البارجة الحربية (طبرق) ، فأقلته إلى الأسكندرية ، ومن هناك استأنف السيد سفره إلى الحجاز . وكذلك أظهر الطليان لسمو

الأمير ضروبا من التبجيل والتكريم منوعة عقب اتفاق الرجمة فى عام ١٩٢٠ ، فقد سافر الأمير فى نوفمبر من هذا العام إلى روما واستقبلته الحكومة الإيطالية استقبالا رسميا ، واحتفى به ملك إيطاليا فكتور عمانويل الثالث حفاوة بالغة — وكرمته الحكومة الإيطالية تكريما عظيما مدة إقامته بإيطاليا ، وقد بلغت أربعين يوماً زار فى أثنائها معظم المدن الإيطالية ثم عاد إلى بنغازى فى يناير من العام التالى .

ومع ذلك فإن مساعى الطليان مع رؤساء القبائل والمشايخ لم تثمر ثمرتها المرجوة ؛ وأدرك المجاهدون العرب ، كما أدرك الأمير نفسه حقيقة ما يضمره الطليان للقطر البرقاوى وأسفرت تدابير هؤلاء الملتوية عن ضياع ثقة العرب بهم فى آخر الأمر حتى أصبح متعذراً إقناعهم بتسليم الأسلحة أو إلغاء الأدوار على نحو ما تقدم . ومن الغريب أن الطليان الذين شهدوا نتيجة سياستهم الفاشلة — وهى نتيجة كانت متوقعة ولا مفر من الوصول إليها — سرعان ما صاروا يعزون إلى السيد وإلى «تردده» امتناع العرب عن تسليم الأسلحة وفض الأدوار ؛ ولم يزدهم هذا الاعتقاد الفاسد إلا إلحاحا على الأمير وإلحافا فى المطالبة بتنفيذ شروط اتفاق الرجمة (المادة السادسة منه) ؛ وقد وجد الأمير أن من حسن السياسة أمام هذه الدوافع المتباينة أن يوقف الحكومة الإيطالية ذاتها على حقيقة الرأى فى البلاد وبين المجاهدين العرب ورؤساء القبائل ومشائخهم ، وهم الذين كانت تريد الحكومة الإيطالية الاعتماد عليهم فى تقويض نفوذ الإمارة ، فعقد اجتماعا عاما من كل هؤلاء فى الأبيار فى محرم الحرام عام ١٣٤٠ هجرية (سبتمبر ١٩٢١) . وأوفد إلى الاجتماع ابن عمه محمد صفى الدين . وفى اجتماع الأبيار ظهر جليا أن الرؤساء والمشايخ لا يؤمنون إلا بمبدأ واحد هو ضرورة الدفاع عن مصالح البلاد وتأييد السنوسية والعمل بكل الطرق للحد من نفوذ الطليان وإبطال مساعيهم ، كما كانوا فى أشد الاستياء من استمرار تدخل الطليان المتواصل ، ويرون فى إصرارهم على هذا التدخل مضيعة لحقوق الوطن . وقد ظهرت عدم ثقة المجتمعين بالحكومة الإيطالية وبوعودها فى القرارات التى اتخذوها بصدد نزع السلاح وفض الأدوار ، وحضر الأمير نفسه الاجتماع عند المناقشة فى خير الطرق التى تكفل سلامة الوطن وأهله . فكان من رأى المجتمعين عدم حل الأدوار لأنهم لا يأمنون على حياتهم من إيطاليا إذا تشتتت المراكز وتفرقت الجموع المحتشدة فى الأدوار وسلم المجاهدون سلاحهم ثم اقترحوا على السيد حلا وسطا هو أن يعرض سموه على الحكومة الإيطالية إنشاء معسكر إيطالى إلى جانب معسكر سنوسى فى المراكز المختلفة على أن ينفق الطليان على الأدوار مدة خمس سنوات — وكان ذلك من الوسائل التى لجأت إليها لاستمالة الأهلين والرؤساء فى داخل البلاد — فقد طلب المجتمعون أن يستمر بقاء الأدوار

المختلطة طوال هذه المدة حتى إذا تبين بعد انتهائها أن إيطاليا قد أوفت بكل عهودها والتزاماتها ونفذت القانون الأساسى المعطى لبرقة تنفيذا كاملا ، لا يجد العرب ما يمنع من انسحاب المراكز الإيطالية من جهة وتسريح الأدوار السنوسية رويدا رويدا من جهة أخرى . وكان عمر باشا منصور الكخيا يقوم بالوساطة بين الأمير والوالى الإيطالى ديمارتينو ، بينما كان يقوم السيد محمد صفى الدين بهذا الدور بين الأمير والأهلين المجتمعين فى الأبيار . وأما هذه المفاوضات فقد أسفرت عن عقد اتفاق جديد بين السيد محمد إدريس وبين الطليان (الوالى ديمارتينو) فى بومريم فى ٣٠ سبتمبر ١٩٢١

ويظهر لحوى اتفاق بومريم من المكاتبات المتبادلة بين سمو الأمير السيد إدريس وبين الوالى ديمارتينو . فقد أخبر الأمير حكومة الوالى بأنه كان مصمما على حل الأدوار فى الجبل الأخضر ولكنه اضطر إلى إرجاء حل هذه الأدوار خوفا من حدوث رد فعل بين القبائل وخوفا من أن يستأنف البدو القتال بين بعضهم بعضا ، وأنه من الخير نظراً للظروف السياسية القائمة أن يصل الجميع إلى حل وسط . فأجاب الوالى فى ١٨ أكتوبر ١٩٢١ بأنه « قد أخذ علما باعتراف السيد بأنه يتعذر عليه حل الأدوار ، كما أخذ علما بوعد السيد أنه يريد تنفيذ الاتفاق الأول (الرجمة) بعد فترة تمهيدية ، وبأن الأمر الذى يجب تنفيذه الآن هو أن يجرى تأسيس أدوار مشتركة بدلا من الأدوار السنوسية البحتة ، وأن تكون نسبة الجند المشتركين فى هذه الأدوار من قبل الحكومة الإيطالية ومن قبل الأمير عشرة إلى ثمانية . فرد السيد محمد إدريس على رسالة الوالى ديمارتينو فى ٢٨ أكتوبر قائلا « إن هذه هى المرة الأولى التى تتخذ فيها الحكومة (الإيطالية) قرارا عادلا مبنيا على الاعتراف بحقيقة الأمور » ثم طلب السيد فى هذه الرسالة أن يبلغه الطليان أسماء المديرين والضباط والموظفين الذين يقع الاختيار عليهم وذلك قبل تعيينهم ؛ كما طلب من الحكومة الإيطالية كلما أرادت القيام بأية أعمال لتنظيم القبائل أن تبلغه ما اعتزمت فعله « حتى يتمكن من مساعدتها عند الحاجة ، وحتى يمنع وقوع أى حادث لا قدر الله » . ثم اختتم الأمير رسالته هذه بقوله إنه يقبل رد الحكومة بخصوص عدد العسكر الحكوميين والسنوسيين بنسبة عشرة من الأولين إلى ثمانية من الآخرين ، كما أنه يوافق على تأسيس أدوار مؤقتة لحفظ الأمن واستقرار الهدوء والسكينة ، وهى أدوار يجب تأسيسها عند حل الأدوار الأولى ، وتبقى قائمة إلى أن يتم تنظيم القبائل وفق المبادىء التى أتى بها القانون الأساسى لقطر برقة (فى أول مايو ١٩١٩) . وبناء على ذلك وافق مجلس الوزراء الإيطالى فى ١٥ أكتوبر ١٩٢١ على اتفاق بومريم ، واعتمد تأسيس الأدوار المختلطة أو المشتركة فى كل من الأبيار وتاكنس وسلنطة وعكرمة ، ثم أضيف إلى هذه بعد ذلك دور

فى المخيلة . وكان فى كل دور من هذه الأدوار ناظر سنوسى من قبل السيد إدريس ومفتش أو ناظر إيطالى ، ثم تعين الحكومة الإيطالية مديرا بينما يعين السيد إدريس مستشارا سنوسيا . ويأخذ الجنود السنوسيون فى الأدوار مرتباتهم من الحكومة الإيطالية ويقوم الطليان بتمرينهم ؛ وعين السيد إدريس أخاه السيد محمد الرضا ناظرا سنوسيا بينما عهد بمنصب المستشار إلى الشيخ صالح العوامى شيخ زاوية بنغازى ، وكان الناظر الإيطالى الجنرال دى فيتا .

وهكذا أجابت الحكومة الإيطالية مطالب أهل البلاد ، كما بينها رؤساؤهم ومشائخهم فى اجتماع الأبيار ، واعتبر اتفاق بومريم فى الحقيقة نصرا لسياسة السيد محمد إدريس الذى استطاع بصورة عملية أن يشل نشاط الطليان فى علاقاتهم مع القبائل فى داخل البلاد . وفضلا عن ذلك فقد حصل السيد بموجب اتفاق بومريم نفسه على الحق القانونى فى تقييد تدخل الحكومة الإيطالية فى شئون القبائل العربية بدعوى العمل على تنظيمها . وبذلك تكون قد نجحت أغراض الأمير المتحدة مع أغراض الأهلين ورؤساء ومشائخ القبائل .

بيد أن هذا النجاح الظاهرى الذى أحرزته الإمارة الجديدة كان لا يرضى الطليان بحال من الأحوال ، بل يسبب لهم إساءة شديدة . فقد اعتبر هؤلاء أن السنوسية بفضل اتفاق بومريم قد وطدت زعامتها فى توجيه المطالبة بحقوق أهل البلاد والدفاع عن مصالح القبائل وحريات الأهلين ، وذلك خلاف ما كان يريده الطليان الذين هدفوا عند عقد اتفاق الرجمة — أى منذ أكتوبر ١٩٢٠ — إلى سريان القانون الأساسى بحذافيره ، وكان من أهم أغراض هذا القانون كما وصفه الطليان أنفسهم وفهموه أن يتمكنوا فى نظير إقامة الحكومة الوطنية الذاتية من انتزاع أسلحة الأهلين وحل الأدوار المختلفة ، إلى جانب التدخل فى شئون القبائل بدعوى تنظيمها بغية الحد من نفوذ الأمير وتقويض سلطة السنوسية . ولكن الطليان وجدوا بدلا من ذلك أن الأمير صار يقف بفضل اتفاق بومريم موقف المدافع عن حقوق البلاد ، ويسعى لإقامة البرهان على أن الحكومة الإيطالية هى التى لم تنفذ الوعود التى قطعتها على نفسها بخصوص إنشاء الحكم أو الاستقلال الذاتى ، وأنه — أى الأمير — قد وجد نفسه مضطرا بسبب ذلك إلى إبقاء بعض الأدوار ضمانا لاغنى عنه لتنفيذ تعهدات الحكومة الإيطالية والتزاماتها تنفيذاً كاملا طبقا لما جاء فى وثيقتى القانون الأساسى واتفاق الرجمة . وفى الواقع لم يعتبر الطليان الأمير خالص النية تماما فى اتفاق بومريم لهذه الأسباب كلها ، وكانوا يفضلون كما يذكر مؤرخوهم قطع علاقاتهم معه والدخول فى حرب سافرة ضده ، ولكن سوء الحالة فى ايطاليا وعدم إستعداد الطليان العسكرى كان له القول الفصل فى إرغامهم

على قبول اتفاق بومريم . وكان من الواضح أن العلاقات بين الأمير والحكومة الإيطالية بعد هذا الاتفاق لا تقوم على أساس ثابت ، بل كانت عرضة للانفصام فى أى وقت وعند سنوح أول بادرة . وكان للتطور الذى حدث فى القطر المجاور الشقيق (طرابلس) — وهو التطور الذى أسفر عن تقديم بيعة الطرابلسيين العامة للسيد محمد إدريس — أكبر الأثر فى هذه العلاقات الإيطالية — السنوسية ، وجعل الطليان ينكثون عهودهم ويعملون على تقويض دعائم الحكومة الوطنية التى استطاع السيد بفضل حنكته ومهارته السياسية أن ينتزع الاعتراف بها انتزاعا من بين أيديهم بعد جهاد شاق مرير استمر بعد عودته من الأقطار الحجازية إلى السلوم فى غضون عام ١٩١٥ إلى وقت الاتفاق فى بومريم فى آخر سبتمبر ١٩٢١.

الفصل التاسع

بيعة الإمارة

استطاعت السنوسية بفضل ما كان لها من تقاليد راسخة فى الحكم أن تشيد أركان الحكومة الموطدة المستقرة فى القطر البرقاوى ؛ وكان من الميسور على أميرها الكبير السيد محمد إدريس السنوسى أن يجمع كلمة العرب والمجاهدين تحت لواء زعامة واحدة ، وأدرك الطليان من أول الأمر أنهم أمام قوة منظمة وزعامة سياسية ودينية كبيرة لا مناص من الاعتراف بحقوقها إذا هم شاءوا ضمان الهدوء فى برقة فى وقت ما كانوا يستطيعون فيه المضى فى نضال لا يعرفون عواقبه ، وبخاصة عند ما كانت الحرب الأوربية ما تزال يستعر أوارها ويلقى الطليان منها أهوالا شديدة . فكان أن استطاع المجاهدون فى برقة بفضل زعامتهم الرشيدة أن يحصلوا فى الاتفاقات والمعاهدات التى أبرمت بين أميرهم السيد إدريس وبين خصومهم على اعتراف صريح بالإمارة السنوسية ، وكاد يعظم الأمل فى أن عهداً من الهدوء والسكينة قد بدأ يسود البلاد ويمهد لحدوث نهضة ثقافية واجتماعية كبيرة فضلا عن إنعاش حالة البلاد الاقتصادية وما يجلبه هذا الانتعاش من رخاء ظاهر . وضربت برقة مثلا حياً لما يمكن أن يبلغه قطر يستمتع بوجود زعامة حازمة لها من سداد الرأى وبعد النظر ما يكفل تحقيق الأهداف الوطنية. وكان أشد الناس حاجة إلى الموعظة الحسنة أهل القطر الشقيق طرابلس .

واختلفت الأحوال فى طرابلس عنها فى برقة اختلافاً كبيراً ، فبينما وجد البرقاويون زعامة رشيدة أخذت على عاتقها من زمن بعيد إصلاح شئونهم الدينية والدنيوية وإقامة الحكومة الموطدة وبخاصة فى داخل البلاد تنشر الأمن وتؤمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم كان الطرابلسيون منقسمين شيعا وأحزابا لا تجمعهم رابطة ولا يعترفون بزعامة موحدة مسئولة تجمع شتاتهم فى صعيد واحد وتؤلف بين غاياتهم فى هدف واحد مشترك لتحقيق مصلحة قومية أو وطنية عامة . حقيقة استأثرت أسرة القره مانلى بالحكم فى طرابلس مدة قرن من الزمان تقريبا (١١٢٣ — ١٢٥٢ هـ ، ١٧١١ — ١٨٣٦ م) ؛ ولكن عهد هذه الأسرة كان قد انقضى من سنوات طويلة ، ولم يفلح الولاة العثمانيون فى إنهاء الاضطرابات الداخلية . وكان منشأ هذه الاضطرابات أن عدة أسرات طرابلسية طفقت تستبد بالحكم فى

داخل البلاد ، حتى أن طرابلس صارت تشبه أوربا شبها كبيراً فى زمن الإقطاع المشهور . ذلك أن زعيم كل جهة من الجهات صار يهيمن على شئون إقليمه ، فيحصل الأموال والعشور ويفصل فى المنازعات ويجند الأهلين لخوض غمار الحروب التى صار يشنها من وقت لآخر على جيرانه طمعا فى الأسلاب والغنائم أو سعيا وراء امتلاك أرض جديدة وإقصاء خصومه أو منافسيه من الحكم فى « الدويلات » المجاورة ، حتى عمت الفوضى ولم تجد سلطة الوالى العثمانى نفعا فى إزالة أسباب العداء بين هؤلاء الزعماء أو نشر ألوية السلام والطمأنينة فى طرابلس . وعند ما تعرض كيان البلاد للخطر عند نزول القوات الإيطالية فى طرابلس الغرب نجح العثمانيون فى جمع الكلمة ولم الشمل لدفع هذا الخطر المفاجىء وأبدى الطرابلسيون من ضروب الشجاعة والبسالة فى الذود عن أوطانهم ماسبق بيانه عند الكلام عن الغزو الإيطالى فى عام ١٩١١ . ولكنه بمجرد أن وضعت الحرب الإيطالية الليبية أوزارها وانسحب الطليان عقب معاهدة أوشى استأنف الزعماء المحليون منازعاتهم الشخصية واضطر سليمان البارونى إلى مغادرة البلاد (١٩١٣) ؛ فأحرز الطليان عدة انتصارات ثبتت أقدامهم بالمدن الساحلية وحول مدينة طرابلس ذاتها . وكان من أشهر الزعماء المحليين الذين استأثروا بالسطوة والسلطان فى داخل طرابلس رمضان سويحلى أو شتيوى فى مصراته ، وأحمد المريض فى ترهونة ، وعبد النبى بلخير فى أورفله ، وعلى بن تنتوش فى العزيزية والحاج محمد الفقيهى فى فصاطو ، وعائلة كعبار فى غريان ، وخليفة بن عسكر فى القسم الغربى من الجبل وجزء من الساحل ، والمهدى السنى الزناتى ومشايخ أولاد يوسف فى الجهة الشرقية من الجبل مع شطر من الساحل ، ويمتد نفوذهم إلى الفزان كذلك .

وحاولت السنوسية من أيام نشأتها الأولى أن تنشر التعاليم الدينية الصحيحة وتبذر بذور الإصلاح الاجتماعى فى القطر الطرابلسى ، علها تتمكن من نشر ألوية السلام فى طرابلس وتقضى على الفوضى المستبدة بها ، ولكن خوف الزعماء المحليين كثيراً ما كان يقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق غاياتها . ومع ذلك فقد وجدت السنوسية أتباعا كثيرين لها من بين الطرابلسيين ، ثم قوى نفوذها فى منطقة سرت وأنشأت زاوية هامة فى النوفيلية ، ثم مالبث نفوذها حتى امتد إلى الفزان . وكان الخوف على سلطانهم من زيادة نفوذ السنوسية فى هذه البقاع سببا فى إثارة عداء الزعماء الإقطاعيين بطرابلس ضدها وبخاصة فى مصراته . ذلك أن زعيم مصراته رمضان السويحلى كان صاحب أطماع واسعة ويريد أن يبسط نفوذه على سائر الزعماء الطرابلسيين حتى ينشىء لنفسه ملكا عضوداً ، ولذلك فقد ساءه أن يرى السنوسية توطد أركانها فى منطقة سرت بنوع خاص لقرب هذه من مقر سلطانه . غير أن السويحلى

كان حذرا متيقظاً ، فلم يشأ أن يجاهر بعدائه للسنوسية فى أول الأمر ، بل قبل التعاون معهم ضد الطليان . وكان الذى دفع رمضان السويحلى إلى التكاتف مع السنوسيين فى ذلك الوقت أن الطليان عند ما دانت لحكمهم السواحل أسسوا مركزا مُسلحا بزاوية المحجوب بالجهة الغربية من مصراته ، وكان يصعب على السويحلى إخراجهم منها أو التحرر من سلطانهم فى مصراته ذاتها ، بل إنه ما لبث حتى قبل أن ينوب عن الطليان فى إدارة المحجوب ، وعلى ذلك فقد وجد من الخير له أن ينحاز إلى جانب السنوسيين فى المعارك التى سبق ذكرها . غير أن السويحلى سرعان ما وقع تحت نفوذ العثمانيين الذين أرادوا أن يستمر القتال ضد إيطاليا فى برقة بعد أن قرر السيد إدريس الدخول فى تلك المفاوضات التى أسفرت عن عقد اتفاق عكرمة المؤقت ، فألح رمضان على السيد صفى الدين فى ضرورة إرسال حملة على الحدود التونسية ورفض السيد صفى الدين أن يستعدى دولة ثالثة (فرنسا) ضد المجاهدين ، فاتخذ السويحلى من هذا الرفض ذريعة لإظهار عدائه السافر ضد السنوسية . وشغل رمضان والعثمانيون فى طرابلس فى الشهور التالية بمقاومة السنوسيين بدلا من تركيز جهودهم فى النضال ضد إيطاليا. ومن أواسط عام ١٩١٧ لم يكن لدى السنوسية وأميرها أى أمل فى إمكان الحصول على مساعدات من الطرابلسيين والعثمانيين بطرابلس بل إنه كان هناك من الأسباب ما جعل السيد إدريس والسيد أحمد الشريف يتبعان خطة مدارها الحيطة والحذر فى علاقاتهم مع أعوان السويحلى وأنصار العثمانيين بالقطر الشقيق ، وكان من أهم هذه الأسباب تلك الحوادث التى وقعت فى الفزان والتى ذهب ضحيتها محمد على الأشهب فى سبتمبر ١٩١٧ .

وفضلا عن ذلك فقد عمد الزعماء الطرابلسيون والعثمانيون حتى يؤمنوا المواصلات بين الفزان ومراكزهم الشمالية إلى تأليف جيش من أهل ورفلة فاحتلوا فى واحات الجفرة جنوبى النوفيلية وسرت كلا من سوكنه وودان بعد أن أخرجوا منهما أولاد سيف النصر أكبر مؤيدى السنوسية فى هذه الجهات . وقد انسحب أولاد سيف النصر إلى زلة ، ثم لم يقتصر الأمر على ذلك بل إن المنقوش قائمقام سرت ، وكان من أهل مصراتة ، صار يكثر من الإغارة على قبيلة المغاربة القاطنة فى منطقة سرت ، فعظم العداء بين أهل هذه الجهات وأهل مصراته والعثمانيين واستطاعت السنوسية أن تجمع فى النوفيلية قوة كبيرة فى منتصف نوفمبر ١٩١٧ ، وانضم إليهم أولاد سليمان سيف النصر فى زله وانقض الجميع على سوكنة فجأة فاحتلوها وطردوا منها قوات ورفلة بعد أن كبدوها خسائر فادحة وأسروا القائمقام التركى وشنقوه وبسطوا نفوذهم على الجفرة ولما كان نورى الذى حرك حوادث الفزان ثم حوادث الجفرة يخشى ضياع البقية الباقية من النفوذ العثمانى فى طرابلس نتيجة لانتصار السنوسيين فى الجفرة

وتهديد الفزان ، ويخشى علاوة على ذلك تحول الجهاد ضد إيطاليا إلى مجرد مناوشات محلية تثيرها أطماع الزعماء المحليين أمثال عبدالنبي بلخير (ورفلة) ورمضان السويحلي (مصراته) ضد السنوسية ، فقد قرر الآن أنْ يسعى لمصالحة السيد أحمد الشريف ؛ غير أن مساعيه سرعان ما أخفقت بسبب موقف العداء الذي أصر رمضان شتيوى على أن يقفه دائما من السنوسية حتى أن نورى باشا نفسه لم يلبث أن اضطر إلى مغادرة طرابلس والعودة إلى تركيا فى آخر الأمر

وتفصيل ذلك أن نورى عند ما قرر مصالحة السيد أحمد الشريف أرسل إليه كهدية له وللمجاهدين قافلة محملة بالأرزاق وبينما كانت القافلة فى طريقها إلى منطقة سرت هاجمها رمضان شتيوى برجاله بالقرب من تاورغ ، وقتل رجال القافلة ثم حملت الأرزاق المنهوبة إلى منزل رمضان بزاوية المحجوب فى مصراته . وقد تقدم ذكر هذه الوقائع عند الكلام عن الحوادث التى سبقت خروج السيد أحمد الشريف من العقيلة إلى تركيا . وعند ما بلغ نورى ما حدث غضب غضبا شديدا ؛ ولكن رمضانا أنكر فعلته وتظاهر بالغضب لاتهامه بهذه التهمة . وعلى ذلك أرسل نورى قافلة ثانية ، ولكن قائمقام سرت المصراتى (المنقوش) ما لبث هو الآخر حتى استولى على الكثير مما كانت تحمله من أرزاق ، فلم يجد السيد أحمد الشريف مناصا من أن يكتب إلى نورى يخبره بما حدث ، ثم يقول له إنه إذا كان الغرض من انتقاله — أى انتقال السيد أحمد الشريف — إلى طرابلس بعد فشل الهجوم على الحدود المصرية أن يقود النضال ضد الطليان ويفض المشكلات الداخلية بوصفه نائبا عن السلطان ، فإن ذلك قد أصبح الآن متعذرا لأن نورى فضل أن يستمر على علاقات المودة والصفاء مع رمضان السويحلى ، وهو رجل أقل ما يقال فيه إنه مستبد وقاطع طريق .

وعلى ذلك فإن السيد أحمد يرى — على حد قوله — أن من الأفضل أن يترك طرابلس وشأنها فينسحب إلى واحة الكفرة ويترك فى يد ابن عمه السيد إدريس كل السلطة . فكان من أثر هذا التهديد بالانسحاب من البلدان أن بادر نورى بمجرد وصول كتاب السيد أحمد إليه بعقد اجتماع فى مصراته حضره رمضان شتيوى ، وكان غرض نورى من هذا أن يحمل رمضان شتيوى على الاعتراف بمركز السيد أحمد الشريف بوصفه نائبا عن السلطان العثمانى فى القطر الطرابلسى . ولكن رمضان أصر على عدم الاعتراف بشخص ينتمى إلى السنوسية مندوبا للسلطان ، وفضلا عن ذلك فان السيد أحمد الشريف كان على حد قول السويحلى غريبا عن طرابلس ولا يمت لها بصلة . فأثار هذا الجواب غضب نورى الذى ما لبث حتى هدد بمغادرة البلاد تاركا وقوع مسئولية كل ما يحدث بعد ذلك على عاتق رمضان وحده نتيجة لعدم امتثاله الأوامر . ولما كان رمضان يخشى أن ينفذ نورى وعيده ويترك البلاد فى ذلك

الوقت العصيب فينقطع بذهاب نورى مجىء المؤن والأسلحة والذخائر والمال من الآستانة وتضعف روح أهل البلاد المعنوية ، بل وربما حدثت هؤلاء أنفسهم بالانفضاض من حول زعيمهم ، فقد أحكم الرقابة على نورى بعد ذلك حتى يمنعه من السفر .

ولكن نورى سرعان ما وجد وسيلة مكنته من الإفلات من هذه الرقابة ، فغادر البلاد فى أوائل يناير ١٩١٨ وحملته غواصة ألمانية أولا إلى السلطان على أمل مقابلة السيد أحمد الشريف بها ، ولكنه لم يجده بل وجد صالح الأطيوشى (باشا) شيخ المغاربة الرعيصات فأخبره الأطيوشى بأن السيد أحمد الشريف قد ذهب إلى الكفرة ، فاستأنف نورى السفر إلى بولا ومنها إلى استامبول . وعندما كشف السويحلى إفلات نورى أسقط فى يده ، ثم بادر بالعمل على تهدئة النفوس فأذاع أن نورى إنما ذهب للاستانة حتى ينظم مجىء الغواصات إلى طرابلس ، وأنه سوف يعود قريباً محملا بالأسلحة والذخائر والمهمات المختلفة .

وساءت الأحوال بعد خروج نورى من طرابلس ، إذ انتهى بذهابه كل أمل فى إمكان إقناع السويحلى وطغمته أو غيره من الزعماء المحليين أمثال عبد النبى بلخير صاحب ورفله بضرورة إزالة أسباب العداء بينهم وبين السنوسية حتى يستطيعوا جميعا القضاء على الخطر الطليانى . بل إن السويحلى وعبد النبى بلخير ما لبثا أن استأنفا النضال ضد السنوسية ، وعلاوة على ذلك فقد زادت الأمور تعقيداً عندما اشتد النزاع الداخلى بين مصراته وترهونة خصوصاً . فقد جمع السويحلى وعبد النبى بلخير جموعهما وبدأت المناوشات بين مصراته وورفلة من جانب وبين السنوسيين من جانب آخر ، فانتصر السنوسيون عليهم (فى ٩ يناير ١٩١٨) بالقرب من سوانى وشه واستولى أنصار السنوسيين على مواشى ورفله قريبا من وادى صفچين ، ثم انهزمت جيوش ورفلة كذلك يوم ٢٤ يناير على يد سيف النصر صاحب السيطرة والسلطان فى واحات الجفرة ، والتزم عبد النبى بلخير من ذلك الحين خطة الدفاع عن ورفلة ذاتها ، ووجد رمضان شتيوى أنه بات من المتعذر الاعتماد على ورفلة فى حركاته العدوانية ضد السنوسية فعول على الاستقلال بالعمل . وفى أوائل مارس خرج المنقوش قائمقام سرت إلى وادى أجر فدفع أمامه المغاربة وكاد يتم له النصر لولا أن هؤلاء سرعان ما جاءتهم النجدات من مركز السنوسية العتيد فى النوفلية ، فأوقعوا بقوات مصراته هزيمة ساحقة ، وأمام هذه الهزيمة لم يجد رمضان السويحلى بدا من أن يسعى لمصالحة السيد أحمد الشريف حتى يزيل بعض آثارها .

وكان السيد أحمد الشريف يقيم وقتذاك بمرسى جوديه ، ولكن فرصة الصلح كانت قد فاتت فى الحقيقة ، ذلك أن قوات مصراته ما لبثت حتى اضطرت إلى التقهقر ، وضرب

السنوسيون عليها نطاق الحصار فى سرت ، فانعزل المنقوش وقويت شوكة السنوسية وقوى سلطان سيف النصر حول سرت ، وترتب على هذا الانتصار ظهور مشاكل جديدة سرعان ما جذبت إليها نشاط السويحلى واستغرقت كل جهوده ، ولم تكن هذه المشاكل الجديدة إلا جزءاً من تلك المنازعات التى كثيراً ما كانت تنشأ بين الزعماء الإقطاعيين فى طرابلس حول امتلاك الأراضى وتوسيع دائرة نفوذهم . وبيان ذلك أنه على الرغم من اتحاد كلمة هؤلاء الزعماء فى نضالهم ضد السنوسية خوفا على امتيازاتهم المحلية من الضياع ، فإن العداء كان مستحكما بينهم وخصوصا بين رمضان السويحلى صاحب مصراته وأحمد المريض صاحب ترهونة .

وكان سبب النزاع بين مصراته وترهونة أن كلا منهما أرادت الاستيلاء على مسلاته ، وكانت هـــذه تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين مصراته وترهونة ويسيطر عليها فى هذه الآونة رمضان سويحلى . وكان لصاحب ترهونة أحمد المريض أطماع لا تقل فى غلوها عن أطماع السويحلى نفسه ، فهو يريد أن يدعم سلطانه فى ترهونة ذاتها فيصبح أقوى زعمائها إطلاقا ، ويدعى إلى جانب ذلك حقوقا على مسلاته . وفطن العثمانيون إلى أنه باستطاعتهم أن يستميلوا المريض إلى مواصلة النضال ضد الطليان إذا هم ساعدوه على تأييد سلطانه على نحو ما كانوا يفعلون مع السويحلى نفسه ، فعينوه متصرفا فى منطقته بدلا من الحاكم التركى ، فأضحى لذلك أعظم الزعماء خطرا فى ترهونة . وعلاوة على ذلك فقد أدرك الطليان من جانبهم أنهم إذا استطاعوا استمالة المريض إليهم ، دفعوا عن مراكزهم الساحلية فى الخمس وغيرها أخطارا كبيرة ، فلم يتوانوا هم الآخرون فى جذبه إليهم ، على نحو ما فعلوا كذلك مع السويحلى .

وهناك ما يثبت أن المكتب السياسى العسكرى الإيطالى بطرابلس كان يمد المريض بالمال بدعوى الاستمرار فى صرف ما كان يتقاضاه من مرتبات قديمة من أيام انتهاء الحرب الليبية الإيطالية ، واعتقد الطليان أن أحمد المريض كان فى الباطن من مؤيديهم ، وأنه لم يلجأ إلى مصانعة الأتراك إلا على سبيل الحيطة والحذر منهم ، وبخاصة عندما كان هؤلاء منذ نزول نورى بمصراته يقبلون على تأييد السويحلى . وكان السويحلى عندما تبين له عجز ورفله عن مساعدته بعد الهزائم التى أنزلها به السنوسيون وأنصارهم فى سوانى وشه ووادى صفچين قد عمد إلى تجنيد العرب من أهالى مصراته ومسلاته وأمعن فى جمع العشور والأموال منهم لتأليف جيش كبير يستطيع الصمود فى وجه السنوسية ، فحرك السويحلى بعمله هذا أحقاد أحمد المريض . فانتهز هذا فرصة انهزام أهل مصراته فى وادى أجر وما دخل على صفوفهم

من ارتباك بسبب هذه الهزيمة وأعلن أن له حقوقا على مسلاته ومنع التجنيد وقبض العشور وتحرجت الأمور بين ترهونة ومصراته . وفضلا عن ذلك فإن ترهونة ماكانت تعترف البتة بسيطرة السويحلي وما كانت تحتمل هذه السيطرة . بل إن المريض كان يرى من سوء الرأي والتدبير أن يتفق مع السويحلي على شيء ، لأن من شأن هذا الاتفاق أن يستعدي عليه السنوسية ، وكان للسنوسية أنصار عديدون في ترهونة . ولم يمنع من وقوع الصدام غير وصول الأمير عثمان فؤاد إلى طرابلس في شهر مايو ١٩١٨ . إذ أن مجيء الأمير ما لبث أن أحدث تغييرا كبيرا في الموقف . فقد بدأت الحوادث تسير حثيثا من ذلك الوقت نحو غاية مزدوجة هي أولا إنشاء حكومة موطدة الدعائم تستطيع مواصلة النضال بنجاح ضد ايطاليا حتى تنتزع منها نوعا من الحكم الذاتي للبلاد يستمتع الطرابلسيون في ظله بالأمن على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ويسيرون بفضله قدما في طريق الإصلاح الاجتماعي والانتعاش الاقتصادي ، ثم تسوية العلاقات بين الطرابلسيين والبرقاويين على أساس من الود والصداقة كما تتوحد الجهود في النضال من أجل إنقاذ حريات الوطن وحقوق الطرابلسيين والبرقاويين من براثن المستعمر الإيطالي . وكان المسئول الأول عن رسم خطوط هذا البرنامج المزدوج المجاهد المصري عبد الرحمن عزام (باشا) . غير أنه لإدراك حقيقة هذه التطورات الهامة الأخيرة ، لا مندوحة عن ذكر طرف من التدابير التي اتخذها العثمانيون من أجل إنشاء نوع من الحكم في طرابلس يكفل استئناف الجهاد عند ما قرروا مواصلة الكفاح ضد الطليان في طرابلس وقت اشتعال الحرب العالمية الأولى .

فقد سبق ذكر الظروف التي غادر فيها سليمان الباروني طرابلس في أواخر عام ١٩١٣ . ولكنه بمجرد أن قرر العثمانيون القتال ضد الانجليز في برقة وضد الطليان في طرابلس ، أرسل أنور باشا الشيخ سليمان الباروني لاستئناف الجهاد في طرابلس الغرب ، فوصل الباروني إلى السلوم في غضون عام ١٩١٥ ، وحضر تلك الاجتماعات التي عقدها نوري أخو أنور وجعفر العسكري مع السيد أحمد الشريف ، وانتهز الباروني فرصة وجوده بالسلوم فأخذ يدرس الموقف عن كثب ، وعمل على إنشاء الصلات الوثيقة مع الزعماء والمجاهدين في طرابلس مرة أخرى ، ثم عاد إلى الآستانة وأوفد أخاه إلى طرابلس حتى يستوثق من رغبة الطرابلسيين في متابعة النضال ضد ايطاليا . فحضر الشيخ يحيى إلى طرابلس ، وعند ما اتضح له أن الزعماء ما زالوا مصممين على القتال بعث الشيخ إلى أخيه فجاء سليمان الباروني ونزل في مصراته . وكان الباروني يحمل من السلطان فرمانا بتعيينه واليا على طرابلس وقائدا عاما لقواتها المجاهدة ، وبدأ يعمل منذ قدومه لإنشاء حكومة عربية منضوية تحت لواء

الآستانة ، وتدين لدولة الخلافة بالتبعية ، ثم ما كاد يستقر به المقام بالبلاد حتى أصدر منشورا فى ١٧ أكتوبر ١٩١٦ أعلن فيه « إلحاق طرابلس الغرب بالولايات العثمانية » . وفضلا عن ذلك فقد أنبأ البارونى أهل البلاد فى هذا المنشور بأنه سوف يتبادل الرأى مع «البطل الغيور رمضان بك (السويحلى) ومن معه من الأبطال عن المكان واليوم الذى يصير فيه الاجتماع العمومى » تمهيدا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات وترتيبات مدنيـة وعسكرية من أجل إنشاء حكومة منظمة تستطيع الاضطلاع بعبء مواصلة الكفاح ضد إيطاليا . ولما كان ضروريا إزالة أسباب الخلاف بين رمضان السويحلى وأتباعه من جانب وبين السنوسيين وأحلافهم من جانب آخر حتى تستطيع تلك الحكومة التى يعتزم إنشاءها أن تؤلف بين قلوب المجاهدين وتضمن تعاونهم فى النضال ضد إيطاليا ، فقد أرسل البارونى إلى سمو السيد محمد إدريس كتابا فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٦ يرجوه فيه أن يكف السنوسيون عن القتال ، ويذكر أنه علم لدى وصوله إلى مصراته « أن قوة قدمت من جهة برقة تحت قيادة القائمقام موسى بك واحتلت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الزاندرمة (الدرك) التى هنالك من طرف رمضان بك السويحلى باسم الدور العثمانية » ثم اختتم كتابه هذا برجاء السيد إدريس أن يعمل « لتسوية هذه المسألة » وكان السيد إدريس صادق الرغبة فى إنهاء هذه الخلافات حقنا لدماء المسلمين فبادر سيادته بالكتابة إلى البارونى فى ٤ نوفمبر يذكر أن السبب الذى دعاه إلى احتلال قصر سرت هو ما حدث قبيل مجىء البارونى من اشتعال الفتن بين السويحلى وأهل ترهونة « فأجبرنا الحال أن نطفئها بأى سبب كان كما قال الله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) — ثم قال السيد فى كتابه « نحن لا غرض لنا إلا الاتحاد الإسلامى وتخليص رقاب المسلمين فقط » ؛ وأصدر الأوامر إلى جنده بالوقوف بالقصر ، وطلب إلى البارونى أن يعاونه فى إخماد الفتن والقلاقل . وكان من أثر رغبـة السيد فى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف أن انتشر السلام على الحدود البرقاوية الطرابلسية فترة من الزمن كانت كافية لأن يتمكن البارونى فى أثنائها من التوسط فى الصلح بين السويحلى والمريض ، ثم استئناف الجهاد ضد إيطاليا . ودارت بينه وبين الطليان معارك حامية وقعت أكثرها حول مدينة طرابلس ، وزنزور ، وزوارة والعجيلات .

غير أن السويحلى ما لبث أن عاد إلى سابق عهـده ، فأظهر العداء للسنوسيين ، وشجعه على ذلك نزول نورى بمصراته بعد انسحابه من برقة ، فالتحم السويحلى مع السنوسيين وأنصارهم فى نفس المعارك التى سبق ذكرها ، واضطر نورى إلى مغادرة طرابلس ، وظهرت الحاجة

الشديدة إلى إنشاء حكومة موطدة جديدة في طرابلس . وكان في هذه الظروف أن حضر الأمير عثمان فؤاد من الآستانة .

وكان الأمير عثمان فؤاد من أقرباء السلطان مراد الخامس الذي تولى العرش في عام ١٨٧٦ لمدة ثلاثة شهور فقط ، وأبوه صلاح الدين أعظم أعضاء البيت المالك شهرة ويلي ولي العهد مباشرة في وراثة العرش ، وكانت هذه الصلة القريبة هي سبب وقوع اختيار أنور باشا وجماعته على الأمير عثمان فؤاد وهو ما زال في ذلك الوقت شابا لا يزيد عمره على ثلاثة وعشرين عاما . وتضاربت الأقوال في بيان الطريقة التي تم بها اختيار الأمير العثماني ، فذكر كثيرون أن ألمانيا هي التي أرادت إرساله حتى يشعل جذوة الحرب من جديد في ليبيا وكانت تريد أن يرافقه أمير وقائد ألمانيان ، ولكن أنور باشا عارض في ذلك معارضة شديدة، ومع ذلك فقد اتفقت أقوال الثقات على أن الغرض من إرساله كان بلا جدال تنظيم جهود الطرابلسيين في النضال ضد إيطاليا وإزالة الخلافات القائمة في صفوف المجاهدين ، فأشيع وقتذاك أن أوامر معينة قد سبقت قدوم الأمير العثماني بعث بها الباب العالي إلى رمضان شتيوي صاحب مصراته تحضه على وجوب الاتفاق مع السيد أحمد الشريف والامتثال لكل ما يصدره الأمير عثمان فؤاد من أوامر ، وإنذاره بقطع الإمدادات عنه إذا هو خالف الأمير العثماني . ووصل الأمير في إحدى الغواصات وجاء معه عدد من الضباط الأتراك كان من بينهم إسحاق باشا . هذا فضلا عن بعض الخبراء الألمان الذين أنشئوا بمجرد وصولهم إلى مصراتة محطة للاسلكي يتلقون عن طريقها الأنباء عن تطور القتال في ميادين الحرب المختلفة بأوربا .

وعندما وصل الأمير عثمان فؤاد أخذ ينفذ برنامجا واسعا دلت الحوادث على أنه كان في جوهره وتفاصيله من ثمار تفكير رجل آخر عركته التجارب ورسخ إيمانه في القدرة على تحقيق أهداف البلاد الوطنية . ذلك أن الأمير عثمان فؤاد علاوة على صغر سنه كان لا يعيش في حياته الخاصة عيش العرب المجاهدين ولم يستمتع بشهرة عظيمة . فكان الأهلون بسبب قلة خبرته بتصريف الشئون وعدم حنكته لا يطمئنون إليه ولا يركنون إلى تدبيراته . ولكن على الرغم من ذلك كانت الفترة القصيرة التي تسلم فيها الأمير عثمان فؤاد زمام الأمور من مايو إلى نوفمبر ١٩١٨ فترة نشاط عظيم ، بذرت في أثنائها تلك البذور التي مهدت لظهور أول حكومة منظمة في القطر الطرابلسي منذ أن بدأ النضال ضد إيطاليا ، وأعني بذلك حكومة الجمهورية الطرابلسية . وأما كيف تسنى حدوث ذلك كله ، فالأمر بسيط هين إذا تذكرنا أنه حضر من تركيا مع الأمير عثمان ، عبد الرحمن عزام .

وقد سبقت الإشارة في الفصول الماضية إلى جهود (العزام) — وهو الاسم الذي عرفه

به وقتذاك معاصروه العرب» — ولكن وصف الظروف التى أتت بالعزام إلى برقة وطرابلس ضرورى لإدراك حقيقة الجهود التى بذلها هذا المجاهد الشاب وسط خضم من الحوادث بصورة سرعان ما أثارت الإعجاب بنشاطه وصدق إيمانه من كل جانب ، فوثق به زعماء طرابلس وثوقهم بأنفسهم وائتمنه المجاهدون الطرابلسيون على مصالحهم الوطنية ، واستمعوا لنصحه وإرشاده . وساروا فى كل طريق كان يرى من مصلحة الوطن العليا أن يوجههم إلى سلوكه ، بل إن وثوق المجاهدين به واستماعهم لنصحه وإرشاده بلغ درجة من الخطورة انتزعت من الطليان انتزاعا الاعتراف الصريح بأن المجاهدين ما كانوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من إنشاء الحكومة المنظمة ورفع أعلام الجمهورية والمطالبة بالحريات الشخصية والقانونية ، ثم إرغام ايطاليا فى آخر الأمر على إصدار القانون الأساسى لو أن «العزام» لم يكن العقل المدبر واليد المحركة فى ذلك كله .

وكان العزام من الطلبة المصريين الذين عقدوا العزم على مكافحة الاستعمار والمستعمرين من اللحظة الأولى ، قصد انجلترة لإتمام دراسته ، ولكنه حدث أن انعقد مؤتمر وطنى فى جنيف بسويسرة فى يونية ١٩١٤ فحضر عبد الرحمن عزام هذا المؤتمر مندوبا عن الطلبة فى لندن . وعند ما بدأت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس من العام نفسه ، أوفده المؤتمر إلى مصر ليجمع المال اللازم لمعاونة المؤتمر على العمل فى سبيل استقلال مصر ، وجاء عبد الرحمن عزام إلى مصر ولكنه لم يستطع الخروج منها ، وأنذره الانجليز بعدم مغادرة البلاد ووضعوه تحت مراقبة صارمة ، فالتحق بالقصر العينى يعمل فى مستشفاه ، ثم حدث هجوم الأتراك المترقب على قناة السويس ، فأرسل الانجليز الأتراك من الميدان إلى مستشفى القصر العينى وكان عزام ممن سهروا على تمريضهم فاستطاع أن يقف من هؤلاء الجرحى على آخر الأنباء العسكرية وصار يتحين الفرص للإفلات من رقابة الانجليز ، حتى إذا أتى شهر ديسمبر من عام ١٩١٥ اختفى العزام فجأة من القاهرة ، وذهب إلى الإسكندرية ثم ساعده اثنان من العرب على اجتياز الحدود الغربية إلى برقة فوصل إلى معسكر نورى باشا بعد معركة بئر تونس وأحضر معه إلى نورى رسائل من الضباط الأتراك وعدداً من المقصات لقطع الأسلاك الشائكة ورحب به القائد العثمانى وأكرم وفادته ثم بدأ العزام يتدرب على فنون الحرب والقتال وفى فبراير ١٩١٦ حضر معركة العقاقير مع نورى وجعفر العسكرى ، وهى المعركة التى أسر فيها الانجليز جعفر العسكرى وكاد يقع نورى والعزام فى أسرهم . وعند ما أخفقت حملات السيد أحمد الشريف ونورى باشا على الحدود الغربية ، وتأزمت الأمور فى برقة بسبب انتشار المجاعة والطاعون وألح أهل البلاد فى ضرورة إنهاء النضال على نحو ما سبق

تفصيله ، ذهب نورى باشا ومعه عبد الرحمن عزام إلى طرابلس فى أواخر عام ١٩١٦ لمواصلة الجهاد فى القطر الشقيق باسم الحكومة العثمانية ، ونزل نورى وعبد الرحمن عزام بمصراتة ، وكان رئيس حكومتها رمضان السويحلى فأكرم وفادة العزام ، وتفتحت أمام العزام آفاق واسعة ، وسيطرت روحه على نشاط المجاهدين ، فكان نورى باشا لا يبرم أمراً دون استشارته والرجوع إلى رأيه ، والتف حول العزام المجاهدون العرب ، ووثق به رمضان السويحلى ، ولم يكن هذا المغامر يثق بأحد إلا فى النادر القليل . ولا جدال فى أن توطد العلاقات بين العزام والسويحلى فى ذلك الوقت كان لخير القضية الليبية . ذلك بأن العزام استطاع أن يكبح كثيرا من جموح السويحلى ويحد من غلوائه ويرغمه على أن يخفف شيئا من حدة عدائه للسنوسية ويقنعه بضرورة إزالة أسباب الخلاف المستحكم بينه وبين سائر الزعماء الطرابلسيين أضف إلى ذلك ، أن رمضان السويحلى كان يبدو وقتذاك رجلا قوى الشكيمة يمكن الاعتماد عليه فى قيادة الجهاد فى طرابلس ضد الأعداء الطليان . بيد أن العزام لم يطل به المقام حينذاك بطرابلس لأنه ما لبث حتى غادرها مع نورى باشا فى غواصة ألمانية نقلتهما إلى بولا ، فذهب العزام مع نورى إلى الآستانة فى أغسطس ١٩٢٧ ، ثم أوفدته الحكومة العثمانية إلى برلين وقتيا لعمل الترتيبات اللازمة لإرسال عتاد الحرب إلى طرابلس . ووقع اختيار الحكومة عليه بعد ذلك حتى يرافق الأمير عثمان فؤاد عند مجىء الأمير إلى طرابلس فى مارس من العام التالى ، وذلك بوصفه مستشارا للقيادة العامة فى إفريقية الشمالية . وكما كسب العزام من قبل ثقة نورى باشا فإن الأمير العثمانى سرعان ما وضع فيه كل ثقته ، ثم انضم الضابط التركى عبد الرحمن نافذ بك إلى العزام وعثمان فؤاد وكان نافذ قد حضر مع الأمير رئيسا لأركان حربه ، فصار ثلاثتهم يهيمنون على شئون الجهاد فى العهد الجديد ، وفى هذه الحكومة الثلاثية كان العزام عقلها المدبر وصاحب الرأى المسموع فى مداولاتها . وظهر أثر توجيهات العزام فى كل ما وقع من حوادث منذ مجىء عثمان فؤاد إلى طرابلس حتى وقت أن غادرها .

وكان وصول عثمان فؤاد إلى طرابلس (فى مايو ١٩١٨) فى وقت استحكم فيه الخلاف بين السويحلى والسيد أحمد الشريف من جهة وبين السويحلى وأحمد بك المريض من جهة أخرى وعلى ذلك فقد قابل الأمير عثمان فؤاد السيد أحمد الشريف فى مرسى العقيلة ، ثم دعا الزعماء لمقابلته بمجرد نزوله فى مصراتة ، فحضر سليمان البارونى وغيره من الزعماء ، ولكن المريض امتنع عن المجىء إلى مصراتة كما أن أحداً من زعماء ترهونة لم يحضر هذا الاجتماع ، فتحدث عثمان فؤاد إلى الحاضرين فى ضرورة الوثوق بتركيا وهى الدولة التى عقدت العزم، على حد

قوله ، على تحرير القطر الطرابلسى من نير الطليان ثم أخذ يحثهم على الاتحاد . وكان واضحا من مبدأ الأمر أنه لامناص من العمل لتوحيد الجهود وجمع الكلمة وإزالة أسباب الخلاف بين الزعماء إذا أراد المجاهدون أن يصلوا بالجهاد إلى غايته . فانحصرت من ذلك الحين جهود عثمان فؤاد وعبد الرحمن عزام مستشار القيادة العامة فى حمل الزعماء على تناسى خلافاتهم وبذل الهمة فى النضال ضد الطليان المستعمرين ، وأخذ عثمان فؤاد يبذل قصارى جهده حتى يجمع بين السيد أحمد الشريف ورمضان السويحلى ، ولكنه لقى فى مسعاه معارضة شديدة من جانب السويحلى الذى أصر دائما لحكمة قد لايعرفها سواه على أن يحضر السيد أحمد الشريف بنفسه إلى مصراته ، معقل السويحلى المنيع ، ولا يصحبه عند حضوره إلا نفر قليل لحراسته . ومع ذلك فقد حرص عثمان فؤاد دائما على استمالة السيد أحمد الشريف وأكثر من إرسال الهدايا إليه وحاول فى الوقت نفسه أن يستميل المجاهدين السنوسيين فأكد لهم أنه لن يتوانى فى العمل مع السيد أحمد الشريف لطرد الأجانب جميعا من إفريقية الشمالية . ولكن هذه الجهود لم تثمر ثمرتها المطلوبة بسبب عداء رمضان شتيوى الظاهر للسنوسية وفضلا عن ذلك فإن الأمير عثمان فؤاد لم يكن موفقا فى جهوده التى بذلها من جانب آخر لإنهاء الخلاف القائم فى المنطقة الغربية ثم لاستمالة سليمان البارونى وأهل ترهونة إلى تأييد أهدافه . وسبب ذلك أن البارونى وأهل ترهونه كانوا جميعا يضجون بالشكوى من الحاكم العثمانى إسحاق باشا الذى جاء مع عثمان فؤاد إلى طرابلس . وكان الطرابلسيون يعرفون (إسحاق بك) أيام الحرب الليبية الإيطالية ضابطا شجاعا صاحب سمعة طيبة ، ولكن إسحاق بك ظل يجهل اللغة العربية . وعلاوة على ذلك فقد جاء فى هذه المرة مصمما على الاستئثار بكل سلطة مدنية وعسكرية فى المنطقة الغربية ، وتطايرت الإشاعات بأنه كان يحمل أوامر سرية تنص على أن ينصب أمير من البيت العثمانى على طرابلس يعطى كل السلطات المدنية والعسكرية لرجل يدعى يوسف بك .

وقد استبد إسحاق باشا بالحكم حتى أن عدد الذين شنقهم من الأهلين فى مدة لا تزيد على بضعة أسابيع بلغ أربعين ؛ وكان مما جعل العرب ينفرون منه زيادة على ما تقدم أنه اصطنع الغلظة فى معاملته الأهالى ، وأظهر غطرسة وكبرياء ، فكان من أثر ذلك كله أن انتهز سليمان البارونى هذه الفرصة وأخذ يعمل لاسترجاع السلطة التى سلبها منه إسحق باشا فأكثر من الإقامة بالعزيزية بدلا من الانزواء بالزاوية ، وأنشأ الصلات الوثيقة مع الزعماء فى ترهونة وغيرها وعند ما طلب إليه الأمير عثمان فؤاد أن ينشر الدعوة لتأييد العثمانيين ويجمع كلمة المجاهدين فى النضال ضد إيطاليا قابل البارونى فى الزاوية أحمد المريض وكثيرين من زعماء ترهونة وغيرهم من زعماء المنطقة الغربية وأكد لهم أن النصر حليف الدول الوسطى ، وأنه لن

تنقضى ثلاثة شهور حتى يكون المتمصرون قد احتلوا طرابلس ووواره . غير أن خطة البارونى هذه لم تأت بنتيجة لأن البارونى نفسه وأولئك الزعماء الذين استمعوا إليه فى ترهونة وغيرها كانوا جميعاً فى شدة التذمر من السلطة العثمانية التى يمثلها إسحاق باشا . وإلى جانب هذا الفشل لم يكن الأمير عثمان فؤاد موفقا كذلك فى تسوية العلاقات بين أحمد المريض ورمضان السويحلى .

ومع ذلك فإن عثمان فؤاد ، والأحرى أن نقول عبد الرحمن عزام ، ما كان ليرضى بنتيجة هذه المساعى المبدئية ، فعقد الأمير فى آخر يولية ١٩١٨ اجتماعا فى بوريات الحسون حضره زعماء ترهونة وسليمان البارونى وإسحاق باشا والشيخ محمد سوف وزعماء آخرون من المنطقة الغربية . وفى هذا الاجتماع طفق عثمان فؤاد يبين للمجتمعين مزايا توحيد الجهود حتى تنمو قوة المجاهدين الحربية ، وصار يحثهم على الإخلاص للحكومة العثمانية واحتمال التضحية بصبر لا ينفد ؛ ثم أظهر لهم استياءه من أن بعض الأهلين وزعمائهم ما زال بينهم وبين الطليان علاقات تجارية ، ووعد بوصول الإمدادات قريبا إلى طرابلس تحملها الغواصات من تركيا وأخذ المجتمعون بعد ذلك يدرسون مع الأمير العثمانى الطرق التى تكفل زيادة عدد الجنود اللازمين لتقوية الجيش فى الساحل الغربى ، وقبل المريض أن تتولى ترهونة بجيوشها مهمة الدفاع عن هذا الجزء . ولما كان الأمير يريد إزالة أسباب الخلاف بين ترهونة ومصراتة فقد اهتم بتعيين المناطق التى تستأثر كل منهما بالنفوذ المطلق بها ، فتقرر أن يكون لمصراتة القسم الشرقى من الحفارة ولترهونة القسم الغربى من وادى ترجت ، فيقيم مدير المنطقة الغربية فى قصر خيار بينما يقيم مدير المنطقة الشرقية فى قصر قربوللى . ولكن هذه المساعى لم تسفر كذلك عن نتيجة حاسمة ، لأن ورفلة كانت غير راضية عن تجنيد أبنائها . وفضلا عن ذلك فقد تطايرت الإشاعات بأن السويحلى لا يزال مصراً على الخلاص من غريمه القديم أحمد المريض ويتهمه بأنه كان على صلة بالطليان . وعلى ذلك فقد اضطر عثمان فؤاد إلى عقد اجتماع آخر فى غريان فى أغسطس ١٩١٨ واستأنف المجتمعون البحث فى وسائل إزالة الخلافات القائمة ، ووعد عثمان فؤاد بإبعاد إسحاق باشا وعزله ؛ وكان غرض الأمير أن ينشىء جيشاً نظامياً جديداً يحل محل قوات المجاهدين غير النظامية ، وأن يؤسس مركزا كبيراً لتموين هذا الجيش الجديد . وعنى المجتمعون بمسألة الضرائب وطرق توزيعها وجبايتها ، ثم نظروا فى أمر الاتفاق مع خليفة بن عسكر من زعماء القسم الغربى من الجبل حتى يزحف على ذهيبات أو يستولى على محصولات الأهالى الخاضعين للطليان فى هذه المنطقة . وكذلك اتخذ المجتمعون قرارات من أجل تجنيد الصالحين للخدمة العسكرية فى جميع المناطق والمضى فى الدفاع من

واحات الساحل الغربى ثم تأسيس جيوش جديدة نظامية . وفى سبتمبر ١٩١٨ حدث اجتماع ثالث فى زنزور لتبادل الرأى بين الزعماء والأمير العثمانى ، ثم تكرر عقد الاجتماعات التى عودت الزعماء أن يحضروا جميعا فى صعيد واحد يقلبون وجوه الرأى فيما يعرض لهم من أمور ويتخذون قرارات مشتركة ، وتغلبت عليهم العناية بتقديم مصلحة البلاد على مصالحهم الخاصة رويداً رويداً . فكانت هذه الاجتماعات التى أدار دفتها عبد الرحمن عزام بمهارة فائقة الأصل الذى تفرع عنه نظام الجمهورية أو « اتحاد الحرية » .

ويتفق ظهور فكرة الجمهورية مع وصول ضابط تركى جديد أصله من بنغازى لتسلم القيادة العليا فى إفريقية الشمالية من الأمير عثمان فؤاد هو عبد القادر باشا الغناى . وكان للسياسة التى عولت إيطاليا على اتباعها فى طرابلس فى هذه الظروف أكبر الأثر فى تمكين أصحاب فكرة الجمهورية من إنشائها من جهة ، ثم فى نجاح مساعى هؤلاء من جهة أخرى فى الحصول على (القانون الأساسى) من ايطاليا . فإنه لم يكد ينتهى اجتماع الزعماء الأخير حتى جاءت الأمير عثمان فؤاد الأخبار من تركيا بأن الحلفاء المنتصرين فى الحرب العامة قد ضيقوا الخناق على تركيا وأن سقوط الآستانة ذاتها بات متوقعا بين وقت وآخر ومن المتوقع لذلك استسلام الدولة العثمانية فى القريب العاجل . وعلى ذلك فقد أخذ عثمان فؤاد يتهيأ لمغادرة البلاد ثم طلب إليه أن يعود إلى الآستانة بكل سرعة . وكان من المنتظر فى هذه الظروف إذاً أن يدور البحث فى مصراته مقر الأمير ، فى مصير الجهاد بعد عودته ونوع الحكومة التى يجب إنشاؤها ، واستطاع عبد الرحمن عزام — وكان العزام صاحب الرأى دائماً كلما ادلهمت الأمور — أن يدعو لإنشاء جمهورية فى طرابلس تأخذ على عاتقها توحيد الصفوف ومواصلة الجهاد ، وقبل عثمان فؤاد ورمضان السويحلى إنشاء الجمهورية ، واستدعى الأمير الشيخ سليمان البارونى إلى مصراته ، وكان البارونى وقتذاك فى غريان فجاءه مسرعا وتحدث إليه الأمير فى ضرورة عودته إلى تركيا وفى نظام الحكومة المستقبلة ، ثم بادر البارونى بالاتصال برمضان السويحلى . وكان فى أثناء هذه المداولات أن قر الرأى نهائياً على تأسيس الجمهورية . ومع أن الأمير كان قد قرر السفر فوراً إلى تركيا فإنه لم يستطع مغادرة البلاد خوفا من وقوع الغواصة الألمانية المعدة لنقله فى أيدى أساطيل الحلفاء فى البحر الأبيض ، فمكث الأمير فى مصراته . وفى يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨ وصل عبد القادر باشا الغناى حتى يتسلم منه القيادة العامة ، فاستؤنفت المشاورات بكل همة .

على أنه مما يجدر ذكره أن آراء الزعماء كانت مختلفة بصدد اختيار نوع الحكم النهائى فى طرابلس . وكان فى أثناء تشاورهم أن اتجه فريق منهم إلى تأييد الزعامة السنوسية . ويبدو أن

هؤلاء كتبوا فعلا فى ذلك الحين إلى السيد محمد إدريس زعيم السنوسية وأمير برقة يعرضون عليه الحكم فى كل ليبيا . وكان مما عزز موقف هذا الفريق أن الغناى رفض قبول فكرة الجمهورية لاعتقاده بأن هـــذا النوع من الحكم متعذر فى بلد لم يبلغ أهله من التقدم درجة يستطيعون عندها أن يفهموا ما كانت تنطوى عليه الجمهورية من معان دقيقة . وعلاوة على ذلك فقد وجد من بين الزعماء فريق آخر أراد الاتفاق مع ايطاليا على أساس إجابة رغائب البلاد الوطنية . وكان من رأى الغناى أن ايطاليا لن تقبل الجمهورية وأن إنشاءها سوف يقف حجر عثرة فى سبيل التفاهم مع الطليان . وقد عاضد الغناى فى آرائه هذه كثيرون منهم أحمد المريض وغيره من زعماء ترهونة فضلا عن الشيخ محمد سوف ، وابن تنتوش وعدد كبير من الضباط العرب المجاهدين . غير أن كفة أنصار الجمهورية كانت الراجحة فى النهاية عند ما أصر رمضان شتيوى وعبد النبى بلخير وسليمان البارونى ومختار كعبار وغير هؤلاء على عدم الاتفاق مع ايطاليا إذا عارضت إنشاء الجمهورية ، وفضلوا متابعة النضال حتى إذا قدر لهم أن يغلبوا على أمرهم هاجروا إلى تركيا أو إلى أى بلد آخر . وكان رمضان السويحلى يميل كذلك إلى الاستعانة بانجلترة . ولما كان أكثر الزعماء لا يزالون على خلافهم القديم مع السنوسية فقد ظفرت فكرة الجمهورية بتأييد الأكثرية فى آخر الأمر . ولا جدال فى أن الجمهورية فى الظروف العصيبة التى كانت تمر بها البلاد وقتذاك كانت أفضل الحلول العملية ما دام متعذرا جمع كلمة القطر الليبى كله تحت زعامة السنوسية الموحدة ، ذلك بأن نظام الجمهورية الذى ابتكره عبد الرحمن عزام كان يكفل لكل زعيم من كبار الزعماء الطرابلسيين مكاناً بارزاً فى شئون الحكم وعلى قدم المساواة مع سائر إخوانه أعضاء هذه الجمهورية . وكان العزام يرجو من هذا النظام أن تختفى الخلافات الشخصية التى فرقت بين الزعماء مدة طويلة بين طياته ، فيستطيع الطرابلسيون أن يؤلفوا جبهة متحدة تستمتع بمكانة كبيرة فى البلاد وتتمكن من المفاوضة مع الطليان أو مواصلة النضال من أجل استنقاذ حقوق البلاد من أيدى المستعمرين . وكان مما اهتم به الزعماء عند البحث فى تشكيل الجمهورية معرفة موقف الطليان من أهدافهم الوطنية وإدراك حقيقة نواياهم .

وبالفعل قدم فى يوم ١٤ نوفمبر ١٩١٨ إلى القيادة العسكرية الإيطالية بالخمس وفد من الضباط العثمانيين يتألف من غالب افندى الضابط التركى ، وإبراهيم بن عباد مدير شجران والحاج أحمد القاضى وبعض مشائخ آخرين . وقال الضابط العثمانى إنه موفد من قبل عبد القادر باشا الغناى الذى انتخبه زعماء وأعيان طرابلس لمباشرة المفاوضات مع ايطاليا ، وأعلن غالب افندى أن الأهلين يرغبون فى أن يظل بأيديهم فقط تقرير مصيرهم عملا بالمبادىء التى أذاعها

ودرو ويلسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم طلب وقف القتال فى الحال . فأجاب القائد الإيطالى بالحسن هذا الطلب الأخير فوراً ودون انتظار أوامر حكومته حتى تجرى المفاوضات بسهولة ؛ واستؤنفت المفاوضات فى اليوم التالى ، فحضر غالب افندى وضياء بك وهو ضابط تركى آخر ورمضان السويحلى وإبراهيم بن عباد ومختار كعبار وزعماء آخرون من ترهونة وبنى وليد وزليطن ، ورفض الزعماء الدخول فى خطوط مراكز الطليان ، فقابلهم هؤلاء خارجها ، وقدم مختار كعبار كتاباً إلى القائد الإيطالى جاء فيه إن الطرابلسيين يخبرون الحكومة الإيطالية بلغة قاطعة أنهم قرروا إعلان الاستقلال وإنشاء الجمهورية وقرروا إجراء الانتخابات لاختيار نواب عن جميع المناطق يتألف منهم مجلس شورى الحكومة ومجلس جمهوريتها ؛ ويطلبون من ايطاليا أن تعترف بالحكومة الجمهورية ويهددون باستمرار القتال إذا رفضت الاعتراف بها ثم يعلنونها فى الوقت نفسه بأن الجمهورية على استعداد للدخول فى مفاوضات مع ايطاليا فى نظير أن تقبل الحكومة الإيطالية شروطا معينة فصلوها فى كتابهم ، وتعمل على تنفيذها . وقد حملت هذه الوثيقة إمضاءات رمضان شتيوى وسليمان البارونى وعبد النبى بلخير وأحمد المريض بوصفهم أعضاء الحكومة الجمهورية . ولما كانت الإجابة على هذا الكتاب تقتضى صدور تعليمات واضحة من حكومة رومة فقد اكتفى القائد الإيطالى بإيراد نص الهدنة التى قبلتها تركيا ، ثم انتهى الأمر بتحديد موعد لمقابلة أخرى فى يوم ٢١ نوفمبر . وصرح الوالى الإيطالى (غاريونى) Garioni فى الوقت نفسه بتبادل المتاجر بين الطليان والطرابلسيين المجاهدين .

ومع أنه لم يدر فى هذا الاجتماع حديث ما عن مبادىء ويلسن وتقرير المصير فقد استطاع الزعماء أن يدركوا أن إيطاليا ما كانت تريد أن تبذل مجهوداً حربيا كبيراً فى طرابلس وبات مما يهمها الآن أن تتفق مع المجاهدين كى تسوى مشكلاتها معهم سلمياً ، وقدشجع إدراك هذه الحقيقة الزعماء على المضى فى إنشاء الحكومة الجمهورية . فانعقد فى البويرات فى يوم ١٥ نوفمبر اجتماع كبير حضره رمضان السويحلى وعبدالنبى بلخير وأحمد المريض — وجاء مع المريض أربعة آخرون من زعماء ترهونة — ثم الشيخ محمدسوف وسليمان البارونى وإسحاق باشا وعبد القادر باشا الغناى . وفى اليوم التالى استأنف هؤلاء بحوثهم فى اجتماع آخر عقدوه فى القصبات ؛ وأعلنت فى ذلك اليوم (١٦ نوفمبر) نتيجة انتخابات مجلس شورى الحكومة ومجلس جمهوريتها ، وأسفرت اجتماعات الزعماء فى مسلاتة عن إنشاء الجمهورية بصورتها النهائية واختيار سليمان البارونى وأحمد المريض ورمضان السويحلى وعبد النبى بلخير أعضاء لمجلس الجمهورية ثم اختيار أعضاء مجلس شورى الجمهورية من الشيخ سوف بك رئيساً أول

والشيخ يحيي بك البارونى (شقيق سليمان البارونى) رئيساً ثانيا ، ومن اثنين وعشرين عضواً آخرين يمثلون الجبل وترهونة والجفارة ومسلاتة والساحل وزليطن ومصراتة وسرت وورفلة وفزان — مرزوق — والشاطى وجبل غدامس وغريان والعزيزية والزاوية ونواحى أربعة وحرمان وعجيلات ، ثم اختير مختار كعبار رئيساً لمالية الجمهورية . وفى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٤٨ أصدر مجلس الجمهورية بلاغا أذاعه فى أنحاء البلاد يعلن تأسيس الجمهورية ، جاء فيه مانصه : « قررت الأمة الطرابلسية تتويج استقلالها بإعلان حكومتها الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء وأشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد » ؛ ثم قرر المجلس إرسال بلاغ فى اليوم نفسه إلى الحكومات الإيطالية والإنجليزية والفرنسية وإلى الرئيس ويلسن .

وكان مستشار الجمهورية الطرابلسية عبدالرحمن عزام . وللمرة الأولى بدأ الطليان يدركون أهمية الجهود التى كان يبذلها العزام من أجل تأسيس حكومة موطدة فى طرابلس تستطيع مواصلة الجهاد واستخلاص حقوق الوطنيين . وكان الطليان قبل ذلك يعزون كل حركة يقوم بها المجاهدون إلى تدبير الضباط العثمانيين فى معسكرهم . والواقع أن عبدالرحمن عزام ظل على عهده يوجه خطوات الحكومة الجديدة ويبتكر من أساليب المناورة السياسية ما حمل الإيطاليين على الاعتراف بحقوق الوطنيين فى النهاية ، فقد توالت اجتماعات الحكومة الرباعية والجمهورية ، — ديسمبر ١٩١٨ — فى العزيزية والقصبة للبحث فيما ينبغى اتخاذه من تدابير سياسية وإدارية ، وطرق توزيع المال الذى خلفه العثمانيون فى مصراته وكذلك الأسلحة التركية . وكانت مهمة العزام الرئيسية فى هذه الاجتماعات الوصول إلى تسوية عادلة بصدد هذه الأمور جميعها ثم حض الزعماء على الاتحاد أمام الطليان حتى لاتذهب ريحهم . وكان من أثر الخطة الحكيمة التى أشار العزام باتباعها أن قبل رمضان السويحلى نسيان الماضى وكان اقتناع السويحلى ، وهو رجل عنيد ، بنبذ الخلافات والأحقاد الشخصية نصرا عظيما لسياسة العزام الجديدة . فبعث السويحلى بهدية كبيرة من الذخائر إلى أحمد المريض صاحب ترهونة ، وفضلا عن ذلك فقد أرسل رسولا إلى أمير السنوسية السيد محمد إدريس يعرض عليه نبذ المنازعات السابقة والصفح عن الماضى ؛ وقد عزا السويحلى هذه المنازعات إلى تدابير الأتراك ومكائدهم ، وصار يرجو من عبد الجليل سيف النصر أن يكون وسيط الصلح بينه وبين السيد محمد إدريس . وحار الطليان فى تفسير أسباب هذا النشاط الجديد ، فقال قائل منهم إن السويحلى كان يرجو تسوية مشكلة الفزان مع السنوسية بعد أن خرج الأتراك من الميدان ، وصار من المتعذر عليه الاعتماد على مساعدتهم له ؛ ومن قائل إن السويحلى كان يعمل

لتجنب الاصطدام مع السنوسيين وحلفائهم إلى مؤازرته فيكسب بذلك سمعة طيبة عند مواطنيه ويميل هؤلاء على معاضدة حكومته لأن السنوسية على الرغم من تلك الحواجز التى أقامها الزعماء الطرابلسيون حتى يحولوا دون انتشار نفوذها السياسى فى بلادهم كان لها أتباع كثيرون فى أكثر نواحى طرابلس والفزان ، وكان أميرها السيد محمد إدريس قد أصاب نجاحا ملحوظا بفضل ماأظهره من حنكة سياسية فى تسوية علاقاته مع إيطاليا بالطرق السلمية وبدأ يدعم أركان إمارته فى إجدابية .

ومهما يكن من حقيقة الدوافع التى أملت على السويحلى هذه الخطة ، فكلها كانت فى غاياتها القريبة والبعيدة دوافع طيبة دلت على سداد الرأى بدرجة جعلت الطليان يشعرون أن العزام وحده هو المسئول عن هذه السياسة الجديدة . ثم تجددت مخاوفهم من أن يكون الغرض من نسيان المنازعات القديمة وائتلاف القلوب إنما هو إنشاء دولة كبيرة فى إفريقية الشمالية كانوا يرجحون أن ينعقد لواء زعامتها للسنوسية وأميرها السيد محمد إدريس ، وأن المساعى التى يبذلها العزام لتكوين جبهة متحدة بزعامة السويحلى فى طرابلس ماهى إلا خطوة تمهد لإنشاء هذه الدولة الإفريقية . وكان مما زاد من قلق الطليان بطرابلس — أو المستعمرة على حد قولهم — أن بدأت الحكومة الجمهورية أعمالها بمناورة سياسية بارعة أدار العزام دفتها بمهارة عظيمة من أجل إجبار إيطاليا على الاعتراف بحقوق العرب كاملة . ويمكن إدراك مبلغ ماوصلت إليه أساليب هذه المناورة السياسية من تدبير محكم ، إذا شئنا أن نتتبع تلك الخطوات التى سبقت إصدار القانون الأساسى بطرابلس ، وهو القانون الذى وضع أسس نظام الحكم الذاتى الجديد وكفل للعرب « كمواطنين » لبقية رعايا إيطاليا وعلى قدم المساواة معهم كافة ما كان يتمتع به الطليان أنفسهم من حقوق قانونية فى المملكة الإيطالية ، وذلك بعد جهاد لم يزد على ثمانية أعوام فقط .

فقد بدأ زعماء الجمهورية هذه المناورة السياسية بأن أخذوا يعلنون استعدادهم لمفاوضة الحكومة الإيطالية على شريطة أن تعترف هذه الحكومة بخطأ أعمالها السابقة وأنها أساءت التصرف مع أهل البلاد وعملت على استعبادهم . ولما كانت إيطاليا فى ذلك الحين — وكما سيأتى بيانه — ترغب فى الوصول إلى اتفاق سلمى مع الطرابلسيين فقد رحبت الحكومة المحلية بعروض المفاوضة التى أسمتها « اتجاها جديداً » ، وكان أكثر المرحبين بهذا الاتجاه الجديد أعضاء المكتب السياسى الإيطالى فى طرابلس ؛ فلما ثبت لدى الجمهورية استعداد الحكومة المحلية للمفاوضة تقدم الزعماء فى مؤتمر عقدوه فى العزيزية بطلب جديد لم يكن يتوقعه الطليان البتة هو أن ينال الطرابلسيون (الجنسية الإيطالية) وأن يستمتعوا بكل

ما تعطيه هذه الجنسية من حقوق ، وكان هذا المطلب فى نظر الحكومة الإيطالية مطلبا خطيرا قال وزير مستعمراتها وقتذاك (كولوزيمو) . إن الغرض من التقدم به لم يكن سوى كسب الوقت وذلك حتى يتم المجاهدون استعدادهم لاستئناف النضال ضد إيطاليا ، فانقطعت المفاوضات فترة من الزمن ؛ وعمد الطليان إلى استخدام القوة وكان من رأى الوالى الإيطالى فى طرابلس (غاريونى) فى أوائل فبراير ١٩١٩ أنه إذا قررت إيطاليا اللجوء إلى العمليات العسكرية فإنه لضمان نجاح هذه العمليات يجب أن يكون هدفها احتلال العزيزية ووضع تنظيم سياسى وعسكرى وثيق لمنطقة الجفرة الغربية واحتلال سرت ثم مصراته كذلك حتى يتسنى للحكومة المحلية تهدئة طرابلس الشرقية . وعلاوة على ذلك فإنه من الواجب على الحكومة المحلية أن تنشىء علاقات وثيقة مع عبد الجليل سيف النصر من أجل تنظيم واحات الجفرة والفزان . غير أن هذا البرنامج السياسى والعسكرى كان برنامجا واسعا لم تستطع الحكومة المركزية فى روما إرسال القوات والنجدات اللازمة لتنفيذه فاقتصرت أعمال الحكومة المحلية على بعض مناوشات قليلة الشأن كانت سببا فى إثارة حملة عنيفة ضد الحكومة من جانب الصحافة الاشتراكية فى ايطاليا . واضطرت الحكومة المحلية إلى بذل جهود أشد وأقوى ، ومع ذلك فإن كل ما أسفرت عنه هذه الجهود كان اشتباكها مع المجاهدين فى معركة غير حاسمة فى ٨ فبراير ١٩١٨ ثم وقفت العمليات العسكرية بعد ذلك ، ولم يجد غاريونى الوالى الإيطالى مناصا من استئناف المفاوضة مع زعماء الجمهورية .

وكانت المطالب التى تقدم بها غاريونى إلى حكومة روما على اعتبار أنها أقل ما كان يقبله الوطنيون أساسا للاتفاق مع الحكومة ، تتلخص فى الأمور الآتية : (أولا) المساواة التامة أمام القانون بين العرب والطليان فى طرابلس ، على أن يحتفظ العرب فى كل ما يتصل بأحوالهم الشخصية وقواعد الإرث بما تكفله لهم الشريعة الإسلامية من حقوق ، (ثانيا) . احترام الحرية الشخصية فى حدود القانون ، (ثالثا) احترام حقوق الملكية والإقامة فى حدود القانون كذلك ، (رابعا) تمتع العرب بحق الدخول فى كل ما يعقد من مسابقات لأجل الانخراط فى سلك الوظائف المدنية والعسكرية فى البلاد على قدم المساواة مع الطليان فضلا عن استمتاعهم بحق ممارسة الأعمال الحرة ، (خامسا) حصول مجلس الحكومة المركزى والمجالس المحلية لما تصدر هذه المجالس من قرارات نالت أكثرية أصوات أعضائها ، (سادسا) سريان قرارات المجالس البلدية مادامت هذه تنال أكثرية أصوات الأعضاء الذين يؤلفون المجالس البلدية (سابعا) تمتع الأفراد الذين تتوفر فيهم شروط الانتخاب بممارسة حقوق الانتخاب . (ثامنا) التوسع فى اشتراك الوطنيين فى إدارة شئون القضاء على أن يكون اشتراكهم فعليا فى هذه الإدارة .

وذكر غاريونى أن هذه المطالب كانت فى الواقع مطالب معتدلة وأن الليبيين كانوا فى العهد العثمانى يستمتعون بحقوق أوفى من هذه ، وفضلا عن ذلك فإن ما يقترحه (غاريونى) الآن على حكومة رومة كان — على حد قوله — أقل بكثير مما وعد به الطليان أهل البلاد عند احتلالهم طرابلس فى عام ١٩١١ ؛ فهناك ذلك المنشور الذى أذاعه وقتذاك الأميرال (بوريا ريشى) Borea Ricci فى ١١ أكتوبر ١٩١١ ووعد فيه الطرابلسيين بأنهم سوف يتمتعون بكل الحقوق التى يتمتع بها الطليان أنفسهم ، وقال إنه ماكان يجوز البتة أن تفكر حكومته فى إمكان معاملة الطرابلسيين بما تعامل به أهل بلادها ، وهناك كذلك منشور الجنرال كانيفا قائد الحلة ، وهو المنشور الذى أصدره هذا القائد فى ١٣ أكتوبر من العام نفسه ووعد فيه الطرابلسيين بأن زعماءهم فقط هم الذين سوف يحكمونهم تحت رعاية دولة إيطاليا ، فتضمن هذا المنشور وعداً صريحا بإنشاء الحكومة الذاتية . وعلى هذا الأساس الجديد إذن استؤنفت المباحثات مع الحكومة الجمهورية . وكان معنى قبول المفاوضة مع الجمهورية الطرابلسية أن ايطاليا صارت تعترف بهذه الحكومة الوطنية .

وفى مارس ١٩١٩ حدث أول اجتماع لبدء المفاوضات فى مكان يقع إلى الجنوب من زنزور ، فحضر الجنرال تارديتى رئيس المكتب السياسى لحكومة طرابلس ، ولكن كبار الزعماء مالبثوا حتى تخلفوا عن الحضور ، واضطر تارديتى إلى تأجيل الاجتماع ، وبدأت من ثم مناورة سياسية من جانب الزعماء الوطنيين ومستشارهم العزام الكبير الذى كان ملما الإلمام كله بحروجة مركز المفاوض الإيطالى واضطراره إلى المفاوضة مع الجمهورية لأسباب سوف يأتى ذكرها . وكان غرض العزام إضعاف روح الطليان المعنوية وشن حرب أعصاب خفية قد تيسر على المفاوضين العرب انتزاع ما يريدونه من حقوق فى مقدمتها الجنسية الإيطالية وإنشاء الحكم الذاتى فى طرابلس . وعلى ذلك فقد تكررت الاجتماعات بعد ذلك وحضرها تارديتى وغيره من كبار الطليان وتخلف دائما عن حضورها كبار الزعماء الطرابلسيين ؛ واستبد القلق بالطليان حتى أنهم صاروا يخشون من أن يكون غرض الجمهورية كسب الوقت فحسب إلى أن يتم استعدادهم فيستأنفون القتال المرير ضد المستعمرين الطليان فى بلادهم . وعلى ذلك فقد وجدت الحكومة المحلية فى آخر الأمر أنه لامناص من أن ترسل إنذاراً إلى الهادى كعبار تهدد بزحف قواتها على الجمهورية إذا عجز الزعماء عن الوصول إلى نتيجة حاسمة حتى آخر شهر مارس . غير أن هذا الإنذار لم يفت فى عضد المجاهدين ، فانقضى يوم ٣١ مارس دون أن يصل هؤلاء إلى النتيجة الحاسمة المنشودة ، ولم تستطع الحكومة المحلية أن تحرك ساكنا بل إنه عند ما استؤنف الاجتماع فى يوم ٣ إبريل لم يحضر سوى الهادى كعبار وعلى بن تنتوش

وسويح الشتيوى ومحمد القاضى ، واضطر المفاوض الإيطالى إلى قبول اعتذار الهادى كعبار الذى أبدى أسفه لعدم استطاعة كبار الزعماء الحضور .

وعند ما طلب الطليان من الحاضرين بيانا عن مطالبهم الأخيرة اكتفى الهادى كعبار بأن أحالهم إلى المذكرة التى قدمها المجاهدون قبل ذلك فى اجتماع الخمس فى ١٥ نوفمبر من العام السابق ، وهذه لم تكن تتضمن سوى تهديد المجاهدين باستئناف النضال ضد إيطاليا إذا هى رفضت الاعتراف بالجمهورية الطرابلسية ، ورفضت التعهد بتنفيذ بضعة شروط أخرى متعلقة بإعلان الهدنة وتنظيم المعاملات بين الجمهورية والحكومة المحلية وعدم تسليم الأسرى من العثمانيين والألمـــان والنمساويين الذين اعتبرتهم الجمهورية ضيوفاً عليها إلا إذا ارتأت هى ذلك .

ووجه الأهمية فى إثارة موضوع تلك المذكرة فى هذا الاجتماع أن الحكومة الإيطالية ظلت ممتنعة عن الرد عليها من وقت تقديمها ، وما كان الوطنيون فى حاجة ماسة إلى رد الحكومة الإيطالية على مذكرتهم القديمة لأن قبول الطليان الدخول فى مفاوضات مع أعضاء حكومة الجمهورية كان اعترافاً صريحاً من جانبهم بوجود هذه الجمهورية وما كانت تباشره هذه الجمهورية من سلطات وتتمتع به من اختصاصات أوسعها وأهمها ولاشك المفاوضة باسم البلاد مع العدو لتقرير مصير القطر الطرابلسى بأجمعه . وعلى ذلك فقد كان الغرض من هذه المناورة أن يستدرج الطليان إلى قبول مبدأ الحكم الذاتى رسمياً كأســـاس للمفاوضات التالية المثمرة ؛ وأدرك المفاوضون العرب ما يريدون عند ما ألح المفاوض الإيطالى على الهادى كعبار أن يوضح رأيه الشخصى حتى يتسنى للحكومة الإيطالية أن تعرف ما إذا كان ممكنا الاستمرار فى المفاوضة أو أنه من الخير إنهاء المفاوضات وقطعها . وعندئذ ذكر الهادى كعبار أن الأهلين إنما يريدون العيش فى ظل الجمهورية المستقلة ؛ وأما إذا تعذر ذلك فمن المحتمل أنهم يرضون بالحكم الذاتى فى إطار قانونى يحفظ حقوقهم القومية ؛ وإذا كان الغرض تهدئة البلاد فقد يتسنى اتخاذ منح الجنسية (الإيطالية) للطرابلسيين أساساً للمفاوضة على شريطة أن يتبع منح الجنسية كل ما يترتب على ذلك قانونا ، فتصبح طرابلس ولاية كسائر ولايات المملكة الإيطالية لها ما لهذه الولايات من حقوق وعليها ما عليها من التزامات وواجبات من غير تفرقة فى المعاملة وعلى قدم المساواة المطلقة مع الولايات الإيطالية . على أن الهادى كعبار وقد عاد الآن مرة أخرى يعالج نفس الموضوع الذى سبب قطع المفاوضات السابقة ، ظل يرى مع ذلك كله أن تقرير الحكم الذاتى لطرابلس إنما هو أمر أكثر اتفاقا مما عداه من أمور وتلك المبادىء السامية التى أذاعها قادة الأمم المنتصرة على العالم قاطبة . وفضـلا عن ذلك فإن تقرير الحكم الذاتى

يتفق ونصوص وروح معاهدة أوشي (لوزان) السابقة .

تلك كانت المناورة السياسية البارعة التي أدار العزام دفتها ، ولم تكن تلك اللغة التي صاغ بها الهادى كعبار وزملاؤه وزعماء الجمهورية الطرابلسية مطالبهم إلا من صنعه ، ولما لم يجد الطليان مناصا من قبول المفاوضة على أساس هذه القواعد الجديدة ، وبدأ البحث الجدى بين الفريقين لوضع صيغ الاتفاق النهائي ، وجد العزام أن الوقت قد حان حتى يحضر بنفسه اجتماعات المفاوضة . وعلى ذلك فإنه بمجرد أن بدأت مباحثات (شلية الزيتونى) فى ٨ إبريل ١٩١٩ كان العزام الروح المسيطرة على المفاوضات برمتها وبذل جهوداً جبارة حتى يصل بالمفاوضات إلى بر السلامة .

وقدم الزعماء الطرابلسيون مطالبهم بعنوان (مواد دستورية يعرضها مجلس الجمهورية الطرابلسية لتأسيس إمارة حرة بطرابلس الغرب تحت إشراف الحكومة الإيطالية على أن تكون الشريعة الغراء قانونها الأساسى) ، وكان عدد المواد المقدمة ستة تنص على ضرورة أن ينصب أمير مسلم على الإمارة المزمعة ينتخب لمدة ثلاثة أعوام ، وأن يؤسس برلمان ثلاثة أرباع أعضائه من المسلمين والربع الباقى من الطليان والإسرائيليين ، وأن تجعل الخدمة العسكرية إجبارية ويؤلف جيش وطنى من خمسة آلاف جندى ، وأن تسك عملة عربية ، ويصنع علم وطنى للإمارة ، هذا إلى جانب جعل التعليم الابتدائى إجباريا وتأسيس محاكم مختلطة مهمتها أن تفصل فيما يحدث من قضايا بين العرب والطليان . وفى نص لاحق جاء مامعناه أن إمارة طرابلس تعترف للحكومة الإيطالية بأنها تحت إشرافها وتقبل أن يشرف على سياستها وشئون الحكم بها ممثل من قبل الحكومة الإيطالية .

وفضلا عن ذلك فإنها تقبل أن ينشىء الطليان مراكز عسكرية فى البلاد ويقوم رجال السلك الدبلوماسى الإيطالى بتمثيل المصالح الطرابلسية فى الخارج ، ولامانع من أن تسك الحكومة عملة إيطالية على شريطة ألا تحمل رسم الصليب ، ثم رضيت بأن يرأس إيطاليون مجلس الخارجية وأن يعين إيطاليون كذلك للإشراف على إدارات المالية والجمارك والمعارف والعدل ، ووعدت بالمحافظة على مصالح الطليان الاقتصادية . وعلاوة على ذلك تمسك الطرابلسيون بأن يلقى مواطنوهم نفس مايلقاه المواطنون الطليان أنفسهم من معاملة فى أنحاء المملكة الإيطالية على قدم المساواة ومن غير تفرقة ، ثم اختتم هذا النص اللاحق بشرط احتياطى فحواه أن الحكومة أو إمارة طرابلس الحق فى أن تأخذ بكل ما يصدره مؤتمر الصلح العام من قرارات قد لا تتضمنها نصوص هذه المواد الأصلية واللاحقة مادامت تجد فى التمسك بهذه القرارات فائدة تعود عليها .

ودارت مناقشات كثيرة بين الفريقين المتفاوضين ، ورفض المندوبون الطليان مبدأى الاستقلال والحكم الذاتى ثم هددوا بقطع المفاوضة عندما أخذ الزعماء الطرابلسيون يتحدثون عن تلك المبادىء التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية الكبرى لتقرير حقوق الإنسان وإطلاق الحرية للشعوب حتى تعيش محررة من كل قيد فيختار الإنسان نوع الحكم الذى يحقق مصلحته ويلائمه . وعندئذ طلب الزعماء تأجيل الاجتماع ، وظهر أثر العزام بعد ذلك عند ما شرع الزعماء الطرابلسيون يوضحون مطالبهم ويقدمون للمفاوض الإيطالى المذكرات التى تشرح وجهة نظرهم ؛ فقد حدث عند استئناف المفاوضة فى يوم ١٠ إبريل أن تمسك الزعماء بتنصيب أمير مسلم يجمع فى شخصه مظاهر السلطة الدينية فى الإمارة المزمعة . ولكن الطليان أصروا على رفضهم وطلب الزعماء أن يرجع المفاوض الإيطالى إلى الحكومة المركزية فى رومة نظرا لخطورة هذه المسألة . ثم انبرى الهادى كعبار يعد المذكرات التى تعرض حجج المفاوضين العرب ، وقدم مذكرة تحت عنوان (مذكرة الحكومة الطرابلسية لبيان الأسس الضرورية التى يجب أن يقوم عليها الاتفاق لتجنب الحرب والوصول إلى حل جميع الصعوبات وذلك حتى يبدأ عهد من السلام والصداقة مع الحكومة الإيطالية) وقد تضمنت هذه المذكرة مطالبة الأمة الطرابلسية بالحكم الذاتى كحق من حقوقها الطبيعية ، ثم استعداد حكومة الجمهورية لأن تقبل « صلحا يحفظ لدولة إيطاليا شرفها بين الدول ولكن على شريطة ألا يكون فى هذا الصلح أى مساس باستقلال طرابلس » . وأما إذا كانت إيطاليا ما تزال منساقة إلى استعمار طرابلس بسبب ما تراه من احتلال الانجليز للقطر المصرى ، فواجب إيطاليا أن تذكر أن زمان الاستعمار قد ولى وانقضى وأن ما كان يحدث فى السنوات الماضية أصبح حدوثه مستحيلا فى هذه السنوات العشرين من القرن الحالى ولا يمكن بحال أن تسود فى هذا العصر تلك المبادىء القديمة التى تأثر بها رجال السياسة فى القرن التاسع عشر ناهيك بما يحدث فى العالم أجمع من تطور ظاهر نحو المبادىء الحرة والمثل العليا الديمقراطية .

وقد دهشت الحكومة الإيطالية عندما أبلغت هـــذه المذكرة وعدت عن حق هذه الأقوال « اتجاهات جديدة » ، ثم عزت هذا التوجيه الجديد إلى العزام وحده ؛ وكان فى نيتها أن ترسل إلى الزعماء العرب إنذارا يحمل اعتراضها على تعيين أمير أو إنشاء إمارة ، وتهدد فيه الزعماء بالحرب إذا تعذر عليهم الوصول إلى اتفاق نهائى معها فى مدة وجيزة . غير أن الحكومة الإيطالية كانت ما تزال مشغولة وقتذاك بمفاوضات الصلح العام فى أوروبا وكان رئيس وزارتها فى باريس ، ولا قبل لها بامتشاق الحسام من جديد ضد المجاهدين العرب فى وقت كانت فيه قواتها فى ليبيا قليلة . فضلا عن أنها كانت تطمع وقتذاك فى الحصول من

الدول على حق الانتداب على بلاد الأناضول فى آسيا الصغرى . وعلى ذلك فقد أرسلت تعليماتها إلى الوالى (غاريونى) بأنها تقبل فكرة منح الجنسية الإيطالية التى وافق عليها غاريونى نفسه وإنما على شريطة أن يستقر السلام ويستتب الهدوء فى البلاد وتسودها السكينة فى نظير ذلك . وبمجرد أن وافقت رومة على منح الجنسية الإيطالية للطرابلسيين وجه غاريونى الدعوة إلى أعيان طرابلس والواحات الخاضعة للطليان حتى يحضروا جميعا إلى قصر الحكومة بمدينة طرابلس فى يوم ١٤ إبريل . وعند ما اكتمل عقدهم أنبأهم غاريونى بأن حكومته قد منحت الجنسية الإيطالية للطرابلسيين وأقرت مبدأ المساواة التامة المطلقة أمام القانون بين الطرابلسيين والطليان . ثم أبلغ غاريونى قرار الحكومة بصورة أدق إلى زعماء الطرابلسيين وأعيانهم وكان (بلاغ) الحكومة يحمل تاريخ ٤ مارس ١٩١٩ ويشتمل على أحد عشر مبدأ . (أولا) اعتراف الحكومة الإيطالية بالجنسية الإيطالية للعرب فى طرابلس ولكل من ولدوا بها ، كما أن فى استطاعة هؤلاء أن يحصلوا على الجنسية فى إيطاليا ذاتها بشروط وفق إجراءات رسمية معينة . (ثانيا) تقرير مبدأ المساواة المطلقة أمام القانون بين الطليان والطرابلسيين على أن يترك للطرابلسيين قوانينهم الخاصة بالأحوال الشخصية ونظام الإرث (ثالثا) ضمان الحرية الشخصية وعدم الاعتداء على المساكن واحترام حقوق الملكية وتقرير حرية التعليم والاجتماع والصحافة والانتقال والإقامة وتقديم العرائض « للبرلمان » الوطنى ، وكل ذلك فى حدود القانون العام ؛ (رابعا) احترام الشعائر الدينية والتقاليد والعادات (خامسا) الاعتراف بحق « المواطنين » الجدد من عرب وإسرائيليين فى أن يتقدموا إلى المسابقات التى تعقدها الحكومة لملء الوظائف المدنية والعسكرية المحلية على شرط أن يكون لديهم المؤهلات والشهادات اللازمة .

وفضلا عن ذلك اعترفت إيطاليا بحق هؤلاء « المواطنين » الجدد فى مزاولة المهن الحرة كالطب والهندسة والمحاماة وما إلى ذلك فى إيطاليا ذاتها ماداموا حاصلين على الشهادات والإجازات اللازمة (سادسا) جعل الخدمة العسكرية اختيارية (سابعا) تعميم الضرائب بحيث يدفعها جميع الأشخاص المقيمين بالقطر الطرابلسى ، على أن تخصص حصيلة هـــذه الضرائب للإنفاق على مرافق البلاد ذاتها وإدارة شئونها ، وعلاوة على ذلك فإن موافقة المؤسسات (أو المجالس) الوطنية المنتخبة ضرورية قبل البت فى نوع الضريبة التى يراد جبايتها وفى طرق توزيعها (ثامنا) اشتراك جميع المواطنين فى أعمال الإدارة العامة عن طريق مجالس البلديات وبفضل تقرير حق الانتخاب وفق شروط سوف يعلن عنها ، (تاسعا) إصلاح إدارة القضاء طبقا للعادات المحلية السائدة وقواعد الشريعة الغراء ، وعلى

أن يشترك فى هذه الإدارة العرب والطليان على السواء فيشغل الفريقان وظائف قضائية هامة (عاشرا) قيام الحكومة بأعباء التعليم المدنى وفتح أبواب هـــذا النوع من التعليم لجميع الوطنيين ، وإصلاح معاهد العلم الموجودة فعلا حتى يتمكن أهل البلاد من ارتياد المدارس الثانوية وكذلك المدارس العالية عند إنشائها ثم جعل التعليم الابتدائى إجباريا (أحد عشر) تعيين لجنة مؤلفة من أعضاء نصفهم عرب والنصف الآخر من الطليان والإسرائيليين مهمتها وضع الأنظمة اللازمة لتنفيذ هذه الشئون طبقا للمبادىء الأساسية المذكورة فى هذه البنود ولهذه اللجنة كذلك أن تقترح تغيير القوانين المعمول بها ، وقد تعهدت الحكومة بتشكيل هذه اللجنة فوراً .

وهكذا تكون الحكومة الإيطالية قد قبلت مطالب الزعماء العرب الأساسية ، وتكون قد تكللت « مناورة » العزام السياسية بنجاح . وعند اجتماع الزعماء فى فندق بن غشير فى ١٦ إبريل ١٩١٩ قبل هؤلاء مبدئيا مقترحات الحكومة وأخذوا يناقشون تفصيلات الحكم والإدارة كتعيين المتصرفين والقائمقامين . وكان من رأيهم أن يعهد بأمر تعيين هؤلاء الإداريين إلى لجنة مؤلفة من ثمانية من العرب يعينهم (المجلس العام) برئاسة الوالى ؛ وكان أكثر الزعماء ظهوراً فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل المفاوضات خصوصاً رمضان السويحلى ، وقد استطاع رمضان أن ينال احترام الطليان الذين سرعان ماتناسوا خديعته لهم فى معركة قصر بوهادى القديمة ، وحدث ذلك كله بفضل مؤازرة العزام ونصحه له ثم إرشاده إلى الطريق الذى كان من واجبه أن يسلكه . وفى صبيحة يوم ٢١ إبريل ١٩١٩ انعقد آخر اجتماع للمفاوضين العرب والطليان فى شلية الزيتونى ، لحضر جميع الزعماء عدا عبدالنبي بلخير الذى اعتذر لمرضه ولو أنه أرسل موافقته مقدما على كل مايقرره زملاؤه . وفى هذا الاجتماع أبدى سليمان البارونى سروره من نتيجة المفاوضات ولكنه طالب فى الوقت نفسه بإيضاحات معينة لاغنى عنها لإقناع أهل الجبلة بمزايا هذا الصلح ، وألح بقية الزعماء فى ضرورة الاطلاع على القانون الأساسى مترجما إلى العربية ، وفضلا عن ذلك فإن العرب مالبثوا حتى قدموا مطالب أخرى بينما رفضوا المناقشة فى المطالب التى قدمها الطليان كاحتلال المناطق وإطلاق سراح الأسرى قبل أن يصدق الملك على القانون الأساسى . وفيما عدا ذلك وافق العرب على قواعد الصلح الذى صار يعرف من ذلك الحين باسم صلح بنيادم . وفى اليوم التالى جاء وفدمنهم كان من أعضائه خليفة بن عسكر إلى مدينة طرابلس إظهاراً لرضاء الزعماء عن هذا الصلح وقبولهم له ، وبعد أربعة أيام سلم العرب بعض الأسرى إظهاراً لثقتهم فى الحكومة المحلية ، ثم طلبوا تعويض العرب عن الخسائر التى تكبدوها أيام

القتال ، وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية إلى جانب اللغة الإيطالية وسحب العملة التركية ومنعها من التداول وإرجاع المهاجرين الذين لجئوا إلى تونس وبعض مطالب أخرى. فدارت مفاوضات جديدة حول هذه المطالب وأبدى العزام مرة أخرى مهارة عظيمة فى أثنائها فاستطاع العرب أن يفوزوا بأكثر مطالبهم ، وحصر العزام جهوده الآن فى كسب ثقة الطليان من ناحية العرب واطمئنانهم إلى أن هؤلاء سوف يبادرون بتنفيذ جميع وعودهم من اللحظة التى يصدر فيها القانون الأساسى . وكان غرض العزام أن يعجل الطليان بإصدار هذا القانون حتى يطمئن العرب إلى نتيجة جهودهم ، وطفق العزام يؤكد أن الطرابلسيين باتوا الآن ضد الثورة — « لأن الثورة — على حد قوله — إذا حدثت فى هذه الظروف فإنها تكون بمثابة الثورة ضد الحرية بل وضد أنفسنا » . وفى يوم ٣٠ مايو ١٩١٩ دخل الزعماء المجاهدون مدينة طرابلس وسط مظاهر الفرح والابتهاج ، وكان فى طليعتهم العزام إلى جانب سائر كبار الزعماء كأحمد المريض وسليمان البارونى وعلى الشنطة وغيرهم . وفى آخر مايو صدق الملك فكتور عمانويل الثالث على القانون الأساسى وأذيع النبأ فى منشور صدر فى أول يونية ، وخطب الوالى غاريونى فى اليوم نفسه فقال إن هذا اليوم المجيد (أول يونية) الذى أعلن فيه القانون الأساسى فى طرابلس هو ذاته يوم الاحتفال ببدء حركة (الإحياء والبعث) الوطنية وعيد الدستور فى إيطاليا .

ولا جدال فى أن غاريونى كان خالص النية فيما قاله ويعتزم المضى فى تنفيذ القانون الأساسى بكل أمانة ، وكان لا يقل عنه فى ذلك الجنرال تارديتى المفاوض الإيطالى الآخر ورئيس المكتب السياسى لحكومة طرابلس . واستمتع الرجلان ، غاريونى وتارديتى ، بسمعة طيبة عند العرب ، وأبدى هؤلاء من جانبهم كل استعداد للتعاون مع الحكومة المحلية مادامت معتزمة تنفيذ القانون الأساسى ولا تتلكأ فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك . وعلى ذلك فإن نجاح نوع الحكم الجديد كان يتوقف فى واقع الأمر على مدى إخلاص الحكومة المركزية فى رومة ذاتها ورغبتها فى منح الطرابلسين تلك الحقوق وإعطائهم الضمانات التى نص عليها القانون الأساسى ، ولكن موقف الحكومة الإيطالية المركزية فى رومة سرعان ما أصبح الصخرة التى تحطم عليها كل أمل فى استمرار الهدوء والسلام فى طرابلس . وكان لذلك عدة أسباب ترتد فى أصولها إلى ذلك السبيل الذى أرغمت الحكومة الإيطالية إرغاما على أن تسلكه فى القطر الليبى بأجمعه من وقت ابتداء الحرب العالمية الأولى إلى نهايتها . فقد غلت مشغولية الحرب الأوروبية يد إيطاليا واضطرتها فى برقة إلى الدخول فى مفاوضات الزويتينة وعقد اتفاق عكرمة المؤقت ، وقد تقدم فى الفصل السابق كيف أن الطليان كانوا

يبطنون غير مايظهرون عندما أبرموا اتفاق عكرمة ثم معاهدة الرجمة بعد ذلك ، وكيف أن زعامة السيد إدريس وقيادة السنوسية العتيدة كانت فى ذلك القطر الشقيق خير أداة لمناوأة أهداف الطليان وهدم آمالهم ؛ وكان كل ما جناه الطليان من اتفاقاتهم مع السنوسية أن حصلوا على تلك الفسحة من الوقت التى كانت السنوسية بحاجة ملحة إليها كذلك للأسباب التى سبق ذكرها فى موضعها والتى مكنت الطليان من أن يوجهوا كل عنايتهم إلى طرابلس . بيد أن الطليان لم يستطيعوا مع ذلك كله أن يغيروا من الأوضاع القائمة فى طرابلس شيئاً لصالحهم بسبب ما أنشأه المجاهدون العرب من منظمات ومؤسسات وطنية . وكان من الواضح أن الطليان لن يستطيعوا بسط سلطانهم على طرابلس إلا إذا جلبوا الإمدادات العسكرية العظيمة من إيطاليا ، ولم يكن جلب هذه النجدات أمراً هيناً ميسوراً بسبب حاجة إيطاليا إلى الجنود والعتاد والمال للذود عن حياضها فى أوروبا .

وعلى ذلك فقد التزم الوالى الإيطالى أميليو خطة عدم التوسع فى احتلال مناطق جديدة فى طرابلس وقصر جهوده على اتخاذ تدابير دفاعية لحسب لرد هجوم المجاهدين العرب عن المراكز الإيطالية وعقد آمالا كباراً على إمكان التغلب على مقاومة الطرابلسيين إذا هم تفرقوا شيعا وأحزابا وضعفت كلمتهم . وفضلا عن ذلك فإنه كان يعلل النفس بإمكان الاستفادة من ازدياد نفوذ السنوسية فى منطقة سرت والجفرة والفزان فى وقف نفوذ العثمانيين وأنصارهم فى طرابلس . ولكنه سرعان ما اتضح له خطر الاعتماد على السنوسية فى ذلك عند ما ذهب بنفسه إلى بنغازى فى إبريل ١٩١٨ حتى يقف هناك على حقيقة أهداف السنوسيين ومبلغ قوتهم . ذلك بأن السنوسية بزعامة أميرها لم تكن لترضى البتة بأن تصبح مخلب القط الذى ينتزع الكستناء هدية سهلة للطليان المستعمرين ، وهى تلك الإمارة الإسلامية التى كانت تهدف إلى إنشاء دولة موطدة الدعائم فى القطر الليبى تجمع كلمة المسلمين وترد عنهم غائلة الاستعمار الأجنبى ؛ فتبين لأميليو مدى ماهنالك من خطر محقق إذا هو أقدم على فتح الحدود الطرابلسية أمام قوات السنوسية وأنصارها ففضل الالتجاء إلى وسيلة أخرى قد تكفل تأييد نفوذ السنوسية فى المناطق التى كانت تخضع فعلا لنفوذها فى سرت والجفرة والفزان دون إتاحة الفرصة لحدوث أى توسع جديد فى المناطق الطرابلسية لحسابها . وعلى ذلك فقد عول أميليو على إمداد عبد الجليل سيف النصر بالأسلحة والذخائر حتى يقوى على الصمود أمام العثمانيين وأحلافهم . وكان سيف النصر قد اضطر لقلة ما لديه من أسلحة وعتاد إلى الانسحاب إلى هون فى الفزان مع ثلاثمائة وخمسين جنديا سنوسيا (فى أغسطس ١٩١٨) . وحدث فى هذه الأثناء أن استدعى أميليو من طرابلس تخلفه الجنرال غاريونى . ورأى

الوالى الجديد أن يستمر على سياسة سلفه فأمد سيف النصر بالأسلحة ، ولكنه مالبث حتى كف عن إمداده بالعتاد عندما إتضح له أن عبدالجليل كان سنوسيا لحماً ودما وأنه ماقبل هذه الإمدادات إلا لغرض الاستعداد لمناجزة مصراته والعثمانيين أعداء السنوسية بمجرد أن يأمره السيد محمد إدريس بذلك فجاء فى كتابه إلى السلطات الإيطالية قوله المشهور « إننا اليوم بفضل الله متحدون تحت لواء السنوسية وسوف نعمل كل مايأمرنا به السيد إدريس لأن عدوه عدونا وصديقه صديقنا » ، فوجد غاريونى من الحكمة وصواب الرأى — على زعمه — أن يترك خطة الاعتماد على قوة السنوسية كعامل لاغنى عنه فى معالجة ماتحدث من مشاكل مستعصية فى طرابلس .

وزاد من حرج موقف الطليان فى طرابلس ذلك النشاط الذى أبداه الأمير عثمان فؤاد ومستشار القيادة العامة عبدالرحمن عزام ، واتخذ الباب العالى من هذا النشاط ذريعة لدعم حقوقه فى السيادة على القطر الطرابلسى تمهيداً لعرض المسألة برمتها على مؤتمر الصلح عند انتهاء الحرب الأوربية . ثم عظمت متاعب الطليان السياسية عندما أحرز المجاهدون العرب انتصاراً باهراً على الطليان فى إبريل ١٩١٨ وحوصر الطليان فى مراكزهم على الساحل . وأثارت أنباء انتصارات العرب اهتمام الدول وخشى وزير المستعمرات مارتينى ثم كولوزيمو من بعده أن تتخذ المسألة الطرابلسية وجها دوليا خطيراً مادام الطليان عاجزين عن احتلال داخل البلاد وبخاصة عندما كان أمل الطليان ضعيفاً فى اجتياز الحرب الأوربية ذاتها بسلام فى ذلك الحين (مايو ١٩١٨) . ومع ذلك فإن الوالى أميليو ما كان يستطيع فعل شىء فى الحقيقة لحاجته الشديدة للجند والمعدات والأسلحة . وعندما أصر أميليو على عدم القيام بعمليات عسكرية واسعة قبـــل أن تصله هذه الإمدادات استدعاه وزير المستعمرات إلى إيطاليا فغادر البلاد فى ٩ أغسطس ١٩١٨ وخلفه غاريونى .

وبدأ غاريونى أعماله بأن أصدر منشوراً إلى أهل برقة وطرابلس يدعوهم فيه إلى الوثوق بنيات الحكومة وامتثال أوامرها . غير أنه سرعان ماصار ينقم على الأمير عثمان فؤاد لنشاطه فضربت الطائرات من الجو الزعماء المجتمعين فى زنزور فى شهر سبتمبر ، ثم حدث فى فى الشهر التالى أن طلبت تركيا الهدنة فأوقف القتال بينها وبين الحلفاء ظهر يوم ٣١ أكتوبر واضطر غاريونى إلى بحث الموقف من جديد فى برقة وطرابلس على السواء ، فكان من أثر السياسة التى رسم خطوطها فى برقة بدء المفاوضات التى انتهت بعد عامين وبعد ذهاب غاريونى نفسه بعقد اتفاق الرجمة . وأما فى طرابلس فقد كان من رأى غاريونى أن المساعى السياسية وحدها لاتكفى ، وأنه لامندوحة عن تعزيزها بعمليات عسكرية ناجحة . ولكن الحكومة

المركزية فى رومة اعتقدت وقتذاك أن هزيمة دول الوسط فى الحرب الأوربية العامة لابد أن يكون لها وقع سىء فى نفوس المجاهدين العرب وتحد من نشاطهم ، ثم عقدت آمالا عظيمة على مهارة الجنرال تارديتى الذى أرسلته حديثا رئيسا لمكتبها السياسى بطرابلس فى إمكان استمالة المجاهدين العرب إلى إنهاء خلافاتهم مع إيطاليا ، واتفقت كلمة الرجلين غاريونى وتارديتى على أنه من الخير لإيطاليا أن تجيب مطالب الزعماء والقادة فى كل من برقة وطرابلس بصورة لا تلحق الأذى بتلك السيادة التى تمسكت بها إيطاليا على القطر الليبى بأجمعه .

وكان غاريونى يفضل إدماج برقة وطرابلس التى كانت لا تزال بأيدى العرب وعلى الخصوص مصراتة وبوشيفه ثم احتلال سرت كذلك . غير أنه كان من المتعذر تحقيق هذا البرنامج دون أن يكون لديه قوات كافية . أضف إلى ذلك أن نشاط المجاهدين عقب وصول عبد القادر الغناى مباشرة وتسليط نيران مدافعهم على قلعة سيدى بلال فى طرابلس سرعان ما أقنع غاريونى بضرورة السعى من أجل الاتفاق مع العرب . وأيد رئيس المكتب السياسى — الجنرال تارديتى — الوالى غاريونى فى هذا المسعى فبدأت من ثم تلك المفاوضات التى انتهت بصلح شلية الزيتونى أو سوانى بنيادم فى إبريل ١٩١٩ وإصدار القانون الأساسى رسميا فى أول يونية من العام نفسه . وكانت حجة غاريونى وتارديتى فى إنجاز الاتفاق مع المجاهدين العرب فى طرابلس أن حكومة رومة رفضت أن تستمع لما أبداه غاريونى سابقاً من آراء كانت ترمى إلى إنشاء دولة سنوسية تضم القطرين معاً برقة وطرابلس تحت إشراف إيطاليا ، لأن المسألة الطرابلسية على حد قوله إنما هى فى أكثر تفاصيلها مسألة سنوسية ولا يمكن البت فى شأنها من غير الاتفاق مبدئياً مع السنوسية ذات النفوذ القوى فى مناطق سرت والجفرة والفزان والقبلة ثم فى قلوب أهل طرابلس كذلك .

غير أن صلح بنيادم لم يلق ما كان يستحقه من رعاية تامة وتأييد كامل من جانب إيطاليا ؛ فقد رحب الطليان المحليون فى مبدأ الأمر بالمفاوضات التى كان هذا الصلح أحد ثمارها ، ووجدت الحكومة المحلية فى صلح بنيادم وسيلة تساعد على استقرار الهدوء فيما كانوا يسمونه دائماً « المستعمرة » . واغتبطت رومة لأول وهلة بهذه النتيجة لأنه أصبح فى قدرتها أن تسرح جيوشها وأن توفر تلك الأموال الطائلة التى كانت تنفقها عليها . وفضلا عن ذلك فإن حسم الخلاف فى طرابلس بالطرق السلمية من شأنه إرضاء العناصر الديمقراطية المتطرفة التى كانت تسيطر وقتذاك على الحكومة فى رومة . ولكن سرعان ما بدأ يتغير الرأى العام الإيطالى فى طرابلس وفى إيطاليا لأسباب عدة منها أن الطليان كما شاهدنا لم يقبلوا الدخول فى تلك المفاوضات التى أتت بهذا الصلح إلا مرغمين وكان يسوءهم أن « يتظاهر » العرب — على

حد قولهم — في داخل البلاد بأنهم استطاعوا إرغام الحكومة الإيطالية على التسليم السياسي وعلاوة على ذلك فإن هذا الصلح قد ترك للعرب سلاحهم ، واعترف بسلطان الزعماء الذين ظلوا ثائرين على حكومة المستعمرة ردحا طويلا من الزمن ولم يقبلوا صلح بنيادم إلا لسبب واحد هو أنهم استطاعوا الاحتفاظ بأسلحتهم ومراكزهم وظلوا مستمتعين بجميع سلطاتهم السابقة ، بل وأصبحت تتألف منهم أكثرية مجلس الحكومة . أضف إلى هذا كله أن تلك المساعي التي كان يبذلها رمضان شتيوى زعيم مصراتة القوى حتى يستأثر بالزعامة العامة المطلقة على سائر الزعماء الطرابلسيين كادت الآن أن تتحقق بفضل أساليب العزام السياسية ودهائه حتى أن خطر السويحلي ما لبث حتى ظهر واضحاً عندما أخذ الزعماء العرب يتشاورون في اجتماع عقدوه بترهونة في أمر اختيار أولئك الأعضاء الثمانية الذين كان يجب أن يتألف منهم مجلس الحكومة إلى جانب العضوين الإيطاليين عملا بنص المادة (أو الفصل) الثالثة والعشرين من القانون الأساسي ، فقد أصر السويحلي على أن يعين اثنان في هذا المجلس عن مصراتة وحدها ، كما أصر على عدم تعيين أحد عن الخمس وزليطن ومسلاتة وورفلة ، لأنه اعتبرها جميعا مناطق تابعة له . وعلى ذلك فقد بدأت رومة تتململ من عقد هذا الصلح ولما يجف مداده بعد .

ومع ذلك فقد ظل غاريوني وتارديتي يتمسكان بضرورة التفاهم مع العرب بل إن غاريوني ما كان يخشى شيئاً من ازدياد سطوة السويحلي ، فقد اعتبر نمو قوته من مصلحة الطليان إذ يستطيع هؤلاء بفضلها أن يضعفوا سلطان السنوسية في طرابلس ، كما أنه حتى رغبة منه في إضعاف نفوذ السنوسية سرعان ما أرسل حملة احتلت سرت في أواخر شهر يونية ١٩١٩ ولم يحفل بما أحدثه ذلك من وقع سيء في نفوس السنوسيين في إجدابية والنوفيلية . ولكن هذا النشاط « العسكرى » الأخير سرعان ما أثار ثائرة الرأى العام في إيطاليا ، فأخذت صحفها تطلب « تغيير الحكومة العسكرية » في طرابلس ، وانتهى الأمر باستدعاء غاريوني إلى رومة فغادر البلاد في أغسطس ، وفي آخر سبتمبر نقل تارديتي كذلك من طرابلس . فاستاء العرب من نقلهما وضعفت ثقتهم في نيات الحكومة ، ثم كان من أهم أسباب ضياع هـذه الثقة في النهاية أن الطليان لم ينفذوا شيئاً من الوعود التي تضمنها القانون الأساسي ولم يفعلوا شيئاً لإجراء الانتخابات النيابية أو إنشاء الحكومة التي تم الاتفاق على تأسيسها ، وكان من المنتظر لهذه الأسباب أن يجدد العرب « حملتهم » السياسية .

وكان العرب قد بدأوا يستأنفون نشاطهم السياسي رويدا رويدا منذ أن غادر غاريوني البلاد وجاء الوالى الجديد (منتزنجر) فأكثر أعضاء (مجلس الحكومة) العرب الثمانية من

الاجتماع ببعضهم بعضا . وكان هؤلاء قد نص القانون الأساسى على أن يقوم (مجلس النواب المحلى) بانتخابهم عند اجتماعه بعد إجراء الانتخابات ، ثم لم تحدث الانتخابات ولم ينعقد المجلس فشكل الزعماء الطرابلسيون (مجلس الحكومة) وأظهروا فى مبدأ الأمر استعدادهم للتعاون مع الحكومة المحلية . وكان العزام كما عهدناه دائما الروح المسيطرة على مداولات هؤلاء الزعماء الثمانية ، وأنشأ الزعماء المؤيدون لسيطرة رمضان السويحلى وسياسة العزام منظمة جديدة سموها (حزب الإصلاح الوطنى) فكان من أعضاء هـذا الحزب كل من عبد الرحمن عزام وخالد بك القرقنى وعثمان الغريانى مدير جريدة (اللواء الطرابلسى) وكان هؤلاء الثلاثة هم قادة الفكر بينما أضحى رمضان شتيوى (أو السويحلى) — وكان من أعضاء الحزب أيضاً — الأداة المنفذة أو اليد العاملة ، وأعطيت الرئاسة لصاحب ترهونة أحمد المريض بك . وفى ٣٠ سبتمبر ١٩١٩ نشر حزب الإصلاح الوطنى برنامجه ، فذكر الحزب أن كلا من رمضان السويحلى (رئيس شرف) وأحمد المريض (رئيس عامل) قد كلفا العزام أن يطلب إلى أبناء الوطن أن يتقدموا بكل مالديهم من نصح وإرشاد وضروب النقد المختلفة إذا شاءوا حتى يتضافروا مع مواطنيهم أعضاء الحزب على العمل من أجل إسعاد الوطن ورقيه ونشر أسباب الرخاء فى ربوعه ، ثم تضمن (منشور) الحزب بعد هذه المقدمة المبادىء التى تعاهد أعضاؤه على تأييدها ، وأولها المحافظة التامة على حقوق العرب كاملة غير منتقصة وكما نص عليها القانون الأساسى ؛ وثانيا تقديم كل مساعدة ممكنة حتى يتيسر تنفيذ هـذا القانون بكل سرعة وذلك حتى يؤتى القانون ثمرته المنشودة فى أقرب مدة فتتاح الفرصة للطرابلسيين حتى يتدربوا على الاضطلاع بأعباء الحكومة الذاتية فيحكمون أنفسهم بأنفسهم مستمتعين بأعظم قسط من الحرية ؛ وثالثا متابعة السعى الجدى من أجل التفاهم المنتج بين العرب والطليان على أساس المساواة التامة بين الفريقين من جهة وتضامن المصالح من جهة أخرى ثم نبذ كل أسباب النفور والخلاف بين الطليان والعرب وبذر بذور المودة والإخلاص بينهم ؛ ورابعا العمل على نشر التعليم بكل وسيلة حتى تستمتع البلاد بثمار الثقافة والمدنية الغربية مع المحافظة على التقاليد الإسلامية ؛ وخامسا إنعاش الحياة الاقتصادية ومحو أسباب الفقر ومساعدة المعوزين وتوفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب على أساس توزيع الثروة توزيعا عادلا بين أفراده والمحافظة على حقوق الضعفاء فى ظل أخوة شاملة .

ولقى هذا البرنامج الوطنى والاشتراكى كل تأييد من جانب العرب ، ورحب به كذلك الطليان المحليون واعتقدوا أن تنفيذ الإصلاحات الداخلية الواسعة التى تضمنها هـذا البرنامج سوف يصرف العرب ولو قليلا عن متابعة نشاطهم السياسى . ولكن تفاؤل الطليان كان

لا مسوغ له ، إذ ظهرت جريدة اللواء الطرابلسى ذات يوم وبها مقال ينعى فيه صاحبه على الإيطاليين أنهم لا يقدرون على التخلص من تلك الأوهام الراسخة فى أذهانهم والتى تجعلهم لا يعتقدون بوجود مساواة ما بين العرب والطليان ، وهى أوهام من شأنها أن تزيد الطرابلسيين تمسكاً بمطالبهم المشروعة وتزيد من قوة المعارضة لكل ما كانوا يعتبرونه اغتصابا وسلبا من جانب إيطاليا ، ثم تساءلت الجريدة إلى متى لا تسعى الإدارة المحلية فى إصلاح شئونها وفقا للمبادىء التى قررها القانون الأساسى . فأثار مقال الجريدة مناقشة حادة بين حزب الإصلاح وبين الحكومة المحلية والطليان عموما بطرابلس ، ووصف الطليان المحليون إدارة متزنجر بالضعف والتردد ؛ ثم عادت الجريدة فكررت تحذيرها للسلطات الحكومية من مغبة تأجيل تنفيذ القانون الأساسى وعدم إنهاء الإدارة العسكرية وإنشاء الحكومة الوطنية التى ينتظرها الشعب بفارغ الصبر وإجراء الانتخابات حتى يجتمع البرلمان الذى يضم ممثلى الشعب بكل سرعة .

ولكنه بدلا من أن تجيب الحكومة المحلية هذه المطالب وتعمل على تهدئة البلاد شرع الوالى وأعوانه يبذرون بذور الشقاق بين الزعماء ويدبرون حملة عدائية ضد رمضان السويحلى ويحركون كوامن الحقد ضده فى ترهونة وورفلة ؛ وبذل العزام جهودا صادقة حتى يتدارك الموقف وانحاز الى تأييده خالد القرقنى واستطاع المناوئون للسويحلى بتحريض الطليان أن يؤلفوا جبهة اتحدت كلمتها على مقاومة السويحلى والقضاء على نفوذه كان من أعضائها أحمد المريض وكعبار والحاج محمد الفكينى وعبد النبى بلخير وسويح شتيوى وغيرهم ، وقصد العزام والقرقنى إلى ترهونة لإقناع المريض بنبذ الخلاف وإجابة دعوة كان رمضان قد وجهها للزعماء حتى يجتمعوا فى مؤتمر لتدارك الموقف . ولكن المريض أصر على عدائه واضطر رمضان إلى مغادرة زنزور إلى مصراته إمعانا فى الحيطة والحذر وحتى يراقب عمال الحكومة المحلية الذين كانوا يكيدون له ويحرضون أنصارهم على القبض عليه وتسليم جميع الأسلحة والمهمات الحربية التى كانت بغريان إلى السلطات المحلية . وكان فى وسط هذه المصاعب الكثيرة أن اتجه تفكير زعماء حزب الإصلاح الوطنى الذين ظلوا على ولائهم للقضية الطرابلسية نحو غاية عليا معينة هى وضع القطر الليبى بأجمعه (برقة وطرابلس) تحت إمارة السيد محمد إدريس السنوسى فقام السويحلى بمحاولات عدة من أجل الاتفاق مع السنوسية ؛ ثم دعا زعماء حزب الإصلاح — العزام والقرقنى على وجه الخصوص — إلى عقد مؤتمر بسيدى معمور فى منطقة ترهونة للعمل على تهدئة الوطن . ولما كان الطليان يخشون أن أقل ما يؤدى إليه هذا الاجتماع سوف يكون إحياء الجمهورية الطرابلسية السابقة ، فقد بذل متزنجر كل جهوده حتى يعطل انعقاد المؤتمر

ونجحت دسائسه . غير أن الزعماء الذين وجدوا الطليان — على حد قول بشير السعداوي — يبثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائلة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لإيقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبنيه والأخ وأخيه وكادوا يصلون إلى رغائبهم ويوقعون البعض فى تلك الحبائل التى نسجتها أيديهم لولا أن عقلاء البلاد أدركوا الدسائس ، ما لبثوا حتى قرروا عقد مؤتمر كبير يبحث فى أجدى الوسائل لجمع الكلمة ووضع حد لمراوغات الطليان وإنشاء الحكومة الوطنية واختار الزعماء قصر غريان مكانا لاجتماعاتهم ، وأرسلوا الدعوة إلى سائر الرؤساء والشيوخ لحضور المؤتمر .

وحدثت صعوبات كادت تؤخر انعقاد المؤتمر بسبب ما وقع من خلاف جديد بين مصراته وترهونة على امتلاك مسلاته ؛ وكان الذى دعا إلى تجدد النزاع أن رمضان السويحلى كان قد اشتبك فى معركة دامية مع عبد النبى بلخير صاحب ورفلة ذهب رمضان ضحيتها فى شهر ذى الحجة من عام ١٣٣٨ (سبتمبر ١٩٢٠) ، فانتهز أحمد المريض فرصة وفاة السويحلى وأخذ يراسل بعض الرؤساء التابعين لمصراته فى مسلاته الساحل وجفارة . وحدث فى هذه الأثناء أن عاد من الشام إلى طرابلس المجاهد القديم بشير سعداوى مع أخيه نورى وساءه أن يعود الزعماء إلى خلافاتهم السابقة وأن ينصرفوا إلى التنازع بينهم على امتلاك الأراضى وتحديد مناطق النفوذ بدلا من جمع الكلمة وتأليف القلوب لصون مصالح الوطن . وطلب أهل مصراته — وكان أحمد السويحلى أخو رمضان السويحلى قد تولى الزعامة بها بدلا من أخيه إلى بشير سعداوى الوساطة فى إنهاء الخلاف القائم ، فتحدث بشير سعداوى فى هذا الشأن مع أهل مسلاته ثم قابل أحمد السويحلى وغيره من رجال مصراته فى زليطن ، ثم قصد مصراته فأقام بها فترة من الزمن يبذل الجهود لإنهاء الخلافات . ولكنه سرعان ماحدثت مشكلة جديدة عندما بدأ عبد الجليل سيف النصر يشن الهجوم على سرت ويعد جيوشه لمهاجمة القصر ، وكان سبب هذا الهجوم أن على المنقوش قائمقام سرت كان قد عمد إلى جمع الضرائب وأموال الزكاة من أهل سرت ، وعارض عبد الجليل سيف النصر فى ذلك بدعوى أن هذه الجهات إنما هى ملك لأجداده من قديم الزمن ويجد لذلك غضاضة كبيرة فى دفع العشور والضرائب كأى فرد عادى إلى على المنقوش . وبعد جهود عظيمة استطاع السعداوى تسوية هذه المسألة وإرضاء سيف النصر ، وامتنع بفضل جهوده الموفقة اشتباك الزعماء فى عراك ما كان يعلم غير المولى عز وجل نتائجه . ثم تهيأ السعداوى للذهاب إلى العزيزية وهى المكان الذى اختاره الزعماء لعقد اجتماعهم حتى يختاروا هيئة منهم تسعى فى سبيل التمهيد لانعقاد المؤتمر المنتظر

فى غريان ، ولكنه ما كاد يصل إلى الساحل حتى علم بحدوث منازعات جديدة بين عبد القادر بلمنتصر ومدير شجران إبراهيم بن عباد ثم بين مصراته من جانب ومسلاته وترهونة من جانب آخر وقضى وقتاطويلا يبذل قصارى جهده لمنع إراقة الدماء ، وفى هذه الأثناء انعقد مؤتمر غريان .

وانعقد المؤتمر فى شهر ربيع الأول ١٣٤٠ (نوفمبر سنة ١٩٢١) فى قصر غريان وحضره الزعماء . ومع أن وفداً كان قد قام خصيصاً إلى مقر سليمان البارونى يدعوه إلى الاشتراك فى هذا المؤتمر لتبادل الرأى ، فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى ، فقد امتنع البارونى عن تلبية الدعوة محتجا بأنه بوصفه عضواً فى مجلس الشيوخ العثمانى لا يمكنه حضور المؤتمر ، وكان البارونى فى الواقع يفضل الاحتفاظ بنفوذه « الإقطاعى » فى منطقته فى الجبل وككتلة مستنداً إلى تأييد قبيلته الأصابعة وهم من الأباضية وتأييد خليفة بن عسكر فى القسم الغربى من الجبل ، وهو أباضى كذلك . وكان لموقف العداء الذى وقفه البارونى من الزعماء المجتمعين فى غريان ومعارضته لقرارات المؤتمر أثر كبير فى إضعاف المجاهدين العرب وإراقة دماء الوطنيين مدة بعد ذلك . أما المجتمعون فى غريان ، وكان العزام كالعهد به دائما الروح المسيطرة على أعمال المؤتمر فقد وصلوا إلى قرارات كانت الأساس الذى انبنى عليه فى آخر الأمر اتجاه الطرابلسيين إلى الزعامة السنوسية بغية توحيد الصفوف فى الجهاد ضد الطليان والمحافظة على مصالح الوطن الليبى بأجمعه . فقد اتخذ المؤتمرون قراراً بالعودة إلى خطة الجهاد حتى يعوضوا ما فات من أغراض لم يستطيعوا تحقيقها بالطرق الدبلوماسية التى لم تفلح البتة فى إقناع الحكومة الإيطالية بضرورة تنفيذ الوعود التى قطعتها على نفسها منذ إصدار القانون الأساسى لقطر طرابلس . وكان من رأى الزعماء المجتمعين فى غريان أن يبذلوا جهداً أخيرا لحمل الطليان على احترام وعودهم والإقلاع عن سياسة التحرش بالوطنيين وإثارة الخلافات والقلاقل الداخلية . وفضلا عن ذلك فقد قرروا إنشاء حكومة وطنية تتكفل بتنظيم الجهاد وتضطلع بمهمة تنفيذ قرارات المؤتمر ، فشكلوا وفداً للسفر إلى رومة حتى يتفاوض مع الحكومة الإيطالية بشأن القرارات التى وصل إليها المؤتمر . وكان أهم هذه القرارات على نحو ما كتبه الزعماء المجتمعون « أن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامى من الأصول بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكلها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة » . وكان من الواضح أن الزعماء فى مؤتمر غريان ما كانوا يقصدون بهذا القرار غير التمهيد لاختيار السيد محمد إدريس

السنوسى الأمير الذى أثبتت الحوادث أنه وحده ذلك ، الرجل المسلم المنتخب ، الذى يمكنه إنقاذ القطر الطرابلسى من الفوضى المنتشرة به وتوحيد كلمة المجاهدين العرب فى النضال ضد إيطاليا إذا عجزت الطرق الدبلوماسية عن حسم كل خلاف مع هذه الدولة بصورة ترعى مصالح الوطن . وعلى ذلك فقد كانت خطوة المؤتمر التالية أن يشكل وفدان أحدهما يذهب إلى رومة والآخر يعهد إليه بالمفاوضة مع السنوسية . ثم شرعوا ينشئون حكومة وطنية لإدارة شئون البلاد الداخلية . وقد تم تأسيس هذه الحكومة باسم (هيئة الإصلاح المركزية) وتولى رئاستها أحمد بك المريض ، وكان أعضاؤها بشير سعداوى ومحمد بن عمر وحسين بن جابر ومحمد فرحات وعبد الرحمن صادق بن الحاج ومحمد مختار كعبار ومحمد فكينى والصويعى الخيتونى ؛ وكان مستشار هذه الحكومة ، نفس مستشار الجمهورية القديم ومستشار الطرابلسيين الدائم عبد الرحمن عزام . وأما الوفد الذى ذهب إلى رومة فكان يتألف من خالد بك القرقنى وعبد السلام بك البوصيرى ومحمد فرحات (الزاوى) وصادق بن الحاج . وقد طالب هذا الوفد الطليان بتنفيذ القانون الأساسى ، وتحدث فى مسألة انتخاب الأمير المسلم ، ولكن الحكومة الإيطالية رفضت إجابة أى شىء من مطالب الطرابلسيين وأصرت على ضرورة إطلاق سراح بقية الأسرى قبل أن تبدأ أية مفاوضات معهم ، وغادر الوفد رومة . وكان فى أثناء وجود هذا الوفد برومة أن حضر السيد إدريس نفسه لزيارة العاصمة الإيطالية فى نوفمبر ١٩٢٠ عقب اتفاق الرجمة مباشرة واستقبلته الحكومة استقبالا رسميا ، واستمرت الزيارة أربعين يوما بتمامها لقى السيد فى أثنائها كل حفاوة وتكريم من ملك إيطاليا ومن الحكومة الإيطالية وزار المدن الهامة ، وكانت عودته إلى بنغازى فى أول فبراير ١٩٢١ . وأما الوفد الطرابلسى فإنه بمجرد عودته إلى بلاده بادر بإطلاع الزعماء الطرابلسيين على نتيجة مسعاه فى العاصمة الإيطالية . فكان هذا الفشل من أهم الأسباب التى زادت فى إحكام تلك الروابط الجديدة التى كان الزعماء يجدون لإنشائها مع السنوسية .

وكان الوفد الذى انتدبته هيئة الإصلاح المركزية للمفاوضة مع السنوسية يتألف من عبد الرحمن عزام وأحمد السويحلى وعمر بودبوس ونورى السعداوى والشتيوى بن سالم والصويعى الخيتونى والحاج صالح بن سلطان . وقد مهد لإرسال هذا الوفد أن أمير السنوسية نفسه كانت تحركه من مدة بعيدة الرغبة الصادقة فى جمع كلمة الليبيين وتأليف النفوس النافرة حتى يصبح فى مقدور البلاد مواجهة العدو فى جبهة متحدة يمتد نفوذها من حدود برقة الشرقية إلى حدود طرابلس الغربية ؛ فانتهز السيد إدريس فرصة ورود كتاب إليه من أحمد المريض ملىء بعبارات المجاملة السامية ، وبادر بإرسال الرد على هذه الرسالة ، وحمل إبراهيم الفيل

رد الأمير إلى أحمد المريض ، ثم حضر إلى مصراته من قبل الأمير يدعو لى الاتفاق ويرحب به الشيخ محمد بن حسن بن عبد الملك وهو مصراتى ، فكان لهذه الخطوات المباركة التى خطاها الأمير أعظم الأثر فى تقوية إيمان زعماء هيئة الإصلاح المركزية فى إمكان الاتفاق ، وتألف الوفد وسافر إلى سرت للاجتماع بالمفاوضين السنوسيين ، وكان هؤلاء صالح الأطيوش وخالد القيصة والشيخ نصر الأعمى والشيخ صالح السنوسى بن عبد الهادى البرانى .

وفى شهرى ديسمبر من عام ١٩٢١ ويناير من العام التالى بدأت مفاوضات سرت بين مندوبى هيئة الإصلاح الطرابلسية وبين مندوبى السنوسية . وكان الأمير يرغب رغبة ظاهرة فى الاتفاق ويسعى العزام من جانبه حتى تتكلل هذه المفاوضات بالنجاح ؛ وقلقت الحكومة المحلية الإيطاليه من نشاط زعماء السنوسيين والطرابلسيين ؛ ومع أنه كان قد أشيع وقتذاك أن الغرض المباشر (والظاهر) من هذا الاجتماع فى سرت تسوية الخلافات القائمة بين قبيلة المغاربة ورئيسها صالح الأطيوش وبين بعض القبائل الأخرى من العرب ، فإن الطليان كانوا يرون — على حد قول مؤرخيهم — أن الغرض الحقيقى من اجتماع سرت إنما كان تقوية روح العداء المنتشرة ضد ايطاليا فى برقة وطرابلس معا ، وتمهيد الطريق لإعطاء السنوسية وأميرها الزعامة على الأقطار الليبية بأجمعها ؛ وأزعج الطليان ذلك النشاط الكبير الذى أبداه كل من صالح الأطيوش (عن السنوسية) وعبد الرحمن عزام (عن الطرابلسيين) من أجل الوصول إلى الاتفاق وتوحيد جهود القطرين برقة وطرابلس فى النضال ضد ايطاليا .

والواقع أن المتفاوضين فى قصر سرت مالبثوا حتى وصلوا إلى قرارات على جانب عظيم من الخطورة تعتبر بحق الأساس الذى قام عليه عقد البيعة للسيد محمد إدريس لتولى الإمارة على القطر الليبى بأجمعه . وكان للعزام أثر بالغ فى تهيئة الأسباب التى أفضت إلى مبايعة السيد بالإمارة عندما وقف خطيبا فى الوفود المجتمعة بقصر سرت وقال « على عاتقى وأمام الله أن هذا (أى عقد البيعة للسيد) فى مصلحة أهل طرابلس ومصلحة الجهاد ، وقد حمل الزعماء عبد الرحمن عزام هذه المسئولية » أمام الله ، وشرعوا يعدون « ميثاق سرت » المعروف .

وأثبت صاحب (تاريخ اليقظة القومية عند العرب) نص هذا الميثاق الذى وقعه الجانبان فى اليوم الثانى والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ١٣٤٠ (٢٢ يناير ١٩٢٢) . وأهم ما يلاحظ فى هذا الميثاق أن المفاوضين الطرابلسيين أيدوا القرار الذى اتخذوه من قبل فى مؤتمر غريان والذى جاء فيه أن مصلحة الوطن تقتضى إنشاء حكومة قادرة « بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة ، فى استطاعته أن ينقذ البلاد من الحالة التى آلت إليها ويعمل على

تحقيق أهدافها الوطنية . فنص اتفاق سرت فى المادة الخامسة على أن الطرفين يريان « ان مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضى بتوحيد الزعامة فى البلاد ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة » . ودل هذا القرار على أصالة رأى وحكمة بعيدة لأن الأمير الذى ما كانت برقة ترضى بغيره بديلا ويتمتع بنفوذ ملحوظ فى طرابلس ذاتها وظل نفوذه يقوى رويدا رويدا ولكن بصورة ثابتة موطدة كان وحده معقد آمال الزعماء الليبيين فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد ؛ وفضلا عن ذلك فقد كفل قرار سرت إنشاء إمارة دستورية وتحقيق تلك المبادىء الديمقراطية التى تمسك بها الزعماء المجاهدون — والعزام فى طليعتهم — من أيام الجمهورية . ثم تعهد الفريقان المتفاوضان فى المـــادة السادسة بأن يتخذا الوسائل اللازمة (لإنشاء الإمارة الليبية) واتفقا على نحو ما جاء فى المادة السابعة على أنه بمجرد الفراغ من انتخاب الأمير وتوليته بإرادة الأمة ، على « انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد ، وقبل ذلك وتمهيدا لهذه الأعمال يجب على الفريقين أن يرسل كل منهما مندوبا للبلدين لأجل أن يشتركا فى سياسة البلاد والتدابير المقتضية للدفاع عن الوطن » .

وتنفيذاً لهذه القرارات إذن ، ذهب بشير سعداوى لتمثيل طرابلس لدى حكومة برقة ، وأوفد الأمير السيد إدريس مندوبا يمثل سموه لدى الطرابلسيين فى شخص السيد عبد العزيز العيساوى فى منطقة مصراتة . وجمع الأمير فى اجدابية فى شهر رمضان ١٣٤٠ (إبريل ١٩٢٢) مشايخ وزعماء ورؤساء قبائل المغاربة والعواقير وقبائل الجبل للمداولة فيما يجب اتخاذه من وسائل للدفاع عن مصالح البلاد ، واجتمع هؤلاء بالمندوب الطرابلسى بشير سعداوى ودارت بحوث طويلة فى طريقة الوصول إلى تنفيذ اتفاق سرت ، وكان مما اهتم به الطرابلسيون استشارة السيد إدريس وحمله على التدخل مع إيطاليا لحسم الخلاف القائم بينها وبين الطرابلسيين وخشى الطليان — وكثيراً ما كان يأخذهم الخوف كل مأخذ فى المدة الأخيرة — أن تسفر هذه المباحثات عن إنشاء تلك الإمارة الليبية التى كانوا يبذلون قصارى جهدهم لمنع تأسيسها . وكان فى أثناء هذه المباحثات أن قر رأى الزعماء البرقاويين على أن يبايع الزعماء الطرابلسيون الأمير من غير إمهال . ولما كان الطرابلسيون ينتوون هذه المبايعة من مدة سابقة فقد وافق بشير سعداوى على ذلك ولكنه اشترط مقابلة الأمير قبل البت فى هذا الموضوع نهائياً ؛ وفى أثناء المقابلة أكد بشير للأمير أن (البيعة) هدف الطرابلسيين وطلب من الأمير أن يسمح له بالعودة إلى القطر الطرابلسى حتى يمهد لهذه البيعة ويأتى بها بنفسه أو يأذن له بالكتابة فى هذا الشأن إلى اخوانه .

وحدث والمفاوضات ماتزال دائرة أن حضر أمندولا وزير المستعمرات الإيطالية إلى برقة ، فأناب الأمير السيد صفى الدين فى مقابلته ببنغازى ؛ وطلب أمندولا مقابلة الأمير ، ووافقه السيد إدريس على الاجتماع به حتى يستطيع أن يتحدث إليه بصدد القتال الدائر وقتذاك بين الطليان وأهل مصراتة . وكان الطليان قد انتهزوا فرصة اجتماع أهل مصراته مع أعيان برقة البيضاء من المغاربة لتسوية خلافاتهم فأنزلوا قواتهم فى قصر حمد واضطر المغاربة للعودة إلى برقة البيضاء ورجع المصراتيون إلى مصراتة ، ولكن الفريقين قبل انفضاض الاجتماع كانا قد نجحا فى إزالة أسباب سوء التفاهم بينهما وتعاهدوا على نسيان الماضى ؛ ووسطت مصراته سمو الأمير حتى يمنع اعتداءات الطليان عليهم . وعلى ذلك فقد رحب السيد إدريس بهذه الفرصة المواتية لمقابلة أمندولا وتم الاتفاق على أن يكون الاجتماع بغوط الساس . ولكن أمندولا مالبث حتى اشترط قبل الدخول فى مباحثات مع الأمير أن يغادر بشير سعداوى اجدابية ، ولما كان الأمير يعقد آمالا كبيرة على إمكان التوسط لدى الحكومة الإيطالية فى مصلحة مصراتة فقد أوفد السيد صفى الدين إلى الوفد الطرابلسى يخبره بما قر عليه الرأى ، وخرج بشير سعداوى وزملاؤه إلى الطبيل ، وعندئذ حضر أمندولا إلى غوط الساس بالقرب من المرج وكان يرافقه السيد صفى الدين . وفى ٢٢ يونية ١٩٢٢ اجتمع به الأمير وحضر هذا الاجتماع كذلك السيد صفى الدين ، وطلب الأمير حسم الخلاف ووقف القتال بين الطليان ومصراتة ؛ واستطاع أن يقنع أمندولا بضرورة تهدئة الأحوال فى طرابلس وأوفد إلى الطبيل لمقابلة الطرابلسيين كلا من صالح الأطيوش والفضيل المهشهش وأحد أبناء الكزة وسلم هؤلاء إلى بشير سعداوى كتابا من السيد إدريس أخبره فيه بمقابلته مع وزير المستعمرات فى غوط الساس وبحث القضية الطرابلسية معه ؛ وبأن المباحثات قد أسفرت عن إظهار إيطاليا استعدادها للصلح معها . وفضلا عن ذلك فقد جاء الجماعة بكتاب آخر من الأمير موجها إلى رئيس هيئة الإصلاح المركزية بهذا المعنى . غير أن الأطيوش وزملاءه مالبثوا أن أسروا إلى الطرابلسيين مشافهة أنهم (أى الطرابلسيين) إذا رغبوا فى النجاح والعمل المثمر على أساس اتحاد البلاد فإن السبيل إلى ذلك هو المبايعة بالإمارة للسيد حتى تتفق كلمة الليبيين قاطبة فى النضال ضد إيطاليا والوصول بذلك إلى تحقيق الأهداف الوطنية . فبادر بشير سعداوى بالكتابة إلى سمو الأمير أنه يعتزم العودة فوراً إلى طرابلس لإتمام البيعة ووعد بالعودة سريعا إلى اجدابية يحمل البيعة معه .

وبالفعل غادر بشير سعداوى برقة إلى طرابلس ، وبمجرد وصوله إلى مصراتة اجتمع بالزعماء الطرابلسيين ونادى بالبيعة لسمو الأمير السيد إدريس مستندا فى ذلك إلى أنه لا سبيل

إلى الخلاص البتة إلا بالاتفاق والتعاون مع برقة وانحياز برقة إلى جانب طرابلس فى القتال ضد العدو الإيطالى . وكتب بشير سعداوى نص البيعة بنفسه ثم ذهب بها من مصراتة إلى مسلاتة ثم إلى غريان ، وهناك كانت هيئة الإصلاح المركزية مجتمعة برئاسة أحمد المريض فقرأ عليهم البيعة ووافق هؤلاء عليها بالإجماع ودون مناقشة . ولم يكن فى قبول الزعماء الطرابلسيين لبيعة السيد إدريس مايدعو إلى العجب . فقد مهد هؤلاء الزعماء أنفسهم لاتحاد القطر الليبى تحت لواء زعامة واحدة منذ أن بدأوا اجتماعاتهم فى غريان ثم انعقد العزم على قبول إمارة السيد إدريس فى اجتماع سرت ، وفضلا عن ذلك فقد دلت الحوادث الأخيرة منذ نزول الطليان فى قصر حمد على أن الاتحاد مع القطر البرقاوى هو الوسيلة الوحيدة لتخليص الوطن من شرور المستعمرين . وكان من أثر وساطة السيد إدريس فى إنهاء الخلاف ووقف القتال بين الطليان والطرابلسيين خصوصا فى منطقة مصراتة أن بدأت المفاوضات بين الحكومة الإيطالية المحلية وبين هيئة الاصلاح المركزية برئاسة المريض فى بئر عبازة ، ووجد الطرابلسيون أن المناداة بالبيعة للسيد الأمير ووضع تلك القرارات التى اتخذوها من أيام مؤتمر غريان موضع التنفيذ أجدى الطرق وأقواها لمجابهة الطليان بالأمر الواقع .

وعلى ذلك فقد أوفدت هيئة الإصلاح المركزية الشيخ محمد بن حسن والشيخ محمود المسلاتى والشيخ الطاهر الزاوى إلى اجدابية يرجون من الأمير السيد إدريس القدوم إلى مصراتة لمبايعته بالإمارة ، ولما كان الأمير يشكو المرض وعدم القدرة على السفر فقد اعتذر عن الذهاب إلى مصراتة ووعد بالزيارة عند حلول الخريف ؛ وانتقل السيد إدريس إلى جردس العبيد بينما ظل الوفد الطرابلسى فى إجدابية . وما إن علم الطليان بمجىء الطرابلسيين إلى اجدابية حتى ثارت ثائرتهم ، فاستدعى نائب الوالى لويجى بينتور السيد صفى الدين ومنصور الكخيا لمقابلته وأنذرهما أنه إذا لم يغادر الوفد اجدابية فورا فإن الحكومة لن تتوانى عن مهاجمة إجدابية ذاتها فى التو والساعة . وحاول السيد صفى الدين وعمر منصور الكخيا إقناع الحكومة المحلية بالعدول عن عزمها ولكن دون جدوى ، وعلى ذلك فقد قصد السيد صفى الدين إلى اجدابية للتفاهم مع السيد محمد الرضا أخى الأمير ونائبه بإجدابية بينما توجه عمر منصور الكخيا إلى جردس العبيد ليعرض الأمر على السيد إدريس ويبلغه إنذار الحكومة الإيطالية . ولما أدرك الأمير خطورة الموقف بدأ يبذل قصارى جهده لإقناع الحكومة الإيطالية بأن الطرابلسيين ما قصدوا بما فعلوه سوى حقن الدماء وفض خلافاتهم مع إخوانهم أهل برقة ، وأن واجب الحكومة الإيطالية يحتم عليها أن توقف اعتداءاتها على الطرابلسيين فضلا عن أنه كان للأمير على حسب اتفاق الرجمة الحق فى أن يعرض ما يراه فى مصلحة البلاد على الحكومة

الإيطالية ، كما أن معاهدة الرجمة قد ألزمت الطليان كذلك بأن يضعوا موضع الاعتبار كل ما يبديه الأمير من آراء فى ذلك .

وعند عودة الوفد الطرابلسى إلى مصراتة فى أواخر شهر ذى القعدة من عام ١٣٤٠ (يولية ١٩٢٢) اتفقت كلمة الزعماء الطرابلسيين على إرسال كتاب البيعة إلى الأمير ، وتقرر أن يذهب بهذه البيعة السيد بشير سعداوى بوصفه مندوبا من هيئة الإصلاح المركزية ، وعبد الرحمن عزام بوصفه مستشارا لهيئة الإصلاح ، ثم محمد الصادق بك بلحاج (ابن الحاج) ونورى السعداوى والشيخ محمد عبد الملك . ووقع على كتاب البيعة أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية وعبد الرحمن عزام مستشارها ، ثم أعضاء الهيئة محمد بن عمر وبشير السعداوى وحسين بن جابر ومحمد فرحات وعبد الرحمن زبيدة ومحمد النايب وسالم البجاج وعثمان القيزانى وعمر بودبوس ومحمد صادق بن الحاج ومحمد مختار كعبار ومحمد فكينى والصويعى الخيتونى ، كما وقع على البيعة من الأعيان محمد الديب ومحمد سوف وعمر ضياء ، وعلى أبو جبيل وأحمد الشتيوى ومحمد سعدون قائد الجيش الوطنى وفرحات القاضى ومحمد القرقنى وأحمد السنى والبغدادى بن معيوف ومحمد الصغير المريض . وذكر الطرابلسيون فى كتاب البيعة المرسل إلى « سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه » أنه لا يخفى على سموه أن الخلاف ما يزال قائما بينهم وبين الحكومة الإيطالية ، وذلك لأن الحكومة الإيطالية وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسياسيها وإداريها ، وجعلت من قوتها مبررا للتطرق فى مصيرنا وحقوقنا الطبيعية . ونحن خير أمة أخرجت للناس لا نتحمل ضيما ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كائنا ما كان ، الأمر الذى حملنا على ركوبة الأخطار واقتحام الحروب المتوالية ، معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية ألا وهى تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع مجلس نيابى تنتخب الأمة أعضاءه ، وبهذا يسلم وطننا ويقيم أمر ديننا وتصلح أحكام قضاتنا ونحفظ شرعنا وعنعنة تاريخنا الباهر ، وهذا لا ينافى مما تدعيه ايطاليا وما أذاعت عليه فى خطب رجالها من أنها لم تحتل ديارنا بنية الاستعمار ، وإنما ساقتها دواعى السياسة الدولية فى البحر المتوسط . ولو كانت صادقة فى دعواها هذه لما عرضت بلادنا للخراب بتوالى المهاجمات واشتعال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى . وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفا حول أمير واحد ترضيانه ، وحيث كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجمع فى ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن (هيئة الإصلاح المركزية) الحائزة

للوكالة المطلقة من (مؤتمر غريان) الذى يمثل الأمة الطرابلسية بإنتخاب واقع منها قد وجدت فى سموكم أميراً حازما قادراً على جمع الأمة حائزا للثقة العامة محبوبا . فهى لذلك تبايع سموكم أميراً للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوه عنها . على أن مبايعتكم كانت مضمرة فى كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبى القطرين فى (سرت) وكان السبب فى تأخير تحقيقها طوارىء الحرب التى طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة ورجال القطر فى منطقة شاسعة من المناطق الحربية . وبهذه المبايعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين . ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم إيانا حسب رغبة الأمة تقام لكم مظاهر هذه البيعة فى موكب لائق بسموكم . والله سبحانه وتعالى يمدكم بروح من عنده ويجعل البركة فى البيت السنوسى المؤسس على التقوى والصلاح » .

ووصل إلى اجدابية الوفد الذى حمل كتاب البيعة لسمو الأمير فى ربيع الأول ١٣٤١ (اكتوبر ١٩٢٢) ، وكان الطرابلسيون يعرفون من غير شك أن مجىء الوفد الى إجدابية يحمل كتاب البيعة إلى سمو الأمير من شأنه إثارة غضب ايطاليا تلك الدولة التى ما فتئت تلح على السيد إدريس منذ مجىء الوفد السابق الى برقة حتى تصرفه عن قبول الدعوة الى الاتحاد والتعاون مع الطرابلسيين ، وكان من المتوقع أن يأخذ الغضب من الحكومة الإيطالية كل مأخذ إذا قبل السيد إدريس بيعة الإمارة من أبناء القطر الشقيق طرابلس ، وأنها لابد مقدمة ساعتئذ على إشهار الحرب ضد السيد بكل الطرق . ولا جدال فى أن السيد إدريس كذلك كان يعلم تمام العلم أن قبول البيعة سوف يترتب عليه نتائج خطيرة ، ولكنه كما قال الطليان أنفسهم ما كان يستطيع أن « يرفض تلك اليد التى مدت لمصالحته » .

وعلى ذلك فقد بادر الأمير بمصافحة تلك اليد الممدودة إليه وقبل البيعة دون تردد وأجاب على كتاب البيعة فى ٢٢ ربيع أول ١٣٤١ (٢٢ نوفمبر ١٩٢٢) فقال أعزه الله : « وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التى أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة فى تحقيق غايتكم التى أجمعتم عليها فى مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهادا صادقا بالأنفس والثمرات فى شخصى فأخذتها داعيا الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكلل مساعيها كلها بالنجاح . ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التى طالما سعيت إليها وجدت من واجبى أن أتلقى طلبكم بالقبول وأن أتحمل المسؤلية العظمى التى رأت الأمة تكليفى بها ، فعلى إذن أن أعمل بجد معكم . ولكن لا تنسوا أننى بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لى على شىء . إنى أعلم أن الحياة الخالدة هى للأمم لا للأفراد ، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هى التى تنصرف إلى صالح الجميع ، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة . إذ من حق كل شعب أن يسيطر على شئونه ،

والناس منذ نشئوا احرار . وقد أظهر شعبنا فى كل أدواره مقدار محبته للحرية فدفع مهوراً غالية ، فلا يصح لأحد أن يطمع فى استعباده والاستبداد بشئونه . لقد اشترطتم على الشورى وهى أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها . هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ماهى عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد ، فلذلك أكل إلى الهيئة المركزية لما أبدت من الحمية والعدل والدراية أن تستمر على إدارة شئون القطر الطرابلسى ، ولى الثقة العظيمة فى حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيدوا مساعى الهيئة الملية أن يتحملوا مشاق المسئولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطنى الذى شيدوه وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ويثبت الأقدام ويقهر الأعداء ويمن بالنصر الموعود ، انه على ما يشاء قدير » .

كان قبول البيعة فى نوفمبر ١٩٢٢ ، وكان من المتوقع أن تزداد العلاقات توتراً بسبب هذا القبول بين الأمير والطليان ، وبدأ هؤلاء بالفعل يظهرون عداءهم للسنوسية وأميرها منذ أن شعروا بأن الأمير لن يتردد بحال عن توحيد كلمة القطرين الشقيقين ؛ وكان الطليان يتوجسون خيفة من إنشاء إمارة ليبية كبيرة من أيام اجتماع سرت ثم تحققت مخاوفهم الآن عند قبول البيعة . فإذا تذكرنا أن الحكومة الإيطالية لم تقدم على إبرام معاهدة الرجمة إلا مرغمة على ذلك إرغاماً بحكم الظروف السياسية فى داخل بلادها وفى برقة ذاتها على نحو ماسبق بيانه ، اتضح لنا مقدار ذلك الحقد القديم الذى أثار كوامنه الآن انعقاد لواء الإمارة على القطر الليبي بأجمعه للسيد محمد إدريس السنوسى . وكان العملاء الطليان منذ عام ١٩٢٠ وعلى الرغم من قبول دولتهم الاتفاق مع السيد إدريس ، قد حاولوا التخلص من الأمير بشتى الطرق ، ثم لم يحجموا عن سلوك أشد هذه الطرق نذالة وجبنا عند ما استطاع ركلاؤهم أن يدسوا السم للسيد . فقد مرض السيد فى عام ١٩٢٠ ومع أنه طلب المعالجة فى القطر المصرى واستأذن الحكومة فى الدخول إلى مصر بقصد المداواة ورحبت الحكومة المصرية بمجىء سموه فقد حال الطليان دون سفره ثم أصروا على أن يعالجوه هم بأنفسهم ؛ ولكنهم بدلا من أن يعالجوا سموه مما كان يشكو منه اقتصر عمل أطبائهم على وصف بعض العقاقير « المقوية » ؛ وبلغ عبد الرحمن عزام وهو ما يزال وقتذاك بمصراته من أحد ضباط الطليان الذين اعتنقوا المذهب الاشتراكى أن الحكومة الإيطالية تنوى الخلاص من الأمير بدس السم له فيما يتناوله من عقاقير وأدوية على أيديهم ؛ فبادر العزام حرصاً منه على حياة الأمير بإرسال أحد المجاهدين من الضباط ويدعى عبد المولى الحاسى حتى يبلغ السيد إدريس « أن الجماعة قد قرروا أن يسقوه السم » . غير أن الرسول عند ما جاء يبلغ رسالته وجد السيد يعانى آلام المرض المبرحة

فلم يشأ أن يزيد من إزعاج السيد بتبليغه هذه الرسالة. وعلى هذه الصورة الوضيعة نفذ الطليان مكيدتهم ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحرم الأمة الليبية العربية المجاهدة زعامة السنوسية ، فسلم الأمير ولكنه ظل من ذلك الحين يشكو المرض. وعند ما جاءت الوفود من طرابلس تعرض على سموه بيعة الإمارة كانت العلة قد اشتدت بالسيد حتى اقتضاه الأمر أن يلزم فراشه وصار لا محيد عن السفر إلى مصر حتى يبل من مرضه . وكان مما زاد الموقف خطورة على خطورته حتى بات يخشى على حياة الأمير أن العلاقات كانت قد تحرجت بينه وبين الحكومة الإيطالية منذ حدوث الانقلاب الفاشيستى المعروف بإيطاليا فى أكتوبر ١٩٢٢ ، وتكرر وقوع المصادمات بين الطليان وبين الوطنيين فى برقة ، فطلب الأمير ثانية أن يخرج إلى القطر المصرى للمداواة وأصر الطليان بدورهم على رفضهم ؛ وعند ما اشتدت وطأة المرض على الأمير لم يلبث الطليان أن عرضوا على سموه إحضار بارجة تنقله إلى إيطاليا « للمداواة » بها ؛ ولم يغب عن الأمير غرض الطليان الحقيقى من هذه « الأريحية » المريبة وبخاصة عند ما أخذ هؤلاء يبذلون ما فى وسعهم من جهد وحيلة لدى الحكومتين الانجليزية والمصرية حتى لا تأذنا لسموه بالدخول إلى مصر . ثم أقاموا قوة للمراقبة الدقيقة على طول الساحل لمنع سموه من مغادرة برقة . وكان فى هذه الظروف أن بلغ الأمير أن السيد مرغنى الإدريسى قد وصل إلى السلوم فى انتظار سموه لاستقباله ومرافقته إلى القاهرة ، فصح عزم الأمير على مغادرة برقة . وفى ٢١ ديسمبر ١٩٢٢ خرج السيد محمد إدريس من إجـــدابية ، وخرج معه عبد الرحمن عزام ونورى السعداوى ومحمد الصادق بلحاج فى طريقهم إلى مصر ، وأشاع كبار السنوسية أن السيد إنما يبغى الذهاب إلى الكفرة وذلك حتى لا يمنعه الطليان وصحبه من مغادرة إجدابية واجتياز الحدود إلى مصر، فوصل سموه مع من رافقوه إلى جالو فى أول يناير ١٩٢٣ ثم بلغ الجغبوب بعد اثنى عشر يوماً . وفى ١٨ يناير وصل إلى سيوه ومنها قصد مع صحبه إلى مرسى مطروح ثم إلى مريوط فبلغها فى ٢٩ يناير . وهناك وجد قطاراً أعدته الحكومة المصرية لنقل سموه فبلغ القاهرة فى ٢٧ يناير ١٩٢٣ ، واستقبل استقبالا فخماً رائعاً ، فأرسل المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول مندوباً خاصاً لاستقباله ، كما خف لاستقبال الأمير والترحيب بمقدمه عظماء القوم وأهل الفضل من المصريين ورؤساء العرب ووجهائهم وكبار أدباء الأقطار الشقيقة ، الشام وفلسطين والعراق ، ونزل الأمير بالقاهرة .

وكان مجىء السيد إدريس إلى مصر منذراً ببداية الكفاح المرير فى برقة ، ذلك بأن الأمير على الرغم من مرضه الشديد كان قد اتخذ من الاجراءات ما يكفل استئناف جهاد العرب ضد حكومة الطليان الغاشمة .

الفصل العاشر

كفاح العرب فى برقة وطرابلس

دلت محاولة الطليان أن يتخلصوا من السيد إدريس فى الوقت الذى كان يتفاوض فيه والى برقة دىمارتينو لعقد اتفاق الرجمة على أنهم كانوا غير مخلصين فى نواياهم وأنهم ما قبلوا إنشاء الإمارة والاعتراف بالسيد إدريس أميراً على برقة إلا مرغمين بسبب ارتباك الحالة السياسية بداخل ايطاليا ذاتهــا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ولعجزهم عن إرسال أية إمدادات كبيرة إلى ليبيا للقيام بعمليات عسكرية واسعة ، وفضلا عن ذلك فإن كل ما كان يريده الطليان من عقد اتفاق الرجمة ــ كما ذكرنا فى الفصل السابق ــ هو أن يستطيعوا الاتصال بالقبائل الضاربة فى داخل البلاد وإنشاء صلات وثيقة معها تمكنهم من إضعاف شوكة السنوسية ونفوذها. واهتم الطليان اهتماما عظيما بمسألة نزع الأسلحة من العرب وكان إصرارهم على نزع الأسلحة من أقوى الأسباب التى أدت إلى استحكام الخلاف بينهم وبين الأمير ، ذلك بأن العرب ما كانوا يقبلون البتة أن يسلموا أسلحتهم طوعا ، بل لابد من إرغامهم على ذلك إرغاما. وبذل السيد إدريس قصارى جهده حتى يبين للطليان أنه من المتعذر إقناع العرب بتسليم سلاحهم ، وأنه من الأفضل والأجدى أن يقلع الطليان عن هذه الرغبة. ولكن هؤلاء بدلا من أن يسمعوا لنصح الأمير صاروا ينتهزون فرصة حضور العرب إلى المدن ويعمدون إلى نزع سلاحهم عنوة واقتدارا ، وقابل العرب هـــذا العمل بضروب متنوعة من الانتقام لأنفسهم فوقع الاصطدام بين الفريقين وصار العرب يطلقون النار على سيارات الطليان ودورياتهم ، وعظمت شكايات الطليان مما سموه «اعتداءات العرب عليهم» وكرروا الشكوى للأمير ، وعبثاً حاول السيد إدريس أن يقنع الطليان بأنهم وحدهم أصحاب المسئولية عن وقوع هذه الحوادث وإثارة الفتن والقلاقل والهياج بين العرب بسبب إصرارهم على جمع الأسلحة منهم عنوة ونبذ نصيحة السيد ، وتحدث الطليان من ذلك الوقت المبكر عن «نقض» العرب اتفاق الرجمة ثم أخذوا يظهرون نواياهم الحقيقية عندما جاءت الوفود من طرابلس تحمل بيعة الإمارة للسيد إدريس على نحو ما سبق بيانه ، فأوقفوا تنفيذ اتفاقاتهم وعملوا على تعطيل القانون الأساسى بصورة أقنعت العرب والمجاهدين بأن الطليان لم يكونوا جادين عند ما قطعوا على

أنفسهم المواثيق والعهود بإنشاء الحكومة الوطنية التى تكفل للبلاد الهدوء والسكينة . ومن أواسط عام ١٩٢٢ وقبل أن يضطر الأمير إلى مغادرة البلاد بدأت تتأزم الأمور بين الطليان والعرب فى برقة ، وكان مما أنذر ببدء هذا التحرج فى العلاقات قتل أحد المزارعين الطليان فى القويهات ويدعى رونونى، إذ اتهم الطليان مستشار النظارة فى الأدوار الشيخ صالح العوامى شيخ زاوية بنغازى بأنه كان اليد المحركة فى هذه الحوادث ، وفى واقعة قتل رونونى ، وطلب المتصرف الإيطالى روليني من السيد صفى الدين فى الأبيار أن يبعد الشيخ صالح العوامى إلى إجدابية أو جالو لأن الحكومة — على حد قوله — لديها ما يؤكد اشتراك الشيخ صالح فى المشاغبات ، وتعرف أن «الثوار» يزورون الشيخ ليلا ، وأن لديه فى محل إقامته بعض الأشياء التى أخذها العرب من الطليان فى أثناء مصادماتهم معهم . وكان هذا ولا شك اتهاما خطيراً . فطلب السيد صفى الدين أن يعرض الأمر على عمو السيد إدريس وذهب لمقابلته ومعه الشيخ صالح العوامى، ووجد الأمير فى زاوية القطوفية ، ورفض السيد إدريس تنفيذ مطالب الطليان دون أن يسبق ذلك تحقيق فيما نسب إلى الشيخ صالح وثبوت التهمة عليه وإدانته ، فعاد السيد صفى الدين إلى الأبيار ومعه الشيخ صالح (٨ صفر ١٣٤١ ، ٣٠ سبتمبر ١٩٢٢) ، وما إن وصل صفى الدين إلى الأبيار حتى علم بوقوع حادث كان فى نظر الطليان أعظم خطورة من حادث العوامى ويعرف فى تاريخ الجهاد فى برقة باسم واقعة البياضة .

فقد حدث فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٩٢٢ أن التقى بعض العرب عند البياضة بين المرج وشحات بسيارة بريد للطليان ، فوقع الاصطدام بين العرب والطليان إذ أطلق الحرس الإيطالى النار على العرب ، فعطل هؤلاء عجلات السيارة وأوقعوا بالحرس ، وثارت ثائرة الطليان وعدوا الشيخ صالح العوامى مسئولا عن وقوع هذا الحادث كذلك . ولما عجزوا عن القبض على «المعتدين» ذهبوا إلى الأبيار واقتحموا منزل السيد صفى الدين وطلبوا القبض على الشيخ صالح وأصروا على القبض عليه عنوة ولكن صفى الدين امتنع عن تسليمه لهم ووجد أنه قد يكون من الخير إذا شاء المحافظة على حياة الشيخ صالح وهو رجل مسن ، أن ينال من الطليان تعهداً بعدم إلحاق الأذى به وعدم المساس بكرامته أو إهانته . وتعهد روليني المتصرف الإيطالى بذلك ، ثم وعد باستئناف المذاكرة فى مسألة الشيخ صالح فى اليوم التالى ، وخرج الشيخ مع المتصرف وأوفد السيد صفى الدين مندوبين من قبيلة الشيخ موسى البرعصى ثم الشارف الغريانى للمحافظة على الشيخ وكانت تنتهى هذه الواقعة بسلام لولا أنه حدث فى مساء اليوم الذى تم فيه إلقاء القبض على العوامى أن حضر إلى الأبيار رسول إلى السيد صفى الدين من قبل الشيخ عثمان العنيزى ينذر السيد بأن الطليان يضمرون خلافه

ما يظهرون وأنهم سوف يحضرون فى الغد لإلقاء القبض على السيد صفى الدين نفسه بدلا من المذاكرة المزعومة وأن من واجب السيدصفى الدين أن يغادر الأبيار بكل سرعة .

وكان الشيخ عثمان العنيزى رجلا وقوراً صقلته التجارب وقع عليه الاختيار عند افتتاح البرلمان ليتولى الرئاسة بوصفه أكبر الأعضاء سناً ، ثم حضر جميع الدورات البرلمانية بعد ذلك ، ويقول السيد صفى الدين بعد أن أطنب فى صفات الشيخ عثمان العنيزى ، وكان من الشائع أنه كانت هناك صلات بين الشيخ عثمان وبين الطليان ، ولكنه من الثابت قطعا أن الشيخ عثمان العنيزى كان عظيم الولاء للسنوسية ، بل إنه على العكس مما أذيع عنه وقتذاك ، كان على اتصال مستمر مع زعمائها خصوصا فى معسكر المجاهدين فى جخرة بالبرقة الحمراء مع الشيخ صالح العوامى ، ثم (مع السيد صفى الدين نفسه) من وقت اشتداد النضال مع الطليان منذ عام ١٩١٤ . . والواقع أن الشيخ عثمان العنيزى كان من أكبر مؤيدى سياسة السيد إدريس ، وجاء الآن تحذيره للسيد صفى الدين فى الوقت المناسب من غدر الطليان برهانا ساطعا على صدق ولائه . وكانت وفاة الشيخ عثمان العنيزى رحمه الله فى ٤ أغسطس ١٩٢٣ . وبمجرد أن وصلت رسالة السيد صفى الدين خرج السيد من الإبيار متخذاً من ظلام الليل ستاراً يخفى حركاته وتوجه إلى جردس العبيد ، ثم قدم استقالته من رئاسة البرلمان احتجاجا على سلوك المتصرف الإيطالى . وعند ما علم الطليان باستقالته حاولوا أن يوسطوا الأمير حتى يقنع السيد صفى الدين باستردادها ، ولكن دون جدوى . وخرج صفى الدين من الجردس إلى إجدابية فوصلها فى ٢٢ أكتوبر ١٩٢٢ .

وكان حادث العوامى وما ترتب عليه من استقالة السيد صفى الدين من رئاسة البرلمان مؤذنا ببداية نضال العرب بصورة جدية ضد الطليان ، فأحرق المجاهدون ثكنات البعثة الإيطالية — وهى بعثة اتصال لدى الأمير — فى الزويتينة فى ليل ١٤ — ١٥ اكتوبر ١٩٢٢ واضطرت البعثة إلى الهرب على ظهر إحدى السفن من الزويتينة . وكان فى أثناء هذه الحوادث أن قبل السيد إدريس الاجتماع بالوفود الطرابلسية التى جاءت تعرض على سموه بيعة الإمارة على الرغم من تحذيرات الطليان وتهديداتهم . وأدرك هؤلاء أن السنوسية قد صممت على إظهار العداء لهم بصورة سافرة طالما أنهم لا يوفون بعهودهم . ولكن الطليان لم يكن فى وسعهم فى هذه الآونة أن يظهروا عداءهم للسنوسية وتمسكت الحكومة المركزية فى رومة بعدم قطع العلاقات بينها وبين الأمير ، بل إن الوالى الجديد بكارى أخذ يبذل قصارى جهده عند وصوله إلى بنغازى حتى يعمل على إزالة أسباب الخلاف بين الطليان والسنوسية .

وكان يقوم بعمل الوالى منذ وفاة دى مارتينو وكيله (لويجى بنتور) ، فحضر الآن بكارى

الذى وصل إلى بنغازى فى أكتوبر ١٩٢٢ وشرع ينفذ بعض ما اشتملت عليه معاهدة الرجمة من مواد ، غير أن هذه المساعى المبدئية سرعان ما توقفت عند ما تولى الفاشيست وعلى رأسهم السنيور موسولينى رئاسة الحكومة فى رومة . فقد بادر هؤلاء بعزل بكارى ذلك بأنهم اعتبروا ما فعله فى سبيل استمالة السنوسية وحسم كل خلاف معها — على حد قول كتابهم — إهانة بالغة تلحق الأذى بسمعة ايطاليا وشرفها، فأوفدوا بدلا منه الوالى بونجيوڤانى لتنفيذ سياسة الشدة والصرامة الجديدة . وكشف بونجيوڤانى عن حقيقة نوايا الحكومة الإيطالية نحو السنوسيين وإصرارها على مقاومة السيد إدريس ومحاربته فى اجدابية والجردس والجبل ، وعدم التقيد بالتزامات معاهدة الرجمة والإصرار على نزع الأسلحة من العرب حتى إذا تم للطليان ما أرادوا بسطوا سلطانهم على القطر البرقاوى بأجمعه . وكان فى هذه الظروف، أن اضطر السيد إدريس إلى مغادرة برقة الى مصر فى يناير ١٩٢٣ على نحو ما تقدم ذكره فى الفصل السابق .

غير أن السيد إدريس أمام هذا التغيير الظاهر فى سياسة الطليان وخطتهم ما لبث أن عمد إلى تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الإيطالى فى القطر الليبى قبل مغادرته البلاد ، فبحث هذا الأمر مع الزعماء والرؤساء البرقاويين من جانب ، ومع بشير سعداوى والوفود الطرابلسية من جانب آخر . وقر رأى الأمير على أن يعهد بالأعمال السياسية والعسكرية فى برقة الى السيد عمر المختار نائبا عن سموه فى تنظيم الأدوار (أى معسكر المجاهدين) ، وأن يعهد بالمسائل الدينية وما يتعلق بالسنوسية وشئون الأسرة الكريمة إلى أخيه السيد محمد الرضا ، وكان السيد رضا فى جالو نائبا عن سموه فى إدارة شئونها . وزود الأمير رجاله بالتعليمات اللازمة وأوصاهم باتخاذ الحيطة دائما من غدر الطليان الذين كان غرضهم فى اللحظة الأخيرة وقبيل مغادرة الأمير البلاد القبض على رؤساء السنوسية العاملين : السيد إدريس نفسه والسيد الرضا والسيد صفى الدين . وفضلا عن ذلك فقد اتفق السيد إدريس قبل سفره مع السيد عمر المختار — بصدد بعض زعماء المجاهدين الذين توسم فيهم الأمير المقدرة والكفاءة حتى يكونوا رؤساء على أدوار المجاهدين فى برقة ، وترك التعليمات المفصلة لتشكيل الجيوش بقيادة الرؤساء السنوسيين السيد محمد الصديق بن السيد محمد رضا وأخيه الحسن بن الرضا وقجة بن عبد الله السودانى والفضيل بو عمر والسيد يوسف بو رحيب والسيد حسين الجويفى والسيد عبد الله بو سلوم على أن يتولى قيادة هذه الجيوش جميعا السيد عمر المختار .

وكان الأمير عقب قبوله بيعة الإمارة التى جاء بها الطرابلسيون إلى اجدابية قد وافق على رأى تقدم به بشير السعداوى وقتذاك بصدد إنشاء هيئة مركزية فى برقة من رؤساء القبائل

تضطلع بأعباء الإدارة ، واختار الأمير لرئاستها الشيخ مختار الغدامسي وهو من القضاة الشرعيين ومن أكبر علماء البلاد ، وعلاوة على ذلك فقد بحث الأمير مع بشير سعداوي مسألة استمرار المقاومة في القطر الطرابلسي ضد الطليان ، ووافق على ذهاب السيد صفي الدين مع بشير سعداوي والوفد الطرابلسي إلى مصراته لمواصلة الجهاد في طرابلس .

وما إن غادر الأمير إجدابية حتى عقدت الهيئة المركزية البرقاوية جلسات عدة للبحث في شئون البلاد وتهيئة وسائل الكفاح ضد العدو وحضر بشير سعداوي جلسات الهيئة ، وكان غرض بشير أن تتألف جبهة متحدة من برقة وطرابلس لمتابعة الجهاد ضد إيطاليا دون أي إبطاء . وبعد تبادل الرأي ظفر السعداوي بموافقة تامة على رأيه ، ووقع الحاضرون على قرار بإثارة الحرب ضد إيطاليا ، ووافق السيد محمد رضا على ذلك نزولا على رأي الجماعة وتأهب السعداوي لمغادرة برقة إلى طرابلس ، وخرج معه السيد صفي الدين في ٢١ رجب ١٣٤١ (٩ مارس ١٩٢٣) . ومع أن الطليان قد انتصروا على المجاهدين في طرابلس فإن الاعتقاد كان لايزال قائما على أن مصراته وترهونة تتزعمان الجهاد وتمضيان فيه بنجاح ، ولم يعرف البرقاويون الذاهبون مع بشير سعداوي إلى طرابلس شيئا عن حقيقة الموقف في القطر الشقيق حتى إذا وصلوا في طريقهم إلى مصراته إلى محل يسمى منقار النسر صادفوا من أخبرهم بهزيمة المجاهدين في طرابلس . وكان من بين أعضاء الوفد السنوسي الذاهب مع بشير أحمد (باشا) سيف النصر وأخوه عمر سيف النصر إلى جانب السيد صفي الدين ، ويقول السيد صفي الدين « وعند وصولنا إلى النوفلية وجدنا بها خالد بك القرقني وعثمان بك الجزاوي فارتحلنا جميعا إلى سرت .

وفي أثناء الطريق وصلنا خبر مشئوم مؤداه أن محمد سعدون السويحلي أخا رمضان السويحلي قد استشهد في القتال ، وكان محمد سعدون من خيرة القواد الذين تولوا قيادة العمليات العسكرية في الحركة الأخيرة . على أننا تابعنا السير بعد ذلك حتى بلغنا سرت ، وهناك قابلنا أحمد بك المريض ، ثم ذهبنا إلى وادي نفد بين مصراتة وورفلة ، وفي ورفلة وجدنا أحمد شتيوي وهو من إخوة رمضان السويحلي ، وكان أحمد شتيوي متصرفا على مصراتة . ثم وجدنا معسكر المجاهدين العام » . وقد بذل بشير سعداوي جهوداً صادقة حتى يحشد جموع المجاهدين حول السيد صفي الدين وتحت لواء الزعامة السنوسية . وكان قائد معسكر المجاهدين الطرابلسيين في وادي نفد حوالي ثمانية شهور من شعبان ١٣٤١ إلى شهر جمادى الأولى من عام ١٣٤٢ (إبريل — ديسمبر ١٩٢٣) .

وسعى السيد صفي الدين من أجل التوفيق بين القبائل وتوحيد كلمة المجاهدين وكان يحول

دون جمع الكلمة عدم اطمئنان عبد النبي بلخير زعيم ورفله وخوفه من أن تعمل أسرة السويحلي للانتقام منه لقتله رمضان شتيوي زعيمها ، ، أضيف إلى هذا أن عبد الجليل سيف النصر كان لايزال يحقد على مصراتة ويعقد علاوة على ذلك آمالا عظيمة على أن تمد هيئة الإصلاح المركزية يد المعونة إليه فتعطيه قوة يتمكن بفضلها من الهجوم على فزان وانتزاعه من قبضة خليفة الزاوية ، ولما كان هذا الأخير على اتصال بهيئة الإصلاح المركزية فإن هذه الهيئة بطبيعة الحال لم تجب عبد الجليل سيف النصر إلى طلبه ، فانسحب عبد الجليل من معسكر وادي نفد وكان لانسحابه أثر بالغ فى إضعاف روح المجاهدين المعنوية ، ثم تبعه أحمد المريض زعيم ترهونة فانسحب هو الآخر من وادي نفد وذهب إلى سرت ، وخرج من سرت بأسرته إلى جالو ؛ وهكذا وجد السيد صفي الدين بعد فترة من الزمن أنه لم يبق بدور المجاهدين فى وادي نفد سوى أحمد السويحلي إلى جانبه . وكان مازاد الطين بلة أن فاجأ ابراهيم السويحلي الدور لمجرد النهب ولم يستطع السيد صفي الدين أو أحمد السويحلي (عم إبراهيم) فعل شيء لمنعه لأن إبراهيم بوصفه قائدا على قوات المجاهدين كان صاحب الكلمه المسموعة فى الجيش وقائده الأعلى . فاضطر السيد صفي الدين وقد شاهد انحلال المقاومة ضد الطليان واستمرار هؤلاء فى احتلال البلاد إلى الذهاب إلى جالو وبعث إلى السيد إدريس بالقطر المصري ينبئه بكل ماوقع فأجابه السيد إدريس بأن له أن يختار إما البقاء فى جالو وإما الذهاب إلى جغبوب ، وارتحل صفي الدين إلى الجغبوب فى صفر ١٢٤٢ (سبتمبر ١٩٢٣) .

وكان بشير سعداوي طول هذه المدة يسعى من جانبه لجمع كلمة المجاهدين الطرابلسيين فعقد عدة اجتماعات لتحقيق هذه الغاية فى قرضابية ثم فى قصر بوهادي واستطاع أن يؤسس مركزاً للجهاد فى المكان الأخير ، وتسلم الحكم فى سرت وجمع شتات المنهزمين اللاجئين إلى سرت وكانوا حوالى خمسين أو ستين ألفاً ، وثبت المجاهدون فى مصراته وترهونة أقدامهم نتيجة لهذا العمل ولكن الطليان بقواتهم الجرارة وطائراتهم استطاعوا القضاء على المقاومة رويداً رويداً، ثم هاجموا فى آخر الأمر ورفلة وعندئذ انحلت المقاومة تماماً واضطر بشير سعداوي إلى مغادرة سرت فى عام ١٩٢٤ بعد أن مكث بها سنة تقريباً . وكان خروج السعداوي من البلاد ، وهو أشد المجاهدين الطرابلسيين تحمساً فى هذه الآونة العصيبة ومن أعظمهم مثابرة على الجهاد ويتحلى برجاحة العقل والرزانة والهدوء ويتصف بالقدرة على النظر البعيد وتقليب وجوه الرأي فى عواقب الأمور — نقول إن خروجه كان مؤذناً بأن « الثورة » قد انتهت فعلا وأن الأمر قد استتب للطليان فى طرابلس أخيراً وأن برقة وحدها هى التى أصبحت تحمل على عاتقها عبء الجهاد منفردة ضد العدو . وكان والى برقة الجديد بونجيوفاني قد بدأ يحل الأدوار

المختلفة فى برقة عنوة واقتداراً وتم له ما أراد فى الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٢٣ ، فخلت الحكومة فى ٦ مارس أدوار الأبيار وتكنس وسلنطة والخيلى وعكرمة ؛ وانتهز بونجيوفانى فرصة افتتاح الدورة البرلمانية فى اليوم نفسه فخطب خطبة طويلة ذكر فيها أن السنوسيين كانوا غير مخلصين للحكومة الإيطالية ثم أبلغ سامعيه فحوى التدابير التى وجد من الضرورى اتخاذها فى سبيل المحافظة على احترام القوانين واستتباب النظام على حد قوله . وكانت أول هذه التدابير احتلال إجدابية ذاتها فى ٢١ أبريل ١٩٢٣ وهى مقر الإمارة السنوسية ، وفى يوم ٢٤ إبريل أعلن الوالى « أن كل الاتفاقات التى أبرمتها إيطاليا مع السنوسية قد أصبحت لاغية ولا أثر لها » . وفى أول مايو من السنة نفسها عاد بونجيوفانى فأكد إلغاء هذه الاتفاقات فى منشور أعلن فيه « أن السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة تشبه غيرها من الطرق الإسلامية وأن نشاطها يجب أن يظل نشاطاً دينياً محدوداً فحسب » ؛ وفى يوم ٣ مايو ذهب الدروقاندى الوزير الإيطالى فى مصر لمقابلة الأمير السيد إدريس وأبلغه أن الاتفاقات التى عقدتها إيطاليا مع سموه قد أصبحت لاغية ولا وجود لها ؛ ومن ذلك الحين بدأ النضال من غير هوادة أو لين بين المجاهدين والطليان فى برقة .

وكان المجاهدون منذ احتلال اجدابية قد انسحبوا إلى الجنوب ثم رابطوا فى زاوية القطوفية وجعلوا منها قاعدة لمناوشة الطليان فى اجدابية وشرعوا يوسعون دائرة عملياتهم حتى تشمل منطقة الجبل الأخضر بأكملها بقيادة السيد عمر المختار . ووجد المختار وقد استؤنف الجهاد على نطاق واسع أن من واجبه الاتصال بالأمير السيد إدريس فوراً حتى يطلعه على ما وقع من حوادث وحتى يتلقى من سموه التعليمات المفصلة بصدد الجهاد ضد العدو ، وعلى ذلك فقد قرر السيد عمر المختار الذهاب إلى مصر واستطاع اجتياز الحدود فى منتصف عام ١٩٢٣ ، ثم تمكن من مقابلة السيد إدريس (بمصر الجديدة) ولقى كل إعزاز وتكريم فزار أهل البيت النبوى الكريم فى القاهرة واستضافه صديقه القديم عبد الرحمن عزام ، فأقام المختار فى ضيافة العزام بحلوان مدة . وكان المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها وقد أظهر مبلغ ولائه العظيم لها فى أثناء إقامته بمصر عندما حاول جماعة من قبيلة المنفة وهى من قبيلة السيد عمر المختار ، وكانوا قد أقاموا بمصر ، أن يقابلوا السيد عمر للترحيب به فاستفسر المختار قبل أن يأذن لهم بذلك عما إذا كانوا قد سعوا لمقابلة الأمير عند حضوره إلى مصر فلما أجاب هؤلاء بالنفى معتذرين بأن أسباباً عائلية قهرية منعتهم من تأدية هذا الواجب رفض المختار مقابلتهم قائلا « وكيف تظهرون لى العناية وتحضرون لمقابلتى وأنتم الذين تركتم شيخى الذى هو ولى نعمتى وسبب تجهيزى . أما وقد فعلتم ذلك فإنى لا أسمح

لكم بمقابلتي ولا علاقة من الآن بيني وبينكم » . فما إن بلغ السيد إدريس ما فعله المختار مع الجماعة حتى أصدر إليه أمره بمقابلتهم فامتثل المختار لأمره . وحدث عند خروج السيد عمر من القاهرة فى طريقه إلى برقة لمواصلة الجهاد أن اجتمع به مشايخ قبيلته الموجودون بمصر من المتقدمين في السن وحاولوا أن يثنوه عن عزمه بدعوى أنه قد بلغ من الكبر عتيا وأن الراحة والهدوء ألزم له من أى شيء آخر وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائداً غيره لتزعم الثورة والجهاد فى برقة ، فغضب المختار غضبا شديدا وكان جوابه قاطعاً فاصلا فقال لمحدثيه « إن كل من يقول لى هذا الكلام لا يريد خيراً لى لأن ما أسير فيه إنما هو طريق خير ولا ينبغى لأحد أن ينهانى عن سلوكها ، وكل من يحاول ذلك فهو عدولى » وقد ظل المختار طوال سنوات الكفاح المريرة التالية ، على عهده ومتمسكا بولائه للسنوسية ويعمل لما فيه الخير لمصلحة الجهاد والمجاهدين فى برقة ، وكان المختار يعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذا العمل إنما هو فرض يؤديه وواجب دينى لا مناص منه ولا محيد عنه وكان لنشأة المختار فى أحضان السنوسية وتحت رعايتها أعظم الأثر فى ذلك .

فقد ولد السيد عمر من أبوين صالحين بالبطنان فى دفنا حوالى عام ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢ ميلادية) ووالده السيد مختار بن عمر من قبيلة المنفه وينتسب إلى قبيلة بريدان المنفه من أسرة فرحات . وقد توفى الوالد فى أثناء سيره إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وبصحبته زوجه الحاجة عائشة والدة المختار ، كما كان معه فى هذا الحج الغريانى الشمسى والد الشارف الغريانى ، فأوصى الوالد رفيقه الغريانى الشمسى بولديه عمر ومحمد خيراً ، وكان ولداه يقيمان وقتذاك بزنزور يدرسان بزاويتها ، ثم ما لبث عمر المختار أن ذهب إلى زاوية الجغبوب لإتمام دراسته فمكث بها ثمـــانية أعوام ، وأظهر المختار من الصفات الخلقية السامية ما حبب فيه شيوخ السنوسية وزعماءها فتمتع بعطفهم ونال ثقتهم حتى أن السيد محمد المهدى السنوسى عند انتقاله من جغبوب إلى الكفرة (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٥ م) اصطحب المختار معه . وفى عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧) عينه السيد المهدى شيخاً لزاوية القصور بالجبل الأخضر قريبا من المرج ، وكان يقطن بهذه الزاوية وحولها قبيلة العبيد وهم أناس عرفوا بشدة المراس وقوة الشكيمة ، وقد اختاره السيد المهدى لهذه الزاوية حتى يسوس شئونهم باللين تارة وبالعنف تارة أخرى ، وحقق المختار ماعقده السيد المهدى على إدارته الحازمة من آمال . وعلى ذلك فإنه عند ماقرر السيد المهدى الانتقال إلى السودان الغربى فى الظروف التى سبق ذكرها كان المختار فى طليعة من ذهبوا إلى قرو وذلك حتى يسهم بنصيب وافر فى النضال الذى نشب وقتذاك بين السنوسية والفرنسيين فى المناطق الجنوبية وحول واداي .

وأقام المختار فى قرو مدة من الزمن ، ثم عينه السيد المهدى شيخا لزاوية عين كلك فاستد المختار بالسودان الغربى وقتا طويلا نائبا عن السيد المهدى ويقوم بتعليم أبناء المسلمين وبث بالإسلام فى هذه الأصقاع النائية . وبعد وفاة السيد المهدى (١٣٢٠ هـ ، ١٩٠٢م) استدع المختار إلى برقة ثم عين فى العام التالى شيخا لزاوية القصور مرة أخرى فبذل الهمة فى حـ قبيلة العبيد وسياسة شئونها حتى سلس له قيادها ، وشكرت له الحكومة العثمانية هذا النجاح واستتباب الأمور فى القصور لأن العبيد كانوا من أكبر القبائل عناداً ويعجز العثمانيون عـ إخضاعهم لسلطانهم ، فظل الحكام العثمانيون فى برقة يلجئون إلى المختار حتى يساعدهم فى جمـ أموال العشور والضرائب ، وبقى المختار فى زاوية القصور إلى أن نشبت الحرب الليبـ الإيطالية فكان السيد عمر من أوائل أولئك الذين لبوا نداء الجهاد وحملوا لواءه .

وكان المختار وقت نزول الطليان فى بنغازى بواحة جالو فخف إلى القصور مسرعا وخرج بنجدة عظيمة من العبيد إلى مقر الجيش العثمانى فى الرجمة وكان معه الشيخ أحمد العيساوى شيخ زاوية بنغازى والشيخ محمد الأخضر العيساوى — من علماء برقة بالأزهر الشريف الآز وأحد أفاضل الكتاب الذين أرخوا للسنوسية — واتخذ المختار مقامه فى دور بنيه ، ثم اشتبك مع الطليان فى معارك عدة فهاجمهم فى بنغازى . ودأب على التنقل بين القصور وتكنس حتى احتل الطليان هذه الأماكن فى سبتمبر ١٩١٣ . فقاد المختار المجاهدين فى أدوار جبل العبيد وعهد إليه السيد إدريس بمهمات عدة ، واتخذ من منطقة دفنا مجالا لنشاطه الواسع بين قبائل منفه ومريم وشوار وحبون . وعندما اشترك السيد أحمد الشريف فى غزو الحدود المصرية الغربية ووقعت المصادمات بين العرب والانجليز ، أسهم المختار فى هذه العمليات العسكرية ، وبعد معارك بيرواز وبوتونس لازم المختار السيد إدريس لتلقى أوامره ؛ وساء المختار أن ينكث الطليان عهودهم وينقضوا اتفاق الرجمة . وفى يونية ١٩٢٢ كان من أكبر الساعين فى تأليف جبهة متحدة تضم البرقاويين والطرابلسيين من أجل النضال ضد إيطاليا . ونظراً لمكانة السيد عمر المختار عند الأمير لم يسع الطليان على الرغم من نشاطه الملحوظ إلا أن يصدروا مرسوماً بتعيينه شيخاً على زاوية القصور فى أغسطس من العام نفسه بناء على طلب الأمير ، وذلك تنفيذاً لما وصلوا إليه من اتفاقات مع السيد إدريس بصدد الزوايا السنوسية (منذ ١٦ أغسطس ١٩٢١) . وعند ما قرر السيد ادريس مبارحة برقة عهد بقيادة المجاهدين العليا الى السيد عمر المختار ، فجعل المختار مقره فى الجبل الأخضر من ذلك الحين إلى وقت وقوعه فى قبضة الطليان بعد عشرة أعوام تقريبا وفى غضون عام ١٩٢٣ قصد المختار إلى مصر لمقابلة الأمير وتلقى أوامره .

وكان فى أثناء هذه المقابلة أن تم الاتفاق بين الأمير والسيد عمر المختار على تفاصيل الخطة التى يجب أن يتبعها المجاهدون فى نضالهم ضد الطليان على أساس إنشاء الأدوار واختيار الرؤساء الصالحين لقيادة المجاهدين فى كل دور من هذه الأدوار فى الجبل الأخضر ، وأن تظل القيادة العليا من نصيب المختار نفسه وزوده الأمير بكتاب فى هذا المعنى إلى السيد محمد الرضا . وعلاوة على ذلك فقد تم الاتفاق بين الأمير والمختار على أن يبقى السيد إدريس بالقطر المصرى حيث يبذل قصارى جهده مع السلطات المحلية لتعطيل مساعى الطليان الذين أرادوا أن يحملوا الحكومتين المصرية والانجليزية على منع المجاهدين من الالتجاء إلى مصر ومنع الإمدادات والمساعدات عن العرب فى برقة .

وكانت مهمة السيد إدريس الى جانب إمداد المجاهدين بكل المساعدات الممكنة فى مصر أن يرسل تباعا الإرشادات والتعليمات اللازمة الى المختار فى الجبل الأخضر ، ثم اتفق الأمير مع المختار على أن ينقل الحاج التواتى البرعصى تعليمات الأمير إلى السيد عمر . وما إن تزود المختار بهذه التعليمات حتى غادر القاهرة ؛ وعند وصوله إلى السلوم وجد بعض الرفاق فى انتظاره فأخذ الجميع حاجتهم من المؤن الكافية لرحلتهم المزمعة إلى الجبل الأخضر وغادروا السلوم إلى برقة

وقد حدث فى أثناء وجود المختار فى مصر أن اشتبك الطليان فى معركتين كبيرتين مع المجاهدين فى بير بلال والبريقة فى ذى القعدة ١٣٤١ (يولية ١٩٢٣) . وتفصيل ذلك أن الطليان الذين ضجروا من مناوشات المجاهدين لهم عولوا على الانتقام من السنوسية ومن العرب فجهزوا حملة عسكرية من خمسة الآف مقاتل زودوهم بمختلف أدوات الحرب الحديثة ويشد أزرهم حوالى مائة من السيارات المصفحة وغيرها ، وانطلق الطليان يطلبون منازلة المجاهدين فالتقى الفريقان عند بير بلال ووقعت بين الفريقين معركة شديدة تمكن المجاهدون فى أثنائها بقيادة قجة عبد الله السودانى من أن يحطموا القوة الإيطالية ولو أنهم تكبدوا خسارة فادحة عندما استشهد فى هذه الموقعة بعض رجالهم المبرزين كالمهدى الحرنة والشيخ نصر الأعمى ؛ وقد حضر هذه المعركة كذلك صالح الإطيوش والفضيل المهشهش وتحمل الفضيل نفقات المجاهدين فى هذه المعركة وفى المعركة التالية التى وقعت بعد الأولى بأربعة أيام فقط . وكان سبب الالتحام فى المعركة الثانية أنه بلغ المجاهدين أن قوة إيطالية أخرى كانت ما تزال فى طريق الساحل نخف المجاهدون سراعا لمقابلتها واشتبكوا معها فى قتال عنيف عند مرسى البريقة ، ودارت رحى الحرب واستطاع العرب أن يوقعوا بالطليان مقتلة

عظيمة لأنه كان من المتعذر على السيارات الحركة السريعة بسبب طبيعة الأرض ، فعطل المجاهدون عجلات السيارات وظلوا يدفعون بالطليان المنهزمين إلى الماء وراءهم فيسقط من نجا من هؤلاء فى البحر وتبتلعه أمواجه حتى جاءت إحدى السفن الإيطالية وأنقذت البقية الباقية منهم . واستشهد من العرب فى هذه المعركة إبراهيم الفيل أحد أبطالهم ورجع المجاهدون بغنائمهم إلى معسكرهم حول زاوية القطوفية ، وكان بعد هذه المعارك أن وصل السيد عمر المختار إلى القطوفية .

ولم تكن رحلة المختار من السلوم إلى برقة خالية من كل حادث ، ذلك بأن جواسيس الطليان سرعان ما طيروا الخبر إلى رؤسائهم أن المختار قد اجتاز الحدود الشرقية فأعد الطليان ثلاث سيارات مصفحة كمنت للسيد عمر وصحبه فى جهة بير الغبى ، وكان غرضهم القبض على المختار وأسره ، فما إن ظهر المختار ورفاقه حتى أمطرهم العدو وابلا من رصاص مدافعهم الرشاشة ، ولكن المختار صمد لهم ، واهتم المجاهدون بإصابة عجلات السيارات فكان لهم ما أرادوا وعندئذ انقضوا على القوة الإيطالية بهذه السيارات فأبادوا أفرادها عن آخرهم ، وكانت هذه الهزيمة الساحقة كافية لأن تلقى الرعب فى قلوب الطليان فاستطاع السيد عمر وصحبه أن يتابعوا سيرهم بعد ذلك ، على مرأى ومسمع من الإيطاليين الذين لم يجرءوا على تعقبهم مرة أخرى حتى بلغوا الجبل الأخضر . وقابلهم عند وصولهم إلى زاوية القطوفية — مكان دور المغاربة — صالح الأطيوش والفضيل المهشهش ، ووقف المختار على تفاصيل واقعة البريقة وحال المجاهدين فى الدور ثم غادر المكان إلى جالو مقر السيد محمد الرضا ليبلغه التعليمات التى تلقاها فى القاهرة من السيد إدريس .

وأبلغ المختار السيد الرضا تعليمات الأمير واتفق الاثنان بناء على ما جاء فى هذه التعليمات على تنظيم الجهاد وإنشاء الأدوار فى الجبل الأخضر . وكانت المقاومة حتى ذلك الوقت لا تتعدى البرقتين : برقة الحمراء وبرقة البيضاء ابتداء من إقليم بنغازى فى الشمال إلى حدود سرت فى الجنوب . فقر الرأى على أن يعود المختار إلى أدوار برقة فيأخذ منها مفرزة كى يبعث بها إلى الجبل الأخضر نواة للمقاومة فى هذه الجهات ، وعلاوة على ذلك فقد أعطاه السيد الرضا بوصفه نائبا عن السيد إدريس الأوامر اللازمة لأدوار المغاربة فى برقة وللمجاهدين فى الجبل تطلب منهم الانضمام إلى الجيش المزمع إنشاؤه فى الجبل الأخضر وتشكيل الأدوار المختلفة وتعيين رؤساء هذه الأدوار والانضواء تحت لواء المختار نفسه ، ثم إمداد السيد عمر بالمؤن والعتاد لمواصلة الجهاد فى الجبل . واقترح المختار على السيد الرضا أن يرسل ابنه السيد الصديق إلى دور المغاربة عند صالح الأطيوش ودور العواقير بقيادة قجة — وهى أدوار

قرية من بعضها بعضا ، ثم غادر السيد عمر جالو إلى برقة وأعد المفرزة المرسلة إلى الجبل الأخضر وعين قائدا عليها مختار محمد ابن أخيه . وعند وصول المفرزة إلى الجبل الأخضر اتصل مختار محمد بالعرب فى جهة الجبل فانضم المجاهدون إلى المفرزة وأمدها الأهلون بالمؤن ثم تشكلت الأدوار وكانت ثلاثة : أدوار البراعصة والعبيد والحاسة . وعين السيد عمر بناء على تعليمات السيد إدريس ثم تفويض السيد الرضا رؤساء هذه الأدوار ، فاختار السيد حسين الجويفى لدور البراعصة والسيد يوسف بورحيل المسمارى لدور العبيد والسيد الفضيل بوعمر لدور الحاسة . وأما القائد الأعلى لهذه الأدوار جميعا فكان السيد عمر المختار نفسه . وبدأ من ثم ذلك الجهاد الطويل الذى استمر متصلا ومن غير هوادة حوالى ثمانية أعوام .

وبدأ النضال فى عامى ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ بوقوع معارك ومناوشات عدة ، ووسع المجاهدون دائرة نشاطهم العسكرى فى الجبل الأخضر حتى خف ضغط الطليان على إخوانهم فى أدوار البرقتين ولمع اسم السيد عمر وسطع نجمه كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر ويستمتع بنفوذ عظيم وأخذ العرب من أهل القبائل القاطنة فى الجبل ينضمون إلى صفوف المحاربين ، وفضلا عن ذلك فقد بادر الأهلون من غير المحاربين بإمداد إخوانهم بما يحتاجونه من مؤن وعتاد وأسلحة ، وكان لقبائل العبيد والبراعصة والحاسة والدرسة والعواقير أكبر نصيب فى هذه العمليات العسكرية ، ولم يكن فى استطاعة الطليان فى هذه المرحلة من الجهاد أن يقوموا بنشاط حربى ملحوظ فى منطقة الجبل الأخضر فقصروا جهودهم على تدبير احتلال ذلك المركز السنوسى العتيد فى الجنوب والذى ظل طوال الأعوام الماضية يمد المجاهدين بالمؤن والذخائر ونعنى به واحة الجغبوب .

فقد أدرك الطليان أهمية هذه الواحة من زمن طويل لأنها كانت أحد مراكز السنوسية الكبيرة التى بدأ منها انتشار السنوسية فى برقة والأقطار المجاورة ، وبها ضريح السيد محمد ابن على السنوسى الكبير مؤسس السنوسية . أضف إلى هذا أنه كان للجغبوب قيمة اقتصادية عظيمة ، إذ احتلت الواحة مركزا وسطا بين مصر وبرقة ثم بين السودان والصحراء الوسطى فكانت تأتيها القوافل من كل جانب ، وعلاوة على ذلك فإن الجغبوب من الناحية (الاستراتيجية) تعد مدخلا هاما من مداخل برقة ويستطيع السنوسيون أن يشرفوا منها على أعمال الجهاد وأن يمدوا قوات المجاهدين بما يحتاجونه من نجدات ومؤن ، ولذلك قرر الطليان الاستيلاء عليها . ولكنه لما كانت الجغبوب من الأراضى المصرية فقد بات يعتبر القيام بأية عمليات عسكرية ضدها اعتداء صريحا على حكومة مصر وهى دولة صديقة فعمد الطليان إلى تذليل هذه العقبة وأخذوا يبذلون نشاطا كبيرا سوف يأتى ذكره فى حينه ، فى

لندن والقاهرة معاً لعرض مسألة الحدود المصرية البرقاوية على بساط البحث ، وأسفرت مساعيهم فى هذا السبيل عن إبرام (اتفاق الجغبوب) بين إيطاليا ومصر بالقاهرة فى ٦ ديسمبر ١٩٢٥ ، وبفضل هذا الاتفاق أدخلت الجغبوب ضمن الحدود البرقاوية وبدأ الطليان بعد ذلك مباشرة يتخذون العدة لاحتلال هذه الواحة .

وكان يقيم بالجغبوب وقتذاك جماعة كبيرة من السنوسيين على رأسهم السيد صفى الدين الذى ارتحل إليها من جالو فى صفر ١٣٤٣ (سبتمبر ١٩٢٤) فى الظروف التى سبق ذكرها وكانت الحكومة المصرية قد أجازت للسيد صفى الدين أن يقيم بهذه الواحة فبعث إليه على عبد الوهاب بك مأمور سيوه بخطاب وافق فيه على بقائه بالجغبوب ما دام لا توجد معه قوة حربية ، فأقام السيد صفى الدين بالواحة حتى شهر رمضان من عام ١٣٤٣ (ابريل ١٩٢٥) وعندما بدأت المفاوضات من أجل تسوية مسألة الحدود حذر الإخوان السنوسيون فى سيوه السيد صفى الدين من أن تسليم الجغبوب للطليان بات قريبا وأن من الخير له أن يرتحل عنها فبارح صفى الدين الجغبوب وقصد إلى سيوه ولكنه مالبث أن قابل عند حطية قربة قوة من الهجانة السودانية المصرية منعته من دخول سيوه ، وأذنت الحكومة المصرية بدخول النساء والأطفال فحسب ، فاضطر السيد صفى الدين ومن معه من أعضاء البيت السنوسى ، السادة إبراهيم السنوسى ومحيى الدين ومحمد الصديق وحسن الرضا إلى العودة إلى الجغبوب فأقاموا جميعا بها إلى وقت إبرام الاتفاق النهائى بين مصر وإيطاليا . وعندئذ بلغ السيد صفى الدين ما يفيد أن الجغبوب قد سلمت فعلا إلى إيطاليا ، ثم أشير عليه بأن يجتاز الحدود المصرية ، فارتحل إلى سيوة . وأما السيد الصديق والسيد الحسن ولدا السيد الرضا فقد عادا إلى جالو ثم ذهب الصديق إلى أدوار المغاربة فى برقة تنفيذا لاتفاق السيد عمر المختار مع السيد محمد الرضا ، فنزل الصديق مع صالح الأطيوش وعبد الحميد العبار وقجة عبد الله السودانى ومحمد بوهدمه والفضيل المهشهش . وأما السيد حسن الرضا فقد اصطحبه معه السيد عمر المختار عند وصوله من جالو إلى دور المغاربة .

أما الطليان فقد أعدوا حملة عسكرية كبيرة تتألف من ألفين من الجنود وفصائل من السيارات المسلحة بالمدافع الرشاشة بلغ عددها ثمانية ، وهذا عدا ست سيارات مصفحة وثلاثمائة وخمسين سيارة أخرى لنقل المؤن والمهمات وانطلقت اثنتا عشر طائرة لمعاونة الحملة التى تسلم قيادتها العامة الكولونيل رونشتى . وكانت هذه ولاشك تجهيزات عظيمة ، غير أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك كله لأن الشيخ حسين المرا كشى شيخ زاوية الجغبوب لم يلبث أن تركها قاصداً إلى سيوة بمجرد أن علم بزحف الطليان على الواحة ، إذ لم يكن لديه

قوات ما لمقاومتهم . وعلى ذلك دخل الطليان الجغبوب دون مقاومة فاحتلوها فى ٨ فبراير ١٩٢٦ وعينوا الشارف الغرياني حارسا على زاويتها ، ثم عول الطليان على منع الشيخ حسين المراكشى من الوصول إلى سيوة ، فاستطاعت طائراتهم أن ترشد عن المكان الذى بلغه الشيخ فى طريقه إلى سيوة وتعقبته قوة من الهجانة تمكنت من إرجاعه إلى جغبوب ، ولم ينقذ الشيخ حسين من تنكيل الطليان به سوى توسط الشارف الغريانى ، وفى مارس من العام نفسه زار الوالى الجديد أرنستو مونبللى واحة الجغبوب .

ولا جدال فى أن سقوط الجغبوب فى أيدى الطليان قد أضعف السنوسيين عموما ، ولو أنه مما يجدر ذكره أن هذه الواحة كمركز لإرسال الإمدادات منه إلى المجاهدين والإشراف على العمليات العسكرية كانت قد بدأت تفقد كثيراً من أهميتها السابقة من أواخر العام الماضى (١٩٢٥) فلم يتأثر بضياعها موقف المجاهدين فى الجبل الأخضر وفى البرقتين بدرجة ملحوظة بل إن الطليان على الرغم من الجهود التى بذلوها لم يستطيعوا خلال العمليات التالية سوى احتلال جردس جرارى وخولان . ومنع المجاهدون كل اتصال بين المستعمرتين برقة وطرابلس وبات ضروريا أن تعمل الحكومة لإعادة هذا الاتصال بينهما وذلك باحتلال منطقة سرت . واضطرت وزارة المستعمرات فى رومة إلى التفكير جديا فى بدء العمليات العسكرية فى هذه المنطقة من أواخر العام السابق . وفى أكتوبر ١٩٢٦ أصدرت أوامرها باتخاذ التدابير اللازمة لبدء العمليات العسكرية من أجل احتلال منطقة سرت بأكلها من الساحل شمالا إلى واحات سوكنه وزله ومرادة وأوجله وجالو جنوبا ، ثم حاول الطليان فى الوقت نفسه أن يبذروا بذور الشقاق بين المجاهدين حتى يضعفوا من قوتهم على أمل أن تنحل الأدوار . لأنهم كانوا يتوقعون تعذر إعادة تشكيل هذه الأدوار إذا ذهب المجاهدون إلى نواجعهم ، وخيل الوهم للطليان أن باستطاعتهم أن يستميلوا إليهم السيد عمر المختار نفسه إذا هم عرضوا عليه عروضاً سخية وحاولوا أن يكافئوه بمبالغ من المال طائلة أو أن يمنوه بالجاه العريض فى ظل حياة رغدة ناعمة .

وعندما تبين لهم أن لا جدوى من هذه المحاولات ولا ثمرة لها ، شرعوا يبذلون الوعود لقبائل الحاسة والعبيدات والدرسة والعبيد والعرفة والبراعصة ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك أيضاً ، فعمدوا إلى أساليب أخرى ملؤها الوعيد والتهديد وأسقطت طائراتهم البلاغات المتعددة على أدوار المجاهدين تحمل فى طياتها التهديد بإنزال العقوبة الصارمة بالمحاربين والانتقام منهم ، ثم صاروا يرسلون الرسل إلى الأدوار مزودين بهذه البلاغات والإنذارات ، وكان من هؤلاء الرسل عبد النبي القبائلى الذى أوفده الطليان فى أكتوبر ١٩٢٦ إلى قبيلة العبيدات

بكتاب ينذر بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا ظل العبيدات لا يثقون بوعود الإيطاليين ويستمعون إلى كلام السيد عمر المختار ، وأمهل الطليان العبيدات سبعة أيام بتمامها حتى يتدبروا الأمر ويصلوا إلى رأى قاطع بشأن التسليم إلى الحكومة ، ثم وعد الطليان بالامتناع عن مهاجمة العبيدات فى أثناء هذه المدة . ولكن العبيدات مثلهم فى ذلك مثل سائر قبائل المجاهدين لم يأبهوا بهذه التهديدات ، بل إنهم ذكروا فى جوابهم للطليان أنهم على استعداد دائماً لمقاومة العدو إذا أصر الطليان على اغتصاب حقوقهم وأنهم لا يقبلون السلم إلا إذا أظهر هؤلاء رغبة صادقة فى أن يبسط السلام رواقه على ربوع الجبل وبرقة . وعندما ثبت لدى الطليان أنه لا أمل هناك فى استمالة العبيدات إليهم ، هاجموهم على حين غرة قبل انقضاء المهلة التى أخذوا على أنفسهم العهد باحترامها . فقابلهم العبيدات بجنان ثابت ، ثم ما لبثت أن دارت الدائرة على الغادرين فارتد الطليان على أعقابهم بعد أن أصيبوا بخسارة فادحة .

وعندما عين أتيلو تيروتزى والياً على برقة خلفاً لأرنستو مونبللى فى ديسمبر ١٩٢٦ تجددت تعليمات وزارة المستعمرات الإيطالية بشأن إخضاع المغاربة واحتلال سرت ثم الواحات الداخلية التى سبق ذكرها : سوكنه وزله ومراده وأوجله وجالو فكان من رأى والى برقة الجديد أن إخضاع المغاربة واحتلال هذه الواحات أمران منفصلان ، وأنه لابد من الوصول إلى حل مشكلة إخضاع المغاربة أولا حتى يتيسر حل المشكلة الثانية ، أى احتلال الواحات الداخلية . وكان تيروتزى منذ وصوله إلى بنغازى (٢ ديسمبر) قد بدأ يدرس الموقف فى برقة بعناية كاملة . ولم يكن تيروتزى جديداً على هذه البلاد فقد سبق أن خدم بها عندما كان أحد ضباط الاحتلال الإيطالى فى درنة حتى عام ١٩٢٠ ، ووصل تيروتزى من دراسة الموقف إلى آراء معينة بشأن الخطة التى يجب عليه اتباعها ، وأهمها أن الاحتلال الإيطالى لم يكن موطدا فى البلاد وعلى وجه الخصوص فى منطقة الجبل الأخضر ، وانه من العبث الاعتماد على معاونة الأهلين للسلطات المحلية ، ولو أنه من مصلحة هذه السلطات أن تتغاضى عما يفعله أولئك الذين كانوا يظهرون لها الولاء والإخلاص من أهل البلاد ثم يبذلون كل ما وسعهم من جهد وحيلة فى الوقت نفسه لمساعدة مواطنيهم الذين يقومون بأعباء الجهاد ضد ايطاليا . وفضلا عن ذلك فقد رأى من الضرورى أن يتم تعزيز اجدابية ذاتها باحتلال المراكز الواقعة حولها قبل بدء العمليات العسكرية الكبيرة .

واهتم تيروتزى بالحدمن نشاط المجاهدين بكل سرعة فأصدر أوامره إلى قائد الجند (شبى) باتخاذ الاستعدادات اللازمة للاشتباك مع العرب فى الجبل فى أقرب وقت ثم احتلال المراكز الصغيرة حول اجدابية ، فأسفر نشاط الطليان عن احتلال مسوس فى ١٦ مارس ١٩٢٧

ثم سوانو بعد يومين وأخيراً جوف المطر فى يوم ٢٧ مارس ؛ وكان لاحتلال سوانو وجوف المطر وقع سيء فى نفوس المجاهدين لوجود المياه الكثيرة بهما . وعلاوة على ذلك فقد توقع المجاهدون أن يعمد الطليان بعد ذلك الى احتلال واحات جالو وأوجله واعتقدوا أن هذا النشاط الجديد لم يكن سوى مقدمة لعمليات أخرى واسعة الغرض منها احتلال البلاد بأكلها رويداً رويداً . وعلى ذلك قر رأى المجاهدين على أن يقابلوا هذا النشاط الإيطالى بمثله واستطاعوا أن يوقعوا بالطليان هزيمة بالغة فى معركة الرحيبة المشهورة وتكبد الطليان الذين اشتركوا فى هذه المعركة بأعداد عظيمة خسائر فادحة ، فكان من أثر ذلك أن أوقفت العمليات العسكرية فى الجبل الأخضر مدة شهر تقريباً ، ثم عزل (شي) من القيادة وتولاها الجنرال متزتى ، وعول الطليان على الانتقام لهذه الهزيمة التى لحقت بهم فقدر لهم الفوز على المجاهدين فى معركة قبر الظاهر فى يومى ٢٧ ، ٢٨ إبريل ١٩٢٧ . وكان السبب فى هذا الفوز اشتراك عدد كبير من الطائرات الإيطالية فى المعركة . ومع ذلك فقد استمرت المعارك بين الفريقين فى الجبل الأخضر فى منطقة وادى الكوف بين يومى ٢ ، ١١ مايو . ثم فتر نشاط الطليان بعد ذلك استعداداً لبدء العمليات العسكرية الواسعة بعد إنجاز التدابير اللازمة .

ولم تقنع حكومة رومة بهذه «الانتصارات» الأولى فاقترحت على تيروتزى مرة أخرى أن يبدأ العمليات العسكرية ضد المغاربة فوراً ولاحتلال الواحات ، ولكن تيروتزى سرعان ما وجد أنه من المتعذر عليه أن يبدأ أية عمليات عسكرية واسعة النطاق ضد المغاربة وضد الواحات فى وقت واحـــد ، ولذلك قر رأيه على محاولة استمالة المغاربة بالتسليم بالطرق الدبلوماسية بدلا من إرسال الحملات ضدهم وأن يقصر نشاطه العسكرى ضد المجاهدين على الاشتباك مع السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر حتى إذا تمكن من إضعاف مقاومة المغاربة فى منطقة سرت واحتل مراكز المجاهدين فى القطوفية وغيرها وكان الطليان فى الوقت نفسه قد كسروا من حدة المقاومة فى الجبل الأخضر ، تهيأت بفضل ذلك الأسباب التى تمكن تيروتزى من إرسال الحملات العسكرية الكبيرة لاحتلال الواحات الجنوبية فى جالو وأوجله وجخرة ومرادة وغيرها . وعلى ذلك بدأت محاولتان منفصلتان من أواسط شهر مايو تقريباً إحداهما كانت محاولة سياسية الغرض منها إقناع المغاربة بالاستسلام للحكومة طوعاً ، والأخرى محاولة عسكرية الغرض منها إخماد المقاومة فى الجبل الأخضر ، وسارت هاتان المحاولتان جنبا إلى جنب وفى وقت واحد .

وكان تيروتزى قد مهد للحملة السياسية ضد المغاربة بافتتاح سوق بإجدابية لإنشاء العلاقات التجارية مع المغاربة . وفى فبراير ١٩٢٧ فوض تيروتزى الشارف الغريانى أن يتصل

ببعض رؤساء المغاربة الشماخ والعواقير بصفته الشخصية حتى ينصحهم بترك الحرب والتسليم إلى الحكومة بدعوى أن الوالى الجديد رجل ذو ميل واضح للصالح ويقبل تسليمهم إذا تبين له صدقهم وإخلاصهم ولو أنه لايحجم فى الوقت نفسه عن استخدام كل مالديه من قوة وبأس إذا دعت الحال لذلك . ثم أرسل تيروتزى مع الوفد الذى أرسله لمقابلة المغاربة والعواقير ابنة الشيخ عبدالسلام الكزة ، وهو من كبار مشايخ العواقير ، وكانت ابنته قد وقعت فى أسر الطليان فى إحدى المعارك السابقة . غير أن تيروتزى لم يكن موفقا فى اتخاذ هذه الخطوة لأن مجىء ابنة الشيخ عبدالسلام الكزة مع الوفد أثارت شكوك الأدوار (المعسكرات) من ناحية الكزة واعتقد رجالها أن الكزة على صلة بالوالى والقائد الإيطاليين ، وأسرع قجة عبدالله السودانى فسجن أحد أفراد عائلة الكزة ولم يطلق سراحه إلا بعد توسط الشيخ عبدالسلام وشيوخ آخرون . وفى الحديث الذى دار بين الشارف الغريانى وعبدالسلام الكزة وقد فوضه المجاهدون فى الحديث بلسانهم — أظهر الشيخ عبدالسلام استعداد المغاربة وسائر القبائل للصلح مع إيطاليا وإنما على شريطة أن تبدأ إيطاليا المفاوضة أولا مع رؤساء السنوسية وزعمائها لأن جميع القبائل يربطها بالسنوسية شعور الولاء الصادق العميق .

وعندما أطلع الغريانى السلطات المحلية على نتيجة المفاوضة كلفه تيروتزى أن يبدأ محاولاته التالية بإنشاء صلات تجارية مع المغاربة . وكان تيروتزى يرجو أن تمهد هذه الصلات لاستمالة المغاربة أو على الأقل استمالة فريق منهم إلى قبول التسليم لإيطاليا والانفصال عن سائر المجاهدين وعلى ذلك غادر الغريانى بنغازى إلى اجدابية فى يوم ١٢ مايو ، وصحبه فى هذه المرة القومندان أولمى مكلفا الإشراف على جهود الغريانى من قبل الحكومة وحتى يكون حلقة الاتصال بين الرؤساء العرب والسلطات الحكومية الرسمية . وأعد الغريانى رسالة إلى المغاربة يحضهم فيها على التسليم وإنهاء خلافاتهم مع الحكومة منعا لما قد يصيب الوطن من أضرار لايجد الغريانى مفرا من وقوعها لأنه كان يعلم علم اليقين — على حد قوله — أن الحكومة مازالت جادة فى استعداداتها الكبيرة لإخماد المقاومة . وابتكر الغريانى وسيلة لإيصال رسالته إلى دور المجاهدين ، وبعد مشقة تمكن رسله من إيصال هذه الرسالة إلى الشيخ عبدالسلام الكزة فبحث زعماء المجاهدين محتوياتها ثم بعثوا إلى الشارف بخطاب ينبئونه فيه بموافقتهم على الاجتماع به . ويقول تيروتزى إنه عندما كلف الشارف الغريانى مقابلة المجاهدين أمره بأن يوضح لهم ضرورة الابتعاد عن السنوسية لأن تدخل السنوسية لن يؤثر شيئاً فى خطة الحكومة نحو أهل البلاد ومشايخها ، بل على العكس من ذلك فإنه يحتمل كثيرا أن يؤدى هذا التدخل إلى عرقلة مايبذل من جهود فى سبيل إعادة السلام والهدوء إلى برقة .

وانتقل الشارف للاجتماع بالمجاهدين إلى بير جديد فى ٨ يونية ١٩٢٧ ، — ويبعد بيرجديد حوالى عشرة كيلومترات إلى الجنوب من اجدابيه ، وحضر كثيرون من مشايخ المغاربة وفى مقدمتهم الشيخ محمد الحرنة ومشايخ العواقير ومنهم عبدالسلام الكزة ، ومن البراعصة ومنهم بوشديق بومازق : ولم يحضر هذا الاجتماع الزعماء السنوسيون فى أدوار المغاربة وخصوصا السيد الصديق . وكان غرض هؤلاء الرؤساء أن يستطيعوا إقناع الحكومة بأن تمكنهم من استخدام آبار ساونو وجوف المطر التى احتلها الطليان ، فأظهروا رغبتهم فى السلام واستعدادهم لعدم الإتيان بشىء من شأنه أن يكدر خواطر الحكومة ، وأظهروا علاوة على ذلك تقديرهم لعمل الحكومة التى أذنت بافتتاح ســـوق إجدابية . وأكد لهم الشارف الغريانى حسن نوايا الحكومة ، ولكنه ذكر لهم فى الوقت نفسه أن تسليمهم لها يجب أن يكون تسليما مطلقا دون قيد أو شرط وعلى أساس تسليم أسلحتهم للسلطات المحلية كذلك .

وعندئذ انبرى الشيخ بوشديق بومازق بعد أن سلم الشارف رسالة من السيد الصديق ، يتكلم عن رغبة الأهالى جميعاً فى أن تبادر الحكومة بالاعتراف بالسنوسية فى شخص نائبها فى الأدوار السيد محمد الصديق ولما كان هذا يتعارض مع التعليمات التى أعطاها تيروتزى الشارف فقد اعتذر الشارف عن تقديم هذا الطلب الأخير إلى الوالى لأن عدم تدخل السنوسية فى المفاوضات كان على حد قوله أمراً مفروغا منه . فأعد الرؤساء «مضبطة» ضمنوها مطالبهم وأمانيهم وفوضوا عبد السلام الكزة والشيخ جلقاف أبو شلبى فى الحديث مع الحكومة وطلبوا الاجتماع بمندوبها أولمى فى بير جديد ، وأصر الكزة على عدم الدخول فى أية مفاوضة مع الطليان إلا إذا أوقف هؤلاء نشاطهم العسكرى فى الجبل الأخضر ؛ ثم أيد البراعصة الشيخ عبدالسلام فى موقفه ، وحاول صالح الأطيوش أن يتصل بالجنرال متزى لإقناع الحكومة بضرورة إجابة مطالب المجاهدين . ولكن تيروتزى أصر على أن يحضر الشارف الغريانى وحده الاجتماع التالى (فى ١١ يولية) فى بير جديد .

وأثار عدم حضور أولمى مندوب الحكومة هذا الاجتماع الجديد غضب المغاربة ؛ فأعد هؤلاء «مضبطة» بمطالبهم جاء فيها « فى هذا اليوم — ١٢ محرم ١٣٤٦ (١١ يولية ١٩٢٧) — قدم الشارف الغريانى إلى بيرجديد واجتمع بالمندوبين المرسلين من برقة البيضاء و برقة الحمراء من أجل المفاوضة فى المسائل المؤدية إلى تحسين العلاقات مع الحكومة ؛ وقد قر رأى المندوبين بعد مباحثات طويلة على تقديم عدة طلبات » أهمها وقف القتال فى برقة وفى الجبل الأخضر وإلزام الحكومة باتباع خطة واحدة ، فلا تبقى الحرب دائرة فى الجبل بينما تبذل

المساعي فى منطقة سرت لاستمالة المجاهدين إلى التسليم ، ثم يمنع جميع الأفراد الذين لا يحملون « ترخيصا » من الشيخ المكلف بإعطاء هذه « الترخيصات » من دخول سوق إجدابية ؛ وعلاوة على ذلك فإن من واجب الحكومة أن تسعى لجلب المتاجر الكثيرة إلى سوق إجدابية وأن تعفى من يريدون التجارة فى هذه السوق من الضريبة . وطلب الموقعون على « المضبطة » أن يستمر العمل بهذه الشروط مدة ثلاثة شهور يتم فى أثنائها إبرام الصلح بين الفريقين . ووقع على « المضبطة » ستة من مشايخ المغاربة الشماخ كما وقع عليها الشيخ عبدالسلام الكزة وبوشديق بومازق .

ولما كان أولى قد أبلغ خبر هذه «المضبطة» وقت إعدادها ، فإنه سرعان ما بادر بإرسال رده عليها قبل أن تصله ، وفى هذا الرد أغفل أولى الإشارة إلى عبد السلام الكزة وبوشديق بومازق لأنه اعتبرهما « أجانب » عن هذه المنطقة . وكان رد أولى يحمل رفضا باتا لمطالب المغاربة الشماخ . وجاء هذا الرد إلى بيرجديد بعد سفر الشارف بالمضبطة بساعات قليلة فقط، فكان له أسوأ الأثر فى نفوس العرب ؛ وانفرد المغاربة الشماخ وحدهم فى إظهار رغبتهم على الرغم مما حدث من عدم قطع علاقاتهم مع الحكومة (٢٠ يولية) . غير أن موقف المغاربة الشماخ هذا كان كافيا لأن يقنع تيروتزى بأن يبدأ فوراً تنفيذ خطوته التالية ، فأمر بإرسال قوة بسيطة نزلت فى الزويتينة وتطايرت الشائعات بأن قوات أخرى عظيمة سوف تأتى فى أعقابها ، وأن الطليان يعتزمون القيام من غير إمهال بعمليات عسكرية لا تقل فى خطورتها عن عملياتهم فى الجبل الأخضر . وحدث على أثر ذلك مباشرة أن سلم بعض الأهلين من المغاربة أنفسهم مع أسلحتهم للسلطات الإيطالية فى قمينس وسلوق ، وفى آخر أغسطس ١٩٢٧ حضر إلى إجدابية ثلاثة عشر شيخا من المغاربة الشماخ وعلى رأسهم الشيخ محمد الحرنة ؛ وقدمهم الشارف الغرياني وأولى إلى قائد المنطقة الإيطالى . وبتسليم المغاربة الشماخ يكون الشارف وأولى قد نجحا فى مهمتهما .

وقد تبع تسليم المغاربة الشماخ أن جماعة العواقير الذين ظلوا حتى هذا الوقت خارجين عن نفوذ الحكومة مالبثوا أن قدموا خضوعهم فى اليوم نفسه . وكان من بينهم محمد بن إبراهيم المصراتى ، وفى أول سبتمبر أكد المغاربة الشماخ استسلامهم عندما عقد اجتماع فى اجدابية حضره حوالى ثلاثين شيخا منهم كان من بينهم محمد الحرنة وسعيد بن يونس الشلبي وسالم بوباسل ومنصور نشأت وزروق بن الخطاب وفرج الهتش بوبكوشيه وعبد السلام رجعه وموسى دجي . ومع ذلك فقد ظهر من أحاديثهم أنهم مازالوا على الرغم من تسليمهم يعترفون بما كان للسنوسية عليهم من نفوذ روحى عظيم وحاولوا إقناع المندوبين الطليان

بضرورة استمالة السيد الصديق . وفى ٨ سبتمبر حضر أكثر مشايخ المغاربة الشماخ إلى بنغازى لمقابلة الوالى ، واشترط تيروتزى قبل مقابلتهم أن يسلموا أسلحتهم محافظة على استقرار الأمن بالبلاد وأن يعودوا مباشرة إلى قبائلهم لتطمين هذه القبائل من ناحية عمليات الحكومة العسكرية على أن يبقى بعض المشايخ فى اجدابية كمستشارين للحكومة من واجبهم أن يرافقوا ممثليها فى غدوهم ورواحهم بين مختلف القبائل . وزيادة على ذلك فقد اشترط عليهم الوالى أن يبقوا مواشيهم فى المراعى الكائنة فى شمال إجدابية . وأما مشايخ العواقير فقد قبلوا شروطا أقسى من هذه .

وقد مهد تسليم المغاربة الشماخ للطليان أن يحتل هؤلاء المراكز التى ظلت خارجة عن سلطان الحكومة فى منطقتهم فاحتلت القوات الإيطالية القطرفية دون مقاومة فى ٢٤ سبتمبر واستطاعت المرور بسلام فى أرض المغاربة حتى وصلت إلى العقيلة ، فاحتلتها كذلك فى ٢٩ سبتمبر ، واضطر السيد الصديق إلى محاولة تأسيس دور جديد جنوب وادى الفارغ . وكان يبدو أن محاولة الصديق هذه محاولة شاقة عسيرة ، حتى أن أولى بعد عودته مع الشارف الغريانى من اجدابية إلى بنغازى فى ١٢ اكتوبر عقب انتهاء مهمتهما لم يلبث أن أكد للوالى أن السيد الصديق سوف يجد نفسه مرغما على التسليم قريبا . وقد حدث بعد وصول أولى بأيام معدودات أن حضر إلى بنغازى يوم ٢٧ أكتوبر السيد عبد العزيز العيساوى يحمل خطابا من السيد محمد الرضا السنوسى فى جالو إلى السلطات الإيطالية مظهراً استعداده للبحث مع الحكومة فى شروط عقد السلام بينها وبين السنوسية على ما أبدته الحكومة من رغبة أكيدة فى الوصول إلى اتفاق حاسم مع السنوسية . فاعتبر تيروتزوى مجىء العيساوى يحمل خطاب السيد الرضا احدى ثمرات ذلك الشطر الآخر من سياسته المزدوجة التى كان يقتضى تنفيذها على نحو ماسبق ذكره محاولة استمالة المغاربة بالطرق الدبلوماسية والمضى فى العمليات العسكرية الكبيرة فى الجبل الأخضر وضد مراكز السنوسية فى الواحات الداخلية فى وقت واحد .

ذلك أنه بعد معارك الجبل فى وادى الكوف فى شهر مايو ١٩٢٧ شرع الطليان يستعدون لاستئناف عملياتهم العسكرية المقبلة ، فأعد الجنرال مترتى فى أول يولية تقريراً رفعه إلى الوالى تيروتزى عرض فيه الطريقة التى وزع بها المجاهدون قواتهم فى الجبل الأخضر بزعامة السيد عمر المختار ، فقال إن المختار كان يتخذ مقر قيادته فى منطقة شحات ، بينما تتجمع معظم قوات المجاهدين ، وهى أدوار البراعصة والعبيد والحاسة والعبيدات وسط جبل البراعصة هذا إلى جانب وجود فروع أخرى من هذه الأدوار من قبيلة الدرسة مستقرة فى وادى الكوف بين

سيدى عبدالله وقصر چبنى ، ويبلغ عدد المجاهدين حوالى خمسمائة وألف منهم أربعمائة فارس تقريباً . وعلاوة على ذلك فقد إتخذ المختار التدابير التى تمنع عرقلة حركات المجاهدين . فأبعد الأسر بمواشيها من منطقة القتال وزود جنده بعدد عظيم من (القرب) المعدة لإمداد المجاهدين بالماء ، وأخذ هؤلاء يتأهبون للالتحام مع الطليان فى معارك فاصلة . ولم يكن متزنى مخطئا فيما توقعه . ذلك بأن المجاهدين سرعان ما اشتبكوا مع الطليان فى معارك دامية فى أيام ١٣ ، ١٩ ، ٢٦ يولية ١٩٢٧ ثم استمرت مناوشاتهم للعدو حتى بداية الشهر التالى ، وأصيب الطليان بخسارة فادحة . فوجد متزنى أنه لا مناص من تولى قيادة الجيوش الايطالية بنفسه ، وقاد هجوما عنيفا على دور العبيد واشتركت السيارات المصفحة فى المعركة التى استمرت مدة يومين (١٠ ، ١١ أغسطس) ، ثم استؤنف القتال فى يوم ١٣ أغسطس عند ابيار الزوزات وكان قتالا حاميا استشهد فى أثنائه الشيخ حسين الجويفى رئيس دور البراعصة ، وكان صاحب مكانة عظيمة عند المختار الذى ما لبث أن جدد مناوشة العدو فى ٢٧ أغسطس . بيد أن الطليان بما كان لهم من قوات كبيرة تشد أزرها الطيارات والسيارات المصفحة استطاعوا فى آخر الأمر أن يضيقوا نطاق الحصار على المجاهدين فى منطقة الجثة فى أوائل سبتمبر . وقد تقدم كيف أن الطليان بعد تسليم المغاربة احتلوا القطوفية ثم العقيلة فى ٢٤ ، ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ .

وأثار تسليم المغاربة واحتلال القطوفية (أو القاطفية) والعقيلة دهشة المجاهدين فى الجبل الأخضر وفى الواحات الداخلية وعلى وجه الخصوص جالو مقر السيد الرضا . وكانت جالو لتوغلها فى الصحراء ذات موارد قليلة وامتنعت عنها الإمدادات من جهة الشرق منذ أن احتل الطليان واحة الجغبوب فصار كل اعتمادها بعد ذلك على ما صار يرسله إليها السيد الصديق من المؤن وهو فى أدوار المغاربة . غير أنه بعد تسليم المغاربة واحتلال القطوفية والعقيلة إلى جانب ساونو وجوف المطر ، بات من المتعذر على السيد الصديق إرسال الإمدادات الكافية إلى جالو . وفضلا عن ذلك فإنه كان لا يقيم مع السيد الرضا بهذه الواحة غير نفر قليل من المجاهدين للحراسة حسب حاجة السيد عمر المختار لكل قادر على حمل السلاح فى الجبل الأخضر . وأدرك الطليان مقدار الصعوبات التى كانت تحيط بالسيد الرضا فى جالو ، فأخذوا يرسمون خطوط تلك (المؤامرة) التى انتهت باعتقال السيد الرضا غدراً وخيانة ثم إبعاده عن البلاد منفيا إلى جزيرة صقلية .

فقد حضر إلى جالو الشيخ عرفه الجبيرى يحمل كتابا من الشارف الغريانى إلى السيد الرضا يخبره فيه بأن الطليان يعتزمون احتلال جالو قريبا بعد أن دان لهم المغاربة ، ثم يخيره بين أمور ثلاثة : إما الاستعداد بكل قواته لمناجزة الطليان إذا كان السيد يرغب فى القتال

ولديه القدرة على خوض المعارك — وكان الشارف الغرياني يعلم أن الواحة خالية تماما من المجاهدين — وإما الرحيل من جالو فوراً إلى أى مكان آخر ، وإما المباحثة مع الحكومة بالطرق الودية إذا أراد الوصول إلى تفاهم معها ، وزاد الشارف الغرياني على ذلك أنه ينتظر جوابا سريعا شافيا من السيد بصدد ذلك كله . ولما كان السيد الرضا يثق بالشيخ عبد العزيز العيساوى ثقة كاملة وركن إلى مشورته ، فقد تم الاتفاق بين السيد والشيخ على قبول المفاوضة مع الحكومة على أساس إبقاء الزوايا واحترام الإخوان السنوسيين والاعتراف بحق السيد الرضا فى تعيين مشايخ الزوايا ثم بقاء السيد فى بنغازى . وعلى ذلك فقد خرج الشيخ عبد العزيز العيساوى من جالو يحمل خطاب السيد الرضا إلى بنغازى . وعند مرور الشيخ عبد العزيز بدور المجاهدين فى بالطفل سلمه السيد الصديق خطابين أحدهما إلى الوالى والآخر إلى الشيخ الغرياني يؤيد الرغبة فى التفاهم مع السلطات الحكومية على الأساس الذى وضحه السيد فى تعليماته للشيخ ، ووصل الشيخ عبد العزيز إلى بنغازى فى يوم ٢٧ أكتوبر .

واستقبل الوالى تيروتزى الشيخ عبد العزيز فى بنغازى ، وراعه ما كان يبدو على الشيخ الوقور من مظاهر الهدوء والسكينة وحسن الطوية . وكان الشيخ عبد العزيز من الإخوان السنوسيين الذين نبه ذكرهم بفضل ما كسبه من خبرة وحنكة عظيمة من أيام السيد محمد المهدى السنوسى ، وكان الشيخ كبير السن حكيما فى حديثه ، اعتقد فيه الوالى حسن النية ، فأقبل على المباحثة معه فاقتنع على ما يبدو بما كان يؤكده الشيخ من رغبة صادقة فى السلام . وأخبر الشيخ عبد العزيز الوالى الإيطالى أن السيد الرضا لا يقل عنه رغبة فى أن تستعيد البلاد هدوءها وسكينتها مادام الطليان يعدون بتنفيذ الشروط التى عرضها السيد الرضا من أجل حسم النزاع مع ايطاليا . وفضلا عن ذلك فقد أكد الشيخ عبد العزيز للوالى أن الاعتراف بالسنوسية والصلح معها عن طريق الصلح مع السيد الرضا نائب السيد إدريس فى برقة من شأنه أن يمهد لإقرار السلام وقبول المجاهدين وعلى رأسهم السيد عمر المختار نفسه فى القطر البرقاوى بأجمعه إنهاء القتال مع ايطاليا ، ثم نصح الشيخ بأن تتعهد الحكومة فى ردها على خطاب السيد الرضا باحترام الزوايا السنوسية والإخوان السنوسيين والاعتراف بزعامة السنوسية الدينية لقاء أن يكف السنوسيون عن كل نشاط سياسى يحمل فى طياته أى عداء لإيطاليا .

وأما تيروتزى فقد ظل يماطل فى إجابة الشيخ عبد العزيز إلى شىء مما كان يطلبه ، ومع ذلك فقد اضطر أخيراً نزولا على رغبة وزارة المستعمرات فى رومة إلى قبول ما أتى به الشيخ من عروض ، فسلمه خطابا إلى السيد الرضا جاء فيه أن بإمكان الوالى أن يؤكد للسيد الرضا

مقدار « سعادة » الحكومة إذا أتيح لها أن تستقبله بما يليق بمقامه من حفاوة بالغة ، وأن الحكومة لن تدخر وسعا فى معاملة السيد وأبنائه بالاحترام اللائق ، وتتعهد بضمان سلامته وتؤكد للسيد الصديق نواياها الطيبة نحوه . وفى ١٦ نوفمبر ١٩٢٧ غادر الشيخ عبد العزيز بنغازى إلى اجدابية ، وفى ٢٧ نوفمبر غادر اجدابية إلى بالطفل حيث قابل السيد الصديق ابن السيد الرضا وأنهى إليه نتيجة ما بلغه فى أحاديثه مع تيروتزى ثم قصد إلى جالو .

على أن تيروتزى كان يعتقد على الرغم من هذه (المباحثات) الدائرة من أجل الوصول إلى الصلح بالطرق الدبلوماسية أن استئناف العمليات العسكرية فى برقة وطرابلس فى هذه الآونة من شأنه أن يقنع السيد الرضا بضرورة التسليم من غير إبطاء ويقضى على كل أمل لديه فى إمكان الانسحاب من جالو والالتجاء إلى مصر أو إلى أية جهة أخرى . وعلى ذلك فقد حدد لبدء هذه العمليات يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٢٧ فى برقة ويوم ٨ يناير ١٩٢٨ فى طرابلس وكان غرض تيروتزى من بدء النشاط العسكرى فى طرابلس علاوة على ما تقدم أن يمنع صالح الأطيوش وقبائل الرعيصات وأولاد سليمان وبعض القبائل الأخرى فى منطقة سرت من مناوشة المغاربة الشياخ الذين عدهم المجاهدون من الخونة الآثمين بسبب تسليمهم للطليان وعلى ذلك فقد قامت فرقة من قوات الحكومة على الهجن من واحة جغبوب فى ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ ، وفاجأت الحامية الموجودة بمركز جخرة شمال جالو بمسافة قصيرة وأسرت أربعة من رجالها عادت بهم إلى الجغبوب . وعندما حضر الشيخ عبد العزيز العيساوى إلى اجدابية بجواب السيد الرضا من جالو فى ٢٢ ديسمبر اعتقد تيروتزى أن الفضل فى عودة الشيخ عبد العزيز إنما مرده إلى هجوم الطليان على جخرة وشعور السيد الرضا بأن الطريق إلى مصر قد أوصد نهائيا وأن مركزه فى جالو تحدق به المخاطر من كل جانب .

غير أن تيروتزى كان مخطئا ولا شك فى هذا الاعتقاد لسببين : أولهما أن قبول السيد الرضا أن يدخل فى مفاوضات من أجل عقد الصلح على أساس الشروط التى قبلتها الحكومة فى مصلحة المجاهدين فى برقة ، كان قد تقرر من وقت ذهاب الشيخ عبد العزيز إلى بنغازى فى المرة الأولى ولم يكن من المنتظر أن يعدل السيد الرضا عن أمر يرى فيه تحقيق مصلحة البلاد وثانيهما أن الشيخ عبد العزيز غادر جالو فى يوم ١٥ ديسمبر أى بعد قيام القوة الإيطالية من جغبوب بيوم واحد فقط وقبل هجومها المفاجىء على جخرة . وعلاوة على ذلك فقد ذكر الشيخ عبد العزيز عند وصوله إلى اجدابية أن السيد الرضا كان يتخذ الأهبة لمغادرة جالو إلى بالطفل بعد سفر الشيخ عبد العزيز بيومين فقط . أضف إلى هذا أن خطاب السيد الرضا إلى تيروتزى — وهو الخطاب الذى حمله الشيخ عبد العزيز معه إلى اجدابية كان مؤرخا فى ١٤

ديسمبر أى فى اليوم نفسه الذى غادرت فيه قوة الطليان واحتهاالجغبوب .

وأما الشيخ عبد العزيز العيساوى فقد وصل إلى بنغازى فى يوم ٢٥ ديسمبر وسلم رسالة السيد الرضا إلى الوالى . وذكر السيد الرضا فى رسالته « أنه يطمئن كل الاطمئنان إلى وعود (تيروتزى) ويثق ثقة كاملة بتأكيداته أن الحكومة سوف تكون شريفة فى معاملته » وغادر السيد الرضا جالو إلى بالطفل . وما إن علم تيروتزى بوصول السيد إلى بالطفل حتى أبرق إلى رومة يخطر وزير المستعمرات بحضور السيد الرضا إلى بالطفل فى طريقه إلى إجدابية ويعلق أهمية عظيمة على « تسليم » السيد ويطلب تأجيل العمليات العسكرية فى منطقة إجدابية حتى لا يعدل السيد عن المجىء إلى إجدابية أو إلى القطوفية فتضيع الفرصة .

وكان تيروتزى يتوقع وصول السيد الرضا إلى أحد هذين المكانين فى اليوم الثانى أو الثالث من شهر يناير عام ١٩٢٨ ، ولذلك طلب تأجيل العمليات العسكرية حتى يوم ٤ يناير . ومع أن اقتراح تيروتزى وقف النشاط العسكرى مؤقتاً كان يدل على الحيطة والحذر من جانبه حتى لا تنكشف نيات الطليان الغادرة ، فقد أبى فدرزونى وزير المستعمرات إلا أن تبدأ العمليات العسكرية فى الوقت الذى حدد للبدء فيها سابقا فى برقة ، أى يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٢٧ لأن الحكومة الإيطالية — على حد قول الوزير — لا تعترف البتة بأن لتسليم السيد الرضا أية أهمية سياسية إذ ينبغى اعتبار السيد « رئيسا للثورة » فحسب ؛ وهذا فضلا عما يسببه وقف العمليات العسكرية من أضرار تلحق بسمعة المملكة الإيطالية . وهكذا كان الطليان فى الوقت الذى قطعوا فيه على أنفسهم العهود والمواثيق « باحترام » السيد الرضا ، يضمرون الغدر به والكيد له ، ويبيتون النية على معاملته بوصفه « رئيسا للثورة » وخارجا على سلطان الحكومة ومن حق الحكومة أن تقبض عليه عند سنوح الفرصة . وقد بلغ من إحكام الطليان تدبير مؤامرتهم أنهم أخذوا يسقطون من طائراتهم المنشورات والرسائل الكثيرة على مقر السيد الرضا فى جالو قبل أن يغادر الواحة ، تحمل وعود الحكومة المتكررة بانتظار قدومه إلى اجدابية وبنغازى للترحيب به . وكان من بين ما ألقته الطائرات على جالو رسائل عدة من أعيان بنغازى باسم الشارف الغرياني وحسين البسيكرى وآخرين يؤكد فيها أصحابها للسيد الرضا رغبة الطليان الصادقة فى الصلح ويحضونه على المجىء إلى بنغازى دون إمهال .

وانتقل السيد الرضا إلى دور السيد الصديق عند عين الناقة ، ذلك بأنه كان من رأيه قبل مفاوضة الطليان والذهاب إلى اجدابية أن يستشير للمرة الأخيرة رؤساء المجاهدين ، فكلف السيد الصديق ببحث الموقف معهم ، وبعد أن قلب هؤلاء وجوه الرأى أيد أكثرهم ضرورة بدء المفاوضات مع الحكومة نظرا لسوء الحالة الاقتصادية فى برقة بسبب قلة الأمطار من

جهة وإقفال الحدود المصرية من جهة أخرى وتعطيل التجارة . وتوقع المجاهدون إذا نجحت مفاوضات السيد الرضا مع الطليان وتقرر على الأقل عقد الهدنة فترة محدودة من الزمن أن تتحسن الأحوال الاقتصادية بالبلاد شيئاً فشيئاً . وعلى ذلك فقد حضر السيد الصديق في مساء ٣٠ ديسمبر إلى بير الشلبي شمال آبار بالطفل بمسافة قصيرة عند نجع الشيخ سعد بو قدومه يعلن قرب حضور والده السيد الرضا في طريقه إلى اجدابية . وفي مساء اليوم التالي حضر الشيخ عبد العزيز العيساوى ينبىء الضابط أولمى بأن السيد الرضا قد قرر الذهاب إلى اجدابية . وفي صباح أول يناير ١٩٢٨ وصل السيد الرضا إلى نجع الشيخ سعد بو قدومه في حراسة السيد الصديق . ثم قابل أولمى وأعلن التسليم للحكومة الإيطالية . وقد حضر هذا الاجتماع كل من حسين البسيكرى وعبد العزيز العيساوى وسعد بو قدومه ، ثم رجع السيد الرضا إلى بالطفل . وفي اليوم الثالث من شهر يناير قابل السيد الرضا ومعه الشيخ عبد العزيز العيساوى الضابط أولمى (متصرف إجدابية) وارتحل ثلاثتهم الى القطوفية .

وظهر اطمئنان السيد الرضا لوعود الطليان عندما اعترض سبيلهم جماعة من المجاهدين . مالبثوا حتى ارتدوا على أعقابهم عندما شاهدوا السيد الرضا الذى أمرهم بالانسحاب والعودة إلى قبائلهم محافظة على الهدوء والسكينة . وبلغ السيد وصحبه اجدابية بعد ظهر اليوم نفسه ثم قابل قائد المنطقة وممثل الحكومة الكولونيل رجيرى . وكان في أثناء خروج السيد الرضا من القطوفية في طريقه إلى اجدابية أن قابلته القوة الإيطالية التى أرسلها الوالى تيروتزى بقيادة الجنرال متزتى لبدء العمليات العسكرية ، وهى العمليات التى أصر فيدرزونى وزير المستعمرات على عدم تعطيلها . وكانت هذه القوة ذاهبة الى العقيلة ، فما لبثت أن أحاطت بالسيد الرضا ورافقته حتى وصل الى اجدابية .

وفي يوم ٣ يناير قررت وزارة المستعمرات إرسال السيد الرضا إلى المنفى ، وحددت لانتقاله من اجدابية إلى بنغازى يوم ٧ يناير . ولكن السيد الرضا مالبث حتى مرض عند وصوله الى اجدابية فتأجل السفر ، ثم غادر السيد الرضا اجدابية الى بنغازى ، وفي يوم ١٤ يناير نفى السيد الرضا مع «مستشاره» الأمين الشيخ عبد العزيز العيساوى الى بلدة (بيازا أرمرينا) بجزيرة صقلية ، ثم أصدرت الحكومة بلاغا رسميا عن هذا الحادث قالت فيه أن السيد الرضا قد سلم لإيطاليا دون قيد أو شرط وأن الحكومة قررت اعتقاله وإبعاده الى صقلية .

ولا جدال في أن هذا العمل من جانب الطليان كان خيانة بالغة ، وكان من نتيجته القضاء على كل أمل في إمكان الوصول الى تسوية سلمية بين المجاهدين وايطاليا . فقد نقل السيد الصديق بعد ذلك مباشرة دور المجاهدين من عين الناقة إلى أماكن أخرى أكثر تحصينا ،

واشتد تذمر الأهلين فى منطقة العقيلة عندما بلغهم اعتقال السيد الرضا وغدر الطليان به ؛ ومع أن هؤلاء الأخيرين استطاعوا أن يبعثوا بقواتهم إلى العقيلة فى ١٨ يناير وبدأوا ينزعون أسلحة المغاربة الشياح دون مقاومة (فى ٢٥ يناير) فقد اضطر تيروتزى إلى الذهاب بطريق الجو إلى العقيلة حتى يقف بنفسه على مدى تذمر الأهلين ويتخذ التدابير اللازمة لمواجهة ما قد يحدث من مقاومة نتيجة لهذا التذمر . ثم أمر تيروتزى الجنرال مترتى أن يبدأ زحفه على أدوار المجاهدين فى معاطن غيزل ، وأعد الطليان خطتهم للاستيلاء على الفزان واحتلال مرزق عاصمتها فخرجت فى أواخر يناير ١٩٢٨ قوتان إحداهما من غدامس والأخرى من الجبل الأخضر ، وكان الجيش بقيادة رودلف غرزيانى ومعه يوسف خربيشة ووجهة الجميع نهير الشاطىء ، فوصل الجيش إلى جبل يعرف باسم القنينة ، وهناك التحم مع المجاهدين فى معركة دامية استمرت خمسة أيام بتمامها انهزم فيها الطليان شر هزيمة فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر . ثم ما لبثت أن خرجت قوة أخرى من مصراتة وترهونة وورفلة تقصد الفزان مباشرة ؛ فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثة أيام وانسحبوا إلى الداخل حتى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بين جبلين يعرفان بالجبال السود ، انقض المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر ، فعمد قواد الحملة إلى الفرار بسياراتهم تاركين وراءهم الجيش الذى وقع أكثره فى قبضة المجاهدين فاستأصلوهم عن آخرهم ؛ وعندئذ لم يجد الطليان مناصا من أن يجددوا محاولاتهم فخرجت فى هذه المرة قوات عظيمة من جهات متعددة ، من سرت واجدابية غرضها الاستيلاء على زله ، فاشتركوا فى معارك حامية مع قبائل المغاربة وأولاد سليمان وزويه بقيادة صالح الأطيوش وأحمد سيف النصر وعمر الحليق ؛ غير أن الطليان مالبثوا أن انهزموا فى هذه المعارك وتركوا وراءهم غنائم وأسلابا كثيرة . وجدد الطليان المسعى فخرجوا فى هذه المرة من الجفرة فى ٣٠ فبراير ١٩٢٨ بجيش كبير وزحفوا على زله ولم يستطع عبد الجليل سيف النصر ردهم فاضطر إلى الانسحاب منها واحتلها الطليان فى ٢٢ فبراير ، ثم تقدموا إلى آبار تقرفت . وفى معركة شديدة اشترك فيها عمر ومحمد ابنا سيف النصر انهزم الطليان فى بادىء الأمر ولكن المجاهدين اضطروا إلى التقهقر بعد ذلك لنفاد الذخيرة منهم فاحتل الطليان آبار تقرفت فى ٢٥ فبراير ، وخرجت من الحسيات فى يوم ١٨ فبراير قوة أخرى بقيادة الجنرال مترتى غرضها احتلال واحات جالو وأوجله فوصلت إلى معطن السبيل قريبا من أوجله فى ٢٣ فبراير ، وفى اليوم التالى احتل الطليان أوجله وحضر الوالى تيروتزى احتلال هذه الواحة ثم صحب القوة التى ذهبت إلى جالو لحضر احتلال هذه الواحة كذلك فى يوم ٢٥ فبراير . فضلا عن أنه حضر احتلال جخرة فى اليوم التالى ثم عاد

فى يوم ٢٧ فبراير بطريق الجو إلى اجدابية . وبين يومى ١٠ ، ١٨ مارس بدأت العمليات التى انتهت باحتلال مرادة . وهكذا استطاع الطليان بفضل احتلال الجغبوب (منذ أوائل ١٩٢٧) وزله وجالو وأوجله ومراده أن يقطعوا كل السبل بين المجاهدين فى الجبل الأخضر وبرقة وبين مصر من الناحية الشرقية وبين مصر ومراكز السنوسية الباقية فى الجنوب فى فزان والكفرة ووضعوا السيد عمر المختار والمجاهدين فى عزله تامة فى الشمال .

غير أن هذه الانتصارات لم تنل شيئا من عزيمة المختار الذى ظل يشن الغارة بعد الغارة على درنة وما حولها ، حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم فى ٢٢ إبريل من درنة وشحات والمرج وبنغازى وسرت ومراوة لمقابلته ، فاشتبك معهم فى معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه ففر الطليان تاركين عددا من السيارات والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة عدا الجمال ودواب النقل . وفى يونية استطاعت قافلة من البراعصة أن تخرج من السلوم محملة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة إلى الجبل الأخضر لإمداد السيد عمر فعلم الطليان بخروجها وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها ؛ ولكن المجاهدين صمدوا لهم وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات فتعطلت السيارات وعندئذ انقض العرب على القوة الإيطالية فأبادوها عن آخرها وأحرقوا السيارات . وفى سبتمبر من العام نفسه غزت جموع الزوية الجخرة ومرمى بريقة وجالو وأوجلة ، وأنزلوا بالطليان خسائر جسيمة ، فدلت هذه الأعمال على أن « الثورة » ما زالت مستعرة الأوار فى الجهة الغربية من سرت شمالا إلى الفزان جنوبا وإلى جالو شرقا فضلا عن اشتداد مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر ؛ وذلك كله على الرغم من احتلال الطليان للواحات ومراكز السنوسية الهامة . فلم يعد هناك مناص من أن يعيد الطليان النظر فى خططهم ، مما أدى إلى وقوع أزمة كبيرة فى رومة ، ذلك بأن الحكومة الإيطالية بدأت تبحث بصورة جدية وسائل إخماد المقاومة وترسم خطوط السياسة الجديدة التى يجب اتباعها فى كل من برقة وطرابلس . فقد أسفرت هذه البحوث عن استقالة فيدرزونى وزير المستعمرات فى رومة وديبونو والى طرابلس وتيروتزى والى برقة فى ديسمبر ١٩٢٨ . فعين ديبونو وزيراً للمستعمرات وأعلن موسولينى توحيد الإدارة فى القطرين الليبيين ، وعين الماريشال بادوليو حاكما على طرابلس وبرقة . وبمجىء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة النضال الحاسمة بين الطليان والمجاهدين فى برقة والجبل الأخضر .

وكان تعيين بادوليو حاكما على طرابلس وبرقة فى شهر يناير من عام ١٩٢٩ . وأعد بادوليو لحكومته فى ليبيا برنامجا شاملا مداره الاقتصار على المناوشات والعمليات العسكرية البسيطة

وتخفيض الجيش إلى القدر الذى يكفى القيام (بحرب العصابات) فحسب ، واستبدال العمل على دعم المراكز التى احتلها الطليان بالتوسع فى الفتوح الجديدة وذلك حتى تتوفر تلك الأموال التى كان يتطلبها الاحتفاظ بجيش كبير فى ليبيا ، فيتمكن بادوليو من إنفاق هذه الأموال على إنشاء الطرق فى الجبل الأخضر خصوصا . والسبب فى ذلك أن بادوليو كان يعرف حق المعرفة أنه من العبث أن تصر الحكومة على مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر والواحات طالما بقيت قواعد الطليان غير موطدة فى هذه الجهات ويستطيع المجاهدون تحطيم القوات التى تخرج من هذه القواعد الضعيفة لمناجزتهم على نحو ما شاهدنا ، ولم يفد الطليان شيئا فى وقف نشاط المجاهدين احتلالهم مراكز العرب فى غضون العمليات العسكرية الكبيرة ؛ وفضلا عن ذلك فإنه على الرغم من تضييق الحصار على السيد عمر المختار فى الجبل نتيجة لاحتلال الواحات الجنوبية والشرقية وإعادة الاتصال بين برقة وطرابلس عبر منطقة سرت ، فقد ظل المجاهدون تحت قيادة المختار يخرجون لمناوشة الطليان وإنزال الخسارات الفادحة بقواتهم ؛ فكان إنشاء الطرق المعبدة من الجبل الأخضر ضروريا لتسهيل حركة الجيوش وتنفيذ الخطط الاستراتيجية وإقامة نظام فى الحراسة المجدية تمكن (الدوريات) والقوات الإيطالية فى تتبع المجاهدين وملاحقة أدوارهم من مكان إلى آخر بكل سرعة ؛ ولا سبيل للانفاق على إنشاء هذه الطرق . إلا إذا خفضت الحكومة قوة جيشها النظامى وأنفقت ما يتوافر لديها من مال على إنشاء هذه الطرق . وقد اقتضى الاقتصار على المناوشات البسيطة أو ما يشبه حرب العصابات أن يوقف بادوليو احياء الأرض للمستعمرين أو المعمرين من الطليان حتى يخف عبء الحكومة فى واجب المحافظة عليهم . وزيادة على ذلك فقد كان من رأى بادوليو عدم التوسع فى احتلال مراكز جديدة .

بيد أن هذا البرنامج كان لا يمكن تنفيذه إذا ظل بادوليو يسير على سياسة والى برقة السابق تيروتزى وقوامها الاشتباك مع المجاهدين فى الجبل الأخضر والإيقاع بقادة السنوسية وزعمائها فى الواحات الداخلية واحتلال المراكز المنتشرة فى الجنوب من الجغبوب إلى جالو وأوجلة وزلة وسوكنه ومراده دون القدرة على دعم هذه المراكز بإرسال الحاميات الكبيرة إليها ؛ وعلى ذلك فقد بنى بادوليو تنفيذ برنامجه الواسع على ضرورة كسب الوقت أولا ثم العمل رويدا رويدا من أجل تقوية المراكز المحتلة ، ثم الزحف البطىء والالتحام مع جانب من المجاهدين فى مناوشات صغيرة الغرض منها المحافظة على هيبة الحكومة قبل أى اعتبار آخر ، حتى إذا نجح فى توطيد قواعد الاحتلال الإيطالى واستطاع أن يجلب الإمدادات الكثيرة بدأ على الفور ، يعد الجيوش العظيمة للاشتباك مع العرب فى معارك حاسمة . وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعها يستطيع المرء أن يدرك حقيقة تلك الأساليب السياسية والخطط العسكرية

التي ميزت نشاط الحاكم الجديد طوال عام ١٩٢٩ في كل من برقة وطرابلس .

فإنه ما إن وصل بادوليو إلى طرابلس حتى أصدر منشورا إلى أهالي طرابلس وبرقة في ١٥ فبراير ١٩٢٩ يعلن فيه العفو عن الأفراد الذين يسلمون أنفسهم وسلاحهم مختارين للحكومة ، ويتوعد في الوقت نفسه كل معاند بالعقوبة الصارمة ؛ وقد أسقطت الطائرات هذا المنشور من الجو على البلدان والقرى والنواجع في أنحاء القطر الليبي بأجمعه . وكان لهذا المنشور آثار مباشرة في كل من برقة وطرابلس أهمها أن بعض أعيان الطرابلسيين في مدينة طرابلس ظنوا في الحكومة الضعف ووهن العزيمة ، واعتقد المجاهدون في الجبل الأخضر أن الحكومة صارت ترغب رغبة صادقة في بدء المفاوضة من أجل الوصول إلى تسوية النزاع القائم بالطرق السلمية ، وزحف أحمد سيف النصر ومحمد بن الحاج حسن (من قبيلة المشاشة) على القبلة (أو الجبلة) لجمع البدو المحاربين وإرسالهم إلى الجبل الأخضر حتى يعززوا قوات المجاهدين في الجبل ويرغموا الحكومة بذلك على اتخاذ لهجة متواضعة عند بدء المفاوضة مع السيد عمر المختار وصحبه . وعلاوة على ذلك شرع صالح الأطيوش ينظم في جبل الهروج جماعات من المحاربين للاشتباك مع الطليان في برقة أو في طرابلس . وفي منتصف فبراير ١٩١٩ نزلت قوات المجاهدين من الهروج الأسود للانقضاض على النوفلية من جانب وعلى إجدابية من جانب آخر ، فاجتمعت في الجيفة ثم انقسمت ثلاث فرق التحمت إحداها مع الطليان في معركة عند قارة سويد في ٥ مارس ، واشتبكت الثانية معهم في معركة كبيرة عند النوفلية في ١٤ مارس واتجهت الثالثة بقيادة عبد القادر الأطيوش من الجيفة صوب منطقة العقيلة فأغار المجاهدون بالقرب من قويرة الشيخ على قافلة كانت في طريقها من مراده إلى العقيلة في ٢٣ مارس ؛ ثم استقر المجاهدون في جبل سلطان . وبعد عناء شديد استطاعت الطائرات الإيطالية أن تكشف عن مقرهم فالتحم جيش من الطليان مع الجزء الأكبر من قوات المجاهدين جنوب بير بالريش بالقرب من بير جداريه في يوم ٦ إبريل واضطر المجاهدون أمام قوات العدو العظيمة إلى التقهقر صوب وادي الفارغ .

وكان لهذه الالتحامات أكبر الأثر في إقناع بادوليو بضرورة العمل فوراً من أجل استمالة المجاهدين إلى المفاوضة إذا أراد أن يضع برنامجه الواسع موضع التنفيذ فبدأ من ثم متصرف المرج الكولونيل باريلا من أوائل مارس ١٩٢٩ يطلب الاجتماع بالسيد عمر المختار للمفاوضة في شروط الصلح ؛ وحدد باريلا موعداً للاجتماع يوم ١٢ مارس . غير أن باريلا لم ينتظر جواب المختار وأراد أن ينتهز فرصة اطمئنان المجاهدين لقرب بداية المفاوضات وانشغالهم بعيد الفطر المبارك ، فانقض الطليان عليهم فجأة وهم يقومون بصلاة العيد (١٣٤٧ هـ) ،

وردهم المجاهدون على أعقابهم . ولكن زحف الأطيوش وجماعته ثم نشوب تلك المعارك التى سبق ذكرها فى الشوفلية وغيرها لم يلبث أن اضطر بادوليو إلى تجديد المسعى .

وفى هذه المرة كلف بادوليو متصرف درنة دودياشي وكان معتدلا ظاهر الميل إلى التفاهم مع العرب — أن يمهد للمفاوضة مع السيد عمر المختار وصحبه فاتصل دودياشي بالمجاهدين واقترح على السيد عمر أن يكون الاجتماع يوم ٢٠ مارس فى منزل على باشا العبيدى للبحث فى موضوع الصلح . ولكن المختار أصر قبل بدء المفاوضات على أن تعمد الحكومة إلى اقامة الدليل الظاهر على حسن نواياها بإطلاق سراح السيد محمد الرضا وإعادته إلى برقة وبعث السيد محمد حسن الرضا السنوسى ابن السيد الرضا ونائبه فى أدوار المجاهدين برسالة إلى حاكم طرابلس فى ٩ شوال ١٣٤٧ (١٥ مارس ١٩٢٩) ذكر فيها أن عمال الحكومة قد دأبوا أخيراً على تأكيد القول بأن الحكومة إنما تبغى تهدئة البلاد ونشر ألوية السلام فى ربوعها ، غير أنه يعلم يقينا أن الوصول إلى هذه التهدئة متعذر تماما ما دام السيد محمد الرضا مبعداً عن البلاد ، وأنه لاسبيل إلى تقرير الهدوء والسلام إلا بعودة الرضا . وقد حملت هذه الرسالة إلى جانب اسم حسن الرضا ختم المختار بوصفه الوكيل العام فى برقة . فكان من أثر هذه الرسالة أن صار بادوليو يطلب من وزارة المستعمرات فى رومة أن تفك عقال السيد الرضا وتأذن بعودته إلى بنغازى ، وأصر بادوليو على إجابة هذا الطلب كخطوة لامندوحة عن اتخاذها إذا شاءت الحكومة أن تقدم للعرب برهانا ساطعا على صدق نواياها ، وأمام هذا الإلحاح من جانب بادوليو لم تجد حكومة رومة مناصا من إطلاق سراح السيد الرضا وإرجاعه إلى بنغازى . وكان السيد الرضا يقيم وقتذاك منفيا فى أوستيكا وهى جزيرة صغيرة بالقرب من صقلية . أما السيد فقد وصل إلى بنغازى فى يوم ٢١ مارس .

وعند ما استطاع عمال الحكومة أن يؤكدوا للمجاهدين مغادرة السيد الرضا منفاه وأنه فى طريقه فعلا إلى برقة ، وافق السيد عمر المختار على الاجتماع بمندوب الحكومة دودياشي فى منزل على العبيدى فى ٢٠ مارس ، وحضر هذا الاجتماع عدد كبير من مشايخ البلاد وأعيانها . غير أن هذه المباحثات لم تسفر عن شىء فتأجلت المفاوضة إلى موعد آخر . وبعد أسبوع واحد انعقد اجتماع آخر فى سانية القبقب . ولم يستطع المتفاوضون الوصول الى نتيجة مجدية فى هذا الاجتماع كذلك . وأما السيد الرضا فقد بذل جهداً صادقا لتهيئة الجو الصالح للمفاوضة المثمرة وأعد ابنه السيد حسن الرضا منشوراً طلب فيه إلى قبائل الحاسة والعبيدات الامتناع عن أية أعمال عدائية غير أن هذه الجهود ما كانت تقابل بالرضا من جانب الحكومة ، ذلك بأن سيشلياني نائب الوالى فى برقة كان يخشى أنه

تتمكن السنوسية من دعم نفوذها على أثر عودة السيد الرضا إلى برقة إذا استمر زعماء السنوسية على نشاطهم ولو كان هذا النشاط سلبيا يهدف إلى تقرير الهدوء والسكينة .

وكان فى هذه الأثناء أن جاء علي باشا العبيدى يحمل إلى دوديانى نائب الوالى ومتصرف درنة مطالب رؤساء المجاهدين ؛ وكانت تتلخص فى ضرورة اعتراف الحكومة بزعامة السنوسية الدينية فى البلاد وبرئاسة السيد محمد إدريس والسيد أحمد الشريف ، وبأن للسنوسيين حق ملكية الأرض حول جغبوب والكفرة ، وأن تحترم زوايا السنوسية وأوقاف هذه الزوايا وتدفع الرواتب لمقدمى الزوايا ومشايخ القبائل ، على أن يقبل المجاهدون فى نظير ذلك تسليم نصف ما لديهم من أسلحة بالثمن الذى يحددونه لها وهو ألف ليرة إيطالية للبندقية الواحدة ، وإقامة أعضاء الأسرة السنوسية الكريمة فى المدن بعيدين عن الأدوار وفضلا عن ذلك فقد طالب المجاهدون بإعادة المهاجرين من برقة إلى أوطانهم . وواضح أن الغرض من هذه المطالب إنما كان التمهيد من أجل تنظيم شئون البلاد على أساس تلك الاتفاقات التى أبرمها الطليان مع السيد إدريس فى عكرمة والرجمة ، وإعادة العمل بذلك القانون الأساسى الذى ألغاه الطليان عندما نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع السنوسية فى بداية الانقلاب الفاشستى . وكان من رأى سيشليانى عندما أبلغ هذه العروض إلى حكومته أنها لم تكن مطالب المجاهدين النهائية .

ومع أنه كان واضحا أن الحكومة الإيطالية فى هذا العهد الفاشستى ما كانت ترضى قط عن عودة الزعامة السنوسية ، وهو المطلب الأساسى فى كل ما تقدم به المجاهدون من مطالب فى هذه المرحلة وفى مراحل المفاوضات التالية ، فقد طلب باريلا الاجتماع بالسيد عمر المختار فى الشليوني بالجبل الأخضر فى يوم ٦ إبريل . فحضر المختار ولكنه طلب أن يحضر السيد الرضا هذه المفاوضات كذلك فتأجل الاجتماع إلى موعد آخر . وفى ٢٠ إبريل دارت المباحثات فى بئر المغارة (فى وادى القصور) ؛ وقد حضر هذا الاجتماع السيد محمد الرضا بعد أن تعهد الشارف الغرياني بإرجاع السيد إلى بنغازى ، وخرج مع السيد الرضا إلى جانب الشارف كل من خالد الحمرى وعبد الله فركاش ورويفع فركاش وعلى باشا العبيدى وعبد الله بلعون مدير المرج وحضر كل هؤلاء اجتماع المختار بالسيد الرضا . ثم خير مندوبو الحكومة السيد عمر بين أمور ثلاثة : الذهاب إلى الحجاز ، أو إلى مصر ، أو البقاء فى برقة ، فإذا رضى بالبقاء فى برقة أجرت عليه الحكومة مرتبا ضخما وعاملته بكل احترام . ولكن المختار رفض هذه العروض .

وكان من الواضح فى أثناء الاجتماع أن السيد الرضا يخضع لرقابة صارمة تقيد حريته

ولا تدع له فرصة ما لتبادل الرأى مع السيد عمر ؛ وعلى ذلك أصر المختار على ضرورة اتصال السيد الرضا بأمير البلاد السيد إدريس فى القطر المصرى ، وأكد لمندوبى الحكومة استعداده التام لتنفيذ كل ما يأمر به السيد إدريس نفسه . فانفض الاجتماع دون الوصول إلى نتيجة . وكان غرض المختار على مايبدو من طلب حضور السيد الرضا إلى وادى القصور أن يستطيع إنقاذه من قبضة الطليان ، ولكنه سرعان ما عدل عن تنفيذ عزمه لأسباب عدة منها أنه لم يتمكن من الحديث منفرداً مع السيد الرضا حتى يستطلع رأيه فى ذلك بسبب وجود الشارف الغريانى وصحبه يحيطون بالسيد الرضا من كل جانب وكان هؤلاء من أعوان الحكومة ؛ وفضلا عن ذلك فإن المختار لم يجد أية فائدة عملية من اتخاذ هذه الخطوة . أما المفاوضات فقد تعطلت مدة بعد ذلك حتى طلب سيشلياني استئنافها فى ١٨ مايو .

واستؤنفت المفاوضات فى هذه المرة فى مكان يسمى قندوله بالقرب من سيدى رويفع . وحضر اجتماع قندوله باريلا وكياني وعدد من الضباط والأعيان ، وكان سيشلياني قد بيت النية على الإيقاع بالمختار وأسره ، ولكن السيد عمر احتاط للأمر ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء . وفى ٢٦ مايو بدأت المفاوضات من جديد ، لحضر المختار إلى مكان بالقرب من القيقب . وفى هذا الاجتماع دارت المباحثات على أساس ما جاء فى منشور بادوليو فعرض دوديابشي شروط الحكومة ، وهى (أولا) عودة السيد إدريس والسيد أحمد الشريف والسيد صفى الدين وسائر أعضاء الأسرة السنوسية إلى البلاد على أن يكونوا تحت إشراف الحكومة وأن يتم رجوعهم بترخيص من الحكومة بوصفهم « مهاجرين » يبغون العودة إلى أوطانهم ، وتعهدت الحكومة بمعاملتهم المعاملة اللائقة بمراكزهم على غرار ما تفعله مع السيد الرضا . (ثانيا) احترام الزوايا وأوقافها ودفع المرتبات لشيوخها . (ثالثا) إرجاع أملاك الأسرة السنوسية . (رابعا) إعفاء الزوايا وأملاك السنوسيين من الضرائب . (خامسا) تسليم المجاهدين نصف ما معهم من أسلحة لقاء ألف ليرة إيطالية تدفع ثمنا لكل بندقية يسلمونها ، وعلى أن ينضم بقية المجاهدين المسلحين إلى المنظمات التى تنشئها الحكومة تحت إشرافها وإدارتها وذلك لمدة معينة تحددها الحكومة فيما بعد فى نظير أن تعد أماكن لإقامتهم يسهل على الحكومة إمدادهم فيها بالمؤن فضلا عن إحكام الرقابة عليهم . (سادسا) إبعاد كل الإخوان السنوسيين من الأدوار وتتعهد الحكومة بإعطائهم المرتبات التى تناسب مراكزهم . فاعترض المختار على تسليم الأسلحة وحل الأدوار ، وأصر على بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا على أن يكون للحكومة نوع من الإشراف العام فحسب . واستند المختار فى ذلك إلى أن بقاء الأدوار بقيادة الحسن من شأنه أن يوفر على الحكومة مبالغ طائلة لأن

الحسن فى وسعه أن ينفق على هذه المعسكرات من أموال العشر التى يجمعها على حسب القواعد الدينية . وقد أيد المختار فى ذلك عبد الحميد العبار . ولكنه لما كان بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضا السنوسى ثم تحصيل العشور وأموال الزكاة ينطوى على بقاء الزعامة السنوسية ذاتها تمارس سلطاتها الدينية والسياسية ، بل ودعم أركان هذه الزعامة التى ما فتىء الطليان يحاربونها منذ قدومهم إلى ليبيا فقد رفض دودياشي عروض المختار وانفض الاجتماع على أن يعرض دودياشي هذا الحل — كما طلب المختار — على نائب الوالى فى برقة حتى يفصل فيه سيشلياني بنفسه .

ويعد أربعة أيام فقط طلب دودياشي مقابلة المختار فى قندوله (٣٠ مايو) فجاء المختار إلى نجع على العبيدى شيخ العبيدات بالقرب من القبقب ، وحضر معه السيد حسن الرضا والفضيل بوعمر وعبد الحميد العبار وحامد القماصى وآخرون ومعهم حرس يتألف من مائة وخمسين فارسا . وجاء من طرف الحكومة دودياشي وباريلا كما حضر هذا الاجتماع على العبيدى وخالد الحرى ورويفع قركاش . وكانت جلسة هامة ، أظهر فيها المختار استعداده للتفاهم طالما أنه يؤدى إلى المحافظة على « كرامة » السنوسية . وفضلا عن ذلك فقد أصر المختار على عدم حدوث أى اتفاق بينه وبين الحكومة الإيطالية إلا إذا حضر مندوب عن الحكومة المصرية وآخر عن الحكومة التونسية كدليل على رغبة الطرفين الصادقة فى الاتفاق بصورة قاطعة . ولكن دودياشي اعترض على هذا الطلب ، وكان من سوء حظه أنه استند فى اعتراضه هذا إلى أقوال هيجت السيد عمر وأخفقت بسببها مفاوضات قندوله ، ذلك بأن دودياشي حاول أن يسوغ رفض حضور المندوبين المصرى والتونسى بدعوى أن الطليان استمروا على صلة مباشرة بالبرقاويين من سنوات عدة ، ولم تصدر منهم إطلاقا خلال هذه السنوات الطويلة أعمال تدل على الخيانة والغدر فضلا عن أنهم لم يسلكوا فى علاقاتهم مع العرب مسلكا يدل على عدم المروءة ؛ فكان هذا القول ادعاء جريئا كفى صدوره من المفاوض الإيطالى لاستثارة المختار الذى سرعان ما استبد به الغضب ، فاندفع يندد بأفعال الطليان ويكشف عن سوء نواياهم وخبث ضمائرهم ، ويسرد على الحاضرين فى حدة بالغة أمثلة كثيرة من أعمال القسوة والغدر التى ارتكبها الطليان الآثمون على أيدى قوادهم وعمالهم ، فذكر ما فعله الجنرال مترتى بقبيلة العبيدات ، وهى من القبائل التى سالمت الطليان ، عندما اغتصب هؤلاء كل ما كانت تمتلكه هذه القبيلة حتى انهم نزعوا حلى النساء من آذانهن ، وذكر ما فعله لوبللو مع أسرة إبراهيم من قبيلة العواقير ، وقد سالم هؤلاء الطليان كذلك . فأخذ لوبللو منهم أربعين رجلا فقتلهم رميا بالرصاص ثم جعل السيارات تمر على جثثهم ، فما زالت السيارات تدهسهم ذهابا

بابا حتى اختلطوا بالتراب » . ثم حمل المختار الطليان مسئولية نقض اتفاقاتهم مع العرب خصوصا اتفاق الرجمة . والواقع أن ثورة المختار كانت شديدة ، ولكن بعضا من الحاضرين رأوا بالتدخل حسما للأمور ، واستطاع المتفاوضون أن ينتقلوا بعد ذلك إلى بحث شروط الصلح . وتمسك المختار بحقوق السنوسية وزعامتها وأصر على أن يكون للقطر البرقاوى الطرابلسى نفس الامتيازات التى تتمتع بها جاراته مصر وتونس . وكان المختار وحده هو الذى يتكلم ، وأما سائر المجاهدين فقد صمتوا . وفعل ذلك أيضا السيد حسن الرضا . بيد أن بعض أعوان الحكومة أمثال على العيبدى وعبد القادر بو بريدان والسيفاط بوقرنه (من براعصة) حاولوا التوسط لإقناع المختار بأن يترك جانباً مسألةالحقوق والزعامة السنوسية ، فثارت ثائرة المختار من جديد وانسحب من الجلسة قائلا إنه يريد الذهاب إلى معسكره لأن ذلك اليوم كان أول أيام العيد ، وأما إذا أراد المتصرف دودياشى الحديث فإن موعد ذلك جلسة أخرى .

وفى الأيام القليلة التالية اتصل على العيبدى بالسيد عمر المختار ، ولما كان المجاهدون لا يزال يحدوهم الأمل فى إمكان الوصول إلى حل سلمى مع الطليان فقد قبل المختار استئناف المفاوضة ، وكان من رأى السيد الرضا أنه ما دام هناك شىء من الأمل فى إمكان تحقيق مصلحة الوطن فإن الواجب يقتضى المختار عدم تفويت الفرصة . فعقد اجتماع آخر فى يوم ٧ يونية حضره دودياشى وباريلا ثم سيشلياني الذي قال إنه جاء الاجتماع موفداً من قبل الماريشال بادوليو بغية الوصول إلى اتفاق حاسم مع العرب . وجدد الطليان عروضهم القديمة ، وتمسك المختار بمطالبه ، وأصر على حضور مندوبين من قبل الحكومتين المصرية والتونسية ، ووعد سيشلياني بأن يحمل مطالب المختار إلى بادوليو . وفى ١٣ يونية اجتمع نائب الوالى سيشلياني بالسيد عمر فى قلعة شليونى ، وأظهر المختار رغبته الصادقة فى الاتفاق إذا أقرت الحكومة الإيطالية مطالبه ، وهى نفس المطالب السابقة وعلى أساس أن يكون للمختار مطلق الحرية فى الذهاب إلى أى مكان يريده ، ولو أن الحكومة كانت تفضل بقاءه فى برقة مشمولا — على حد قولها — بجميع مظاهر الرعاية والتقدير والاحترام الكامل ، وأن يقيم السيد حسن الرضا مع والده الرضا فى بنغازى ، وأن يجمع المجاهدون فى جنوبى تكنس حتى يمكن تسريحهم شيئا فشيئاً ووعدت الحكومة بإلحاق فريق منهم ضمن قواتها النظامية واستخدام من يشاء منهم فى إنشاء الطرق وإعطاء مكافأة سخية لكل فرد يسلم ما معه من أسلحة إلى الحكومة . ولما كان سيشلياني قد وعد بإجابة مطالب المختار جميعها ، فقد تأجل الاجتماع إلى يوم آخر حتى يتم الاتفاق النهائى بحضور والى طرابلس وبرقة نفسه . وفى يوم ١٩ يونية حصل اجتماع سيدى رحومة المشهور بحضور بادوليو وسيشلياني وعدد

من الطليان والأعيان الضالعين معهم كالشارف الغرياني وعلى باشا العبيدى .

ومع أن المختار ظل متمسكا بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية « إذا كان الطليان يريدون حقاً راحة البلاد ويعملون من أجل تهدئتها » ، فقد قبل أن يعرض شروطه النهائية رسمياً بحضور والى ليبيا ، فقرأ الفضيل بو عمر هذه الشروط . ووافق الطليان عليها ، ثم تسلمها بادوليو ووعد بأن يعمل على حضور مندوبى الحكومتين المصرية والتونسية فى اجتماع يحدد فيما بعد قريباً . واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما « مخابرة مرجعه » ، وقال بادوليو إنه على استعداد تام لقبول عودة أمير البلاد السيد محمد إدريس إلى برقة مادام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك .

وكانت الشروط التى عرضها المختار أساسا للاتفاق النهائى مع الطليان متفقة فى جوهرها مع ما كان الطليان قد أخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق بتنفيذه عندما أصدروا القانون الأساسى لقطر برقة فى عام ١٩١٩ وأبرموا معاهدة الرجمة مع السيد إدريس ؛ وهى شروط تكفل المحافظة على كيان العرب واحترام عقائدهم الدينية ولغتهم العربية وتصون أوقاف الزوايا وتخول المختار الحق فى أخذ الزكاة الشرعية من العرب القاطنين حول النقط الإيطالية بالسواحل ، وتنص على وجوب تعليم أبناء البلاد وفتح باب التوظف فى دوائر الحكومة وممارسة الأعمال الحرة على قدم المساواة مع الطليان وإرجاع جميع الممتلكات التى اغتصبتها الحكومة من الأهالى وإعطائهم مطلق الحرية فى حمل السلاح وجلبه من الخارج إذا امتنعت الحكومة عن بيع السلاح لهم . وفضلا عن ذلك فقد نصت هذه الشروط « على أن يكون للأمة رئيس منها تختاره بنفسها ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على مصالحها ، كما يكون للقاضى (الإسلامى) وحده القول الفصل بين الوطنيين » ؛ وكان هذا الشرط على وجه الخصوص أهم الشروط التى قدمت للطليان فى نظر المختار وسائر المجاهدين . وعلاوة على ذلك فقد طلب المختار إعلان العفو الشامل عن جميع من عدتهم إيطاليا « مجرمين سياسيين » سواء أكان هؤلاء فى داخل القطر أم كانوا خارجه ، وإطلاق سراح المسجونين وسحب كل المراكز التى استحدثها الطليان فى أثناء الحرب بما فى ذلك مراكزهم فى الجغبوب وجالو .

وكان معنى إجابة هذه المطالب إنشاء تلك الإمارة السنوسية التى استطاع السيد إدريس تأسيسها فى برقة ثم عمل الطليان على تحطيمها منذ اللحظة الأولى التى ارتبطوا بها فى مواثيق القانون الأساسى واتفاق عكرمة والرجمة ، وعلى الرغم من هذه المواثيق والاتفاقات . وفضلا عن ذلك فقد كان معنى إجابة هذه المطالب أيضا أن الطليان قد اعترفوا بالهزيمة السياسية

أقروها وأن تلك الجهود العسكرية التي بذلوها مدة ستة أعوام تقريبا قد ذهبت جميعا هباء منثورا ، وما كان الطليان ليرضوا بذلك . وما كانت الحكومة الفاشيستية — وهى التى خول رئيسها موسولينى الماريشال بادوليو عند مجيئه إلى الأقطار الليبية سلطات واسعة لإخماد « الثورة » بكل الوسائل الممكنة ودعم أركان الاحتلال الإيطالى فى البلاد — نقول إن هذه الحكومة ما كانت لترضى قط عن إعادة ذلك البنيان الذى عقدت العزم على تقويض صرحه طوال السنوات الماضية . ولذلك فإنه مما يدعو إلى العجب والدهشة حقيقة أن بادوليو قبل دون تردد فى اجتماع سيدى رحومه هذه الشروط التى قدمها المختار أساسا للصلح مع إيطاليا .

بيد أن هذا العجب وهذه الدهشة سرعان ما يزولان كى تحل محلهما الريبة الشديدة فى نوايا الطليان إذا عرفنا أن بادوليو عند عودته إلى بنغازى من سيدى رحومة أخذ يتكتم هذه الشروط التى تم عليها الاتفاق مع السيد عمر ، وبدلا من المبادرة بتنفيذ شيء منها صار يتخذ هو وعماله خطة المراوغة ويعمد إلى كسب الوقت على أمل أن يستطيع فى أثناء ذلك إنجاز استعداداته والتهيؤ لبدء العمليات العسكرية الواسعة ضد المختار نفسه ثم احتلال ما بقى من مراكز السنوسيين فى الفزان والكفرة وغيرها . واعتقد الطليان أن الشروط التى تقدم بها السيد عمر المختار بصورة قاطعة فى سيدى رحومة لم تكن من عمله بل إنها كانت من عمل السيد إدريس فى القاهرة . ثم تأكدت هذه «الشكوك» لدى بادوليو وسيشلياني وأضرابهما عند ما اجتمع سيشلياني بالسيد عمر بعد ذلك فى بير قندوله فى ٢٨ يونية ، ثم فى سيدى رويفع فى ٢٠ يولية ، وشرع الطليان وعمالهم يبذرون بذور الشقاق فى صفوف المجاهدين فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البلاد على أمل أن يضعفوا من قوتهم . وفى اجتماع سيدى رويفع ادعى سيشلياني أنه لا يمكن إبرام الاتفاق النهائى إلا فى عاصمة الولاية . ولما كان سيشلياني قد أكد رغبة حكومته الصادقة فى إبرام هذا الاتفاق عند اجتماعه بالسيد عمر فى بير قندولة (٢٨ يونية) فقد اعتقد المختار أن الطليان صادقو النية حقيقة فى هذه المرة ووافق على أن يذهب السيد حسن الرضا مع سيشلياني إلى بنغازى حتى يوقع على الصلح نيابة عنه على أساس الشروط التى قبلها الطرفان فى سيدى رحومة .

على أنه ما إن وصل السيد حسن إلى بنغازى حتى عمد الطليان إلى تنفيذ مؤامرتهم ، فاستطاع أعيان البرقاويين الضالعين معهم أن يؤثروا فى السيد حسن وأن يقنعوه بأهمية الاتفاق السريع مع الحكومة الإيطالية كخطوة لا مناص من اتخاذها لانقاذ الوطن وإعادة الهدوء والسكينة إلى برقة . ولما كان الحسن شابا حديث السن لا يزيد عمره على السابعة عشرة فقد أعار أقوالهم آذانا صاغية وقبل أن يوقع على شروط للصلح كانت تختلف عن تلك التى

اشترطها المختار فى سيدى رحومة وقبلها بادوليو . وعندئذ لم يجد السيد عمر مناصا من رفض هذه الوثيقة وأبى الموافقة على الشروط الجديدة التى وقعها الحسن ، فعز على الحسن أن ينقض المختار كلمته وانفصل بجماعته من البراعصة والدرسة — وكانوا يبلغون حوالى الثلاثمائة — واتخذ مقامه فى غوط الجبل وهو مكان قريب من مراكز الطليان فى مراوة .

وأدرك المختار حقيقة نوايا الطليان ونوايا أعوانهم ؛ ولكنه فضل التريث فبعث فى يوم ١٥ ربيع الأول من عام ١٣٤٨ (٢١ أغسطس ١٩٢٩) برسالة إلى مندوب الطليان فى دور الحسن يطلب فيها استئناف المفاوضة من أجل إبرام الاتفاق الصحيح الذى قبله الطليان فى سيدى رحومة . ثم احتاط السيد عمر للامر فطلب أن تجرى المفاوضات بين نائب الوالى أو وكيله وبين (السيد عمر المختار) رأسا دون وساطة أحد وخصوصا وساطة الشارف الغريانى لأن وساطة هذا الأخير على حد قول المختار « لا تأتى بخير » . وزيادة على ذلك فقد طلب المختار أن يوفد مندوبان أحدهما عن دور المجاهدين والآخر عن الحكومة الإيطالية إلى القاهرة لمقابلة السيد إدريس والاستماع الى مقترحاته وأخذ ما يبغيان من عهود ومواثيق مترتبة على هذه المقترحات وقبولها من جانب الأمير ؛ وكان آخر ما طلبه السيد عمر أن يتفق الطرفان على هدنة مؤقتة تستمر إلى وقت الاجتماع التالى على أن يلزم كل فريق مواقعه التى يحتلها فعلا مادامت هذه الهدنة قائمة .

غير أن الطليان استطاعوا تنفيذ مآربهم فكسبوا الوقت اللازم لإنجاز استعداداتهم العسكرية واستمالوا السيد حسن الرضا إلى قبول الاتفاق معهم وصاروا لا يأبهون الآن بالإجابة على رسالة السيد عمر . وكان نجاح عملياتهم العسكرية فى طرابلس ومنطقة سرت من الأسباب التى جعلت الطليان يمضون فى خطتهم ويكشفون القناع عن نواياهم الحقيقية رويداً رويداً . فقد تقدم كيف أن المجاهدين بقيادة عبد القادر الأطيوش قد إضطروا إلى الانسحاب صوب وادى الفارغ بعد اشتباكهم مع الطليان بالقرب من بير جداريه فى ٦ إبريل ١٩٢٩ . وقد شجع هذا الارتداد الطليان فحشدوا جيشين كبيرين فى الشهر التالى خرج أحدهما بقيادة عاروق أمسيك الغريانى من ناحية سرت بينما تولى خليفة الزاوى قيادة الجيش الآخر وخرج به من ناحية الغريان وكان غرض الجيشين الاشتباك مع المجاهدين فى مناوشات تمهد لاحتلال فزان فى النهاية . فدارت معارك عدة فى المنطقة الصحراوية الممتدة من ورقلة الى الفزان ومن سرت إلى غدامس ؛ وأبلى أحمد سيف النصر بلاء حسنا فى هذه المعارك ؛ ولكن الطليان استطاعوا فى الوقت نفسه أن يحتلوا مراكز المجاهدين فى القبلة والحمراء (شويرف) ، واحتلت جنودهم هذه المناطق . وفى ربيع عام ١٩٢٩ كانوا قد أتموا نزع السلاح من أهلها

وسلمت قبيلة الزنتان وظل أحمد سيف النصر يناوش الطليان فى قتال كان من الواضح أن المجاهدين لن ينالوا منه مأربا بسبب نقص الذخائر وضعف أسلحتهم بالقياس إلى ذخائر العدو العظمى وأسلحته الحديثة الفتاكة ؛ فلم يكن من المتوقع إذن والظروف كلها فى مصلحة الطليان أن يقبل الوالى بادوليو الارتباط « بكلمته » . وعلى ذلك فقد ظل بادوليو لا يجيب على رسائل المختار الذى أخذ يذكر الطليان بعهودهم ، بل إن هؤلاء انتهزوا فرصة «وقف» المفاوضات فانكبوا يبذلون ما وسعهم من جهد وحيلة حتى يغروا نفرا من المجاهدين بالتسليم للحكومة . ويتضح ذلك كله من مراجعة تلك الرسائل التى صار يتبادلها السيد عمر المختار مع سيشلياني نائب الوالى طوال شهرى سبتمبر واكتوبر من عام ١٩٢٩ .

فقد كتب المختار إلى سيشلياني فى ٣٠ ربيع الثانى ١٣٤٨ (٢٥ سبتمبر ١٩٢٩) يذكره بما سبق أن أبداه هذا الأخير من رغبة صادقة فى الاتفاق منذ أن بدأت المفاوضات بصورة جدية فى اجتماع بير قندولة فى ٢٨ يونية ، فقال المختار الآن مخاطبا سيشلياني : « لقد ذكرتم فى أثناء هذه المباحثات أن غرضكم الوحيد منها لم يكن سوى العمل على تهدئة الوطن ثم وعدتم بوقف الأعمال العدائية ؛ وقد صدقنا نحن ذلك ، ولكنه سرعان ما تبين أن عمال الحكومة ورؤساء المفاوضات — وكان المختار يقصد الشارف الغرياني وزملاءه الضالعين مع إيطاليا — يريدون الآن أن يوجدوا سوء التفاهم بيننا وبين السيد الحسن بمعاونة أحد مستشاريكم الذى يقوم بتوزيع الأغذية والأموال بين المجاهدين » ، وتساءل المختار إذا كان هذا العمل بناء على أمر أصدره سيشلياني ويعلم به نائب الوالى ، ويحمل الحكومة مسئولية ما قد يطرأ من تغيير على العلاقات القائمة بين المختار والحكومة بسبب هذه الأعمال ، ثم يطلب من سيشلياني الاجتماع به لاستئناف المباحثات فأجابه سيشلياني بقوله « إن على (السيد عمر) إذا أراد الاجتماع به أن يتوقع شيئا آخر غير ماجرى الحديث بشأنه فى يوم ١٣ يونية » .

ومع أنه كان واضحا من جواب نائب الوالى أن الحكومة تعتزم نقض ماتعهدت بقبوله سابقا ، فقد بعث المختار فى ٥ جمادى الأولى ١٣٤٨ (٩ أكتوبر ١٩٢٩) برسالتين إحداهما إلى سيشلياني والأخرى إلى الوالى بادوليو ، يكرر الشكوى من المساعى التى يبذلها عمال الحكومة وأعوانها من أجل « تفكيك » الأدوار ويذكر أنه إذا كان الطليان يبغون تهدئة البلاد حقيقة فإن الواجب يقتضيهم أن يعقدوا الاتفاقات اللازمة لبلوغ هذه الغاية مع السيد محمد إدريس زعيم السنوسية الأوحد والذى بيده مطلق التصرف فيما ينبغى عقده من اتفاقات فى صالح الوطن ، وختم المختار رسالته بإنذار الوالى أنه إذا لم يقلع موظفو الحكومة عن بذر بذور الشقاق والتفرقة فى الأدوار فإنه لا يكون مسئولا عما يحدث بعد ذلك نتيجة لهذا العمل ، وأمهل المختار والى برقة وطرابلس حتى يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩ كى يتدبر الأمر بحكمته . ومع أن هذا

الخطاب كان يقتضى ردا حاسما ولا شك من جانب بادوليو ، فقد ارتأى الماريشال بدلا من ذلك أن يبعث إلى المختار بأحد كتب المختار السابقة التى طلب فيها السيد عمر إرجاع السيد محمد الرضا إلى برقة كخطوة لا غنى عنها لتهدئة الوطن . وكان عدم إجابة بادوليو على رسالة المختار منذرا بقطع العلاقات واستئناف الجهاد فى الجبل الأخضر .

فقد انتظر المختار دون جدوى أن يأتيه رد من الحكومة فى الأيام التالية ، فجاءته بدلا من ذلك رسالة الشارف الغريانى ينبئه فيها صاحبها ، مهدداً ، بأن الحكومة على تمام الاستعداد « لمقابلة الحوادث فى كل وقت » ، وعندئذ تأكد لدى المختار أن الطليان مصممون على القتال وبادر بإصدار ندائه المشهور « إلى أبناء وطنه وسكان برقة وطرابلس ، فى ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ (٢٠ أكتوبر ١٩٢٩) وفى هذا النداء أخذ المختار يسرد قصة المفاوضات الصحيحة من جهة ، ثم يبين للجاهدين مقدار تمسك الطليان بعهودهم وكيف أنهم نقضوا الهدنة التى طلبوها بأنفسهم فصاروا يتحملون وحدهم بهذا العمل مسئولية استئناف الحرب فى ليبيا وقد أراد المختار من نشر هذا النداء أن يصحح من جهة أخرى تلك الوقائع التى صار يذيعها الطليان على غير حقيقتها ممسوخة مشوهة عن المفاوضات والهدنة ، وأن يطلب إلى أبناء الوطن أن يمضوا فى الكفاح عن كيانهم « باذلين دماءهم الزكية فداء الوطن وفى سبيل الوصول إلى غايتهم المنشودة » .

وقد تضمن هذا النداء تلك الشروط التى قدمها السيد عمر إلى الماريشال بادوليو فى اجتماع سيدى رحومه ، كما تضمن شيئا من الحوادث التى وقعت فى أثناء الهدنة — « ومدتها شهران وقابلة للتجديد » — وكان أهم ماحدث قبل انتهاء هذين الشهرين أن السيد عمر أخبر « سعادة الوالى بواسطة وكيله الكولونيل سيشلياني أن كل الزعماء الوطنيين اتفقوا على انتخاب الأمير السيد محمد إدريس السنوسى ، وهو ينتخب معه الرجال الأكفاء من أبناء برقة وطرابلس لتولى المفاوضة مع الحكومة الإيطالية على مطالب برقة وطرابلس » . ثم طلب السيد عمر « من الحكومة أن تخابر سيادة الأمير السيد محمد إدريس السنوسى حالا لاتخاذ الطرق المؤدية لإنهاء الحالة الحاضرة بأحسن منها ، فوعد سعادته (السيد عمر) خيراً » . ولكن الطليان لم يفعلوا شيئا لتنفيذ وعودهم . بل كان كل غرضهم « كسب الوقت فقط » ، فطلبوا امتداد الهدنة مرة بعد أخرى حتى اضطر السيد عمر إلى إبلاغ « الحكومة بواسطة وكيل الوالى أن الهدنة آخرها يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ (٢٤ أكتوبر ١٩٢٩) وأنها غير قابلة للتجديد ولما كانت هذه « الهدنة على وشك الانتهاء ، ولم يتلق (السيد عمر) ردا من الحكومة الإيطالية عن عزمها بمخابرة أميرنا السيد محمد إدريس السنوسى ، رأى (المختار) أن يخوض

غمار الحرب ، وأن لا يركن إلى أى محادثة أو واسطة ولو من العائلة السنوسية إلا من اتفقت عليه الأمة وأودعته ثقتها » . أى سمو الأمير السيد محمد إدريس نفسه . وفى الواقع كان مما أكد لدى السيد عمر سوء نوايا الطليان أنهم — كما قال فى ندائه — تجنبوا « مخابرة الزعيم (سمو الأمير) مع علمها تماما بأن الحل والعقد بيده فلو كانت (حكومتهم) حقيقة تركن إلى الصلح لما ترددت لحظة واحدة فى مخابرته » .

ولذلك خاطب السيد عمر المجاهدين وأبناء الوطن قائلا : « فليعلم إذاً كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لهم الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة ؛ ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك . وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة ، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية . وإن مقاصد إيطاليا وأغراضها ترمى إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسى وتقدمه . . . » فهيهات أن يصل الطليان إلى غرضهم « مادامت لنا قلوب تعرف أن فى سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال » ؛ ثم ختم المختار هذا النداء بقوله : « لهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ماهى عليه حتى يثوب أولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع » . وقد نشرت بعض الصحف المصرية هذا النداء فى ٢ يناير ١٩٣٩ .

وكان المختار محقا فى توقعه الغدر من جانب الطليان لأن هؤلاء مالبثوا حتى كشفوا القناع عن نياتهم عندما تبين لهم إخفاق تلك المفاوضات التى كان يحدوهم على السير فيها الأمل فى أول الأمر فى إمكان الوصول إلى تسوية سلمية قد تحقق مآربهم ثم صاروا يصطنعون المفاوضة بعد ذلك لكسب الوقت فحسب حتى تتم استعداداتهم العسكرية . وكان السيد حسن الرضا أول من ذاق مرارة غدرهم ، فقد غادر الدور فى غوط الجبل جماعة من عائلة عريف وانتهز الطليان هذه الفرصة فطلبوا من الحسن أن يتقدم بالدور إلى ناحية مراوة وأجاب الحسن رغبتهم وعندئذ سيرت الحكومة قوة كبيرة على الدور لجمع الأسلحة من أتباعه بدعوى أن رجاله قد « غزوا » بعض الأهلين فى مراوة . وأبدى الحسن ورجاله معارضة شديدة ، ولكن معارضتهم هذه سرعان ما أكدت للطليان — على حد قول هؤلاء — أن الدور كان مركزاً لدعاية سنوسية خطيرة ، وأن حل هذا الدور قد بات لذلك أمرا لامناص منه ولا محيد عنه ، وكان مما جعل الطليان ينقلبون على الحسن أن امتنع فى المدة الأخيرة عن إجابة رغبتهم عندما طلبوا منه الانتقال إلى بنغازى ، وعلى ذلك فقد اشتبكت القوات الإيطالية مع الدور

فى نضال عنيف ذهب ضحيته كثير من المجاهدين ووقع الباقون فى أسر هذه القوات. وفى ١٠ يناير ١٩٣٠ قبض الطليان على الحسن نفسه وساقوه أسيراً إلى بنغازى ثم مالبثوا حتى نفوه إلى جزيرة أوستيكا ثم إلى فلورنسة بعد ذلك. وقد بقى الحسن منفياً بهذه المدينة الأخيرة حتى وفاته فى عام ١٩٣٦، وبعد حادث الحسن بأسبوع واحد ألقت الطائرات الإيطالية قذائفها فى يوم ١٦ يناير على المجاهدين والسيد عمر، وعلى هذا النحو بدأ النضال من جديد بين المجاهدين وبين الحكومة الايطالية.

وكان المجاهدون قبل ذلك قد اشتبكوا خلال شهر نوفبر ١٩٢٩ مع الطليان فى مناوشات قليلة لحدث فى يوم ٨ نوفبر أن هاجمت جماعة قليلة منهم قصر بنقدم وقبضوا على « الدرك » الإيطالى، وقابل الطليان هذا الهجوم بمثله فاشتبكوا مع المجاهدين فى معركة بالقرب من قصر مرق فى يوم ١٦ نوفبر، وفى ٢٠ ديسمبر هاجمت أورطتان من عساكر أريتريا دور المجاهدين بالقرب من جردس الجرارى، ثم نشطت عمليات الطليان العسكرية بعــــد أن غدر هؤلاء بالحسن فهاجموا دور المجــاهدين فى وادى مهجة (فى ٢٨ ينــاير ١٩٣٠) وألقت الطائرات قذائفها على العرب. وفى خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٣٠ اشتبك المجاهدون مع الطليان فى معارك عدة فى منطقــة الجبل الأخضر حتى أقفلت جميع الطرق. فبلغ عــدد مناوشات المجاهدين مع الطليان وهجومهم عليهم فى المدة بين ١٧، ٣١ مارس ثمــان عشرة. غير أن الطليان فى أثناء هذه العمليات الدائرة فى الجبل كانوا قد أصابوا نجاحاً ملحوظا فى ميدان القتال الآخر فى طرابلس وتعنى به منطقة الفزان الشاسعة. فقد استطاع الطليان بقيادة ردولف غرزيانى، بعد عدة معارك فى هــذه المنطقة استمرت حوالى ثمــانية شهور، أن يتغلبوا على قوات أحمد سيف النصر على نحو ما ذكرنا سابقا، وأن يزحفوا بنجاح صوب مرزق عاصمة فزان؛ وفى العمليات التــــالية من نوفبر ١٩٢٩ إلى فبراير ١٩٣٠ أحرز غرزيانى عدة انتصارات مكنته من احتلال واو الكبير أو واو الشعوف فى ١٣ يناير، وكان عبد الجليل سيف النصر قد نقل إليها والدته وابن عمه (السنوسى) فقتل الطليان ابن عمه وأسروا والدته. وفى يوم ٢٤ يناير ١٩٣٠ احتل غرزيانى مرزق ورفع العلم الإيطالى عليها. وكان ذلك بحضور الماريشال بادوليو الذى وصــل إلى مرزق بالطائرة فى اليوم نفســه. وفى ٢٥ فبراير احتل غرزيانى غات ثم ارتحل من الفزان إلى طرابلس فبلغها فى يوم ٢٦ فبراير. وعلى هــذا النحو انتهت بسقوط مرزق وغات مقاومة المجاهدين فى الفزان واستطاع الطليان أن يتفرغوا لإخضاع مراكز المجاهدين الباقية فى الكفرة وغيرها والتضييق على السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر.

وحدث فى أثناء وجود غرزيانى فى أم الأرانب فى الفزان، أن وصله فى يوم ١١ يناير ١٩٣٠ الأمر بتعيينه نائبا للوالى فى برقة . ولكنه فضل أن يتم عملياته العسكرية فى الفزان قبل أن يتقلد مهام منصبه الجديد . وعلى ذلك فإنه لم يبارح الفزان كما شاهدنا إلا بعد أن احتل غات فى ٢٥ فبراير وشهد المجاهدين ينسحبون إلى جهات الكفرة وصوب حدود بلاد الجزائر غربا ، ومكث غرزيانى فى طرابلس أياما قليلة ثم غادرها إلى رومة فى ٨ مارس ، وعاد منها إلى برقة فى أواخر الشهر نفسه ، فوصل بنغازى فى يوم ٢٧ مارس . وبدأ من فوره ينفذ التعليمات التى تلقاها من رومة ، وكان قد وافق عليها كل من موسولينى رئيس الحكومة وديبونو وزير المستعمرات وبادوليو حاكم ليبيا العام . وعلى ضوء هذه التعليمات يمكن تفسير تلك الخطة التى سار عليها غرزيانى فى إخضاع البلاد وإخماد المقاومة بالقسوة والوحشية التى أضفت عليه عن جدارة واستحقاق لقب « جزار ليبيا » .

فقد نصت التعليمات التى جاء بها غرزيانى على ضرورة الفصل بين جميع الأهلين الذين خضعوا للحكومة وأظهروا ولاءهم لها عن « الثوار » والمجاهدين العرب ، واتخاذ كل الوسائل التى تضمن عدم تسرب نفوذ السنوسية بين الأهالى الموالين للطليان، وذلك على وجه الخصوص بمنع مندوبى السنوسية وعمالها من أخذ العشور وجمع أموال الزكاة من الأهالى ، وقيام الحكومة بعملية « تطهير » واسعة بين الوطنيين والطليان المقيمين فى المدن وخصوصا فى بنغازى . وفضلا عن ذلك فقد نصت التعليمات على ضرورة وضع الأسواق التى يؤمها العرب تحت إشراف الحكومة ورقابتها الشديدة ثم العمل على قفل الحدود المصرية البرقاوية قفلا تاما وذلك لمنع تموين المجاهدين بالمؤن والأسلحة والذخائر فى منطقة الجبل الأخضر على التخصيص وفى الواحات التى بقيت فى حوزتهم . وإلى جانب ذلك كله نصت التعليمات على ضرورة القيام بعمل حاسم ضد المجاهدين فى طرابلس وبرقة على أن يعهد « بالنشاط السياسى » فى طرابلس إلى عناصر من الطرابلسيين الموالين للحكومة مهمتهم السعى من أجل بذر بذور الشقاق بين المجاهدين والقضاء على أية أعمال عدائية قد يقومون بها . ولم تكن الحكومة تتوقع أية مقاومة جدية فى هذه الناحية بعد تلك العمليات العسكرية التى انتهت بإخضاع الفزان خصوصا وأما فى برقة فقد كلفت الحكومة نائب الوالى الجديد — غرزيانى — بأن يعد أعظم قوات فى استطاعته استخدامها بصورة سريعة وصارمة فى القضاء على الأدوار واستثارة المجاهدين إلى الاشتباك مع الطليان فى معارك فاصلة ، وأخيراً احتلال الكفرة .

ومنذ عودة غرزيانى إلى بنغازى بدأ نائب الوالى الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء ، معلنا أنه سوف « يتبع بكل إخلاص تعاليم الدولة الفاشيستية ويسير

على مبادئها لأنه وإن كان قائدا من قواد الجيش وأحد الرجال العسكريين ، فإنه يدين بمبادىء فاشيستية محضة ويعلن هذه الحقيقة بكل وضوح وصراحة كاملة » . وكان إغلاق الحدود المصرية ومنع الإمدادات عن المجاهدين والعمل على حل أدوارهم أول ماعنى به . ذلك بأن المساعدات الأدبية والمادية ظلت تأتى عبر الحدود المصرية إلى المجاهدين فى الجبل الأخضر بفضل تلك الجهود الشاقة التى كان يبذلها الأمير السيد إدريس فى مصر ؛ وأمكن أن تصل هذه المساعدات والإمدادات إلى السيد عمر المختار وصحبه لأن عددا كبيرا من أهل البلاد من طرابلس ومصراتة وورفلة والفزان ومن قبائل الجابرة والعواقير والبراعصة والعبيدات وغيرهم كانوا قد اتخذوا إقامتهم فى مصر من مدة سابقة فى الفيوم والإسكندرية والقاهرة خصوصا ؛ وعاون السيد صفى الدين فى وصول الإمدادات إلى المجاهدين ؛ وشاهد عيون الطليان فى السلوم فى عامى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ومن هؤلاء جاسوسهم سلفيو سكوسيامارى ، المؤن كالأرز والشاى والسكر والدقيق تعبر الحدود فى طريقها إلى المجاهدين فى الجبل ؛ وفضلا عن ذلك فقد شاهد هؤلاء الجواسيس مواشى الأهلين الخاضعين للحكومة الإيطالية تأتى إلى الأسواق المصرية عند الحدود .

وكان المجاهدون لحاجتهم إلى المال الذى يشترون به الأسلحة والذخائر يحصلون «ضرائب» على هذه السلع والمتاجر « المهربة » ؛ ثم ظل الأهلون الموالون للحكومة يدفعون هذه الضرائب عن طيبة خاطر . أضف إلى هذا أن الفرق أو القوات المحلية التى ألفتها الحكومة من بين الأهلين الخاضعين لها كان أفرادها يتحينون الفرص دائما « للتبرع » بقسم من مرتباتهم التى يأخذونها من الحكومة إلى المجاهدين ، بل ويعطونهم قدرا من الذخائر والأسلحة .

وعلى ذلك فقد بادر غرزيانى باتخاذ عدة تدابير سريعة من شأنها مكافحة نفوذ السنوسية ومنع كل اتصال بين السنوسيين وأنصارهم وبين الأهالى الخاضعين للحكومة ، ونزع الأسلحة من الأهالى وتشديد الرقابة على الحدود لمنع « التهريب » ثم تخفيض القوات المحلية شيئا فشيئا تمهيدا لإلغاء هذه القوات كلية فى النهاية وذلك لمنع تسرب المال والذخيرة والسلاح إلى المجاهدين ثم تجهيز الحملات للقضاء على الأدوار واحتلال الأراضى التى ما زالت حتى ذلك الوقت فى أيديهم ؛ وأخيرا اتخاذ الإجراءات القضائية التى تخول السلطات المحلية إصدار أحكام الإعدام على كل من تثبت عليه تهمة الاتصال بالمجاهدين والانحياز إلى جانبهم وتنفيذ هذه الأحكام فورا وبخاصة على أولئك الجند الوطنيين الذين يغادرون الجيش الحكومى للانضمام إلى المجاهدين ومما يجدر ذكره أن أحكام الإعدام على أولئك (الفارين) من الجيش كان لا يمكن تنفيذها قبل ذلك بفضل صدور مرسوم ملكى منذ ٢٧ يونية ١٩٢٩ يعطى الوالى الحق فى وقف القضايا

الجنائية ووقف تنفيذ الأحكام التى تصدر ضد ليبيين ثبتت إدانتهم فى أمور متعلقة بمساعدة «الثوار» أو بسبب الانخراط فى صفوفهم .

وهكذا لم يمض على وصول غرزيانى إلى بنغازى سوى أيام قلائل حتى كان نائب الوالى الجديد فى برقة قد أنشأ ما صار يعرف فى تاريخ الاستعمار الإيطالى الأسود باسم المحكمة الطائرة (فى إبريل ١٩٣٠) ، وذلك بسبب انتقال هذه المحكمة على متن الطائرات من مكان إلى آخر لإصدار الأحكام السريعة ثم تنفيذ هذه الأحكام على أيدى السلطات المحلية فى والتو والساعة «حتى يشعر الأهلون — على حد قول غرزيانى — بأن العدالة تأخذ مجراها بكل سرعة» . وسوف يأتى الكلام عن أعمال هذه المحكمة الطائرة وما ارتكبته من ضروب البطش والقسوة عند بسط فظائع الاستعمار الإيطالى فى الفصل التالى .

وفى نفس الوقت بدأ غرزيانى ينفذ سياسة عزل الأهالى الخاضعين للحكومة عن المجاهدين لحشدهم فى تلك (المعتقلات) التى امتدت من العقيلة وسلوق إلى السلوم ، ثم أخذ يعمل على حل زوايا السنوسيين ومصادرة أملاك الزوايا وأوقافها ، إلى غير ذلك من ضروب «النشاط» الذى قام به (جزار ليبيا) تنفيذا للشطر الأول من التعليمات المعطاة له حتى يضيق الحصار على المجاهدين فى الجبل الأخضر والمناطق الأخرى .

وقد استعد غرزيانى كذلك لتنفيذ الشطر الثانى من تعليماته الخاص «بتهدئة ليبيا» فاشتبك مع المجاهدين فى معارك كثيرة ، وكان النصر حليفه فى النهاية لنفاد المؤن والذخائر لدى هؤلاء وبسبب اضطرارهم فى آخر الأمر إلى قصر عملياتهم على منطقة الجبل الأخضر .

وكانت أدوار المجاهدين عند حضور غرزيانى حاكما على برقة موزعة فى أمكنة قريبة من نواجع الأهالى حتى يسهل على المختار وصحبه أخذ العشور والحصول على الذخائر والأسلحة والمؤن . وفى ١١ إبريل ١٩٣٠ بدأ المجاهدون هجومهم الجديد بالانقضاض على قوة إيطالية بين بالقس والفايدية ، ولكن مجىء النجدات السريعة للطليان واضطرار المجاهدين إلى الانسحاب ما لبث أن جعل المختار يغير شيئا من أساليبه ويركن إلى مفاجأة القوات التى كان يرسلها الطليان للكشف والاستطلاع فى أماكن متفرقة ، أو تلك التى كانت تقوم بحراسة العمال المكلفين إنشاء الطرق تمهيدا لقيام الطليان بالعمليات العسكرية الكبيرة فى الجبل . وأبلى المجاهدون فى المناوشات التالية بلاء حسنا وأشاعوا تهكما بالطليان وزراية بهم تارة أن المختار قد أصيب بجروح فى مناوشة من هذه المناوشات ، وتارة أخرى أنه أصيب بمرض طارىء أفضى إلى استشهاده ، وذلك كله لإقامة البرهان على أن المقاومة ما زالت سائرة فى طريقها الجدى على الرغم من عدم إشراف قائد المجاهدين الأعلى على عمليات الجهاد بنفسه .

وأحدثت هذه الإشاعات أثرها المطلوب بين الطليان وشعر هؤلاء بالإهانة البالغة ؛ ولكن غرزياني ما لبث أن عزز قواته المقاتلة ثم أحكم تدابيره العسكرية فى منطقة الفايدية ، فلم يأت يوم ١٤ يونية حتى كان الطليان قد استولوا على المنطقة بأجمعها واحتلوا جردس مراج وبالقس ونزعوا من الأهالى الخاضعين لهم ٣١٧٥ بندقية و ٦٠,٠٠٠ خرطوشة . واضطر المختار نتيجة لذلك إلى نقل دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية (فى الدفنا) نظرا لقربها من الحدود المصرية وذلك حتى يتمكن من إرسال المواشى التى يأتيه بها الأهالى إلى الأسواق المصرية فى نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق ، وأحكم المجاهدون صلاتهم التجارية على طول الحدود ابتداء من البردية إلى المسيعيط (مساعد) ومن هذه إلى الجغبوب أى فى مسافة يبلغ طولها حوالى خمسين ومائة كيلو متر . مما جعل غرزيانى يقرر إقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية . وهاجم المجاهدون مراكز الطليان فى منطقة عين الغزالة واستولوا على عدد عظيم من الجمال . ثم انضم إليهم كثيرون من الفواخر فاضطر غرزيانى إلى جمع النواجع المنتشرة فى هذه المنطقة فى أماكن أحاطها بالأسلاك الشائكة ؛ ثم جلب من طرابلس شراذم غير نظامية بقيادة عارف أمسيك الغرياني سرعان ما اشتبكت مع المجاهدين فى بوكريمة فى ٨ يولية فى معارك لم تكن فاصلة . وفى شهر أغسطس التحم الطليان مع المجاهدين فى مناوشات عدة ؛ وفى ١٩ سبتمبر نقل غرزيانى بالسيارات قوات أخرى غير نظامية من قبيلة الحاسة (من شحات) إلى ناحية القبة ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة ، فأعاد العدو الكرة على الدور وحاصر المجاهدين فى وادى سافيه واشتبك معهم فى معركة كرسه المشهورة فى يوم ٢٦ ربيع الآخر ١٣٤٩ (٢٠ سبتمبر ١٩٣٠) وهى المعركة التى استشهد فيها خير قواد المختار السيد الفضيل بوعمر ، وكان الفضيل مجاهدا قديما اشترك فى الحرب الليبية الإيطالية (١٩١١) وعرف بالشجاعة والإخلاص .

وقد ذكر المختار تفاصيل هذه المعركة فى كتاب له جاء فيه أن العدو هاجم « دور العبيدات والحاسة عند نقطة القبته ، وكان رئيسه السيد الفضيل بوعمر » ؛ وقد استشهد فى هذه المعركة إلى جانب الفضيل أربعون شهيدا « منهم السيد أحمد الغمارى والسيد محمد الصادق الغزالى والشريف القاسم وأخوه ... (ويقول المختار) وقد وجدنا فى ميدان القتال ما ينيف عن ٥٠٠ قتيل من العدو بينهم ماجور وثلاثة ضباط » ؛ على أن الطليان لم يلبثوا أن شددوا عملياتهم العسكرية فى منطقة الجبل بعد هذه الواقعة ، فاستمرت جموعهم بقيادة الكولونيل بياتى ومارونى ورولّيه تقوم بمناوشة المجاهدين مدة أسبوعين ، ولكن دون الوصول إلى نتيجة .

وفى اكتوبر ١٩٣٠ تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين فى معركة كبيرة فى وادى

السانية ، وكان فى هذه المعركة أن عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد عمر المختار، كما عثروا على جواده المعروف مجندلا فى ميدان المعركة فثبت لديهم أن المختار ما زال على قيد الحياة وبادر غرزيانى بإصدار منشور ضمنه هذا الحادث وحاول فيه أن يقضى على « أسطورة المختار الذى لا يقهر أبدا » . وقال غرزيانى فى هذا المنشور متوعدا « لقد أخذنا اليوم (نظارات) المختار وغدا نأتى برأسه ! » . وأما العمليات العسكرية فقد استمرت لغاية آخر شهر ديسمبر ١٩٣٠ .

ومع أن الطليان لم يصلوا فى عام ١٩٣٠ إلى نتائج حاسمة فى الجبل فإنهم من جانب آخر كانوا قد تمكنوا من أواسط العام نفسه أن يمهدوا لاحتلال الكفرة . وكانت الأحوال فى الكفرة قد بلغت حدا من السوء جعل من المتوقع سقوط هذه الواحة فى أيدى الطليان دون مشقة كبيرة . وكان يقيم بالكفرة ويدير شئونها السيد محمد العابد ؛ وكان قد استطاع الوالى السابق تيروتزى أن ينشىء معه صلات ودية منذ عام ١٩٢٨ كوسيلة من وسائل تهدئة البلاد وكشطر من تلك السياسة « السليمة » التى حاول تيروتزى اتباعها فى برقة ولم تسفر عن نتيجة على نحو ما سبق ذكره ، فقد انتهز تيروتزى مرض السيد العابد وأوفد إلى الكفرة بعثة «طبية» برئاسة الكابتن برتزى غادرت بنغازى فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٨ ، ولكنه سرعان ما قبض على هذه البعثة فى تازربو على أيدى قبيلة الزوية ، وأخذ الزوية يغيرون على الواحات التى يحتلها الطليان فى جخرة ومرسى البريقة وجالو وأوجله وعلى الأهالى الخاضعين والموالين للطليان كالمغاربة الشماخ وغيرهم . وفى منتصف ديسمبر ١٩٢٨ غادر السيد محمد العابد زاوية التاج مهاجرا إلى برقو فى الجنوب ومعه أسرته الكبيرة والشيخ عمر بو حليقة ؛ واستأنف الزوية هجومهم بعد ذلك على مراكز الطليان فأغاروا على جخرة ولكن الطليان ما لبثوا أن أوقعوا بهم الهزيمة فى واقعة أبو أطله وتقهقرت فلول الزوية إلى الكفرة . وكان من أثر ذلك وضياع كل أمل مكان المقاومة ضد الطليان أن قرر السيد محمد الصديق وعبد السلام الكزة مغادرة الكفرة والهجرة إلى القطر المصرى . وبعد رحيل السيد الصديق سلم الزوية السلطة الشيخ شمس الدين ابن على الخطابى ، ورأى شمس الدين أن يستل سخيمة الطليان بإطلاق سراح البعثة الطبية .

وكان غرض الزوية استئناف التجارة بين جالو ومنطقة سرت حتى يستطيعوا تموين الكفرة ، تلك الواحة التى ساءت أحوالها كثيرا فى العام التالى (١٩٢٩) ، على وجه الخصوص بسبب المصادمات التى وقعت بين صالح الأطيوش والطليان بين فبراير وإبريل ١٩٢٩ . وقد تحرجت الأمور فى الكفرة لدرجة أن اضطر مشايخ الزوية حوالى منتصف إبريل إلى الذهاب إلى جالو يعرضون الانسحاب من الكفرة والإقامة فى المنطقة الواقعة بين

الزويتينة واجدابية وجخرة ، وهى مكان إقامتهم فى العهد العثمانى ، واشترط الطليان فى نظير الموافقة على ذلك أن يسلم الزوية أسلحتهم فى جالو . وفى أواخر العام نفسه وأوائل عام ١٩٣٠ بلغ عدد من انتقل من جبال هاروجى من الكفرة إلى هذه المنطقة حوالى ١٢٨٠ نسمة أحضروا معهم ٥٤٠٠ جملا تقريبا كما سلموا ٢٥٨ بندقية . ولكن الموقف ما لبث أن تغير بعد ذلك فى الكفرة .

ذلك بأن المجاهدين ومشايخهم فى فزان اضطروا بعد سقوط ولو الكبير فى يد الطليان فى ١٣ يناير ١٩٣٠ أن ينسحبوا إلى تازربو شمال الكفرة ، وكانوا بزعامة عبد الجليل سيف النصر وأخيه أحمد سيف النصر وصالح الأطيوش ، فأسسوا دوراً جديداً فى تازربو واتخذوا من هذه الواحة قاعدة لأعمالهم وبدأوا يناوشون الطليان بدرجة مزعجة من أواسط يونية تقريباً ، حتى اضطر هؤلاء إلى ضرب تازربو بقنابلهم من الجو فى آخر يولية ، فكان من أثر ذلك أن انتقل صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر إلى الكفرة ، فارتحل صالح الأطيوش من تازربو إلى بوزيمة ثم إلى ربيانه وقصد أخيراً إلى الهوارى شمال الجوف ؛ وأما عبد الجليل سيف النصر فقد استقر به المقام فى التاج وشرع ينظم قوات المجاهدين تحت قيادته .

ولما كانت عمليات الطليان فى الفزان قد انتهت منذ أن احتل غرزيانى مرزق وغات فى شهرى يناير وفبراير ١٩٣٠ ، فقد أخذ الماريشال بادوليو يعد العدة للاشتباك مع المجاهدين فى معركة فاصلة وقرر احتلال الكفرة ، وفى شهر أغسطس قامت (الدوريات) الإيطالية بحركة استطلاع كبيرة لفحص آبار المياه ورسم طريق الحملة المزمعة ، وفى ٢٦ أغسطس ألقت الطائرات حوالى نصف طن من القنابل على الجوف والتاج . بيد أن ضرب الجوف والتاج بالقنابل لم يفت فى عضد المجاهدين ، وقسم هؤلاء قواتهم قسمين ذهب أحدهما وكان يتألف من المغاربة وأولاد سليمان بقيادة صالح الأطيوش إلى جهة الغرب قاصداً طرابلس للعمل فى منطقة سرت فالتحم مع العدو فى معارك أسر فى أثنائها ابن صالح الأطيوش نفسه فأعدمه الطليان فى سرت ، وأما القسم الآخر من المجاهدين فقد بقى لمناجزة العدو فى الكفرة ، وأخذ الطليان يستعدون لتسيير حملتهم الكبيرة على آخر معاقل المجاهدين فى الجنوب .

وبحث بادوليو وغرزيانى مشروع هذه الحملة فى نوفمبر ١٩٣٠ للاتفاق على خط سيرها من اجدابية إلى جالو مسافة ٢٤٠ كيلومترا ، ومن جالو إلى بئر زيغن مسافة ٤٠٠ كيلومتر ، ومن بئر زيغن إلى الجوف مسافة ١٨٠ كيلومتراً . وتقرر اتخاذ جالو قاعدة للعمليات العسكرية واستخدام الجمال فى الطرق التى لا تصلح لسير السيارات عليها لنقل قوات الحملة ، ثم قر الرأى على أن تسير قوة الحملة الرئيسية من اجدابية إلى جالو ثم إلى بئر زيغن وأخيراً إلى

الكفرة ، بينما تزحف قوتها الثانوية — وكان بادليو قد جلبها من طرابلس خصيصا لهذه الغاية — من واو الكبير إلى تازربو ، ومنها إلى الكفرة . وعهد بادوليو بقيادة الحملة إلى الجنرال ريكاردو رونشي ويليه فى القيادة الدوق لوبوليبه (وهو دوق داوستا نائب الملك فى الحبشة عند فتحها) ثم تقرر أن يزحف قسم من السيارات المصفحة من زله عن طريق تميت بوحشيشه إلى تازربو وتتخذ قوة من سلاح الجو مركزها فى تميت بوحشيشه . وأرسل الطليان بطريق الجو الشارف الغرياني إلى مراده وعهدوا إليه بإرسال العيون إلى تازربو للكشف والاستطلاع فى تازربو قبل بدء الهجوم . ووصل إلى علم الطليان أن قوات المجاهدين كانت لا تزيد على ستمائة مسلح موزعين على فصائل عدة ، وأن أكبر مجموعاتهم كانت تتألف من الزوية والمغاربة بقيادة عبد الحميد بومطاري . وأخبر الجواسيس أن تازربو كانت خالية من أهلها .

وعلى ذلك وبعد هذه الاستعدادات العظيمة بدأ زحف الطليان من جالو إلى بيرزيغن فى آخر ديسمبر ١٩٣٠ . وفى بير زيغن علموا أن شمس الدين بن على الخطابى قد انتقل بأسرته إلى مرسى مطروح فى طريقه إلى القطر المصرى وترك فى الكفرة الحسن أخاه الأصغر . ثم زحف الطليان على واحة تازربو فاحتلوها فى ١١ يناير ١٩٣١ ، وفى اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه قامت طائراتهم بقيادة الدوق دللى بوليبه بحركة استطلاع من الزيغن لكشف مراكز المجاهدين دون نتيجة ، ولكن الطليان ما لبثوا حتى عرفوا بتجمع قوات المجاهدين فى واحة الهوارى ، فبادروا بالاشتباك معهم فى معركة دامت ثلاث ساعات فقط فى يوم ١٩ يناير نفسه ، استخدمت فيها الطائرات .

وكان المجاهدون بقيادة عبد الجليل سيف النصر وحامد بن شغيله وحمد بن الشريف وعبد الحميد بومطارى وقد قاتلوا جميعا بشهادة غرزيانى نفسه ببسالة نادرة ؛ فلم يكفوا عن القتال إلا عند شعورهم بأنهم سوف يفنون عن آخرهم ، فبلغ من استشهد من المجاهدين فى واقعة الهوارى حوالى المائة ووقع فى أسر الطليان ثلاثة عشر فقط ، وغنم الطليان مائة بندقية وبعض الذخائر واحتلوا الكفرة .

وفى يوم ٢٤ يناير ١٩٣١ وصل إلى الكفرة بطريق الجو الماريشال بادوليو ؛ وبحضور الأمير لوبيليبه رفع الطليان علمهم على زاوية التاج ؛ ثم طفقت قواتهم تطارد فلول المجاهدين وفى ٢٨ يناير رجع الطليان من هذه المطاردة بخمسين أسيرا قتلوا منهم حالا اثنى عشر رجلا كان من بينهم أحد الإخوان السنوسيين الشيخ محمد بن عمر الفضيل وكاتبه تميدا بن على الفضيل ، وقد أعدمهما الطليان فى الجوف . وكانت مغانم الطليان كثيرة .

وبسقوط الكفرة انتهت فى الحقيقة كل مقاومة جدية للمجاهدين ضد الطليان فى برقة ولما كان سقوط الفزان فى العام السابق قد قضى على المقاومة فى طرابلس فقد استطاع لسونه وكيل وزارة المستعمرات أن يتجول فى أنحاء البلاد فى شهر يونية ١٩٣١ ومعه عدد كبير من مراسلى الصحف الطليان وغيرهم ، فاجتازوا بالسيارات منطقة سرت بأمان من بنغازى إلى طرابلس ، وهى المنطقة التى ظلت مغلقة بسبب نشاط المجاهدين زمنا طويلا ، وفى شهر يولية ١٩٣١ زار ديبونو وزير المستعمرات واحة الكفرة .

وكذلك كان لسقوط الكفرة أعظم الأثر فى موقف السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر ذلك بأنه كان من نتائج ضياع هذا المعقل الأخير أن استطاع غرزيانى إغلاق الحدود المصرية إغلاقا تاما بمد الأسلاك الشائكة على طول هذه الحدود من (المساعد) إلى الجغبوب . فقد أخذ الطليان منذ شهر فبراير ١٩٣١ يمدون هذه الأسلاك ابتداء من بردى سليمان خلف بير الرملة إلى المسيعيد (مساعد) ثم أكملوها فى الشهور التالية من المسيعيد إلى الجغبوب بين شهرى إبريل وسبتمبر من عام ١٩٣١ ، ثم مدت هـــذه الأسلاك إلى ما بعد الجغبوب بمسافة قصيرة وقد بلغ طولها جميعا ثلاثمائة كيلومتر . وأنشأ غرزيانى مراكز مسلحة كبيرة عند كابوتزو بالقرب من السلوم وخلف المسيعيد ، وعند مادلينا فى منتصف المسافة تقريبا ، هذا عدا المراكز المسلحة الصغيرة التى انتشرت على طول هذه الأسلاك الشائكة فى سيدى عمر وشيفرزن وغيرها ؛ فنجم عن ذلك أن انقطع تماما مجىء أية إمدادات إلى السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر .

ومع ذلك فقد ظل المختار فى الجبل يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التى كانت تكتنفه من كل جانب واستمر الحال على ذلك حتى حدث فى يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ أن وصل إلى الحكومة من دودياشى متصرف الجبل برقية تنبىء بأن مصادمات وقعت بين المجاهدين وقوة من خيالة الحكومة بالقرب من سلنطة ، وأن رجلا من الأهلين وقع فى أسرهم وقد عرفه الجند وقالوا إنه عمر المختار نفسه » . وكان لهذه البرقية أثر بالغ فى دوائر الحكومة ؛ فغادر دودياشى فى التو والساعة بطريق الجو إلى مكان هذا الحادث حتى يقف بنفسه على الحقيقة ، لأن دودياشى سبق له أن قابل المختار وتحدث معه فى أثناء المفاوضات الطويلة خلال عام ١٩٢٩ . فسهل عليه التعرف على السيد عمر ، كما أعلن المختار عن شخصه فأرسله دودياشى إلى سلطنة ومن سلطنة أرسل المختار بحراسة قوية إلى مرسى سوسة (أبولنيا) فبلغها فى اليوم نفسه ، ثم نقلته مركب حربية إلى بنغازى .

وقد فصل أحد الكتاب ما وقع للسيد عمر فقال إن المختار « كان قد جرى على عادة

الانتقال فى كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التى يقيم فيها اخوانه المجاهدون لتفقد أحوالهم . وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارىء ويأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذى يتربص به الدوائر فى كل زمان ومكان ، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب فى هذه السنة كعادته فى نفر قليل يقدر بمائة فارس ، ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين فارسا وذهب فى أربعين فقط . ويوجد فى الجبل الأخضر واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادى الجريب (بالتصغير) وهو صعب المسالك كثير الغابات ، كان لابد من اجتيازه ، فمر به السيد عمر المختار ومن معه ، وباتوا فيه ليلتين ؛ وعلمت بهذا ايطاليا بواسطة جواسيسها المنتشرين فى كل مكان ، فأمرت بتطويق الوادى على عجل من جميع الجهات بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة ؛ فما شعر السيد عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو ؛ ورأى أنه لا خلاص له من هذا المأزق إلا بالهجوم . فأمر من معه بالهجوم على من يقربهم من العدو فى الجهة القبلية ، ودامت المعركة بينهما يومين كاملين. وعلى الرغم من الاحتياطات الشديدة التى اتخذها العـدو ، وعلى الرغم من كثرة عدده وعدده تمكن السيد عمر المختار ومن بقى معه من خرق صفوف العدو إلى أن خرجوا من ذلك الوادى ووصلوا إلى غربى سلنطة ، ففاجأتهم قوه طليانية أخرى غير القوة التى حاصرتهم فى الوادى ، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاد فاضطرتهم إلى الاشتباك معها فى معركة جديدة قتل فيها جميع من بقى معه ، وقتل حصانه أيضا ووقع عليه ، فتمكن من التخلص من تحته ، وظل يقاتل فى تلك القوة وحده إلى ان جرح فى يده ، ثم تكاثرت عليه الأعداء وغلب على على أمره وأخذ أسيرا ، . وطير الأعداء الخبر بمجرد أن عرفوا شخصه إلى دودياشى .

وعند وصول المختار إلى بنغازى أودع السجن ، وقابله الشارف الغريانى مقابلة قصيرة للتأكد مرة أخرى من شخصه ، ورفض المختار مصافحته واتهمه بالخيانة ؛ وعزا المختار فى حديثه مع دودياشى عند قدومه إلى بنغازى سبب وقوعه فى الأسر إلى نفاد الذخيرة وعجز المجاهدين الذين كانوا معه عن مواصلة القتال ، وأكد للمتصرف أن وقوعه فى الأسر لا يضعف شيئا من حدة المقاومة إذ أنه قد اتخذ من التدابير ما يكفل انتقال القيادة من بعده إلى أحد أربعة هم حمد بوموسى وعثمان الشامى وعبد الحميد العبار ويوسف بورحيل المسمارى وقد تسلم يوسف بورحيل القيادة فعلا بعد ذلك .

واجتهد المختار حتى يقنع دودياشى — وعلى أمل أن تقتنع السلطات الحكومية بذلك أيضا — أن نشاط المجاهدين مازال فى ذروته وأن الدور مازال قويا وأن غياب المختار لن يؤثر شيئا فى متابعة الجهاد ضد الطليان . وفضلا عن ذلك فقد راح المختار يؤكد أن الهجوم

على جرس ينقدن فى نوفمبر ١٩٢٩ كان بناء على الأوامر التى أصدرها هو نفسه ، ذلك بأن بادوليو لم يشأ أن يجيب على الرسائل التى بعث بها المختار إليه يطلب منه فيها تنفيذ العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ؛ وأخيرا قال المختار « إن القبض عليه ووقوعه فى قبضة الطليان إنما حدث تنفيذا لإرادة المولى عز وجل ، وأنه وقد أصبح الآن أسيرا بأيدى الحكومة فالله سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره ، وأما أنتم ، فلكم الآن وقد أخذتمونى أن أن تفعلوا بى ما تشاءون ، ولكن معلوما أنى ما كنت فى يوم من الأيام لأسلم لكم طوعا ! » .

وكان غرزيانى وقت القبض على المختار يقضى إجازته فى رومة ويعتزم زيارة معرض المستعمرات الفرنسية المقام وقتذاك فى باريس ، فوصله الخبر مساء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١ وهو بالقطار الذاهب به إلى باريس ، فلم يتابع رحلته بل استقل طائرة أوصلته إلى طرابلس فى يوم ١٣ سبتمبر ١٩٣١ ، ووصل إلى بنغازى فى اليوم التالى ، ودعا فى التو والساعة « المحكمة الخاصة أو المحكمة الطيارة » إلى الانعقاد فى يوم ١٥ سبتمبر . وفى صبيحة اليوم نفسه وقبل المحاكمة رغب غرزيانى فى الحديث إلى الرجل الذى قاد الجهاد ضد الطليان سنوات طويلة لجىء بالمختار إلى سراى الحكومة وأدخل على غرزيانى فى مكتبه ؛ وكان المختار مقيد اليدين بالسلاسل والأصفاد ويسير بصعوبة ، ويغطى وجهه بجرامه (الجردة) فبدا لغرزيانى — على حد قول هذا الأخير — وليا من أولياء الله ، لم ينل الأسر والسجن شيئاً من وقاره وجلال هيبته . ويدون غرزيانى ما دار من حديث بينه وبين المختار فى كتابه المشهور عن « برقة التى نجح فى تهدئتها ! » — وكان يقوم بترجمة هذا الحديث ترجمانه الخاص خليفة خالد الذى أحضره معه من طرابلس — على النحو التالى :

غرزيانى — (مخاطبا السيد عمر) لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة ؟

المختار — لأن دينى يأمرنى بذلك .

غرزيانى — هل كان لديك أى أمل فى أنك سوف تستطيع إخراجنا من برقة بهذا العدد القليل من الرجال الذين يناضلون معك ، وتلك المعدات الضئيلة التى تملكها ؟

المختار — كلا ! فان هذا على ما يبدو كان أمرا مستحيلا .

غرزيانى — ماذا كان غرضك إذن وماذا كنت تبغى ؟

المختار — كنت مجاهداً وكفى . أما ماينجم من هذا الجهاد فالأمر فيه موكول لله وحده .

غرزيانى — ولكنى أعلم أن كتابك (أى القرآن الكريم) يفرض عليك الجهاد ضد

الكفار إذا كان هناك أى أمل فى النجاح والنصر فقط حتى لا يضر الأهلون أو يلحق بهم الأذى هل يقول (القرآن الكريم) ذلك حقاً ؟ .

المختار — نعم .

غرزيانى — لماذا إذن حاربت ؟

المختار — لأن دينى يأمرنى بذلك .

غرزيانى — كلا . بل الصحيح هو أنك لم تحارب إلا من أجل السنوسية فحسب وهذا شىء آخر .

[وهنا انطلق غرزيانى يندد بالسنوسية والدوافع التى جعلت المختار يتابع الجهاد ضد الطليان ، فلم يجبه المختار بشىء ولكنه على حد قول غرزيانى كان يظهر فى أثناء ذلك ألما شديداً] .

غرزيانى — لماذا نقضت اتفاق السلام وأمرت بالهجوم على جرس بنقدن ؟

المختار — لأنى ظللت شهرا بطوله أنتظر ردا على خطابى إلى بادوليو ولم يجب بادوليو بشىء .

غرزيانى — هذا كلام من يريد الاعتذار عن عمل طائش أتاه ولا يصح أن يصدر من رجل مثلك . والواقع أنك نقضت السلم متعمدا ، وإليك الدليل على ذلك .

[ثم يستمر غرزيانى فيقول وقد قرأت عليه المنشور الذى أمضاه ونشرته الصحف المصرية — ويقصد غرزيانى نداء المختار الذائع فى ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ و ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩ — أما المختار فلم يجب بشىء] .

غرزيانى — هل أمرت فعلا بقتل الطيارين أوبر وبياتى ؟

المختار — نعم، فإن الرئيس وحده هو الذى يتحمل جميع المسئوليات والحرب هى الحرب

غرزيانى — هذا يكون إذا كان هناك حرب فعلا وليست أعمال لصوصية إجرامية مثل أعمالكم .

المختار — هذه مسألة رأى .

غرزيانى — لقد أضعت بعملك فى جرس بنقدن كل حق فى طلب الرحمة من الحكومة .

المختار — مكتوب ! ولكنى أريد أن أقول إنى عندما وقعت فى الأسر لم يكن معى سوى ست خرطوشات فقط ؛ وربما كان لذلك فى إمكانى أن أقتل الجندى الذى أسرنى أو أقتل أنا .

غرزيانى — ولماذا لم تفعل هذا ؟

المختار — لأن ذلك كان من قضاء الله وقدره . إنى رجل كبير السن فدعنى أجلس .

[وعندئذ يقول غرزيانى إن المختار جلس أمام مكتبه وكشف قليلا عن وجهه ، وكانه يبدو عليه الهدوء بعد تأثره الأول ، وكان جالسا بصورة تمكن غرزيانى من رؤية نصفه الجانبي ، ويسترسل غرزيانى فيقول وكان وجه المختار ضاربا إلى الحمرة قليلا ، ولم يتمالك أن شعر فى قرارة نفسه أنه كان أمام رجل تتجسم فى شخصه الزعامة بأوضح معانيها حتى أن غرزيانى على حد قوله كان وهو يكتب مؤلفه عن برقة لا يزال يشعر بالأثر الذى أحدثته فى نفسه رؤية المختار ، وكيف أنه أدرك لماذا كان المختار صاحب الكلمة المسموعة والرأى الأعلى بين المجاهدين . وقد فاجأ غرزيانى المختار بالسؤال الآتى :

غرزيانى — كم من الوقت يكفيك حتى تستطيع بما لك من نفوذ وصولة أن تخضع الثوار فى الجبل ؟

المختار — أبداً أبداً . إنى كأسير لا أستطيع فعل شيء . وفضلا عن ذلك فقد أقسمنا جميعاً أن نموت واحداً بعد واحد ولا نسلم أنفسنا بتاتا . ومن المعروف تماما أنى لم أسلم نفسى إليكم .

غرزيانى — من المحتمل لو أننا كنا على اتصال أكثر ، وزادت معرفتنا لبعضنا بعضا ، لكان من المستطاع بالنظر لما لكم من خبرة أن نعمل سويا من أجل الوصول إلى شيء قد يفيد مصلحة السلام .

المختار — ولماذا لا نسعى فى سبيل ذلك الآن ؟

غرزيانى — لقد فات أوان ذلك . لقد فات أوان ذلك لأنك صرحت بعدم استطاعتك فعل شيء نتيجة لوقوعك فى أسرنا .

[ويقول غرزيانى إنه عرض على السيد عمر (النظارات) التى أضاعها المختار فى معركة وادى السانية ، فعرف المختار (النظارات) وقال إنه أضاعها فى هذه المعركة .]

غرزيانى — لقد تأكد لدى من ذلك اليوم الذى عثرنا فيه على هذه (النظارات) أنك يوماً ما سوف تكون فى أسرى .

المختار — مكتوب ! أرجع إلى النظارات لأنى لا أرى بدونها . ولكن ما الفائدة ؟ وأنا الآن فى قبضتك مع النظارات !

غرزيانى — هل كنت تعتقد أن الله (تعالى) سوف يحميك لأنك تجاهد فى سبيل قضية عادلة ؟

المختار — نعم .

غرزيانى — انصت لما أقول. لقد فر الزعماء أو ماتوا أمام جيوشنا المنتشرة من نالوت إلى جبل برقة ولم أقبض على واحد منهم وهو ما يزال على قيد الحياة. فلماذا تكون أنت ذلك الرجل الذى لا يقهر ولا يهزم أبداً والذى لا يستطيع أن يأسره إنسان، ويوليه المولى حمايته، لماذا تكون أنت الآن فى هذا المكان؛ ولماذا لا يكون من حقى أن أعتقد أنا الآخر بأن الله (سبحانه وتعالى) يوليني أنا حمايته ورعايته؟

المختار — الله أكبر!

غرزيانى — لا شك أنك كنت طوال حياتك رجلا شجاعا، وإنى لأرجو أن تظل شجاعا مهما حدث لك أو نزل بك.

المختار — إن شاء الله.

[ويقول غرزيانى إن السيد عمر المختار قد فهم فى تلك الآونة مصيره المحتوم].

***

تلك كانت رواية غرزيانى عن مقابلته مع السيد عمر. ومما يجدر ملاحظته، أن غرزيانى على الرغم من محاولة إظهار سطوة الحكومة فى حديثه مع المختار وجعل المختار يظهر فى صورة الزعيم الذى كان لا يرجو أملا فى نضاله فيسلك طريقا لا يتفق على حد قول غرزيانى وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف. نقول إن غرزيانى على الرغم من ذلك كله كان يريد أن يتخذ من المختار أداة طيعة لإخماد جذوة المقاومة، ولم يحقق المختار أمله. والواقع أن هذا الحديث الذى دار بين غرزيانى والمختار فى أثناء هذه المقابلة له قصة مشهورة معروفة مازالت تتناقلها الألسن إلى يومنا هذا فى القطر الليبي بأجمعه. ومن الثابت أن غرزيانى عرض على المختار عفوا شاملا لقاء أن يكتب المختار بتوقيعه نداء للمجاهدين يدعوهم فيه إلى الكف عن القتال والمقاومة ويطلب إليهم أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم للحكومة. فرفض المختار لأسباب أوضحها لغرزيانى هى «أن هذا العمل لا يرضى ضميره ودينه، وفضلا عن ذلك فإن أحدا لن يصدق صدور هذا النداء من المختار».

وعلى هذا النحو إذن انتهت المقابلة بين الرجلين. وهى مقابلة لم يكن من ورائها فى واقع الأمر أى طائل اللهم إلا التشفى من رجل جاهد فى سبيل الحق والوطن واستطاع أن يدوخ جحافل الطليان بأسلحتها وطائراتها الحديثة من وقت أن بدأ النضال فى سبيل تحرير ليبيا عام ١٩١١ إلى الوقت الذى شاء فيه القدر أو «المكتوب» على حد قول السيد عمر نفسه أن يسقط هذا المجاهد فى قبضة العدو بعد كفاح مرير استمر حوالى عشرين عاما. ولم يشأ القدر أو

« المكتوب » أن يستشهد المختار فى ميدان القتال ؛ فوقع ذلك الرجل الكريم والبطل المجاهد فى براثن أعداء لا يردعهم قانون ولا يرعون شرفا ولا ذمة .

وفى الساعة الخامسة من مساء هذه المقابلة (١٥ سبتمبر ١٩٣١) جرت تلك المحاكمة التى أعد لها الطليان مكان بناء « برلمان برقة » القديم ؛ وكانت هذه المحاكمة صورية شكلا وحقيقة لأن الطليان كانوا قبل بدء المحاكمة بيوم كامل قد أعدوا (المشنقة) وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره . وفضلا عن ذلك فان غرزيانى نفسه قد اعترف فى ذلك « الحديث » الذى نقلناه عن كتابه بأنه أشعر المختار بالنهاية المحتومة فى أثناء المقابلة أى فى صبيحة اليوم نفسه الذى جرت فى مسائه محاكمة المختار .

ويصف هذه المحاكمة الصورية أحد أبناء ليبيا الأبرار الذين جاهدوا طويلا ضد الاستعمار الإيطالى ووضع عليهم الطليان رقابة صارمة محكمة ، وسلطوا على رءوسهم السيوف عند أول بادرة للاقتصاص منهم فلم يستطيعوا حراكا حتى قيض الله لهم ولأوطانهم الخلاص عند اندحار الطليان وأحلافهم الألمان فى الحرب العالمية الأخيرة ، ونعنى به الدكتور على نور الدين العنيزى بن الشيخ عثمان العنيزى ، ذلك الشيخ الوقور الذى ترأس البرلمان البرقاوى عند أول انعقاد له ثم انخرط فى سلك أعضائه ، وظل يسدى خدمات جليلة لمواطنيه فى أثناء الطغيان الإيطالى حتى وفاته .

يصف الدكتور العنيزى هذه المحاكمة فيقول « جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلا بالحديد ، وحوله الحراس من كل جانب . وكان مكانى فى القاعة بجوار السيد عمر ؛ وأحضر الطليان أحد التراجمة الرسميين واسمه نصرت هرمس . فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد ، بلغ التأثر بالترجمان حدا جعله لا يستطيع اخفاء تأثره وظهر عليه الارتباك فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر . فوقع الاختيار على أحد اليهود ، وهو لمبروزو ، من بين الحاضرين فى الجلسة . وقام لمبروزو بدور المترجم ، وكان السيد عمر رحمه الله جريئا صريحا ، يصحح للمحكمة بعض الوقائع ، خصوصا حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتى . وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعى العمومى الكولونيل بدندو فطلب الحكم على السيد عمر بالإعدام . وعندما جاء دور المحامى المعهود إليه بالدفاع عن السيد عمر وكان ضابطا إيطاليا يدعى الكابتن لونتانو ، وقف وقال « كجندى لا أتردد البتة إذا وقعت عيناى على عمر المختار فى ميدان القتال فى اطلاق الرصاص عليه وقتله ، وأفعل ذلك أيضا كإيطالى أمقته وأكرهه ، ولكننى وقد كلفت الدفاع عنه فانى أطلب حكما هو فى نظرى أشد هولا من الإعدام نفسه ، وأقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة؛ نظراً لكبر سنه

وشيخوخته .. » . وعندئذ تدخل المدعى العمومى وقطع الحديث على المحامى وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستنداً فى طلبه هذا إلى أن الدفاع قد خرج عن الموضوع وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيخوخته . ووافقت المحكمة ومنعت المحامى من إتمام مرافعته . وفضلا عن ذلك فإنها لم تعين محاميا بدلا منه ، بل سأل رئيس المحكمة السيد عمر « إذا كان لديه مايقوله » فلما أجاب المختار بالنفى ، انسحبت المحكمة وبعد فترة وجيزة من الزمن عادت من مداولاتها ونطق الرئيس بالحكم فإذا هو يقضى باعدام المختار ، فقابل المختار ذلك بقوله « إنا لله وإنا اليه راجعون » . وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ماقاله السيد عمر فسأل الترجمان أن ينقل إليه عبارته ، ففعل . وعندئذ بدأ التأثر العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحاكمة الصورية ، كما أخذوا يعلقون على قسوة هـــذا الحكم مظهرين كدرهم وإعجابهم بشجاعة المختار وبسالته فى آن واحد » .

وأما المحاكمة فقد استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب من الساعة الخامسة مساء إلى الساعة السادسة والربع . وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ و ١٦ سبتمبر ١٩٣١ نفذ الطليان فى سلوق حكم الإعدام شنقا فى السيد عمر ، وقد حرصوا على أن يجمعوا حشداً عظيما لمشاهدة التنفيذ فأرغموا أعيان البرقاويين الذين اعتقلوهم فى بنينه كما أرغموا أعيان بنغازى وعدداً كبيراً من الأهالى من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ ، فحضر مالا يقل عن عشرين ألف نسمة على حد قول غرزيانى . ويقول الدكتور العنيزى « لقد أرغم الطليان الأهالى والأعيان المعتقلين فى معسكرات الاعتقال والنازلين فى بنغازى على حضور المحاكمة وحضور التنفيذ . وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على حضور المحاكمة ، ولكنى وقد استبد بى الحزن شأنى فى ذلك شأن سائر أبناء جلدتى لم أكن أستطيع رؤية ذلك البطل المجاهد على حبل المشنقة فرضت ، ولم يعفنى الطليان من حضور التنفيذ فى ذلك اليوم المشئوم إلا عندما تيقنوا من مرضى وعجزى عن الحضور . ويالها من ساعة رهيبة تلك التى سار فيها المختار بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة . وقد ظل المختار يردد الشهادتين حتى نفذ فيه الجلادون الحكم وعندما وجـــد هؤلاء أن المختار لم يمت أعادوا عملية الشنق مرة ثانية » .

وعندئذ نقله الطليان إلى مقبرة الصابرى فى سيدى عبيد بالزريريعية بناحية بنغازى فدفنوا جسده الطاهر فى قبر عظيم العمق بنوه بالأسمنت المسلح وحرصوا على إجراء عملية

الدفن سرا كما أخفوا معالم القبر حتى لا يعثر عليه أحد . وأقاموا على القبر جندا يحرسونه زمنا طويلا خوفا من أن ينقل مواطنوه جثمانه الطاهر . وكان لاستشهاد المختار رنة ألم وحزن عميقين فى جميع الأقطار الاسلامية والعربية . وقد رثاه المرحوم أحمد شوقى بك بقصيدة طويلة ، منها قوله رحم الله الاثنين :

خيرت فاخترت المبيت على الطوى   لم تبن جاها أو تـلـم ثراء
إن البطولة أن تموت من الظما   ليس البطولة أن تعب الماء
أفريقيا مهد الأسـود ولحدها   ضجت عليك أراجلا ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم   لايملكون مع المصاب عزاء
فى ذمـة الله الكريم وحفظه   جسد ببرقة وسـد الصحراء

* * *

أما الطليان فقد ظنوا بعد استشهاد المختار أن الدنيا قد دانت لهم فراحوا يلطخون أيديهم بارتكاب تلك الفظائع والجرائم التى جعلت من استعمارهم فى برقة وطرابلس صحائف سوداء ووصمة عار فى جبين الإنسانية .

الفصل الحادى عشر

الاستعمار الايطالى : صحائف سود

كان لاستشهاد السيد عمر المختار أبلغ الأثر فى نفوس المجاهدين فى الجبل الأخضر لأنهم حرموا بوفاته قائداً محنكا وزعيما استطاع أن يجمع القلوب حوله ويجذب آلاف المجاهدين للانضواء تحت لوائه فى مواصلة الكفاح ضد إيطاليا : يقودهم فى معارك ومناوشات عدة طوال عشرين عاما . ومع أن المجاهدين أدركوا عظم الخطب الذى ألم بهم وفداحته باستشهاد المختار فإن اليأس لم يتسرب إلى قلوبهم بل إنهم سرعان ما استأنفوا الجهاد تحت قيادة السيد يوسف بورحيل المسمارى خليفة المختار فى الجبل، وهو من نخبة قوادهم الذين اشتهروا بالشجاعة وعرفوا ببعد النظر ، وقد أولاه المختار ثقته العظيمة فلازمه فى أكثر مراحل الجهاد وأشدها عنفا . وبدأ المجاهدون عملهم بالهجوم على مراكز الطليان فى القاهرية فأفنوا حاميتها وساقوا ما وجدوه بالقاهرية من إبل وأغنام وأبقار الى معسكرهم فى الجبل . وشاء الطليان أن يقوموا بهجوم مماثل فأغاروا على دور البراعصة ولكن المجاهدين صمدوا لهم وشتتوا قواتهم . ثم استأنف الطليان الهجوم فأغاروا على دور العواقير بتكنس فصمد لهم كذلك عبد الحميد العبار بمن معه من المجاهدين وهزموهم شر هزيمة . وعلى هذا النحو بدأ النضال من جديد بين المجاهدين والطليان فى منطقة الجبل الأخضر .

بيد أن المجاهدين البواسل بعد هذه الحوادث ما لبثوا حتى وجدوا أنفسهم فى حالة على جانب عظيم من الخطورة ذلك بأن إغلاق الحدود المصرية بسبب الأسلاك الشائكة والحاميات القوية التى أقامها غرزيانى على طول هذه الحدود منع وصول أية امدادات الى المجاهدين ، وفضلا عن ذلك فقد انقطعت كل صلة بينهم وبين الأهالى عند ما حشد الطليان هؤلاء فى معسكرات الاعتقال وأحاطوهم بسياج من الأسلاك الشائكة كذلك . أضف الى هذا أن سقوط الواحات الجنوبية بأيدى الطليان واستتباب سلطانهم فى فزان وجالو وأوجلة ثم فى الكفرة أخيراً جعل المجاهدين فى عزلة تامة فى منطقة الجبل الأخضر ، فكان من أثر ذلك

كله أنه بات مقضيا فى الحقيقة على جهوهم بالفشل مهما بذلوا من بسالة وعدم مبالاة بالاستشهاد من أجل تحرير الوطن .

ومنذ أن استشهد الزعيم المختار أدرك غرزيانى هذه الحقيقة وأخذ يعد العدة لتهيئة الأسباب التى تمهد لانقضاء أمد المقاومة فى أسرع وقت وأقصر زمن ، فبادر فى اليوم التالى لاستشهاد المختار بإصدار بضعة أوامر لمرؤوسيه فى ١٧ سبتمبر ١٩٣١ يطلب فيها منهم أن يسلكوا طريق الشفقة والرحمة مع الثوار الذين يسلمون أنفسهم بسلاحهم للحكومة ثم وجه منشورا إلى « دور عمر المختار » يدعو المجاهدين إلى التسليم ويعد من يسلمون أنفسهم « بالنجاة من الموت ! » وأراد غرزيانى بذلك أن يقيم الدليل — على حد قوله — للعالم الإسلامى وسائر الأمم على أن مسئولية استمرار الكفاح فى برقة لاتقع على كواهل الحكومة الايطالية . ومع أن المجاهدين استمروا فى جهادهم على الرغم من هذه الوعود وعلى الرغم عما كانوا فيه من جهد ومشقة ، فقد بدأ فريق منهم يرضخ قسرا للحكومة ، فكلف غرزيانى المتصرف دودياشى أن يقيم فى شحات ومعه الشارف الغريانى وثلاثة من المشايخ الذين استسلموا للحكومة وهم على بورحيم وفرجانى بوالعجب وحسن بوصالح وذلك لمقابلة المستسلمين وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم . وحاول فريق آخر من المجاهدين الخروج إلى برقة والالتجاء إلى القطر المصرى خصوصا ، ولكن (الدوريات) الايطالية نشطت تمنع هذه المحاولات بكل وسيلة واستشهد كثير من المجاهدين فى أثناء محاولة اجتياز الأسلاك الشائكة . وفى ١٥ ديسمبر ١٩٣١ أصدر غرزيانى منشوراً آخر يدعو فيه المجاهدين إلى التسليم ويطمئنهم على حياتهم إذا هم سلموا طوعا للحكومة ، وأصدر فى الوقت نفسه التعليمات إلى المتصرف دودياشى بأن يكرس جهوده لاستمالة المجاهدين بمختلف الطرق للتسليم إلى الحكومة واستثنى من ذلك فقط أعضاء الأسرة السنوسية الذين أصر غرزيانى على تعقب أفرادها ومنعهم من العودة إلى الوطن أو البقاء فى برقة . وعندما شعر المجاهدون بشدة حروجة مركزهم فى الجبل الأخضر واستحالة المضى فى النضال قرر زعماؤهم وقادتهم اجتياز الحدود إلى القطر المصرى بأية وسيلة فاستطاع جماعة منهم أن يفعلوا ذلك ولكن عثمان الشامى لم يلبث أن اضطر إلى التسليم للحكومة فى يوم ١٦ ديسمبر ١٩٣١ فى عين الغزالة ، فأحضره غرزيانى بطريق الجو إلى بنغازى ثم أوفده إلى شحات كى ينضم إلى بقية المشايخ الذين كانوا مع دودياشى لاستقبال المجاهدين الذين يسلمون أنفسهم للحكومة . وهكذا بقى السيد يوسف بورحيل المسمارى وحده يقود البقية الباقية من المجاهدين . على أن نهاية السيد يوسف كانت قريبة ، فقد اشتبك مع قوات الحكومة فى معركة كبيرة عند سقيفة حفلز بالقرب من أم ركبه فى يوم ١٩ ديسمبر ١٩٣١ واستشهد

السيد يوسف بورحيل فى هذه المعركة . وأما عبدالحميد العبار وجماعة من المجاهدين فقد استطاعوا الإفلات من قبضة الطليان وتمكنوا بعد مشقة من اجتياز الحدود إلى الأراضى المصرية فى ٥ يناير ١٩٣٢ وهكذا لم تنقض أربعة شهور على استشهاد السيد عمر المختار حتى كان الطليان قد أخمدوا كل مقاومة فى الجبل الأخضر ودانت برقة بأجمعها (وبالتالى القطر الليبى) لسلطانهم . وكان من أثر ذلك أن ألقى غرزيانى خطبة طويلة فى أوائل فبراير ١٩٣٢ فى بنغازى ذكر فيها « انتصار » الحكومة وأشاد بقيمة العمل الذى قام به والنتائج « العظيمة » التى يرى أنها عنوان مجد وفخار له . وقال غرزيانى أنه كان يبغى بعد اخماد هذه الثورة التى أشعلها المختار وصحبه فى الجبل أن يغزو مصر ذاتها فلا تقف جنوده على الحدود المصرية ولم يمنعه من ذلك سوى عجزه عن تحقيق أمنيته لأن المسئولين فى رومة كانوا يرون خلاف مايراه ، على أنه لو كان الأمر بيده لانطلق يغزو مصر ذاتها ولأخضع هذه البلاد بكل سهولة . ثم اختتم غرزيانى خطبته موجها الكلام لسامعيه من أبناء العرب فقال « أما أنتم فعليكم الآن أن تمتثلوا للقوانين الفاشيستية . قوانين حكومة صاحب الجلالة ملك إيطاليا والصادرة من الدوتشى (موسولينى) ، فاذا فعلتم فانكم تنالون كل خير وهناء لاشك فى ذلك ! »

ولكن كانت هذه وعودا معسولة . وما كان فى استطاعة الطليان أن ينفذوا شيئا منها ، وما كان يرجى منهم أن يجلبوا الخير والهناء إلى بلاد بيتوا النية منذ سنوات الغزو الأولى على إفناء أهلها وإبادتهم . بل إن الاستعمار الإيطالى فى عهد غرزيانى نفسه صاحب هذه الوعود سرعان ما وصل إلى درجة من الشدة والصرامة كانت تهدد بالقضاء على العرب واجتثاثهم من الأقطار الليبية كلها لولا أن عناية المولى سبحانه وتعالى تداركت العرب فحلت الهزيمة بالمستعمرين الطليان فى الحرب العالمية الأخيرة .

وقصة الإستعمار الإيطالى قصة طويلة محزنة تتميز من بدايتها إلى نهايتها بطابع خاص يجسم من تلك الجهود التى ظل الطليان يبذلونها نيف وثلاثين عاما من أجل استئصال العرب أهل البلاد وإعادة إنشاء تلك المستعمرة الرومانية القديمة التى كانت للرومان فى هذه الأصقاع فى العصور الخوالى . ومن بداية عهد احتلالهم للاقطار الليبية (منذ ١٩١١) تجرد الطليان سواء فى أثناء عملياتهم العسكرية أو بعدها من كل شعور إنسانى فاقترنت أعمالهم بتلك الفظائع التى جعلت من استعمارهم صحائف سود ليس فقط فى تاريخهم بل وفى تاريخ الإنسانية قاطبة .

ويمر تاريخ الإستعمار الإيطالى فى ليبيا فى دورين هامين ، يبدأ أولهما من وقت نزولهم فى ليبيا فى عام ١٩١١ وينتهى عند الوقت الذى تسلم فيــه الفاشيستيون أزمة الحكم فى إيطاليا فى أكتوبر ١٩٢٢ ، وأما الدور الثانى فيستمر من عهد الانقلاب الفاشيستى إلى

وقت قيام الحرب العالمية الثانية ثم زوال دولتهم نهائيا من ليبيا أى حوالى عشرين عاما من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٣ . وفى كلا الدورين كانت نكبة الطليان التى جعلتهم ينزلون بالبلاد صنوف الكوارث أنهم لم يستطيعوا بتاتا أن يحرروا أنفسهم من تلك العقدة النفسية ومركب النقص الذى لازمهم وكان ناشئا من دخولهم متأخرين إلى حلبة الإستعمار كدولة حديثة تريد أن تحتل مكانها فى مصاف الدول العظيمة . فقد خيل إليهم الوهم بسبب العقدة النفسية ومركب النقص الذى قض مضاجعهم من زمن طويل أن الإيقاع بالأهلين المسالمين وإنزال صنوف العذاب بهم سواء كانوا رجالا قادرين على حمل السلاح والجهاد ضد العدو أو كانوا نساء وأطفالا وشيوخا لاقدرة لهم ولا حيلة ، من علامات البأس والقوة وجبروت السلطان ، فاقترنت أعمالهم عند غزو البلاد وفى أثناء محاولتهم إخماد مقاومة المجاهدين بالقسوة والصرامة .ومنذ أن وطأت أقدامهم أرض ليبيا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الإعتداءات والجرائم الشنيعة .

ولعل أفظع تلك الجرائم التى ارتكبها الطليان عند نزولهم فى ليبيا وأسوأها أثرا ما فعلوه عقب سقوط مدينة طرابلس عندما أوقع الطليان بالأهلين فى ناحية المنشية فى ١٢ أكتوبر ١٩١ . فقد ادعى الغزاة زورا وبهتاناً أن أهل هذه الناحية عمدوا الى اغتيال الجنود متفرقين وأنه لامعدى لذلك عن الانتقام منهم . فقتل الطليان من الأهلين عددا يتراوح بين أربعة وسبعة آلاف نسمة ومثلوا بالكثيرين وهتكوا أعراض النساء ، وأمعن الغزاة الفاتحون فى التنكيل بهؤلاء الأهالى فنفوا حوالى تسعمائة منهم وألقوا فى غياهب السجون أعدادا عظيمة من الرجال والنساء ، فكان هذا الحادث فاتحة تلك المآسى التى ذهب ضحيتها مئات الألوف من البرقاويين والطرابلسيين فى الأعوام التالية .

ولما كان المجاهدون قد نفروا إلى الحرب يصلونها على الطليان نارا حامية ، فقد درج هؤلاء على الإنتقام لكل هزيمة لحقت بهم بالفتك بالأبرياء أو إلقائهم فى السجون أو نفيهم إلى يطاليا . وفضلا عن ذلك فقد أخذوا يدمرون ما كانوا يصادفونه فى أثناء زحفهم من بلدان سالمة وغير محصنة ضاربين بأصول الحرب وقوانينها عرض الحائط فعلوا ذلك بقصبة زواره لم تكن محصنة ، وهذا عدا هتك أعراض النساء فى كل بقعة كانوا يحلون بها ، وشنق الرجال ن غير تحقيق أو محاكمة جماعات كما حدث فى مدينة طرابلس ودرنه وغيرهما ، ولما أعجزتهم لحيلة فى مراحل الحرب الأولى ولم يستطيعوا مغادرة مراكزهم الساحلية ، صاروا يفتكون كل عربى يقع فى أيديهم ويزيد عمره على الرابعة عشرة أو ينفونه إلى خارج البلاد بدعوى أن ؤلاء التعساء كانوا يحاربونهم فى مؤخرتهم . وكان من حوادث « الفتح » الفظيعة ما فعله

الطليان فى يوم ٢٦ أكتوبر ١٩١١ عندما أشعلوا الحرائق فى أحد الأحياء الواقعة خلف بنك رومة فى طرابلس بعد أن ذبحوا أكثر سكان هذا الحى الذى التهمته النيران ، ولم يسلم من فتكهم النساء والأطفال والشيوخ العجزة .

وقد توالت أفعال الانتقام والإبادة والتشريد بصورة جعلت المراسلين الأجانب الذين صحبوا حملة الجنرال كانيفا يحتجون على ارتكاب هذه الفظائع ويبعثون بتفاصيلها إلى صحفهم علهم بذلك يوقظون ضمير الإنسانية من سباته ، ويضعون بفعلهم هذا حداً لفظائع الطليان وجرائمهم . فكتب جرانت مراسل جريدة الديلى ميرور يصف حادثا انتقم فيه الإيطاليون لهزيمتهم فى إحدى المعارك فى ٢٧ أكتوبر ١٩١١ بأن أعدموا رميا بالرصاص حوالى خمسين نسمة بين نساء وأطفال فى ثكنة فرسانهم فى مدينة طرابلس ؛ وأبى فرانسز ما كولا — وهو صحفى انجليزى رافق الحملة وكان مكاتبا لعدة صحف انجليزية وأمريكية — أن يبقى مع جيش ، لا هم له — على حد قوله — إلا ارتكاب جرائم القتل ، ولأن ما كان يراه من المذابح وترك النساء العرب المريضات يعالجن مع أولادهن سكرات الموت على قارعة الطريق جعله يكتب للجنرال كانيفا كتابا شديد اللهجة ذكر فيه أنه يرفض البقاء مع جيش لا يمكن أن يعتبره جيشا بالمعنى المعروف وإنمـــا مجرد عصابة من قطاع الطرق والقتلة ، . وحذا حذو (ما كولا) مكاتب آخر ألمانى هو فون جوتبرج فقال « إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس ، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء كان يقبض عليهم فى ميدان القتال أو فى بيوتهم ، ويوجد الآن فى سيراكوزه — بجزيرة صقلية — كثيرون من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم فى الحرب ، بل إن أكثرهم كانوا من الجنود الذين تركوا مرضى فى مستشفى طرابلس». ووصف (هرمان دتول) المراسل النمساوى كثيرا من هذه الفظائع التى شاهدها وفعل ذلك أيضا سائر مراسلى الصحف الأجانب من انجليز وفرنسيين وألمان .

وظل الطليان يرتكبون هذه الفظائع فى الأعوام التالية ، فاستمروا يشنقون ويعدمون الأهالى الذين بقوا فى المدن والقرى والنواجع ولم ينخرطوا فى جيش المجاهدين ، ثم يلقون من نجا منهم فى غياهب السجون وينفون جماعة أخرى إلى إيطاليا وصقلية ، كما أنهم ظلوا يهتكون أعراض النسـاء ويبقرون بطون الحبالى منهن ويصـادرون أموال أهل البلاد ويغتصبون الأرض منهم . وفضلا عن ذلك فقد امتد طغيان الغزاة حتى شمل محاربة المسلمين فى عقائدهم فدمر الطليان دون مسوغ حربى مسجد سيدى عزيز فى الفتائح بالقرب من درنة (١٩١٢) ، وأمعنوا فى إهانة الدين الإسلامى ومنعوا الأهلين من إقامة شعائرهم ، وصار

جنودهم يدخلون المساجد وهم سكارى ازدراء بالمسلمين وتعطيلا لعبادتهم ، وقد منعت الحكومة الايطالية الأهلين فى عام١٩١٣ من أداء فريضة الحج بدعوى أن الوباء منتشر فى الحجاز ، ثم زاد امتهانهم للدين الإسلامى فى المدة التالية بدرجة شنيعة فكان من أسوأ فعالهم أن ألقى قائد طبرق الايطالى بالمصحف الشريف إلى الأرض ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من الأهلين وهو يقول « إنكم معشر المسلمين لا يمكن أن تصيروا بشرا ما دام هذا الكتاب بين أيديكم » . وعمد جنودهم فى البيضا إلى ضريح سيدى رافع الأنصارى الصحابى الجليل فخربوه واتخذوا منه ومن غيره من الأضرحة والمساجد (اصطبلات) لدوابهم وخيولهم .

ومنذ عام ١٩١٣ بدأ الطليان يسخرون العرب فى بناء القلاع وتعبيد الطرق ويستخدمونهم فى غير ذلك من الأعمال الشاقة المنهكة . وفى العام التالى ١٩١٤ جند الغزاة حوالى أربعة آلاف مجند من أقضية ترهونة ومسلاتة وزليطن ومصراته واشترك فريق من هؤلاء بقيادة رمضان السويحلى فى معركة القرضابية المشهورة ضد السنوسيين وهى المعركة التى انحاز فى أثنائها رمضان السويحلى إلى جانب السنوسيين ضد الطليان فحاقت بالطليان الهزيمة فى آخر مارس ١٩١٥ . وصمم هؤلاء على الانتقام لأنفسهم فأحضروا ما كان لديهم من رهائن من أبناء العرب وقتلوهم صبرا شر قتلة ثم تركوا جثثهم طعاما للوحوش غربى قصر سرت ، ثم أمعنوا فى انتقامهم فأحرقوا حوالى عشرين نسمة من أهل تاورغة فى المحل المسمى قرارة مريم وصادروا أملاكهم . وواقع الأمر أن الطليان بعد هزيمتهم فى هذه الموقعة ما لبثوا أن أضاعوا رشدهم كلية فصاروا يقتلون الناس ويحرقون المنازل لمجرد التشفى والانتقام ، وتكررت هذه الفظائع فى السنوات التالية . فكثرت أعمال الفتك والإرهاب فى أقضية مصراته والزاوية وغيرها حتى غدت فظائع الطليان بين عامى ١٩١٤ — ١٩٢١ خصوصا صفحات متسلسلة الحوادث متشابهة الوقائع ، فلم يفتروا لحظة واحدة عن التقتيل والتعذيب والنكاية بالعرب والضغط على حرياتهم والعبث بأرواحهم واغتصاب أملاكهم ونهب أموالهم وإحراق بيوتهم وسبى نسائهم وتيتيم أطفالهم وتنصيرهم . فقد نشط المبشرون الطليان فى دعوتهم وعمدت الحكومة إلى ارغام النساء على التنصر والزواج من الطليان ، ثم أخذ هؤلاء يعملون للقضاء على الأخلاق الإسلامية وبث روح الكثلكة فى المدارس بين الأطفال ، والقضاء على معارف أهل البلاد والتعليم الدينى . وتناول نشاط الطليان المكروه ميدان الاقتصاد والمال فأماتوا الصناعة والتجارة الوطنية وصاروا يزاحمون الأهلين فى صناعاتهم البسيطة مهما كانت هذه قليلة الشأن ضئيلة القيمة ، ويديرون البلاد بالشدة والقسوة حتى عمت الفوضى وقام السيف والمدفع مقام القانون . ومنع الأهلون من رفع ظلاماتهم أو

الشكوى مما كان يحل بهم من ضروب التعذيب إلى السلطات المختصة ، وقيد الطليان حرياتهم فمنعوهم من محادثة بعضهم بعضا ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب الأدبية ومن مراسلة أقاربهم أو من كان بينهم وبين الليبيين علاقات فى الأقطار الأخرى حتى صاروا فى شبه سجن داخل بلادهم محرومين من كل صلة تربطهم بالعالم العربى خصوصا .

وقد بلغ من أثر هذه التدابير الظالمة وخطة الافناء والتشريد التى جرى عليها الطليان أن نقصت النفوس (تعداد اهل البلاد) نقصا هائلا ولدرجة مروعة حتى أن هيئة الاصلاح المركزية التى تألفت عقب مؤتمر غريان فى نوفمبر ١٩٢١ بادرت بفحص هذه الحالة المحزنة فأسفر ما قامت به من تحقيق دقيق لمعرفة عدد من أبعدوا عن ديارهم ولم يعودوا وأولئك الذين أهلكهم الطليان بوسائل شتى عن إحصاء كل هؤلاء من بداية الاحتلال فى عام ١٩١١ إلى وقت تأسيس الهيئة المركزية فى عام ١٩٢١ فبلغوا ستا وستين ألف نسمة ، وهذا عدا من استشهد من العرب فى ميادين القتال . وقد حدث ذلك كله فى مدة عشرين عاما تقريبا من وقت مجىء الطليان إلى ليبيا إلى وقت حدوث ذلك الانقلاب الحكومى الذى مكن الفاشيست من الوصول إلى الحكم فى إيطاليا بزعامة بنيتو موسولينى فى أكتوبر ١٩٢٢ .

وكان وصول موسولينى وصحبه إلى الحكم كارثة كبرى على الشعوب العربية فى برقة وطرابلس لأن مجىء الفاشيست كان مؤذنا فى الحقيقة ببداية صفحة أخرى من صفحات الفظائع الايطالية فى ليبيا وهى فظائع فاقت فى قسوتها كثيراً كل ماحدث فى عهد الحكومات الأيطالية السابقة . ذلك بأن الفظائع الايطالية بين عامى ١٩١١ — ١٩٢١ كانت نتيجة لاندفاع دولة إيطاليا الموحدة بزعامة بيت سافوى الملكى فى طريق الاستعمار لإشباع تلك الشهوة التى نشأت من رغبة الطليان الملحة فى التخلص من شعور النقص ومعالجة هذه العقدة النفسية بامتلاك المستعمرات حتى تنخرط دولتهم فى سلك الدول الأوروبية العظيمة . وأما الفظائع التى ارتكبها الطليان بعد ذلك فى ليبيا — وكانت أشد وأقسى — فقد نجمت من رغبة الفاشيست فى أن يعيدوا مجد الامبراطورية الرومانية القديمة ، وكان من وسائل ذلك على حد قولهم أن تصبح ليبيا مقاطعة رومانية لحما ودما .

وعلى ذلك فقد قامت خطة الفاشيست أو سياستهم الاستعمارية على أساسين هامين : (أولهما) امتلاك البلدان العربية القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وهى المنطقة التى شهدت اتساع الامبراطورية الرومانية القديمة فى مختلف أدوارها ، وأضحت الآن ذلك « المجال الحيوى » والذى لا غنى عنه لتوسع الامبراطورية الرومانية الجديدة التى يعتزم الفاشيون إنشاءها . (وثانيهما) إبادة أهل هذه البلاد العربية وإفنائهم حتى يتسنى إرسال

أبناء الطليان إلى القطر البرقاوى الطرابلسى ، كى يبدأوا به حياة مستقرة موطدة ويجعلوا من هذه الأقطار « رقعة لاتينية » يسهل إدماجها بعد ذلك فى جثمان الامبراطورية الرومانية المنشودة . فكان من نتيجة ذلك أن صار يتميز تاريخ الاستعمار الايطالى فى ليبيا منذ وصول الفاشية إلى الحكم ١٩٢٢ إلى وقت اشتعال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ بحدوث سلسلة أخرى من الفظائع والنكبات والكوارث كانت تفوق فى فداحتها ما وقع من فظائع فى السنوات السابقة لسبب واضح جلى هو أن جماعة الفاشيست كانوا يسيرون قدما ودون أى تردد نحو غاية واحدة هى إفناء الشعوب العربية بهذه البلاد وإبادتها . ولذلك فى استطاعة المرء على ضوء هذه الاعتبارات والحقائق أن يرسم صورة كاملة للاستعمار الايطالى فى ليبيا فى عهد السيطرة الفاشيستية .

ويسير الاستعمار الايطالى فى عهد هذه السيطرة فى دورين ظاهرين استمر أولهما من وقت حدوث الانقلاب الحكومى فى إيطاليا فى عام ١٩٢٢ إلى الوقت الذى نقض فيه الطليان عهودهم بعد اجتماع سيدى رحومه فى عام ١٩٢٩ . بينما استمر الدور الثانى من ذلك التاريخ إلى وقت قيام الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ . والسبب فى هذا التقسيم — وهو تقسيم شكلى فى الحقيقة أكثر من أى شىء آخر — أن الطليان الفاشيست لم يكونوا فى خلال الدور الأول قد أتموا استعدادهم لتصويب ضربتهم القاتلة للقضاء على حركة المقاومة والجهاد فى برقة وطرابلس فاعتمدوا أكثر ما اعتمدوا فى هذا الدور على المخاتلة والمراوغة ونقض العهود وكسب الوقت ومحاولة إغراء المجاهدين حتى يرضوا بالعيش الذليل فى كنف الدولة المستعمرة ، فبدأ الطليان فى هذه المرحلة تلك المفاوضات الطويلة التى سبق ذكرها مع السيد عمر المختار وصحبه . حتى إذا أتموا استعداداتهم العسكرية وتبين لهم فى الوقت نفسه عبث محاولاتهم « السياسية » كشفوا القناع عن نياتهم الصحيحة وانطلقوا ينفذون « برنامجهم » الاستعمارى بكل قسوة فأعدموا المختار وقضوا على قوات المجاهدين وأفنوا مئات الالوف من العرب فى سنوات قليلة ولم ينقذ البلاد من الفناء والإبادة سوى قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام الشعب الليبى الباسل إلى جانب الأمم الديمقراطية يكافح من أجل الخلاص من ربقة الاستعمار والتحرر من طغيان الفاشيستية . وعلى ذلك فقد تميزت فعال الطليان فى هذه المرحلة بأمور معينة . أولها نقض العهود التى ارتبطوا بها مع الأمة الليبية ، ثم ارتكاب الفظائع ليس فقط لإبادة العرب وإفنائهم بل ولمجرد الانتقام من الأهلين المسالمين عما كان يلحق بهم من هزائم على أيدى المجاهدين بقيادة زعيمهم السيد عمر المختار ، وأخيرا الامعان فى

وسائل الاغتصاب والإبادة والإفناء لتحقيق برنامجهم الاستعماري وتحويل البلاد إلى مقاطعة « لاتينية » .

ونقض الطليان لعهودهم قصة طويلة تبدأ من الوقت الذي غزوا فيه ليبيا في عام ١٩١١ ، فقد قطعت إيطاليا على نفسها العهود والمواثيق عند ما عقدت مع تركيا معاهدة أوشي في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ ، ومع سمو السيد إدريس معاهدة طرق أو عكرمة في ١٤ إبريل ١٩١٧ ، وأصدرت القانونين الأساسيين لبرقة وطرابلس في غضون عام ١٩١٩ ، ثم أبرمت معاهدة الرجمة مع السيد إدريس في ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ ، ووافق بادوليو على الشروط التي قدمها السيد عمر المختار في سيدي رحومة في يونية ١٩٢٩ . وفي كل هذه العهود والمواثيق تعهدت إيطاليا باحترام الدين الإسلامي والمحافظة على شعائره واحترام لغة البلاد وتقاليد العرب وأعلنت أنها لا تنتوي أصلا أن تمتلك أراضي الأفراد أو الجماعات أو الزوايا السنوسية ، وأن تصون حقوق الملكية والحريات الشخصية وأن تفتح باب العمل في ميادين النشاط الحر أمام أهل البلاد وتمكينهم من شغل الوظائف الإدارية والعسكرية على قدم المساواة مع الطليان أنفسهم . وفضلا عن ذلك فقد تعهدت إيطاليا بإنشاء الحكومة النيابية وإشراك الأهلين في برقة وطرابلس في إدارة شئونهم بأنفسهم واعترفت بالامارة السنوسية ، وبأن يكون لأهل طرابلس الحق في اختيار الأمير الذي ترضى بإمارته أي الحق في اختيار سمو السيد ادريس للإمارة على نحو ما فصلناه في الفصول السابقة

ولكن ماذا فعل الفاشيون بجميع هذه العهود التي قطعتها الحكومة الايطالية على نفسها؟

لقد تقدم كيف راوغ الطليان في تنفيذ القانون الأساسي في طرابلس حتى عقد العرب مؤتمر غريان وبايع الطرابلسيون سمو السيد ادريس بالامارة ، وفي برقة سعى الطليان جديا حتى يقوضوا أركان الحكومة الوطنية الرشيدة التي أنشأها الأمير وبلغ من غدرهم وخياناتهم أنهم دسوا السم للأمير ثم حاولوا القبض على السيد صفي الدين وأسره . وعند ما أفلت السيد صفي الدين من قبضتهم وغادر الأمير برقة صبوا جام غضبهم على الشيخ صالح العوامي فألقوا به في غياهب السجن في بنغازي . ومع أنهم كانوا قد تعهدوا للسيد صفي الدين بعدم إلحاق الأذى به لم تحل سن الشيخ المتقدمة وكان يناهز التسعين دون التنكيل به فانهالوا عليه ضربا بالعصي حتى استشهد في أيديهم فحملوه إلى مكان مجهول دفنوا به جثمانه إمعانا في النكاية به حتى بعد وفاته . .

وكان من مظاهر غدر الفاشيست وخياناتهم مافعلوه مع أحد أعضاء ذلك الوفد الذي تقرر في مؤتمر غريان إرساله إلى رومة للمفاوضة مع ولاة الأمور بها في الظروف التي سبق

ذكرها ، فقد تسنى للحزب الفاشيستى وعلى رأسه موسولينى قبل وصوله إلى الحكم أن يتصل بأعضاء الوفد ، وتعهد موسولينى « بتأمينه لمطالب البلاد الوطنية والقومية وقال إنه لن يتوقف عن إثارة حملة عنيفة ضد حكومته إذا حاولت اكتساح البلاد الطرابلسية البرقاوية بالحديد والنار » . ولكنه بمجرد أن دانت السلطة للفاشيست ورجع الوفد إلى بلاده صفر اليدين من مفاوضاته بإيطاليا قبضت حكومة موسولينى على الدكتور عبد السلام البوصيرى (ترجمان) الوفد وأحد أبناء العرب الأذكياء الذى كان قد اضطر إلى التخلف وحكمت عليه بالسجن المؤبد فى مدينة طرابلس .

ومع أن جميع الاتفاقات والعهود التى ارتبط بها الطليان كانت تنص على ضرورة احترام العقائد الدينية والشعائر الاسلامية فقد تفنن الطليان فى ابتكار الطرق والوسائل التى من شأنها إلحاق الاهانة البالغة بهذه الشعائر والأذى الفادح بشيوخ المسلمين وعلمائهم ثم بمساجدهم وأماكن عباداتهم . فألزموا أئمة وخطباء الجوامع بالدعاء على المنابر أيام الجمعة لملك إيطاليا عمانويل الثالث ، وعندئذ امتنع الناس عن صلاة الجمعة ، فلما ذاع هذا الخبر وسبب هياج الخواطر فى العالم الاسلامى وكثرت احتجاجات الصحف فى مصر وسوريا خصوصا ، ارغمت الحكومة الايطالية الأئمة والخطباء على كتابة تكذيب ذيلوه بتوقيعاتهم جاء فيه أن الدعاء للملك عمانويل الثالث إنما كان بمحض ارادتهم ومن تلقاء أنفسهم ومن غير تدخل من جانب الحكومة الفاشيستية .

وفى عهد الماريشال بادوليو زاد تدخل الحكومة فى شئون الدين فصاروا ابتداء من عام ١٩٢٨ يمنعون الناس من أداء فريضة الحج تارة ويضعون العراقيل فى سبيلهم تارة أخرى حتى يجبروهم على تركه ، ذلك بأنهم كانوا يخشون من اختلاط الحجاج الليبيين بغيرهم فتتسرب أخبار فظائع الطليان إلى العالم الاسلامى . وكان من الوسائل التى ابتدعوها لمراقبة الحجاج الليبيين أنهم أنشأوا فى مكة المكرمة داراً كبيرة حتموا على الحجاج من الطرابلسيين والبرقاويين الاقامة بها فى أثناء الحج حتى يبعدوهم عن مخالطة اخوانهم من سائر المسلمين . وعلاوة على ذلك فقد دسوا بينهم أناسا من صنائعهم للتجسس عليهم ، وأنذروا كل ليبى تحدثه نفسه بزيارة السيد أحمد الشريف — وكان رحمه الله يقيم بمكة قبل وفاته فى عام ١٩٣٣ — بالعقوبة الشديدة . وفى عام ١٩٣٧ منع الطليان من الحج كل من سبق لهم تأدية هذه الفريضة أو كان لا يبلغ الأربعين من عمره . وعند ما أثاروا بعملهم هذا سخط المسلمين فى أنحاء العالم عادوا فى العام التالى فسمحوا لقليلين ممن منعوهم من الحج فى عام ١٩٣٧ .

وكان عهد الماريشال بادوليو الذى عين حاكما عاما على ليبيا فى عام ١٩٢٩ مليئا بالفواجع .

والمآسى ، فقد بدأ الطليان فظائعهم الجديدة منذ عام ١٩٢٨ عند ما أخرجوا من واحة الجغبوب العلماء وطلاب العلم فكان ممن أجلوهم عن هذه الواحة السيد حسن السنوسى شيخ زاوية الجغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ الفضيل الكبش وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم إلى حيث لا يعلم أحد علم اليقين ، وإن كان هناك من يرجح أن الطليان قد أجلوهم إلى بردى سليمان . وقد حدث فى أثناء نقلهم أن سقط من السيارة الشيخ صالح المصارى فلم يحفلوا به فمرت عليه السيارات الأخرى وأودت بحياته .

وفى سنة ١٩٢٩ جمع الجنرال غرزيانى جميع مشايخ السنوسية والذين يتولون أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم جميعاً فى مركز بنينة وكان بناء قديما لا سقف له ذاقوا فيه مر العذاب جوعا وعطشا ، ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا ، وبعد أن مكثوا بها مدة أعيدوا إلى بنينة فهلك منهم كثيرون جوعا وتعبا ومرضا . وكان من بين الذين لقوا حتفهم جماعة من أفاضل القوم وخيارهم نذكر منهم السيد عمران السكورى شيخ زاوية المرج وكان السيد عمران فى طليعة المجاهدين الذين لبوا نداء الجهاد عند اعلان الحرب الليبية الإيطالية فى عام ١٩١١ ، ثم السنوسى بن جلول شيخ زاوية البراعصة ، والسنوسى ابن ميلود شيخ زاوية المرازيق والسنوسى الهانىء شيخ زاوية أم ركبة وادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . وفى هذا العام أيضا ١٩٢٩ أجلى الطليان البقية الباقية من الإخوان السنوسيين فى الجغبوب فأرسلوهم مع أسراتهم إلى قضاء جالو مشياً على الأقدام تحت رحمة الجنود الذين ساروا بهم يسوقونهم سوق الأنعام حتى يلحقوهم باخوانهم فى سجون بنينة وسلوق وغيرها من المعسكرات التى اعتقل فيها غرزيانى عرب برقة بأجمعهم ، فمات كثيرون من الشيوخ والنساء والأطفال جوعا وتعذيباً . ثم عمد الطليان بعد ذلك إلى إغلاق جميع الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها .

وكان صاحب اليد الطولى فى ذلك نائب الوالى فى برقة الجنرال غرزيانى . فقد اعتبر غرزيانى هذه الزوايا السنوسية مراكز سياسية وإدارية الغرض منها نشر الدعاية للسنوسية والعمل على إنشاء الصلات الوثيقة بين الأهالى والمجاهدين وإطلاع المجاهدين خصوصا على تنقلات القوات الإيطالية وتدابيرهم العسكرية . وفضلا عن ذلك فقد كانت هذه الزوايا تجمع أموال الزكاة فترسل أكثرها على حد قول غرزيانى مع الايرادات المتحصلة من أوقافها إلى أعضاء الأسرة السنوسية ثم يأخذ ما يتبقى منها بعد ذلك مشايخ الزوايا أنفسهم ؛ وقدر غرزيانى ايرادات هذه الزوايا — ما عدا جغبوب والكفرة — بحوالى مائتى ألف ليرة إيطالية سنويا .
وعلى ذلك فقد شرع غرزيانى ينفذ خطته المدبرة فى صيف (عام ١٩٣٠) فبدأ بالقاء القبض على

جميع مشائخ الزوايا فى كل برقة فى يوم واحد (٢٩ مايو سنة ١٩٣٠) وصادر ما يملكون . وفى أوائل يونية أصدر منشوراً حذر فيه الأهالى من دفع أموال الزكاة وهدد كل من يفعل ذلك بتوقيع عقوبة الإعدام عليه ، وبلغ عدد مشائخ الزوايا الذين قبض عليهم غرزيانى واحداً وثلاثين شيخا جمعهم فى بادىء الأمر فى بنينة ثم أرسلهم بعد ذلك إلى أوستيكا ، وقد نقلتهم إلى سيرا كوزة فى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٣٠ نفس المركب التى حملت السيد حسن ابن الرضا السنوسى إليها . وكان لإغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها أعظم الأثر فى نفوس العرب حتى أولئك الذين كانوا موالين للحكومة الإيطالية .

وكان فى هذه الظروف أن بدأ يكتب فى (بريد برقة) — وهى جريدة موالية للحكومة فى ظاهرها — فى مسألة هذه الزوايا وأملاكها المصادرة ، أحد أبناء برقة الذين حصلوا على قدر كبير من الثقافة واتخذوا من ضرورة الانصياع إلى أوامر السلطات المحلية ذريعة لبذل قصارى الجهد مع المستعمرين العتاة حتى يعدلوا عن ركوب متن الشطط فى أساليبهم «المهلكة» ونعنى به السيد عمر فخرى المحيشى ، وكان من سراة القوم ووالده الحاج سالم باشا المحيشى من أعظم بيوتات بنغازى . وكان عمر فخرى المحيشى يتولى رئاسة التحرير فى جريدة (بريد برقة) ووجد أن يتخذ من جريدته على الرغم من سيطرة الحكومة عليها وسيلة لإبلاغ إنذارات الحكومة وما تنتوى فعله إلى المجاهدين فى عبارات ظاهرها التنديد بأعمال (الثوار) والحض على التسليم للحكومة ، وفى باطنها وفى خلال السطور إشعارهم بمدى نشاط الحكومة حتى يتخذوا الحيطة لأنفسهم .

وزيادة على ذلك فقد كان من دأب عمر فخرى المحيشى أن يحاول دائما الحد من بطش وطغيان الحكومة ، فيعمد إلى إنشاء المقالات الطويلة يكيل فيها المدح والثناء على أعمالها ، ولكنه يشير بطريق خفى إلى الطريقة المثلى التى يجب عليها اتباعها تحقيقا للعدالة وتنفيذاً للقانون . وقد ظل المحيشى على عهده ، فكان جنديا مجاهدا وإن اختلف نضاله عن نضال سائر المجاهدين الذين استشهدوا فى الحروب التى شنوها ناراً متأججة على الطليان فى برقة وطرابلس . وزاد موقف المحيشى خطورة كما زادت قيمة الجهود التى أخذ على نفسه أن يبذلها فى خدمة الوطن عند ما نجح الطليان فى إخماد المقاومة فى برقة ثم انطلقوا فى عهد غرزيانى وإيتالو بالبو ينفذون برنامج الاستعمار الإيطالى على أساس إبادة العرب وإفنائهم . ولكن المحيشى ظل رابط الجأش يرجو أن يستنقذ من براثن المستعمر بعض الحقوق وأن يخلص أبناء جلدته من الموت والفناء على أيدى الجلادين الطليان حتى دانت ساعة الخلاص واستطاع الانجليز وأحلافهم أن يجلوا الطليان عن برقة ، وعرف الانجليز قدره فظل المحيشى

مستمتعا بثقة مواطنيه حتى وفاته فى بداية الاحتلال الانجليزى الثانى لهذه البلاد فى يناير من عام ١٩٤٢ .

والسيد عمر فخرى المحيشى مقالات عدة فى (بريد برقة) طرب منها غرزيانى وقتذاك ، ولكنها كانت مليئة بالنصح والإرشاد لمواطنيه المجاهدين وتحذرهم من مغبة تقديم المصالح الشخصية والعائلية على مصلحة الوطن . وعندما أمر غرزيانى باغلاق الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها انبرى المحيشى يكتب فى (بريد برقة) فى ٦ يونيه ١٩٣٠ مقالا يردد فيه دعاوى غرزيانى من أنه لا ضرورة لوجود هذه الزوايا ، ولكنه ولم يكن فى وسعه أن يمنع الشر وقت نزوله ، حاول فى هـــذا المقال أن يقنع الحكومة بأن الحق والعدل يقتضيها أن تنفق الأموال المصادرة وإيرادات هذه الزوايا فى الأغراض الدينية والخيرية تنفيذاً لإرادة الواقفين لأن ذلك من شأنه أن يساعد على حد قوله على « إظهار حسن نوايا الحكومة » . بيد أن هذا المقال لم يحدث الأثر المطلوب وعلى نحو ما أراد صاحبه منه ؛ إذ استصدر غرزيانى مرسوما فى ٨ يونيه ١٩٣٠ باغلاق جميع الزوايا ومصادرة أموالها وصدر مرسوم ملكي بذلك فى ٢٢ ديسمبر . وفى أوائل فبراير من العام التالى أرسلت الحكومة الإيطالية فى رومة مستشاراً قضائياً هو الدكتور فرنندوفالزى لإحصاء الزوايا وتنظيم قيد أملاكها المصادرة ونقل ملكية الزوايا وأوقافها إلى الحكومة . وبدلا من انفاق هذه الأموال فى « أغراض دينية وخيرية » استخدمتها الحكومة فى محاربة الدين الإسلامى وتنفيذ سياستها الاستعمارية على نحو ما سبق بيانه . .

وعندما اشتدت مقاومة المجاهدين وأدرك الطليان أنه لا سبيل إلى التغلب على العرب إلا باتباع أساليب الإبادة والإفناء ، كان القضاء على اللغة العربية ، لغة الدين ودعامة قومية العرب ، ثم العمل على تنصير العرب وإضعاف الدين والأخلاق من الوسائل التى تذرعوا بها لتحقيق هذه الغاية ، فأغلقوا الكتاتيب ودور العلم الوطنية وأنشأوا بدلا منها مدارس إيطالية ، ثم أكثروا من إقامة دور الفحش والدعارة وعملوا على تنصير المسلمين وإرغامهم على اعتناق الكاثوليكية . وبذلوا فى هذا الأمر الأخير جهوداً جبارة ، إذ أنهم سرعان ماصاروا يملأون البلاد بجيش من المبشرين وينفقون الاموال الطائلة فى سبيل نشر الكاثوليكية والتبشير بالمسيحية ، ثم أنشأوا كنيسة كبيرة فى مدينة طرابلس وعدة كنائس فى الزاوية وزوارة ونالوت ويفرن وغريان وزليطن والخمس ومصراتة وبنغازى ودرنة ، وهذا عدا الكنائس الكبيرة فى الجبل الأخضر . وكانت معظم هذه بلاد لا يكاد يوجد بها مسيحى واحد .

وبلغ امتهانهم بالدين الحنيف درجة جعلت بادوليو يأمر بأن ترصف (الصالة) فى قصره بالبلاط منقوش عليه (محمد) صلى الله عليه وسلم تسليما .

أما القضاء الشرعى فى ليبيا فقد أصبح أداة عاطلة باطلة ذلك بأن تعيين القاضى (الشرعى) أصبح فى يد الحاكم الإيطالى وهو لذلك تعيين باطل فى نظر الدين الإسلامى . وزيادة على ذلك فإنه ما كان ينفذ شىء من الأحكام التى تصدر — على قلتها — إلا إذا وافقت على ذلك دائرة البوليس أو (الكربنيرى) . ومما زاد الطين بلة وعده المسلمون أهانة بالغة لهم ولدينهم أن الأحكام الشرعية صارت تصدر باسم عمانويل الثالث ملك إيطاليا ، وتكتب الأحكام الشرعية على ورق مزين برسم الصليب ويرغم القاضى أو كاتبه بكتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) أو (الحمد لله رب العالمين) تحت رسم هذا الصليب فى أعلى الورقة .

وتتصل بإهانة شعائر الدين الإسلامى محاولة القضاء على اللغة العربية إلى جانب سائر المظاهر الوطنية فى القطر الليبى ؛ ويتناول ذلك شئون التعليم وطمس معالم العروبة فى البلاد فمن المعروف أنه كان فى ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى ثقافة إسلامية دينية ذات معاهد أنشئت على وجه الخصوص لنشر هذه الثقافة ، منها جامع أحمد باشا وجامع كورجى ومدرسة عثمان باشا وزاوية الزروق فى مصراته . ثم كان الطرابلسيون والبرقاويون يقصدون إلى جانب ذلك الجامع الأزهر الشريف فى مصر وجامع الزيتونة فى تونس للتزود من الثقافة الدينية بهذه الأقطار المجاورة . وفضلا عن ذلك فقد كان بالبلاد ثقافة أخرى عصرية وعثمانية، إلى جانب هذه الثقافة الدينية ، إذ كانت المدارس أيام العثمانيين فى برقة على درجتين : ابتدائية وثانوية (أو رشدية) ، كما أنشئت فى طرابلس مدرسة إعدادية للعلوم والفنون العسكرية ؛ وعلى قلة هذه المدارس كان خريجوها يشغلون المناصب الكثيرة فى الدولة العثمانية ذاتها . غير أنه حدث عند مجىء الطليان أن انقطع معين الثقافة العثمانية ، وعلى ذلك فقد ظل الأهلون إلى جانب تمسكهم بالثقافة الدينية يرغبون فى نوع جديد من الثقافة يجمع بين أمور الدين والدنيا معاً لمصلحة الفرد والجماعة ولخير الملة والوطن . فحرصوا فى جميع الاتفاقات التى أبرموها مع الطليان على أن يتعهد هؤلاء بجعل التعليم فى برقة وطرابلس موضع عنايتهم على أساس احترام لغة البلاد وتقاليدها . بيد أن الطليان جريا على عادتهم فى نقض عهودهم سرعان ما صاروا ينشئون المدارس التى عنيت فقط بنشر نوع خاص من الثقافة الإيطالية كان يتلاءم مع أغراضهم الاستعمارية فحسب ، أخذوا يدعون إليه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، فبلغ ما أنشأه الطليان من هذه المدارس فى ليبيا حتى عام ١٩٣٩ تسعين مدرسة تضم ٩٤٣٣ تلميذاً ، ١٠٥٥ تلميذة ، وجعلوا فى كل مدرسة من هذه المدارس نوعين من التعليم : نوع

إيطالي وآخر عربي ، ثم جعلوا للمعلم الإيطالي كل السلطة حتى يدير المدرسة كيفما شاءت أهواؤه. وبذلك صار أبناء العرب في هذه المدارس يرغمون على دراسة كل المواد المقررة بها حتى الغناء الإيطالي والنشيد الفاشيستي .

وكانت هذه المدارس بمثابة مدارس ابتدائية يدعي الطليان أنها مخصصة لتعليم العربية إلى جانب الإيطالية . بينما كان أبناء العرب يلقنون بها الحروف الهجائية وشيئاً قليلا من القرآن الكريم والحساب وبعض القواعد العربية البسيطة وذلك في مرحلة من التعليم تبلغ خمس سنوات ومنع الطليان — إلا في حالات استثنائية نادرة — أبناء العرب بعد الفراغ من هذه المرحلة من أن يلتحقوا بالمدارس الثانوية التي يجري التعليم فيها باللغة الإيطالية . وأمام هذا النقص الواضح في التعليم وأساليبه رأى الليبيون أن يبعثوا بأبنائهم إلى تونس وإلى مصر إلى (الأزهر الشريف) لتلقي العلم ، وكره الطليان أن يجيء الليبيون إلى الأزهر على وجه الخصوص ، فابتدعوا فكرة (المدرسة الإسلامية العليا) أنشأها إيتالو بالبو ونظم دعاية واسعة عن طريق الإذاعة والنشر في الصحف حتى يحث الناس على إرسال أبنائهم إليها بدلا من إرسالهم إلى الأزهر . ولكنه سرعان ما وضح غرض الطليان من إنشاء هذه المدرسة عند ما وجد الليبيون أنها كانت مقيدة بنفس القيود التي قيد بها التعليم الابتدائي ، واقتصرت مهمتها على تلقين الدروس البسيطة . وفضلا عن ذلك فقد نصب الطليان على مدخل (المدرسة الإسلامية العليا) صليباً كبيراً . وفي الوقت الذي فرض فيه الطليان القيود العديدة حتى يقللوا من عدد الراغبين في الحضور إلى مصر للتزود من العلوم التي تدرس بالأزهر الشريف أخذوا يشجعون الليبيين على الذهاب إلى رومه ويصرفون المال لأبناء العرب الذين يذهبون إلى رومة — طلباً للعلم أنى كان وحيثما وجد — من الأوقاف الإسلامية .

فكان التدخل في مسائل التعليم الإسلامي على هذه الصورة من أظهر الوسائل التي عمد إليها المستعمرون للقضاء على الثقافة العربية الصحيحة بأوسع معانيها . وعلاوة على ذلك فقد سعى الطليان سعيا حثيثا حتى يطمسوا في الوقت نفسه كل معالم العروبة في البلاد واتخذوا لذلك تدابير عدة ، فغيروا في المدن أسماء الشوارع والميادين والحارات واستبدلوا بها أسماء إيطالية كتبوها بحروف إيطالية فاختفت الأسماء العربية القديمة من بنغازي ودرنة والخمس وجميع المدن الساحلية خصوصا .

وكان من أثر محاولاتهم القضاء على اللغة العربية أنهم صاروا يحولون دون وصول الخطابات إلى أصحابها ما دامت هذه غير معنونة باللغة الإيطالية . وزيادة على ذلك فقد دأب الطليان على إظهار إحتقارهم لكل لباس عربي وازدراء صاحبه ازدراء شديدا والسخرية منه حتى إن

كثيرين من الليبيين اضطروا إلى تغيير الزى العربى فرارا من الإهانة فى بلد لا يملكون فيه رفع الأذى عن أنفسهم ، ثم أرغمت الحكومة المديرين والعمد العرب على ترك زيهم وأن يستبدلوا به الزى الأفرنجى .

بيد أن هذه المحاولات جميعا ما كانت لتفت من عضد الليبيين الذين ظلوا متمسكين بالعروبة ، فذهبت جميع المساعى التى بذلها الطليان لاجتثاث أصولها أدراج الرياح . وأظهر الليبيون شعورهم المكبوت فى كل مناسبة ، وكانت المناسبات التى أفصحوا فيها عن حقيقة شعورهم كثيرة ، لعل من أبرزها ما حدث فى مدينة طرابلس فى غضون عام ١٩٣٧ عندما حدث فى إحدى دور السينما أن بدت فى أثناء العرض سفينة مصرية تحمل علمها المصرى فأخذ الحماس من جمهور النظارة الليبى كل مأخذ ، واندفعوا يصفقون تصفيقا شديدا وطويلا بدرجة أثارت حنق النظارة الطليان وغيظهم فقابلوا هـــذه المظاهرة بصفير الاستهزاء والسخرية وارتفع الصياح من كل جانب وعلا الضجيج واشتبك الفريقان فى مشادة عنيفة لم يفضها سوى تدخل الشرطة . وقد تكرر هذا الحادث عندما مثلت فى العام نفسه رواية صلاح الدين الأيوبى .

على أن أهم ما لجأ إليه الطليـان لتحقيق مآربهم الاستعمارية كان إنزال ضروب التقتيل والتشريد والتعذيب بالليبيين لإبادتهم وإفنائهم حتى إن الطليان ارتكبوا من الفظائع فى العهد الفاشيستى ما لم يحدث له نظير فى كل تاريخ إستعمارهم . ذلك أن الفاشيست ما لبثوا عند بدء حكمهم فى عام ١٩٢٢ حتى قبضوا على عدد عظيم من العرب ألقوا بهم فى السجون ظلما وعدوانا لأسباب تافهة أو من جراء وشاية كاذبة .

وبمجرد أن نقضت حكومتهم عهودها واستؤنف الجهاد عمد الطليان إلى الانتقام لأنفسهم من المجاهدين بتوقيع عقوبات الإعدام والنفى والتشريد على الأهلين العزل فى البلدان التى سقطت بأيديهم فقتلوا فى عام ١٩٢٣ من أهالى أقضية جفارة وزليطن ومسلاته ومصراته عند احتلالها ما يزيد على ألف رجل صبرا أمام نسائهم وأطفالهم ، بل إنهم أمعنوا فى إجرامهم بصورة تجرح العزة الإنسانية وكرامتها وتدل على الجبن والنذالة فأتوا بعشرة سيدات من أهل جفارة فجردوهن من ثيابهن وشنقوهن عاريات وأبقوهن سبعة أيام معلقات على هذه الحالة وعلاوة على ذلك فإنهم ما لبثوا حتى أحرقوا عدة قرى فى ضواحى أقضية طرابلس وبنغازى ومصراته ودرنة كما أحرقوا القرى بمن فيها فى نواحى مسلاتة وزليطن ومصراته عند احتلالها كان الغدر والخيانة من الوسائل الفعالة التى لجأ إليها الطليان لإبادة الليبيين وتنفيذ مآربهم إن حكومتهم كثيرا ما كانت تعلن العفو عن الأهلين وتؤمنهم على حياتهم وأموالهم حتى إذا طمأنت نفوسهم واستسلموا للحكومة فتكت بهم وصادرت أموالهم .

وقد ذهب ضحية هذا الغدر عدد عظيم من رؤساء القبائل وكبار الليبيين ووجهائهم ؛ ولا يزال الليبيون يذكرون والحسرة تملأ قلوبهم والألم يحز فى نفوسهم ما فعله الطليان بهم عندما احتفلوا فى مدينة طرابلس فى ١٨ أكتوبر ١٩٢٣ بمرور السنة الأولى على زحفهم المزعوم على رومه ، فقد صاروا يطلقون الرصاص فى أثناء هذا الاحتفال فى الشوارع والطرقات ويصوبون أسلحتهم إلى صدور المسلمين ، ثم لم يتورعوا عن اقتحام المساجد وراء اللاجئين إليها ، فظلوا يقتلون ويجرحون من عثروا عليهم فى داخل المساجد حتى كانت مجزرة كبيرة لم يوقف شرها بعد فوات الوقت وسفك الدماء الغزيرة سوى تدخل السلطات المحلية ، ثم اتضح فيما بعد أن سبب هذه المذبحة كان رغبة الطليان فى الانتقام من هزيمة لحقت بهم على أيدى المجاهدين فى زاوية المحجوب بقضاء مصراته .

وواقع الأمر أن حب الانتقام والتشفى من المسلمين كان يزداد لدى الطليان عاما بعد آخر بقدر إصرار المجاهدين على الكفاح وإلحاق الهزيمة بالعدو المغتصب حتى إنه عند مجىء الماريشال بادوليو حاكما على برقة — طرابلس فى عام ١٩٢٩ كان الضغط على الليبيين قد بلغ أقصى حدوده مما جعل كثيرين منهم يفضلون الموت « فى أحضان الصحراء المحرقة » على البقاء فى ظل حكومة تريد إفناءهم وإبادتهم . فبلغ عدد الليبيين الذين هاجروا إلى السودان الغربى الفرنسى فراراً من ظلم الطليان وجورهم فى مدة ست سنوات فحسب حوالى ربع مليون مسلم. وقد حدث فى عام ١٩٢٨ حادثان أليمان دل أحدهما ، ولم يكن الأول من نوعه على أن الطليان ما كانوا يعرفون للأعراض قيمة ، « فطالما هتكوا حرمات وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات » وذلك بأن ثلاثة من ضباطهم فى قضاء جالو طلبوا ثلاث عربيات للاستمتاع بهن « فتمكنوا من اغتصاب اثنتين وأما الثالثة فقد قربها أبوها » وبحث من براثنهم . وأما الحادث الثانى فكان يدل على تفنن الطليان فى ابتكار أساليب التنكيل بالأهلين المسالمين، وتلخص وقائع هذا الحادث فى أنهم « ألقوا جماعة منهم الشيخ عبد الحسيب أباعمران البرعصى والشيخ الكدن العبيدى وأحمد خليل السعيطى من طيارة من علو ٤٠٠ متر من المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر . وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدى وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما إلى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما إربا إربا أمام قبيلتهما المتسللة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستى فى تاكنس » .

وعندما فشلت مساعى الطليان فى استمالة السيد عمر المختار وبقية المجاهدين إلى التسليم للحكومة نقض بادوليو العهد الذى قطعه على نفسه فى اجتماع سيدى رحومة وأحضر الطليان (جزار طرابلس) غرزيانى صاحب السمعة السيئة لقيادة العمليات العسكرية ، وبدأ الطليان

صفحة أخرى كانت من أسود الصفحات التي زخر بها تاريخ استعمارهم ، ذلك بأن غرزياني ما لبث حتى شمر عن ساعد الهمة والنشاط في تنفيذ خطة الإبادة والإفناء في أبشع صورها .
فكانت أهم وسائله في تحقيق ذلك اثنتان : إنشاء المحكمة العسكرية الخاصة أو المحكمة الطائرة ، ثم حشد العرب في المعتقلات التي تحوطها الأسلاك الشائكة . وكان إنشاء المحكمة الطائرة في ابريل ١٩٣٠ ، وعقدت أول اجتماعاتها في المرج وذلك لمحاكمة رجلين من العرب اتهما بقتل أحد الطليان ومحاكمة ثلاثة آخرين اتهموا « بالتستر » على المجاهدين . فأصدرت المحكمة حكمها بإعدام الجميع ونفذ الحكم في الرجلين الأولين وأما الثلاثة الآخرون فقد استبدل بهذا الحكم السجن مدة ثلاثين عاما ، وذلك — على حد قول غرزياني — لأن هذه كانت أول محاكمة من نوعها . وفي اليوم التالي أصدر غرزياني منشوراً وجهه إلى مشائخ ورؤساء برقة يذكر فيه ما حدث وينذرهم بأن الحكومة سوف تعتبر المضالعة مع المجاهدين والتستر عليهم خيانة للدولة ، نصيب مرتكبيها الاعدام ، « وإن استبدال السجن بالإعدام في هذه الدفعة لم يكن إلا منا من الحكومة وكرما فحسب » أما وقد أنذر الاهلون فإن أحكام الاعدام سوف تنفذ في التو والساعة . وقد سوغ رئيس هذه المحكمة الجنرال أوليڤيرى انشاءها عندما خطب في حضور لسونه وكيل المستعمرات الايطالى عند زيارته للبلاد في يونية ١٩٣١ فقال إن هناك صلة قوية تربط بين « الثوار » وبين الأهلين الذين خضعوا لسلطان الحكومة . وأن المشائخ والرؤساء في المناطق الخاضعة للحكومة ما زالوا يمدون المجاهدين بالأموال فيرسلون إليهم العشور — أموال الزكاة — من المرتبات التي كانت تدفعها لهم الحكومة ، ثم هم فضلا عن ذلك يستخدمون ما لديهم من نفوذ بين الأهلين في مصلحة المجاهدين بينما يتظاهرون أمام الطليان بالولاء للحكومة . وزيادة على ذلك فإن هؤلاء المشائخ والرؤساء كانوا يحثون العرب في المناطق الخاضعة للطليان على الانخراط في سلك الجندية وذلك حتى يستطيعوا إمداد « الثوار » بالسلاح والذخيرة وبعض المال الذي يقتطعونه من مرتباتهم . بل إنهم كثيراً ما كانوا ينضمون بأسلحتهم ومؤنهم إلى المجاهدين عند ما يأتيهم الأمر بذلك . وكان مما زاد الطين بلة أن القوات الإيطالية التي تخرج للاشتباك مع « العدو » كثيراً ما كانت تجد نفسها — على حد قول أوليڤيرى — مشتبكة في مناوشات عدة من جراء الهجوم على جناحيها ومؤخرتها ، وما كان يفعل ذلك سوى أولئك الأهالي الذين قدموا خضوعهم للحكومة . وكان بعد أن فرغ أوليڤيرى من خطبته أن اتخذت عدة تدابير من بينها إقرار المحكمة الطائرة على المضى في خطتها من غير شفقة أو رحمة . وكانت هذه المحكمة الخاصة تنتقل بالطائرة إلى المكان الذي يقع فيه « الحادث » حتى « تنزل العدالة من السماء ! » على حد قول غرزياني ، فتعقد

جلساتها فى الهواء الطلق فى الميادين العامة فى المدن وعند النواجع . وكانت إجراءات المحاكمة والتنفيذ تتم بسرعة عظيمة فلا يسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم ولا تفحص المحكمة شهادة الشهود ، بل يكفى مجرد الاتهام لاستصدار الحكم بالإعدام على المتهمين . وقد شهد إحدى جلسات هذه المحاكمة الرحالة الدانمركى كنود هلبيو الذى زار برقة فى غضون عام ١٩٣٠ فوصف إجراءات المحاكمة الطائرة وأساليبها .

فقد وقع حادث فى درنة فى شهر مايو من عام ١٩٣٠ ملخصه أن رجال الشرطة الطليان (الكربنيرى) اكتشف ذات يوم أن أربعة من العرب المقيمين فى معسكر أعد لهم خارج أسوار المدينة ، وكان هؤلاء قد استسلموا للطليان فنزعت السلطات سلاحهم ، — اكتشف أن هؤلاء العرب الأربعة قد أعطوا خبزاً وطباقا إلى المجاهدين فى الجبل خفية ، فألقى القبض عليهم فوزاً وأودع الأربعة السجن وأثار القبض عليهم وسجنهم اهتماما عظيما فى درنة ، فذكر كثيرون كيف أن العرب فى معسكرهم كانوا على وشك الموت والهلاك جوعا لأن المجاهدين من جهة ظلوا يشنون الغارة عليهم بسبب تسليمهم بينما منعهم الطليان من جهة أخرى من الدفاع عن جمالهم وأغنامهم بسبب منعهم من حمل الأسلحة . أما أكبر الأربعة الذين قبض عليهم الطليان فكان رجلا مسنا بلغ السبعين من عمره يعول زوجة وتسعة أولاد ، وكان الثانى يبلغ الأربعين وله ثلاثة أطفال صغار أما الثالث فكان فاقد النطق والسمع ، بينما كان الرابع شقيقا للأول ولا زوجة له . وقدمت مسألة هؤلاء الأربعة للفحص أمام المحكمة العرفية فأحضرت الطائرة القاضى إلى درنة فى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ٢٩ مايو وجرى فحص المتهمين فى جلسة علنية حضرها كنود هلبيو ، وجرت المحاكمة باللغة الإيطالية وعهد بالترجمة إلى الأستاذ على الجربى — وكان الأستاذ على أسعد الجربى قد انتهز فرصة زيارة الرحالة الدانمركى لبلاده فأمده بمعلومات كثيرة تكشف عن حقيقة الاستعمار الإيطالى فى ليبيا ، ثم مكن كنود هلبيو من أن يتصل فى الخفاء بكثير من أبناء ليبيا الذين أرغموا إرغاما على خدمة الحكومة الإيطالية وسيف القوة الغاشمة مسلط على رؤوسهم ، فاستطاع الرحالة الدانمركى بفضل ذلك أن يرسم صورة واضحة لفعال الطليان بالأقطار الليبية . وقد كلفت السلطات الحكومية عند وقوع حادث درنة الأستاذ على الجربى بمهمة نقل أسئلة المحكمة إلى اللغة العربية ونقل إجابة المتهمين إلى الإيطالية .

وبمجيء المتهمين الأربعة أمام المحكمة التى تألفت من رئيسها وبعض الضباط الطليان ، بدأ القاضى بسؤال أكبر المتهمين سنا ويدعى أحمد بن عبد القادر طالبا منه الاعتراف بإعطاء

الخبز والطباق للجاهدين . وعندما صمت المتهم ولم يجب صرخ القاضى فى وجهه ووخزه أحد الشرطة فى ظهره فأجاب المتهم بالايجاب ، وعندئذ قال القاضى « حسنا يكفى هذا ! المتهم الثانى ! » . وفى أقل من لحظة كان القاضى قد حصل من المتهم الثانى على إجابه تشبه إجابة الأول ، فنحى جانباً . ولما كان المتهم الثالث أصما أبكما فقد ترك دون سؤال ؛ ثم جاء دور المتهم الرابع وهو أصغر المتهمين سنا ويدعى (إدريس) وتبدو عليه النجابة . فأعاد عليه القاضى نفس السؤال وطلب منه الاعتراف بجرمه . ولكن إدريسا رفض أن يفعل ذلك ، ثم قال « إن المجاهدين ولا شك كانوا يأخذون أغنامنا إذا رفضنا اعطاءهم الخبز والطباق ، وليس لدينا ما ندافع به عن أنفسنا فكيف نستطيع إذن أن نمنعهم ! » فلما قال القاضى « كان فى وسعك أن تطلب (الكربنيرى) من درنة » . أجاب « إن القرآن الكريم يمنع تسليم المسلمين للسيحيين » فلم يأبه القاضى بطبيعة الحال بهذا الدفاع وأصدر حكمه على الفور بإعدام ثلاثة منهم باطلاق الرصاص عليهم من وراء ظهورهم « كما يجب أن يعامل أولئك الذين يخونون إيطاليا » على حد قوله ، وأطلق سراح الأبكم الأصم . ولما سأل أحمد بن عبد القادر بواسطة الترجمان الأستاذ على الجربى ، عما إذا كان مستطاعا أن يخفف هذا الحكم رحمة بأولاده التسعة قال القاضى « لا تعرف المحكمة العرفيـة سوى أحد أمرين ، إما البراءة وإما الإعدام ! » . وعندئذ وضعت الأغلال فى أيدى الرجال الثلاثة وأركبوا سيارة كبيرة سارت بهم فى الطريق المؤدى إلى السجن ، ولكن لم يلبث أن أنقطع صوت محركها فجأة ، فخيم على المكان سكون عميق ، حتى إذا انقضت خمس دقائق فقط دوى فى الفضاء صوت أعيرة نارية كثيرة أطلقت جميعها فى وقت واحد ، ثم أعقبها صوت طلق نارى منفصل . فلما استفسر كنود هلمبيو عن السبب أجابه عربى « لقد تعودنا يا سيدى سماع ذلك لأن هؤلاء التعساء لا يموتون سريعا عندما يطلق الرصاص على ظهورهم من الخلف ، ولذلك يتقدم أحد الضباط للاجهاز على كل من يبقى فيه رمق من الحياة باطلاق رصاصة على رأسه » .

تلك كانت قصة المحكمة الطائرة التى ابتكرها شيطان غرزيانى « جزار ليبيا » ويقول غرزيانى منشئها أن هذه المحكمة فصلت فى أربعمائة حادث فى المدة المنقضية من وقت انشائها فى ابريل ١٩٣٠ إلى شهر مارس من العام التالى أى فى أثناء السنة الأولى فقط من حكم غرزيانى فى برقة . وكان عدد المتهمين الذين اشتركوا فى هذه الحوادث سبعمائة لم تستطع الحكومة أن تقدم منهم للمحاكمة سوى ثمانى وأربعين وأربعمائة فحسب لأن فريقا من المتهمين تمكنوا من الفرار واضطرت الحكومة إلى حفظ الدعاوى المقامة ضد فريق آخر منهم لأسباب شتى . وأصدرت المحكمة أحكاما بالاعدام والسجن ضد خمسين ومائتين منهم ثم

برأت الباقين لعدم ثبوت أى شىء ضدهم . ومع ذلك فان غرزيانى وغيره من الطليان لم يذكروا شيئا عن نشاط هذه المحكمة الطائرة فى السنوات التالية . وكان الذى دفع غرزيانى لإثبات هذه الإحصائية خلال عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ محاولته أن يدفع عن نفسه تهمة سفك الدماء التى ألصقتها به الصحف فى جميع أنحاء العالم العربى والإسلامى على وجه الخصوص ثم فى بعض البلدان الأوروبية .

على أن ما ارتكبه جزار ليبيا من فظائع تقشعر من هولها الأبدان عند ما حشد العرب فى معسكرات الاعتقال كان يفوق كثيرا تلك المجازر التى وقعت على أيدى قضاة المحكمة الطائرة وجلاديها . فقد تقدم كيف أن جمع العرب وحشدهم فى معسكرات الاعتقال كان أحد التدابير التى زعم غرزيانى أنه لامناص من اتخاذها لمنع كل صلة بين الأهالى والمجاهدين بقيادة السيد عمر المختار فى الجبل الأخضر . وكان القضاء على المقاومة فى الجبل من المسائل التى شغلت تفكير غرزيانى وعكرت عليه صفو الحياة فعقد العزم على اتباع كل طريقة من أجل إخماد هذه المقاومة والقبض على السيد عمر المختار ؛ من ذلك أنه وضع جائزة مالية كبيرة لكل من يأتيه بالمختار حيا أو ميتا ، وفى ١٨ مايو ١٩٣٠ أرسل منشورا إلى دوائر الحكومة حتى تبذل قصارى جهدها فى استمالة الأهالى وحضهم على مساعدة الحكومة والابتعاد عن مؤازرة المختار ، بل وحملهم على محاربة « الثورة » ذاتها وفى ٢٢ مايو زار غرزيانى الأبيار وجمع أعيانها وخطب فيهم شارحا سياسة الحكومة ، ويبلغهم عزمها على نزع الأسلحة ويحذرهم من الاتصال بالثوار . فنشرت جريدة (بريد برقة) هذه الخطبة ووزعت منها ألوف النسخ فى أنحاء البلاد . وفى عدد آخر أذاعت (بريد برقة) خبر اجتماع عقده غرزيانى فى «مكتبه» تكلم فى أثنائه عن تلك المرتبات الضخمة التى تدفعها الحكومة للأعيان دون أن يفعل هؤلاء شيئاً فى نظير هذه المرتبات التى يتقاضونها والتى ربما كانت تزيد فى بعض الأحيان على ما يتقاضاه غرزيانى نفسه بوصفه نائب الوالى فى برقة . وكان غرزيانى يقصد بقوله هذا الشارف الغريانى. ثم أضاف «وأما إذا أردتم أن تقيموا البرهان على أنه فى مقدوركم أن توقفوا الثورة فالوسيلة الوحيدة لذلك هى أن تأتوا إلى قائلين أن عمر المختار قد حضر بعساكره أمام أبواب بنغازى يريد أن يسلم نفسه للحكومة دون قيد أو شرط » . ثم ذكر غرزيانى أنه عمد إلى جمع نواجع الأهالى حول المراكز حتى يقطع كل اتصال قد يحدث بينهم وبين الثوار . وأخذ غرزيانى يصف أعمال العمران التى تمت فى طرابلس نتيجة لانتهاء المقاومة بها ووعد بإرسال من يشاء من الحاضرين إلى طرابلس حتى يروا بأنفسهم ما تم من هذه الأعمال العمرانية الباهرة بفضل استقرار السلام والهدوء فى طرابلس . ومما يجدر ذكره أن غرزيانى ما لبث أن حقق وعده

فتألف وفد من البرقاويين يضم السيد عمر فخرى المحيشي والدكتور على نور الدين العنيزى والشيخ محمد بن مسعود والشارف الغرياني وجماعة آخرين، وقد سافر هذا الوفد إلى طرابلس. ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة . وعندئذ لم يجد غرزياني على حد قوله ، وكما كتب بعد ذلك يبرر فعلته الشنيعة مناصا من البدء فى حشد العرب فى المعتقلات بصورة جدية .

واستهل غرزياني عمله الوحشي بأن جمع (٨٩٦) أسرة من قبيلة العبيد وحشدها بالقرب من المرج ، ثم جمع (١٤٠٠) أسرة من الدرسة حشدها بالقرب من طلميثة ، وجمع فى منطقة درنة (٣٦٠٠) أسرة كانت تمتد خيامها إلى ناحية المخيلى ، وفعل مثل ذلك أيضا فى منطقة شحات . وفى شهر يونيو ١٩٣٠ كانت قد اتسعت دائرة هذه الأعمال لحشد غرزياني جميع أهل الدفنا فى عين الغزالة . وكان حشد العرب فى عين الغزالة من المآسي التى لا يمحو ذكراها الزمن . فقد أنذرت الحكومة جميع الأهالى فى برقة الشرقية بالاجتماع فى عين الغزالة فى خلال ثلاثة أيام فقط وأنذرت كل من يتخلف منهم بالشنق ومصادرة أمواله « فنهضوا جميعا والقوة تسوقهم سوق الأنعام تاركين أثاثهم وأمتعتهم وغلالهم حتى إذا وصلوا إلى عين الغزالة حصرهم الطليان فى أراضى ضيقة وطوقوهم بالأسلاك الشائكة ثم جلدوهم بالسياط كل رجل ثلاثين جلدة ، وكل امرأة وطفل خمس عشرة جلدة ، وأخذوا عليهم العهود بألا يخرجوا من نطاق الأسلاك الشائكة ، وأنذروا من يفعل ذلك منهم بالقتل رمياً بالرصاص . فهلكت النساء والأطفال من قلة الطعام . وفضلا عن ذلك فقد أمرت السلطات الرجال بالذهاب إلى مقر القيادة . فلما حضروا احتجزتهم أمام الرشاشات بينما انطلق الجنود يفتشون « بيوتهم » ويرتكبون فيها الفظائع فهتكوا أعراض الأبكار والثيبات وتفننوا فى الفجور وفعل المنكر والجور ما لا يخطر ببال » . وفى الوقت الذى حشد فيه أهل دفنه فى عين الغزالة، حشد الطليان العبيدات فى درنة والحاسة فى شحات والسلاطنة والعرفة والعبيد فى المرج والبراعصة فى مراوه والعواقير بين توكره وسلوق وأهل الأبيار فى منطقة الأبيار ذاتها والمغاربة فى منطقة سرت وامتدت معتقلاتهم من اجدابية ومرسى البريقة إلى العقيلة » .

ولما كان المجاهدون فى منطقة قايد لا يزالون يبدون من ضروب البسالة ما أثار حفيظة غرزياني واعتقد جزار ليبيا أن الأهالى جميعا « ومن غير استثناء كانوا على حد قوله — يعضدون عمر المختار كما اعتادوا أن يفعلوا دائما » فقد قرر غرزياني فى ٢٥ يونيه أن ينقل أهل الجبل الأخضر جميعا إلى طلميثة وإلى الجهة الغربية منها . وعلى ذلك فقد تم حشد العواقير فى منتصف يوليه داخل مربع من سلوق إلى قمينس ، إلى زاوية الطيلمون إلى جردينة ، وكانوا يبلغون سبعة آلاف أسرة . ثم حشد أهل الجبل فى معتقل يمتد من طلميثة إلى سيدى خليفة

وأقام أهل النواجع بين شحات ودرنة فى معتقلات منفصلة . أما أهل دفنا فقد حشدهم فى عين الغزالة وعكرمة وطبرق . وظل المغاربة فى معتقلاتهم بين إجدابية والعقيلة . وفى آخر يوليه نقل غرزيانى قبائل العبيدات إلى بوترابة أولا ثم إلى المبنى بالقرب من توكره . ولما كان لا يزال غير مقتنع بما فعل ويرى اتخاذ تدابير أكثر صرامة وشدة فقد قرر غرزيانى أن ينقل معسكرات الاعتقال إلى الزاوية الغربية من منطقة سرت . وفى أوائل أغسطس ١٩٣٠ بلغ عدد العائلات التى حوصرت من المغاربة بين العقيلة وإجدابية (٢٢٥٢) أسرة ، ثم فى سيدى أحمد المقرون (٢٨٦١) عائلة من البراعصة والدرسة ؛ ثم بين سلوق وسوانى ترية والأبيار ، وبين بنغازى فى دريانة (٧٤١٧) عائلة من العواقير والعبيد والعرفة ، وبقى فى عين الغزالة (١٢٢٣) عائلة وفى الجبل بالقرب من المرج (٥٣٨) عائلة من قبائل مختلفة . وحشد غرزيانى فى مرسى سوسه (أبولونيا) ١٣٥٤ عائلة من الحاسة ، وفى درنة (١٤٣) عائلة . وقد أحيطت كل هذه المعتقلات بالأسلاك الشائكة ، وصارت توزع الأغذية على هؤلاء البؤساء بقدر معلوم ، ثم منعوا من استخدام المراعى إلا فى نطاق ضيق حول هذه المعتقلات ، كما منعوا من مغادرة المعتقلات إلا «بتصاريح خاصة» وفى حالات استثنائية نادرة .

وفضلا عن ذلك فقد أنشأ غرزيانى معتقلا خاصا فى العقيلة ذاع صيته بفضل أعمال القسوة والإبادة والافناء التى كانت ترتكب به . أقامه غرزيانى خصيصا حتى يعتقل به أقارب «الثوار» بدعوى أن هؤلاء كانوا أشد ميلا من غيرهم لمساعدة المجاهدين والتستر عليهم . ثم اتخذ غرزيانى من معتقل العقيلة مركزاً تجرى فيه السلطات الحكومية توقيع العقوبات — من إعدام ونفى وتشريد وجلد — على العرب الذين قد يرتكبون مخالفات ما فى المعتقلات الأخرى . ولذلك أطلق على معتقل العقيلة اسم (معسكر العقوبات) وإلى جانب ذلك كله بادر غرزيانى بإبعاد (الأعيان) الذين كان يشك فى إخلاصهم للحكومة ويعتقد فيهم المضالعة مع «الثوار» أو عرقلة أعمال الحكومة فى بنغازى ، فنفاهم إلى جزيرة «أوستيكا» ، وكان من بين هؤلاء المنفيين عمر باشا منصور الكخيا .

على أن المعتقلين على الرغم من صرامة الإجراءات المتخذة ضدهم ظلوا يتحينون الفرص للإفلات من هذه السجون الرهيبة والانضمام إلى المجاهدين فى الجبل الأخضر ، فاستطاع عدد من قبائل العبيدات والدرسة والعواقير والبراعصة والمغاربة والحاسة أن يفروا إلى دور المجاهدين فى الجبل . وهدد غرزيانى المعتقلين على أثر ذلك بتوقيع العقوبة على عائلات كل أولئك الذين يعمدون إلى الفرار من المعتقلات وينضمون إلى أدوار المجاهدين ، ولما كانت المراعى المخصصة لإبل وأغنام هؤلاء المعتقلين ضيقة ولا يكفى ما بها من كلأ لتغذية الحيوانات

فقد نفق عدد عظيم من الإبل والأغنام وخرجت قطعان أخرى تطلب الكلأ فى الجهات المجاورة فأعطى ذلك الفرصة للمجاهدين حتى يعثروا عليها ويأخذوها إلى أدوارهم . وعندئذ استبد الوهم بالجنرال غرزيانى فخيل اليه أن المعتقلين إنما يتركون أبلهم وأغنامهم عامدين حتى يستولى عليها «الثوار» وعد هذا العمل ضربا من المقاومة السلبية . ولذلك فقد أصدر منشوراً فى ٧ أكتوبر ١٩٣٠ قال فيه إن غرض المعتقلين من ترك إبلهم وأغنامهم إنما هو دفع «العشر» أو مال الزكاة إلى المختار وتوعد المعتقلين إذا هم لم يمنعوا إبلهم من طلب المرعى خارج المناطق المعينة لها بأن تمنع عنهم الأغذية منعا باتاً حتى تهلكهم المجاعة . وعندما ظل جماعة من هؤلاء العرب الشجعان يتسللون من المعسكرات للانضمام إلى المجاهدين أنزل غرزيانى العقوبة الصارمة بعائلاتهم . مثال ذلك ما حدث من فرار خمسة من قبيلة العبادلة البيض فقد اقتص غرزيانى لذلك من القبيلة بأجمعها وعددها ثمانون عائلة فصادر مواشيهم ونقلهم إلى العقيلة . وأمعن غرزيانى فى أعمال الإبادة والافناء فهلك ألوف الأهلين الذين حشدوا فى هذه المعسكرات جوعا وانتشرت بينهم الأمراض الفتاكة ونفقت إبلهم وماشيتهم ووهنت قوى الأحياء منهم بدرجة خطيرة ، فارتفع صراخ هؤلاء وراجعوا الحكومة الايطالية وشكوا لها موت ذراريهم ونفق مواشيهم ، فما زادها ذلك الامضاء فى عزيمتها . ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين فى سن البلوغ إلى الخامسة والأربعين وأدخلتهم فى سلك الجندية .

وقد كان لهذا الهلاك والفناء الذى نجم من حشد العرب فى هذه المعتقلات أعمق الأثر فى تأليب شعور العالم الإسلامى وشعور العرب قاطبة ضد إيطاليا ؛ وفضلا عن ذلك فقد إنبرت الصحف فى الدول الأجنبية التى كان من سياستها معارضة المبادىء الفاشيستية والديكتاتورية الإيطالية تحمل على حكومة موسولينى وحكومة جزار ليبيا حملة صادقة . واضطر غرزيانى إلى الدفاع عن نفسه فكان دفاعه سقيما ملؤه الغرور والعجرفة ، فقال إنه كان يسترشد بتلك المبادىء والتعاليم العظيمة التى اعتنقها عظماء الرومان القدماء أمثال قيصر وتاسيتوس وغيرهما فضلا عن مكيافللى الذى قال فى كتابه الشهور إن الأمير يجب أن يضرب صفحا عما قد تجلبه أعمال القسوة والصرامة من سمعة سيئة ما دام غرضه من هذه الأعمال الوصول إلى جمع كلمة رعاياه وتوحيدهم وكسب ثقتهم وإخلاصهم ، لأن إنزال العقوبة الصارمة بعدد قليل من هؤلاء الرعايا إنما هو فى واقع الأمر عمل ينطوى على الرحمة والشفقة ، إذ أن أخذ الناس باللين والشفقة المتزايدة من شأنه المساعدة على انتشار الفوضى وكثرة وقوع حوادث القتل والسرقة . وعلاوة على ذلك فقد اتخذ غرزيانى — على حد قوله — شعاره القاعدة التالية «سلام المجموع يجب أن يكون دائما القانون الأعلى» . وحيث إن بقاء البدو فى تواجعهم

انتقالهم المستمر من مكان إلى آخر هو خطر دائم ، فالواجب يقضى إذن بوضعهم تحت إشراف الحكومة . ولما كانوا لا يستطيعون الاستقرار ومزاولة فنون الزراعة بنجاح ثم بعد أن أقاموا الدليل بعد الدليل على إنهم أداة فساد فى كل مكان يحلون به فقد أصبح من واجب الحكومة أن تعمل على ترحيلهم من الأراضى الخصبة بالجبل الأخضر إلى المنطقة الواقعة عند حافة الصحراء ، أى إلى منطقة المراعى وإحكام الرقابة عليهم وهذا بينما تعطى الحكومة أرض الجبل الغنية بخيراتها إلى ألوف الأيدى الايطالية العاملة التى تنتظر بفارغ الصبر العودة إلى هذه المقاطعات الرومانية القديمة وتعميرها .

ذلك كان دفاع غرزيانى عن نفسه . ومما يجدر ملاحظته أنه اتخذ من محاولة « تعمير » الأرض وتهيئة السبل « للعمرين » الطليان حتى يستقروا بالجبل الأخضر ذريعة لارتكاب الجرائم التى أعطته لقب (جزار ليبيا) عن استحقاق وجدارة . فان هذا « التعمير » ذاته كان كارثة كبرى حلت بالليبيين سوف يأتى ذكرها مفصلا بعد هنيهة . وفضلا عن ذلك فان غرزيانى نفسه لم يفعل شيئا يستحق الذكر فى هذه الناحية ، فسار « التعمير » بخطى متثاقلة فى عهده . والسبب فى ذلك أن كل ما كان يشغله فى الحقيقة هو القضاء على «الثورة» والعمل على إبادة الليبيين وإفنائهم ، ولذلك فإنه كثيراً ما صار يستند فى كل ما يقدمه من حجج لتبرير أفعاله الشنيعة إلى رغبته فى منع الاتصال بين الأهالى والمجاهدين فى الجبل بقيادة السيد عمر المختار ، فذكر هذا السبب الواهى فى جميع خطاباته ؛ وكانت هذه الحجة العقيمة مثار احتجاج عنيف من جانب كل أولئك الأحرار الذين قض مضاجعهم رؤية شعب بأكله يفنى فى المعتقلات من غير ما شفقة أو رحمة .

ولا ريب فى أن منع الاتصال بين الأهالى والمجاهدين كان من المزاعم التى لا يقصد بها سوى التضليل فحسب ، وصفها المرحوم الأمير شكيب أرسلان بأنها « كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل ، إذ كيف تقدم الحكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مساقط رؤوسها خشية أن يتصلوا بخمسمائة ثائر لا غير ؛ ثم إن الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذى ما فتىء يجاهدهم من عشرين سنة وشنقوه بمحضر جم غفير من أبناء جلدته فقضى إلى ربه شهيداً وبكاه العالم الإسلامى بأجمعه وانطفأت الثورة من كل برقة ، ومع هذا لم ترض الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الأهالى إلى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم إلى الجبل الأخضر يحرثون ويزرعون لا كمالكين بل كعملة فى الأملاك التى نزعتها الحكومة الإيطالية منهم ونقلتها إلى المستعمرين الطليان » .

وقال عبد الرحمن عزام — ولم يفتر العزام لحظة عن مراقبة الحوادث فى ليبيا ، « إن الناصر

يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الاسبانيول بالمسلمين هناك ، وما لهم وللأندلس ولأمور جرت فى القرون الوسطى ، فأمام أعينهم طرابلس الغرب ، فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس » .

ووصف مراسل جريدة ألمانية مشاهداته بعد زيارة معسكرات الاعتقال فى برقة فقال : « إن الانتقادات التى يوجهها الآن الفرنسيس والانجليز إلى خطة الفاشيست فى برقة موجهة فى الدرجة الأولى إلى التدابير التى اتخذها الجنرال غرزيانى لإجلاء ٨٠ ألف بدوى عن أراضيهم وحشدهم على شاطىء سرت حيث مد الطليان أسلاكا شائكة حول خيامهم دون أن يراعوا حالة هؤلاء البدو الروحية أو يلاحظوا تأثير مثل هذا القيد والحصار فيهم . . . ولا يجوز لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا فى النهار بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل أن يخيم الظلام وكل واحد من رؤساء القبائل والمتنفذين مسؤول عن أتباعه فرداً فرداً . . . إننا لا نريد أن نبحث هنا فيما إذا كان يحق مبدئيا لحكومة أوروبية أن تستولى بالقوة على بلاد شرقية لا تربطها بها أية رابطة ، وفيما إذا كان يجوز لها أن تسعى — على زعمها — فى تمدين السكان رغم إرادتهم وكراهتهم لهذه المدنية . إننا مرغمون على الاكتفاء بذكر الأرقام التى تعلنها السلطات الإيطالية نفسها . ومع ذلك يجب أن نقول إن الحالة سيئة للغاية تفوق كل تصور ، فإن معدل الأموات من الأطفال يبلغ ٩٠٪ وأمراض العيون التى ينتهى أكثرها بالعمى كثيرة جدا ومنتشرة انتشاراً هائلا ويكاد لا ينجو أحد من الأمراض . أما غذاء هؤلاء المساكين فالأحسن أن لا نتكلم عنه بالمرة . ومن الطبيعى أن نرى هؤلاء يتألمون أشد الألم وفى الدرجة الأولى من هذه الأسلاك الشائكة رمز الأسر ورغم تلاصق الخيام وشدة تقاربها ببعضها فإن حصرها ضمن أسلاك شائكة يجب أن يعتبر من المتناقضات الغريبة التى لا يتصورها العقل . إذ لا يجوز قطعا الجمع بين الخيام الحرة وبين الأسلاك الشائكة . لكن الطليان يختلف نظرهم هنا عن غيرهم فإنما هم يرمون إلى الاستيلاء على هذه البلاد وإخضاعها لا إلى التفكير فى صالح أهلها » .

وليت خطة الإفناء والإبادة التى جرى عليها الطليان اقتصرت على حشر العرب فى معتقلات الموت هذه ، ولكن غرزيانى صاحب المحكمة الطائرة العرفية لم يشأ أن يترك هؤلاء البؤساء وشأنهم ، فقد نزلت محكمته على الأهلين الذين حشروا فى عين الغزالة ذات مرة وحكمت فوراً على ستة أشخاص بالإعدام وعشرين آخرين بالسجن ، وكانت أقل مدة حكمت بها عشرين عاما . وفى أثناء حشر العرب فى المعتقلات ألحق غرزيانى وأعوانه بزعمائهم وشيوخهم صنوف الإهانات البالغة فزجوا بهم فى أعماق السجون وقتلوا من

وجهائهم رجلا يدعى الشيخ سعيد البرقاوى مع خمسة عشر شيخاً شر قتلة ، ذلك بأن ألقوا بهم جميعاً من الطيارات من علو شاهق على مشهد من أهلهم . فكان وكلما هوى منهم شخص صفق الضباط والجنود ساخرين منادين : فليأت نبيكم محمد البدوى الذى أغراكم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » .

وقد نال الطليان ولا شك بغيتهم بفضل هذه الأساليب الجهنمية فنقص عدد أهل البلاد فى القطر الليبى نقصاً فاحشا ؛ فقال غرزيانى فى محاصرة ألقاها فى ٢٣ نوفمبر ١٩٣٠ « أتيح لنا بواسطة حشد القبائل فى مناطق معينة القيام بإحصاء دقيق لسكان برقة فبلغ ٦٧٩٠٧٢ نسمة فإذا أضفنا إلى هذا العدد ٥٠٠ ألف نسمة تعداد طرابلس يبلغ الجميع ٦٧٩٠٧٢ نسمة » . ولما كان معروفا أن عدد سكان ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى فى عام ١٩١١ بلغ خمسمائة ألف ومليون نسمة ، فيكون النقص قد بلغ ٨٢٠٩٢٨ نسمة . وإذا استنزلنا من ذلك ٢٥٠ ألفاً اضطروا إلى الهجرة من ليبيا إلى السودان الفرنسى ، يكون من فتك الطليان بهم ٥٧٠٩٢٨ نسمة وأما كيف استطاع الطليان أن يفتكوا بهذا العدد الضخم فى مدة العشرين عاما التى قضوها فى هذه البلاد لغاية عام ١٩٣٠ ثم أولئك الذين أفنوهم فيما بعد . فمن الميسور معرفته من مراجعة أمثلة الإبادة والإفناء السالفة ، ثم تلك التى لا مندوحة من ذكرها عند تسجيل فظائع الطليان فى المدة التالية .

فقد استطاع غرزيانى بعد حشد البرقاويين فى المعتقلات أن يتم استعداده للزحف على واحه الكفرة فسقطت هـــذه الواحة فى قبضته فى الظروف التى سبق ذكرها . وقد ظل المجاهدون على قلتهم يناضلون ضد الطليان حتى استشهد منهم الكثيرون ثم اضطر الباقون بعد نفاذ ذخيرتهم إلى الانسحاب من الكفرة فكان انسحابهم وانسحاب بعض الأهالى المسالمين الذين غادروا الكفرة فراراً من ظلم الفاشيست بداية مأساة مروعة . ذلك بأن الطيارات الإيطالية ومجانة الطليان ظلت تطارد هؤلاء المنسحبين فى جوف الصحراء مسافة مائتى كيلو متر تقريبا تفتك بهم وتقتل جمالهم . وعند ما دخل الطليان الكفرة فى يناير ١٩٣١ لم يجدوا بها سوى الشيوخ والنساء والأطفال أى أولئك الذين أقعدهم المرض أو ضعف الشيخوخة أو العجز عن اللحاق بالمنسحبين والخروج معهم . ومع ذلك فقد استباح الطليان قرى هـذه الواحة ثلاثة أيام بطولها « ارتكبوا خلالها ما لا تتصوره الأذهان من نهب وسلب وتشنيع وسبى نساء وذبح شيوخ وأطفال وإحراق دور ومزارع وانتهاك حرمة المساجد ودوس المصاحف » . وكان من بين الذين لقوا حتفهم فى هذا الحادث المروع جملة من أفاضل الشيوخ وعلماء الدين السنوسيين كالسيد محمد بن عمر الفضيل والشيخ محمد والفضيل الديفار وحميده

الفضيل ثم الشيخ مختار الغدامسي وكان هرما مريضا يبلغ من العمر أرذله (٩٣ عاما) فحملوه مقيداً بالحبال على جمل فمات فى الطريق وكان من أجل علماء السنوسيين المعروفين بالزهد والتقوى . وقد وصف أحد الذين شهدوا « معركة » الكفرة فظائع الطليان فقال « ودخلوا الكفرة التى لم يبق فيها إلا الشيوخ والعجز والنساء والأطفال وانتشروا فيها وفى قرية التاج مستبيحين كل حرمة ونهبوا الأموال وذبحوا الشيوخ والأطفال ذبح الخراف وفتكوا بالنساء فتكا ترتعد له الفرائص وبقروا بطون الحوامل وكان نصيب الكثيرات من النساء الموت الفظيع لدفاعهن عن أعراضهن . وبالجملة فقد هتكوا أعراض ٧٠ عائلة من عائلات السادة الأشراف وجعلوا من الجوامع خمارات شربوا فيها الخمر وكانوا يجبرون النساء المسلمات اللاتى أحضروهن للفحش على شرب الخمر أو الموت شر ميتة ونثروا جميع المصاحف والكتب الشرعية فى زاوية التاج وداسوها وألقوها فى الاصطبلات تحت حوافر الخيل والبغال ... » .

ولعل أفظع ما فعله الطليان إلى جانب « دوس المصاحف » الكريمة كان اغتصاب النساء الأشراف . ويروى الأمير شكيب أرسلان قصة هذه الفعلة الشنيعة فيقول : « وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فأرسلوا قوة فى أثرهن فتأثروهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حيث خلا بهن ضباط الجيش الطليانى واغتصبوهن ، وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة وصرحت فى باب الافتخار قائلة : « إن الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك بأعيننا ولحظنا أن مقصود البلاغ العسكرى الايطالى التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن إلى الضباط . إلا أننا انتظرنا جلاء الأخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فما مضى شهر حتى وردت الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأن هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات فى أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن فى الصحراء وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزنا . وعلمنا أن بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم » . وفى مكان آخر يقول الأمير شكيب أيضا « إن الايطاليين قلبوا زاوية السادة السنوسية فى الكفرة إلى دار فسق وسكر وداسوا المصاحف الشريفة بالأرجل وعند ما كانوا يطبخون طعامهم كانوا يوقدون المصاحف تحت القدور » .

وأما من نجا من مجازر الكفرة فقد قصد بعضهم بلاد السودان واتجه البعض الآخر إلى

سيوة والفرافرة والواحات الداخلة ، ووصل أحد اللاجئين إلى ناحية البلاط التابعة للواحات الداخلة فى الأراضى المصرية فحدث بما لاقاه فى الصحراء من عناء وقال إن كثيرين من إخوانه ماتوا جوعا وعطشا كما أن كثيرين منهم لايزالون تائهين ، فاستطاع السيد عبد الرحمن الزهير مأمور الواحات وقتذاك أن ينقذ من الموت خلال ستة أيام ٤٥٣ نسمة ، ثم كان للمستر كلايتون مفتش الصحارى فى مصلحة المساحة المصرية فى ذلك الحين فضل كبير فى إنقاذ ٣٧ مسلماً من أهل واحة الكفرة ضلوا الطريق فى الصحراء الغربية عند مهاجرتهم إلى مصر

ومع أن إيطاليا أمام احتجاجات العالم الإسلامى قاطبة على هـــذه الفظائع لدى عصبة الأمم ولدى موسولينى نفسه حاولت أن تنفى الجرائم التى ارتكبتها فى طرابلس وبرقة ليس فقط فى حادث الكفرة بل وفى غيره من الحوادث . فقد كان وصول هؤلاء اللاجئين إلى الواحات المصرية برهانا ساطعا على كذب الطليان ناهيك عن قسوتهم ووحشيتهم ؛ كما قام دليل آخر على كذبهم وإجرامهم عند ما قذف البحر فى ذلك الحين وعلى مسافة قليلة من مرسى مطروح بأربعة عشر جثة لمسلمين من ليبيا أغرقوا فى البحر مكبلين بسلسلة واحدة . ومع هـذا وعلى الرغم من احتجاجات الأقطار الإسلامية والمظاهرات الكثيرة التى قامت فى أهم مدنها والبرقيات التى بعث بها أبناؤها استنكارا لهذه الفظائع واحتجاجا عليها ، فإن الحكومة الايطالية لم تجد ما تفعله حيال ذلك كله سوى الاصرار على المضى فى خطتهـا . فيقول (شونفيلد) : « وقد أصبح الجنرال (ثم الماريشال) رودلف غرزيانى الخادم المطيع لأسياده الفاشيست . فأطلقت يداه من أجل إخضاع البلاد وهو عمل كان يتفق تماما مع ميوله وهكذا شرع يحتل أرض ليبيا شبرا شبرا سالكا فى ذلك أقسى الطرق الوحشية وأمعنها بعداً عن الانسانية . وقد استغرق ذلك عشرة أعوام .

وفى عام ١٩٢٨ كانت المقاومة فى كل طرابلس قد أخمدت بما فى ذلك الفزان والواحات الشرقية وأخيراً قضى على المقاومة السنوسية فى برقة . وفى أثناء هذا النضال استحق غرزيانى عن جدارة لقب « الوباء » أو الطاعون ، ذلك بأنه ظل شهوراً طويلة يعدم حوالى ثلاثين نسمة يوميا . وأما العرب الذين كانوا يحاولون الفرار فقد كان نصيبهم أن يلقوا من الطائرات حتى يتحطموا على الصخور ، وفضلا عن ذلك فقد سدت الآبار بالاسمنت فى هذه الصحارى المحرقة وهلك نصف سكان برقة الوطنيين تقريباً وحشر ثمانون ألفا منهم مع مواشيهم فى صحراء سرت القاحلة . وبين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣٣ نقص عدد الأغنام من ٨٠٠,٠٠٠ إلى ٩٨,٠٠٠ وعدد الجمال من ٧٥,٠٠٠ إلى ٢,٦٠٠ والماعز من ٧٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ والحمير من ٩٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ والأبقار من ١٠,٠٠٠ إلى ٨,٧٠٠ والخيول من ١٤,٠٠٠ إلى

١٠٠٠ ؛ ويقول غرزيانى أن الفرد الواحد من العدو إذا حصل على العفو عنه والصفح عن أعماله فانه يصبح بذلك أشد خطراً (على الحكومة) من ألف من الأعداء (السافرين). وكان من أسباب الرحمة حقاً ومن حظ الأهالى أن انتهى عهد غرزيانى بمجرد انتهاء المقاومة وإخمادها. فأرسل بدلا منه ما ريشال الجو إيتالو بالبو حاكما فى عام ١٩٣٤». وقد وقع على كاهل بالبو تنفيذ الشطر الثانى من برنامج إبادة الليبيين وافنائهم ونعنى بذلك اغتصاب الأرض منهم وإعطائها للمعمرين الطليان، وترك أصحاب الأرض الحقيقيين وأبناء البلاد يتضورون جوعاً هائمين على وجوههم فى الشوارع أو يخدمون إذا شاءوا البقاء على قيد الحياة هؤلاء المعمرين خدما وعبيداً لهم.

والحقيقة أن خطة الإبادة والإفناء التى أتبعها الطليان فى ليبيا كانت ذات صلة وثيقة بالغاية الكبرى التى سعى هؤلاء بكل حزم وجد من أجل تحقيقها وهى تحويل هذه البلاد إلى «قطار لاتينية، لحما ودما» على أساس استقدام ملايين الطليان لاستعمارها والإقامة بها. ولما كان لا منصاص من أن يمتلك هؤلاء المعمرون — كما اسموهم — الأرض الصالحة لسكناهم حتى يستطيعوا استغلالها واستثمارها فقد دأبت الحكومة الإيطالية من أول الأمر على استصفاء أملاك وأموال العرب الذين أعملت فيهم السيف والمدفع وارتكبت معهم شتى ضروب الغدر والنذالة لإبادتهم وافنائهم والاستيلاء عنوة على أرضهم. وتحتل مسألة «اغتصاب الأراضى» هذه مكانا هاما فى تاريخ الاستعمار الإيطالى فى ليبيا وعلى الخصوص فى أثناء الحكم الفاشيستى.

وكانت أساليب الطليان فى انتزاع الأرض من الأهالى واحدة فى كل من طرابلس وبرقة. قوامها انتقاء الأراضى الجيدة الخصبة والتى تصلح لاقامة (المعمرين) بها، ثم التذرع بشتى الوسائل لطرد أصحابها منها والاستحواذ عليها. وعلى ذلك فانه لما كانت المنطقة الساحلية فى برقة وطرابلس — أى تلك التى تمتد حوالى ١٨٠٠ كيلومترا من حدود مصر إلى حدود تونس، وتتفاوت مسافتها من الشمال إلى الجنوب بين مائتين وعشرين كيلو مترا أخصب مناطق القطر الليبى وأكثرها عمرانا وتمتاز كثيرا عن المنطقتين الباقيتين أى منطقة الجبل بين جبل نفوسة أو الجبل الغربى وغدامس وجالو، ثم منطقة فزان أو مرزق الممتدة من حدود الجزائر إلى حدود السودان المصرى، فقد عمدت إيطاليا إلى انتزاع أراضى هذه المنطقة الساحلية واغتصابها من أصحابها دون أن تدفع مقابل ذلك ثمنا، وإذا فعلت فى الحالات القليلة النادرة دفعت لها أثمانا ضئيلة جداً ثم صارت تعطيها للمعمرين الطليان. وعندما قضت إيطاليا عهودها واستأنفت الحرب بعد الانقلاب الفاشيستى صادرت الحكومة جميع

ممتلكات العرب الذين اشتركوا فى الجهاد فاستولت على ما كان فى حوزتهم ، من دور ونخيل وأثاث وأموال فى البنوك ودكاكين فى الأسواق وكل ما ينسب إلى الانسان ، وهذا عدا الأرض بدعوى « أنهم اشتركوا فى السياسة ضد الحكومة » . وقد أشرف على استغلال هذه الأملاك المصادرة (بنك التوفير) ، ثم أرصدت الأموال الناتجة من استغلالها لمساعدة المعمرين الطليان .

بيد أنه لما كان بعض هذه الأملاك قليل القيمة ويكلف الحكومة لاستغلالها نفقات تزيد كثيرا على ما يمكن أن تحصله هذه منها فقد وجدت الحكومة بعد مدة من الزمن أن ترجع جزءا من هذه الأملاك (الخاسرة) إلى أصحابها الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة واستطاعوا الحضور لاستلامها وفى يناير ١٩٣٨ أعلنت الحكومة استعدادها لبيع قسم آخر من هذه الأملاك إلى أصحابها ، وكانت هذه ذات غلة متوسطة وخشيت الحكومة أن تعجز غلتها عن تغطية ما ينفق عليها من جهد ومال ، فرأت أن تبيعها إلى أصحابها بأثمان مخفضة تخلصا منها من جهة ثم ترغيبا للمهاجرين فى العودة إلى طرابلس من جهة أخرى وذلك حتى تجند الحكومة من أهل ليبيا تلك الجيوش التى أخذت ترسلها إلى ميادين القتال فى الحبشة واسبانيا . وبالفعل شكلت الحكومة لجنة لتقدير قيمة هذه الأملاك وباعتها إلى أصحابها إذا حضروا أو إلى أقربائهم أو إلى آخرين إذا تعذر العثور على صاحب العقار أو الأرض أو العثور على قريب له وأما الأملاك ذات الريع الكبير كالعقارات التى فى المدن والأسواق والبساتين الكبيرة فقد أصبحت هذه من أملاك الدولة ولا يمكن ردها بحال . وباعت الحكومة جزءا من هذه الأملاك لحساب خزانتها واحتفظت بأكثرها .

وفى برقة استولى الطليان على جميع الأراضى فى منطقة برقة الحمراء ، وتبتدىء هذه المنطقة عند شطوط مدينة بنغازى فى الشمال وتنتهى فى الجنوب وراء المرج ، ثم تمتد صوب الشرق فتشمل الجبل الأخضر بأجمعه إلى ما وراء مدينة درنة ، « وهى أخصب أرض الله فى الدنيا . وقد أفاض عليها الجبل الأخضر من أنهاره وعيونه ما جعلها جنة ، وكلها مملوكة لأربابها ، فانتزعتها إيطاليا كلها ولم تبق منها شبرا واحداً لعربى . وأقامت فيها قرى كثيرة لإسكان العائلات الإيطالية » . وأما برقة البيضاء وهى منطقه إجدابية التى تمتد إلى الوادى الفارغ جنوبا والى المرج شرقا وإلى شاطىء البحر الأبيض شمالا ، فقد أبقاها الطليان لمن بقى من البادية لأنها أرض ضعية قليلة المياه لا تكفى لرعى حيوانات أهل البادية وزراعتهم وتعتمد على المطر فحسب فى زراعتها .

ونبتت فكرة الاستيلاء على الأرض على هذه الصورة الواسعة منذ عام ١٩٢٣ أى منذ أن أصبح الفاشيست أصحاب الحكم والسلطان فى إيطاليا . وابتكرت الحكومة عدة وسائل

لاغتصاب الأرض وتمليكها للمستعمرين . وخاصة فأنها أخذت منذ عام ١٩٢٤ تدعو أصحاب الأراضى الخصبة إلى زرعها وفق الأصول الحديثة ، ثم تحدد لهم زمناً وجيزا لا يكفى لإنجاز ذلك لعدم خبرة الأهالى بطرق الزراعة الحديثة ولانعدام الوسائل التى تمكنهم من زرعها فى الأجل المحدد ، وعلى ذلك فإنه بمجرد انقضاء المهلة المعطاة لهم دون أن يفعلوا شيئاً مما طلب منهم أسرعت الحكومة فوضعت يدها على تلك الأراضى بعد أن تقدر لها قيمة زهيدة لا تزيد على ١٢٠٠ فرنكا لكل مائة هكتار ، ثم تودع هذا الثمن الضئيل فى (البنك) وتدعو أصحاب الإراضى إلى تسلمه منه فى مدة معينة وإلا خسروه . وقد بلغ ما اغتصبه الطليان بفضل هذه الطريقة فى عام ١٩٢٤ فحسب ٤٢٠ هكتارا من أخصب الأراضى وأجودها . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما فعلوه مع قبائل النوائل وخويلد والسعيفات فى قضاء زواره ، فقد اغتصبوا من كل هؤلاء الأراضى الخصبة والبساتين الكبيرة وسلموها إلى المعمرين الطليان بعد أن أرغموا أصحابها على تركها والجلاء إلى البادية . وفى عام ١٩٢٩ انتزعت الحكومة من الأهالى ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضى دون أى مقابل فأعطت منها مائة ألف للمعمرين ثم أوعزت إلى الطليان المقيمين بالأرجنتين فى أمريكا الجنوبية أن يبيعوا أراضيهم هناك وأن يحضروا إلى ليبيا فتعطيهم الحكومة بدلا منها أرضا جيدة دون أى مقابل . وفى العام التالى أغلقت الحكومة جميع الزوايا السنوسية — وهذه يزيد عددها على المائة — وصادرت أوقافها ثم اغتصبت جميع أراضى القبائل المنتسبة إلى السنوسية وهى قبائل الجبل الأخضر وبرقة العبيدات وفروعها البراعصة والحاسة والدرسة والعرفة والعبيد والفوايد والمرابطين والعواقير والمغاربة . وهذا عدا مصادرة أراضى أخرى كثيرة . وقد بلغ عدد من صودرت أراضيهم وأصبحت ملكا للحكومة الإيطالية بموجب أمر ملكى ٢٥٠ ألف نسمة . وفى عام ١٩٣٣ وزعت الحكومة ٢٦٠ ألف فدان على ٣٧٨ معمر إيطالى على سبيل التجربة فلمانجح هؤلاء واستقروا فى الأراضى المغتصبة نقلت الحكومة إلى طرابلس من إيطاليا الجنوبية ٣٤٠ أسرة . وقد توالى من ذلك الحين نقل الأسرات الإيطالية إلى طرابلس بانتظام حتى بلغ عدد هذه الأسرات فى عام ١٩٣٧ ثلاثا وثلاثين وسبعمائة ألف أسرة يعيشون جميعا فى أملاك الليبيين وتحميهم الحكومة بأموالها وقوتها .

ونظم الإيطاليون طرق استثمار هذه الأراضى المغتصبة عند ما وضعوا برنامجا خاصا لهذه الغاية بعد أن أظهرت التجارب أن إعطاء المساحات الواسعة من الأرض إلى الأفراد أمر قليل الفائدة وثبت من حالات كثيرة أن مصير هؤلاء الأفراد كان الإفلاس لا محالة إذا أبطأت الحكومة فى مد يد المعونة المالية إليهم من (بنك التوفير) الذى أنشأوه من أموال العرب

التى صادروها . وعلى ذلك فقد اضطر الطليان إلى العدول عن هذه الطريقة وعمدوا بدلا من ذلك إلى تقسيم الأرض قطعا صغيرة تعطى كل قطعة منها إلى أسرة إيطالية تمدها الحكومة بما يساعد على استغلال الأرض واستقرار الأسرة كإعداد المسكن اللازم لإقامة المعمرين وإمدادهم بالحيوان وآلات الزراعة وما إلى ذلك . على أن تكون هذه القطعة ملكا للأسرة المعمرة بعد عشرين سنة لقاء شروط معينة بالاتفاق مع الحكومة ، فتضمن الحكومة «ربحا مزدوجا ، تعمير الأرض وتكثير الجنس الإيطالى» . ولتنفيذ هذا البرنامج إذن أنشأ الطليان إدارتين أو منظمتين عظيمتين : مؤسسة تعمير ليبيا ، ومؤسسة الإسعاف الاجتماعى ، ثم قرروا تعمير سبعين ألف هكتار من الأراضى نصفها فى طرابلس والنصف الآخر فى برقة ، وقسموا هذه المساحة الشاسعة إلى ثلاثة آلاف قطعة تستقر فى كل منها أسرة إيطالية .

وقد حدث عند ما زار عمانويل الثالث ملك إيطاليا طرابلس فى غضون عام ١٩٣٨ أن عهد بالبو إلى يوسف خريبيشة بأن يحمل أهل بلدته يفرن على تقديم هدية للملك عند زيارته لهم فقدم هؤلاء جوادا مسرجا بسرج عربى هدية للملك ووقف إيتالو بالبو خطيبا يشكر لأهل يفرن صنيعهم «الذى يقدره حق قدره هو والملك أيضا» فوعدهم وعدا قاطعا بأن الحكومة الإيطالية سوف تكافئهم مكافأة عظيمة تقديرا منها لإخلاصهم وولائهم هى أنها سوف تستقدم عشرة آلاف معمر إيطالى لاحتلال مركز يفرن ! وكان بالبو يبيت النية وقتذاك لاستقدام أكبر فوج من هؤلاء المعمرين عرفته ليبيا . وبالفعل بر بالبو بوعده فأحضر الفوج الأول من هؤلاء المعمرين فى نوفمبر من السنة نفسها وكان يتألف من ثمانمائة وألف عائلة يبلغ عدد أفرادها عشرين ألف نسمة . ولم يكن مجىء هؤلاء فى الحقيقة سوى تنفيذ لأحد التدابير التى اعتزم بالبو اتخاذها من أجل استقدام خمسة ملايين نسمة من فقراء الطليان قررت الحكومة نقلهم إلى ليبيا على أن يجرى نقل ٢٥٫٠٠٠ إيطالى كل سنة ويخصص لهذه الغاية مائة مليون فرنك سنويا فى ميزانية «وزارة أفريقية» . وعند وصول هذا الفوج الأول وزعت العائلات الإيطالية على مناطق الزاوية وترهونة ومصراتة عدا مناطق برقة فأنشئت لهم فى الزاوية ثلاث قرى هى (بيانكى) و(أوليفيتى) و(جوردانى) ؛ وفى ترهونة قرية واحدة هى (بريفيرى) ؛ وفى مصراتة قريتان هما (كرسبى) و (جودا) ؛ وفى برقة أربع قرى هى (باراكا) و(أوبردان) و(دانونزيو) ، (باتيستى) ؛ وكانت كل قرية من هذه القرى تشتمل على عدة بيوت وكنيسة ومدرسة ومكتب بريد . وتم توزيع الأراضى على هذه العائلات بنسبة عشرة هكتارات إلى خمسين هكتارا للعائلة الواحدة . ولم تعد هذه المناطق جزءا من «المستعمرة» الليبية شأنها فى علاقاتها مع رومة شأن سائر البلاد البرقاوية

الطرابلسية ، بل أنه سرعان ما استصدرت الحكومة الإيطالية مرسوما (فى عام ١٩٣٨) جعل من مقاطعات طرابلس ومصراتة وبنغازى ودرنة « شاطئا رابعا » من شواطىء إيطاليا ، ومعنى ذلك أن يكون هؤلاء المعمرين الطليان فى هذه المناطق نفس الحقوق التى يستمتع بها مواطنوهم فى إيطاليا كأنهم يعيشون فى شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها .

وأما اختيار هؤلاء المعمرين فقد حدث بدقة عسكرية متناهية ، إذ تشكلت لجنة لفحص طلبات المهاجرين ثم وقع الاختيار على المعمرين بعد أن فحصت اللجنة فحصا طبيا ألوفا عدة من الراغبين فى الذهاب إلى ليبيا ، واتخذت جميع الاستعدادات لنقلهم من مواطنهم إلى الأماكن التى يجرى ترحيلهم منها إلى ليبيا وهى موانىء جنوى ونابولى وسيراكوزه بنظام عسكرى . وأوصى موسولينى نفسه هؤلاء المهاجرين بأشياء ثلاثة هى أن يعتبر كل فرد منهم نفسه جنديا خاضعا لأوامره ، وأن يذكر دائما أن الدوتشى لا يقهر أبدا ، وهو يقود الجميع إلى النصر أنى سار وحيثما وجد ، وأن يعلم أن إرادة موسولينى ورغبته هى أن يعمل هؤلاء المعمرون كى يجعلوا من صحراء ليبيا حديقة زاهرة ، وعليهم أن يطيعوا أوامره . وقد جاء فى كتاب (فجيعة العرب فى طرابلس الغرب) تعليقا على هذه الإجراءات التى اتخذتها الحكومة الإيطالية فى اختيار المعمرين ما نصه « وهكذا يختار هؤلاء المهاجرون بدقة عسكرية ، وبهذه الوصايا الثلاثة يوصيهم موسولينى . إذاً فالمسألة مسألة تعمير طرابلس فحسب ، بل ووجود قوة عسكرية فى طرابلس أيضا يعتمد عليها موسولينى لتهديد مصر وتونس . وهذا يؤيد ما نشرته الإهرام يوم ١٣ سبتمبر ١٩٣٨ وهو أنه يوجد بين العائلات الايطالية فى طرابلس عشرون ألفا تتفاوت أعمارهم بين العشرين والسادسة والثلاثين مستعدين للخدمة العسكرية . ويوافق أيضا ما صرح به بالبو وهو قوله « إن توطين ألوف عديدة من الايطاليين فى هذه الأراضى بعد أن توفرت فيها المياه يغير مشروع زعماء ايطاليا الحربيين الخاص باستعدادهم للحروب المقبلة » ، إذاً فالخطر الفاشستى الموجود فى طرابلس الغرب لا يهدد الطرابلسيين وحدهم وإنما يهدد مصر وتونس أيضا » .

والحقيقة إن الحكومة الايطالية كانت تبغى من وراء إبادة العرب وإفنائهم وجلب المعمرين لاستثمار الأراضى التى اغتصبوها من أصحابها ليس فقط إنشاء مقاطعة تكون لاتينية « لحما ودما » يسهل عليهم إدماجها فى بنيان الامبراطورية الرومانية التى أرادوا إحياءها ، بل وإنشاء مخفر من المخافر العسكرية الأمامية وقاعدة يديرون منها أعمال الحرب والغزو المنتظر من أجل إعادة مجد هذه الامبراطورية الرومانية ذاتها . وآية ذلك أنه ظهر مرارا من الخطبة التى ألقاها موسولينى فى مناسبات شتى ومن أقوال الصحف الايطالية أن الرغبة فى امتلاك

ليبيا كان منشؤها اعتقاد الفاشيست الجازم بأن « أفريقية قد ألقت اليهم وحدهم بتقاليدها عن طريق طرابلس ذاتها » . ونشرت جريدة الأهرام برقية جاءتها من تونس فى ١٨ يناير ١٩٣٩ ذكر صاحبها أنه « يؤخذ من أقوال اللاجئين الطرابلسيين الذين وصلوا أخيراً إلى تونس أن نجدة من الايطاليين وصلت من طرابلس فى آخر ديسمبر الماضى (١٩٣٨) وأوائل يناير الجارى ، وقد وزعت هذه النجدة على طول الحدود وأرسل بعضها إلى واحة نالوت » .

وللمرء أن يتساءل الآن وماذا كان نصيب أهل البلاد أنفسهم من الأرض التى كانوا يملكونها ويملكها أجدادهم من قبلهم ؟

وللإجابة على هذا السؤال قد يكفى أن نثبت ما ذكرته الاهرام كذلك فى خبر نشرته فى ١٥ يناير ١٩٣٩ فحواه « أنه سيجرى تحقيق المشروع العظيم لزيادة عدد السكان فى لوبيا وفى جزئه الأكبر من منطقة واسعة للإنتاج وبين القرى الزراعية الإسلامية الخمس التى ستنشأ غضون هذا العام ، ستنشأ واحدة ذات صبغة زراعية بين توكره وطليثة ، واثنتان للرعى من حيث تقوم الأولى فى أقليم بنغازى والثانية فى أقليم درنة » . وحتى هذا « المشروع العظيم » كان مصيره الفشل السريع . وفى عام ١٩٣٩ كان قد بلغ مقدار مامنحته الحكومة إلى المعمرين الطليان مما استولت عليه من الأراضى ٦٢٢ ألف فدان من الأراضى التى كانت مستغلة فعلا وهذا عدا تلك التى كانت ما تزال فى طريق الإصلاح لاستقبال بقية من تقرر نقلهم من المعمرين إلى ليبيا ، وتقع هذه المساحة الهائلة كلها فى منطقة الساحل . ومع ذلك فان عدد الطليان القاطنين فى هذه المنطقة الشاسعة كان فى عام ١٩٣٩ لا يتجاوز ١٣٥ ألفا .

وفى الوقت الذى اغتصب فيه الطليان الأرض حرموا أصحابها كذلك من جميع الحقوق التى يتمتع بها الفرد فى بلدان العالم الأخرى . فلا مساواة ولا عدل ولا كرامة . وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب إذا عرفنا أن الحكومة كانت تطبق على الايطالى القانون الرومانى بينما تطبق القوانين الاستثنائية على أبناء البلاد العرب ولم يغب عنا كذلك أن إيطاليا نقضت جميع عهودها السابقة . فلم يكن هناك مجالس نيابيـة أو أى ضمان لمبادىء العدل والمساواة الأولية فأصبح الحاكم العام أو الوالى الايطالى مصدر السلطات فى البلاد فيما يتعلق بالعرب وحدهم ، ثم قصرت الحكومة وظائفها على الطليان وأقصت الليبيين ليس فقط من أعمال الحكومة بل ومن جميع المهن والخدمات العامة حتى إن « وظيفة كنس الشوارع وساعى البريد » كان يستأثر بها إيطاليون فقط ، وتعذر على الليبى أن يطالب بحق من الحقوق أو أن يدافع عن هذا الحق بنفسه عند ماجعلت المرافعات أمام المحكمة باللغة الايطالية فلم يكن هناك أمل ما فى أن ينال عربى شيئا من حقوقه إلا إذا أقام عنه محاميا إيطاليا واستخدم (ترجمانا)

لينقل أقواله . وفضلا عن ذلك فان المحاكم ما كانت تنظر قط فى قضية عربى قبل أن تفرغ من نظر قضايا الطليان أنفسهم . وامتهن الليبى فى وطنه امتهاناً كبيراً فمنعته الحكومة من أن يجلس بزيه العربى فى الأماكن المخصصة للطليان بالدرجة الأولى فى سيارات النقل ، كما منعته من ارتياد الأندية والمقاهى التى قد يؤمها الطليان وهو بهذا الزى أيضا أو زيارة دور التمثيل . ثم منع الليبى منعا باتا من استخدام عربة للركوب يتربع فى دستها حوذى إيطالى ، وكان لهذا التحريم أثر دعا إلى الإشفاق والسخرية عند ما ضج أصحاب العربات والحوذيون الطليان وصاروا يتصايحون بالشكوى من هذا الظلم الجائر ، ويطالبون الحكومة بإلغاء هذا التحريم الذى يسلبهم دراهم معدودات من كسب يومهم الحلال فأذعنت الحكومة واضطرت صاغرة إلى إجابة رغبتهم وقد كان غرض الحكومة من هذا ومن غيره إضعاف روح الليبيين المعنوية واماتتها حتى اذا ماتت فى الشعب معنويته وتضعضع كيانه النفسانى أضحت عملية افنائه وابادته سهلة هينة .

ومن وسائل الإمعان فى إذلال العربى وإهانته ، أن الطرابلسى كان يحكم عليه بالجلد وينادى فى الناس بالحضور لمشاهدة تنفيذ الحكم فيه ويطرح فى السوق وعلى قارعة الطريق ويجلد أمام هذا الجمع من الناس الذين جىء بهم لمشاهدة هذا المنظر الفظيع ليلقوا فى روع الناس ما يميت فيهم الشعور بالكرامة ، وكذلك الحال إذا حكم عليه بالاعدام ، فلا يكون شنقه إلا فى وسط السوق بعد أن ينادى فى الناس بالحضور لمشاهدة التنفيذ . أما الايطالى فلا يحكم عليه بالجلد مطلقا ، وفيما عدا ذلك يعامل كما يعامل الأفراد فى الأمم الحرة بالعدل والانصاف » . وكذلك كان من ضروب إماتة الشعور بالكرامة ما اعتادالطليان أن يفعلوه عند زيارة عظيم من عظمائهم ، إذ كانوا يحشرون الناس حشراً لمقابلته من كل النواحى البعيدة والقريبة ويجمعون للاحتفاء به « مشايخ الطرق بأعلامهم ودفوفهم ويؤتون أيضا ببعض النسوة للزغاريد ويبقى الناس فى طرقات المدينة وعلى أرصفة الشوارع يومين أو ثلاثة » ؛ وما كان هؤلاء يحضرون باختيارهم وإنما يرغمون على الحضور إرغاما فيهددهم الطليان بالجلد بالسياط وفرض الغرامات الثقيلة عليهم إذا هم تخلفوا . وعلى هذا النحو استطاع الطليان عند ما زار موسولينى طرابلس فى مارس ١٩٣٧ أن يحشدوا لاستقباله أربعة آلاف فارس من العرب جىء بهم من كل مكان بكل قسوة وشدة . ثم فعلوا مثل ذلك أيضا فى أثناء زيارة ملك إيطاليا فى العام التالى . وأما قصة زيارة موسولينى لطرابلس فقد كانت قصة طريفة حقا وتحتل مكانا بارزاً بين قصص هذا « البطل » ومسرحياته المتعددة .

فقد عقد الليبيون الضالعون مع الحكومة آمالا عظيمة على زيارة « المنقذ المنتظر للشعب

المظلوم ، وكان منشأ هذه الآمال أن الحكومة الايطالية عند اشتبا كها فى حرب الحبشة (١٩٣٥ — ١٩٣٦) كانت قد جندت من الليبيين بضعة آلاف لم يعد منهم من ميادين القتال البعيدة سوى قليلين ، بين صحيح مريض وعليل عاطل ، وسخا الطليان على عادتهم فى وعودهم لأهل البلاد تمويها على الليبيين وتخديراً لأعصابهم حتى لا يحدثوا أنفسهم بانتهاز فرصة إنشغال إيطاليا بالحرب فى الحبشة ثم انغماسها بعد ذلك فى الحرب الأهلية باسبانيا فيعلنوا الثورة عليها فى ليبيا . فقطعت على نفسها العهود ، بإعادة الحرية ووضع قانون صالح وعفو عام ورد الأملاك المصادرة وإعادة اخوانهم الذين نفوا إلى الخارج إلى ذويهم وأوطانهم » . وكان لهذه الوعود أثرها المطلوب ، واستعد كل أولئك الذين انتظروا تحقيقها لاستقبال موسولينى

أما الدوتشى فقد وصل إلى سيدى بوغرارة قرب طرابلس عن طريق طرق فى يوم ١٨ مارس ١٩٣٨ ، ومن وقت نزوله إلى طرابلس بدأت المسرحية العجيبة ، إذ امتطى موسولينى صهوة جواد عربى أعده ايتالو بالبو خصيصا لهذه المناسبة ، ووقف موسولينى بجواده على ربوة تشرف على الألوف العديدة التى أحضرتها الحكومة قسرا لاستقباله . وعندئذ تقدم إليه يوسف خريبشة على رأس وفد من الأعيان ، فقدم إليه يوسف خريبشة سيفا عربيا مرصعا سماه « سيف الإسلام » ، فأخذه موسولينى ثم استله من غمده « بقوة وعزة (وأخذ يهزه) مرارا فى الفضاء وهو يصيح يا أولاد ! مرددا بذلك بأعلى صوت الهتاف الطرابلسى المشهور فى ساحات الوغى » . فردد الحاضرون هذا النداء ثلاثا . وانتهى الحفل ولم يذكر موسولينى شيئا بطبيعة الحال عن تلك العهود المعسولة . وفى ٢١ مارس كانت « قد أعدت كومة من الرمل الأحمر الناصع خصيصا للخطابة فى ميدان السراية الحمراء » بمدينة طرابلس ، فاعتلى موسولينى بجواده العربى ربوة الخطابة ، وخلفه الماريشال بالبو حاكم طرابلس العام والسنيور لينسونا وزير المستعمرات يتقدمه جنديان يحمل كل منهما حزمة القضبان والفأس رمز حزب (الفاشيست) وشعار هذا الرسول ـ أى موسولينى ـ الذى جاء ليطرد الاستعمار ويحل محله الحرية والإخاء والمساواة المطلقة : واستل السيف من غمده ثم نادى الألوف الحاشدة المنتظرة البشرى من أبناء العروبة المسلمين فقال : « يامسلمى طرابلس وليبيا : باشبان الليتوريو : إن مولاى الجليل ذى الشوكة فيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا وامبراطور الحبشة أرسلنى ثانية إليكم بعد إحدى عشرة سنة للتحقق من رقى هذه الديار المرفرف عليها علم إيطاليا مثلث الألوان : وللوقوف على ما تحتاجون إليه وإجابة رغباتكم المشروعة ، إنى إذ أتقبل هديتكم هذه (يشير إلى السيف) لا بد لى من أن أبين لكم إنه قد استهل فى تاريخ ليبيا عهد جديد : لقد برهنتم على إخلاصكم الشديد لايطاليا فلم تحيدوا قط عن النظام يوم

كانت إيطاليا رهين حرب شعواء فى بلاد بعيدة وكان لكم نصيب ثمين فى إحراز الظفر بألوف المتطوعة منكم » إلى أن قال : « وستعلمون عن قريب مما سآتى به روما من القوانين مبلغ اهتمامها والسير بكم فى طريق التحسين » . وختم خطبته بقوله ووعده الصريح « إنى كما تعلمون لست ممن يكثرون الوعود ، على إنى إذا وعدت وعداً فلا بد من إنجازه » . وفى يوم هذه الخطبة نفسه (٢١مارس) غادر موسولينى طرابلس وانتهت فصول المسرحية وعادت الأمور سيرتها الأولى . وظل الطليان يسلبون أموال الشعب الليبى ويرهقونه بالقوانين الاستثنائية والأحكام الجائرة .

وكان بعد هذه الزيارة أن أخذت تترى القرارات بعضها إثر بعض لتنفيذ تلك الخطة المرسومة التى وضعها الطليان لإبادة الليبيين وإفنائهم واغتصاب أموالهم وممتلكاتهم وإلحاق الأذى بهم وإهانتهم فى شعورهم وكرامتهم . فاستبدلت « وزارة أفريقية الإيطالية » بوزارة المستعمرات ثم تقرر عدم عودة الأملاك التى صادرتها الحكومة من الزعماء والمجاهدين العرب إلى أصحابها ، بل تقوم الحكومة بإنفاق ريعها على المشروعات العمرانية عن طريق البلديات فى المدن « فى صالح المسلمين » وقد علق على هذا القرار أحد الكتاب الليبيين — وكان أحد أولئك الذين اطمأنوا طويلا إلى وعود الطليان حتى زالت الغشاوة عن أعينهم — فقال « وهذا القرار يكاد يكون سخرية بالشعب وأهل البلاد — مشاريع عمرانيـــة عن طريق البلديات من الأموال المصادرة ؟ يعنى معنى هذا القرار أن الحكومة تمنع رجوع الوطنيين الذين فى الخارج وتسترد العفو المبتور الذى أعلنته من أجل الدعاية الجوفاء ، لأن المهاجرين واللاجئين السياسيين هم أصحاب الأملاك المصادرة . وكثير من أمثال هؤلاء لايزالون معتقلين من أجل السياسة إلى يومنا هذا رغم العفو الكاذب الذى يدعونه . ومن هؤلاء السجناء من تجاوز عمره السبعين عاما يوجد قسم منهم فى (بورتا قرقارش) وقسم فى (بورتا بنيتو) ، وكثيراً ما ترى حزب الاستعمار فى طرابلس يكتم أمرهم وينقلهم من مكان لآخر ويحرمهم الاستفادة من قوانين العفو لغاية فى النفس ثم يبلغ روماً بأنه قد أخلى سبيل السجناء السياسيين ؟ ومن هؤلاء المنكوبين جماعة فى طرابلس من أصحاب الأملاك المصادرة تراهم أموات أحياء بين الجوع والعراء ، فالحكومة بحرمانهم من أملاكهم تحول دون رجوع من كان منهم فى الخارج لبلادهم وتحكم عليهم بالبقاء متشردين وإلا فكيف يرجعون وماذا يعيشون ؟ هى بكلمة واحدة قد عدلت عن كل الوعود ، ونقضت العهد فهى توعد ولكن لا توفى بوعد . ثم هى تنشر الدعايات الواسعة عن حسن معاملتها للطرابلسيين وتبحث عن العدالة والإنصاف تقربيا للعالم الاسلامى لتجذب بذلك قلوب العرب فى أنحاء الأرض ؟

بينما هى تعمل للقضاء على تلك الأمة وتسيء إليها بغصب حريتها ومصادرة أملاكها وتشريد أفرادها وإفساد أخلاقها وآدابها وتهجير جماعاتها وإسكان الايطاليين فى بيوت العرب ومزارعهم وتمليكهم كل ما كان للعربى من مال وحيوان ! .

وفى أوائل ديسمبر ١٩٣٨ قرر المجلس الفاشيستى الأعلى إصدار (قانون الجنسية) ، ذلك القانون الذى اتخذه الطليان أداة لجعل الليبيين يتجنسون بالجنسية الايطالية . وكان غرضهم من ذلك القضاء على البقية الباقية من أبناء العرب ، وكان هؤلاء لا يزيدون على نصف مليون نسمة بعد أن كانوا مليونا ونصف مليون عند مجيء الطليان إلى بلادهم ، فلا يبقى فى ليبيا بفضل تنفيذ هذا القانون غير الطليان وحدهم . ولذلك فقد سعت حكومتهم سعيا حثيثا لاقناع العرب أو إرغامهم إرغاما — إذا لم يقتنعوا — بقبول الجنسية الايطالية . ثم بعثوا برسول باباوى حتى يخطب فى الأهلين خطبة طويلة يحضهم فيها على التجنس بالجنسية الايطالية وعمدت الحكومة إلى استخدام عدة وسائل لاعلان المزايا التى سوف يتمتع بها المتجنسون ؛ وكانت تتلخص فى ضمان الحرية الشخصية وعدم الاعتداء على حرمة منازلهم وصون أملاكهم ثم المنافسة فى الحصول على الوظائف المدنية فى المستعمرات وممارسة الحرف والصناعات وحمل السلاح طبقا للوائح الخاصة بالتجنيد ، وحق الاشتراك فى التشكيلات الفاشيستية الاسلامية ، — وكان الطليان قد أرغموا الليبيين على الانضمام إلى فرق (الباليلا) وغير (الباليلا) تمهيدا لارسالهم إلى ميادين القتال فى الحبشة وإسبانيا — ثم حق الترقية فى الرتب العسكرية فى الوحدات الليبية ، والتمتع بمنصب العمودية فى الطوائف التى تتألف من سكان ليبيين وملء مناصب شيخ البلد فى الطوائف التى تتألف من خليط من السكان ، ثم تولى المناصب الادارية فى نقابات العمال ، وحق الاشتراك فى اللجان التعاونية فى ليبيا والمجالس البلدية إلى جانب تلك اللجان الخاصة بالتعاون الاقتصادى .

تلك كانت الحقوق التى وعد بها الطليان المتجنسين بالجنسية الايطالية وقد قال المهاجرون الطرابلسيون فى كتاب وثائقهم التى نشروها فى عام ١٩٣٩ بعد أن سردوا كل هذه (المزايا) « ولم يبق شك بعد هذا التصريح فى أن من لم يتجنس لحريته الشخصية غير مضمونة . . . وكذلك حرمة منزله غير مكفولة وليس له حق فى أن يتمتع بواحدة من هذه المزايا العشر وكذلك أملاكه غير مضمونة من الاعتداء عليها .... » وواقع الأمر فإنه لما كانت نية الطليان الحقيقية هى إفناء العرب وإبادتهم ، لم يعد من المنتظر أن يبقى لقانون الجنسية أية قيمة . وبخاصة عندما تأثر الفاشيون بحلفائهم النازيين فى ألمانيا فأخذوا منهم أخيراً مبادىء العنصرية وشرعوا يطبقون فى إيطاليا وفى مستعمراتها (قانون حماية العنصرية) وهو قانون على حد

ما جاء فى تصريح وزير الخارجية الايطالية فى يناير ١٩٣٩ كان يشمل (أولا) الطليان الذين يقطنون المملكة أى أولئك الذين يعدون من الشعب الايطالى وإن لم يكونوا مواطنين إيطاليين ، وهذا النص ينطبق على سافوى ونيس وكورسيكا ومالطة . (ثانيا) الطليان بالولادة حتى إذا كانوا قد قد اقتبسوا الجنسية الأجنبية . ومقابل ذلك يعد جميع الأجانب المتجنسين بالجنسية الايطالية أجانب ؛ ومعنى هذا كما هو واضح إخراج العرب الذين أرغموا إرغاما على التجنس بالجنسية الايطالية من عداد المواطنين الطليان وحرمانهم بالتالى من جميع المزايا السابقة .

وقد أدلى وقتذاك أمير الأقطار الليبية سمو السيد محمد إدريس بتصريح إلى مكاتب جريدة (بارى سوار) الفرنسية ، تحدث فيه عن أخطار ظاهرة العنصرية فقال بعد بيان الأساليب التى ابتدعها الطليان فى تشريد العرب وإبادة أبناء البلاد وإفنائهم : « فمن كان هذا حالهم كيف تكون معيشتهم ، وكيف يكون مستقبلهم ، وخصوصا بعد أن اخذت الدولة الإيطالية عن زميلتها الدكتاتورية (ألمانيا) مبادىء العنصرية وسن قوانينها ، قوانين التشريد والإبادة مع ما هيأ لهم من فتح باب التجنس على مصراعيه ... والعنصرية رأينا الكثيرين من مواطنينا من استساغ وجودها واطمأن حيث أنه بذلك يؤمن جانب الإندماج والتجنس بالجنسية الايطالية الذى كان يخشاه . وغاب عن صاحب الفكرة الخطر الذى تحمله العنصرية فى براثينها ونحن وإن كان لا يغرب عن فكرنا تأمين جانب الإندماج إلا أننا نعلم أن هــــذه الظاهرة الجديدة تحمل لنا الفناء العاجل والإبادة فى أمد قصير حيث لا يعقل أن تبقى أقلية مضطهدة فى أمعاء أكثرية ساحقة ترمق تلك الأقلية بعين الغدر وتتحكم فى شئون مصيرها وتصدر لها فى كل مناسبة قانونا ناسخا لما سبقه من تلك القوانين » .

تلك صورة موجزة لما كانت تفعله إيطاليا فى ليبيا ومع هذا فقد درجت دعايتهم وقتذاك على رسم الاستعمار الايطالى فى تلك البلاد فى صورة قشيبة زاهية وإن كانت لا تمت بأية صلة لما كان يجرى ويحدث فعلا من ضروب الإذلال والاهانة أو العمل على إبادة العرب وإفنائهم وكان مما قوى أمل الطليان فى إمكان نجاح دعايتهم أنهم اعتمدوا على فصل القطر الليبى بأجمعه عن سائر أقطار العالم وإغلاقه إغلاقا محكما حتى أصبح أكثر الشبه « بصندوق مقفل » منه بأى شىء آخر . وآية ذلك ما صادفه الرحالة المسلم الدانمركى كنود هلميو الذى حاول زيارة هذه الأصقاع فى غضون عام ١٩٣٠ من صعوبات كادت تحول دونه وهـذه الزيارة حتى ستطاع ذلك بعد مشقات عظيمة متخفيا فى زى عربى . وكل ذلك بسبب العراقيل العديدة التى وضعها الطليان فى طريقه لمنعه من الاتصال بالعرب والوقوف على حقيقة أساليب الاستعمار

الايطالى . وقد يكفى ذلك دليلا لبيان مبلغ ما ذهب إليه الطليان حتى يجعلوا من ليبيا صندوقا مقفلا حقيقة فلا يخرج منه أو يدخل إليه شيء حتى يظل العالم الخارجى يجهل مايدور بداخله وحتى يظل الليبيون أنفسهم يجهلون ما يجرى فى هذا العالم خارج أوطانهم .

واقتضى تحقيق عزلة الليبيين الحجر على حرية الرأى والفكر ومكافحة الاجتماع والنشر بشتى الوسائل التى أتقنتها الديكتاتوريات الغابرة ، فمنع الطليان إنشاء الجمعيات الخيرية والإسلامية وتشكيل الأحزاب السياسية وإقامة النوادى العامة ، وحرموا الاجتماعات مهما كان نوعها ، فمنعوا اجتماع صديق بأكثر من صديق واحد حتى ولو كان اجتماع الأخصاء والأصدقاء لأمر عادى أو لمجرد التسلية والمسامرة ، من أمثلة ذلك ما حدث عند ما اجتمع بعض طلبة العلم فى ليالى رمضان فى أحد الفنادق ليقضوا شطراً من الوقت فى مطالعة الكتب والدرس ، فإنه لم يمض على اجتماعاتهم أكثر من خمس ليال حتى كانت قد دهمتهم الشرطة وساقتهم إلى السجن ، أو ماحدث لطلبة آخرين كانوا مجتمعين لقراءة كتاب للمرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فدهمتهم الشرطة كذلك وأودعوا السجن .

وأما النشر فكان لا يوجد من أسبابه سوى جريدتين صغيرتين هما (العدل) و (بريد برقة)، وهاتان الجريدتان كانتا تطبعان على نفقة الحكومة وتعملان تحت إشرافها ولحسابها ، وعلاوة على ذلك فقد صدرت فى ذلك العهد مجلة (ليبيا المصورة) لخدمة مآرب الطليان والمعمرين . ولا يسع المرء عند ذكر هذه الصحف الثلاث فى العهد الايطالى أن يترك الحديث دون الاشارة إلى تعدد الصحف فى هذه البلاد فى عام ١٩١٩ خصوصا أى قبل التغلب على الحركة الوطنية وإخمادها ، إذ كانت هناك طائفة من الصحف نذكر منها (اللواء الطرابلسى) و (الرقيب) و (العدل) — قبل أن تنقلب حكومية — و (الذكرى) و (الوقت) — وهذه كانت تصدر أسبوعية وبصورة منتظمة ، وقد انقطعت هذه الصحف عن الظهور منذ أن استتب الأمر للطليان إلا مارضى منها بالعمل لحساب الحكومة. ولما كانت الإذاعات اللاسلكية (الراديو) من وسائل النشر الحديثة وأداة تساعد على اقتحام ذلك الصندوق المقفل الذى حرص الطليان على أن يظل مغلقا ، امتدت يد الحجر والرقابة من مراقبة المطبوعات السياسية أو الحماسية كالجرائد والمجلات والرسائل الخصوصية ، إلى مراقبة الاذاعة ، فحرمت السلطات الايطالية فى يناير ١٩٣٩ على الأهلين فى ليبيا سماع الاذاعات المرسلة من محطة تونس اللاسلكية ، وفرضت على كل من يخالف هذا القرار غرامة أولى قدرها خمسمائة ليرة حتى إذا أعاد الكرة حكم عليه بالحبس شهراً. وفضلا عن ذلك فقد منعت الحكومة الاستماع لاذاعات

موسكو وبرلين أى إذاعات حلفاء الطليان كما منعت بعض الاذاعات الأوروبية الأخرى ووقعت عقوبة السجن على الذين يخالفون أوامرها .

ومع هذا وعلى الرغم من هذه التدابير الغاشمة جميعها ، فقد كان من المتعذر أن تظل ليبيا ذلك « الصندوق المقفل » الذى أراده الطليان ، فقد كانت الأنباء تتسرب منها إلى المهاجرين فى مصر والسودان وتونس واستطاع العالم الاسلامى خصوصا أن يقف على شىء كثير مما كان يعانيه الشعب الليبى من ضروب العنت والارهاق وما كانت تفعله فيهم أساليب الابادة والإفناء القاسية ، وعرف العالم أجمع أن الطليان كانوا يزهقون أرواح الليبيين ويسلبونهم أموالهم ويغتصبون أراضيهم ويعملون على إذلالهم وإهانتهم ويحاولون تبصيرهم . وهذا فضلا عن تجنيدهم مرغمين للقتال فى ميادين الحبشة وإسبانيا ، وعرف العالم قاطبة وقتذاك أن موسولينى كان جادا الجد كله عند ما نقشت نصائحه على اللافتات فى الميادين والشوارع « كن جنديا عند اللزوم ! » ، وكان هازلا الهزل كله عند ما ظهر بجوار هذه اللافتات ، لافتات أخرى تحمل عبارة الغرور والكبرياء الأجوف « موسولينى يقودك إلى النصر دائما » . وكانت سخرية ما بعدها سخرية عند ما وقف بالبو خطيباً فى الطرابلسيين الذين اشتد تذمرهم من التجنس بالجنسية الايطالية فقال « إن قانون التجنيس إنما هو منحة منحها لهم الدوتشى نظير خدماتهم الجليلة فى الحرب الحبشية ! » وفضلا عن ذلك فقد عرف العالم أجمع أن الأمة الليبية ما كانت لترضى بالعيش الذليل تحت كنف الفاشستية الطاغية ، وأنه لا مناص من قيامها عن بكرة أبيها لاسترداد حقوقها والعيش فى أوطانها فى عزة وأباء عند سنوح أول بادرة تهىء لأبناء هذه الأمة الباسلة مواصلة ذلك الجهاد الذى ما فترت عزائمهم لحظة عن حمل لوائه مدة ثلاثين عاما بتمامها . وأما معقد آمال الأمة الليبية الباسلة فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها فكان زعيمها وأميرها السيد محمد إدريس السنوسى ، الذى أظل طوال سنوات الكفاح المريرة الماضية يسعى جاهداً لإنقاذ الوطن حتى سنحت الفرصة عند نشوب الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثاني عشر

التحرير والخلاص

ماكاد الأمير السيد إدريس يصل إلى القاهرة فى ٢٧ يناير ١٩٢٣ حتى أخذ نطس الأطباء يعالجون سموه ؛ على أن المرض لم يمنعه من متابعة الحوادث فى برقة بكل همة وعناية فلم يمض زمن طويل على وجوده بمصر حتى أعلن (البدروفاندى) الوزير الإيطالى سمو الأمير فى يوم ٣ مايو ١٩٢٣ أن جميع الاتفاقات التى سبق ان أبرمتها الحكومة الإيطالية مع سموه قد صارت لاغية ولا أثر لها ؛ فكان نقض الطليان عهودهم على هذه الصورة مؤذنا ببداية النضال من جديد بين الطليان وبين العرب فى برقة . وكان غرض الأمير ، على نحو ما سبق ذكره ، أن يبذل قصارى جهده حتى يبقى الباب مفتوحا باب الإمدادات والنجدات من مصر إلى برقة لمساعدة المجاهدين فى كفاحهم المنتظر . وفضلا عن ذلك فقد كان سموه يريد بالاتفاق مع رؤساء المجاهدين وزعمائهم أن تظل مصر مفتوحة لاستقبال اللاجئين الذين أخذوا يفدون عليها فرارا من بطش الطليان وغدرهم . والسبب فى ذلك أن الطليان بدأوا منذ أن بيتوا النية على نقض عهودهم يسعون لدى الحكومتين المصرية والانجليزية من أجل إغلاق الحدود الغربية بين مصر وليبيا ومنع إرسال النجدات والتبرعات من مصر إلى برقة : وإزداد الطليان نشاطا فى سعيهم عند ما رأوا السيد عمر المختار يحضر إلى مصر ويجتمع بالأمير ويتلقى منه التعليمات المفصلة ، ثم أحسوا بأن الأمير على الرغم من بقائه بعيدا عن وطنه كان على إتصال دائم بزعماء الجهاد ويبعث إلى هؤلاء بإرشاداته .

وقد بدأ الأمير كذلك فى غضون عام ١٩٢٣ مسعاه « دبلوماسيا » لدى السلطات الإنجليزية فى مصر حتى وضح للانجليز حقيقة الموقف فى برقة ، فاختار لهـــذه المهمة المجاهد الأمين وموضع ثقة الليبيين جميعا عبد الرحمن عزام (باشا) أو « العزام » ذلك الرجل الذى قض مضاجع المستعمرين فى القطر الليبى ثمانية أعوام تقريبا . فقابل العزام من رجال دار المندوب السامى فى ذلك الحين الماجور تويدى وتحدث إليه طويلا ولكن دون جدوى إذ رفض الانجليز أية مساعدة . على أن هذا الرفض لم يمنع سمو الأمير من أن يطلب إلى السلطات الانجليزية أن تترك لأبناء البلاد من المصريين الذين أظهروا مروءة وشهامة عظيمة عند بدء

الجهاد ضد إيطاليا فى الحرب الليبية الإيطالية السابقة مطلق الحرية فى تقديم ما يشاءون من معونة أدبية ومادية للمجاهدين .

ولكن هذا السعى لم يسفر كذلك عن أية نتيجة ، وكانت دعوى الإنجليز أن مصر قد أضحت بلدا مستقلا وأنهم لا يسعهم أن يتدخلوا فى شأن اعتبروه من شئونها الخاصة بها . وعندئذ اقترح عبد الرحمن عزام على سمو الأمير أن يرجو المغفور له سمو الأمير المصرى عمر طوسون أن يترأس « اكتتابا » من أجل مساعدة المجاهدين فى ليبيا فرحب السيد أدريس بذلك وقابل من فوره الأمير عمر طوسون ولقيت الفكرة قبولا فى بادىء الأمر لدى الأمير المصرى ولكنه طلب مهلة قصيرة حتى يتدبر الأمر ، ثم اتضح فيما بعد أن هناك صعوبات تحول دون تنفيذها ، فأوقف العمل بها .

ولا جدال فى أن السبب فى إخفاق كل هذه المساعى كان مرده إلى نشاط الحكومة الإيطالية التى ظلت تسعى سعيا حثيثا لدى الحكومتين المصرية والإنجليزية حتى تقيد نشاط الأمير السيد إدريس تقيدا كبيرا ، وحتى تقنع الحكومة المصرية بضرورة الحصول على وعد من سموه « بعدم الاشتغال بالسياسة » . ولما كان السيد إدريس لا يزال فى حاجة ملحة للمعالجة فى هذا القطر فقد وجد ألا مناص من إعطاء هذا على أن الوعد « بعدم الاشتغال بالسياسة » أى عدم إبداء أى نشاط سياسى فى مصر لم يكن معناه أن يمتنع الأمير عن تنفيذ اتفاقه مع السيد عمر المختار فقد ظل الأمير على نحو ما بينا فى الفصول السابقة يمد المختار بالمعونة اللازمة ، ويبعث إليه برأيه فى كل ما يحدث من أمور ويرغب المختار استشارة سموه بشأنها ، عن طريق الحاج التواتى البرعصى . ثم استمر سموه كذلك يعمل من أجل تسهيل إيواء التجار اللاجئين الليبيين الذين قصدوا إلى مصر فرارا من الطليان وبطشهم . ووقفت الحكومة الإيطالية على حقيقة هذه الجهود وجددت مساعيها لإبطالها ، وتذرعت فى ذلك بما وقفت عليه من معلومات فى هذا الشأن تمكنها من أن تخطو خطوتها التالية لدى عظيم مصر وعاهلها المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول فرفعت إلى مسامع جلالته ما وصل عليها من أخبار عن إصرار سمو السيد إدريس على المضى فى مساعدة المجاهدين وإنعاش الحركة فى ليبيا من مقر سموه بمصر .

وكان لجلالة العاهل الراحل العظيم فى هذه المسألة موقفا رائعا حقا . فقد طلب جلالته من السيد إدريس فى مقابلة بالاسكندرية فى صيف عام ١٩٢٤ « أن يظل فى سكون » ؛ ثم انبرى رحمه الله يدفع عن السيد كيد الإيطاليين ، ويضفى على السيد إدريس فى الوقت نفسه نوعا من المؤازرة والتعضيد كان له أبلغ الأثر فى ذهاب مساعى الطليان ضد سموه أدراج الرياح واستطاع الأمير فى المدة التالية إبان (مفاوضات الجغبوب) أن ينشر آراءه وآراء المجاهدين

فى هذه المسألة بصراحة وحرية كاملة . ويقول الأمير السيد إدريس وهو يشيد بذكر العاهل العظيم « إن سعيدذو الفقار باشا كبير الأمناءأبلغنى مرارا أن الطليان كثيرا ما كانوا يحملون على جلالة الملك فؤاد رحمه الله رحمة واسعةوأسكنه فسيح جنانه بدعوى أن جلالته «يسكت» عن عمل (السيد إدريس) ونشاطه ، ولكن جلالته كان لا ينى فى الدفاع عن (السيد)ويقول للطليان إن الأخبار التى وصلتهم غير صحيحة. وأن السيد أدريس « ساكت » وهادى. وأنه لا يفعل شيئا مما يقوله الطليان » .

وقد وجد الطليان إزاء اشتداد مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر عقب عودة السيد عمر المختار من مصر إلى برقة وبسبب فشلهم فى منع السيد إدريس من مساعدة المجاهدين وإيواء اللاجئين وتدبير الحملات ضد الطليان بالنشر والكتابة فى الصحف المصرية يكشف عن نواياهم ويفضح للملأ أساليبهم ، وجد الطليان أن يحاولوا الاتفاق مع سموه بالطرق الودية على إنهاء النضال فى برقة . فبعث وزير المستعمرات الايطالى إلى مصر فى غضون عام ١٩٢٥ مستشرقا إيطاليا هو الأستاذ الكومنداتور ماريو موريتو حتى يجتمع بسمو السيد إدريس للمفاوضة معه وكانت عروض ماريو موريتو تتلخص فى أن تتعهد إيطاليا بكل ما يضمن أسباب الراحة والرفاهية لسمو السيد ولأفراد الأسرة السنوسية ، لقاء أن يقبل سموه الإمارة على الواحات الجنوبية فى برقة فحسب . فلم تلق هذه العروض إقبالا من سموه أوموافقة عليها ، ذلك بأن السيد رفض المفاوضة مع الحكومة الإيطالية إلا على أساس واحد هو استقلال البلاد وتمتعها بحريتها الكاملة .

وفى الواقع كان الاتفاق بين سمو السيد وبين الطليان على غير أساس الاستقلال من الأمور التى يستحيل تحقيقها وكان من أسباب ذلك أن المفاوضات بين مصر وإيطاليا بشأن تعديل الحدود المصرية الليبية كانت قد بدأت بصورة جدية على أساس إدخال واحة الجغبوب ضمن الحدود الليبية أى تمكين الطليان من الاستيلاء على هذه الواحة وبسط سلطانهم عليها . وقد اتجه الرأى فى أول الأمر إلى إنشاء منطقة حرة « محايدة » على طول الحدود المصرية البرقاوية تدخل فى دائرتها واحة الجغبوب ذاتها ويتعهد الفريقان الإيطالى والمصرى «بعدم دخول تلك المنطقة» ، ونظرت الحكومتان هذا المشروع فى إبريل ١٩٢٥ ، وكان الرأى الذائع على نحو ما نشرته الصحف وقتذاك أن الحكومتين قد قبلتا إنشاء منطقة حرة أومنطقة حياد على الحدود. بيد أن المفوضية الإيطالية فى مصر ما لبثت حتى بادرت بتكذيب هذه « الاشاعات » فى أوائل يولية من العام نفسه . وفى شهر أغسطس عنيت اللجنة المصرية المكلفة بالمفاوضة مع المندوبين الطليان « بوضع المذكرات وتهيئة المستندات التى تثبت حق مصر فى واحة جغبوب لتكون معدة عند البدء فى المفاوضات المزمع الشروع فيها بعد عودة رئيس هذه اللجنة (معالى) إسماعيل

صدقى باشا وكان (معاليه) قد أبحر إلى أوروبا فى منتصف هذا الشهر .

وفى سبتمبر ١٩٢٥ قبل اسماعيل صدقى باشا رئاسة لجنة الحدود الغربية نهائيا ، وفى ٢ نوفمبر عقدت لجنة الحدود جلستها الأولى . وفى ٢ ديسمبر قالت جريدة المقطم « يلوح لنا من المعلومات التى استقيناها من المصادر العليمة أن اللجنتين المصرية والايطالية اللتين عينتا للفصل فى مسألة الحدود بين مصر وطرابلس أوشكتا أن تصلا إلى حل نهائى قاعدته ترك واحة الجغبوب للايطاليين مع بقاء مقام السيد المهدى السنوسى وجيرته حرما . وهذه الجيرة تشمل مسجدا وبئرا ماؤها أجاج ومبانى يسكنها طلبة المسجد ونخلا . ويقال إن الاتفاق يتناول وجوب محافظة الايطاليين على حدود مصر الغربية محافظة تامة . وقد تنازلت إيطاليا لمصر مقابل ذلك عن بئر فى جهة السلوم تملكها إيطاليا وهى تبعد ٧ كيلو مترات عن النقطة التى يرابط فيها الجيش المصرى ، وهذه الكيلو مترات ملك لايطاليا ، والبحث يدور الآن على اتباعها للبئر وبالتالى للحكومة المصرية . فاذا تم ذلك فالمرجح أن اللجنة المصرية تنصح حكومتنا بقبول هذا الحل قبولا نهائيا بين مصر وإيطاليا » .

وفى ٢ ديسمبر ١٩٢٥ تم الاتفاق بين مصر وإيطاليا «بشأن تعيين الحدود الغربية للقطر المصرى » ، ووقع الاتفاق عن الحكومة المصرية صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية ، وعن الحكومة الايطالية المأركيز نجرتو كامبيازو . وكان هذا الاتفاق يتألف من عشر مواد تناولت المادة الأولى منها تخطيط الحدود المصرية البرقاوية بصورة تدخل الجغبوب ضمن الحدود الليبية ، وأعدت خريطة تبين خط الحدود المعين فى هذه المادة وهى تعد جزءاً متمما للاتفاق حسب المادة الثانية . ثم نصت المادة الثالثة على أن « تعين السلطات العليا لكل من الحكومتين المتعاقدتين فى ظرف ثلاثة شهور من تاريخ اعتماد هذا الاتفاق لجنة مختلطة لتحدد فى الأراضى نفسها خط الحدود المبين فى المادة الأولى» ، وفى المادة الرابعة تعهدت الحكومتان المصرية والايطالية « بضمان حرية مرور القوافل الايطالية والمصرية المتوجهة من السلوم إلى جغبوب ضمانا تاما على طرق القوافل ، ولا يدفع أى رسم أو أية ضريبة لمرور هذه القوافل التى يجوز لها تماما أن تستمر فى استعمال مياه الصهاريج لحاجتها العادية وكذلك المآوى الموجودة بالقرب من الطرق المشار اليها » . ونصت المادة الخامسة على أنه « رغبة فى توفير مياه الشرب لسكان السلوم تتنازل إيطاليا لمصر عن ملكية بئر الرملة التى تستغلها الآن الحكومة الايطالية وعن منطقة تحيط بالبئر المذكورة وبممر من الأرض يكون اتجاهه على محور وادى الرملة يكفى لإيصال هذه البئر بالحدود المصرية » ، وجاء فى المادة السابعة « وتتعهد إيطاليا ومصر باتخاذ الوسائل اللازمة لمنع غارات العربان كل فيما يتعلق بأراضيها » .

وتعهدت الحكومتان الإيطالية والمصرية فى المادة الثامنة بأن تعينا « فى خلال الثلاثة الشهور التالية لاعتماد هذا الاتفاق لجنة مختلطة لتسوية المسائل الآتية :

(١) جنسية سكان المنطقة الداخلية فى العشرة الكيلومترات شمالى السلوم وسكان مجموعة واحات جغبوب لتقرير ما إذا كان يصح منح حق اختيار وإلى أى مأوى وإلى أى السكان أو بعضهم .

(٢) رسوم المرعى والسقاية والبذر فيما يتعلق بالسكان الرحل الذين ينتقلون على خط الحدود على قاعدة مبدأ تبادل الإعفاء من كل رسم وضريبة .

(٣) النظام الجمركى للتجارة على الحدود على قاعدة التساهل من الجانبين فيما يتعلق بتعريفة الرسوم الجاري العمل بها الآن مراعاة للحالة التى يكون عليها سكان الحدود على أثر تعيين خط الحدود بين مصر وبرقة تعيينا نهائيا .

(٤) المسائل القضائية الخاصة بالأشخاص الرحل لتقرير محاكمة هؤلاء الأشخاص سواء أكانوا إيطالى التبعية أم مصريين أمام المحاكم وهيئات القضاء فى مناطق الحدود التى يوجدون فى دائرتها . ويكون من المفهوم أيضا إذ أقام هؤلاء الأشخاص مدة تزيد على سنة فى إحدى مناطق الحدود يكونون خاضعين لنظام الضرائب المقررة على الرحل المعمول به فى المنطقة المذكورة » .

وأما إذا وقع خلاف فى تطبيق الاتفاق فقد نصت المادة التاسعة على أن يعرض هذا الخلاف على لجنة تحكيم من مندوبين عن الدولتين إيطاليا ومصر ؛ ونصت المادة العاشرة والأخيرة على اعتماد هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من برلمان كل من الدولتين .

وكان لإبرام هذه الاتفاقية وقع سيء فى مصر وحملت الصحافة المصرية وزارة أحمدزيور باشا رحمه الله مسئولية ضياع واحة الجغبوب : وكان من مظاهر الاحتجاج إضراب التلاميذ فى دور العلم ، وكتبت الصحف المقالات الطويلة تنعى على الحكومة تصرفها فى هذه المسألة الخطيرة ، من ذلك مقال شديد العبارة نشرته جريدة (الأخبار) فى عدد ٧ ديسمبر ١٩٢٥ تحت عنوان « ماتت جغبوب لتحيا جغبوب ــ هو الحى الباقى ! » .

وترجع مساعى إيطاليا للاستيلاء على هذه الواحة التى هى مركز السنوسية العتيد فى برقة والتى ظلت القاعدة التى يستند اليها الجهاد فى القطر الليبى ضد الطليان منذ أن أغار هؤلاء على برقة وطرابلس حتى عام ١٩١٥ ، فقد رأى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى يجتذبوا إيطاليا إلى جانبهم فتترك دول الوسط وتنضم إليهم أن يبذلوا لها الوعود السخية ، فأبرمت فى لندن فى غضون عام ١٩١٥ إتفاقية بين انجلترة وإيطاليا . نصت مادتها الثامنة

على أنه فى حالة الانتصار والفوز وفى مقابل تبادل المنافع الاستعمارية بين فرنسا وانجلترة على حساب ألمانيا يكون لإيطاليا حق تعديل حدود مستعمراتها الإفريقية فى برقة والصومال وبناء على ذلك فقد دارت المفاوضات فى عام ١٩١٩ بين اللورد ملنر عن انجلترة والسنيور شالويا عن إيطاليا للبحث فى أمر تعديل حدود الصومال الإيطالى على أساس تنازل انجلترة عن جوبا ، ثم فى أمر تعديل حدود طرابلس الغرب على أساس تنازل انجلترة كذلك عن جغبوب وقد أسفرت هذه المباحثات السياسية عن مشروع اتفاق قدمته وزارة الخارجية الانجليزية للسنيور شالويا فى أبريل ١٩٢١ ؛ وقد سألت وقتذاك الحكومة الانجليزية رأى الحكومة المصرية فى هذا الموضوع فى شهر يونية من العام نفسه ، ولكن الحكومة المصرية قررت الاحتفاظ برأيها ولم تجب بشيء . وفى شهر أبريل ١٩٢٢ طلب السنيور شالويا تعديلات كثيرة أراد إدخالها على هذا المشروع ، ووقفت المفاوضات بين الدولتين عند هذا الحد ، حتى إذا كان شهر يونية من العام نفسه استأنفت إيطاليا المفاوضات مع بريطانيا ، فأحالتها هذه على مصر التى أصبحت دولة مستقلة وصار قبولها لذلك ضروريا لعقد الاتفاق . وقد طلبت الحكومة الإيطالية بعد ذلك من الوزارة المصرية برئاسة المغفور له سعد زغلول باشا فى غضون عام ١٩٢٤ البحث فى هذا الموضوع ، ولكن سفر الرئيس إلى إنجلترة لإجراء المفاوضات الخاصة بالمسألة المصرية مع حكومة المستر رامزى ماكدونالد من جانب ، ثم وقوع حادث اغتيال السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام وما تبع ذلك من حوادث أجل البحث فى موضوع جغبوب ، حتى تألفت وزارة أحمد زيور باشا . فبدأت المفاوضات جديا ، وهى المفاوضات التى انتهت بإبرام اتفاق ٦ ديسمبر ١٩٢٥ . وقد تشكلت على الأثر اللجنتان التى نص على تأليفهما فى المادتين الثالثة (لرسم الحدود) والثامنة (لبحث مسائل الجنسية وغيرها) ؛ وفى غضون عام ١٩٢٦ شرعت اللجنتان تنظران هذه المسائل .

وأما السيد محمد إدريس فقد أظهر خلال ذلك كله منذ مجيئه إلى هذه البلاد يقظة كاملة ، وبذل جهوداً كبيرة حتى يحول دون وقوع الجغبوب فى قبضة الطليان . ومنذ أن بدأت المفاوضات جديا فى أوائل عام ١٩٢٥ أظهر استعداده لأن يبسط آراء على جانب عظيم من الأهمية ، للجنة الحدود الغربية التى تألفت لبحث مسألة الجغبوب قبل الفصل فى مصير هذه المسألة وإبرام الاتفاق النهائى . وأخذ سموه ينشر المقالات فى جريدتى المقطم بالقاهرة ووادى النيل بالإسكندرية فى صيف عام ١٩٢٥ ، وانبرى الكتاب من المصريين الذين اشتركوا فى وقائع الجهاد إبان الحرب الإيطالية الليبية والزعماء المجاهدون كالأستاذ

عبد الرحمن عزام (باشا) — وكان العزام على ما عهدناه فيه دائما فى طليعة المجاهدين والسياسيين الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن حقوق العرب فى ليبيا ومكافحة الاستعمار الإيطالى . — انبرى كل هؤلاء يثيرون الرأى العام المصرى بفضل ما نشروه من بحوث ومقالات عن (واحة الجغبوب) فى كثير من الصحف المصرية . وكان المغفور له أحمد حسنين (باشا) من كبار المؤيدين لهذه الحركة وكان من بين الذين كتبوا فى موضوع واحة الجغبوب وتعديل الحدود المنتظر إلى جانب العزام ، اليوزباشى محمد إبراهيم لطفى المصرى — وقد اشترك إلى جانب المجاهدين فى برقة والجبل الأخضر والبطنان بين عامى ١٩١٢ ، ١٩١٥ — ثم لطفى المندراوى وكان يشغل منصب كبير المترجمين للجيوش البريطانية فى حدود مصر الغربية إبان الحرب العالمية الأولى .

وكان مما اهتم به السيد محمد إدريس بعد إبرام اتفاق الجغبوب فى ديسمبر ١٩٢٥ أن يتاح للعرب القاطنين « فى المنطقة الداخلة فى العشرة الكيلومترات شمالى السلوم وسكان مجموعة واحات الجغبوب » التجنس بالجنسية المصرية ، وذلك حتى يتسنى لهؤلاء النجاة من طغيان الطليان وبطشهم . فبعث سموه إلى جريدة المقطم بمقال نشر فى ٢٨ أغسطس ١٩٢٦ جاء فيه « اطلعت على رسالة مراسلكم بالاسكندرية عن المفاوضات المصرية الايطالية بشأن جنسية السنوسيين ولا يسعنى إزاء ما جاء فيها من الحقائق إلا أن أقدم لكم ولمراسلكم الشكر على سعيكم المستمر لاستكشاف الحقيقة ونشرها على الجمهور وخاصة فى المسائل التى تحيطها السياسة بالإبهام والغموض . . (إلى آن قال سموه) . . إن إيطاليا تعلل تمسكها بإدخال السنوسيين تحت جناح الجنسية الإيطالية بأنها تخشى أن يقوموا ضدها فى برقة لا طرابلس ، ولكن هؤلاء السنوسيين الذين رغبوا فى الجنسية المصرية وأصروا على المطالبة لا يجهلون أن القانون المصرى شديد جدا على من ينحرف عنه وعلى من يخل به وهم لم يقدموا على التجنس بالجنسية المصرية والخضوع لهذا القانون الشديد إلا وهم على ثقة تامة بأنهم خاضعون كل الخضوع لقوانين الحكومة المصرية وليس من المعقول أن الحكومة المصرية تعجز عن تأمين إيطاليا من أفراد قلائل بينما هى تنشر الأمن على ملايين النفوس . ومهما يكن الأمر فإنى على اعتقاد تام أن هـــذا الزعم الواهى سيزول أمام الحق الثابت الذى يتمسك به السنوسيون ، حق الحرية فى اختيار التجنس بالجنسية المصرية » .

ولما كان قد تم الاتفاق بين الحكومتين المصرية والإيطالية عند التوقيع على معاهدة الجغبوب فى ٢ ديسمبر ١٩٢٥ على أن تصدر الحكومة الإيطالية مرسوما بالعفو العام عن الجرائم والجنح السياسية التى وقعت حتى يوم إبرام الاتفاق من سكان المناطق التى حددت ،

فقد أصدرت إيطاليا هذا العفو طبقا لما تعهدت به وأبلغ أمره إلى الحكومة المصرية فى أكتوبر ١٩٢٦ وقد انتهز سمو الأمير السيد إدريس هذه الفرصة فأدلى بتصريح لمكاتب المقطم بالاسكندرية ونشرته جريدة المقطم فى ١٤ أكتوبر ١٩٢٦ جاء فيه « أن السنوسيين لا يعلقون أهمية على العفو المذكور لأن المسألة فى نظرهم تتعلق بالوطنية وأن مثل هذا العفو لا يحول دون استمرارهم فى المطالبة بالجنسية المصرية » .

« وقد طلبوها منذ عهد بعيد من الحكومة المصرية ، وهم يعتقدون بأنهم فى منطقة مصرية بحتة احتلتها إيطاليا فأصبح لأهلها حسب الاتفاقات الدولية حق اختيار الجنسية التى يريدونها وأن العفو مسألة ثانوية لأن السنوسيين يهتمون قبل كل شيء بالوصول إلى حقهم فى اختيار الجنسية وقد اختاروا الجنسية المصرية . (ثم قال سموه) أما إذا أرادت إيطاليا الانتفاع بخدمات السنوسيين ومنزلتهم فلتعلم أنهم إذا خدموا فانما خدمتهم محصورة فى مصالح البلاد التى ينتسب أهلها إليهم ، (وزاد سموه على ذلك) أنه لا الحكومة المصرية ولا الحكومة الإيطالية أبلغتهم هذا العفو رسميا فلم يعرفوا عنه شيئا إلا من المقطم (وقال) أنه لايظن أن أحدا من السنوسيين المقيمين بمصر يقبل الذهاب إلى برقة أو طرابلس ويتنازل عن طلب الجنسية المصرية ، وأنه لايميل إلى تصديق الإشاعات التى يؤخذ منها أن الحكومة المصرية قد تكتفى بالعفو الإيطالى وتسمح لنفسها بأن توعز إلى السنوسيين المقيمين بمصر بمغادرتها بحجة أنهم فى أمان وطمأنينة . ونحن معتقدون بأن حكومة مصر أرسخ قدما فى عالم السياسة من أن توجه إلى ضيوفها والراغبين فى جنسية بلادها كلمة تنم على الطرد من هذه البلاد وهى إسلامية شرقية تعمل فى سبيل نهضتها واستقلالها . وكان لهذا التصريح ولاشك أثره فى أن تسير الأمور بعد ذلك بمايتفق ورغبات سموه ، وبقى السنوسيون واللاجئون الليبيون فى مصر وفضلا عن ذلك فقد أضحت مصر فى السنوات التالية وعند اشتداد وطأة النضال فى برقة ضد الطليان ، مأوى رحيبا لكل أولئك اللاجئين الليبيين الذين استطاعوا الافلات من الحدود التى عزز الطليان حامياتها وأقاموا الأسلاك الشائكة على طولها . وأما البت فى مسألة الجنسية فقد أرجىء إلى مفاوضات مقبلة بين مصر وإيطاليا ! .

وكان فى غضون عام ١٩٢٦ كذلك وفى أثناء المباحثات التى قامت بين مصر وإيطاليا بشأن رسم الحدود بين مصر وليبيا وغيرها من المسائل التى نص اتفاق ٦ ديسمبر ١٩٢٥ على ضرورة تشكيل اللجان لبحثها ، أن جددت الحكومة الايطالية مساعيها من أجل استمالة سمو الأمير إلى إنهاء خلافاته معها . وعلى ذلك فقد أرسل الطليان غداة التوقيع على اتفاقية جغبوب ، أحد أعضاء مجلس النواب الايطالى الدكتور أنريكو أنساباتو ، فوصل

إلى القاهرة فى يناير ١٩٢٦ وطلب مقابلة السيد ، وصار إنسلباتو يجتمع بالأمير تارة فى فندق شبرد وتارة فى منزل سموه وقتذاك بالزيتون ، وقد تبسط الرسول الايطالى فى أحاديثه فادعى القدرة على إقناع موسولينى بالموافقة على جميع مطالب الأمير ، فأعد له السيدادريس مذكرة بهذه المطالب ، وجوهرها تنفيذ الاتفاقات السابقة على أساس معاهدة الرجمة . غير نه حدث بعد ذلك أن حضر من قبل الطليان إلى مصر أحد مندوبيهم يخبر السيد بأن الدكتور أنساباتو ما كان يتحدث إلى سموه على لسان حكومته ، وأن الحكومة الايطالية لاترتبط بشىء مما قد يكون النائب الايطالى قد أدلى به فى أحاديثه مع السيد . وعلى ذلك فقد رفض السيد أن يتحدث مع هذا المندوب الأخير إلا إذا أحضر تفويضا من حكومته يخوله حق التكلم باسمها ، وفى شهر مايو من السنة نفسها جدد الطليان مساعيهم ، فوسطوا فى هذه المرة السيد مرغنى الادريسى شيخ الطريقة الإدريسية بمصر كى يتفاوض مع الأمير فى عودته إلى الوطن ، وفى المطالب التى يطلبها سموه ، فأصر السيد محمد ادريس على ضرورة أن ينفذ الطليان كل المواثيق التى ارتبطوا بها سابقا وخصوصا معاهدة الرجمة . ولم تسفر هذه المفاوضات عن شىء .

وكان الموقف فى برقة فى هذه الأثناء قد زاد خطورة على خطورته ، وتصر الحكومة الايطالية على أن يبدأ واليها فى برقة تيروتزى العمليات العسكرية الكبيرة للقضاء على مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر واحتلال سرت والواحات الداخلية ، وقد وجد تيروتزى على نحو ما سبق ذكره أن القيام بهذه العمليات العسكرية الواسعة يتطلب جهودا شاقة واستعدادات عظيمة وأن من الأوفق الاعتماد على الطرق الدبلوماسية لإخضاع المغاربة من جهة ولوقف نشاط المجاهدين بقيادة السيد عمر المختار من جهة أخرى ، وذلك بأن تبدأ بين المختار ومندوبى الحكومة الإيطالية تلك المفاوضات التى كان من أهم أغراضها كسب الوقت فحسب إلى أن تكمل استعدادات الحكومة العسكرية . ولما كان عمال الحكومة الأيطالية ورجالها فى برقة يعتقدون أن السيد عمر المختار إنما يتبع فى كل أعماله التعليمات والارشادات التى كانت تأتيه من سمو الأمير فى مصر لدرجة أن الطليان اعتقدوا (كما سبق القول) أن نداء المختار المشهور فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩ كان قد جرى إعداده من قبل إذاعته تحت إشراف الأمير فى مصر ، فقد وجد الطليان أن من حسن السياسة لنجاح (حملتهم السياسية) فى برقة أن يصلوا فى الوقت نفسه إلى اتفاق وتفاهم مع السيد إدريس فى مصر . وفضلا عن ذلك فإن السيد عمر المختار نفسه كان فى أثناء كل مفاوضاته مع الطليان سواء فى سانية القبقب أو الشليونى أو قندوله أو سيدى رحومة أو غيرها يكرر القول للطليان انه

لا مناص من الرجوع إلى رأى سمو السيد ادريس فى نهاية الأمر ، وأن اتفاقا لا يحوز رضاء سموه لن يستطيع السيد عمر المختار قبوله . وعلى ذلك فقد طلب (ديمنكى) وزير ايطاليا المفوض فى مصر فى شتاء ١٩٢٩ مقابلة السيد ادريس ؛ وكان سمو السيد وقتذاك مقيما بالأسكندرية , فتوسط فى هذه المقابلة عثمان باشا مرتضى ، وذهب الوزير الايطالى إلى الاسكندرية بصحبه الكومنداتور ديللارمى أحد المديرين بوزارة المستعمرات الايطالية ، وقابل الأمير بحضور عثمان باشا مرتضى فى فندق كلاريدج . وأعرب ديمنكى عن رغبته فى أن يكون واسطة التفاهم بين الأمير والسنيور موسولينى رئيس الحكومة .

وقد تمسك الأمير على غرار ما فعل دائما فى المناسبات السابقة — بضرورة أن يقوم أى اتفاق بينه وبين ايطاليا على اعتراف الحكومة الايطالية اولا بجميع العهود التى قطعتها على نفسها من حيث احترام حقوق الليبيين الوطنية وضمان حرياتهم وتنفيذ الاتفاقات التى أبرمتها مع سموه وفى مقدمة هذه معاهدة الرجمة التى ابرمت فى اكتوبر ١٩٢٠ . ولما كانت ايطاليا قد ارتكبت فعلتها الشنيعة بالقبض على السيد محمد الرضا غدرا وخيانة وأبعدته منفيا إلى أوستيكا ، فقد اصبح الافراج عن السيد الرضا وعودته إلى الوطن دليلا لا غنى عن تقديمه إذا شاءت الحكومة الايطالية أن يثق العرب فى حسن نواياها . وقد أصغى ديمنكى إلى كل هذه المطالب باهتمام زائد ووعد بأن يبذل قصارى جهده لإقناع رئيس حكومته بإجابتها . وبالفعل غادر ديمنكى البلاد إلى ايطاليا . وكان ديمنكى صادقا فى مسعاه فأرجعت الحكومة الايطالية السيد محمد الرضا إلى بنغازى فى مارس ١٩٢٩ . وكان مما أيد مسعى ديمنكى فى هذا السبيل أن السيد عمر المختار كان هو الآخر يلح من جانبه فى ضرورة حضور السيد الرضا المفاوضات الدائرة فى برقة بينه وبين عمال الحكومة الايطالية سيشليانى ودوديائشى وأولى وغيرهم . بيد أن ديمنكى كما أثبتت الحوادث فى ذلك الوقت أخفق فى مسعاه الآخر وهو أن تجيب ايطاليا مطالب الأمير وتعيد إلى البلاد حرياتها المغصوبة وإلى الوطنيين حقوقهم المسلوبة وتعمل على تنفيذ معاهدة الرجمة . والواقع أن ايطاليا كانت فى هذه الآونة تسهر على إنجاز استعداداتها العسكرية وتبيت النية على استئناف النضال بمجرد وصول الإمدادات والنجدات إلى برقة . وعلى ذلك فإن هذه المفاوضات التى دارت فى شتاء عام ١٩٢٩ فى مصر وبرقة معا لم تسفر عن شىء ، وقطعت العلاقات بين المجاهدين والطليان فى برقة واستأنف السيد عمر المختار النضال فى برقة على النحو الذى سبق ذكره .

واتخذ النضال ضد الطليان صورا شتى . فإنه إلى جانب استئناف الجهاد بزعامة المختار فى برقة كان الوطنيون الليبيون الذين اضطروا إلى مغادرة أوطانهم والمهاجرة إلى سوريا وغيرها

من البلدان الإسلامية العربية قد شمروا هم الآخرون عن ساعد الجد والعمل . فتأسست فى دمشق فى عام ١٩٢٨ (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بالشام)، أسسها المجاهد والزعيم الليبى القديم بشير بك سعداوى وانتخب رئيسا لها . وكانت هذه الجمعية تضم إليها صفوة من المجاهدين كسكرتير الجمعية عمر فائق شنيب (بك) ، وأمين الصندوق فوزى النقاش ثم عبد الغنى الباجقمى وكامل عياد وعبد السلام أدهم والبمباشى طارق ومحمد ناجى التركى ومصطفى بن نوح وأحمد راسم وأبو بكر قدورة ومنصور بك بن قدارة وأبو بكر التركى وخليفة شعبان. وعمل هؤلاء السادة جميعا على إعداد البحوث التى تكشف عن أعمال الطليان وفظائعهم فى القطر الليبى وصاروا ينشرونها فى الصحف ، وأبدى بشير السعداوى نشاطا فائقا فنشر بحوثا ومقالات كثيرة ، وحذا حذوه عمر فائق شنيب . وفى عام ١٩٢٩ وضعت الجمعية (الميثاق الوطنى) المشهور (للشعب الطرابلسى البرقاوى) ، فنصت المادة الأولى منه «على تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس — برقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة» وطلب الميثاق فى مادته الثانية «دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد» ، وفى المادة الثالثة «انتخاب الأمة مجلسا نيابيا حائزا على الصلاحية التى يخوله إياها الدستور» ، وفى المادة الرابعة «اعتبار اللغة العربية الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم» وفى المادة الخامسة «المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليد القطر فى جميع أرجائه» ، وفى المادة السادسة «العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية منتخبة» ، وفى المادة السابعة «العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه» ، وفى المادة الثامنة «تحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة خاصة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى» . ومما تجدر ملاحظته أن البند الأول من هذا الميثاق كان يتفق مع ما اجمعت عليه كلمة المجاهدين الليبين فى قصر سرت قبل ذلك بسبعة أعوام (١٩٢٢) ، وكان الأساس الذى قامت عليه فى الواقع بيعة أهل طرابلس بالإمارة للسيد محمد إدريس على القطر الليبى بأجمعه . وعلاوة على ذلك فإن نصوص الميثاق الأخرى كانت تتضمن كل تلك المبادىء التى تضمنها القانونان الأساسيان اللذان استصدرهما الطليان لقطرى برقة وطرابلس فى غضون عام ١٩١٩ وكانت تتضمنها كذلك معاهدة الرجمة التى وقعها الأمير السيد محمد إدريس بعد ذلك مع الحكومة الايطالية ولم ينفذ الطليان شيئا من ذلك كله .

وكان من عوامل نجاح (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بالشام) إلى جانب نشاط مؤسسها بشير السعداوى وما اتصف به من سداد الرأى وبعد النظر ، أن سمو السيد ادريس أولاها عنايته الفائقة ، فصار يمدها بالمساعدات القيمة ، يرسل لها الامدادات المالية حينا

ويبعث إليها بواسطة رسله الموثوق بهم بالمعلومات حيناً أخرى ثم يزودها بالاخبار التى كانت تعينها على معرفة مايجرى فى أرض الوطن من احداث وماكان يرتكبه الطليان من فظائع . وكان بفضل هذه المساعدات المستمرة أن تمكنت الجمعية من دعم مركزها ومتابعة النشر والقيام بحملة صحافية واسعة تهيب بالعالم العربى والاسلامى أن ينهض لمؤازرة المجاهدين فى الاقطار الليبية بكل الطرق ، ونشرت (اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية) نص الميثاق وقدمت له بنداء خاطبت فيه مواطنيها فى الاقطار العربية ، جاء فيه «أيها الاخوان الاعزاء . إن الواجب يقضى عليكم أن تعملوا الخير بلادكم وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع كلمتكم وأن تؤلفوا فى كل قطر تسكنونه (جمعية) تلم شعثكم وتجمع شملكم وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطنى . . . فالله لايضيع أجر من أحسن عملا ؛ وارفعوا أصواتكم بالشكوى مما تلاقيه أمتكم البائسة من مظالم الايطاليين واملؤا الصحف بالمقالات والفضاء بالاحتجاجات وانشروا النشرات وقفوا للحوادث بالمرصاد وانتهزوا الفرص وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع ؛ فالفكرة الناضجة تكون الأمم وتبعث فيها روح اليقظة والانتباه ؛ ثم ربوا نشأكم على حب الوطن والحرية والاستقلال ، أرضعوهم هذه المبادىء مع اللبان وانفثوها فى صدورهم منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار . علموهم مناقب السلف الصالح وأبطال التاريخ والفتح الإسلامى فإنها تبث فى نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادىء الوطنية . وليكن شعاركم الاستقلال وتخليص وطنكم من الأغلال . وفكروا فى الوسائل التى تقربكم من هذه الغاية الشريفة . فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد بها الصلف والغرور إذا رأتنا أمامها أمة ناهضة منتشرة فى الآفاق واقفة لها بالمرصاد تحارب الظلم والاستبداد ولا تدين لسنن الاستعمار والاستعباد لابد أن تذعن لمطالبنا الحقة ولميثاقنا القومى الذى عاهدنا الله على تحقيقه ببذل النفس والنفيس والله مع الصابرين» .

وقد استطاعت الجمعية أن توسع دائرة نشاطها فطلبت من المرحوم الأمير شكيب أرسلان فى عام ١٩٢٩ وكان الأمـــير شكيب وقتذاك بالحجاز أن يعاونها ، فلبى الأمير شكيب هذا الطلب وأخذ من ذلك الحين ينشر الشىء الكثير عن فظائع الطليان فى ليبيا فى الصحف والمجلات وفى نشرات صغيرة يسهل تداولها ؛ وأفلح رحمه الله فى أن يسترعى انتباه العالم إلى ما كان يفعله الطليان فى برقة وطرابلس وما يرتكبونه من فظائع ومنكرات ، وبخاصة عندما دانت لهم الكفرة وغيرها من المراكز الدينية الإسلامية فى البلاد ومما يجدر ذكره أن الأمير شكيب ظل مثابرا على الدفاع عن القضية الليبية حتى عام ١٩٣٠ . واستطاعت الجمعية أن تؤسس فرعا فى تونس فى عام ١٩٣٠ أنشأه المجاهدون الليبيون الذين لجأوا إلى تلك الديار . وأحكم فرع

الجمعية بتونس صلاته مع المركز الرئيسي بدمشق ؛ ثم والت الجمعية نشاطها فاستمرت تصدر النشرات تصف فظائع الطليان وتحذر فيها الأمم العربية من تصديق دعايتهم الكاذبة المغرضة وتسوق الحجة بعد الحجة فى الدفاع عن حقوق البلاد . وابتكرت الجمعية وسائل عدة لإيصال هذه النشرات إلى داخل القطر الليبي نفسه ، وبذلت جهودا كبيرة لتوزيع نشراتها فى جميع أنحاء العالم العربى . وفى عام ١٩٤٠ أعيد تشكيل الجمعية من جديد فى دمشق برئاسة الدكتور كامل عياد يضم إليه نخبة من أفاضل المجاهدين كالسيد عبد الغنى الباجقمى (أمينا للسر) وأبى بكر قدورة وغيرهما ، وبقيت الجمعية تعمل من ذلك الحين تحت إرشاد الأمير السيد إدريس وتوجيهه .

وفضلا عن ذلك فقد استمر الأمير فى خلال عامى ١٩٣٠ ، ١٩٣١ يمد المجاهدين فى الجبل الأخضر بكل معونة أمكن سموه أن يجد سبيلا إلى إيصالها اليهم . ومما يجدر ذكره أن المرحوم الأمير عمر طوسون ظل يعضد مساعى السيد إدريس لنجدة المجاهدين كلما أمكن ذلك . وعند ما بلغ السيل الزبى واشتدت صرامة الطليان وقسوة عملياتهم العسكرية ضد المجاهدين ثم اتخذوا تلك التدابير التى كان الغرض منها منع اتصال المجاهدين بالجبل الأخضر بالأهالى ومنع وصول أية إمدادات اليهم عبر الحدود المصرية ، فأنشأوا المعتقلات التى سبق الحديث عنها ومدوا الأسلاك الشائكة المكهربة وعززوا مراكزهم المسلحة على طول هذه الأسلاك الشائكة ، بات من الصعوبة بمكان إرسال الأمدادات إليهم وانصرف الاهتمام بعد ذلك الى ارسال عدد من (المقصات) التى يستطيع بها المجاهدون إذا حاولوا الإفلات من الحدود أن يجدوا لهم منفذا من سياج الأسلاك الشائكة . وقد استمر الحال على ذلك حتى وفاة السيد عمر المختار فى سبتمبر ١٩٣١ . وقد سبق القول كيف أن استشهاد المختار كان مؤذنا بانتهاء المقاومة الجدية فى برقة .

والواقع أن الطليان تمكنوا بعد ذلك من السير حثيثا فى تنفيذ برنامجهم الاستعمارى القائم على إبادة العرب وإفنائهم ، وبلغت الأحوال درجة عظيمة من الخطورة ، وصار من المتعذر اسداء أية معونة جدية الى فلول المجاهدين الذين حاولوا هم الآخرون الإفلات من قبضة الطليان على نحو ما سبق تفصيله . وفى هذه الاثناء ظل الأمير السيد ادريس ملاذا لكل لاجىء الى القطر المصري . وكان أكبر اهتمام سموه فى هذه الفترة العصيبة أن يعمل على تنوير الرأى العام ليس فقط فى العالم العربى والاسلامى بل وفى جميع الاقطار الأخرى . وأقام سموه ردحا من الزمن فى حمام مريوط قريبا بقدر المستطاع من شعبه البائس .

وكان فى أثناء إقامة السيد إدريس فى حمام مريوط أن زار مصر ملك إيطاليا عمانويل

الثالث فى غضون عام ١٩٢٣ . فقيدت حركة الأمير إلى وقت انتهاء هذه الزيارة . وشغل العالم فى السنوات القليلة التالية بظهور ذلك المشروع « العظيم » الذى استعدت إيطاليا لتنفذه منذ عام ١٩٣٣ من أجل إنشاء امبراطوريتها العتيدة فى إفريقية الشرقية وذلك بالإغارة على الحبشة وافتتاحها . وفى العام التالى (١٩٣٤) اتخذت إيطاليا من بعض المنازعات القبلية ذريعة لزحف جيوشها على الحبشة ، وما أن حل خريف عام ١٩٣٥ حتى كانت قد نفذت مشروعها « العظيم » ، وعندئذ وقعت عصبة الأمم الماضية العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ولكن دون جدوى فتم للطليان افتتاح الحبشة ، وضمتها إيطاليا فى ٩ مايو ١٩٣٦ . فأضحت جزءا من امبراطوريتها واتخذ ملك إيطاليا لقب امبراطور اثيوبيا . وكان من نتائج هذا الحادث أن ساءت العلاقات بين إيطاليا وانجلترة على وجه الخصوص لاسباب عدة ، منها موقف الانجليز من مسألة توقيع العقوبات الاقتصادية على ايطاليا وعدم استقرار سياستهم قبل ذلك بصدد أطماع ايطاليا الاستعمارية . وبلغت الامور من الحرج بين الدولتين درجة جعلت كثيرين من المجاهدين الليبيين يتوقعون أن يسفر تأزم العلاقات بين انجلترة وايطاليا عن استئناف الجهاد فى ليبيا بصورة جدية وبمؤازرة بريطانيا العظمى فى هذه المرة ، وقد حدث فعلا وقتذاك ماعزز هذه الآمال كثيرا .

فقد قابل الكولونيل برملو (بك) الأمير السيد إدريس فى حمام مريوط فى غضون عام ١٩٣٦ إبان اشتداد الأزمة بين انجلترة وإيطاليا وفى الوقت الذى كانت فيه جيوش الطليان المجهزة بالأسلحة الحديثة والطائرات والغازات السامة قد قضت على مقاومة الحبشان . وفى هذه المقابلة أخبر برملو السيد إدريس أن أميرال الأسطول الانجليزى الرابض بالإسكندرية يبغى مقابلته والتحدث اليه فى أمور شتى . فذهب السيد لمقابلة الأميرال الانجليزى واحتفى به الأميرال وتحدث إلى سموه عن المستقبل «الطيب» الذى ينتظر الأقطار الليبية . ولكن هذه المقابلة وتلك الأحاديث لم تسفر عن شىء لأن انجلترة لم يكن فى استطاعتها وقتذاك إعلان الحرب على إيطاليا . أضف إلى هذا أن رجال حكومتها كانوا شديدى الحرص على السلم فى أوروبا والعالم ويعتزمون المضى فى تلك السياسة التى صارت تعرف فى التاريخ الأوروبى المعاصر باسم سياسة التسكين والتهدئة . فكان من أولى آثار هذه السياسة بالنسبة لإيطاليا رفع العقوبات الاقتصادية عنها نهائيا فى أواسط عام ١٩٣٧ . وعلى ذلك فإنه بمجرد انتهاء حادث الحبشة لم يتجدد البحث فى ذلك المستقبل الطيب الذى كان ينتظر الأقطار الليبية وأما ما فعله الطليان فى ليبيا نفسها فى أثناء هـــذه الحرب من تجنيد ألوف الليبين فقد سبق ذكره .

وكانت ايطاليا قد عمدت الى بذل المال بسخاء والى نشر دعاية واسعة بين اللاجئين والمهاجرين فى مصر وغيرها تستميلهم الى العودة الى ليبيا للانخراط فى الجيش المعد لغزو الحبشة . ووعدت الحكومة الايطالية هؤلاء الراجعين بإعطائهم عند وصولهم الى أرض الوطن الإبل والماشية بأثمان يدفعونها أقساطا صغيرة للحكومة العسكرية فانخدع عديدون بهذه الأقوال والوعود المعسولة وغادروا مصر إلى برقة ، فكان الطليان عند وصولهم إلى درنة ينتقون الصالحين منهم للخدمة العسكرية ويجندونهم ، وأما غير الصالحين للخدمة فى الجيش فانهم كانوا يسرحونهم دون أن يعطوهم شيئاً مما وعدوهم به .

وواقع الأمر أن اعتداء الطليان على الحبشة كان وبالا عليهم لعدة أسباب يتصل بعضها بالموقف السياسى فى أوروبا ذاتها وما لحق بإيطاليا من ضعف على أثر استنفاد قوتها ومواردها فى الحرب الحبشية ثم فى الحرب الأهلية الأسبانية التى رأى موسولينى أن يساهم فيها بنصيب وافر . وفضلا عن ذلك فان إيطاليا التى كان دأبها نقض عهودها مع الليبيين سرعان ماسببت تذمراً عميقا بين أولئك الليبيين الذين أرغمتهم الظروف على مؤازرة إيطاليا فى حكم بلادهم أو اعتقدوا أن من مصلحة البلاد قبول الحكم الإيطالى مادام الجهاد قد بات متعذراً فى طرابلس وبرقة معا . فقد وعدت الحكومة الإيطالية أن تعيد للبلاد حرياتها وتضمن للشعب الليبى « السعادة والرفاهية ، وتعلن العفو العام وتعيد الأملاك المصادرة إلى أصحابها » وكل ذلك ثمنا لتلك الجهود العظيمة التى بذلها الليبيون فى مؤازرة الطليان فى الحرب الحبشية عندما جند من العرب فى عام ١٩٣٥ حوالى أربعين ألفا . وقد شاهد أهل البلاد فلول هذه القوة الليبية المحاربة تعود إلى أوطانها وأكثر أفرادها الذين كتب لهم الخلاص والبقاء على قيد الحياة فى حال يرثى لها بسبب المرض وما أصابهم من عاهات وجراح بالغة . ومع ذلك فان الطليان لم ينفذوا شيئاً من وعودهم وقد سبق القول كيف عقد الليبيون آمالا عظيمة على زيارة موسولينى لبلادهم فى عام ١٩٣٧ ، ولكن هذه الزيارة لم تسفر عن شىء ، بل مضى بالبو ينفذ مشروعات « تعمير » الأراضى ويجلب ألوف الطليان للتوطن والاستقرار فى ليبيا .

فكان من أثر ذلك كله أن بدأ الموالون للحكم الإيطالى فى ليبيا يتحرفون رويداً رويداً عن تأييده ؛ وكان مما زاد فى نفورهم أن الطليان المقيمين بالبلاد والذين أسموا أنفسهم أو أطلق عليهم العرب اسم (حزب الاستعمار الايطالى) صاروا يستبدون بالأمر ويتمتعون بنفوذ ملحوظ فى الدوائر الحكومية ، بل ويوجهون سياسة الحكومة الايطالية المحلية فى ليبيا ، وإلى حد كبير كذلك سياسة الحكومة المركزية فى رومة بصورة تمنع كل ليبى من مشاركة هؤلاء الاستعماريين فيما صاروا يدعون أنه « خبزهم أو عيشهم هم وحدهم فقط » فيسدون على الليبيين أهل البلاد أبواب الرزق ويعملون على تشريدهم . وعلى ذلك فإنه ماجاء عام ١٩٣٩

حتى كانت الحال فى داخل البلاد قد بلغت غاية الخطورة واشتد التذمر بين طبقات الأهلين جميعا وبات من المنتظر إذا وقع جديد فى أفق السياسة الدولية وشغلت إيطاليا فى حرب ضروس أخرى أن ينقلب عليها أهل البلاد قاطبة عند أول بادرة. وكان المحك الذى أظهر فشل الاستعمار الايطالى فى ليبيا أمام العالم نشوب الحرب الكونية الثانية.

وبدأت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ باعتداء ألمانيا النازية على بولندة، وحرصت إيطاليا فى أول الأمر على عدم خوض غمارها حتى إذا رأت فرنسا تنهار على أثر الزحف الألمانى الخاطف عليها، أعلنت إيطاليا الحرب على انجلترة وفرنسا فى ١٠ يونيه ١٩٤٠ فمهدت بذلك العمل إلى زوال امبراطوريتها الافريقية وانهيار دولتها الفاشيستية فى النهاية. وكان دخول ايطاليا الحرب إلى جانب حليفتها المحورية ألمانيا ضد بريطانيا الفرصة التى ظل الليبيون فى المهاجر وفى أوطانهم ينتظرونها للتحرر والخلاص واسترداد حقوقهم التى اغتصبها العدو أعواما طويلة، فما دخلت ايطاليا الحرب حتى شرع الليبيون فى العمل، فاتصل فريق منهم بالمفوضية الفرنسية بالقاهرة وغادروا مصر فعلا إلى الجزائر حيث اتصلوا بالجنرال (نوجس) واتفقوا معه على أن يجهزوا حملة من الليبيين الموجودين فى الجزائر وتونس للعمل ضد الطليان فى ليبيا، غير أن استسلام فرنسا قضى على تنفيذ هذا المشروع. وفى نفس الوقت ظل فريق آخر من الليبيين يعمل تحت رئاسة الأمير السيد ادريس، الذى كان يتخذ الأهبة لهذه الساعة الفاصلة من بداية الحرب الهتلرية.

ذلك أنه منذ أن بدأ النازيون اعتداءاتهم بغزو بولندة وظهر أن حربا عالمية لامحالة واقعة عظم نشاط الأمير ثم سرعان ما أخذ يفد إلى مقر سموه بالاسكندرية كبار اللاجئين العرب من أهل ليبيا يبحثون جميعا فى احتمالات الموقف ووضع الخطة التى يجب أن يسيروا عليها وكانت الحكومة المصرية قد جمعت من قبيلة أولاد على جيشا يشبه الجيش المرابط سمته (سرايا العرب) جعلت مهمته القهر على حماية الحدود الغربية. وعندما وقعت الحرب، طلبت الحكومة من مشايخ المهاجرين وكبارهم فى حدود الصحراء الغربية الانضمام إلى هذه السرايا، ولكن هؤلاء رفضوا حتى يتصلوا بسائر إخوانهم فى الصعيد والفيوم والبحيرة، وبالفعل ذهب منهم وفد لمقابلة رؤساء المهاجرين فى هذه الجهات، ثم قر الرأى على أن يعقد الجميع اجتماعا في منزل الأمير سمو السيد ادريس بالاسكندرية لبحث الموضوع واتخاذ قرار نهائى. وفى يوم ٦ رمضان ١٣٥٨ (٢٠ اكتوبر ١٩٣٩) اجتمع حوالى أربعين شيخاً من رؤساء الليبيين وزعمائهم الموجودين بمصر فى منزل سمو السيد محمد ادريس فى جهة فكتوريا برمل الاسكندرية، وظلوا يتباحثون ثلاثة أيام بتمامها، وأسفر تبادل الرأى عن اتخاذ

قرار بتفويض الامير فى أن يقوم بمفاوضة الحكومة المصرية أو الحكومة الانجليزية بشأن تكوين جيش سنوسى مهمته الاشتراك فى افتتاح الاقطار الليبية واسترجاع أرض الوطن عند دخول ايطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ، وأكدوا اختيارهم لسمو السيد ادريس ووضعوا ثقتهم الكاملة فى سمــوه حتى يمثلهم تمثيلا كاملا فى جميع مايعرض من شئون ثم وقعوا على وثيقة بهذا المعنى فى يوم ٩ رمضان ١٣٥٨ (٢٣ اكتوبر ١٩٣٩) جاء فيها :

« بعد حمــد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، قد اجتمع زعماء ومشايخ الجالية الطرابلسية البرقاوية المهاجرين بالديار المصرية فى اليوم السادس من شهر رمضان المعظم ١٣٥٨ بالاسكندرية وتشاوروا فى حالتهم الاستقبالية وقر قرارهم على انتخاب من يمثلهم فى كل الامور ويعرب عن آرائهم وبذلك وضعوا ثقتهم فى سمو الأمير السيد محمد ادريس المهدى السنوسى الذى يمثلهم تمثيلا حقيقيا لما له من المكانة الرفيعة فى نفوسهم حيث يرونه أحسن قدوة يقتدى بها . وقد قبل منهم ذلك على أن تكون هيئة منتخبة شورية مربوطة به ومربوطة بها لتكون الأداة المبلغة والمعربة عن منتخبيها وهى التى تمثل جميعهم تمثيلا صحيحا وأن يعين وكيلا لها يقوم مقامه فى حالة الغياب ويكون من أفراد الهيئة فى حالة حضوره وللهيئة الحق فى تثبيت هذا الوكيل أو رفضه بأغلبية الأصوات وعليه حرر هذا للتوقيع رؤساء القبائل الطرابلسية البرقاوية . والمولى سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه » .

وقد بلغ عدد الذين وقعوا على هذا التفويض من ترهونة ومطراتة وبنغازى وورفلة وغريان والقصور والمنفة والعواقير والبراعصة والعبيد والمغاربة والحاسة وغير ذلك من القبائل الطرابلسية والبرقاوية أحد وخمسين شيخا منهم من المجاهدين القدماء عبد السلام الكزة عن قبيلة العواقير وصالح الاطيوش رئيس قبيلة المغاربة وعبد الحميد العبار وعون محمد سوف وأحمد شتيوى وعبد الحميد أبو مطارى ومحمد توفيق الغريانى وابراهيم احمد الشريف السنوسى وغيرهم .

وعلى ذلك فقد اجتمع سمو الأمير بالجنرال ويلسن Wilson قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى ، وتحدث إليه فيما اتخذه الرؤساء الليبيون من قرارات ، وابلغه استعداد الليبيين الموجودين بمصر للدفاع عن الحدود المصرية والزحف مع الجيوش الحليفة إلى بلادهم إذا أعلنت ايطاليا الحرب ودخلت هذه الجيوش الأراضى الليبية .

وكان لهذا القرار الحكيم صداه فى دوائر المجاهدين القدماء فى خارج القطر المصرى وعلى وجه الخصوص فى دمشق ، فقد بادرت (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى) بمجرد أن

وصلتها أخبار اجتماع الأسكندرية ، بعقد اجتماع فى دمشق فى يوم ٢٩ شوال ١٣٥٨ (١١ ديسمبر) ، واطلعت على صورة القرار الموقع عليه من زعماء ورؤساء المجاهدين فى القطر المصرى بتاريخ ٩ رمضان ١٣٥٨ (٢٣ أكتوبر ١٩٣٩) وهو القرار الذى يتضمن على حد قول جمعية الدفاع « أن جميع الزعماء ورؤساء القبائل وكبار المجاهدين بدون استثناء اتفقت كلمتهم وتعاهدوا جميعا على أن يدينوا بالولاء والطاعة والاخلاص لسمو الأمير السيد محمد ادريس المهدى السنوسى وأنهم عقدوا علية الآمال فى حالهم ومستقبلهم ليمثل أمام الحكومات والسلطات والهيئات آمانى القطر الطرابلسى البرقاوى تمثيلا حقيقيا صحيحا ، ويتكلم باسم الجميع على أن تكون له هيئة منتخبة منهم وله نائب يقوم مقامه عند مسيس الحاجة ، وتليت التوقيعات فتبين أنها هى توقيعات من بأيديهم الحل والعقد فى القطر الطرابلسى البرقاوى من الاحرار الذين عاهدوا الله على الدفاع عن الوطن وحقوق الأمة ، فكان لما جاء فيه من الغاية السامية أبلغ الأثر فى نفوس الجميع لأنه حقق رغباتهم الصادقة فى توحيد الكلمة وبرهن على ثبات هذه الأمة فى المطالبة بحقوقها وولائها للأمير المحبوب . ولما كان الأمير المشار إليه مبايع له بالإمارة أولا وآخرا وهو محط آمال الجميع فى الحاضر والمستقبل لإخلاصه للوطن ودفاعه المجيد عنه ولا يوجد من يشذ عن آرائه الصائبة ولا من يخالفه فى التضحية بالنفس والنفيس فى سبيل سعادة الوطن والأمة واعلاء كلمة الله ، قرر الجميع تأييد قرار إخوانهم الطرابلسيين البرقاويين فى القطر المصرى بدون قيد ولا شرط ، وكلفت الهيئة تنظيم هذا القرار الاجماعى للأعراب لسمو الأمير السيد محمد ادريس المهدى السنوسى عن الثقة التامة به والولاء الكامل له ما دام متمسكا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم متخذا التأهبات اللازمة للقيام بعمل جدى حين تدعو الظروف إليه . وهذه تواقيعنا تشهد أمام الله والوطن والأمة بعهدنا هذا . ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه ، والله ولى الجميع » .

وحفظ الليبيون عهودهم ، فانه بمجرد أن أعلنت إيطاليا الحرب فى يونيه سنة ١٩٤٠ نقل الأمير السيد إدريس مقر إقامته من الأسكندرية إلى مزارعه بجهة كرداسة قريبا من القاهرة وذلك حتى لايكون بعيدا عن مقر القيادة العليا للشرق الأوسط التى اتخذت مكانها فى القاهرة وتدفق على مقر سموه سيل الليبيين المجاهدين القدماء يطلبون الإنضمام الى جانب انجلترة ومساعدتها فى وقت كانت قد اشتدت المحنة بهذه الدولة العظيمة عقب انهيار فرنسا ، ويبغون الاشتراك فى الحملات التى توقعوا بدءها قريبا ، على أن يكون ميدان العمل فى برقة والكفرة والفزان وطرابلس بالزحف عليها جميعا . وأسفرت مباحثات السيد إدريس مع القيادة العامة

بالقاهرة عن موافقة الانجليز أن يبدأ « فوراً تكوين فصائل من القبائل السنوسية العربية لاسترداد حريتهم واستخلاص بلادهم من أيدى الايطاليين الظلمة وإعادة الاستقلال مرة أخرى » . وعلى ذلك فقد دعا سمو السيد إدريس مشايخ القبائل وزعماء المجاهدين الموجودين بالقطر المصرى أو أولئك الذين كانوا فى خارجه وذلك للاجتماع فى مكان بالقاهرة فى يوم الخميس ٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ من أجل « المباحثة فى شروط الخدمة المقترحة » . وكان من بين الذين وصلتهم دعوة الأمير اليوزباشى الشيخ عمر فائق شنيب فى درنه ، وذلك حتى يستوضح منه الأمير — على نحو ماجاء فى كتاب سموه إليه عن « عدد الرجال الذين يمكنه أن يعتمد عليهم فى تنفيذ مشروع تكوين الجيش السنوسى المنتظر » .

وانعقد الاجتماع قبل الموعد المعين بيوم واحد فى أحد أحياء القاهره (جاردن سيتى) فى منزل أعدته السلطات الانجليزية لهذا الغرض خصيصا ، واستمر البحث طيلة يومى ٧ و ٨ أغسطس ، وفى يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٤٠ وصلت (الجمعية الوطنية الليبية) الى القرارات الآتية :

« ١ — وضع الثقة فى دولة بريطانيا العظمى التى مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسى البرقاوى من براثن الإستعمار الايطالى الغاشم .

٢ — إعلان الأمارة السنوسية والثقة التامة بالأمير السيد محمد إدريس السنوسى المهدى المبايع له بالامارة على القطرين .

٣ — تعيين هيئة تمثل القطرين طرابلس وبرقة تكون مجلس شورى للأمير المشار اليه

٤ — خوض غمار الحرب ضد إيطاليا بجانب الجيوش البريطانية وتحت علم الأمارة السنوسية

٥ — تعيين حكومة سنوسية تدير الشئون اللازمة فى الوقت الحاضر مؤقتا .

٦ — تعيين هيئة بجنيد يكون مقرها ضمن مقر الحكومة السنوسية .

٧ — التوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير المشار إليه بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد ولإدارة الحكومة وتعيين ميزانيـة خاصة ونظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطنى حسب عوائد وتقاليد العرب .

٨ — تفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية والمالية والحربية التى توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله » .

وبعد تلاوة هذا القرار (بصورة علنية وبعد قراءته) وقع عليه الحاضرون (وعاهدوا الله على اتباعه والعمل بموجبه تحت رعاية أميرهم السيد محمد إدريس المهدى السنوسى . وكان من هؤلاء صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد العبار وعبد الحميد أبو مطارى والهادى عبد الرحمن ، وعمر فائق شنيب وغيرهم .

وفى يوم ٩ أغسطس حضر الجنرال ويلسن إلى مكان الاجتماع فاستقبله سمو الأمير مرحبا وشكره على (ضيافة الجماعة) . وأبدى الجنرال رغبته فى القاء كلمة على الزعماء والمشايخ المجتمعين ، فقال : (إن اشتراككم مع قوات صاحب الجلالة فى سحق العدو المشترك هو تحرير لوطنكم واسترداد أملاككم وحريتكم واستقلالكم) ؛ ثم أضاف أنه على استعداد لتزويد الجيش بكل ما يلزمه من أسلحة وعتاد . ثم انتدب سمو الأمير بعد ذلك خمسة من الزعماء الحاضرين لتقديم القرارات التى وصلوا اليها إلى الجنرال ويلسن هم صالح باشا الاطيوش وعبد الجليل سيف النصر وعمر فائق شنيب وعبد الحميد العبار وسعيد الشلبى . فقدم هؤلاء هذه القرارات الى الجنرال كلايتون حتى يسلمها بدوره الى الجنرال ويلسن ، بيد أنه لما كانت صعوبة المواصلات وقتذاك تحول دون وصول جواب وزارة الخارجية البريطانية بسرعة فقد كان من رأى الجنرال ويلسن المبادرة بتشكيل الجيش السنوسى ، وبدأ العمل فورا ، فتأسس أول مكتب للتجنيد بالقاهرة فى يوم ١٢ أغسطس ١٩٤٠ وعين لقيادة الجيش السنوسى العامة الكولونيل بروملو Bromlow ، ثم عين الكابتن أندرسون ضابط اتصال انجليزى واليوزباشى عمر فائق شنيب ضابط اتصال عربى وخصص للخدمة فى الجيش السنوسى أربعة ضباط من الانجليز ، وبدأ العمل بكل همة فى تأليف الجيش السنوسى . وكان مما طلبه الليبيون أن تكون الأوامر الصادرة إلى الضباط العرب باسم أمير البلاد السيد إدريس لجرى الاتفاق على الصيغة الآتية : « بناء على اختيار سعادة الكولونيل بروملو قائد الجيش السنوسى البريطانى لما رآه فى حضرتكم من الأهلية والكفاءة — وطبقا لموافقة الأمير السيد محمد ادريس المهدى السنوسى ، أنا القائد العام للجيوش البريطانية فى القطر المصرى أوجه رتبة . . . . فى الجيش السنوسى البريطانى إلى حضرة . . . . اعتبارا من تاريخ هذا الأمر الصادر فى . . . . الإمضاء (ويلسن) القائد العام » .

وكان أبناء الأسرة السنوسية الشريفة أول من جندوا وانخرطوا فى سلك هذا الجيش . وأخذ الليبيون الذين بادروا بتقديم أنفسهم حتى يجندوا يتدفقون على مكتب التجنيد بالقاهرة وجعل عمر فائق شنيب بك رئيسا لهذا المكتب ، وكان سكرتيره محمد افندى المجدون ، ثم انشىء معسكر كبير بجهة ابى رواش (مركز امبابه) لتدريب المتطوعين ، وأكثر سمو الأمير من زيارة هذا المعسكر والإشراف بنفسه على حركة التطوع وتدريب المجندين . ولما كان المجندون من المجاهدين أبناء ليبيا الذين لم تكن حياة الحرب والكفاح جديدة عليهم فقد أمكن تدريبهم بسرعة عظيمة على الأساليب الحديثة . واستطاع جيش كبير منهم (عدد أفراده ١٤ ألف من الجنود و ١٢٠ من الضباط الليبيين) أن يشترك الى جانب الجيش البريطانى

فى المعارك التى نشبت بعد ذلك مباشرة عندما بدأ الطليان زحفهم على الحدود المصرية بعد أقل من شهر واحد تقريبا من تأسيس مكتب التجنيد . وتاريخ الجيش السنوسى الباسل فى الحرب العالمية الثانية إنما هو تاريخ (تحرير ليبيا) بأكملها فى خلال سنوات ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ .

فقد بدأ الطليان بقيادة الماريشال غرزيانى (جزار ليبيا) زحفهم على الحدود المصرية فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٠ واحتلوا السلوم فى يوم ١٣ سبتمبر ، وبعد ثلاثة أيام وصلت طلائعهم إلى سيدى برانى وعندئذ أرسلت القيادة العامة الفصائل السنوسية التى تم تدريبها فى معسكر أبى رواش (وغيره من المعسكرات التى أقيمت بعد ذلك) إلى الحدود المصرية الغربية فصدت القوات المتحدة من بريطانية وسنوسية العدو ، وفى ٨ ديسمبر بدأت هذه الجيوش بقيادة الجنرال ويفل Wavell القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط زحفها على العدو ، ثم استولت على سيدى برانى فى ١١ ديسمبر وطردت العدو من مراكزه . فكان خروج الطليان من سيدى برانى مؤذنا ببداية ذلك الزحف الخاطف الذى مكن ويفل فى خلال شهرين فقط من الاستيلاء على برقة . فقد استعادت القوات البريطانية والسنوسية السلوم ، ثم سقطت فى أيديهم بردى سليمان (البردية) بعد حصار قصير فى ٥ يناير ١٩٤١، على الرغم من مقاومة العدو الشديدة ، وكذلك سقطت طبرق بعد حصار شاق فى ٢٢ يناير وهذا بينما كانت قوات أخرى من جيوش الحلفاء قد بدأت حصار واحة الجغبوب منذ ١٤ يناير ، ولم ينقض شهر يناير حتى كان العدو قد طرد من درنه ، وبدأ الزحف على الجبل الأخضر فسقطت شحات وميناء سوسه والخيلى وماره وسلنطه ، ودخلت الجيوش المتحالفة المرج فى ٦ فبراير وبنغازى فى اليوم التالى ، ثم احتلت اجدابية فى اليوم الثالث والعقيلة فى ٩ فبراير سنة ١٩٤١ .

وفى الوقت الذى كان فيه الجيش السنوسى يشترك مع البريطانيين فى مطاردة العدو واحتلال هذه المواقع فى برقة الشمالية كانت قوات أخرى من السنوسيين والعرب الذين هاجروا من واحات الكفرة وقت استيلاء الطليان عليها (١٩٣٠) قد انضمت إلى جيوش الفرنسيين الأحرار فى السودان الغربى واستطاع هؤلاء الوصول إلى الكفرة فى نفس اليوم الذى دخلت فيه جيوش ويفل بنغازى فى ٧ فبراير ١٩٤١ ، وفى مدى خمسة أيام فقط كان قد تم لهم الاستيلاء على جميع واحات الكفرة (١٢ فبراير) . وفى ٢١ مارس سلمت الحامية الايطالية فى الجغبوب بعد حصار دام ستة وثلاثين يوما .

على أن هذا الانتصار السريع الخاطف ما كان يمكن أن يتم بهذه السهولة فى هذا الزحف

الأول وفى الزحفين الثانى والثالث بعد ذلك ، إلا نتيجة لعوامل عدة منها ما كان متعلقا بخطط القيادتين البريطانية والايطالية العسكرية ، ومنها ما كان متعلقا بنشاط أهل البلاد الليبيين أنفسهم . ذلك بأن سمو السيد إدريس لم يكتف بتشكيل الجيش السنوسى للزحف إلى جانب البريطانيين فى حملة ليبيا . بل إن سموه سرعان ما صار يرسل « الرسل إلى المدن والقرى ومواطن البادية ، ينشرون فى طول البلاد وعرضها أوامر السيد . وفضلا عن ذلك فقد وقع سموه على النشرات التى صارت تلقيها الطائرات على الشعب الليبي ، « واستصرخ الشعب لمناصرة بريطانيا من محطات الاذاعة وزود ضباط الاستعلامات البريطانية الذى يعملون خلف خطوط الأعداء سرا بالرجال الأمناء والتوصيات للزعماء وأهل الوطن لإخفائهم وإرشادهم وإمدادهم بالمساعدات والمؤن، فهب الشعب الليبي على بكرة ابيه رجالا ونساء كل يعمل على قدر استطاعته خلف خطوط الأعدأ. فى اخفاء ضباط الاستعلامات وتمويتهم وانقاذ الجرحى وتمريضهم وإخفائهم وتهريب الاسرى من الضباط والجنود البريطانيين والطيارين الذين وقعوا فى قبضة الاعداء وإبلاغهم مأمنهم وإظهار عورات الأعداء بواسطة الادلاء على محال قوتهم واستحكاماتهم وطيرانهم ووقودهم وتدمير أدوات حربهم ومؤنهم » .

وكان الطليان قد أرغموا كثيرين على الخدمة العسكرية كى يحاربوا فى صفوفهم عند بدء الحرب فى الصحراء ، فعنيت قيادة الجيش البريطانى العامة بأمر هؤلاء الليبيين وعملت على استمالتهم إلى ترك صفوف الطليان ، فأصدر الجنرال ويڤل منشوراً سريا يدعوهم فيه إلى الانضمام إلى إلى الجيش السنوسى . وعلى ذلك فان هؤلاء ما أن شاهدوا « أعلام وطنهم المقدسة » تخفق على الدبابات والمصفحات وترفرف على طلائع الجيش الزاحف حتى بادروا بتسليم أنفسهم على الفور فبلغ عدد المستسلمين حوالى سبعة عشر ألف جندى ليبى اشتركوا فى المعارك التالية إلى نهاية الحملة الليبية وطرد القوات الايطالية والألمانية نهائيا من كل ليبيا واستشهد منهم ألوف فى ساحات القتال .

وقد كان من أثر ذلك كله أن اضطر العدو إلى الاحتفاظ بقسم كبير من قواته العسكرية فى داخل البلاد لمراقبة الأهلين والتنكيل بهم وبخاصة عندما ثبت لديه « أن ضباط الاستعلامات البريطانية كانوا يحضرون اجتماعات الأعداء سراً بدون أن يعرفوا بينهم وذلك من تدابير زعماء الوطن » .

وظهرت قسوة الطليان وأحلافهم الألمان فى الانتقام من الأهالى عندما اضطرت جيوش ويڤل إلى الارتداد السريع أمام قوات روميل الألمانى الذى جاء خصيصا إلى ليبيا لتولى القيادة إلى جانب الماريشال غرزيانى . وكان زحف روميل المشهور زحفا خاطفا . إذ بدأ

روميل عملياته العسكرية بالزحف على العقيلة ودخولها فى أول ابريل ١٩٤١ ، وفى اليوم التالى استولت القوات المحورية على البريقة والقطوفية وتم انسحاب ويفل بكل سرعة فدخل العدو إجدابية ثم بنغازى. وفى يوم ٤ ابريل زحفت قوات روميل من بنغازى إلى الجبل الأخضر فسقطت درنة ، وفى يوم ١٣ ابريل وصلت جيوشه إلى بردى سليمان (البردية) وحصن كابتزو ، وكان كل ما احتفظ به البريطانيون والسنوسيون ميناء طبرق وواحة الجغبوب بينما احتفظ أحلافهم الفرنسيون ومعهم القوات السنوسية فى الجنوب بوحات الكفرة . وفى أثناء هذا الزحف الخاطف وقع كثيرون من الجنود البريطانيين فى أسر العدو ؛ وأما الجيش السنوسى فقد تمكنت أكثريته العظمى من النجاة لمعرفتهم بطرق الصحراء ودروبها فوصلوا سالمين إلى الحدود المصرية ومعهم كل سلاحهم ومعداتهم .

وما أن استرد الطليان وأحلافهم بلاد برقة حتى أخذوا ينتقمون لأنفسهم من الأهالى انتقاما مروعا على معاونتهم لجيوش ويفل ، واتخذ هذا الانتقام صورا عدة ، فارتكب الطليان الفظائع وخربوا برقة وشتتوا أهلها وقتلوا أغلبهم ظلما وعدوانا ، وكان من أعمالهم الانتقامية أنهم شنقوا من أهل المرج ثلاثمائة رجل دفعة واحدة ثم وضعوا الجميع فى حفرة وردموا عليهم بالتراب ؛ وارتكبوا مثل هذه الفظائع فى طبرق وبنغازى ودرنة وسرت وطرابلس وغيرها من المدن . ويصف أحد أبناء ليبيا طرفا من هذه الفظائع التى ارتكبها الطليان مع الأهلين فى خطاب أرسله إلى أحد قدماء المجاهدين ، توفيق نورى البرقاوى ببغداد فى مارس ١٩٤٢ ؛ فيقول « ومن ضمنهم (أى من ضمن العائلات التى مثل الطليان بأفرادها) عائلة جودة (وكان أحد أفراد هذه الأسرة ضابطاً بالجيش السنوسى) ، وهم ساكنين بالبركة بشارع العرفية فدخلوا عليهم الإيطاليين ومعهم رشاشة وقنابل يدوية بين نسائهم وأطفالهم الصغار وقتلوا الحاج صالح وابنه إبراهيم وعثمان وأخيه موسى والوطنى الغيور أبى بكر وامرأتين فى ساعة واحدة . ثم عائلة صالح الطويل ، فقد اعتدوا على العرض وقتلوا من وجدوه من الرجال ، وعائلة بوشعالة وغيرهم وغيرهم مما يضيق سرد أسمائهم فى هذه العجالة . دع ما جرى فى بنغازى من السيشلياتى وهم وحدهم جعلوا مجزرة فى شوارع المدينة . عبد الرحيم الشطاط قتل أمام سوق الظلام من أحد الإيطاليين وهو ذاهب لبيته وقد ترك وراءه ستة أولاد وأخته وأمه وأكبر أولاده لا يزيد على ٨ سنوات . دع عنك تحطيم أبواب المنازل وأخذ كل ما وجدوه من عفش ومؤونة . وكان البعض حاسب حساب المجاعة فاختزن من كل شيء من المواد الغذائية . أما من القوارشة غربا وهى تبعد ١٢ كم على بنغازى والكويفية شرقا وهى ٨ كم فكل العربان مسلحين ، والنواجع انضمت لبعضها بعض حتى

كادت تكون كتلة واحدة ولم يجرأ لا الايطاليين ولا سادأتهم الألمانيين على الاقتراب من بيوتهم لأنه حربوهم فردوهم بعدما قتلوا منهم الثلثين تقريباً خائبين » .

ويشير صاحب الخطاب فى كلمته هذه إلى مسألة اغتصاب جنود غرزيانى ورُوميل لكل ما كان لدى الأهلين من مؤن اختزنوها فى بيوتهم خوفاً من المجاعة على حد قوله ، وتفصيل الأمر أن السلطات المحورية قبل الزحف البريطانى الأول واضطرارها إلى الانسحاب أمام جيوش ويڤل كانت قد جمعت كل ما كان بالبلاد من مؤن وأقوات لتموين جيوشها . فوجد البريطانيون عند حضورهم أهل البلاد على وشك الهلاك جوعاً . فجاءوا بالغلال والمواد الغذائية المختلفة « لإنقاذ » الأهلين ووزعوها عليهم وادخر هؤلاء كميات كبيرة منها فى بيوتهم وامتلأت الأسواق والمخازن بالأرزاق . وعلى ذلك فإنه بمجرد انسحاب جيوش ويڤل عمد الطليان وحلفاؤهم الألمان إلى جمع هذه الأقوات واغتصابها من أصحابها ، فنهبوا الأسواق والمخازن والحوانيت واقتحموا البيوت واستولوا على كل ما ادخره أصحابها منها . وكان فى أثناء تفتيش البيوت أن هتك الطليان والألمان الأعراض وقتلوا الأنفس ومثلوا بالأهلين أفظع تمثيل انتقاما منهم لمعاونتهم الجيوش الزاحفة لتخليص ليبيا . ثم تكررت هذه المآسى عند ما استولت الجيوش البريطانية والسنوسية على البلاد ثم اضطروا إلى الانسحاب منها مرة ثانية على نحو ما يأتى ذكره .

فقد نقل الجنرال ويڤل من قيادة الشرق الأوسط إلى القيادة البريطانية العامة فى الهند فى بداية شهر يوليه من عام ١٩٤١ ، ونقل مكانه من الهند السير كلود أوكنلك ، فوصل القائد العام الجديد إلى القاهره فى ١١ يولية . وبدأ فى التو والساعة عملية استكشاف واسعة خلف خطوط العدو ، فأرسل السيارات المصفحة بقوات من الفدائيين (الكوماندو) سار فريق منهم من الحدود المصرية إلى منطقة العقيلة ، وسار الفريق الآخر من واحات الكفرة وهذه كانت قد بقيت بأيدى الفرنسيين الأحرار والسنوسيين على الرغم من انسحاب جيوش ويڤل فى الشمال — فتقدمت هذه القوة الثانية وسط الفزان إلى مرزق . وكان مع الفدائيين فى هذا الزحف المحفوف بالمخاطر عبد الجليل سيف النصر ، واشترك عبد الجليل سيف النصر فى المعارك التى نشبت ، ولكنه عاد سالما مع هذه الجماعة إلى الحدود المصرية . وزيادة على ذلك فقد عادت الجماعة الأولى من مهمتها فى العقيلة بعد أن تكللت جهودها كذلك بالنجاح . وكانت عودة الفريقين فى أوائل أغسطس . وقضى أوكنلك ما يقرب من ثلاثة شهور ونصف شهر يتأهب للزحف الجديد . وفى ١٨ نوفمبر ١٩٤١ بدأت الجيوش البريطانية والسنوسية زحفها الثانى على ليبيا ، فوصلت بعد يومين إلى نقطة الناضورة على بعد

عشرة أميال إلى الجنوب الشرقى من طبرق ، ثم اتخذ الزحف طريقين أحدهما بمحازاة الساحل والآخر فى داخل برقة ، فاحتلت القوات الزاحفة فى الداخل واحتى أوجلو وجالو فى يومى ٢٥ و ٢٦ نوفمبر ، بينما وصلت الجيوش البريطانية والسنوسية الزاحفة على امتداد الساحل إلى عين الغزالة فى ١٢ ديسمبر ثم إلى عين التميمى وأم الرزم بعد ذلك بثلاثة أيام ، ثم احتلوا درنة فى ١٩ ديسمبر ، وفى الوقت نفسه احتلت القوات الأخرى المخيلى ثم تابعت القوتان زحفهما على بنغازى فدخلتها جيوش أوكنلك فى ٢٤ ديسمبر . وفى ٢٥ ديسمبر تقدم الجيش الزاحف من مسوس فاستولى على شلظيمة وسلوق وقمينس وجردينة ، وطوق إجدابية التى سقطت بعد حصار قصير فاحتلها البريطانيون والسنوسيون فى ٧ يناير ١٩٤٢ . ثم زحفت بعض الوحدات الميكانيكية على واحة مرادة فاحتلتها فى ١١ يناير . وفضلا عن ذلك فقد قامت قوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال جاك فيليب ليكلير بزحف كبير من منطقة تشاد بالسودان الغربى ومعها قوات المجاهدين من أهل طرابلس والفزان وبرقة بزعامة أحمد بك سيف النصر وغيره من كبار المجاهدين القدماء فتمكنت هذه القوات الباسلة من الاستيلاء على القطرون جنوب مرزق ثم زحفت على زويلة واحتلتها واستولت بعد ذلك على واو الكبير (أو واو الشعوف) ثم اتجهت شمالا بغرب فاحتلت واحة تميسه . وبذلك أصبح جنوبى الفزان فى قبضة الحلفاء بمعاونة المحاربين من أهل ليبيا .

وساهم الجيش السنوسى مع القوات البريطانية وساهم المجاهدون الليبيون مع القوات الفرنسية الحرة فى كسب هذه الانتصارات السريعة ، وكان لهذه المعاونة أثر عميق فى نفوس الشعب البريطانى قاطبة حتى إن وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت العصيب ، المستر أنطونى إيدن ما لبث أن ألقى فى مجلس العموم البريطانى فى ٨ يناير ١٩٤٢ بالتصريح التالى رداً على سؤال وجهه إليه أحد النواب ، فقال « إنى أصرح بأن السيد إدريس المهدى السنوسى اتصل بالهيئات البريطانية المسؤولة بمصر فى خلال شهر من انهيار فرنسا فى وقت لم يكن فيه الموقف العسكرى فى افريقيا ملائما لنا على الاطلاق . فتألف فيما بعد جيش سنوسى يضم أتباعه الذين قد تخلصوا من نير الظلم الإيطالى بين حين وآخر فى خلال العشرين سنة الماضية . وقام هذا الجيش بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية الموفقة فى الصحراء الغربية فى شتاء ١٩٤٠ و ١٩٤١ وهو الآن يقوم أيضا بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية . فانتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسى وأتباعه فى المجهود البريطانى الحربى . وإننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى

مهمة سحق العدو المشترك . وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهى الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الإيطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال » .

على أنه ما كاد يمضى أسبوعان على صدور هذا التصريح حتى كان روميل قد اتخذ عدته الكاملة للقيام بهجوم سريع على مراكز البريطانيين وخطوطهم . فانقضت قواته فجأة وبسرعة خاطفة فى يوم ٢٣ يناير ١٩٤٢ على خط البريطانيين والسنوسيين الممتد من العقيلة إلى إجدابية واستطاع أن يقتحم هذا الخط فى يوم واحد حتى إذا كان مساء اليوم نفسه قضى روميل بعض الوقت فى إجدابية للراحة والاستجمام استعدادا لاستئناف الهجوم والزحف . وفى اليوم التالى (٢٤ يناير) وقعت معركة كبيرة فى المثلث المحصور بين إجدابية وساونو وعين الثلاث كان النصر فيها حليف روميل فاستطاع أن يحتل مسوس فى اليوم التالى وتقدم إلى منطقة الرجمة إلى الجنوب الشرقى من بنغازى وقريباً منها فاضطرت جيوش أوكنلك إلى الانسحاب من بنغازى فى يوم ٣٠ يناير . وكان زحف روميل بعد ذلك سريعا فوصل إلى درنة فى ٣ فبراير وانحرف إلى الجنوب الشرقى فاحتل مرتوبة بعد ثلاثة أيام ثم تابع زحفه فاحتل أم الرزم شمال خليج البمبة ، وعندئذ تقهقر البريطانيون إلى عين الغزالة ثم تحصنوا فى إقليم البطنان واتخذوا لدفاعهم خطا يمتد من عين الغزالة على الساحل شمالا إلى بئر حكيم فى الجنوب بينما انسحبت قواتهم فى المنطقة الجنوبية من مرادة وواحات جالو وأوجلة وجخرة ؛ فكان انسحابهم من برقة والجبل الأخضر انسحابا تاما ؛ ولم يبق للحلفاء سوى واحات الكفرة والمنطقة الجنوبية الشرقية من إقليم فزان إذ ظلت القوات الفرنسية الحرة وقوات المجاهدين الليبيين محتفظة بها .

وكانت خطوة روميل التالية أن يعمل على اخراج جيوش البريطانيين والسنوسيين من إقليم البطنان تمهيدا لاختراق الحدود المصرية والزحف نحو مريوط والاسكندرية من جهة ثم صوب واحة سيوة من جهة أخرى وغزو القطر المصرى . وبدأ روميل عند تنفيذ هذه الخطة بالهجوم على بئر حكيم فى ٢٧ مارس ١٩٤٢ ؛ ثم اتسع ميدان القتال حتى شمل المنطقة بأكلها من عين الغزالة فى الشمال إلى بئر حكيم فى الجنوب ، وكانت تقوم بالدفاع عن بئر حكيم قوة من الفرنسيين الأحرار أبدت من ضروب البسالة ما يزال ذكراه ماثلا بالاذهان ، ولكنها اضطرت فى آخر الأمر إلى إخلاء بئر حكيم بعد أن تكبدت خسائر فادحة فى يوم ١١ يونية ١٩٤٢ . وعندئذ تحطم خط الدفاع فاستولى العدو على عين الغزالة فى ١٥ يونية ، وبعد خمسة أيام فقط كان اقليم البطنان بأجمعه فى أيدى الجيوش

الزاحفة . وفى يوم ٢١ يونية دخلت جنود روميل ميناء طبرق بعد أن أبدت القوات البريطانية والسنوسية من ضروب البسالة كذلك شيئا عظيما . وفى اليوم نفسه سقطت فى أيدى العدو بردى سليمان (البردية) وفى صبيحة اليوم التالى كان العدو يتأهب لاختراق الحدود المصرية . فبدأ الزحف فعلا فى يوم ٢٣ يونية وسقطت سيدى عمر وقلعة السلوم المصرية ثم تبعها سقوط بقبق وسيدى برانى وفى ٢٧ يونية أستولى روميل على مرسى مطروح وكانت الجيوش البريطانية والسنوسية فى أثناء ذلك قد ارتدت إلى خط دفاع جديد يمتد مسافة خمسين كيلو مترا من العلمين عند خليج العرب فى الشمال إلى حافة وادى القطارة جنوبا . وأخذت الإمدادات والنجدات تتدفق بسرعة عظيمة على هذه المنطقة لتعزيز مراكز الدفاع الجديدة وحشدت أكثر القوات فى منطقة العلمين . وكان اختيار خط الدفاع الجديد اختيارا موفقا . فقد وصلت قوات روميل فى فجر يوم أول يولية ١٩٤٢ إلى مسافة قريبة من العلمين ، ولكن روميل لم يتمكن من اختراق الخط فحول جهوده إلى سيوة على أمل أن تستطيع قواته الميكانيكية التقدم الى قلب الحدود المصرية ، فتم له احتلال هذه الواحة فى ٢٤ يولية ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك . وكان من الواضح أن معركة مصر الفاصلة سوف تدور رحاها فى ميدان العلمين قريبا .

وهكذا بات الموقف فى شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤٢ ينذر بخطورة عظيمة . فأخذ البريطانيون من جانب والسنوسيون من جانب آخر ينظمون قواتهم من جديد ويعززونها بمختلف الوسائل . فحضر رئيس الوزارة البريطانية مستر تشرشل إلى مصر فى شهر أغسطس ليبحث الموقف بنفسه واتخذت عدة اجراءات كان منها نقل الجنرال أوكنلك من القيادة العليا فى الشرق الأوسط وإسناد هذا المنصب إلى الجنرال السير هارولد الكسندر فى ١٩ أغسطس ١٩٤٢ ، ثم أسندت قيادة الجيش الثامن الذى خاض معارك ليبيا ورابط عند العلمين إلى الجنرال مونتجومرى ؛ وزاد تدفق الذخائر والعتاد والأسلحة على العلمين بسرعة كبيرة ؛ ثم أخذ سمو الأمير محمد ادريس يعمل من جانبه بعد تبادل الرأى مع القيادة الجديدة لاتخاذ الخطوات اللازمة لتعزيز القوات السنوسية ، وبذل الأمير فى هذا السبيل جهوداً صادقة ، فقام بزيارات عدة لمعسكرات تدريب السنوسيين وأكثر من الاجتماع بالضباط والجنود السنوسيين يتحدث إليهم ويرعى شئونهم ، ويتناول معهم الطعام ويشرب الشاى على عادة العرب حتى يثبت فى نفوسهم الثقة والطمأنينة ويشجعهم على المضى فى تدريبهم بكل همة ونشاط وأخذت لسموه صور عديدة مع جنوده فى أثناء هذه الزيارات ؛ وكان لزيارات سموه لهذه المعسكرات ولا شك أعظم الأثر فى سرعة تشكيل الفصائل الجديدة ووقوفها على قدم الاستعداد

للخدمة فى الميدان عند أول سانحة . وتعددت معسكرات التدريب ومواقع السنوسيين فى البرلس والسويس وجنيفه والصحراء الغربية والفيوم وغيرها . وكان الجيش السنوسى إلى جانب الاشتراك فى الزحفين السابقين على برقة قد اضطلع شطر منه كذلك بحراسة مهمات الجيش الثامن بالقطر المصرى ومخازن الذخيرة ومراكز المخابرات اللاسلكية والموانىء عند تفريغ السفن المحملة بالعتاد والأسلحة والمطارات . والجنود السنوسيون هم الذين تولوا حراسة المطار الذى هبط فيه المستر تشرشل بطائرته عند مجيئه إلى مصر، كما تولوا حراسة الطائرات التى أحضرته ثم عادت به إلى بلاده .

وعند ما تمت الاستعدادات بدأ مونتجومرى هجومه التاريخى البارع على مراكز العدو فى يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ فدارت رحى معركة العلمين الباهرة ؛ وحفظ الجيش السنوسى مؤخرة الجيش الثامن فى أثناء المعركة . وكانت معركة العلمين معركة فاصلة فاستطاع شطر من الجيش الثامن أن يزحف بمحاذاة الساحل بينما تقدم جزء آخر فى الداخل ، فوصل الفريق الأول إلى بلدة سيدى عبد الرحمن فى يوم ٣ نوفمبر ووصل الفريق الآخر فى اليوم نفسه إلى جهة العقاقير ، وكان هذا التقدم مؤذنا بانتهاء هذه المعركة التاريخية الحاسمة ، وهى معركة كلفت العدو خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد فبلغ عدد القتلى عشرة آلاف ؛ ومن بين هؤلاء الجنرال فون شتومى الذى كان يلى روميل فى القيادة ، ثم وقع فى الأسر تسعة آلاف من بينهم الجنرال ريتر فون توما قائد الفيلق الإفريقى . وبعد هذا النصر الحاسم كان الزحف عبارة عن « نزهة عسكرية » فدخل البريطانيون والسنوسيون فوكه فى ٤ نوفمبر وأنزلوا بالألمان والطليان خسائر جسيمة ووقع فى الأسر من جنود الطليان وحدهم أربعة آلاف من بينهم قائد فرقة ترنتو الايطالية ورئيس أركان حربه ، ثم توالت هزائم المحوريين فاسترد الجيش الثامن مرسى مطروح بعد يومين وخسر الطليان فى هذه المرة حوالى عشرين ألف محارب سلموا بأسلحتهم وذخائرهم ، وفى ٩ نوفمبر سقطت السلوم ؛ ثم بادر العدو بإخلاء سيوه ؛ وفى اليومين التاليين احتلت البطنان وسقطت طبرق ، وفى ١٧ نوفمبر تم احتلال درنه وفى ٢٠ نوفمبر دخل البريطانيون والسنوسيون بنغازى واضطر العدو إلى التقهقر منها بعد أن أضرم فيها النار ودمر معظم المدينة . وفى ٢٣ نوفمبر دخلت الجيوش المظفرة إجدابية وبعد يومين وصلت إلى العقيلة . وفى الوقت نفسه كانت قوات أخرى تقوم باحتلال واحات جخرة وجالو وأوجله التى أخلاها العدو بكل سرعة (٢٣ نوفمبر) وتقدمت فى زحفها إلى واحة مرادة (٢٦ نوفمبر) . وكانت الخطوة التالية الزحف على طرابلس .

وعلى ذلك فقد بدأ مونتجومرى زحفه من العقيلة فى يوم ١٢ ديسمبر ، وحاول روميل أن

يصمد بما كان لديه من قوات متعبة بين العقيلة والنوفيلية فنشبت معركة حامية فى يوم ١٣ ديسمبر كان النصر فيها حليف الجيش الثامن فاضطر روميل إلى الارتداد واحتل الجيش الثامن النوفيلية فى ١٨ ديسمبر وبعد يومين بدأ الجيش الزاحف فى حصار سرت بينما تقدم شطر منه صوب بويرات الحسون بين سرت ومصراتة ، فكان من أثر هذا التطويق أن سقطت سرت فى يوم ٢٥ ديسمبر ووقع فى أيدى البريطانيين الآف الأسرى ، واتسع نطاق العمليات العسكرية فى طرابلس بعد هذه الانتصارات الرائعة التى أضعفت قوة العدو وانهكتها ؛ فاستطاعت جيوش فرنسا الحرة والمجاهدين الليبيين بقيادة الجنرال جاك فيليب ليكلير أن تزحف من مراكزها فى الفزان صوب مرزق العاصمة فبلغتها فى يوم ٦ يناير ١٩٤٣ ثم تقدمت شمالا فى زحفها حتى وصلت إلى براك فى وسط الفزان بعد يومين فقط ؛ ثم استولت على غات ولما ينتصف شهر يناير وأبدى العدو مقاومة بسيطة . وفى الوقت نفسه استأنف الجيش الثامن زحفه فاحتل ورفلة فى يوم ١٦ يناير ثم سقطت بعد يومين فى أيدى شطر من القوات البريطانية والسنوسية مصراته ثم زليطن فى اليوم التالى (١٩ يناير) ثم الخمس فى ٢٠ يناير وفى اليوم نفسه كان الجيش الزاحف من ورفلة قد احتل ترهونة . وعندئذ أخذت القوتان تتأهبان للزحف على مدينة طرابلس فى وقت واحد . وفى يوم ٢٣ يناير ١٩٤٣ دخلت جيوش مونتجومرى مدينة طرابلس وتقهقر روميل بكل سرعة . وكان من أثر تقهقره السريع وتحطيم خطوط المحوريين أن تمكن جيش الجنرال ليكلير الزاحف من الفزان من الوصول إلى غدامس ثم الاتجاه صوب الشمال الشرقى فاحتل مزده ، وقد التقت قواته بالقوات الزاحفة من الشرق على جنوبى طرابلس فطهرت القوتان المنطقة الجنوبية بأكلها من العدو . وهكذا لم تغرب شمس يوم ٧ فبراير ١٩٤٣ حتى كانت جيوش روميل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسى بأجمعه . وأما قصة تقهقر روميل بعد ذلك وتحصنه فى تونس من ذلك الحين إلى أن ضيق الحلفاء عليه الخناق فى شبه جزيرة بون ، ثم نزول الحلفاء فى جزيرة صقلية وسقوط موسولينى ونزول الجيوش الظافرة فى شبه الجزيرة الإيطالية ثم تسليم إيطاليا دون قيد أو شرط فان ذلك كله من تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ويكفى أن يذكر المرء أن معركة العلمين الحاسمة كانت البداية لكل تلك الانتصارات الباهرة السريعة التى ضمنت للحلفاء ضمانا كبيراً كسب الحرب العالمية فى النهاية .

وكان لجلاء العدو عن طرابلس واحتلال القوات البريطانية والسنوسية لعاصمتها رنة فرح وسرور عظيم لدى الليبيين . وقد عبر أمير البلاد سمو السيد محمد ادريس عن شعور الشعب الليبى قاطبة عندما قال فى حديث نشره (المصور) بعدد ٢٩ يناير ١٩٤٣ . أى بعد

استرجاع مدينة طرابلس بستة أيام فقط ، إني أحمد الله الذي جعلني أشهد خروج هؤلاء (الطليان) الظالمين من بلادنا » . وأقام الجيش السنوسي عقب استرداد بنغازي مهرجانا عظيما في مصر احتفالا بهذا النصر حضره سمو السيد ادريس في أحد معسكرات الجيش بالصحراء ، فتعهد السيد فصائل الجيش ، بعد أن أدى الجنود لسموه التحية العسكرية ثم اصطف الجنود على شكل مربع حول فراغ ليتسنى للجميع سماع صوت الأمير الذي أخذ يخطب في جنوده مؤكدا لهم ، أن بريطانيا لاترغب في الاستيلاء على أراضيهم واستعمارها كما فعل الايطاليون ، وأنهم الآن سوف يعودون إلى أوطانهم قريبا حيث يعهد اليهم بالاشراف على الامن وتوطيد دعائم السلام بالبلاد . وأوصاهم سموه أن يكونوا مثالا في حسن السلوك وقدوة طيبة لأهل بلادهم .

ولا جدال في أنه كان يحق لليبيين عموما والسنوسيين خصوصاً أن يطربوا ، وحق لهم كذلك أن ينتظروا التحرير والخلاص من كل استعمار أجنبي وهم أولئك الشجعان البواسل الذين اشتركوا اشتراكا فعليا في تحرير بلادهم وطرد العـــدو الذي اغتصب منهم أوطانهم سنوات كثيرة ، وأسدوا الجيوش الحلفاء خدمات جليلة كان البريطانيون أنفسهم أول من اعترف بها ، على نحو ما صرح به وزير خارجيتهم أنطوني إيدن في يناير ١٩٤٢ ، وعلى نحو ما أثبتته صحفهم بعد معركة العلمين خصوصا . فقد نشرت جريدة (إجبشان غازيت) بمصر في شهر نوفمبر ١٩٤٢ مقالا طويلا وصف فيه كاتبه بسالة الجيش السنوسي وحادث تسليم آلاف الليبيين الذين جندهم الطليان قسرا إلى الجنرال ويفل إبان الزحف الأول ، وقال إن جنود الجيش العربي ، كانوا آخر من غادر بنغازي ودرنه عندما ارتدت (الجيوش البريطانية) وبرهنوا على أنهم كانوا أدلاء ومغيرين وفدائيين ورجال مخابرات ذوي نفع لا يقدر ، إلى أن قال ، وكان الليبيون مرغمين على الخدمة مع الطليان إرغاما ومحاربين متطوعين مع البريطانيين بمحض إرادتهم ، بل إن أحد ضباطهم قضى ثلاثة أشهر في سجن طرابلس قبل أن يستطيع الفرار من السجن وعندئذ تحمل متاعب جسيمة عندما بدأ رحلة طويلة شاقة سيرا على قدميه مئات الأميال عبر صحراء لا ماء فيها حتى يعود إلى قواعد الجيش . وفضلا عن ذلك فقد كان بين هؤلاء الجنود البواسل شبان لا تزيد عمرهم على السادسة عشرة وشيوخ مسنون سبق لهم الجهاد ضد العدو سنوات طويلة . وفي ٢ أكتوبر ١٩٤٣ نشر المستر هـ . م . فوت Foot في (مجلة المنتدى الفلسطينية) مقالا بعنوان صفحة جديدة في تاريخ ليبيا جاء فيه ، إن تلك الشجاعة التي اشتهر بها السنوسيون عن جدارة واستحقـاق قد تبدت مرة أخرى في الحملات الأخيرة . فنحن لا نزال نجهل قسطاً كبيراً من المساعدة التي قدموها لنا خلف خطوط

الأعداء . كما أن مساعداتهم الفردية لكثير من الضباط البريطانيين شواهد ناطقة على الكرم العربي وحب العرب للمجازفة . يقول هؤلاء الضباط أن كل خيمة عربية كانت بمثابة ملجأ وأن كل عربي كان بمثابة دليل ؛ ومن طريف ما يروى أن أحد المدفعيين البريطانيين أصيب بجرح فآواه عربي إلى أحد الكهوف وسهر على راحته ستة أشهر . فلما تماثل للشفاء حمله فوق جمله مسافة ٤٠٠ ميل وأوصله إلى العلمين . قام العربي بكل ذلك وسلم الجندي الجريح إلى إحدى الوحدات دون أن يعلن عن اسمه أو يطالب بمكافأة . وليس هذا الحادث الوحيد من نوعه فانه ما كان ليتسنى لمئات من جنودنا أن يعودوا إلى وحداتهم دون مساعدة العرب ، تلك المساعدة التي كانوا يقومون بها عن طيب خاطر والتي كانت تعرض حياتهم لخطر الموت . ولم يتطرق الوهن إلى قلوب العرب حين كنا نتراجع تراجعا كليا وحين ظن الناس أن الدائرة قد دارت علينا بل كانوا أبدا على استعداد لتقديم المساعدة . وقد جرى أثناء إحتفال عظيم في درنة أقامه الطليان على أثر استيلاء المحور على طبروق أن كان بين النظارة ضابط بريطاني متخفٍ فلم يفكر واحد من الأهالي أن يكشف أمره ويفضحه » . وقد ذكر الليبيون أنفسهم شيئا من الخدمات التي أدوها لجيوش ويفل وأوكنلك ومونتجومري في أثناء الحملة الليبية ، فقالت (مجلة عمر المختار) الصادرة في بنغازي في عدد ذي القعدة ١٣٦٢ (نوفمبر ١٩٤٣) عن ذكر الحرب وحوادثها « قابلتها الأمة عن طيب خاطر وضحت بأبنائها ومالها في سبيل الوصول إلى الغاية التي قامت تدافع عنها منذ ١٩١١ وسرعان ما وصل الخبر إلى من هم تحت سمع الايطاليين وبصرهم فجمعوا أمرهم وتعاهدوا على أن يقدموا كل مساعدة لحليفتهم ولو كان في ذلك خراب بيوتهم لأنهم يطلبون حقاً طبيعياً أنكر عليهم فصمموا على أن ينالوه مهما يكلفهم من خسارة ، فالحرية تنهب ولا توهب » أفسدوا على الايطاليين خططهم بإفشائها لحلفائهم وتحملوا في ذلك كل مشقة وأصبح كل ليبي وكل ليبية خطرا على الايطاليين . آووا في مساكنهم الضباط البريطانيين وساعدوهم على الحصول على ما يبتغونه من أسرار الإيطاليين وأعمالهم وأنقذوا من تخلف منهم عن اللحاق بفرقته وحافظوا عليه حتى بلغ مأمنه . ولم يكن الدافع إلى ذلك مالا يطلبونه (بل قدم) الليبيون خدماتهم عن طيب خاطر إجابة لنداء الواجب ولطلب أميرهم لا غير » . فالبيوت تهدم والأعمال تعطل ومع ذلك فقد كان سرور الليبيين عظيما لأن في ذلك إذلال الطليان » وكل ذلك لم يخف على الإيطاليين بل سجلوه في مذكراتهم الخاصة والعامة وتوعدوا بالعقاب متى حانت الفرصة ، فقد أصبح عندهم عقيدة أن فشلهم في برقة يتحمل أهل برقة الشيء الكثير عنه وهذا حق ولكنهم ما دروا أن ذهاب بنغازي من أيديهم كان نذيرا بزوال أمبراطوريتهم من أول احتلال لها . وعلى كل فقد رجعوا إليها وخرجوا منها ورجعوا ثانية وخرجوا منها ولكن إلى غير رجعة ! » .

وما أن خرج الطليان وأحلافهم حتى شرع سمو الأمير السيد إدريس يتخذ العدة لتوجيه شعبه الوجهات النافعة لاستئناف الحياة الجديدة ؛ وشعر الليبيون من جانبهم بأن حياة جديدة قد بدأت حقا فأخذوا هم أيضاً ينفضون عن أنفسهم غبار العهد الإيطالى البائد ويتنسمون نسمات الحرية ويعيشون عيش الأحرار الطليقين الذين اعتزوا بوطنيتهم وقوميتهم طوال السنوات المفجعة الماضية ، وأرادوا الآن أن يعززوا هذا الشعور السامى . وقد عاد إلى الوطن كثيرون من الليبيين الذين أرغمتهم قسوة الطليان وحكومتهم الغاشمة على الهجرة من البلاد ؛ وقام (المكتب) الذى اسسه الأمير عند بدء الحرب بخدمات جليلة لكل أولئك الذين رغبوا فى العودة السريعة ؛ وأمر سموه بعد استتباب الأحوال فى برقة والكفرة وطرابلس وفزان بنقل جميع معسكرات التدريب السنوسية فى القطر المصرى إلى ليبيا على أن تصبح القوات السنوسية نواة لجيش وطنى نظامى جديد . وكان أول احتفال أقامه الليبيون بعد تحرير بلادهم أنهم بادروا بالاحتفاء بذكرى وفاة مؤسس السنوسية العظيم الإمام السيد محمد ابن على السنوسى الكبير ، فأقيم الاحتفال بهذه الذكرى فى مدينة بنغازى بجامعها الكبير فى يوم الإحد ٩ صفر ١٢٦٣ (١٤ فبراير ١٩٤٣) ، وألقى الأستاذ محمد محمد عامر خطبة ضافية تناول فيها تاريخ السيد الأمام ونهضته الدينية والعلمية العظيمة ، ثم اختتم هذه الخطبة بقوله «اللهم يا علام الغيوب نسألك كما كشفت عن هذه البلاد ما قاسته ثلاثين عاما من أنواع الكروب أن توفق أميرها وسيدها وقائدها سيدنا السيد محمد إدريس المهدى السنوسى المحبوب لما فيه خيرنا وخير المسلمين والإسلام وتؤيده بروح منك وبحقق على يده إعلاء منار الحق والدين حتى تصبح بلادنا بمساعيه المشكورة سعيدة مطمئنة » . وفضلا عن ذلك فقد أنشأ الليبيون فى بنغازى جمعية وطنية ثقافية أسموها (جمعية عمر المختار) وأصدرت الجمعية مجلة ثقافية أسمتها «مجلة عمر المختار » تخليدا لذكرى الزعيم والشهيد الراحل ؛ وقد أفصحت هذه المجلة عن الغرض من إنشاء جمعية عمر المختار فقالت فى عددها الأول «وهذه جمعية عمر المختار قد قامت لتؤدى الواجب عليها نحو وطنها وأميرها (سمو السيد إدريس) كما أداه عمر المختار على الوجه الأكمل ؛ وهى جادة فى الوصول إلى ذلك لا يعيقها عائق ويسرها أن تعلن أن الدلائل تدل على أنها فى طريق النجاح إلى تحقيق الأمنية العظمى لها وهى توحيد الصفوف بين الأفراد لافرق بين جماعة وأخرى والسعى لنشر الثقافة بين المواطنين وتنمية الروح الرياضية بين الجماعة لا تقصير ولا توانى حتى تحقق الغاية العظمى : شعب متحد وأمير واحد » .

أما سمو الأمير السيد إدريس فقد أيد تأسيس جمعية (أو نادى) عمر المختار لما بدا لسموه من أن غاية الجمعية الجديدة العمل على جمع كلمة الأمة ونبذ الخلافات ظهريا والانكباب على

تثقيف العقول وتقوية أجسام الناشئة الجديدة على خير قواعد الصحة وأساليبها الحديثة
وفى ١٦ مايو ١٩٤٣ نشرت (جريدة بنغازى) رسالة بعث بها الأمير إلى (حضرات القائمين بإدارة نادى عمر المختار) قال فيها سموه «تلوت بكل سرور واغتباط ماورد من النشاط الذى أبداه الشباب الليبى بأن أسس نادى عمر المختار لاجتماع الكهول والشبان فيه ليثقفوا عقولهم ويقووا أجسامهم ويتعارف بعضهم إلى بعض فى غير سياسة ولا حزبية ولا عصبية . . . .
ولقد سرنى بطريقة خاصة ذلك التأكيد القوى والعزم الصلب اللذان لمحتهما من بين خلال الأسطر فى أن الشباب قد عقد الخنصر ووطد العزيمة على ألا ينظر إلا إلى شىء واحد هو الوطن ولا يسعى إلا إلى هدف واحد هو الأمة ومصلحة الأمة لا فرق بين باديها وحاضرها ومسلميها وإسرائيليها وحاسيها وبرعصيها إلى آخره . وبمقدار ما يسرنى هذا قد يغضبنى أن أسمع خلاف هذا الاتجاه . ومن سلك ما يخالفه فقد أراد للبلاد الفساد وفتح باب الفتنة وعاق التقدم المنشود وسار بالبلاد القهقرى من حيث تريد لنفسها السير إلى الأمام .

« ورغبتى أن تؤسس فى كافة أنحاء البلاد فروع لهذا النادى على أن لا يعدو نشاطها الغايات التى ذكرت وهى : الثقافة والرياضة والتعارف والاقتصاد ونشر العلم والأخلاق القويمة وتهذيب العامة وإلقاء المحاضرات مع الابتعاد عن ميادين السياسة ؛ وأحب أن تصلنى تقارير فيما قد تم فى هذا الشأن مما تقدم . هذا وإنى أمضى تعيين مجلس الإدارة وأضع ثقتى فى حضرات أعضائه وأؤكد لهم أنى أرقب عن كثب الخطوات التى يخطوها شعبى الكريم نحو العلا والتقدم خاصة فى نقطة التحول هذه من تاريخنا » . وحقق الشعب الليبى رغبات أميره ؛ وبدأت بالبلاد نهضة يظهر من بوادرها أنها سوف تكون عظيمة ؛ والتف الشعب الليبى حول أميره ؛ وفى أول أغسطس ١٩٤٣ صدر العدد الأول من مجلة عمر المختار يحوى مقالا كبيرا بعنوان (الوطن والأمير) مداره ضرورة الأخذ بنصائح الأمير والعمل بتوجيهات سموه وإرشاداته لإدخال الإصلاحات النافعة فى شتى نواحى الحياة الإجتماعية والصحية والاقتصادية فى البلاد وتقديم مصلحة الوطن فوق كل مصلحة ونبذ الخلافات وتوحيد الصفوف حتى تسير ليبيا العزيزة بخطى ثابتة فى طريق الرفعة والرقى ، يلتف أبناؤها البررة حول أميرهم البار ، لأن «الأمير — على حد ما جاء فى هذا المقال — هو الشخصية العالية التى تتمثل فيها حياة الأمة كلها وإجماع آرائها واتفاق أغراضها وانضواؤها تحت علم واحد وزعامة واحدة حكيمة رشيدة كفيلة بأن تسير بالأمة فى طريق العظمة والمجد وتسجل اسمها فى سجل الأمم العظيمة الخالدة » ؛ وقد أهاب صاحب المقال بأبناء الوطن الليبى « فى هذه الفترة التكوينية » التى يجتازونها أن يكونوا متمسكين بمبادىء

الوطنية الصحيحة ، « فنؤدى جميع الواجبات التى يحتمها علينا وطننا العزيز : نعمل على تقوية كيانه وتثبيت أركانه وننشر العلم والصناعة والأدب ومكارم الأخلاق بين أفراد أمتنا ونبذل قصارى جهدنا فى كل ما يساعد على الإصلاح ويعاون على تحقيق هذه النهضة القومية التى نحن ساعون فى سبيلها . وكذلك يجب أن يكون مقرونا بمحبتنا وطاعتنا لأميرنا المحبوب سمو الأمير مولانا محمد إدريس السنوسى حفظه الله وأيده ، فنعمل كل ما يرضيه ويرى فيه مصلحة لوطنه وننفذ أوامره بكل طاعة وإخلاص ونسير إلى الأمام فى طريق الحضارة والمدنية والمجد على ضوء إرشاداته الحكيمة وآرائه الصائبة حتى نصل بحول الله وقوته إلى ما تصبوا اليه وتتمناه لوطننا العزيز من رفعة ومقام عظيم » .

وكانت توجيهات السيد الأمير كثيرة وإرشادات سموه صائبة وحكيمة ونداآته عديدة نذكر على سبيل المثال ذلك النداء الذى وجهه سموه من القاهرة فى ٢٦ صفر ١٣٦٢ (٣ مارس ١٩٤٣) إلى (بنى وطنه الأعزاء) يدعوهم فيه إلى تأسيس شركة مساهمة ليبية «تضم صفوف جميع طبقات الشعب فى عمل اقتصادى عام شامل يكفل للبلاد نهضتها الاقتصادية فى جميع وجوه النشاط التجارى والمالى والصناعى ويضمن للفرد عملا مجديا وعيشا غدا فى نطاق مشروع قوى ؛ فالمساهمون ليبيون والعمال ليبيون والشركة ليبية ولليبيا ولليبيين » ، وقد انتدب سموه الدكتور على نور الدين العنيزى وذلك حتى « يفصل لأبناء الوطن ما أجمل » سموه فى هذا النداء وفضلا عن ذلك فقد أمر سموه بأن تجعل البلاد من يوم ٩ أغسطس من كل عام عيدا قوميا تحتفل به الأمة بأسرها لأنه اليوم الذى تم فيه الاتفاق بزعامة سمو الأمير مع رجال الدولة البريطانية فى عام ١٩٤٠ على أسس الجهاد من أجل طرد العدو الغاصب من الأقطار الليبية وتحرير أرض الوطن . وفى يوم ٩ أغسطس ١٩٤٣ احتفلت الأمة الليبية بهذا العيد القومى لأول مرة بعد اندحار الطليان وأحلافهم الألمان وتخليص البلاد من شرورهم نهائيا .

وكان احتفالا رائعا ، فزار المحتفلون ضريح السيد عمر المختار وترحموا على البطل الشهيد وقرأوا فاتحة الكتاب ، وألقى الشيخ عبد الحميد الديبانى قاضى القضاة خطبة نفيسة ، واشتركت فى هذا الاحتفال الطائفة الاسرائيلية واشتركت كذلك السلطات الانجليزية فى الادارة ، فخطب كثيرون من بينهم الشيخ خليل الكوافى رئيس جمعية عمر المختار ، ثم أرسل المجلس البلدى فى بنى غازى بهذه المناسبة برقيتين إحداهما إلى الأمير والأخرى الى البريجادير كنن والى برقة . وفى ١٦ سبتمبر ١٩٤٣ قامت المظاهرات فى كل مكان وأقيمت الاحتفالات تخليدا لذكرى الشهيد السيد عمر المختار ، وكان الاحتفال فى بنغازى احتفالا كبيرا ، فتوجه القوم

فى صبيحة الخميس ١٦ رمضان ١٣٦٢ (١٦ سبتمبر ١٩٤٣) إلى مقبرة سيدى محمد عبيد للترحم على الفقيد ، وفى عصر اليوم نفسه ألقى الأستاذ مصطفى بن عامر محاضرة فى الجامع الكبير ، ذكر فيها جهاد المختار ضد العدو الغاشم وقارن بين برقة و بين الأمم الغابرة ، وفى مساء ذلك اليوم أقيمت حفلة تأبين فى جمعية عمر المختار فاعتلى منصة الخطابة الأستاذ محمود مخلوف والسيد عبد السلام بسيكرى والسيد الحاج سليمان الصلابى والأستاذ الشريف بومدين والشيخ صالح أبو بصير وغيرهم . وعلى هذا النحو إذن استطاع الليبيون فى هذين الاحتفالين (فى يومى ٩ أغسطس و١٦ سبتمبر) أن يفصحوا عما كان يجيش فى صدورهم من معانى العزة القومية وعما كانت تمتلىء به نفوسهم من رغبة صادقة فى تحقيق آمانيهم الوطنية . ثم اتيحت الفرصة لليبيين حتى يعبروا عن كل هذه المشاعر العظيمة عندما احتفلت الهيئات بذكرى مرور عام على طرد العدو من بلاد برقة ودخول الجيوش البريطانية والسنوسية بنغازى (فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢) ، فرفعت هيئة المجلس البلدى ببنى غازى بهذه المناسبة إلى السلطات الادارية (المؤقتة) تقريرا ضافيا عرضت فيه حوادث الماضى وما تحملته البلاد من ويلات الحرب ، وطاليت بتحقيق آمال الأمة القومية والوطنية واجابتها الى مطالبها وحقوقهـا الطبيعية فى حاضرها ومستقبلها . وحدث عندئذ أن أعلن متصرف بنغازى نبأ « وصول السادة رسل (الأمير السيد ادريس) وآل البيت السنوسى المجيد لزيارة بنغازى قريبا ، فاستبشرت الأمة بهذه الزيارة واعتبرتها فاتحة عهد جديد كله عمل للحياة ومن أجل الحياة الحرة وأخذت تتهيأ لإستقبالهم وتعد العدة لذلك » .

وكان وفد الأمير يتألف من السيد صفى الدين رئيسا والسيد محى الدين الشريف والسيد محمد الصديق رضا والسيد شمس الدين الخطابى والسيد أحمد بن ادريس والسيد عز الدين هلال يصحبهم كل من السيد ابى القاسم الشريف والسيد الصديق عابد . ووصل هذا الوفد الى بنغازى حوالى ظهر يوم الاثنين أول ذى الحجة ١٣٦٢ (٢٩ نوفمبر ١٩٤٣) . وكانت بنغازى قد أخذت أهبتها لهذه الزيارة فأقيمت الزينات واصطف الأهلون على طول الطريق الساحلية الى مسافة ثلاثين كيلومترا فى شرق المدينة لإستقبال الوفد واحتشدت الجماهير فى (ميدان ٩ أغسطس) أمام السراى المعدة لنزول الوفد بهذا الميدان وخرج المستقبلون فى سيارات عدة من الصباح الباكر لإستقبال «الوفد الأميرى» ـــ وفد سمو الأمير السيد محمد ادريس . وخرج مع المستقبلين متصرف منطقة بنغازى الانجليزى وهيئة المجلس البلدى وشباب جمعية عمر المختار ؛ ثم انتظر المستقبلون هذا الوفد فى مكان يبعد مسافة أربعة كيلومترات شرقى سيدى خليفة ؛ وما أن وصل الوفد حتى نزل السادة من السيارات ونزل معهم « كن » والى برقة ، فأنشد شباب عمر المختار نشيد العلم

تحية لهم وألقى قاضى القضاة خطاب ترحيب قيم ، ثم استأنف الركب سيره حتى دخل مدينة بنغازى وسط مظاهر الفرح العظيم. وكانت مظاهرة كبيرة عند وصول أعضاء الوفد الى السراى المعدة لنزولهم وحضرت الهيئات المختلفة لتهنئتهم بسلامة الوصول وازدحم الميدان بالجماهير ، وحيا أعضاء الوفد هذه الجماهير ، فكان مما قالوه « إن أفراد الأسرة السنوسية لم يألوا — ولن يألوا — جهدا فى خدمة الوطن العزيز وتأييد قضيته بالنفس والنفيس . إن جهاد الأمة فى سبيل حريتها طوال ثلاثين سنة لن يذهب سدى» . وأقام المتصرف « الكولونيل بيلى» مأدبة فخمة احتفاء بالوفد . وفى اليوم التالى « ٢ ذى الحجة ١٣٦٢ ، ٣٠ نوفمبر ١٩٤٣» احتفلت جمعية عمر المختار بالوفد الأميرى ؛ وفى يوم أول ديسمبر ظهرت « مجلة عمر المختار » تحوى أنباء هذه الزيارة ووصف الاحتفالات التى أقيمت تكريما لأعضاء وفد الأمير ، فقالت «لقد انقضى يوم وصولهم واليومين التاليين والبلاد من أقصاها إلى أقصاها فى مهرجان واحد يتنقل من جهة إلى أخرى والهتاف يتصاعد من الحناجر بحياة الوطن والأمير» .

على أن هذه الاحتفالات على روعتها ، وهى احتفالات أتاحت الفرصة للشعب الليبى وللبرقاويين خصوصا حتى يظهروا شدة تمسكهم بإمارة السيد محمد إدريس المهدى السنوسى عليهم وتعلقهم بالبيت السنوسى المجيد لم تلبث أن بذتها وفاقت عليها احتفالات أخرى كانت أعظم روعة وأبلغ أثرا عندما قرر سمو السيد ادريس زيارة الوطن فى شهر يولية من العام التالى (١٩٤٤) . وكانت زيارة الأمير ولاشك زيارة تاريخية لأسباب عدة منها أن سموه جاء يزور الوطن للمرة الأولى بعد أن تحررت من نير ذلك العدو الذى ظل ثلاثين عاما ونيف يحتل ربوعه ، وبعد أن اضطر الأمير بسبب نقض الطليان لعهودهم ومواثيقهم الى العيش بعيدا عن بلاده حوالى أكثر من عشرين عاما . وفضلا عن ذلك فقد تحدث سمو الأمير فى أثناء هذه الزيارة الى كبار المواطنين ورجال الأمة وخطب فى جموع الأهلين الذين احتشدوا فى كل مكان قصد اليه الأمير لسماع نصائحه وإرشاداته ، فأوضح سموه فى هذه الأحاديث والخطب الجامعة أهداف البلاد بعد تحررها وخلاصها ورسم خطوط السياسة القويمة التى يجب أن تسترشد بها الأمة فى حاضرها ومستقبلها ، فكانت أحاديث سموه وخطبه بمثابة دستور يعين معالم الطريق لرعاياه حتى يسلكوه هؤلاء آمنين مطمئنين فى حياتهم المستقبلة عاقدين العزم على بلوغ غايتهم فى ظل الإمارة العتيدة .

وتبدأ هذه الزياة السعيدة من وقت وصول الأمير إلى طبرق فى يوم الاثنين ٢٦ رجب ١٣٦٣ (١٧ يولية ١٩٤٤) إلى وقت انتهاء الزيارة رسميا فى يوم ٦ أغسطس ١٩٤٤ . قالت مجلة عمر المختار بمناسبة عودة الأمير لبلاده « فى كل بلد وفى كل مركز وفى كل ناحية

من طبرق شرقا إلى إجدابية غربا ومن بنغازى إلى سلوق جنوبا ومن شروق شمس يوم ١٧ يوليه إلى غروب يوم ٦ أغسطس ١٩٤٤ والبلاد من أقصاها إلى أقصاها فى مهرجان واحد واحتفال متصل ، فلا ترى إلا مظاهرات رائعة منقطعة النظير ومهرجانات شائقة ، كلما شاهد الإنسان جهة أخذت بمجامع قلبه وتطلع أن لا يكون أحسن وأجمل منها ، فعلق بذهنه منها ما علق ، فيرى فى اليوم الثانى غيرها فتتحول الصورة المستحسنة فى ذهنه إلى أحسن وأجمل . وهكذا دواليك فلا ترى إلا جموعا تتدفق فى الطرقات من ميدان إلى آخر بالآلاف وبضع الآلاف وعشراتها ماشين باشين شيوخا وكهولا شبانا وأطفالا رجالا ونساء والجميع وقد اعتلى وجوههم البشر معبرة عما امتلئت به قلوبهم من السرور والفرح مبتهجين مغتبطين . وكل فرد آخذ بنصيبه مشاركا الأمة فى ابتهاجها باستقبال أميرها المحبوب وقائدها العزيز منقذها من هاوية الهلاك إلى ساحل السلامة والنجاة ليشاهد طلعته ويحظى برؤيته » :

غادر سموه القاهرة فى قطار خاص إلى طبرق فى يوم ١٦ يوليه وكان يصحبه عمر فائق شنيب بك سكرتير سموه الخاص وابراهيم بك الشلحى ناظر خاصته وصالح باشا الأطيوش والمرحوم الشيخ عبد الحميد العبار والشيخ ناصر الكزه والشيخ حسين عبد الملك والشيخ قدورىو بريدان ، وكل أولئك من قادة الحركة الوطنية وزعماء الجهاد ضد الطليان من قديم وهم كذلك من أعضاء الجمعية الوطنية العمومية التى أخذت على عاتقها مسئولية الاشتراك مع بريطانيا فى الحرب وفق قرار ٩ أغسطس ١٩٤٠ ؛ فبلغ سموه طبرق فى ضحى الاثنين ١٧ يوليه ١٩٤٤ (٢٦ رجب ١٣٦٣) ؛ وكان فى استقبال سموه والى برقة البريجادير كمن وكبار رجال الادارة العسكرية المؤقتة من الانجليز ، واستعرض سموه حرس الشرف الذى أدى له التحية العسكرية ، ثم اعتلى سيارة أعدت خصيصا للأمير وجلس إلى جانبه والى برقة واعتلى الآخرون السيارات ، وسار الركب فى الطريق الممتد من طبرق إلى إجدابية مركز الإمارة السنوسية القديم قبل ذلك بحوالى عشرين عاما تقريبا . فاخترق ركب الأمير المدن والقرى على طول هذه الطريق من طبرق إلى المرصص الى أم الرزم ثم درنة والقبة والبيضاء (سيدى رافع) وشحات والغريب والمرج وجردس العبيد وبنغازى . وكان المجلس البلدى فى اجدابية قد أعد قبل ذلك برنامجا رائعا لاستقبال الأمير والحفاوة به منذ ١٣ يوليه . ومما يجدر ذكره أن السيد يوسف لنقى بك من سراة البرقاويين ومن كبار رجالاتهم القدامى المجاهدين ، وأظهر أعضاء المجلس البلدى العاملين كان قد قام بأعباء رئاسة لجنة الاستقبال فكان يوسف بك فى طليعة شعب الأمير ذلك الشعب البار الذى أراد الافصاح عما تكنه ضمائره من أصدق آيات الولاء والمحبة لأمير البلاد وسيدها ، فوافقت لجنة الاستقبال على

طلب يوسف لنقى بك أن ينحر يوسف بك الذبائح احتفاء بقدوم الأمير وأن يقيم مأدبة باسم مدينة بنغازى لسمو الأمير على نفقته الخاصة فى داره . وأن يساهم بنصيب وافر من نفقات الاحتفالات الأخرى . وكان من برنامج لجنة الاستقبال توزيع مقادير كبيرة من المؤن على فقراء المدينة وإعداد سيف من صنع مدينة بنغازى يهدى إلى سمو الأمير نقش على صقله بيتان من نظم الأستاذ محمد بن عامر .

ادريس ان السيف قد أودى به الشعب عداك
فاحرص عليـــه فإنه (عهد) بأنهموا فداك

« ومقبض هذا السيف من الذهب الخالص جعل له زائدة تغطى فوهة الغلاف من الذهب أيضا زاد فى جمالها حجرة حمراء . نقش على هذه الزائدة (بنغازى ٨ شعبان ١٣٦٣) ؛ ثم إن الغلاف له قبضتان من الفضة وبينهما قبضة من الجلد الأسود نقش عليها اسم بنغازى فى الوسط وهلالان ونجمتـان رمز العلم القومى وذلك بخيط الحرير الفضى . وفى هـذا الغلاف حلقتان من الفضة وله حمـال من الشريط الفضى والملف الأحمر وضع له صندوق من خشب اللوز الهندى مفرش بالقطيفة الزرقاء » . وكذلك كان من ضمن برنامج الاحتفـال « أن يهيأ رسم زيتى كبير لسمو الأمير الجليل بريشة الرسام الفنى عوض افندى عبيده يعرض على الشعب فى ميدان البلدية مدة إقامته ثم يهدى لسموه » .

وفى يوم الجمعة ٢٨ يوليه ١٩٤٤ ذهب أعضاء المجلس البلدى وأعضاء لجنة الاستقبال وشباب جمعية عمر المختـار وأعضائها إلى مركز الكويفية حيث أقامت اللجنة قوس نصر استعدادا لاستقبال الأمير وتدفقت الجماهير ، فملأت الطرق والميادين . فما أن بدت طلائع الموكب الأميرى حتى تعالت الأصوات (الله أكبر، الله أكبر) ودخل الأمير مدينة بنغازى تحف به كوكبة من الفرسان العرب ، وأدى سموه فريضة صلاة الجمعة فى الجامع العتيق وقضى بقية اليوم يشرف بحضوره الاحتفالات التى أقيمت لاستقباله وأهدى إلى سموه السيف . وفى اليوم التالى (٢٨ يوليه) حضر سموه احتفال المحكمة الشرعية ثم تحرك ركابه السامى قاصدا منزل يوسف بك لنقى فى حديقة خارج المدينة ، « فشرف سموه مأدبة الغذاء الفاخرة التى أقامها يوسف لنقى لسموه باسم مدينة بنغازى ، على نفقته الخاصة « فكانت من أجمل وأنفر المـآدب حضرها دولة الوالى وسعـادة قائد الجيش وكبار الضباط وأعضاء المجلس البلدى والوجهاء والأعيـان الذين يتجاوزون مائة مدعوا » . وقـــد توالت المـآدب والاحتفالات فى اليوم التالى (الأحد ٣٠ يوليه) وحضر سموه احتفال جمعية عمر المختار ، وفى مساء اليوم نفسه ألقى سموه خطابه التاريخى الجامع من شرفة السراى المعدة لإقامة

سموه ونقلت هذا الخطاب مكبرات الصوت إلى آلاف المستمعين الذين غص بهم الميدان حتى ضاق على رحابته . وفى هذا الخطاب التاريخى سجل سموه المبادىء التى نادى بها دائما والتى أضحت دستورا تتمسك به البلاد وتسترشد به فى تحقيق غاياتها الوطنية . قال سموه بعد أن حمد الله « الرحيم القادر العظيم جامع الشتات مبيد الطغاة » . . .

« أما بعد فإنى أقف اليوم فى وسط عاصمة البلاد وكلى شوق وغبطة وتقدير لهذه الأمة النبيلة التى حبتنى بكرمها وإخلاصها ، فهنيئا لها بخلاصها وتحريرها من نير الظلمة الذين لم يرقبوا فيها إلا ولا ذمه . آسفا أشد الأسف على ما أصاب هذه الحاضرة الجميلة من أضرار الحرب متمنيا لها عودة العمران ولأهلها حظا سعيداً مدى الأزمان ...

« إخوانى : ليس لى مأرب ولا غاية فى هذه الحياة الفانية إلا أن أرى أهل وطنى أعزاء متمتعين بحريتهم ضمن حلف دفاعى وتعاون مع بريطانيا العظمى مثل باقى الأمم العربية . هذه هى غايتى وهذا ما سعيت إليه . وهو الحق الطبيعى للشعب على ما أرى فقد ضحى من أجله بما يقارب من نصف عدده من خيرة أبنائه البررة فيما يقارب ثلث قرن ؛ وهذا ما حدا بى للتعاون مع دولة بريطانيا العظمى فى صيف ١٩٤٠ — الوقت الذى قل فيه الأصدقاء الأوفياء فاخترت لشعبى أن يكون أول صديق وفى فى ساعة الشدة لبريطانيا العظمى صديقة العرب الشغوفة بالحرية لنفسها ولغيرها ذات المبادىء الشريفة فى تحرير الأمم الضعيفة .

« إخوانى — لم أتقدم لدولة بريطانيا وقتئذ بسوى ما قدمته لجنة التعاون الوطنية المتكونة من زعماء البلاد نيابة عن جميع سكان بلادهم فى ٩ أغسطس ١٩٤٠ من الأمانى القومية والآمال الوطنية فى تحرير البلاد واستقلالها فأيدتها كل التأييد .

« إخوانى — لقد ضربنا رقما قياسيا فى التضحية والجهاد . فلو قيس ما ضحت به أمتنا بالنسبة إلى عددها وعدتها وقورن بما فعلته الأمم الأخرى التى نالت حقوقها واستقلالها لوجدنا لبلادنا المقام الأول . إذن لقد حق لهذا الشعب أن يتبوأ مقامه بين الأمم كسائر الشعوب العربية فى جميع اعتباراتها وكيانها السياسى ، وذلك بمساعدة دولة بريطانيا العظمى وحلفائها الكرام . لهذه الغاية السامية عملنا وعلى هذه الأهداف الشريفة اشتركنا وإلى هذا الغرض المقدس نسعى .

« إخوانى — إن ماضيكم ساطع لامع ، فلا يتطرق إلى قلوبكم اليأس والوهن وإن الحلفاء أوفياء وإن الميثاق الاطلنطيقى والنبل الانجليزى هما أكبر عون لنا بعد الله على تأمين حقوقكم المشروعة بعد الحرب ، فلنرقب ذلك اليوم بكل حكمة وسكينة وثقة بأنفسنا . إنه

الدولة البريطانية مقدرة لمساعداتكم وتضحياتكم معها فى هذه الحرب . غير أن ظروفها الدولية وحالة الحرب التى لا تزال قائمة تحول دون إبداء رأيها فى مصيركم الآن رغم إلحاحى ونصحى بسرعة إعلان رغبتها . لهذا ترونى أنظر إلى المستقبل بعين الأمل . وأما ماترونه مخالفا لتقاليدكم أو مضرا باقتصادياتكم من نقص فى التجارة والزراعة والصناعة والمواصلات فهو ناشىء عن حالة الحرب القاسية . وآمل أنه سيزول تدريجيا كما آمل أن يزول كل ما يشتكى معه .

« إخوانى — إن الجمعية العمومية الوطنية التى أخذت على عاتقها مسئولية الاشتراك مع الدولة البريطانية فى ٩ أغسطس ١٩٤٠ والتى نابت عن الأمة نظراً للموانع التى كانت تحول دون الاجتماع بجميع زعمائها قد أدت واجبها الوطنى نحو الوطن وأهله بكل إخلاص وأمانة، أما وقد فتحت البلاد وتم الاتصال فما على زعماء الشعب إلا أن يتحدوا ويعملوا يدا واحدة لإتمام ما بدأته هذه الجمعية من خير لصالح الأمة ليقوم كل فرد بواجبه نحو وطنه . وأما ما أوصى به فهو الاتحاد ونبذ الشقاق وتقديم المصلحة العامة ونكران الذات فى سبيل صالح الوطن وأن لا يتجاوز أحد اختصاصه إلى اختصاص الآخر . فليعمل كل شخص فى دائرة اختصاصه بكل أمانة واستقامة ، فإذا سلك كل فرد منا هذا المسلك فقد أدى لوطنه وأمته خدمة قيمة. وإياكم والغرور والتحاسد والتباغض والتسرع فى الأمور فإن فى ذلك مجلبة للأضرار وضياع للصالح العامة .

« إخوانى — إن العلم هو النبراس الذى تستضىء به الأمم فابعثوا أبناءكم إلى المعاهد والمدارس .

« إخوانى — إن الاعتماد على النفس هو خير وسيلة للتقدم فى مضمار هذه الحياة التى أصبحت فيها الساعة بمثابة شهر والشهر بمثابة دهر فعليكم بالجد والاجتهاد فى العمل والصبر على المكاره والتآخى والاخلاص لا فرق عندى فى توجيه خطابى هذا بين النحل والديانات والمعتقدات إذ كلكم أبناء وطن واحد يظلكم علمكم الوطنى وإن للوطن عليكم حقا أن تكونوا أبناءه البررة .

« إخوانى — لا أرغب وجود جمعيات متعددة ولا أحزاب مهما كانت الغاية صالحة فإن الأمة عائلة واحدة وجمعية واحدة . وماجمعية عمر المختار أو بالأصح (نادى عمر المختار) إلا رمز لتآخى ومعهد للرياضة والثقافة والأعمال الخيرية . ونأمل أن يكون هذا النادى نواة صالحة لنهضة الشباب رجال الغد . فعلى سواعدهم وحسن ثقافتهم ينهض الوطن . وإن عدد أمتنا وقلة ثروتنا لايحتملان تعدد الجمعيات . أما ضرر كثرة الأحزاب فقد أصبح

اهراً حتى فى الأمم التى سبقتنا بمراحل شاسعة فى المدنية والحضارة . كما أوصي الشباب بأن ينسوا تقاليدهم العائلية القديمة بل يحافظوا عليها وأن يحترموا شيوخهم وذوى الرأى فيهم على الشيوخ أن يعطفوا على الشباب ويحسنوا إرشادهم . فقد جاء فى الحديث الشريف « من يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا فليس منا » . وان الحكيم العربى يقول .

ولاخير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولاخير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

« عليكم بحكمة الشيوخ وفتوة الشباب ، فلاغنى لإحداهما عن الأخرى . وإنى أنصح لقائمين بإدارة نوادى عمر المختار بتوحيد شؤونها وربط فروعها برئاسة واحدة مع مراعاة لاقتصاد وتنسيق شؤونها بحالة تلائم الغاية المطلوبة منها » .

وبعد أن تحدث سموه فى بعض الشئون الاقتصادية من حيث التموين وغيره مما كانت تهتم به البلاد وقتذاك وامتدح الجهود التى كان يبذلها والى برقة فى سبيل إنعاش الحياة الاقتصادية على الرغم من ظروف الحرب القائمة فى ذلك الحين ، اختتم الأمير خطابه التاريخى الجامع بقوله « وإنى أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقنى فيما أتقلتم به كاهلى . وأن يعيننى على خدمتكم وخدمة الوطن العزيز فى تحقيق أمانيه التى يصبو إليها فى الحال والاستقبال إنه على كل مايشاء قدير » .

وزار الأمير مراكز القطر البرقاوى الأخرى ومدائنه ، فغادر بنغازى إلى سلوق (٣١ يوليه) فبلغها عند الظهر وفى مساء اليوم نفسه ألقى خطابا كبيراً فى عشرات الألوف من رجال القبائل والأهالى الذين احتشدوا لاستقبال سموه ، وقدم أهل سلوق ومنطقتها هدية تذكارية ثمينة إلى الأمير . وفى أول أغسطس غادر سموه سلوق إلى اجدابية فاستقبل سموه بها استقبالا فخما عظيما . قالت مجلة عمر المختار — « بماذا يستطيع الواصف أن يصف منظر احتفال إجدابية بمقدم الأمير ، إجدابية المدينة النائية الهادئة كيف استحالت إلى حركة متصلة وجموع محتشدة أين ما أجال الإنسان بصره لايرى إلا الجموع تلو الجموع وكل فرد يسعى ويتقدم لمشاهدة الأمير مغتبطا فرحا مصرخا يحيا الأمير عاش الأمير . ترى بإجدابية خلف الجموع كتائب الجمال آلافا مندفعة وترى الأبسطة الصغيرة مدلاة عليها مما يزيد فى بهجتها وقد ركب على كل جمل واحد أو أثنان ببنادقهم فإذا مربهم الموكب حيوه بآلاف الطلقات النارية مجتمعة فيخيل لسامعها كأنها قعقعة رعد تسبح بحمد الله تعظيما وإجلالا ثم ترى مئات الفرسان تلوها المئات تتسابق فى العدو أمام الموكب ووراءه وعن يمينه وعن شماله وتتصاعد من فوهات البنادق الطلقات النارية مما يأخذ بمجامع القلوب فيذهل الإنسان ويحار

« فمن يبحث على رفيقه وصديقه لا يجده حيث حال بينهما تدفق الجماهير ، وإذا نادى عليه بأعلى صوته لا يسمعه ومن سمع من يناديه لا يبصره . فمن عبارات الفرسان وتحمس الجموع لها إلى جماعة الأناشيد الوطنية إلى جموع الطرق الصوفية بطبولهم وأعلامهم إلى ألعاب الطوائف السودانية إلى دوى الطلقات النارية المتكررة . كل ذلك مزيج صاخب وضوضاء متواصلة والقوم جميعهم كأن أجسامهم من حديد لا يشعرون بالتعب ولا بحرارة شمس الصحراء المحرقة وقد ترى مئات البيوت — الخيم — منتصبة بجانب بعضها فى كل جهة كسرادقات مفروشة بأنواع الأبسطة تعلوها الأعلام الوطنية ليأوى اليها المستقبلون ولكن القوم فى شغل شاغل عن المأوى فكأنهم لم يشعروا بحاجتهم للراحة فيها قط » . وفى يوم ٣ أغسطس ألقى سمو الأمير خطبة عظيمة فذكر تلك المبادىء التى تضمنتها خطبته التاريخية السابقة فى بنغازى ثم اختتمها أعزه الله بقوله — « فكونوا عباد الله إخوانا وعلى البر أعوانا (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) وإنى أوصيكم بتقوى الله العظيم واتباع سنن نبيه الكريم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتنالوا بذلك الفوز الأكبر فى الدارين واستغفر الله لى ولكم إنه هو الغفور الرحيم » .

وقد عاد سموه من إجدابية إلى بنغازى فوصلها فى ظهر اليوم نفسه وكان فى شرف استقبال سموه عند مركز سوانى تيكة يوسف بك لنقى (رئيس الاحتفالات) ونخبة من الوجوه والأعيان ومتصرف بنغازى بالنيابة ، وحضر سموه حفلة مباراة لكرة القدم بين المنتخبين البرقاوى واليونانى ثم حضر الحفلة التى أقامها الاسرائيليون لسموه فى مدرسة (التلاموذ) وألقى رئيس الطائفة وبعض أعيانها خطبا أعربوا فيها عن إخلاص وولاء الاسرائيلين جميعهم فى برقة لسموه وترحيبهم بالأمير . وفى المساء أقيم الحفل الذى اختتمت به حفلات استقبال الأمير وقدمت لسموه فى أثنائه الصورة الزيتية التى رسمها الفنان عوض عبيدة فتقبلها سموه شاكرا ثم أهداها لجمعية عمر المختار — كذكرى تاريخية للزيارة الميمونة . وفى ضحى اليوم التالى (الجمعة ٤ أغسطس ١٩٤٤) غادر سموه بنغازى ، فمر القطار بمركز بنينه والرجمة قبل وصوله إلى الآبار . حيث استقبل سموه بهذا المكان الأخير أهل الآبار وأعيانها يتقدمهم مدير الآبار السيد على جعودة ومتصرف المرج وبعض الضباط . وفى يوم الأحد ٦ أغسطس ألقى سموه خطابا رائعا على جنوده البواسل قوة دفاع برقة — فى مركز أبو بريدان « حيا فيه ابناءه الأعزاء وهنأهم بما قدموه لوطنهم من تضحيات فى الذود عن حياضه » . وقد توجه سموه بعد ذلك إلى البيضاء (سيدى رافع) فأقام بها حتى نهاية الأسبوع الأول من شهر رمضان ١٣٦٣ (اواخر أغسطس ١٩٤٤) .

وعندئذ توجه لمقابلة سموه فى البيضاء السيد يوسف بك لنقى ، ورجاه باسم الشعب البرقاوى أن يطيل إقامته بين رعاياه المحبين فعاد سموه إلى بنغازى وأعد يوسف بك لنزول سموه دارا كبيرة فى الفويهات فظل الأمير فى بنغازى حتى يوم ٤ شوال (٢٢سبتمبر ١٩٤٤) ثم غادر برقة إلى القطر المصرى . وكان على أثر انتهاء الزيارة الرسمية فى الشهر السابق أن تقدم يوسف بك لنقى رئيس لجنة الاستقبال والاحتفالات إلى مجلة عمر المختار يطلب إليها باسم اللجنة إصدار عدد خاص « لتخليد ذكرى زيارة الأمير » فصدر عدد خاص يحوى وصفا شاملا للزيارة ويجمع بين دفتيه تلك الخطب التاريخية التى ألقاها سمو الأمير على شعبه فى بنغازى واجدابيه وأبو بريدان وكذلك فى درنة . وكان خطاب سمو الأمير فى درنة فى يوم ١٩ يوليه أسبق الخطب التى ألقاها سموه . وقد عرض فيها سموه إلى ذكر الحقوق التى تمسكت بها البلاد فى كل زمان وجاهدت فى سبيل استخلاصها جهاد البواسل ، كما أوضح سموه غدر الطليان ونقضهم لمواثيقهم ، ثم أكد سموه تلك الغاية العليا التى يعمل لتحقيقها وهى الاستقلال . قال سموه « إن فى الماضى لعبرة والأمم الحية تستخلص من ماضيها آيات بينات لتكيف بها حاضرها ومستقبلها . . فماضيكم كان ساطعا لامعا بجهادكم وإخلاصكم لقضية بلادكم وتضامنكم فى الدفاع عنها وتمسككم بحقوقكم الطبيعية التى سفكتم من أجلها دمائكم وأفنيتم فيها أموالكم . تلك الحقوق التى كانت لكم قبل الأتراك وفى زمنهم . وقد صرحت بها تركيا فى معاهدة أوشى وقد وافقت عليها إيطاليا ثم نقضت عهدها وأخيرا تعاهدت معنا على شىء منها ثم غدرت ثانية شأنها فى نقض العهود حتى مع من هم أشد منا قوة وبأسا — الأمر الذى حدا بنا إلى امتشاق الحسام مرة أخرى ضدها . كذلك مما يكسبنا هذا الحق الطبيعى تعاوننا وتضحية شعبنا داخلا وخارجا وتعاون جيشنا مع جيش بريطانيا العظمى ، وتلوه غايات الحلفاء السامية كميثاق الأطلنطيقى لإنالة الشعوب الضعيفة حقوقها وإعادة الحرية والسلام لها بعد الحرب . كل ذلك يجعلنى أنظر إلى المستقبل بعين الأمل . . أرجو أن لا يتطرق إلى أذهانكم إنى تهاونت أو أتهاون فى المطالبة بحقوقكم الشرعية ألا وهى الاستقلال ضمن قرار الجمعية العمومية للوطن المقدم من لدنها إلى الحكومة البريطانيــــة يوم ٩ أغسطس ١٩٤٠ والمؤيدة منا فى عدة مناسبات » .

ولا جدال فى أن كل هذه الأقوال قد فعلت فعل السحر فى النفوس . إذ أن الأمير إلى جانب تطمين البلاد على نوال حقوقها الكاملة التى جاهدت فى سبيل الحصول عليها جهاداً شاقاً مضنياً طويلا قد أوضح لشعبه المبادىء التى استرشد بها قادته وزعماؤه عندما دخلوا ميدان الكفاح إلى جانب بريطانيا على أساس ذلك الميثاق (ميثاق الأطلنطيقى) الذى كفل

للشعوب المناضلة بجوار الديمقراطيات الكبيرة بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية التحرر والخلاص والاستمتاع بحقوقها الوطنية كاملة فى ظل سلام يسود العالم قاطبة .

وقد أحدثت الاحتفالات الرائعة فى برقة وتلك الخطب القيمة التى ألقاها سمو الأمير على شعبه فى أثناء هذه الاحتفالات أثرا عميقا فى نفوس أهل القطر الشقيق المجاور ، طرابلسيين . فوفد على سموه عقب الانتهاء من جولته المظفرة فى برقة ، جماعة من وجوه الطرابلسيين يطلبون من سموه أن يزور طرابلس . ولكنه لما كان الأمير قد غادر برقة بعد ذلك إلى مصر فقد تعذرت الزيارة ، ومع ذلك فقد أعد أهل طرابلس (بيعة شرعية) جددوا بها بيعتهم السابقة لسموه فى ٣ ذى الحجة ١٣٤٠ ، ١٧ يوليه ١٩٢٢ ، أى قبل ذلك بعشرين عاما . أما البيعة الجديدة فكانت محررة فى ٢٨ رمضان المعظم ١٣٦٣ ، ١٦ سبتمبر ١٩٤٤ وجاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين — حضرة صاحب السمو الجليل السيد محمد إدريس المهدى السنوسى أمير ليبيا المعظم . إن لكم فى عنق الأمة الطرابلسية بيعة شرعية فى اختياركم أميراً للقطر الليبي بواسطة ممثليها الشرعيين حرصا منهم على سعادة بلادهم وجمع كلمتها تحت إمرة رجل ذى حسب ونسب وكفاءة للقيام بهذه المهمة الخطيرة وما يتطلبه هذا المنصب السامى من جهود جبارة . وقد وجدت فيكم المثل الأعلى فبايعتكم وأمرتكم برضى منها وطيب خاطر . وقد حالت حوادث الدهر وظلم الغاصبين بينكم وبين أمتكم وبينها وبين رغباتها حقبة من الزمان . وهاهو بعون الله سبحانه وتعالى قد حررت بلادنا بواسطة صديقة العالم الاسلامى وحليفته بريطانيا العظمى التى وجدت فى شخصكم الكريم خير حليف مساعد بنفوذه وأتباعه قام بما طلب منه خير قيام . وبما أن الحرب قد أصبحت على وشك الانتهاء ، وسيكون النصر فيها حليف حلفائكم الديموقراطيين فقد قمنا بتحرير هذه الوثيقة مجددين لكم تلك البيعة التى لا زلنا متمسكين بها أى بيعة مؤتمر غريان المنعقد فى ٣ ذى الحجة ١٣٤٠ هجرية ، قائمين بما تفرضه علينا البيعة المذكورة من واجبات راجين منكم السعى فى تحقيق رغبات الأمة من إحرازها للحكم الذاتى وغير ذلك مما يجلب لها الراحة والهناء . وتحقيق أمانيها التى كفلها الميثاق الاطلنطى ، والتى تقاتل الدول الديموقراطية من أجلها وإن الأمة التى قامت بتأكيد بيعتها مستعدة للقيام بما تطلبه البيعة من واجبات » .

وهكذا انعقدت كلمة الليبيين قاطبة فى برقة وطرابلس على الانضواء تحت لواء إمارة السيد محمد إدريس المهدى السنوسى ، تلك الإمارة التى شيد صرحها مؤسس السنوسية الإمام السيد محمد بن على السنوسى الكبير فى الثلث الأول من القرن الماضى واعترفت بها الدولة

العثمانية حقيقة واقعة بعد ذلك ثم أيدت هذا الاعتراف رسمياً منذ أن بدأ النضال المرير ضد الطليان إبان الحرب الليبية الإيطالية ، ولم يجد الطليان أنفسهم مناصا من الاعتراف بها كذلك فى اتفاقاتهم مع السيد محمد إدريس ثم حال دون تنفيذ هذا الاعتراف ما جرى عليه الطليان من عادة نقض العهود والمواثيق . وقد أثبتت الحوادث أن الشعب الليبي قاطبة لا يرضى عن هذه الإمارة السنوسية بديلا حتى يستمتع بحقه فى الحياة الحرة كاملا : شعب واحد وإمارة واحدة ، تضم الأقطار الليبية من حدود مصر شرقا إلى حدود تونس غربا ، ومن شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهاية حدود برقة وفزان جنوبا وينعقد لواؤها للأمير السيد محمد إدريس المهدى السنوسى .

الفصل الثالث عشر

خاتمـــة القول

بين الماضي والمستقبل

كافحت الأمة الليبية طويلا فى سبيل حريتها واستقلالها ، فلم تذعن لسلطان الطليان ، بل شن الليبيون حربا شعواء على أولئك الذين اغتصبوا بلادهم حوالى ثلاثين عاما ضحوا فى أثنائها بالنفس والنفيس ، فاستشهد منهم من استشهد ونفى وشرد عديدون ؛ وبطش الطليان بهم بطشا ، ولكن ذلك لم ينل من قوة إيمانهم شيئا ولم يضعف ثقتهم فى عدالة قضيتهم . بل ظلوا يتربصون بالعدو الفاتك الدوائر حتى دنت ساعة الخلاص عندما بدأت الحرب العالمية الثانية وزجت إيطاليا بنفسها زجا فى أتونها المستعر ، فراحوا يجندون الجيوش وينخرطون فى سلك الفدائيين إلى جانب الديمقراطيات العظيمة كحلفاء صادقين لدولة بريطانيا العظمى فى أحلك أيامها سوادا وأعصبها شدة يبغون التحرر والخلاص من طغيان الطليان وينشدون الحرية والاستقلال ولا يرغبون عنهما بديلا .

وكان بعد أن قرر الليبيون بزعامة السنوسية العتيدة أن يخوضوا غمار الحرب العالمية الثانية بأيام معدودات أن وقع فرانكلين ديلانو روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الراحل والمستر ونستون تشرشل (ميثاق الاطلنطى) فى ١٤ أغسطس ١٩٤١ . فاطمأنت نفوس الليبيين إلى المستقبل ، ذلك بأنهم عقدوا آمالا عظيمة على تلك المبادىء الحرة التى تضمنها ذلك الميثاق ، وهى مبادىء إذا عمل بها فى ميدان السياسة الدولية لاستطاعت الأمم والشعوب الصغيرة والمهيضة الجناح أن تعيش موفورة الكرامة مرفوعة الرأس ، متمتعة بحقوقها كاملة فى الحياة الحرة الطليقة .

وقد تدعمت آمال الليبيين عندما أسفر مؤتمر (دمبارتون أوكس) فى أكتوبر ١٩٤٤ عن تقديم مقترحات معينة لإنشاء هيئة دولية أغراضها المحافظة على السلم والأمن الدوليين وتعزيز السلام العام وإنماء العلاقات الودية بين الأمم وتحقيق التعاون الدولى فى حل المسائل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية على أن تعمل هذه الهيئة الدولية وفق مبادىء عدة لعل أهمها — فى نظر الليبيين — تحقيق مبدأ المساواة فى السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتسوية ما قد ينشأ من خلافات بين الأمم بالوسائل السلمية وامتناع أعضاء

هذه الهيئة عن استعمال القوة فى علاقاتهم الدولية ، وعلى أن تعمل الهيئة على أن تقف الدول غير الأعضاء فيها موقفا يتفق مع هذه المبادىء بالقدر الذى يقتضيه صون السلم والأمن فى العالم .

وما أن لاح فى أفق السياسة الدولية مسعى العرب من أجل إنشاء جامعة الدول العربية حتى شمر الليبيون عن ساعد الجد والعمل حتى تضم الجامعة بين أعضائها ممثلين عن القطر الليبى ، فأعد الأمير السيد محمد ادريس السنوسى تقريرا ضافيا قدمه إلى وزراء خارجية الدول العربية رجاء أن يبحث مؤتمرهم المنعقد فى ١٤ فبراير ١٩٤٥ ما تضمنه هذا التقرير من حجج تسوغ تمثيل الشعب الليبى فى الجامعة العربية ، ثم مؤازرة هذا الشعب فى «أن يكون له حقه الطبيعى فى تقرير مصيره وشخصيته الدولية مثل باقى الشعوب العربية» .

غير أنه لما كانت جامعة الدول العربية تتألف من الدول العربية المستقلة فحسب والتى وقعت على الميثاق ، فقد تعذر قبول ليبيا ضمن أعضاء الجامعة ، ومع ذلك فإنه ما وقعت الدول العربية على ميثاق هذه الجامعة فى ٨ ربيع الثانى ١٣٦٤ ، ٢٢ مارس ١٩٤٥ حتى غدت المسألة الليبية أحد الموضوعات التى استأثرت بقدر عظيم من اهتمام جامعة الدول العربية . واستطاع الليبيون أن يجدوا طريقهم إلى عرض قضية بلادهم على الدول التى يتألف منها مجلس الجامعة العربية ، ولقيت القضية الليبية تأييداً صادقاً من جانب هذه الدول . آية ذلك التصريحات العديدة التى جاءت على لسان أمينها العام والمجاهد العربى الكبير معالى عبد الرحمن عزام باشا .

قال معاليه فى حفلة الشبان المسلمين التى أقيمت لتكريم وفود الجامعة العربية فى يوم ١٢ أبريل ١٩٤٦ . «ولنا جار شقيق عزيز علينا وهو طرابلس الغرب الذى لازالت الجامعة العربية منذ الصيف الماضى تكافح من أجله ويلم المستعمرون شباكهم ليدفعونا عنه . ولكننا سننتصر عليهم بفضل جهود الجامعة وجهاد أهل طرابلس أنفسهم . وبيننا فى هذا الحفل سيد هو نجل المجاهد العظيم السيد المهدى السنوسى الذى أصلى الاستعمار الفرنسى حربا عوانا لا من أجل طرابلس بل من أجل المغرب العربى كله . ولما امتدت أعناق الطامعين من الطليان الى طرابلس قام الشعب العربى فيها بدفاعه المجيد عنها وأبلت الأسرة السنوسية فى محاربة الأجنبى المجتاح بلادها المعروف . والسيد الحاضر هو السيد إدريس السنوسى وارث رسالة ذلك البطل العظيم فى الجهاد . فى لوبيا أباة مغاوير رافق بعضهم صفحات الجهاد الرائع أما البعض الآخر فقد ولد تحت قصف المدافع وصليل السيوف وهؤلاء هم حاملو رسالة طرابلس» .

وقد نشط الليبيون سواء منهم الموجودون بمصر أو المتزعمون للجهاد فى أوطانهم حتى يبينوا للعالم أجمع ولسائر الشعوب العربية على وجه الخصوص عدالة مطالبهم التى أكدوها

مرة بعد أخرى منذ أن تحررت بلادهم من نير الطليان المغتصبين . وكانت وماتزال هذه المطالب ثلاثة : (أولا) حق الامة الليبية فى الحرية والاستقلال ، (ثانيا) وحدة البلاد من حدود مصر إلى حدود تونس والجزائر ، (ثالثا) الانضمام إلى الجامعة العربية .فقدم الليبيون العاملون فى مصر إلى الجامعة العربية فى غضون عام ١٩٤٦ مذكرات وافية وتقارير ضافية بسطوا فيها هذه المطالب الحقة وماتستند اليه من حجج قوية دامغة وحذا حذوهم مواطنوهم المجاهدون فى ليبيا ذاتها .

وجاء فى تقرير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عن الأعمال التى تمت فى المدة بين الدورتين الثالثة والخامسة العاديتين ، وعن الاجراءات التى اتخذت لتنفيذ قرارات المجلس أنه « بناء على تكليف المجلس بقراره الصادر فى دورته الثالثة العادية بتاريخ ١٦ أبريل سنة ١٩٤٦ قامت الأمانة العامة فى قضية طرابلس بإرسال مذكرة إلى وزراء خارجية الدول العظمى فى باريس والدول التى دعيت للاشتراك فى مؤتمر الصلح مع إيطاليا ؛ وقد تضمنت تلك المذكرة رفض الشعب الليبى يظاهره العالم العربى لأية فكرة ترمى إلى تقسيم ليبيا ومعارضة تقرير مصيره دون استفتائه تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية فى شكل الحكومة التى يرتضيها كما تضمنت أن أى ادعاء يصدر من الجانب الايطالى بإعادة أى ارتباط بين ليبيا وبين ايطاليا بإقامة أى نوع من أنواع النظام الحكومى سيقاوم بكافة الوسائل التى تتوفر لدى الشعب الليبى . وقامت الأمانة العامة بمداومة المساعى لتحقيق وحدة واستقلال طرابلس عملا بما نص عليه التكليف الصادر به قرار المجلس المتقدم الذكر » .

وكان نصرا عظيما ولا شك لكل تلك الجهود عندما تفضل عاهل مصر العظيم ومؤيد العروبة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر وصاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور فدعا أصحاب الجلالة والفخامة والسمو ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم لاجتماعهم فى زهراء أنشاص فى يومى ٢٨ ، ٢٩ مايو ١٩٤٦ فلبى الدعوة الملكية الكريمة حضرة صاحب الفخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية وحضرة صاحب الجلالة الملك عبد الله ملك شرق الأردن وحضرة صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبد الله نجل جلالة المرحوم الإمام يحيى ملك اليمن . فقد صدر بيان عن زهراء أنشاص فى يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ (٢٩ مايو ١٩٤٦) كان من بين ما جاء فيه أن أصحاب الجلالة والفخامة والسمو قد « تناولوا بالبحث مسألة طرابلس وبرقة ووجدوا أنفسهم متفقين تمام الاتفاق على أن استقلال هذه البلاد أمر طبيعى وعادل ، وأن حكوماتهم متفقة على ضرورته لأمن مصر والبلاد العربية ، وأن على جامعة الدول العربية التى قضى ميثاقها برعاية شؤون

العرب ومصالحهم أن تهيء الأسباب لهذا الاستقلال وأن تمهده فى بادىء الأمر بالرعاية اللازمة لظهور حكومة عربية فى تلك البلاد ومعاونتها إداريا وماديا حتى تستطيع النهوض بمسئوليتها داخلا وخارجا كعضو من أعضاء جامعة الدول العربية » .

وقد وافق مجلس الجامعة العربية فى دورته الاستثنائية ببلودان على ما جاء فى هذا البيان بشأن قضية ليبيا والعمل على استقلالها وإقامة حكومة عربية فيها كما وافق على أن ترسل الأمانة العامة برقية إلى وزراء خارجية الدول العظمى على أثر ما أذاعته بعض وكالات الأنباء متعلقا باقتراح بريطانى بإرسال وفد من الدول المذكورة لتعرف رغبات أهل ليبيا ، وقد بعثت الأمانة العامة بتلك البرقية بتاريخ ١٠ يونية ١٩٤٦ من بلودان ، وقد جاء فيها « إن كل تحقيق تقوم به الدول العظمى فى هذا الشأن يهم الجامعة العربية التى تعتبر طرابلس وبرقة شعبا من الشعوب العربية كما يقضى عليها ميثاقها أن تنظر شؤونه ومصالحه وتحرص أن تشترك الجامعة العربية فى الهيئة التى أشار اليها الاقتراح البريطانى وتود إذا اتفق على هذا الاقتراح أن تدعى للاشتراك وأن تحاط علما بالإجراءات والمواعيد » . وفضلا عن ذلك فقد بعثت الأمانة العامة على أثر ما تلقته من الشكوى من هجرة الطليان غير المشروعة إلى طرابلس بمذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية وتلقت منها ردا بإنها تتخذ كل ما يمكن لوقف الهجرة المشار اليها وحدث أن انعقد اجتماع وزراء خارجية الدول العربية بمدينة الإسكندرية فى ١٢ أغسطس ١٩٤٦ (للبحث فى مسألة فلسطين) فقرر الوزراء — من بين ما قرروا — أن توفد كل من الدول العربية إلى لندن مندوبين عنها ، وسافر ممثلو دول الجامعة إلى لندن فى شهر سبتمبر ؛ وانتهز معالى الأمين العام عبد الرحمن عزام باشا فرصة وجوده بلندن ، فعنى عناية خاصة بالمشكلة الليبية ، وبذل كثيراً من الجهود لإيضاحها وإظهارها للعالم على حقيقتها وعرضها على مقامات لندن الرسمية وغير الرسمية على وجهها الصحيح .

وفى غضون الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٧ تألفت فى القاهرة (هيئة تحرير ليبيا) فانضم إليها نخبة من أبناء ليبيا المجاهدين برئاسة المجاهد الليبي ومن كبار زعماء النهضة الاستقلالية فى الوطن حضرة صاحب السعادة بشير بك السعداوى . وقد أبدت هذه الهيئة نشاطا عظيما سواء فى القطر المصرى أو فى ليبيا ذاتها ، فعملت على جمع الكلمة وتوحيد الجهود ، وتنوير الرأى العام فى الأقطار الشقيقة ، وبسط القضية الليبية بسطا عادلا جامعا شاملا وانبرت هذه الهيئة تدفع مفتريات الطليان الأخيرة وادعاءاتهم ، « وتشدقهم (على وجه الخصوص) بما أدته إيطاليا لمستعمراتها السابقة من خدمات وما أسبغت عليها من نعم . يحدو إيطاليا إلى ذلك رغبتها » بضرورة تولى هذه المستعمرات من جديد تحت ستار الوصاية » . الأمر الذى

رفضه الليبيون جميعا رفضا باتاقاطعا . إذ قد صمم الشعب الليبي — على حد ما جاء فى بيان هيئة تحرير ليبيا ذاتها « تصميما قاطعا قويا أن يحقق استقلاله التام مهما كلفه هذا من تضحيات، وبذل فى الدماء والبنين والحياة » .

وفى مايو ١٩٤٧ أعدت الهيئة « مذكرة من ممثلى الشعب الليبي إلى وزراء خارجية الدول الكبرى فى شأن استقلال ليبيا » بسطت فيها من جديد مطالب ليبيا القومية ، وهى — كما كانت دائما — مطالب ثلاثة : ليبيا وحدة لا تتجزأ ، ليبيا تطالب بالاستقلال ، وليبيا تريد الانضمام إلى الجامعة العربية . وقد اختتمت الهيئة هذه المذكرة التاريخية بالفقرات التالية : « وتتحصل وجهة نظر أهل ليبيا من ناحية وضعهم السياسى فى أن إيطاليا قد تنازلت فى معاهدة الصلح عن كل حق لها فى بلادهم — وإن كانوا لم يسلموا لها يوما ما بأى حق ما . ولما كانت الدولة العثمانية قد تنازلت من قبل هى الأخرى عن كل حق لها فى بلادهم وذلك فى معاهدة لوزان المعقودة بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ ومعاهدة لوزان التالية فى ٢٤ يولية ١٩٢٣ . فقد تحررت بذلك بلادهم من كل سلطان أجنبي واستعادت سيادتها واستقلالها . وقد أقاموا الدليل فيما تقدم على أهليتهم لإدارة شئون بلادهم وحكم أنفسهم بأنفسهم . غير أن مجلس وزراء الخارجية قد قرر على الرغم من ذلك إيفاد لجنة للبحث والتحرى فى شئون البلاد . ولما كنا قد عهدنا إلى جامعة الدول العربية أن تسعى إلى تحقيق استقلال بلادنا ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، فإن رغبتنا الإجماعية هى أن تشترك هذه الجامعة فى أعمال اللجنة التى توفد إلى البلاد . هذه رغبتنا نعلنها إليكم مرة أخرى ، ونطلب إليكم العمل على إنفاذها تطبيقا لنصوص ميثاق الأمم المتحدة . بل إنا نعلن إليكم فوق ذلك على ما سبق لنا القول إننا قررنا عدم الاعتراف بأعمال أية لجنة لا تشترك فيها جامعة الدول العربية » . بيد أن هيئة تحرير ليبيا سرعان ما وجدت لزاما عليها أن تعالج الموقف بما كانت تقتضيه خطورته من حكمة وعزم عند ما أوفد مجلس نواب وزراء الخارجية (لجنة تحقيق الرباعية) من مندوبى المملكة المتحدة — انجلترة — والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وفرنسا لفحص أحوال المستعمرات الإيطالية السابقة والوقوف على رغبات أهلها قبل البت فى مصيرهم فشدت هيئة تحرير ليبيا رحالها إلى أرض الوطن فى فبراير ١٩٤٨ .

حقق الله آمال الأمة الليبية المجاهدة وبوأها مركزها اللائق بأبنائها البواسل بين مجموعة الدول المستقلة والأمم الحرة الناهضة الطليقة .

(يونية ١٩٤٨)

مصادر البحث

(ا) روايات المعاصرين :

الليبيين

(سمو الأمير) السيد محمد إدريس السنوسى
السيد محمد الرضا السنوسى
السيد محمد صفى الدين السنوسى
السيد محمد الصديق السنوسى
(سعادة) بشير بك السعداوى
يوسف بك الق
عمر فائق شنيب بك
الدكتور على نور الدين العنيزى
الأستاذ على أسعد الجربى

المصريين

(معالى) عبد الرحمن عزام باشا
(معالى) محمد صالح حرب باشا
(المرحوم) عبد الستار الباسل بك

(ب) مراجع عربية وتركية :

١ — ابن غلبون الطرابلسى (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون)
تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار القاهرة — ١٣٤٩
٢ — أبو القاسم سعيد يحيى البارونى
٣ — زعيم المجاهدين الطرابلسيين سليمان باشا البارونى — القاهرة ١٣٦٠
أحمد بك النائب الأنصارى الطرابلسى أحد أعضاء مجلس (شهر أمانت) الجليلة بدار السعادة
كتاب المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب — استانبول ١٣١٧
٤ — أحمد حسنين (باشا) فى صحراء ليبيا
٥ — السيد أحمد الشريف السنوسى — الكوكب الزاهر فى سماء مجلى الظلام الماكر (مخطوط)
٦ — أحمد محمود (طاهر أحمد الزاوى)
عمر المختار — الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطنى فى طرابلس الغرب — القاهرة ١٣٥٢
٧ — الجبهة الوطنية المتحدة
مذكرة عن الحكم الإيطالى فى ليبيا وطلبات للمستقبل — طرابلس ١٩٤٦
٨ — اللجنة الطرابلسية بمصر
من الأمة الطرابلسية إلى العالم الاسلامى — الأمة الطرابلسية تستغيث من فظائع الايطاليين
(بدون تاريخ)

٩ — الكتاب الأخضر — الحدود الغربية لمصر — الاتفاق الايطالى المصرى المؤرخ ٦ ديسمبر ١٩٢٥ (وثائق خاصة . المملكة المصرية . وزارة الخارجية رقم ١ — ١٩٢٦) القاهرة ١٩٢٦
١٠ — المهاجرون الطرابلسيون فى القطر المصرى
فجيعة العرب فى طرابلس — الاسكندرية ١٩٣٩
١١ — أمين سعيد
الدولة العربية المتحدة — الجزء الثالث — تاريخ اليقظة القومية عند العرب وبرنامج لإنشاء الدولة العربية المتحدة — القاهرة ١٩٣٨
١٢ — بشير السعداوى بك
فظائع الاستعمار الإيطالى الفاشيستى فى طرابلس — برقة (بدون تاريخ)
١٣ — بيان من الجمعية الطرابلسية بالقطر المصرى عن الحكم الايطالى فى طرابلس الغرب مقدم إلى ملوك العرب وأمرائهم ورؤساء الحكومات والأحزاب السياسية ... الخ — مصر ١٩٣٨
١٤ — تحسين العسكرى بك
مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية (مجلة فتى النيل) القاهرة ١٩٤٥
١٥ — توفيق نورى البرقاوى
البطش والكرب فى برقة وطرابلس الغرب — مطبعة الفرات ١٩٤٢
١٦ — حلمى — شهبندر زاده فلبه لى أحمد
تاريخ إسلام (جزءان) استانبول ١٣٢٦ — ١٣٢٧
١٧ — خالد (مختار)
طرابلس غرب ولايتى پانوراماسى — استانبول ١٣٢٧
١٨ — سليم قبعين
تاريخ الحرب العثمانية الايطالية — الجزء الأول انتصار العرب فى درنة — مصر ١٩١٢
١٩ — سنوسيلر — وأون أوچونجى عصراك اك بيوك متفكر اسلاميسى السيد محمد السنوسى. استانبول ١٣٢٥ .
٢٠ — شكيب أرسلان — فظائع الطليان فى طرابلس الغرب (بدون تاريخ)
٢١ — عبد الحميد محمود الطرابلسى (الشيخ)
نبذة من أعمال إيطاليا فى طرابلس الغرب (بدون تاريخ)
٢٢ — عجاج نويهض
حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى (ترجمة) وفيه فصول وتعليقات الخ بقلم الأمير شكيب أرسلان — القاهرة ١٣٥٢
٢٣ — عمر فائق شنيب
الحقيقة والتاريخ — ليبيا مهد البطولة وعرين الأسود ليست سلعة للمساومة — القاهرة ١٩٤٦
٢٤ — محمد ابراهيم لطفى المصرى (اليوزباشى) — تاريخ حرب طرابلس — بنها ١٩٤٦
٢٥ — م . أسعد الحكيم — ليبيا الحديثة — دمشق ١٩٣٩
٢٦ — محمد الأخضر العيساوى (الشيخ) — رفع الستار عما جاء فى كتاب عمر المختار — القاهرة ١٩٣٦
٢٧ — محمد بن على السنوسى الخطابى (مولانا الأستاذ السيد)

كتاب المسائل العشر المسمى بغية القاصد فى خلاصة المراصد ، وبهامشه كتاب السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين — طبعه حفيد المؤلف السيد محمد إدريس المهدى السنوسى — القاهرة ١٣٥٣

٢٨ — محمد بن على السنوسى الخطابى — (الاستاذ الشيخ سيدى ؟)
كتاب ايقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن — طبعه حفيد المؤلف السيد محمد ادريس المهدى السنوسى — القاهرة ١٣٥٧ — ١٩٣٨

٢٩ — محمد بن على السنوسى الخطابى — (مولانا الاستاذ السيد)الدرر السنية فى أخبار السلالة الأدريسية — طبعه حفيد المؤلف السيد محمد اريس المهدى السنوسى — القاهرة ١٣٤٩

٣٠ — محمد حلمى — (ابن عبد المعطى صالح) كتاب المذكرات الحلمية عن الحرب الطرابلسية بقلم .... المتطوع بالجيش العثمانى فى الحرب الايطالية الطرابلسية سنة ١٩١١ — النيا ١٣٣٠ .

٣١ — محمد على الحداد — حاضر طرابلس الغرب (الجزء الأول) — بغداد ١٩٣٧

٣٢ — محمد على الشامى
صفحات مدونة من فظائع الطليان فى طرابلس الغرب وبرقة ١٩٣١ — (كتاب طرابلس الغرب فى براثن الاستعمار الايطالى — صحائف سود) — بدون تاريخ

٣٣ — محمد محمد على الطرابلسى
كتاب فظائع الكتلة الطرابلسية وجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى لدك حصون الدعاية الايطالية الفاشستية — مصر — بدون تاريخ

٣٤ — منشورات جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى
الذكرى السابعة والعشرون لاحتلال ايطاليا طرابلس — برقة (تشرين الأول ١٩١١) الجالية الطرابلسية البرقاوية — بدون تاريخ . (١٩٣٨ ؟)

(حـ) مراجع افرنجية :

1—Abbott, G F. The Holy War in Tripoli. London 1912.

2—Adolfo Sommerfeld. La Guerra Italio-Turca e le sue consguenze (Trad. di Mario Mariani). Berlin 1912.

3—Barclay, Sir Thomas. The Turco-Italian War And Its Problems, with Appendices etc. London 1912.

4—Bennett, E.N. With the Turks in Tripoli-Being some Experiences in the Turcò-Italian War of 1911. London 1912.

5—Cachia. A.J. Libya Under the Second Ottoman Occupation 1835-1911. Tripoli 1945.

6—Charles Féraud, L. Annales Tripolitaines. Paris 1927.

7—Chekib Arslan (L'Emir) - (1) Les Plaintes des Musulmans de Libye- (2) Les Juifs se rappellent maintenant que les Arabes ont souffert en Libye. (La Nation Arabe-Revue mensuelle Nos 20—21—VIII e Année) Geneve 1938.

8—Duveyrier. H. La Conferérie Muslumanne de Sidi Mohammed Ben Ali Es Senoûsi. Paris 1886.

9—Federzoni, L. Venti Mesi di Azione Coloniale. Roma.

10—Fidel, C. Revue des questions Coloniale et Maritime. Paris 1922.

11—Fidel, C. La Condamnation du tribunal militaire de Zâvia. Paris 1927.

12—Forbes, Rosita (Lady). The Secret of the Sahara-Kufara. London 1921.

13—Gabelli, Ottone. La Tripolitania Della Fine Della Guerra Mondiale All' Aventodel Fascismo (2 vol.) Roma 1932.

14—Girard, B. La Tripolitaine ou Régence de Tripoli. (1899).

15—Graziani. R. Verso il Fezzan. Tripoli 1930.
16—Graziani. Cirenaica Pacificata. Milano. 1932.
17—Hassanin, Ahmed. The Lost Oases. London 1925
18—Hodson. J.L. War in the Sun. London 1942.
19—Homo. L. Experiences africaines d'autrefois et d'aujourd'hui. Paris 1914
20—Jean Despois. La Colonisation Italienne En Libye-Problêmes et methodes. Paris 1935.
21—Jean Despois. Le Djebl Nefouse (Tripolitaine) Etude Géographique. Paris 1935.
21A—Kennedy Shaw, W.B. Long Range Desert Group. London 1942.
22—Knud Holmboe. Desert Encounter—(Through Italian Africa) London 1941.
23—La Libia in venti anni di occupazione Italiana(La Ressegna Italiana). 1932.
24—Lapworth, Ch. Libya and the New Italy. London 1912.
25—Le Front National Uni-Memorandum sur la Libye sous le Gouvernement Italien et demandes pour l'avenir. Tripoli 1946.
26. Maugini. A. Tripolitania e Cirenaica di fronte al problema della colonizione. Atti. III.
27—Mezzetti, Ottorino. Guerra in Libia-Recordi ed Isperienze (1933).
28—Miller, F.T. History of World War II. Tronto 1945.
29—Mohammed Ben Otsmane El-Hachaichi. Voyage au Pays Des Senoussia. (Trad. par V. Serres, et Lasram) Paris 1912.
30—N N. Zauie ed Ichuan Senussite della Tripolitania (1917)
31—(Piccioli). La Nouva Italia d'Oltremare. (2 vols). Milano 1934.
32—Rapex, R. L'Affermazione della sovranità italiana in Tripolitania (1937).
33—Rinn, L. Marabouts Et Khouan. Etude sur l'Islam en Algerie avec une carte indiquant la marche, la situation et l'importance des ordres religieux Musulmans. Alger 1884.
34—Rodd. F.R. The People of the Viel. London.
35—Savarese, E. Le terre della Cirenaica secondo la legislazione fondiaria ottomana e le conseutudini della Tribù. 2 vol. Bengasi 1926-1927.
36—Schenfield, H.J. Libya. (Islam To Day. Edited by A.J. Arberry and Rom Landau.) London 1943
37—Serra, F. Italia E Senussia. (Vent' anni di Azione Coloniale in Cirenaica) 1933.
38—St. Gsell. Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. Paris 1913—1927.
39—Teruzzi, J. Cirenaica Verde. Due Anni Di Governo Dicembre 1926 — Gennaio 1929. Con Prefazi one Di Benito Mussolini. (1931)
40—Tomaso Sillani. La Libia In venti Anni Di Occupazione Italiana. Etudi E Decumenti. Roma 1932.
41—Volpi, Comte Guiseppe. La Rinascita della Tripolitania. Milano 1926
42—War Office-British Military Administration of Occupied Territories in Africa during the Years 1941-1943. etc. London 1945.

(ى) الصحف والمجلات :

الإخوان المسلمون
الأهرام
الشورى
العدل (استانبول ١٣٣١)
الفتح (القاهرة ١٣٥٥)
المصري
المقطم
المنتدى (الفلسطينية)
برقة الرياضية
جريدة البلاد (البغدادية ١٣٥٥)
جريدة بنغازى
فتى النيل
ليبيا المصورة
مجلة عمر المختار

The Egyptian Gazette
The Egyptian Mail

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

١ — خطاب ابراهيم درويش باشا ياور أكرم حضرة السلطان (عبد الحميد) إلى السيد محمد المهدى السنوسى فى ١٨ جماد أول ١٣١٣ و٣ نوفمبر ١٨٩٥ .

(أنظر صفحة ٨٥) .

يلدز سراى همايونى

باشكتابت دائرەسى

باسمه سبحانه إلى حضرة العالم الفاضل والاستاذ الكامل السيد الشيخ محمد مهدي افندي السنوسي المحترم ادام التوفيق قرين النعم آمين

قد وصل من طرفكم إلى هذا الباب جناب حكم عبد العزيز افندي ومعه الأحزاب المباركة التي اهديتموها لسيدنا حضرة أمير المؤمنين وخليفة

سيد المرسلين وحامي الشرع الانور المبين ايده الله ونصره الله واعلى مراده كلمة الله في بلاد الله آمين وقد رفعت إلى المعروض العالي الهمايوني

الملوكي فكما هو واجب تقديمها كالمحفوظة من لدن الحضرة السنية وذكرها في الأوقات المباركة والساعات الفاضلة لا زالت تتلى بالصدور على الوجه

المأثور ولكونكم ممن استعمله الله تعالى لنشر الطريقة وتعليم احكام الشريعة واشكم ممن يعلم حق الخلافة الكبرى وشأن الامامة الاسلامية العظمى

وحيثيات الخلافة المنصورة العثمانية والامامة المقدسة الإسلامية قد اثبت الله منذ ماية من السنين في البيت العالي العثماني وجودها وحقق

جمهورها وقد افترض الله نصره هذه الخلافة الموقع العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في الباطن والظاهر سيما في مثل هذه [illegible]

فان الاغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين من جميع الأقطار يتحزبون ويتولون في السر والعلن مخصوصة للسعي على هدم

منار الخلافة العثمانية الاسلامية (ويأبى الله الا ان يتم نوره) وحتى من المسموع ان جماعة من الانكليز والايتاليان وغيرهم قد توجهوا الى طرفكم

بطريق السياحة وانهم يتعلقون بالمؤسسة وقرائن الاحوال ما في انفسهم وما يخالج سرائرهم من المقاصد الفاسدة للدين والمسلمين وان ما يؤمل

منكم وان كان لم يكن المفروض كما هو معلوم لدى حضرتكم ان تنوروا اذهان محبيكم ومن يواليكم من الطلبة والتلامذة قرباً وبعداً في جميع الاقطار

التي تسمع بها كلماتكم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الاخلاص للخلافة المقدسة العثمانية والامامة الكبرى الاسلامية (التي لا سمح الله ولا قدر)

بوقوع الاعداء والملاحدة فيها ان بهم لا ينهدم شرف الدين المبين وتتفرق شيعاً جماعات المسلمين وتصادر الامة فرقاً فرقاً وتتمزق [illegible]

وهذا والعياذ بالله يكون ولا تكاد يوجد على وجه الارض بالطول والعرض بل هو مما يخرب شأن الشريعة ويجعلها بعد العز وضيعة وذلك

مما يحزن القلب الاطهر الاقدس النبوي في الضريح الانور المصطفوي ويحل بنا الخلافة المقدسة في كل عصر وزمن ان اشكالكم من العلماء الذين

يخشون الله ويكونون برسول الله صلى الله عليه وسلم والامام يصدقكم ودينكم وهمتكم ان تنفروا من الاعداء وان تربطوا قلوب الاوداء

بمقام الخلافة السعيدة ربطاً صالحاً شرعياً يتبع ذلك خالصاً وحبياً كان امل سيدنا ومولانا خليفة المصطفى الاعظم صلى الله عليه وسلم السلطان

الاعظم ايده الله وسلم بقصد رحمتكم وكمال ديانتكم وفوق هذا على ان المقصد العالي هو [illegible] المسلمين كما امر رب العالمين وما الغاية من هذا كله

[illegible] حفظ الممالك المحروسة الاسلامية العثمانية من التجاوزات الغير المشروعة من اولي الاطماع السيئة والسلامة والامن في الممالك [illegible] حضرة سيدنا الخليفة المعظم وسلامة وحفظ

الى المدافعة عن الحقوق الدينية [illegible] والتلاوة عامة [illegible] وقد استودع لتابعكم نسخة من طرفكم خاصة وسيرسل

الردية واعلامكم بكل ذلك ولقد الله عنا من طرفكم خاصة ومن جملة المحبين [illegible] صحيح البخاري الشريف [illegible]

في زاوية [illegible] قد طبع سيدنا ايده الله كتاب [illegible] رفع قصته [illegible] حاجة للجناب العالي الملوكاني في تربيتكم [illegible]

ان شاء الله منه عشرة او نسخ اخر لتعطى من طرفكم لمن يريد الهبة [illegible] والمقصود [illegible] كما هي عادتكم على صالح الاوقات

بالبريد رأساً الى مقام الكتابة الجليلة او بواسطة رسول من طرفكم [illegible] مع وجيز السلام عليكم

[illegible] مع القلوب المباركين والاوداد والمحبين [illegible] والرجو دعاكم ودام بقاكم آمين

سيدنا الخليفة نصره الله [illegible] سيدنا ومولانا حضرة امير المؤمنين [illegible]

وبيان المخطوطة السنية [illegible] ان اكثرهم على جهل وغباوة ويرغبون بالخرز وشبه من الاشياء [illegible] والاغنياء

وبين لحضرتكم ان من المسموع ان بعض الرهبان [illegible] بان السودان [illegible] ترجمة الانجيل وغيره من كتبهم بالعربية [illegible]

منهم يأخذون منها الكتب ويذهبون الى ديار السودان [illegible] الاسلام [illegible] والعياذ بالله [illegible]

من الخرز [illegible] من اهم المهمات الدينية [illegible] في الاوقات [illegible]

[illegible] الاهتمام بهذا الشأن بواسطة العلماء والصلحاء [illegible] من جملة توجهات السنية الخليفة

الديني [illegible] لامور الاسلامية وقد رأى سيدنا حفظه الله ان يرسل اليكم [illegible] بالرفاقة عبد العزيز افندي

[illegible] دعوتكم [illegible] العالي [illegible] الى الحضرة الملوكانية [illegible]

المعظم التي هي [illegible] في حقكم [illegible]

المومى اليه ودام بقاكم آمين في ٢ ربيع الآخر سنة ١٣١٣

سر كاتب [illegible]

٢ — خطاب باشكاتب سراى يلدز السلطانية إلى السيد محمد المهدى السنوسى فى ٢ ربيع الآخر ١٣١٣ و ٢٢ سبتمبر ١٨٩٥ .

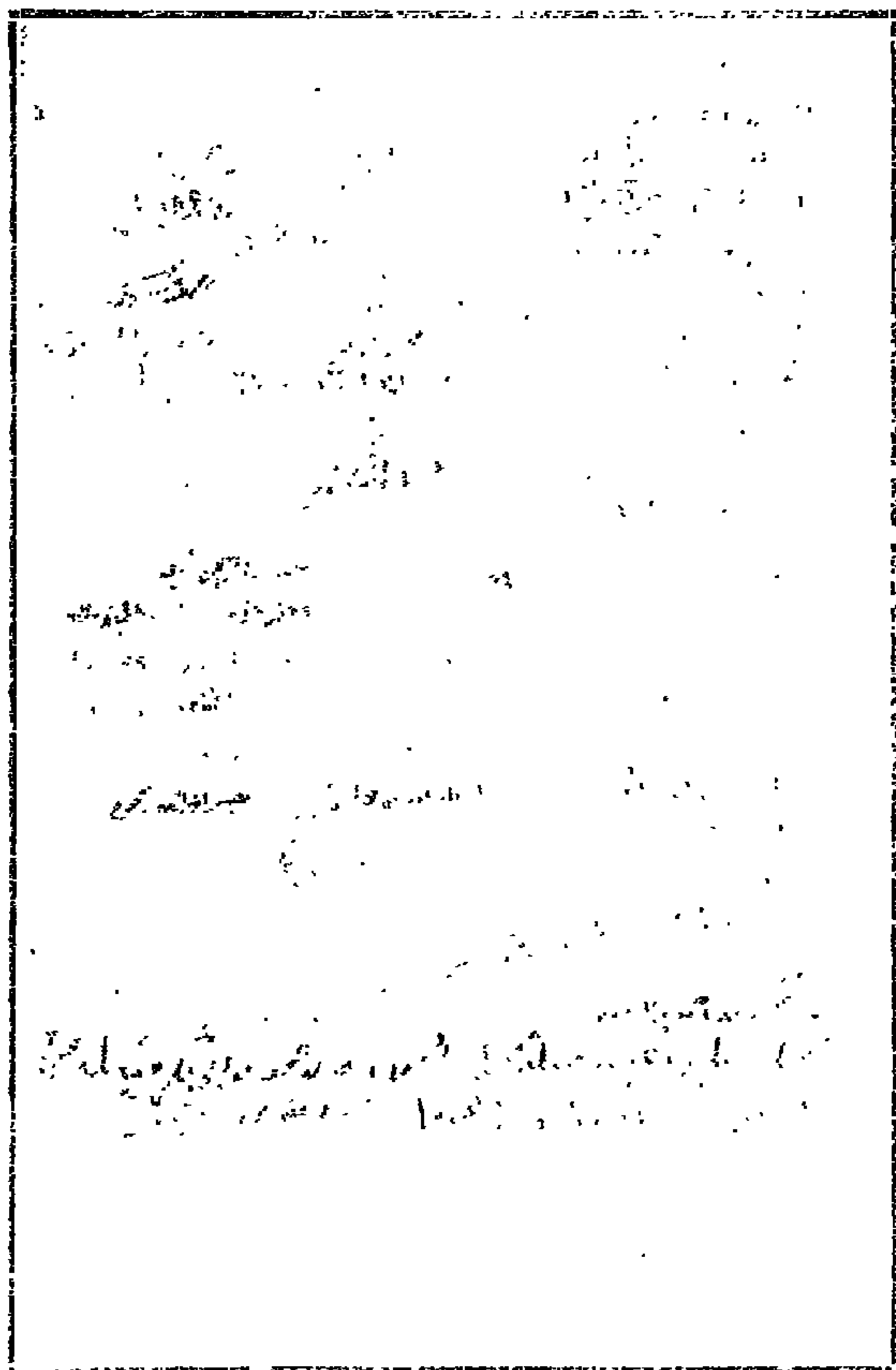
[أنظر صفحة ٨٦]

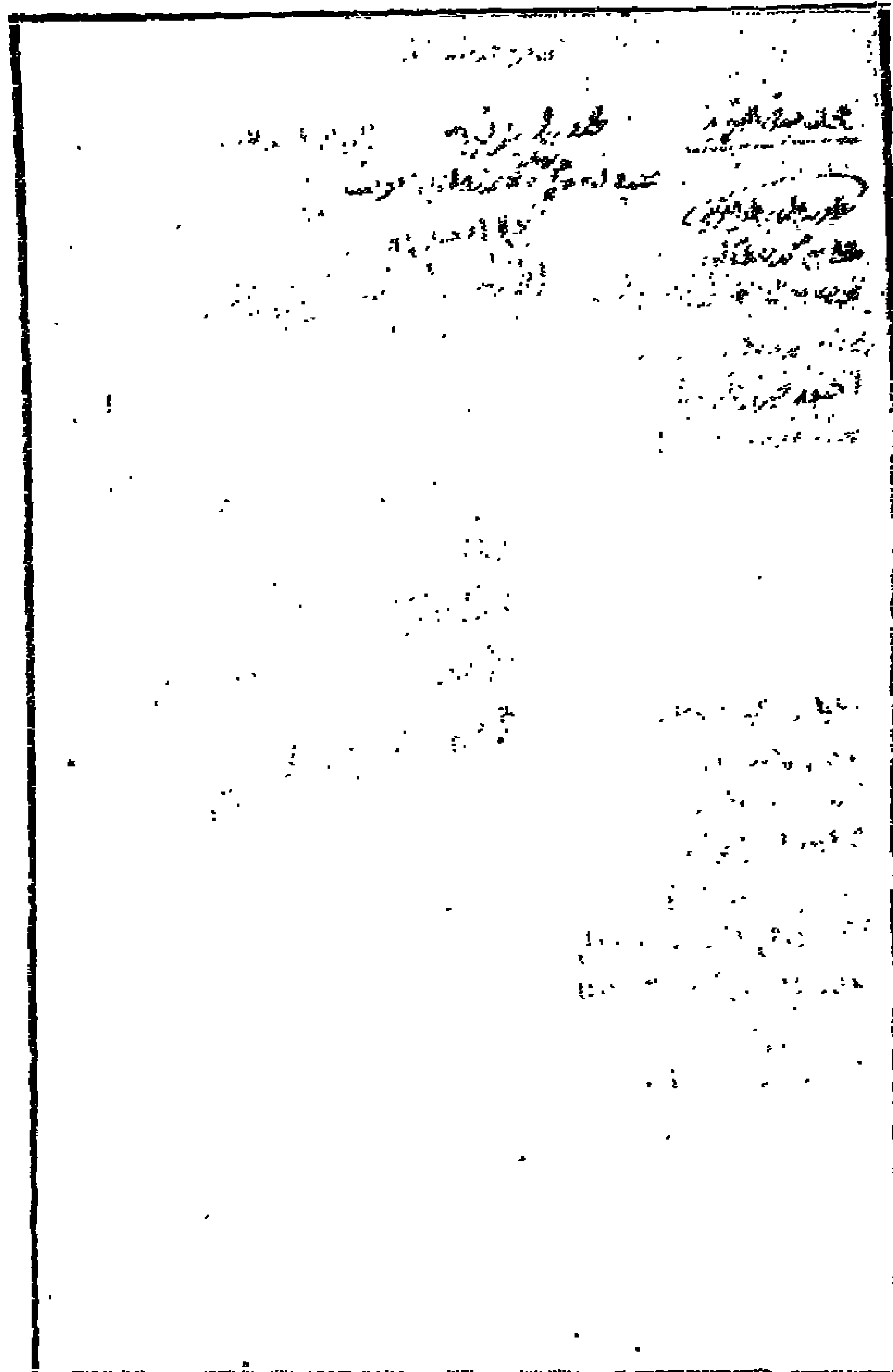
ب — تفويض البرقاويين والطرابلسيين المهاجرين بالديار المصرية والصادر إلى سمو السيد محمد إدريس بمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

٤ — الطرابلسيون يجددون بيعة غريان بالامارة على القطر الليبي لسمو السيد محمد إدريس السنوسي ؛ فى ٢٨ رمضان ١٣٦٣ و ١٦ سبتمبر ١٩٤٤

(أنظر صفحة ٤٠٦)





[illegible]

[illegible]

محمد بن [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الحاج [illegible] الشرقي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

محمد بن محمد [illegible]

[illegible]

محمد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مطبعة الاعتماد بمصر





الثمن ٥٠ مـ